بداية الوصول بلبّ صحيح الأمّهات والأصول

جمع
عبد الله عبد القادر التّليدي
عفا الله تعالى عنه

المجلد الحادي عشر

ويشتمل على الآداب والأخلاق،
والبر والصّلة والزهد والرّقائق

دار ابن حزم



الطَبعَة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-974-7



دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com



كتاب الأدب والأخلاق

الحمد لله الكبير المتعال صاحب الفضل والإحسان، خلق خلقه فجعل منهم الكافر والمؤمن، والصالح والطالح، واختار من عباده أقواماً فضلهم على من سواهم بمكارم الأخلاق، ونزّههم عن المساوىء وهنات الأمور، نحمده ونشكره على آلائه المتوالية ليل نهار دائماً أبداً سرمداً، حمداً طيباً مباركاً فيه، مباركاً عليه كما يحب تعالى ويرضى.

ونصلي ونسلّم على الرحمة المهداة صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد بن عبدالله المطلبي الهاشمي، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، وعلى صحابته الأبرار الميامين ومن تبعهم بإحسان وعنا معهم أبد الآبدين.

وبعد، فهذا قسم الآداب والأخلاق والبر والصلة والاستئذان، وما يتبع ذلك نقدمه لقرائنا الميامين راجياً منهم أن لا ينسوني من دعواتهم الصالحة.

* * *

✻ ما معنى الأدب

الأدب يطلق على أمرين:

الأمر الأول: يُطلق على الأسلوب الفني الجميل المكتسب من تعلُّم الشعر واللغة العربية وأساليبها نثراً وشعراً حتى يكتسب متعاطيه ملكة تمكنه

من الفصاحة في الكلام والكتابة، وتمنعه من الخلل في الكلام العربي لفظاً وكتابة.

ويقال لهذا: علمُ الأدب وصاحبه الأديب.

أما الأمر الثاني: وهو أعلى الأمرين وأحسنهما وأرقاهما فهو تهذيب النفس ورياضتها على التخلّق بالمحاسن والمكارم في كل شيء مع الله ومع كتابه ومع رسوله ﷺ ومع سنّته... وفي جميع تصرفاته وأحواله النهارية والليلية... وفي عباداته، وفي قيامه وقعوده، ونومه ويقظته، وسفره وحضره، وأكله وشربه، ولباسه ومعاشرته أهله... وفي معاملاته مع الآخرين... وهو الذي يعبر عنه بمكارم الأخلاق والتهذيب والتزكية. وقد اتفقت جميع الشرائع والأمم والحكماء على حسنه وفضله ومدحه، وقد اهتم بهذا الجانب أئمتنا وعلماؤنا وأفردوه بالتآليف العديدة وجعلوا له أجنحة خاصة في مؤلفاتهم الجوامع؛ كالبخاري ومسلم مثلاً وأبي داود والترمذي، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه، والدارمي وغيرهم رحمهم الله تعالى عنهم، وجعل الجنة مثواهم.

وذكروا في ذلك أخلاقاً وآداباً تعد بالمئين، منهم المكثر، ومنهم المقل، ومنهم من جمعها في أبواب خاصة، ومنهم من فرقها حسب موضوعاتها كأدب العلم مثلاً وأدب الطهارة وأدب الصلاة وأدب الصيام... وأدب النكاح وأدب الجهاد، وأدب المعاملات.

وهكذا فلا يخلو لهم كتاب ولا باب من الآداب مضافاً إلى ما أفردوه من ذلك.

وسيمر بالقارىء ما يزيد على أربعمائة حديث تتعلق بالأدب والأخلاق، فلنعاهد الله جميعاً على التخلُّق والتأدُّب بها حسب طاقتنا البشرية، والله الهادي إلى طريقه القويم.

* * *

❊ البر والصلة

من فضل البرور بالوالدين

[١] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: سألت النبي ﷺ أيّ العمل أحبُّ إلى الله عزّ وجل؟ قال: **«الصلاةُ على وقتها»**، قلت: ثم أي؟ قال: **«ثم بِر الوالدين»**، قلت: ثم أي؟ قال: **«ثم الجهاد في سبيل الله»**، قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني.

رواه البخاري في المواقيت (١٥٠/١٤٨/٢)، ومسلم في الإيمان (٧٤/٧٣/٢).

في الحديث أن هذه الأعمال هي أحب إلى الله تعالى وأفضلها وأقربها إليه كما في روايتين لمسلم وغيره، وأن الأفضلية والأحبية في ذلك حسب هذا الترتيب: الصلاة على وقتها، وفي رواية: في أول وقتها، ثم البرور بالوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله.

وجاء في رواية لأبي هريرة وأبي ذر رضي الله تعالى عنهما عند مسلم وغيره: سئل رسول الله ﷺ أيّ الأعمال أفضل؟ فذكر الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله.

ولا شك أن الإيمان بالله هو أفضل الأعمال على الإطلاق، ثم بعده الصلاة، فلا أفضل منهما بالإجماع، ثم بعدهما يأتي التفاضل بين البرور وبين الجهاد فيكون البرور أفضل من الجهاد على الإطلاق فإذا تعين الجهاد كان الواجب المقدّم والأفضل.

وعلى أيٍّ، فالبرور بالوالدين من أشرف الأعمال وأحبها إلى الله تعالى وأقربها عنده.

[٢] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: **«رِضا الله في رِضا الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين»**.

رواه الترمذي في البر والصلة (١٧٤٦) بتهذيبي، وابن حبان بالموارد (٢٠٢٦)، والحاكم (١٥٢/١٥١/٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

الحديث يدل على أن رضا الله تابع لرضا الوالدين، وأن سخطه تعالى تابع لسخطهما، ففي الحديث ترغيب عظيم، ووعيد شديد.

[٣] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: إن رجلاً أتاه فقال: إن لي امرأة وإن أمي تأمرني بطلاقها، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئت فأضع ذلك الباب، أو احفظه**»، وربما قال سفيان: إن أمّي، وربما قال: أبي.

رواه أحمد (٤٥١/٤٤٨/٤٤٥/١)، والترمذي (١٧٤٥)، وابن ماجه (٢٠٨٩)، وابن حبان (٣٢٣٠)، والحاكم (١٩٧/٢) و(١٥٢/٤) ورجاله رجال الصحيح، ولذا صححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، وعطاء بن السائب روى عنه ابن عيينة قبل اختلاطه.

وأحسن ما قيل في معنى الحديث: إن البرور بالوالد أو الوالدة سبب لدخول الجنة من أوسط أبوابها، وفيه إشارة إلى طاعة الوالدين في تطليق الزوجة، إذا كان أمرهما ناشئاً عن سبب ديني، أو كان لمصلحة راجحة.

* * *

❊ الوالدان أحق الناس بحسن الصحبة وأن الأم مقدمة على الوالد

[٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله مَن أحقُّ الناس بحُسن صحابتي؟ قال: «**أمك**»، قال: ثم مَن؟ قال: «**ثم أمك**»، قال: ثم مَن؟ قال: «**ثم أمك**»، قال: ثم مَن؟ قال: «**ثم أبوك**» وفي رواية: «**ثم أدناك، أدناك**».

رواه البخاري في الأدب (٦/٤/١٣)، ومسلم في البر والصلة (١٠٣/١٠٢/١٦).

ونحوه عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده. رواه البخاري في الأدب

المفرد (٣)، وأبو داود (٥١٣٩) في الأدب، والترمذي في البر (١٧٤٣)، والحاكم (١٥٠/٤) وصححه ووافقه الذهبي وزاد: «**ثم أباك، ثم الأقرب فالأقرب**».

قوله: «بحسن صحابتي» يقال: صُحْبَتِي، وصَحَابَتِي، وهما بمعنى المصاحبة، والحديثان يدلان على تقديم الأم على الأب في البرور وأنها أحق منه وأولى بالبرور والإحسان. قال العلماء: وسبب تقديمها معاناتها المشاق في سبيله كحمله ووضعه وإرضاعه وتربيته وتمريضه والقيام بجميع شؤونه، وقوله: «ثم الأقرب...» إلخ. يدل على أنه يقدم في البرور بعد الوالدين الأدنى فالأدنى كالأولاد مثلاً، والأجداد، والجدّات، والإخوة، والأخوات، والخالات، والأخوال، ثم سائر المحارم...

[٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحيٌ والداك**» قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**».

رواه البخاري في الأدب (٦/١٣)، ومسلم في البر والصلة (١٠٤/١٠٣/١٦).

وفي رواية لمسلم قال: أقبل رجل إلى نبي الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجر من الله، قال: «**فهل من والديك أحد حي؟**» قال: نعم، بل كلاهما، قال: «**فتبتغي الأجر من الله**» قال: نعم، قال: «**فارجع إلى والديك فأحسِن صحبتهما**».

وفي الحديث وجوب تقديم البرور بالوالدين والقيام بشؤونهما على الجهاد في سبيل الله، وأن الإحسان إليهما والقيام بهما يقوم مقام الجهاد، ولذلك قال ﷺ للرجل: «**ففيهما فجاهد**» أي: ففي الإحسان إليهما والبرور بهما جاهد نفسك، وهذا محمول على ما إذا لم يتعين الجهاد كمداهمة العدو بلاد المسلمين، أو عين للخروج من طرف إمام المسلمين.

[٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «مَن أدرك والديه عند الكِبَر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة».

رواه مسلم في البر (١٦/١٠٨/١٠٩).

قوله: «رغم أنفه» الرغم بضم الراء وفتحها وكسرها أصله لصق أنفه بالرغام، وهو تراب مختلط برمل. ومعناه: ذل وخزي، وفيه الحث على بر الوالدين وعظم ثوابه، وأن برهما أو أحدهما يوجب دخول الجنة، فمن قصر في ذلك فاته دخول الجنة وأرغم الله تعالى أنفه وأخزاه، وقد تقدم نحو حديث الباب مطولاً في الصيام وفي الأذكار.

* * *

❊ إكرام صديق الوالد

[٧] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن أبر البر، أن يصل الرجل ود أبيه».

رواه مسلم في البر (١٦/١٠٩)، والبخاري في الأدب المفرد (٤١)، وأبو داود (٥١٤٣)، والترمذي (١٧٤٩).

قوله: «أبر البر» أي: أفضلُهُ. وقوله: «وُدَّ أبيه» بضم الواو، أي: أصحاب مودته ومحبته. وفيه فضل برور أصدقاء الوالدين ومواصلتهم والإحسان إليهم، وذلك من إكرام الوالدين.

* * *

❊ فضل بر الخالة

[٨] عن ابن عمر أيضاً، أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أصبتُ ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ قال: «هل لك من أم؟»، قال: لا، قال: «هل لك من خالة؟»، قال: نعم، قال: «فبِرَّها».

رواه الترمذي (١٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢٢)، والحاكم (١٥٥/٤) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي.

الحديث يدل على أن البرور بالوالدين وكذا الخالة من مكفرات كبار الذنوب، وقد ذكر العلماء أن البرور من الأعمال التي تكفر الذنوب الكبائر كالتوبة والحج...

* * *

❋ هل يجزي ولد والديه

[٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يجزي ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيُعتقه»**.

رواه مسلم في كتاب العتق، والبخاري في الأدب المفرد (١٠)، وأبو داود (٥١٣٧)، والترمذي في البر (١٧٥٣)، وابن ماجه (٣٦٥٩) وغيرهم.

في الحديث عظم حقوق الوالدين وأن الإنسان لا يستطيع مجازاتهما بحال إلا أن يجدهما مملوكين فيشتريهما فيعتقهما.

[١٠] وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد رقم (١١) عن أبي بردة أنه شهد ابن عمر ورجل يماني يطوف بالبيت حمل أمه وراء ظهره يقول:

إنـي لَـهَـا بَـعِـيـرُهـا الـمُـذلَّـلْ　　إنْ أُذْعِـرَتْ رِكَـابُـهَـا لـم أُذْعَـرْ

ثم قال: يا ابن عمر أتراني جزيتُها؟ قال: لا، ولا بزَفرة واحدة. ثم طاف ابن عمر فأتى للمقام فصلّى ركعتين ثم قال: يا ابن أبي موسى إن كل ركعتين تكفران ما أمامهما.

سنده صحيح.

قوله: «ولا بزفرة» يعني لم تقم بحقها ولو بتردد نَفَس واحد منها عند وضعها بك.

* * *

❋ البرور بالوالدين ولو كانا مشركين غير أنهما لا يطاعان في معصية الله

[١١] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: أُنزلت فيّ أربع آيات، فذكر قصة، وقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر، والله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ﴾.

رواه أحمد (١٥٦٧/١٦١٤)، ومسلم (١٨٥/١٥) في الفضائل، والترمذي (٢٩٨٢) في تفسير العنكبوت.

قوله: «شَجَروا فاها» أي: فتحوا فمها، واقتضت الآية الكريمة مع الحديث الوصية بالوالدين والبرور بهما وطاعتهما ولو كانا كافرين إلا إذا أمرا بمعصية فلا يطاعان، بل يعصيان في ذلك.

[١٢] وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلُ أمي؟ قال: «**نعم، صِلِي أمك**»، قال ابن عيينة: فأنزل الله تعالى فيها: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾.

رواه البخاري في الهبة وفي الأدب (١٣/١٧)، ومسلم في الزكاة.

قولها: «راغبة» أي: جاءت راغبة في صلتي أو في الإسلام.

والحديث يدل على جواز صلة الأم الكافرة والإحسان إليها، وذلك لما لها من حقوق على ولدها. لأنها مع الوالد كانا سببين في إيجاده، ولذلك أوصى الله عزّ وجل بهما وأمر بالإحسان إليهما والبرور بهما، وقرن ذلك بالأمر بعبادته والنهي عن الشرك به كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وقوله عزّ وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ﴾ وقوله جل ثناؤه:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾، ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ إلى غير ذلك من الوصايا بهما والإحسان إليهما.

* * *

تحريم عقوق الوالدين وعظم ذلك وانه من أكبر كبائر الذنوب

[١٣] عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» وجلس وكان متكئاً: «ألا وقول الزور» ما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٣/١٦)، ومسلم في الإيمان (٣/٨١).

[١٤] ونحوه عن أنس، وزاد فيه: «وقتل النفس».

رواه مسلم (٣/٨٣).

في الحديثين أن ما ذكر فيهما هي من أكبر كبائر المعاصي ولا خلاف في ذلك بين أهل العلم، وقد ذكر فيها عقوق الوالدين والإساءة إليهما وعدم البرور بهما، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾، فأقل العقوق التأفف منهما فكيف بسبهما أو ضربهما. . . كما هو شائع اليوم في مجتمعنا الموبوء.

[١٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: «**إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه**»، قيل: يا رسول الله وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «**يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه**».

رواه البخاري في الأدب (٧/١٣)، ومسلم في الإيمان (٨٣/٢) واللفظ للأول.

ولفظ مسلم: «**يشتم الرجل...**» **إلخ**.

رواه أبو داود (٥١٤١)، والترمذي (١٧٤٨)، فيه أن سَبَّ الوالدين من أكبر الكبائر سواء كان من الولد مباشرة أو بسببه، كما إذا وقع تبادل الشتائم مع الغير فإن ذلك يعتبر شتماً منه لوالديه.

* * *

استجابة دعاء البار بوالديه

[١٦] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «**بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها لله صالحة فادعوا الله بها لعله يفرجها.**

فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صِبْيَةٌ صغارٌ، كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبتُ بدأت بوالديَّ أسقيهما قبل ولدي، وإنه نأى به الشجر، فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمت عند رؤوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدميّ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فُرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فُرجة حتى يرون منها السماء.

وقال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال

النساء، فطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتقِ الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه فقمت عنها، اللهم فإن كنت تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها، ففرج لهم فرجة.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً وراعيها فجاءني فقال: اتقِ الله ولا تظلمني واعطني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر وراعيها، فقال: اتقِ الله ولا تهزأ بي، فقلت: إني لا أهزأ بك فخذ تلك البقر وراعيها، فأخذه فانطلق، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج ما بقي، ففرج الله عنهم».

رواه البخاري في البيوع (٢٢١٥)، وفي الإجارة (٢٢٧٢)، وفي المزارعة (٢٣٣٣)، وفي أحاديث الأنبياء (٣٤٦٥)، وفي كتاب الأدب (٥٩٧٤) (ج١٣/٧/٨)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب فضل أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال (ج١٧/٥٥/٥٨) مع النووي.

الغار: النقب في الجبل. وقوله: «نأى» أي: بعد. و«الحلاب» بكسر الحاء: اللبن المحلوب. وقوله: «والصبية يتضاغون» أي: يصيحون ويستغيثون من الجوع. وقوله: «الخاتم» عبرت بذلك عن بكارتها. وقوله: «بحقه» أي: بنكاح صحيح لا بزنا. وقوله: «لا أغبُق» بفتح الهمزة وضم الباء، والغبوق شرب العشاء، كما أن الصبوح شرب أول النهار.

وفي الحديث مشروعية التوسل بالأعمال الصالحة الخالصة، وفيه فضل بر الوالدين وفضل خدمتهما وإيثارهما على سواهما من الزوجة والأولاد... وفيه فضل العفاف عن المحرمات والانكفاف عن الزنا مع القدرة عليه، وأن يترك ذلك لله عزّ وجل خوفاً منه. وفيه فضل أداء الأمانة والسماحة في المعاملة، وفيه إثبات الكرامات وهو مذهب أهل الحق.

***

❊ استجابة دعوة الوالدين

[١٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالدين على ولدهما»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٢)، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٦)، والترمذي في البر والصلة (١٧٥٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٨٦٢) ورجاله رجال الصحيح، غير أبي جعفر المؤذن فمقبول وله شاهد يحسن به.

رواه أحمد (١٥٤/٤) عن عقبة بن عامر.

وفي الحديث بيان أن دعاء الوالد وكذا الوالدة على الولد مستجاب فليحذر المسلم تعرضه لعقوق والديه فيدعوان عليه بدعوة تجتاح حياته.

❊ ❊ ❊

❊ رحمة الأولاد والإحسان إلى البنات

[١٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي عليهما السلام وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلتُ منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: **«مَن لا يَرحم لا يُرحم»**.

رواه البخاري في الأدب (٣٥/١٣)، ومسلم في فضائل النبي ﷺ (٧٧/٧٦/١٥)، والترمذي (١٧٥٨) وعنده: إن لي من الولد عشرة ما قبّلتُ أحداً منهم.

[١٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكنا

والله ما نقبّل، فقال رسول الله ﷺ: **«وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة»**.

رواه البخاري ومسلم في المصدرين السابقين.

وفي الحديثين مشروعية تقبيل الصبيان ورحمتهم والشفقة عليهم، وأن ذلك من جملة الرحمة التي جعلها الله تعالى في قلوب عباده الرحماء، وفيهما إشارة إلى أن تقبيلهم كالمحارم إنما هو للشفقة والرحمة لا للذة والشهوة.

وفي الحديثين أيضاً، ذم القسوة وأن من لا يرحم العباد وخاصة الأطفال والمؤمنين لا يرحمه الله تعالى ويأتي بقية لهذا في الرقاق.

[٢٠] وعن عائشة أيضاً قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتُها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها، فشقّت التمرة التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرتُ الذي صنعتْ لرسول الله ﷺ فقال: **«إن الله قد أوجب لها بها الجنة»** أو **«أعتقها بها من النار»** وفي رواية: **«مَن ابتُلِيَ من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن، كُنَّ له سِتراً من النار»**.

رواه البخاري في الأدب (٣٣/١٣)، ومسلم في البر والصلة (١٧٩/١٦) بالروايتين.

[٢١] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو وضمّ أصابعه»**.

رواه مسلم (١٨٠/١٦)، والترمذي (١٧٦٢) كلاهما في البر والصلة.

قولها: «ثلاث تمرات» في رواية «تمرة» فقسمتها بين ابنتيها... فيحتمل تعدد القصة. قوله: «مَن ابتلي» معناه: مَن امتحنه الله بوجودهن وما يصدر منهن فصبر على ذلك. وقوله: «فأحسن إليهن» هذا يشمل كل أنواع الإحسان، ولذا جاء في رواية عند ابن ماجه: **«وأطعمهن وسقاهن وكساهن»**، وفي رواية عند الطبراني: **«فأنفق عليهن وزوّجهن وأحسن**

أدبهن»، وفي أخرى عند أحمد ومفرد البخاري: **«يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن»**، وفي رواية عند الترمذي: **«فأحسن صحبتهن واتقى الله فيهن»**.

وهذه الروايات جاءت عن جماعة من الصحابة، وهي كما ترى فيها الوصاية بالبنات والحض على الإحسان إليهن وتقوى الله فيهن والصبر على ما يصدر منهن حتى يتزوجن، وأن دخول الجنة والستر من النار مشروط بالإحسان إليهن والصبر عليهن.

وإنما جاء هذا الحض والثواب على ما ذكر لإبطال ما كان سائداً في الجاهلية من بغض البنات وكراهيتهن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

وعلى أيٍّ، ففي الحديثين بشارة عظيمة لمن ابتلاه الله بالبنات فأدبهن وأحسن إليهن وصبر على ما يصدر منهن حتى يزوجهن، وأن جزاءه الستر من النار وأنه سيحظى بالكون مع رسول الله ﷺ في الجنان، ويا لها من بشارة.

* * *

صلة الرحم

فضل ذلك

[٢٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن سرَّه»**، وفي رواية: **«مَن أحبَّ أن يبسط له في رزقه أو يُنسأ له في أجله فليصِل رحمه»**.

رواه البخاري في الأدب (٢٠/١٣)، ومسلم في البر والصلة (١١٤/١٦).

[٢٣] ومثله عندهما عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، وقد ذكر العيني آثاراً كثيرة في فضل صلة الرحم فانظرها في عمدة القاري (ج٢٢/٩٢) وذكر بعضها أيضاً الحافظ في الفتح (٢٠/١٣).

«يُنسأ»: بضم الياء وفتح السين، أي: يؤخر. وبسط الرزق: توسيعه وتكثيره.

وفي الحديثين فضل صلة الرحم وأن ذلك يوجب التوسُّع في الرزق والزيادة في الأجل، وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في توجيههم لمعنى ذلك مع الاتفاق والإجماع القاطع على أن الله عزّ وجل قدّر الأرزاق والآجال... فلا يزاد فيها ولا ينقص منها.

وقد أجابوا عن ذلك بأجوبة ذكر النووي، ثم الحافظ منها جوابين:

أحدهما: أن هذه الزيادة تكون بالبركة في الرزق والعمر والتوفيق للطاعات وعمارة الأوقات بما ينفع في الآخرة، وأن الواصل يدرك من أنواع القربات وجزيل الأجر في عشرين سنة مثلاً مما لا يدركه غيره في ستين سنة، وكذا يقال في الرزق، فقد تقع للواصل البركة في مائة درهم مثلاً فتكفيه في يومه وليلته مع عائلته ولا يكفي غيره من أمثاله ذلك...

الجواب الثاني: أن الزيادة على حقيقتها وذلك بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة، وفي اللوح المحفوظ... فيظهر في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون، وقد علم الله سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك وهو من معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ فهي بالنسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره لا زيادة بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة.. وهكذا يقال في زيادة الرزق. وهذا أظهرُ ما قيل في ذلك، والله تعالى أعلم.

* * *

❋ وجوب صلة الرحم وتحريم قطعها

[٢٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرّحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم أما ترضين أن أصِل من وصلك وأقطع من قطعك؟**

قالت: بلى، قال: فذاك لكِ» ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرأوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾».

رواه البخاري في التفسير (١٠/٢٠١/٢٠٢)، وفي الأدب (٢١/١٣/٢٢)، وفي التوحيد رقم (٧٥٠٢)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١١٢) والنسائي في الكبرى (٦/٤٦١).

قوله: «خلق الخلق» ظاهره خلق جميعهم وتخصيصه ببعضهم يخالف عمومه. وقوله: «قامت الرحم» هو على ظاهره، فإن الله قادر على أن يجعل المعاني والأعراض أجساماً وذواتاً فتتكلم، ولهذا أمثلة كثيرة في السنة، وفي رواية: «**فأخذت بحقوي الرحمٰن**» وهي صفة للّه تعالى لا نعلم كيفيتها ولا تشبه حقونا، وهو الإزار أو معقده بالنسبة إلينا. وقوله: «هذا مقام العائذ» أي: قيامي في هذا مقام العائذ والمستجير بك من القطيعة.

وفي الحديث بيان أن من وصل رحمه وصله الله برحمته وألطافه وإحسانه، ومن قطعها قطع الله تعالى عنه ما يستحق الواصل من شمول رحمته تعالى وإنعامه.

والآية المستدل بها، تدل على وعيد شديد للقاطع، وأنه من جملة الملاعن بلعنة الله عزّ وجل، وكفى بذلك جرماً.

[٢٥] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الرحم معلقة بالعرش تقول: مَن وصلني وصله الله، ومَن قطعني قطعه الله»**.

رواه مسلم في البر (١٦/١١٣).

الرحم: يطلق على الأقارب، وهم كل من بينه وبين الآخر نسب سواء كانوا ورثة أم لا، وسواء كانوا ذوي محرم أم لا. وقوله: «معلقة بالعرش» قد قدّمنا أن المعاني والأعراض قد تجسد ويخلق الله فيها كلاماً وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه أو يرد ويؤول ويتشكك فيه.

[٣٦] وعن جُبَيْر بن مُطْعِم رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة قاطع رحم»**.

رواه البخاري في الأدب (١٩/١٣)، ومسلم في البر (١١٣/١٦)، والبخاري أيضاً في الأدب المفرد (٦٤)، وأبو داود (١٦٩٦)، والترمذي (١٧٥٦).

قوله: «لا يدخل الجنة» أي: لا يدخلها مع الأولين أو لا يدخلها بحال إذا استحلّ المقاطعة بلا تأويل واجتهاد، وعلى أيٍّ ففي ذلك وعيد شديد.

[٣٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن الرَّحِمَ شَجْنَةٌ من الرحمٰن، فقال الله: مَن وصلكِ وصلْتُه، ومَن قطعكِ قطعتُه»**.

رواه البخاري في الأدب (٢٣/١٣).

قوله: «شجنة» مثلث الشين، وأصل الشجنة عروق الشجر المشتبكة، ومنه قولهم: الحديث ذو شجون، أي: يدخل بعضه في بعض. وقوله: «من الرحمٰن» أي: أخذ اسمها من هذا الاسم، والمعنى أن الرحم أثر من آثار الرحمة مشتبكة بها.

[٣٨] وقد جاء في سنن الترمذي (١٧٥٤)، والأدب المفرد (٥٣)، وسنن أبي داود (١٦٩٤)، وابن ماجه (١٠٣٣) من حديث عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تبارك وتعالى: أنا الله وأنا الرحمٰنُ، خلقتُ الرحم وشقَقْتُ لها من اسمي، فمَن وصلها وصلتُه ومَن قطعها قطعتُه»** وحسّنه الترمذي وصححه، فهذا الحديث مبين لحديث الشجنة.

فالرحم خلقها الله تعالى وجعلها مشتقة ومأخوذة من صفته الرحمٰن فلها به علاقة، وليس معناه: أنها من ذات الله، تعالى الله عن ذلك.

قال ابن أبي جمرة قدّس الله سره: تكون صلة الرحم بالمال، وبالعون على الحاجة وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وبالدعاء، والمعنى الجامع إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، قال: وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، فإن كانوا كفاراً أو فجّاراً فمقاطعتهم في الله هي صلتهم بشرط بذل الجهد في وعظهم، ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخليهم عن الحق، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظاهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى. اهـ. نقله الحافظ. وما قاله من عدم مواصلة الرحم الكافرة يرده ما تقدم في حديث أسماء وما يأتي وتقدم في صلة عمر أخاه وهو بمكة مشرك.

وقال النووي: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة، ولكن للصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها واجب، ومنها مستحب، لو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعاً ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلاً.

* * *

الواصل الحقيقي هو الذي يصل مَن آذاه أو قطعه

[٢٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابةً أصِلُهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويُسيئون إليّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليّ، فقال: **«لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تُسِفُّهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، ما دمتَ على ذلك»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١١٥/١٦).

قوله: «تُسِفُّهم» أي: تطعمهم. «المَل»: بفتح الميم، الرماد الحار.

و«الظهير»: المعين والدافع لأذاهم. وقوله: «ويجهلون عليّ» أي: يعاملوني بالقبيح من القول والفعل.

وفي الحديث وعيد شديد لقاطع الرحم والمسيء لأقاربه مع إحسانهم إليه وتحملهم أذاه، فمَن يصل رحمه وأقاربه مع إذايتهم له ومقاطعتهم إياه نمثله معهم كمثل من يطعم غيره الرماد الحار وذلك لما يلحقهم من الألم والإثم العظيم في قطيعته. وفيه بشارة للواصل مع الإساءة إليه وقطيعته، وأن الله تعالى سيقيض له من الملائكة أو غيرهم من يعينه ويدافع عنه.

[٣٠] وعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: **«ليس الواصل بالمكافىء، ولكن الواصل الذي إذا قُطِعت رحمه وصلها»**.

رواه البخاري في الأدب (٢٩/١٣)، وأبو داود وغيرهما.

معناه: أن الواصل الكامل الحقيقي هو الذي يصل من قطعه، وليس معناه أن الذي يصل من وصله ليس بواصل، لأن هذين مستويان فلا فضل لأحدهما على الآخر بخلاف الأول. وهذا كقوله ﷺ: **«ليس الغنى عن كثرة العرض»**، وقوله: **«ليس الشديد بالصرعة»**، وقوله: **«ولكن المفلس مَن...»** يأتي في أحاديث أخرى.

[٣١] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من ذنب أجدر أن يُعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يُدَّخر له في الآخرة من قطيعة الرحم والبغي»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٦٧)، والترمذي في القيامة (٢٣٢٩) بتهذيبي، وأبو داود في الأدب (٤٩٠٢)، وابن ماجه (٤٣١١) بسند صحيح، وصححه الترمذي.

قوله: «أجدر» أي: أحق وأولى، وفي الحديث عظم جرم البغي على العباد والاعتداء عليهم، وقطيعة الرحم؛ وأن صاحبهما معرّض للعقوبة والعذاب في الدنيا قبل الآخرة، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

* * *

❋ صلة ذي الرحم المشرك

[٣٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأى عمر حُلة سِيَراء فقال: يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يوم الجمعة وللوفود إذا أتوك، فقال: «**يا عمر إنما يلبس هذه مَن لا خلاقَ له**» ثم أُهديت للنبي ﷺ منها حُللٌ فأهدى إلى عمر منها حلة، فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله بعثت إليّ هذه وقد سمعتك قلت فيها ما قلت، قال: «**إني لم أُهدِها لك لتلبسها، إنما أهديتُها إليك لتبيعها أو لتكسوها**» فأهداها عمر لأخ له من أمه مشرك.

رواه البخاري في الجمعة، ومسلم في اللباس، وتقدم فيه.

قوله: «سيراء» بكسر السين وفتح الياء، هي نوع من البرود يخالطها حرير.

والحديث يدل على جواز صلة الرحم المشرك بالهدية وخاصة إذا كان يرجى منه الدخول في الإسلام ولم يكن محارباً.

❋ ❋ ❋

❋ الوصية بالجار والإحسان إليه

[٣٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورِّثه**».

رواه البخاري في الأدب من صحيحه (٤٨/١٣)، وفي الأدب المفرد (١٠٦/١٠١)، ومسلم (١٧٦/١٦)، والترمذي (١٧٨٩) كلاهما في البر والصلة.

قوله: «سيورثه»، أي: سيجعله وارثاً.

[٣٤] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: إن خليلي ﷺ أوصاني

«إذا طبخت مَرَقاً فأكثِر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصِبْهم منها بمعروف».

رواه مسلم في البر (١٦/١٧٦/١٧٧).

[٣٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»**.

رواه أحمد (٢/١٦٨)، والدارمي (٢٤٤٢)، والترمذي (١٧٩٠)، وابن حبان (٢٠٥١)، والحاكم (٤/١٦٤) وغيرهم بسند صحيح على شرط مسلم.

[٣٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت: يا رسول الله إن لي جارَيْن فإلى أيهما أُهدي؟ قال: **«إلى أقربهما منك باباً»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٥٤).

المراد بالجار في هذه الأحاديث المجاور في السكن، وفي هذه الأحاديث الوصية بالجار والإحسان إليه وتعاهده الآونة بعد الآونة بالهدية، ويقدم الأقرب في الجوار فالأقرب، والبرور بالجار من كمال الإيمان وحقوق المسلم على أخيه. وقد أخبر النبي ﷺ بأن جبريل عليه السلام لم يزل يوصيه به حتى ظنّ أنه سيجعله من جملة الأقارب الورثة لما له من عظيم الحقوق. وقد أمر الله تعالى في كتابه الكريم بالإحسان إليه فقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ...﴾ الآية.

وقدّم الجار ذا الرحم، ثم الجار الأجنبي لما للأول من الحقوق الزائدة على غيره.

ومن حقوق الجار مساعدته ومعاونته ولقاؤه بوجه طلق مع الابتسامة ومعاملته بالمعروف ورفع الأذى عنه وحفظ حرمته وحرمة أهله.

[٣٧] فعن أبي شريح رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«والله**

لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن»، قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: «الذي لا يأمنُ جاره بوائقه».

رواه البخاري في الأدب (١٣/٥٠)، ورواه مسلم عن أبي هريرة بلفظ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه».

«بوائقه»: جمع بائقة، وهي الغائلة والفتك.

فقوله: «والله لا يؤمن...» إلخ، مكررة ثلاثاً ومؤكدة باليمين، يدل على عظيم جريمة مؤذي جاره، وأن ذلك ينفي عنه كمال إيمانه، لأن الإحسان إلى الجار من شعب الإيمان وعلامته، لقوله ﷺ: «مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم جاره».

رواه الشيخان، ويأتي كاملاً في الضيافة.

ومن إكرامه رفع الضرر والإذاية عنه، وهذا أقل ما يمكن أن يعامل به الجار.

* * *

الإحسان إلى اليتامى والأرملة والمسكين

[٣٨] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وقال بأصبعَيْه السَّبَّابة والوسطى.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٤٣)، وفي الأدب المفرد (١٣٥)، وأبو داود (٥١٥٠)، والترمذي (١٧٦٤)، ورواه مسلم في الزهد (١٨/١١٣) بنحوه، ونحوه عن عائشة رواه أبو يعلى (٤/٢٦٣).

[٣٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار»، وفي رواية: «كالقائم لا يَفتُر، وكالصائم لا يفطر».

رواه البخاري في الأدب (١٣/٤٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (١٨/١١٢).

«اليتيم» من الآدمي: من فقد أباه وهو صغير قبل الحلم، وكافل اليتيم القائم بكسوته سكناً وملبساً وأكلاً وشرباً. و«الأرملة» بفتح الهمزة والميم، التي مات عنها زوجها أو طُلّقت وبقيت أيِّماً بلا زواج. و«الساعي»: هو الكاسب والقائم بمؤنتهما.

وفي الحديثين فضل عظيم وثواب فائق لمن يقوم باليتيم والأرملة والمسكين، فكفالة اليتيم تستوجب الكون مع رسول الله ﷺ في الجنة سوياً وهذه أمنية كل مسلم، أما القيام بشؤون الأرملة والمسكين فصاحبه يحرز على ثواب المجاهد في سبيل الله والصائم النهار القائم الليل، ولا يخفى ما جاء في فضل الصيام والقيام من الثواب الجزيل والأجر العظيم، وفّقنا الله للعمل بذلك، آمين.

* * *

الأخلاق والآداب العامة
حقوق المسلم على أخيه وما جاء في ذلك

[٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حقُّ المسلم على المسلم سِتٌّ»**، قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: **«إذا لقيته فسلِّم عليه، وإذا دعاك فأجِبْه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمِّته، وإذا مرض فعُدْه، وإذا مات فاتْبعْه»**.

رواه مسلم في الأدب (١٤٣/١٤)، وفي الباب غير هذا.

هذه بعض حقوق المسلم على أخيه، السلام عليه عند لقائه، ويأتي حكم ذلك، وإجابته إذا دعاك لنحو وليمة إذا توفرت شروط الدعوة، والنصح له إذا طلب منك النصيحة، وتشميته إذا عطس فحمد الله بأن تقول له: يرحمك الله، وعيادته إذا مرض، واتباع جنازته إذا توفي.

* * *

❁ التعاون الاجتماعي بين المسلمين

[٤١] عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مثَلُ المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالحُمَّى والسهر»**.

رواه البخاري في الأدب (٤٦/١٣)، ومسلم في البر (١٤٠/١٦). وفي رواية لمسلم: **«المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد...»** إلخ.

وفي رواية: **«المسلمون كرجل واحد إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله»**.

قوله: «تداعى»، أي: يدعو بعضه بعضاً إلى المشاركة فيما نزل به من الألم.

فهذا مثَل ضربه النبي ﷺ للمؤمنين من أمته وأنه يجب عليهم أن يكونوا متعاطفين متراحمين متحابّين مع بعضهم بعضاً كالجسد الواحد، وهذا خلق عظيم تخلى المسلمون عنه وأصبحوا متباغضين متقاطعين شعوباً ودولاً جماعات وأفراداً غفر الله لنا وتولى أمرنا.

[٤٢] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»** ثم شبك بين أصابعه.

رواه البخاري في المساجد وفي المظالم وفي الأدب (٥٨/٥٧/١٣)، ومسلم في البر (١٣٩/١٦) والترمذي (١٧٧٤).

ففي الحديث بيان أن المؤمنين مثلهم كالبنيان في التعاضد والتعاون والتناصر، غير أن ذلك خاص في أمور الآخرة من البر والتقوى كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

* * *

❋ رحمة الناس والبهائم

[٤٣] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»**.

رواه أحمد (٢/١٦٠)، وأبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٧٧٠)، والحاكم (٤/٢٤٨) وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، وهو صحيح لطرقه وشواهده.

وفي الحديث فضل الرحماء من عباد الله، وأن من يرحم أهل الأرض يرحمه الله عزّ وجل.

والحديث يشمل كل خلق الله من مؤمن وكافر وحر وعبد وحيوان، ويدخل في الرحمة التعاهد بالإطعام، والسقي، والتخفيف في الحمل بالنسبة للبهائم وترك ضربهم.

[٤٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل إليه فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له»**، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: **«في كل ذات كبد رطبة أجر»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٤٥) وفي الطهارة، وفي المظالم، ومسلم في كتاب الحيوان (١٤/٢٤١)، وأبو داود في الجهاد.

الثرى بفتح الثاء المشددة: وهي الأرض التي فيها الندى. قوله: **«فشكر الله له»** أي: أثنى عليه وقبل جازاه عليه. وقوله: **«في كل ذات كبد رطبة»** أي: في كل حيوان له كبد رطبة، أي: حية، ومعنى رطبة أي: رطوبة الحياة لأن الميت يجف جسمه وتيبس كبده.

وفي الحديث فضل رحمة خلق الله حتى الحيوانات، وأن من رحم خلقاً فيه حياة رحمه الله تعالى وغفر له ولم يحرمه من ثواب ذلك.

غير أن إطعام الخلق وسقيهم إذا كانوا محترمين وأذِنَ الشارع في الإحسان إليهم كمطلق المؤمنين والحيوانات المأذون فيها والكافر المعاهد أو الأسير مثلاً، أما غير هؤلاء كالكافر المحارب أو الحيوانات المأذون في قتلها كالفواسق الخمس أو الست من الحية، والعقرب، والحُدَيا، والغراب، والفأرة، والكلب العقور مثل الأسد، والنمر، والذئب، والثعلب، فهؤلاء لا يجوز إطعامهم ولا سقيهم بل ولا تربيتهم.

* * *

❋ ذم المنزوع منهم الرحمة

[٤٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت أبا القاسم الصادق المصدوق ﷺ يقول: «**لا تُنزَعُ الرحمة إلا من شقي**».

رواه أحمد، رقم (٧٩٨٨) وفي مواضع أخرى، والطيالسي (٢٠٧٢)، وأبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٧٦٩) بتهذيبي، وابن حبان (٢٠٦٥)، والحاكم (٢٤٨/٤-٢٤٩) وسنده صحيح.

وقد قدّمنا حديث: «**مَن لا يَرحم لا يُرحم**»، كما قدّمنا حديث: «**لقد حجّرت واسعاً**» تقدم في الطهارة.

ففي الحديث ذم شديد لمن لا يرحمون خلق الله وأنهم من جملة الأشقياء عياذاً بالله تعالى.

❋ التنفيس على المسلمين وستر عوراتهم ومساعدتهم وقضاء حوائجهم

[٤٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن نفَّس عن مسلم كرْبة من كُرَب الدنيا نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومَن يسّر على مُعْسِرٍ في الدنيا يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومَن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبدُ في عَوْن أخيه**».

رواه مسلم (٢١/١٧) في الذكر والدعاء، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٦)، والترمذي (١٧٧٦)، وابن ماجه وغيرهم، وزاد مسلم: **«ومَن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نَسَبُهُ»**.

قوله: «مَن نفَّس» أي: أزال عنه تلك وكشفها.

والحديث جامع لأنواع من الأخلاق والآداب، ففيه فضل قضاء حوائج المسلمين، وتفريج كربهم، والتيسير عليهم ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو مساعدة أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة، وفيه الستر على المسلمين، والغض عن عوراتهم وعدم كشفها وبثها بين الناس.

[٤٧] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يشتمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»**.

رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، ومسلم في البر والصلة (١٣٥/١٣٤/١٦)، وأبو داود (٤٨٩٣)، والترمذي (١٢٩٦) وفيه أن أُخوة الإسلام تقتضي عدم ظلم المسلم وسبه والطعن فيه، كما فيه أن من كان ساعياً في مساعدة أخيه وقضاء حاجته كان الله تعالى معيناً له على قضاء حوائجه، فالجزاء من جنس العمل كما فيه فضل تفريج كرب المسلمين، وبالتالي فضل ستر المسلم وعدم كشف ما صدر منه من الزلاّت إذا كان من ذوي الهيئات ونحوهم ممن ليس معروفاً بالأذى والفساد، فأما المعروف بذلك ولا سيما إذا كانت زلّته تتعلق بحق مسلم من مال أو انتهاك عرض وكرامة فإنه لا يجوز الستر عليه في ذلك، بل ينكر عليه ويرفع أمره إلى ذوي السلطة.

***

❋ احترام الكبير وتوقيره ورحمة الصغير

[٤٨] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس منا مَن لم يرحم صغيرنا، ولم يعرف شرف كبيرنا»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٥٤)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٣)، والترمذي (١٧٦٦) وصححه وذلك لشواهده.

قوله: «ولم يعرف شرف كبيرنا» في رواية: **«ويعرف حق كبيرنا»**، وهي رواية للبخاري وأبي داود، وفي رواية للبخاري: **«ويجل كبيرنا»**.

الحديث بجميع ألفاظه يدل على مشروعية احترام الكبير من الرجال والنساء وخاصة إذا اجتمع كبر السن وكبر القدر كالعلم مثلاً، والاستقامة، والشرف، والتوقير والاحترام يكون بأشياء كثيرة كالتقديم مثلاً في الصلاة، والكلام، والأكل، وخفض الصوت عند مكالمتهم، ومساعدتهم في الجلوس والقيام والمشي، ونحو ذلك. كما في الحديث رحمة الصغير والعطف عليه وملاطفته وتعليمه وتأديبه بالليونة والرفق.

❋ ❋ ❋

❋ أحاديث جامعة للخير والمعروف

[٤٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مَرِضْتُ فلم تَعُدْني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعُدْه؟ أما علمتَ أنك لو عُدتَه لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تُطعمني، فقال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب كيف أسقيك**

وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي».

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٢٥/١٢٦).

قوله: «مرضت فلم تعدني» أي: مرض عبدي، ونسبه تعالى إلى نفسه تشريفاً للعبد وتقريباً له، قال عياض ثم النووي: ومعنى وجدتني عنده، أي: وجدت ثوابي وكرامتي، ويدل عليه قوله في باقي الحديث: «**لو أطعمته لوجدت ذلك عندي**» «**لو أسقيته لوجدت ذلك عندي**»، أي: ثوابه، وقد يحمله بعضهم على ظاهره فيفوض كيفيته ومعناه ولا يؤوله لا بمعية الذات ولا العلم.

[٥٠] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «**إيمانٌ بالله، وجهادٌ في سبيله**»، قلت: فأي الرقاب أفضل؟ قال: «**أغلاها ثمناً، وأنفسها عند أهلها**»، قلت: فإن لم أفعل؟ قال: «**تُعين صانعاً أو تصنع لأخرق**»، قال: فإن لم أفعل؟ قال: «**تدعُ الناس من الشر، فإنها صدقة تصدَّق بها على نفسك**».

رواه البخاري في العتق (٢٥١٨)، ومسلم في الإيمان رقم (٨٥).

الأخرق: هو الذي لا صنعة له.

وفي الحديث بيان بعض أفضل الأعمال التي منها الإيمان والجهاد في سبيل الله، وبيان أفضل ما يعتقه الإنسان من الرقاب وهي ما كانت أغلا ثمناً وأفضلها عند أهلها، وفيه فضل معاونة الصانع أو العمل لجاهل صنعة مثلاً ومساعدته، كما أن فيه رفع الشر والإذاية عن الناس، وأن ذلك يُعتبر صدقة وهو عمل سلبي ليس فيه كبير كلفة.

[٥١] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**على كل مسلم صدقة**» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فليعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدّق**»، قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «**فيُعين ذا الحاجة الملهوف**»، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فيأمر بالخير أو يأمر بالمعروف**»، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فلْيُمْسِك عن الشر فإنه له صدقة**».

رواه البخاري في الأدب (٥٥/١٣)، ومسلم في الزكاة (٩٤/٧).

المعروف: اسم كل فعل يُعرف حُسْنُه بالشرع والعقل معاً كما قال العلماء. و«الملهوف»: هو المضطر أو المظلوم.

والحديث يدل على أن الصدقة لا تنحصر في التصدُّق بالمال مثلاً بل كل فعل خير يعتبر صدقة. وقوله: «على كل مسلم صدقة» تقدم في الصلاة أنها ثلاثمائة وستون وأنه تقوم مقامها ركعتا الضحى.

[٥٢] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تبسُّمك في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الهلاك صدقة، وبصرُك للرجل الرديء البصر صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي (١٨٠٢)، وابن حبان (١٠٧٦/٨٦٤) وهو حسن أو صحيح لشواهده.

وهذا كسابقه يقتضي أن كل ما فيه نفع للغير جلباً أو دفعاً يعتبر صدقة، وسيأتي مزيد لهذا لاحقاً إن شاء الله تعالى.

[٥٣] وعن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: أمرنا رسول الله ﷺ بسبع: بعيادة المريض، واتباع الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المُقْسم.

ونهى عن الشرب في الفضة، ونهى عن تختُّم الذهب، وعن ركوب المياثير، وعن لبس الحرير والديباج، والقسي والإستبرق.

رواه البخاري في الأدب (٢٥٥/٢٥٤/١٣)، ومسلم في اللباس (٣١/١٤) مع النووي.

وقد تقدم معنى أكثر هذه الألفاظ ويأتي بعضها كنصر المظلوم، وإفشاء السلام، أما إبرار المقسم فمعناه: أن من حلف له على شيء فلا يحنثه بل يوافقه على ما حلف عليه، وليبرّه إذا لم يكن المحلوف عليه معصية.

[٥٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**سبعةٌ يُظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمامٌ عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلّق، في المساجد وفي رواية: ـ إذا خرج منه حتى يعود إليه ـ ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه**».

رواه البخاري في الزكاة (١٤٢٣)، وفي انتظار الصلاة (٦٦٠)، وفي الرقاق (٦٤٧٩)، ومسلم في إخفاء الصدقة من كتاب الزكاة (١٢٢/١٢٠/٧)، ومالك في الجامع، والترمذي في الزهد (٢٢٠٩)، وكذا أحمد (٤٣٩/٢)، والنسائي في الكبرى (٤٦١/٣).

في الحديث فضل هؤلاء الأصناف السبعة وأنهم ممن لا يحزنهم الفزع الأكبر ولا يصيبهم هول الموقف، بل سيكونون مظللين تحت ظل الله، جعلنا الله تعالى منهم بمنّه وكرمه آمين آمين آمين، ويأتي الحديث مرة أخرى في الرقائق.

[٥٥] وعن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الطُهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك ـ أو عليك ـ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**».

رواه مسلم في أول الطهارة (١٠٠/٩٩/٣)، وأحمد (٣٤٤/٣٤٣/٣٤٢/٥)، والترمذي في الدعوات رقم (٣٢٨٦) بتهذيبي، والدارمي في الطهارة، والبيهقي (٤٢/١٠/١) وعند بعضهم كالترمذي: «الوضوء شطر...» إلخ.

وقوله: «شطر الإيمان» أي: نصفه، وأصح ما قيل في هذا: أن الإيمان المراد به الصلاة، والطهور الوضوء، وهو شرط صحة لها فهو

كالنصف لها والصلاة يطلق عليها الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي: صلاتكم. وقيل: إن الأجر فيه ينتهي تضعيفه إلى نصف أجر الإيمان. وقوله: «تملآن» معناه: لو قدر ثواب ذلك أجساماً لملأت ما بين السماوات والأرض. وقوله: «والصلاة نور» لأنها تمنع من المعاصي وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب، كما أن النور يستضاء به، وقيل: إن أجرها سيكون نوراً لصاحبها يوم القيامة، وقيل: لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف وانشراح الصدر... وللصلاة شأن في الإسلام ومزايا ليست لغيرها. وقوله: «والصدقة برهان» أي: تكون حجة على إيمانه، وقيل: يفزع إليها كما يفزع إلى البراهين فتكون يوم القيامة برهاناً لصاحبها، وقيل غير ذلك. وقوله: «والصبر ضياء» فمعناه: الصبر المحبوب في الشرع وهو الصبر على طاعة الله تعالى وعن المعاصي وعلى النائبات وأنواع المكاره، فلا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب. وقوله: «حجة لك» أي: من عمل به كان حجة له يدافع عنه ومن خالفه كان حجة عليه ضده يخاصمه. وقوله: «كل الناس يغدو» معناه: كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيهلكها. أفاده النووي رحمه الله تعالى وغيره.

* * *

❊ التحابب في الله وما يتبع ذلك

[٥٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابُون بجلالي، اليوم أُظِلُّهم في ظِلّي يوم لا ظلّ إلا ظِلّي»**.

رواه مالك في الجامع من الموطأ (١٨٤٠)، ومسلم في البر والصلة (١٢٣/١٦).

قوله: «بجلالي» أي: بعظمتي وطاعتي.

ومعناه: أن المؤمنين الذين كانوا في الدنيا يتبادلون الحب فيما بينهم لله تعالى كاجتماع على الدعوة إلى الله أو تعلم علم شرعي أو تلاوة القرآن أو ذكر الله تعالى وغير ذلك، سيناديهم الله عزّ وجل: أين المتحابون لأجلي، اليوم أجعلهم تحت ظل عرشي من حر الشمس ووهج الموقف وأنفاس الخلق وهول ذلك المشهد.

[٥٧] وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله عزّ وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»**.

رواه الترمذي (٢٢٠٨) وحسّنه وصححه، وابن حبان (٢٥١٠) وسنده صحيح.

[٥٨] وعن أبي إدريس الخولاني رحمه الله تعالى قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى شاب، برّاق الثنايا، وإذا الناس معه إذا اختلفوا في شيء أسندوه إليه وصدروا عن قوله، فسألت عنه فقيل: هذا معاذ بن جبل، فلما كان الغد هجّرتُ فوجدته قد سبقني بالتهجير ووجدته يصلي، قال: فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قِبَل وجهه فسلّمت عليه ثم قلت: والله إني لأحبك للّه، فقال: آلِلّه؟ فقلت: آلِلّه، فقال: آلِلّه؟ فقلت: آلِلّه، فقال: آلِلّه؟ فقلت: آلِلّه، فأخذ بحبوة ردائي فجبذني إليه وقال: أبشِر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ»**.

رواه أحمد (٢٣٣/٢٢٩/٥)، ومالك في الموطأ (١٨٤٣)، وابن حبان بالإحسان (٥٧٥/٢)، والحاكم (١٦٩/٤) وصححه على شرط الشيخين. قال ابن عبدالبر: هذا إسناد صحيح.

وتقدم حديث السبعة وفيه: **«ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»**.

قوله في الحديث الأول: يغبطهم أي: يستحسن حالهم أكابر أهل الجنة من الأنبياء والشهداء، وذلك لما أعدّ الله لهم من منازل ودرجات.

والحديثان يدلان على فضل التحابب والتجالس والتزاور والتباذل للّه عزّ وجل لا لشيء من حظوظ الدنيا والنفس، وأن ذلك يوجب محبة الله لهم.

[٥٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ **«أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى فأرصد الله له على مَدْرَجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تَرُبُّها؟ قال: لا غير أني أحبه في الله عزّ وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٢٣/١٢٤).

قوله: «فأرصد» أي: أقعده يرقبه. قوله: «مدرجته» أي: طريقه. قوله: «تربها» بفتح التاء وضم الراء والباء المشددة، أي: تقوم بإصلاحها.

وفيه كسابقَيْه أن الحب في الله يوجب محبة الله لعبده. قال العلماء رحمهم الله: محبة الله عبده هي رحمته له ورضاه عنه وإرادته له الخير.

وفي الحديث فضيلة زيارة الإخوان والأصحاب وخاصة إذا كانوا صالحين.

وفيه حجة لمن يقول بصحة رؤية الملائكة، والأحاديث بذلك كثيرة تقدم بعضها، ويأتي حديث حنظلة الأسيدي في الرقائق في ذلك.

* * *

إذا أحبّ اللّه عبداً حَبَّبَه إلى الناس

[٦٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال: إني أحب فلاناً فأحِبَّه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبُّوه فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً**

دعا جبريل عليه السلام فيقول: إني أُبغض فلاناً فأبْغِضه، قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض».

رواه مالك (١٨٤٢)، والبخاري في الأدب (٧١/١٣)، وفي التوحيد باب كلام الرب عزّ وجل، ومسلم في البر والصلة (١٨٤/١٨٣/١٦) والترمذي في التفسير (٢٩٥٧) وكذا أحمد (٥١٤/٣٤١/٢).

الحديث يدل على أن العبد المؤمن إذا عمل بطاعة الله واتقاه أيضاً، أحبّه تعالى وأحبّه جبريل وملائكة الله، ثم يوضع له الحب في قلوب عباده المؤمنين فتميل إليه القلوب وترضى عنه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ أي: حباً في قلوب المؤمنين. ويا بشرى لمن أحبّه الله عزّ وجل، فإن من أحبّه كان سمعه وبصره ويده... يسمع بالله ويبصر به ويبطش به، وسيأتي حديث: **«كنت سمعه...»** إلخ، في الرقائق.

أما من عمل بمعصية الله وتمرّد عليه وجاهره بالكفر أو الفسوق والفجور فإن الله عزّ وجل يبغضه ويبغِّض فيه ملائكته وعباده المؤمنين من أهل الأرض، ويا خيبتاه، وقد تكلم الناس في محبة الله تعالى وبغضه، والذي نراه الإمساك عن ذلك واعتقاد أنهما صفتان للّه عزّ وجل لا ندري كيفيتهما ولا معناهما، وليستا كمحبة العباد وبغضهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.



❁ المرء مع من احب

[٦١] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟ فقام النبي ﷺ إلى الصلاة فلما قضى الصلاة قال: **«أين السائل عن قيام الساعة؟»** قال الرجل: أنا ذا يا رسول الله،

قال: «**ما أعددت لها؟**» قال: يا رسول الله والله ما أعددت لها كثير صلاة ولا صوم، ولكن أحب الله ورسوله، فقال النبي ﷺ: «**المرء مع من أحب، وأنت مع من أحببت**»، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها. قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم.

رواه البخاري في الأدب (٦١٩٧) (ح١٣/١٧٣/١٧٤)، وفي فضائل الصدِّيق (٣٦٨٨)، وفي الأحكام (٧١٥٣)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٨٥/١٨٨) والترمذي (٢٢٠٤) في الزهد، وغيرهم.

[٦٢] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحبَّ قوماً ولما يلحق بهم؟ قال رسول الله ﷺ: «**المرء مع من أحب**».

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٧٨)، ومسلم في البر (١٦/١٨٨).

والحديث ذكر في المتواتر، وقد رواه نحو عشرين صحابياً.

قوله: «ولما يلحق بهم» يعني: لم يلحقهم بعمله. وفي الحديثين بشارة عظيمة للمحبين للصالحين من الأنبياء والصحابة والأئمة والعلماء الربانيين والزهّاد والعباد وكل صالح تقدم أو تأخر، فإن من يحب هؤلاء سيكون معهم في الجنة إن شاء الله، ولا يلزم من قوله: «**أنت مع من أحببت**»، وقوله: «**المرء مع من أحب**» أن يكون في منازل من يحبهم، بل يكفي أن تجمعه وإياهم الجنة.

وهذا من فضل الله على عبده المؤمن ولطفه به حيث جعله بمحبته للصالحين محبة صادقة ونية خالصة معهم في الجنة ولو بدون كبير عمل، اللهم إنا نشهدك وكفى بك شهيداً، ونشهد ملائكتك الحافظين على أني أحبك وأحب جميع أنبيائك ورسلك وخاصة خاتمهم صلواتك وسلامك عليه وعليهم، وأحب آل بيت نبيك الأطهار وزوجاته الطاهرات، وأصحابه من المهاجرين والأنصار وكل صادق منهم، وأحب كل الأئمة والعلماء الربانيين والصوفية العارفين والزهّاد والنسّاك والعباد المخلصين، وأحب كل صالح من

المؤمنين، فأسألك يا رب سؤال الذليل الحقير المضطر الفقير أن تحشرني معهم وتُدخلني الجنة في زمرتهم بدون سابقة عتاب ولا حساب ولا عقاب فإنه لا يتعاظمك شيء، وفضلك واسع ورحمتك شاملة.

***

مَن أحبّ شخصاً في اللّه فليعلمه

[٦٣] عن المقدام بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أحبّ أحدكم أخاه فليعلمْه إيّاه».

رواه أحمد (١٣٠/٤)، وأبو داود (٥١٢٤)، والترمذي (٢٢١٠)، وابن حبان (٢٥١٤) وحسنه الترمذي وصححه، وسنده صحيح.

[٦٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرّ رجل بالنبي ﷺ وعنده ناسٌ، فقال رجل ممن عنده: إني لأحب هذا للّه، فقال النبي ﷺ: «أعلَمْتَه؟» قال: لا، قال: «قم إليه فأعْلِمْهُ»، فقام إليه فأعلمه فقال: أحبَّك الذي أحببتني له.

رواه أحمد (١٥٠/٣)، وأبو داود (٥١٢٥)، والحاكم (١٧١/٤) وصححه ووافقه الذهبي، ونحوه عن أبي ذر رواه أحمد (١٤٥/٥/١٤٧) بسند صحيح.

في الحديثين مشروعية إعلام المرء أخاه حبه إياه ليقع تبادل الحب من الجانبين. قال البغوي: فيه الحث على التودد والتآلف، وذلك أنه إذا أخبره استمال بذلك قلبه واجتلب به وُدّه.

***

الجليس الصالح والأمر بصحبة الصالحين

[٦٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إنما مَثَلُ الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل

المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة».

رواه أحمد (٤/٤٠٤/٤٠٥/٤٠٨)، والبخاري في البيوع (٢١٠١)، وفي الذبائح (٥٥٣٤)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٧٨)، ومثله عن أنس رواه أبو داود (٤٠٤٢) بسند صحيح.

قوله: «يحذيك» بضم الياء، أي: يعطيك.

في الحديث تمثيله ﷺ الجليس الصالح بحامل المسك، والجليس السوء بنافخ كير الحداد، لأن الجليس الصالح قد تنتفع به في دينك كأخذ علم عنه مثلاً أو اقتداءً به في هديه وسمته ونحو ذلك، أما جليس السوء فلا يصيبك منه إلا ما يخدش دينك من مشاركته فيما يصدر منه من فجور كغيبة وكذب ونحوهما من الأمور المذمومة. وفي الحديث الحض على مجالسة الصالحين وأهل الخير ومكارم الأخلاق والعلم والأدب، والتنفير من مجالسة أهل الشر ومن شأنهم المعاصي.

[٦٦] وعن أبي سعيد الخُدْري رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»**.

رواه أحمد (٣/٣٨)، وأبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٢١٤) والدارمي، وابن حبان (٢٠٤٩/٢٥٠). والحاكم (٤/١٢٨) وصححه ووافقه الذهبي، وسند الحديث حسن.

في الحديث النهي عن مصاحبة غير المؤمن، يعني المستقيم، لأن الطباع تسرق بعضها، فمصاحبة قرناء السوء خطر على الملتزم وبالأحرى الساذج الفطري.

قال الخطابي: وإنما حذّر من صحبة من ليس بتقي، وزجر عن مخالطته ومؤاكلته لأن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب.

فلا ينبغي للإنسان أن يطعم طعامه غير المؤمنين الأتقياء ومن قاربهم.

[٦٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»**.

رواه أحمد (٢/٣٠٣/٤٣٤) وأبو داود (٤٨٣٣) والترمذي في الزهد (٢١٩٦) بتهذيبي والحاكم (١٧١/٤) والحديث حسن لغيره، ولذا حسّنه الترمذي وصححه النووي.

الحديث ظاهر في أن الإنسان يستقي أخلاقه ويكتسبها من أصدقائه وأخلائه، وعلى ذلك يكون دينه، فلذلك كان من واجبه أن يختار الأصدقاء والأصحاب، فإن للصحبة لشأناً في تهذيب الأخلاق وإفسادها.

***

البر وحُسْن الخُلُق

[٦٨] عن النوّاس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال: **«البِرُّ حسن الخُلُق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهتَ أن يطَّلع عليه الناس»**.

رواه أحمد (١٨٢/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٢/٢٩٥)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١١٠/١١١)، والترمذي في الزهد (٣٣٠٧) بتهذيبي، والدارمي (٢٧٩٣) وغيرهم.

قوله: «حاك في صدرك» أي: تحرك وتردد ولم ينشرح له الصدر وخيف كونه ذنباً.

قال النووي: قال العلماء: البر يكون بمعنى الصلة، وبمعنى اللطف والمبرة، وحُسْن الصحبة والعِشرة، وبمعنى الطاعة، قال: وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق. وقال الإمام عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى: حُسْن الخُلُق هو بَسْطُ الوجه، وبَذْلُ المعروف، وكَفُّ الأذى.

وفي الحديث بيان ما يعرف به الإثم من غيره، وأن كل ما لم تطمئن

إليه النفس وينشرح له الصدر ووقع فيه تردد وكره الإنسان أن يطلع عليه غيره وهو مرتكبه فهو الإثم أو قريب منه، غير أن هذا لا يكون إلا من قلب المؤمن المتقي المنوّر القلب، أما غيره فقد ينشرح صدره للإثم ولا يحصل له فيه تردد.

[٦٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أكملَ المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً، وخياركم خياركم لنسائكم**».

رواه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي في الرضاع (١٠٤٥)، والدارمي (٢٧٩٥)، وابن حبان (١٣١١)، والحاكم (٣/١) وحسنه الترمذي وصححه، وفي الأدب من صحيح البخاري (٦٦/١٣) عن ابن عمر مرفوعاً: «**إن خياركم أحسنكم أخلاقاً**» وانظر الفتح على ذلك.

الحديث يدل على أن الخُلُق الحسن من كمال الإيمان، وأن السيئ الخُلُق إيمانه ناقص مبتور، وقد جاءت أحاديث في فضل صاحب الخُلُق الحسن.

[٧٠] فعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أحبّكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن من أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارين والمتشدقين والمتفيهقين**» قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارين والمتشدقين فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٦١) بسند صحيح، ومبارك بن فضالة صرّح بالتحديث، وللحديث شواهد أشرت إليها في تهذيب الجامع في الرقم المذكور.

وفي الحديث بشارة للأحسنين أخلاقاً، وكفاهم فخراً محبة الرسول ﷺ وقربهم منه يوم القيامة.

كما فيه ذم المتشدقين بالكلام والمتعاظمين الأنانيين وأنهم من أبغض الناس إلى رسول الله ﷺ وأبعدهم منه يوم القيامة، وأي خسارة فوق ذلك؟

[٧١] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن المؤمن ليدرك بحُسْن خلقه درجة القائم الصائم**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٧٩٨)، وابن حبان (١٩٢٧)، والحاكم (٦٠/١) ورجاله ثقات مع اختلاف في وصله ولكنه صحيح لشاهد له رواه البغوي في شرح السنة (٣٤٩٩) من حديث أبي أمامة، وشاهد آخر عن أبي الدرداء رواه الترمذي (١٨٤٧) بسند حسن.

وفي الحديث فضل عظيم لحسن الخلق وأن صاحبه ليصل به إلى درجة القائم الليل، الصائم النهار، وأي فضل أعظم من هذا؟ وما ذلك إلا لحسن معاشرة الناس وتحمُّل أذاهم، وما أثقل ذلك على النفوس.

[٧٢] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حسن**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٧٩٩)، والترمذي (١٨٤٦)، وابن حبان (١٩٢٠)، وحسّنه الترمذي وصححه، وهذا أيضاً من فضائل الخلق الحسن وأنه من أثقل شيء في ميزان صاحبه يوم القيامة، ومَن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون وهم في عيشة راضية، بل حسن الخلق من أكثر أسباب دخول الجنة يوم القيامة.

[٧٣] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة قال: «**تقوى الله وحُسْن الخُلُق**» وسئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار قال: «**الفم والفرج**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٤٨)، وابن حبان (١٩٢٣) وحسّنه الترمذي وصححه.

ففي الحديث بيان ما يوجب دخول الجنة والنار في الأكثر، فذكر من أكثر ما يُدخل الجنة حسن الخلق مع تقوى الله، أما أكثر ما يُدخل النار فذكر منها الأخطرين على الإنسان وهما: الفم والفرج، لأنهما العضوان

الخطيران، ولذلك جاء عن النبي ﷺ: **«من يضمن لي ما بين لِحْيَيْه ورجليه أضمن له الجنة»**.

رواه البخاري ويأتي في الرقائق.

والخلق الحسن كما رغب فيه النبي ﷺ كذلك أمر به وأرشد أبا ذر ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما إلى التخلق به.

[٧٤] فعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتّقِ الله حيثما كنت، وأتبِع السيئة الحسنة تمحُها، وخالق الناس بخُلُق حسن»**.

رواه أحمد (١٥٣/٥)، والدارمي (٣٧٩٤)، والترمذي (١٨٣١) في البر والصلة، والحاكم في الإيمان (٥٤/١) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرطهما، وليس كذلك بل هو صحيح فقط.

وعن معاذ نحوه، رواه أحمد (٢٣٦/٥)، والترمذي (١٨٣٢).

فهذه وصية جامعة من النبي ﷺ لأبي ذر ومعاذ خاصة ولسائر الأمة عامة، وإرشاد منه ﷺ لنا بتقوى الله في كل الأمكنة وسائر الأزمنة والأحوال، وناهيك بتقوى الله ثم إرشاده لنا بأن نتبع ما نقترفه ونأتيه من سيئات بالحسنات لتُمحى بذلك ويُغفر لنا، ثم ختم وصيته بالأمر بمعاملة الناس بالخلق الحسن، وهو كما قدّمنا بسط الوجه للناس وملاقاتهم بالابتسام، ثم بذل المعروف لهم وما ينفعهم، ثم كف الأذى ورفع الشر عنهم، ويزاد على ذلك تحمُّل أذاهم والصبر على ذلك.

* * *

❋ مشروعية معاملة الناس بالرفق واللين وطلاقة الوجه

[٧٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«يا عائشة إن الله رفيقٌ يحب الرِّفق، ويعطي على الرِّفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٤٦). وفي رواية: «**إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» رواه البخاري في الأدب، ومسلم في السلام (٢١٦٥).

[٧٦] وعنها في رواية عن النبي ﷺ قال: «**إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه**».

وفي رواية: ركبت عائشة بعيراً فكانت فيه صعوبة فجعلت تردده فقال لها رسول الله ﷺ: «**عليك بالرفق...**» إلخ.

رواه مسلم بالروايتين (١٦/١٤٦/١٤٧).

[٧٧] وعن جرير رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن يُحْرَم الرِّفق يُحْرَم الخير**».

رواه مسلم (١٦/١٤٥/١٤٦) مع النووي.

[٧٨] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حُرِم حظه من الرفق فقد حُرِم حظه من الخير**».

رواه أحمد (٦/٤١٥) والترمذي (١٨٥٦) بتهذيبي، وحسنه وصححه وذلك لشواهده.

الرفق: بكسر الراء، لين الجانب واللطف في أخذ الأمر بأحسن الوجوه، وهو ضد العنف، وفي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها جواز إطلاق الرفيق على الله، وقد منعه جماعة وأجازه آخرون وهو الصحيح. وهو بالنسبة للّه تعالى اللطيف بعباده الذي يعاملهم بإحسانه وإمداداته الجمالية ويشملهم برحمته العامة سواء منهم المؤمن والكافر، والطائع والعاصي...

وفي هذه الأحاديث إرشاد من النبي ﷺ لأمته بأن يتعاملوا بالرفق والليونة ويدعوا العنف والخشونة فإن الله تعالى يعطي من الخير ويسهل من المطالب بالرفق ما لا يتأتى بغيره من الخشونة والشدة، وهذا بحمد الله مشاهد.

[٧٩] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بمن يَحْرُمُ على النار، ومن تَحْرُمُ عليه النار؟ على كل قريب هين سهل»**.

رواه أحمد (٣٩٣٨)، والترمذي (٢٣٠٨) في أبواب صفة القيامة، وابن حبان (١٠٩٦) وسنده حسن وهو صحيح لشواهده، انظرها في المجمع (٧٥/٤).

[٨٠] وعن العرباض بن سارية رضي الله تعالى عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون فذكر الحديث المتقدم في الاعتصام وفيه: **«فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد انقاد»**.

رواه أحمد (١٢٦/٤)، وابن ماجه في المقدمة (٤٣)، والحاكم (٩٦/١) بهذه الزيادة وسنده صحيح.

وله شاهد عن مكحول مرسلاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أُنيخ على صخرة استناخ»**.

رواه ابن المبارك في الزهد (٣٨٧).

قوله: «الأنف» هو الذي عقره الخطام، أو الذلول الذي لا يمتنع على قائده فمتى قاده انقاد.

وفي الحديثين بيان صفة المؤمن وأنه هين لين ليس بفظ ولا غليظ.

وقد قال تعالى لنبيه ﷺ مؤدباً له: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ وقال له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

[٨١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن غِرٌّ كريمٌ، والفاجر خَبٌّ لئيم»**.

رواه أحمد (٣٩٤/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤١٨)، والترمذي في البر والصلة (١٨١٠) بتهذيبي، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٠)،

والطحاوي في المشكل (٢٠٢/٤)، والحاكم (٤٣/١) وهو حديث حسن الطريقين له، بل قد يصحح على مذهب جماعة.

«غِرٌّ»: بكسر الغين و«خَبٌّ»: بفتح الخاء وكسرها، والغِر: الذي من شأنه الاغترار وقلة الفطنة، والخب: الخداع المفسد.

ومعنى الحديث، أن المؤمن من شيمته وطبعه قلة الفطنة للشر واغتراره بظواهر الأمور، ولا يكون ذلك منه جهلاً ولكن لشرف نفس وحسن خلق وترك البحث عن أحوال الناس وتغاضيه عن الشرور، أما غيره من الفجرة فعادته وطبعه الدهاء والبحث عن الشر مع خبث ولؤم.

[٨٢] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال لي النبي ﷺ: **«لا تَحقِرَنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق»**.

رواه أحمد (١٧٣/٥)، ومسلم في البر والصلة (١٧٧/١٦)، وتقدم مطولاً بمعناه رقم (٥٢).

وقوله: «بوجه طَلْق» أي: سهل منبسط.

[٨٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل معروف صدقة، وإن من المعروف أن تَلْقى أخاك بوجه طلق، وأن تُفرغ من دلوك في إناء أخيك»**.

رواه أحمد (٣٤٤/٣-٣٦٠) والبخاري في الأدب المفرد، والترمذي في البر (١٨١٥) والحاكم.

وأوله في الصحيحين: **«كلُّ معروف صدقة»** وحسّنه الترمذي وصححه لشواهده.

[٨٤] وعن أبي جرَي جابر الهجيمي عن النبي ﷺ قال: **«لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستقي، وأن تكلم أخاك ووجهك إليه منبسط»**. الحديث يأتي بتمامه في السلام.

رواه أحمد (٦٣/٥-٦٤) و(٤٨٢/٣-٤٨٣)، وأبو داود في اللباس

(٤٠٨٤)، وفي الأدب (٥٢٠٩) والترمذي في الاستئذان (٢٥٣٦) وحسنه وصححه، وسنده صحيح كما ذكرته في التهذيب.

وفي هذه الأحاديث بيان أن لقاء الإخوان المؤمنين مع الابتسامة ووجه طلق منبسط من المعروف الذي يعتبر صدقة، ومن خصال الإيمان وشعبه وعلامات حسن خلق صاحبه، والله الموفق الهادي لأقوم طريق.

* * *

❊ مداراة من يُتَّقى فُحْشُه وجواز اغتيابه

[٨٥] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنه استأذن على النبي ﷺ رجل فقال: «**ائذنوا له فبئس ابن العشيرة**، ـ أو: **بئس ـ أخو العشرة**» فلما دخل ألان له الكلام فقلت له: يا رسول الله قلت ما قلت ثم ألنتَ له في القول؟ فقال: «**أي عائشة إن شر الناس منزلة عند الله من تركه** أو: **ودعه الناس اتقاء فُحشه**»، وفي رواية: «**يا عائشة متى عهدتني فحاشاً، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره**».

رواه أحمد (٦/١٥٨)، والبخاري في الأدب (١٣/١٤٤) (٨١/٦٢/٦٣)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٤٣/١٤٤)، والترمذي في البر كذلك (١٨٤١) وهو عند أحمد بزيادة.

«بئس» أي: قبح هذا الرجل من هذه العشيرة، والرجل هو عيينة بن حصن، وكان ذلك قبل إسلامه لكنه ارتدّ بعد وفاة النبي ﷺ وجيء به إلى الصديق.

وقوله: «**اتقاء فحشه**» أي: تحفُّظاً من شره.

وفي الحديث مشروعية المداراة ومجاملة الناس وحسن صحبتهم ولو كانوا كفاراً أو فسقة تحفُّظاً من شرهم وهذا إذا لم يؤد إلى مداهنتهم وإقرارهم على منكر، وتحسين حالتهم. وذكر البخاري عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه: وإنّا لَنَكْشُرُ في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم. وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: خالط الناس ودينك لا تَكْلِمَنَّهُ. والكشر:

هو إظهار الأسنان عند الضحك، والكَلْمُ: هو الجرح. وذكر العلماء أن المجاملة مع الناس مطلقاً من أخلاق المؤمنين وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، والفرق بين المداراة والمداهنة، أن المداراة الرفق بالفاسق والجاهل والإنكار عليه برفق ولطف ومجاملته، والمداهنة معاشرة الفاسق بذلك مع إظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه. وفي الحديث جواز اغتياب المعلن بالفسق أو الفحش ونحو ذلك من الجور في الحكم والدعاء إلى البدعة مع جواز مداراتهم اتقاء شرهم.

[٨٦] وعن المسور بن مخرمة رضي الله تعالى عنه قال: قسم رسول الله ﷺ أقبيةً، ولم يُعطِ مخرمة منها شيئاً، فقال مخرمة: يا بُنيَّ انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فانطلقتُ معه فقال: ادخل فادْعُه لي، قال: فدعوته له فخرج إليه وعليه قباءٌ منها فقال: «**خَبَأنا هذا لك**»، قال: فنظر إليه فقال: رضي مخرمة. قال: وكان في خُلُقِه شدة، وفي رواية: وكان في خلقه شيء.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٤٤)، وتقدم في اللباس والزينة.

وقوله: «وكان في خلقه شدة» يعني: كانت أخلاقه غير كريمة فكان لذلك في لسانه بذاءة، ولذلك جامله النبي ﷺ وعامله باللطف والإحسان.

* * *

❊ الحذر من الناس وقلة الصديق الخالص

[٨٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُلْدَغُ المؤمن من جُحْرٍ واحدٍ مرتين».

رواه أحمد (٣/١١٥/٣٧٩)، والبخاري في الأدب (١٣/١٤٦)، ومسلم في الزهد (١٨/١٢٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٦٢)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٢).

الرواية الصحيحة «يُلدغُ»: بضم الياء والغين. قال عياض في الإكمال:

ومعناه المؤمن الممدوح هو الكيس الحازم الذي لا يستغفل فيخدع مرة بعد أخرى وهو لا يفطن لذلك.

ففي الحديث التحذير من الغفلة وأن يكون الإنسان فطناً حذراً فلا يخدع مرتين، وللحديث سبب ذكره علماء السيرة، وهو أن النبي ﷺ أسر أبا عِزَّة الشاعر يوم بدر فمنّ عليه وعاهده أن لا يحرض عليه ولا يهجوه، وأطلقه فلحق بقومه ثم رجع إلى التحريض والهجاء، ثم أسره يوم أُحد فسأله المن، فقال النبي ﷺ: **«المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين»** ثم قتله. قال النووي: وفيه أنه ينبغي لمن ناله الضرر من جهة أن يتجنبها لئلا يقع فيها ثانية.

[٨٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنما الناسُ كالإبل المائة، لا تكاد تجد فيها راحلة»**.

رواه البخاري في الرقاق (١١٨/١٤)، ومسلم آخر الفضائل (١٠١/١٦).

ومعنى الحديث: الناس كثير، والمرضي منهم الذي يصلح للمعاشرة والصحبة مع الأمانة والصدق قليل كقلة الراحلة التي تصلح للأحمال والأسفار والركوب في كثرة الإبل فهي كثيرة والصالح منها قليل. وبناءً على هذا فليغض الإنسان الطرف عن أخلاق الناس فإنه قلما يوجد من يصلح، والله الموفق.

* * *

إنزال الناس منازلهم

[٨٩] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من إجلال الله عزّ وجل إكرام ذي الشَّيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه، والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المُقْسط»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩٠/٧) (١٠٩٨٦)، بسند حسن، وذكر له البيهقي شواهد.

قوله: «الغالي فيه» أي: المتشدد المجاوز الحد في تلاوته أو رسمه وما إلى ذلك. وقوله: «والجافي عنه» أي: الذي يهجر القرآن ويترك تلاوته ولا يتعاهده. وقوله: «ذي السلطان المقسط» أي: صاحب السلطة والحكم العادل.

فالحديث يدل على أن إكرام هؤلاء الثلاثة واحترامهم وتعظيمهم من إجلال الله وتعظيمه وتبجيله، غير أن ذلك مقيّد باستقامة أولئك الثلاثة، فصاحب الشيبة له حق الاحترام ما دام ملتزماً مستقيماً، وحامل القرآن له حق التعظيم والتبجيل إذا كان واقفاً عند حدوده بلا تفريط فيه ولا إفراط، غير متغال فيه ولا مهاجراً له ومعرضاً عنه، أما صاحب السلطة فاحترامه وتكريمه وطاعته، كل ذلك منوط بعدله فإن خرج الثلاثة عما ذكرنا فلا إكرام ولا كرامة.

وهذا من باب تنزيل الناس منازلهم.

[٩٠] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«أراني في المنام أتسوّك بسواك فجذبني رجلان، أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر منهما فقيل لي: كبّر، فدفعته إلى الأكبر»**.

رواه مسلم في الزهد (١٨/١٢٩).

ففي الحديث تقديم الأكبر في تناول الأشياء والإعطاء، وسواء كان الكبير في السن أم في القدر كعلم مثلاً وشرف وفضل وصلاح، وفي الموضوع أحاديث تقدم بعضها، كحديث ابن عمر في ورق شجر البادية، وحديث حويصة في قتيل خيبر، وذلك من إجلال الكبير.

* * *

التيسير على الناس

[٩١] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما: **«يَسّرا ولا تُعسّرا وتطاوعا»**.

وفي رواية: «**يسّروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تُنَفِّروا، وتطاوعا ولا تختلفا**».

رواه أحمد (٤١٧/٤)، والبخاري في الأدب (١٤٠/١٣)، ومسلم في الجهاد (٤١/٤٠/١٢) ومثله عن أنس عند الثلاثة أيضاً.

في الحديث الإرشاد إلى التيسير على الناس وتبشيرهم بفضل الله وعظم ثوابه وعدم التشديد عليهم وأن لا ينفرهم بإفراد ذِكرِ التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير أن يذكر لهم فضل الله ورحمته، لا سيما من كان قريب عهد بالإسلام أو بالتوبة من عصاة المسلمين، فينبغي أن يتلطف معهم ويُدَرِّجَهم في أنواع القربات شيئاً فشيئاً كما كانت أمور الإسلام في بدايته بالتدريج.

كما في الحديث الإرشاد إلى التآلف والتطاوع وعدم الاختلاف وخاصة بين ذوي السلطة.

[٩٢] وعن الأزرق بن قيس قال: كنا على شاطىء نهر بالأهواز قد نضب عنه الماء فجاء أبو برزة الأسلمي على فرس فصلّى وخلّى فرسه فانطلقت الفرس فترك صلاته وتبعها حتى أدركها فأخذها ثم جاء فقضى صلاته، وفينا رجل له رأيٌ فأقبل يقول: انظروا إلى هذا الشيخ ترك صلاته من أجل فرس، فأقبل فقال: ما عنّفني أحد منذ فارقت رسول الله ﷺ، وقال: إن منزلي مُتَراخٍ، فلو صلّيت وتركت لم آتِ أهلي إلى الليل. وذكر أنه صحب النبي ﷺ فرأى من تيسيره.

رواه البخاري في الأدب (١٤١/١٣).

في الأحاديث بيان أن دين الإسلام ليس فيه تشديد بل هو بعيد من التنطُّع مبني على التخفيف والتيسير، وقد تقدم في الاعتصام حديث: «**إن الدين يُسرٌ...**» إلخ.

وما فعله أبو برزة مع فرسه قد ذكره الفقهاء في كتاب الصلاة وأجازوه وخاصة المالكية.

* * *

❋ الانبساط إلى الناس

[٩٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمّعنَ منه فيُسَرِّبُهُنَّ إليّ يلعبن معي.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٤٣).

قوله: «يتقمعن» أي: يتغيَّبْن ويدخلن من وراء الستر. وقوله: «فيُسَرِّبُهُنَّ» بضم الياء وسين مهملة ثم راء مشددة مكسورة، أي: يرسلهن.

وفي الحديث الانبساط إلى الناس وعدم الغبن وأن ذلك لا ينافي التقوى والصلاح، وفيه موافقة الزوجة والبنات على اتخاذ اللعب والصور، وقد أجاز ذلك العلماء واستثنوه من الصور الممنوعة، وقد قدّمنا ذلك في اللباس والزينة، وقد قدّمنا في شمائل النبي ﷺ عدة أحاديث في مزاحه مع أصحابه ومداعبته إياهم وذلك يعد من انبساطه الواسع مع الناس ﷺ.

❋ ❋ ❋

❋ التأنّي والعجلة

[٩٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال لأشج عبد القيس: **«إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»**.

رواه مسلم في الإيمان (١/١٨٩) مع النووي، والترمذي في البر والصلة (١٨٥٤) بتهذيبي، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٨)، وكذا أبو داود (٥٢٢٥).

أَشَجُّ عبد القيس كان من سادات أهل البحرين جاء في وفدهم إلى رسول الله ﷺ، ولما نزلوا المدينة بادر أصحابه إلى لقاء النبي ﷺ وتأخر هو حتى تنظف ولبس أحسن ثيابه وحسن هيئته، ثم أتى النبي ﷺ فقال

له: «**إن فيك...**» إلخ. والحلم: بكسر الحاء وسكون اللام، هو العفو عن المسيء بعد القدرة على الانتصار والانتقام منه. والأناة: عدم الاستعجال، فهما مما يحبه الله عزّ وجل لأنهما من مكارم الأخلاق ومحاسنها.

[٩٥] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**التأني من الله والعجلة من الشيطان، وما من أحد أكثرُ معاذير من الله تعالى، وما من شيء أحبُّ إلى الله من الحمد**».

رواه أبو يعلى في مسنده (٤٤٣/٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠٤/١٠)، وفي الشعب بسند حسن. وانظر مجمع الزوائد (١٩/٨) فإن له وهماً في الحكم على الحديث. العجلة بفتحات ضد التأني.

[٩٦] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**التؤدة في كل شيء إلا في عمل الآخرة**».

رواه أبو داود (٤٨١٠)، والحاكم (٦٢/١) وسنده صحيح على شرط مسلم.

التؤدة: بضم التاء المشددة ثم همزة مفتوحة، التأني وترك العجلة، وهذه الأحاديث تفيد أن الاستعجال في الأشياء عملاً وتركاً وعدم التأني والتروي في الشيء من عمل الشيطان ووحيه. فالواجب على المسلم أن يتأنى في الأمور وينظر إلى العواقب وما ينشأ عما يأتيه من مفاسد.

نعم الاستعجال والمبادرة والمسارعة لأمور الآخرة مطلوبة ومرغّب فيها: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾.

* * *

❊ الاقتصاد في الحب والبغض

[٩٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رفعه قال: «**أحبِبْ حبيبك هَوْناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغِض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما**».

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٤٢) بتهذيبي بسند صحيح على شرط مسلم، وله شواهد عن عبدالله بن عمرو وعلي وغيرهما، ولا يضره من أوقفه.

الهون: بفتح الهاء وسكون الواو، اللين والرفق. وقوله: «حبيبك» و«بغيضك» أي: محبوبك، ومبغوضك.

وفي الحديث الإرشاد إلى الاقتصاد والوسطية في الحب والبغض، فمن أحبّ شخصاً أو أبغضه فلا يتغالى في ذلك، فإن القلوب بيد الله فلربما انقلب الحب بغضاً أو البغض حباً كما هو الجاري الواقع بين الناس في كل العصور فيندم المرء في كلتا الحالتين ويخجل، وقد جعل الله لكل شيء قدراً.

* * *

إماطة الأذى عن الطريق

[٩٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«بينما رجل يمشي في الطريق إذ وجد غصن شوك فأخّره فشكر الله له فغفر له»**.

رواه البخاري في المظالم، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٧٠)، والترمذي في البر (١٨٠٤).

وفي رواية لمسلم مرّ رجل... فقال: **«والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة»** وفي أخرى: **«لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس»**.

في الحديث فضل إزالة ما يؤذي المار في الطريق سواء كان شجرة أو شوكاً أو حجراً أو نجاسة أو غير ذلك مما يؤذي الناس.

ومنها إماطة الصحف والجرائد والأوراق الملقاة في الطرق بل والمزابل وفيها آيات من القرآن الكريم أو حديث للنبي عليه السلام أو اسم من

أسماء الله عزّ وجل، فترك هذه الصحف في الطريق مما يؤذي النّاس في دينهم لأن وطأها محرّم بل قد يكون كفراً والعياذ بالله تعالى.

* * *

فضل المنيحة

[٩٩] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن منح منيحة لَبن، أو وَرِق، أو هدى زقاقاً، كان له مثلُ رقبة»**.

رواه أحمد (٢٧٢/٤/٢٩٦/٣٠٠)، والترمذي في البر (١٨٠٣)، وابن حبان (٨٦١) وحسنه الترمذي وصححه، ورجاله رجال الصحيح.

«مَنيحة»: هو أن يعطي الرجل أخاه المسلم ناقة أو شاة ينتفع بلبنها ثم يعيدها إليه بعد انقضاء لبنها، وهذا كان من عادات العرب ومحاسنهم، ومنيحة الورق: أن يسلف أخاه ما يحتاجه من مال. وقوله: «أو هدى زقاقاً» بضم الزاي، معناه أن يدل أخاه على الطريق ويرشده السبيل.

فالعمل بهذه الخصال الثلاثة من الأخلاق الكريمة والآداب الحسنة يستحق صاحبها أجر عتق رقبة، وناهيك بأجر ذلك إنه عتق من النار.

* * *

الإحسان إلى الخادم

[١٠٠] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إخوانكم خوَلُكم، جعلهم الله فِتْية تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه، وليُلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلّفه ما يغلبه فليُعِنْه»**.

رواه أحمد (١٦١/٥)، والبخاري في الإيمان (٩٤/١) وفي الأدب،

ومسلم في الأيمان والنذور (١٣٣/١١)، وأبو داود (٥١٥٨)، والترمذي في البر (١٧٩١)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٠).

وقوله: «إخوانكم خَوَلكم» بفتح الخاء والواو، أي: خدمكم أعطاكموهم الله عزّ وجل.

وفي الحديث إرشاد إلى الإحسان بالخدم سواء كانوا مملوكين أم أحراراً، وأنه يجب إطعامهم وكسوتهم وعونهم إذا كُلّفوا فوق ما يطيقون، وتستحب مساواتهم معهم في المأكل والملبس، كما فعل أبو ذر بخادمه كما يعرف من أصل الحديث، فإنه كان له خادم أمه سوداء فعيّره أبو ذر بأمه فقال له: يا ابن السوداء، فسمعه النبي ﷺ فقال له: **«أعيّرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»** يعني: فيك خصلة من خصال أهل الجاهلية، فكان أبو ذر بعد ذلك يُحسن إلى خادمه، فكان يُلبسه مما يلبس ويطعمه مما يطعم.

* * *

شكر النعمة والمكافاة على الخير

[١٠١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يشكر اللّهَ مَن لا يشكر الناسَ»** وفي رواية: **«مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله»**.

رواه أحمد (٢٥٨/٢)، وأبو داود في الأدب (٤٨١١)، والترمذي في البر والصلة (١٨٠٠) بتهذيبي، وابن حبان (٢٠٧٠) وحسّنه الترمذي وصححه، وسنده عنده صحيح على شرط مسلم.

ومثله عند أحمد والترمذي أيضاً عن أبي سعيد الخدري بسند حسن.

في الحديث وجوب شكر الوسائط في إسداء النعم وعمل الخير، وأن من قصر في ذلك فبالأحرى لا يشكر الله عزّ وجل.

[١٠٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله

ذهبت الأنصار بالأجر كله، قال: **«لا ما دعوتم اللّهَ لهم وأثنيتم عليهم»**.

رواه أحمد (٣/٢٠٠)، وأبو داود (٤٨١٢)، والترمذي في أبواب صفة القيامة (٢٣٠٦) وحسّنه وصححه وهو صحيح على شرط الشيخين.

وأوله عند أحمد والترمذي: لما قدم النبي ﷺ المدينة أتاه المهاجرون فقالوا: يا رسول الله ما رأينا قوماً أبذل من كثير، ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله، فقال النبي ﷺ: . . . فذكره.

«المهنأ»: بفتح الميم والنون في آخره همزة: هو ما يقوم بإصلاح المعيشة، وقيل ما يأتي الإنسان من غير تعب.

فلما واسى الأنصار المهاجرين وقاسموهم الأموال والنساء وبالغوا في الإحسان إليهم خاف المهاجرون أن يذهب الأنصار بالأجر دونهم فأرشدهم النبي ﷺ إلى أن لهم ما يدركون به أجر الأنصار وهو أن يشكروهم على ما أسدوا إليهم وذلك بالدعاء معهم والثناء على صنيعهم بهم.

[١٠٣] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أُعطي عطاءً فوجد فليجز به، فإن لم يجد فليُثْنِ به، فمن أثنى به فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٨١٣)، والترمذي آخر البر والصلة، وابن حبان (٢٠٧٣) وسنده حسن صحيح. قوله: «فليجز به» بسكون الجيم، أي: فليكافىء به.

والحديث يدل على مشروعية مقابلة العطية بمثلها، فإن تعذر ذلك قوبلت بالثناء على صاحبها فإن ذلك يُعد شكراً.

[١٠٤] وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن صُنِع إليه معروفٌ فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء»**.

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٧٨)، والنسائي في الكبرى (٥٢/٦)، وابن حبان (٢٠٧١) وسنده صحيح.

قوله: «فقد أبلغ» يعني: أن من دعا مع من صنع إليه خيراً أو أسدى إليه معروفاً أياً كان، فدعا معه وقال له مثلاً: جزاك الله خيراً، فقد بالغ في شكره وجازاه على خيره.

[١٠٥] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«مَن أتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»**.

رواه أحمد (٩٩/٢)، وأبو داود (١٩٧٢) و(٥١٠٩)، والنسائي في الزكاة من المجتبى، وابن حبان (٢٠٧١)، والحاكم (٤١٣/٤١٢/١) وسنده صحيح.

والحديث كسابقيه، فالمحسن يجب أن يقابل بإحسانه فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، فإن لم يوجد ما يكافأ به فليُدْعَ له وكفى به إحساناً.

* * *

❋ النصيحة

[١٠٦] عن جرير بن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم، وفي رواية: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم.

رواه البخاري في الشروط (٢٤٠/٦)، ومسلم في الإيمان (٣٩/٢-٤٠)، والترمذي، وكذا النسائي والحميدي وغيرهم، وانظر ما تقدم في الإيمان رقم (١٦٨).

[١٠٧] وعن تميم الداري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة»**، قالوا: لمَن يا رسول الله؟ قال: **«للّه، ولكتابه، ورسوله، وأئمة المسلمين، وعامتهم»**.

رواه أحمد (١٠٢/٤)، ومسلم في الإيمان (٣٧/٢)، وأبو داود في الأدب (٤٩٤٤)، والنسائي في البيعة من المجتبى، ومثله عن أبي هريرة. رواه الترمذي (١٧٧١) وغيره بسند حسن صحيح، وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما.

قوله: «بايعت» أي: عاهدت. وقوله: «إنما الدين النصيحة» قال العلماء: أي: قوام الدين وعماده هو النصيحة، قالوا: والنصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له، وأصل النصح الخلوص، والنصيحة للّه اعتقاد وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته. والنصيحة لكتابه التصديق به والعمل بما فيه والدعوة إليه، ونصيحة رسوله التصديق بنبوته ورسالته وكل ما جاء به، والانقياد لما أمر به ونهى عنه مع تعظيمه وتوقيره ونصيحة الأئمة، والمراد بهم ولاة الأمر طاعتهم في المعروف وإرشادهم برفق وعدم الخروج عليهم لجور صدر منهم، وإذا أريد بأئمة المسلمين علماؤهم فنصيحتهم هي احترامهم وطاعتهم فيما رووه وجاؤوا به من أحكام وحلال وحرام... ونصيحة عامة المسلمين إرشادهم إلى مصالحهم وما يهمهم في دينهم وتعليم جاهلهم والصبر على جفاهم... هذا ما قيل في ذلك باختصار، وراجع للمزيد شرح مسلم لعياض والنووي وشرح السنة للبغوي ومعالم السنن للخطابي.

[١٠٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن، يَكُفُّ عليه ضَيْعَتَه، ويحوطه من ورائه»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٣٩)، وأبو داود في الأدب (٤٩١٨) وسنده حسن، كما حسّنه جماعة من أهل الحديث، وله طريق آخر

عند البخاري في الأدب المفرد (٢٣٨) بسند حسن بلفظ: «**المؤمن مرآة أخيه إذا رأى فيه عيباً أصلحه**»، ورواه أيضاً الترمذي في البر والصلة (١٧٧٥) بنحوه، وانظر ما قلته هنالك.

ومعنى الحديث: أن المؤمن مع أخيه كالمرآة يرى فيها كل ما يقابلها فإذا رأى في أخيه خيراً أثنى عليه وزيّنه له ليزداد إقبالاً عليه، وإن رأى عيباً أصلحه بأن ينبهه عليه برفق ولين ليرعوي عنه. وقوله: «يكف عليه ضيعته» أي: يمنع هلاكه وضياعه ويجمع عليه معيشته ويضمها له، وضيعة الرجل ما يكون منه معاشه من زراعة أو تجارة أو حرفة... وقوله: «ويحوطه» أي: يحفظه ويذب عنه ويدفع من ينتهك حرمته ويطعن في عرضه.

* * *

❊ وجوب تناصر المسلمين فيما بينهم

[١٠٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً**»، قيل: يا رسول الله نصَرْتُه مظلوماً فكيف أنصُره ظالماً؟ قال: «**تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه**».

رواه أحمد (٣/٩٩)، والبخاري في المظالم (٢٤٤٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٨٣)، وابن حبان وغيرهم.

[١١٠] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين وغلام من الأنصار، فنادى المهاجري: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «**ما هذا؟ أدعوى الجاهلية؟**» قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر فقال: «**لا بأس فلينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً، إن كان ظالماً فلْينهه فإنه له نصرته، وإن كان مظلوماً فلينصره**».

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٣٧).

قوله: «اقتتلا» أي: تضاربا. وقوله: «يا للمهاجرين...» إلخ، كانت هذه منهما استغاثة، وتلك من عادات الجاهلية التي أبطلها الإسلام وهي العصبيات القبلية.

والحديثان يدلان على وجوب نصر المظلوم لمن كان له استطاعة بأن يكف الظالم عن ظلمه ويمنعه من ظلم أخيه بأي طريقة استطاعها.

* * *

الذب عن المسلم والدفاع عنه

[١١١] عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن ردّ عن عِرْض أخيه ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة**».

رواه أحمد (٦/٤٤٩/٤٥٠)، والترمذي في البر والصلة (١٧٧٧) بتهذيبي، وسنده حسن صحيح مع ما قيل فيه. وانظر تهذيبي للجامع.

«العِرض»: بكسر العين، هو محل المدح والذم من الإنسان.

وفي الحديث فضل الذب عن عرض المسلم إذا انتهك ونيل منه وتكلم فيه بغير حق وما أكثر ذلك، فمن ردّ عنه ما قيل فيه انتصاراً له بإخلاص وصدق طلباً للأجر من الله عزّ وجل كان حقاً على الله تفضلاً منه أن يدفع عنه نار جهنم ويحفظه منها.

[١١٢] وعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن حمى مؤمناً من منافق**» أراه قال: «**بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلماً بشيء يريد شَينه به حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٨٣)، وأحمد (٣/٤٤١) ورجاله ثقات، وإسماعيل بن يحيى المعافري المصري ذكره ابن حبان في الثقات، وروى

عنه بلدياه: عبدالله بن سليمان الطويل ويحيى بن أيوب وهذا ثقة من رجال السنة فالحديث حسن على مذهب جماعة من المحدثين.

قوله: «من حَمَى» أي: منع. وقوله: «يريد شَيْنَه» الشين بفتح الشين: العيب، ففي الحديث بشارة للمؤمن المدافع عن أخيه الحامي له من الفجرة والمنافقين بأن يحميه من نار جهنم كما فيه وعيد شديد وتهديد أكيد لمن يرمي أخاه بذم ما في عرضه أو دينه أو ما يؤول إليه يريد بذلك عيبه والحط من قدره وتنقيصه، فالله عزّ وجل وهو حكم عدل سيحبسه على جسر جهنم وهو الصراط حتى يدلي بحجته وماذا أراد بذلك وما أراه ينجو إلا أن يشاء الله عزّ وجل.

* * *

الإصلاح بين الناس

[١١٣] عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟»**، قالوا: بلى، قال: **«إصلاح ذات البَين، وفساد ذات البَين الحالقة»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٢٧)، وابن حبان (١٩٨٢)، وكذا أحمد (٤٤٤/٦) وسنده صحيح على شرط مسلم، ولذا صححه الترمذي.

في الحديث أن إصلاح ما بين الناس من العداوة والبغضاء له فضل عظيم بحيث يفوق درجة الصيام والصلاة والصدقة، وهذه تعد في الإسلام من الأعمال العظيمة التي لا يساويها من الأعمال إلا القليل كالجهاد مثلاً والبرور.

والإصلاح بين المسلمين مأمور به في الشرع، قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وأخبر تعالى في آية أخرى بأن ذلك خير وأن من فعله طلب

مرضاة الله فسوف يؤتيه أجراً عظيماً، فقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾.

وقد كان من هديه ﷺ إصلاحه بين الصحابة كما تقدم في السيرة وغيرها.

و«فساد ذات البين الحالقة» يأتي الكلام عليه لاحقاً في المساوىء.

* * *

فضل كظم الغيظ والعفو عن الناس

[١١٤] عن معاذ بن أنس الجُهَنِي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«من كظم غيظاً وهو يَقْدِرُ على أن يُنَفِّذَه، دعاه الله على رؤوس الخلائق حتى يخيّره في أي الحور شاء»**.

رواه أحمد (٣/٤٣٨/٤٤٠)، وأبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي في البر والصلة (١٨٦٤)، وفي صفة القيامة (٢٣١٣)، وابن ماجه (٤١٨٦) من طرق هو بها حسن.

وصحّ عنه عليه الصلاة والسلام: **«ما من جُرْعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله»**.

رواه ابن ماجه (٤١٨٩) بسند صحيح.

«الغيظ»: هو الغضب الشديد. و«كظمه»: هو حبسه في النفس وعدم العمل بمقتضى غيظه. قال تعالى في معرض صفات أهل الجنة: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ﴾، جاء عن بعض السلف أن مملوكاً له أساء معه فهمّ بضربه فقال له الخادم: يا سيدي قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾، فقال له: قد كظمت، فقال: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ﴾، فقال: قد عفوت، فقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقال له: اذهب فأنت حر.

فهكذا كانت أخلاق السلف، كانوا وقافين عند كتاب الله تعالى وشرعه.

وفي الحديث فضل عظيم وبشارة هامة للكاظمين الغيظ.

[١١٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما نقصتْ صدقة من مال، وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزًّا، وما تواضع أحد للّه إلا رفعه الله»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٥/٣٨٦)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٤١)، والترمذي فيه (١٨٧٢) وغيرهم.

في الحديث أن من تصدّق بشيء من ماله بارك الله له فيه وازداد نمواً، وأن من أُسيء إليه فعفى وصفح زاده الله عزاً ومحبة في القلوب، وأن من تواضع مع الله ومع عباده رفعه الله وأعزّه في الدنيا والآخرة. وهذه كلها مكارم وأخلاق طيبة.

[١١٦] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ فصمت عنه النبي ﷺ ثم قال: يا رسول الله كم أعفو عن الخادم؟ قال: **«كل يوم سبعين مرة»**.

رواه أبو داود في الأدب (٥١٦٤)، والترمذي في البر والصلة (١٧٩٦) وسنده صحيح في طريق للترمذي. وذكر المنذري رحمه الله تعالى أن أبا يعلى رواه بإسناد جيد.

وفي الحديث مشروعية العفو عن المسيء ولو تكررت منه الإساءة وذلك أن الله عزّ وجل عفو يحب العفو فلا إله إلا الله ما أحسن شريعتنا وما أعظم ديننا. قال عزّ وجل: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ...﴾، الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه الذي كان ينفق على ابن خالته مسطح، فلما تكلم في السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها في قضية الإفك حلف أبو بكر أن لا ينفق عليه فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ...﴾ الآية، قوله: ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ أي: لا يحلف، فقال الصدِّيق: بلى يا رب إني أحب أن يغفر لي، فرجع إلى إنفاقه على مسطح، وفي ذلك من فضل العفو ما لا يخفى وكيف وهو مخالف لطبع الإنسان وهواه.

* * *

❊ الصبر على أذى الناس والإغضاء عن إساءتهم

[١١٧] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ قال: **«المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم»**، وفي رواية: **«المؤمن»**.

رواه أحمد (٤٣/٢)، والبخاري في الأدب المفرد (٣٨٨)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٠٣٢) وسنده صحيح، وفي رواية لبعضهم: **«أعظم أجراً»** بدل **«أفضل»**، أو **«خير»**.

وفي الحديث فضل مخالطة الناس وتحمُّل إذاياتهم ومجاهدة النفس على الصبر على ذلك، وأن ذلك أفضل وأعظم أجراً من مفارقتهم. وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه لكنه مشروط بما إذا كان يسلَم دين المخالط مما يخدشه، أما إذا عمّ الفساد وانتشرت الشرور وقلّ في المجتمعات الخير، فالواجب على المسلم أن يقلل من المخالطة إلا بقدر الضرورة.

[١١٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رجلاً سبّ أبا بكر عند النبي ﷺ والنبي ﷺ جالس لا يقول شيئاً، فلما سكت ذهب أبو بكر يتكلم فقام رسول الله ﷺ واتّبعه أبو بكر فقال: يا رسول الله كان يَسُبّنِي وأنت جالس فلما ذهبت أتكلم قمتَ؟ قال: **«إن الملك كان يردُّ عنك، فلما تكلمتَ ذهب الملك ووقع الشيطان، وكرهت أن أجلس يا أبا بكر، ثلاث كلهن حق: ليس عبدٌ يُظلم بمظلمة فيغضي عنها إلا أعز الله بها نصره، وليس عبد يفتح باب مسألة يبتغي بها كثرة إلا زاده الله بها قلة، وليس عبد**

يفتح باب عطية يبتغي بها وجه الله أو صلة إلا زاده الله به كثرة»، وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يعجب ويبتسم، فلما أكثر ردّ عليه بعض قوله، فغضب النبي ﷺ وقام... إلخ.

رواه أحمد (٢/٤٣٦) كاملاً، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٦) مختصراً بنحوه، وفيه عنده «**نزل ملك من السماء يُكَذِّبه بما قال له فلما انتصرتَ وقع الشيطان**» وسنده حسن.

وفي الحديث فضل عدم الانتصار لمن أُسيء إليه وأنه ينبغي له أن يتحمل ذلك ولا يجيب من جهل عليه، وهذا من الأمور العظيمة وأخلاق كبار الرجال.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ وقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، علماً بأنه يجوز له الانتصار كما قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾، قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون للمؤمنين أن يُستذَلُّوا فإذا قدروا عفوا.

كما أن فيه: مَن انتصر لنفسه كان فيه حظ للشيطان لأن حضوره عند ذلك لا يكون إلا للتحريش والإغراء على الشتم... ولذا قام النبي ﷺ وانصرف.

* * *

❁ حق على الله أن لا يرفع شيئاً إلا وضعه

[١١٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كانت العَضْبَاءُ لا تُسْبق، فجاء أعرابي على قَعُودٍ له فسابقها فسبقها الأعرابي فكأن ذلك شقّ على أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**إن حقاً على الله عزّ وجل أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه**»، وفي رواية: فشقّ ذلك على المسلمين فقالوا: سبقت العضباء.

رواه أحمد (٣/١٠٣/٢٥٣) والبخاري في الرقائق (١٤/١٢٥) وفي الجهاد، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٢).

قوله: «القعود» بفتح القاف: هو الشاب من الإبل.

وفي الحديث دليل على أن الله لا يرفع شيئاً من أمور الدنيا في هذه الحياة إلا كان آخر. الوضع والهوان وهذه كلية عامة في أمور الدنيا.

قال ابن بطال: فيه هوان الدنيا على الله والتنبيه على ترك المباهاة والمفاخرة، وأن كل شيء هان على الله فهو في محل الضعة فحق على كل ذي عقل أن يزهد فيه ويقل منافسته في طلبه.

وفي الحديث تواضعه ﷺ حيث رضي بمسابقة الأعرابي ولم يستنكف من ذلك ولم يحزن أو يتغير قلبه لسبق الأعرابي إياه.

* * *

من فضل البلايا والمصائب

[١٣٠] عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: **«ما يصيب المؤمن من وَصَب ولا نصَب، ولا سقم، ولا حَزَنٍ، حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته»** وفي رواية: **«ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»**.

رواه أحمد (٢/٣٠٣/٣٣٥)، والبخاري في الطب والمرضى (١٢/٢٠٨)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٣٠) وقد تقدم مع أحاديث أخرى في الجنائز وفي الطب.

«وصب» بفتحتين: الوجع اللازم. و«نصب»: التعب. «سقم»: بضم السين والكاف وفتحها. و«حزن»: بالضم والفتح في الحاء والزاي. وقوله: «حتى الهم يهمه» بفتح الياء وضمها، أي: يَغُمُّه.

وفي الحديث فضل عظيم لنزول المصائب بالإنسان وأنه ما من شيء

يصيبه فيؤلمه ويسوؤه حتى الشوكة والحزن والغم إلا غفر الله له خطاياه ورفع به درجته، وفيه أن التكفير وحصول الثواب والأجر كل ذلك حاصل بمجرد نزول المصيبة، فإن اقترن بذلك الصبر والرضا تضاعف الأجر. أفاده الحافظ متعقباً على ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى.

قال القرافي رحمه الله تعالى: المصائب كفارات جزماً سواء اقترن بها الرضا أم لا.

وتعقبه الحافظ بقوله: والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها، وبالرضا يؤجر على ذلك.

[١٣١] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يؤتى بأشد الناس كان بلاءً في الدنيا من أهل الجنة، فيقول: اصبغوه صِبْغةً في الجنة، فيصبغونه فيها صِبْغة، فيقول الله عزّ وجل: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط أو شيئاً تكرهه؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت شيئاً أكرهه قط، ثم يؤتى بأنعَم الناس كان في الدنيا من أهل النار، فيقول: اصبغوه فيها صبغة فيقول: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط قرة عين قط؟ فيقول: لا وعزتك ما رأيت خيراً قط ولا قرة عين قط**».

رواه أحمد (٢٥٤/٢٥٣/٣)، ومسلم في الجنة والنار (١٤٩/١٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢١) والسياق لأحمد.

قوله: «بلاءً» في مسلم بؤساً. «صبغة» في ابن ماجه: اغمسوه غمسة فهي مفسرة للصبغة بأنها الغمسة، والبؤس: هو الشدة.

وفي الحديث بيان عدل الله تعالى في عباده وفضله بهم، وسيأتي الحديث في الرقائق وهنالك بيان معناه كاملاً. الشاهد منه هنا هو أن أعظم الناس بلاءً وأشدهم ضراً في الدنيا سيغمس في الجنة غمسة واحدة ثم يخرج منها فيذكره الله تعالى بما مرّ عليه في الدنيا من بلايا ومحن ومصائب فينسى كل ذلك بمجرد غمسه في الجنة لما يشاهد فيها من خير ونعيم مما لا تتصوره عقولنا.

***

❊ الشفاعة بين الناس

[١٢٢] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه كان إذا أتاه السائل أو صاحب الحاجة قال: **«اشفعوا فلتؤجروا وليقض الله على لسان رسوله ما شاء»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٦٠/٥٨)، ومسلم في البر (١٦/١٣٩) وغيرهم.

لام فلتؤجروا جعلوها مكسورة على أنها لام كي وجعلوها لام الأمر وكلاهما محتمل.

وفي الحديث مشروعية الشفاعة لقضاء حاجة من لا يستطيع قضاءها وخاصة عند ذوي السلطة الذين لا يتمكن كل أحد من الدخول عليهم أو يتمكن، ولكنه لا يبلغ حاجته بنفسه فيطلب الوساطة، ولذلك كان النبي ﷺ يرشدهم إلى الاستشفاع عنده ويحضهم على ذلك لما فيه من الأجر والثواب، وقد قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾.

والشفاعة جائزة عند ذوي السلطة إلا في الحدود أو في المصرين على الفساد المشتهرين بذلك فهؤلاء لا يشفع فيهم، وقد قدّمنا شيئاً من هذا في الحدود.

❊ ❊ ❊

❊ ستر اللّه على عبده

[١٢٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يستر الله على عبد في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٤٣)، ورواه أحمد والحاكم عن عائشة رضي الله تعالى عنها. وستر الله على عبده يوم القيامة عدم كشف

عيوبه ومعاصيه في ذلك الموقف الرهيب فلا يفضحه أمام الخلائق وقد ستره في الدنيا، وسيأتي في الرقائق بقية لهذا، فإنه بذلك الباب أليق ولكنني تبعت مسلماً في إيراده في البر والصلة.

* * *

ستر المؤمن على نفسه

[١٢٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كل أمتي معافاة إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يُصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان عملتُ البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»**.

رواه البخاري في الأدب (٩٨/٩٧/١٣)، ومسلم في الزهد (١١٩/١٨).

قوله: «من المجاهرة» هكذا في رواية، وفي رواية: **«وإن من الإجهار»** وفي أخرى: **«وإن من الإهجار»** بتقديم الهاء وكلها صحيحة.

فالمجاهرة والإجهار الإعلان بالمعصية، والإهجار بتقديم الهاء معناه: الفحش والخناء وكثرة الكلام.

والحديث يدل على أن كل من أذنب ذنباً وستر على نفسه كان قريباً من عفو الله وستره عليه، إلا المجاهرين الذين يُظهرون معاصيهم أمام الخاص والعام وهم أهل المجون الذين لا يبالون بأحد، وهكذا من أتى شيئاً بليل وحده وقد ستره الله فيصبح يحكي للناس ما فعل في ليلته، فهذا بعيد من عفو الله ومغفرته، فالواجب على من ابتلاه الله بشيء من ذلك أن يتستر ولا يفضح نفسه فإن الله عزّ وجل ستير يحب الستر.

وقد جاء في حديث مرسل: **«اجتنبوا هذه القاذورات التي نهى الله تعالى عنها فمن ألمّ بشيء منها فليستتر بستر الله»**.

رواه الحاكم (٤/٢٤٤)، ومالك في الموطأ، وصححه الحاكم.

ويأتي في الرقائق قول عمر لمن أذنب: «لقد سترك الله لو سترتَ على نفسك».

* * *

العبرة بالقلوب والأعمال

[١٢٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم ولا أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**.

رواه أحمد (٢/٢٨٥/٥٣٩)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٢١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣).

الحديث ظاهر في أن الله عزّ وجل لا يعتبر الصور الظاهرة وجمالها، ولا كثرة الأموال وجمعها، وإنما ينظر إلى القلوب وما فيها من إيمان وتقوى وإلى الأعمال الظاهرة التي توافق ما في البواطن، وسيأتي في المساوىء حديث: **«التقوى ههنا»** ويشير إلى صدره الشريف.

* * *

أمانة الحديث

[١٢٦] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا حدّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٦٨)، والترمذي في البر والصلة (١٨٠٥) بتهذيبي بسند حسن لاختلاف في عبدالرحمٰن بن عطاء، وقد أشار المنذري إلى تحسينه.

الأمانة: كل ما ائتُمن عليه الإنسان بداية من الإيمان والتكاليف الشرعية جملة وتفصيلاً، ثم ودائع الناس، وديونهم... ومنها كلام السر الذي يُسِرُّه إليك شخص فهو أمانة لا يجوز لك إفشاؤه فإن فعلت كنت خائناً والله لا يحب الخائنين، ويعرف الكلام بأنه أمانة بالقرائن مثل ما جاء في الحديث أن صاحبك يحدثك وهو يلتفت يميناً وشمالاً فأحرى إذا أوصاك وأكد عليك، وسيأتي بقية للأمانة في الفتن.

* * *

❊ حفظ اللسان وذم كثرة الكلام وخطره على الإنسان

[١٢٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**».

رواه أحمد (٣٧٩/٣٧٨/٢)، والبخاري في الرقائق (٩٢/١٤)، ومسلم في الزهد (١١٧/١٨).

قوله: «ما يتبين ما فيها» أي: لا يتدبرها ويفكر في عاقبتها وما يؤول إليه أمرها وذلك كالكلام في الله تعالى وفي صفاته وفي القرآن وفي جانب رسول الله ﷺ أو في كلامه مع الناس حيث لا يلقي بالاً مما فاه به فتتجب له النار بذلك وهو لا يدري، وفي ذلك حث على حفظ اللسان.

[١٢٨] وعنه عن النبي ﷺ قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يُلقي لها بالاً، يرفع الله له بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم**» وفي رواية: «**يهوي بها في النار سبعين خريفاً**».

رواه البخاري في الرقائق (٩٣/١٤) بالرواية الأولى، ورواه الترمذي في الزهد (٢٣/٤) بالثانية، ورواه أحمد (٢٩٧/٢٣٦/٢)، وابن حبان (٥٧٠٦)، والحاكم (٥٩٧/٤) وغيرهم.

[١٢٩] وعن بلال بن الحارث المزني رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة**».

رواه أحمد (٤٦٩/٣)، والترمذي في الزهد (٢١٣٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، والحاكم.

وسنده صحيح وحسّنه الترمذي وصححه.

الحديثان معناهما واحد لا يختلفان إلا في قوله، في الأول: «**يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً**». وقوله في الثاني: «**فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة**» وكلا الأمرين مراد، فمَن تكلم بكلمة من سخط الله يكتب الله عليه سخطه إلى يوم القيامة ثم يكون مآله الهوي في جهنم سبعين خريفاً.

ففي الحديثين الحث على التكلم بما يرضي الله والتحذير مما فيه سخط الله وأن الواجب على الإنسان أن يحفظ لسانه وأن لا ينطق بشيء حتى يتدبره قبل النطق به، فإن كانت فيه مصلحة تكلم وإلا كفّ لسانه.

[١٣٠] وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ويلٌ للذي يُحدّث بالحديث ليُضحِك القوم فيكذب، ويلٌ له، ويلٌ له**».

رواه أحمد (٧/٣/٢/٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٠)، والترمذي في الزهد (٢١٣٦)، والنسائي في الكبرى (٣٢٩/٦) والدارمي والحاكم (٤٦/١) وسنده حسن لترجمة بهز.

وفي الحديث ذم المازحين الذين يعتادون المزاح بكثرة بحق وباطل فيُضحكون الناس بالأكاذيب والأباطيل، وذلك كما ترى من كبار الذنوب لأن

الوعيد بالويل لا يكون إلا على كبيرة عياذاً بالله، وفيه كسابقيه حث على حفظ اللسان ويأتي لذلك بقية في الرقائق.

* * *

❋ مَن لم يواجه الناس بما يكرهون

[١٣١] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه، فتنزّه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: **«ما بالُ أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٢٧/١٢٨) وغيره، ومسلم.

قوله: «فتنزه» أي: تركوه كراهة منهم له.

وفي الحديث ما كان عليه ﷺ من عدم مواجهة الناس بما يسوءهم ويكرهون، وذلك من عظيم مكارم أخلاقه ﷺ وشدة حيائه ومراعاة جوانب أصحابه، وهذا كان هديه دائماً، فقد تكرر عنه ما صدر منه هنا.

وقوله: «فوالله إني لأعلمهم بالله...» إلخ، أشار بذلك إلى أنه مع أعلمه بالله منهم وأكثرهم خوفاً من الله عزّ وجل يترخص في الشيء أحياناً فكيف يتنزه عن ذلك من ليس مثله ولا يقاربه.

* * *

❋ المستشار مؤتمن

[١٣٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المستشار مؤتمن»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٥٦)، وأبو داود في الأدب (٥١٢٨)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٣٣)، وابن ماجه في

الأدب (٣٧٤٥) وغيرهم، وسنده صحيح على شرطهما، وفي الباب عن أبي مسعود رواه ابن ماجه (٣٧٤٦) بسند صحيح، وعن أم سلمة رواه الترمذي والبخاري في الأدب المفرد وغيرهما، والحديث وارد من طرق حتى عدّ في المتواتر.

والحديث يدل على أن من استشير في شيء فعليه أن ينصح مستشيره لأنه مؤتمن على ذلك، فلا بد وأن يشير إلى صاحبه بما يراه خيراً له وإلا كان خائناً وغاشًا لأخيه.

* * *

* المتشبِّع بما لم يُعْطَ

[١٣٣] عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما أن امرأة قالت: يا رسول الله إن لي جارة - تعني ضَرَّة - هل عليّ جناح إن تشبَّعْتُ لها بما لم يُعط زوجي؟ قال ﷺ: **«المتشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبَيْ زور»** وفي رواية أقولُ: إن زوجي أعطاني ما لم يُعطني، فقال... إلخ.

رواه أحمد (٦/٣٤٦/٣٥٣) والبخاري في النكاح، ومسلم آخر اللباس (١٤/١١)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٧) وغيرهم، والرواية الثانية رواها مسلم من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

وعن جابر نحوه ضمن حديث رواه الترمذي آخر البر والصلة.

قوله: **«المتشبع بما لم يعط»** معناه: الذي يتظاهر بما ليس عنده أو له كمن يتظاهر بالزهد والصلاح أو العلم وهو عار عن ذلك، أو ينسب شيئاً لنفسه وهو لغيره، أو يصبغ شيبه بالسواد ليظهر أنه شاب، فكل ذلك داخل في قوله: **«كلابس ثوبَيْ زور»** لأن لابس ثوبَي غيره يوهم أنها له وهي ليست كذلك، وفعل مثل ذلك مذموم.

* * *

❁ الضيافة وحق الضيف

[١٣٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُحْسِن إلى جاره، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرم ضيفه، ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت»** وفي رواية: **«فليصمت»**.

رواه أحمد والبخاري في الأدب (١٣/٥٣/١٥٠)، ومسلم في الإيمان (٢/١٨)، وأبو داود في الأدب (٥١٥٤) والترمذي في صفة القيامة (٢٣١٩) بتهذيبي.

[١٣٥] وعن أبي شُرَيْح الخُزاعي رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه»**، وفي رواية: **«جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يُخرِجه»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٤٩)، ومسلم في اللقطة (١٢/٣٠/٣١).

[١٣٦] وعن المقدام بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليلة الضيف حقٌ على كل مسلم، فمن أصبح بفنائه فهو عليه دَيْنٌ، إن شاء اقتضى وإن شاء ترك»**.

رواه أحمد (٤/١٣٠)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٥٠)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٧) وسنده صحيح. قال الحافظ: على شرط الصحيح.

[١٣٧] وعن عقبة بن عامر رضي الله تعالى عنه أنه قال: قلنا: يا رسول الله إنك تبعثنا فننزل بقوم فما يقروننا فما ترى؟ فقال لنا رسول الله ﷺ: **«إن نزلتم بقوم فأمروا لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٥٠)، ومسلم في اللقطة (١٢/٣٢)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٥٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٦).

الضيف هو من ينزل على الإنسان من مسافر ونحوه. وقوله: «جائزته» المراد بها إتحافه بما يمكن من بر وألطاف ومزيد في إكرامه. وقوله: «فما يقروننا» بفتح الياء، أي: لا يضيفونا. وقوله: «فخذوا منهم حق الضيف» أي: خذوا ما تحتاجون إليه. وقوله: «يَثْوي عنده» بفتح الياء وكسر الواو وفتحها وبكسرها في المضارع أي: يقيم ويمكث عنده. وقوله: «حتى يُحْرِجَه» بضم الياء وسكون الحاء ثم جيم مفتوحة من الحرج وهو الضيق، وفي رواية «حتى يؤثمه» أي: يوقعه في الإثم بالكلام فيه مثلاً إن تأخر عنده، والضيافة كانت من محاسن أخلاق الجاهلية ومكارمها، فقد كان العرب مشهورين بذلك وأشهرهم بالإطعام والضيافة حاتم الطائي، ولما جاء الإسلام أقرّها وأمر بها ورغّب فيها وحثّ عليها وجعلها حقاً على المسلمين، للضيف الحق في المطالبة بها وأخذه من المضيف ما يكفيه، وقد أجمع المسلمون كما قال العلماء على أنها من متأكدات الإسلام ومقتضيات الإيمان وشعبه العظيمة، ثم اختلفوا فقال الجمهور ومنهم أبو حنيفة ومالك والشافعي رحمهم الله: إنها سنة، وقال الليث وأحمد وغيرهما رحمهم الله: هي واجبة يوماً وليلة.

وقوله ﷺ: **«فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم»** مع قوله: **«فمَن أصبح بفنائه فهو عليه دَيْن»** وقوله: **«مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه»** كل ذلك يدل ظاهره على الوجوب وأن للضيف حقاً، وهذه الأحاديث مخصصة للآيات والأحاديث التي جاءت بتحريم أموال المسلمين.

وعلى أيّ، فالمسألة خلافية مع الاتفاق على أنها من أعظم وأفضل مكارم الأخلاق، فينبغي للمسلم إذا نزل به ضَيف أن يهتم به ويبالغ في إكرامه وإتحافه يوماً وليلة وهي جائزته، ثم يضيفه ثلاثة أيام ويقدم له ما تيسر ولا يزيد على عادته، وما زاد على الثلاث فهو صدقة له إن شاء فعل وإن شاء ترك.

نعم يحرم على الضيف الإطالة على المضيف حتى يضيق ويحرج ويصير به الحال إلى أن يتكلم فيه.

وقوله ﷺ هنا: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر**» يعني الإيمان الكامل المنجي من عذاب الله الموصل إلى رضوانه ويؤمن بيوم القيامة بأن استعد له واجتهد في فعل وقول ما يدفع به أهواله ومكارهه فيأتمر بما أمر به وينتهي عما نهى عنه، ومن جملة ذلك ما أمر به من إكرام الضيف.

***

❊ تأخُّر المضيف عن ضيفه

[١٣٨] عن عبدالرحمٰن بن أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء أبو بكر بضيف له ـ أو بأضياف له ـ فأمسى عند النبي ﷺ فلما جاء قالت أمّي: احتبسْتَ عن ضيفك ـ أو أضيافك ـ الليلة؟ قال: وما عشّيتِهم؟ فقالت: عرضنا عليه ـ أو عليهم ـ فأبوا ـ أو فأبى ـ، فغضب أبو بكر فسبَّ وجدَّع وحلف لا يَطعَمُه، فاختبأت أنا، فقال: يا غُنثر، فحلفت المرأة لا تطعَمُه حتى يَطعمَه، فحلف الضيف ـ أو الأضياف ـ أن لا يطعمه أو ـ لا يطعموه ـ حتى يَطعمه، فقال أبو بكر: كأن هذه من الشيطان، فدعا بالطعام فأكل وأكلوا، فجعلوا لا يرفعون لقمةً إلا ربا من أسفلها أكثر منها فقال: يا أخت بني فراس ما هذا؟ فقالت: وقرة عيني إنها الآن لأكثر قبل أن نأكل. فأكلوا، وبعث بها إلى النبي ﷺ فذكر أنه أكل منها.

رواه البخاري في علامات النبوة وفي الأدب (١٣/١٥٢).

في الحديث فوائد، منها: التأخُّر عن الضيف إذا كان في المنزل من يقوم به، ومنها: الوصية بإطعام الضيف وإن لم يكن صاحب المنزل حاضراً، ومنها: أن الرجل الصالح قد يغضب ويُسلَّط عليه الشيطان ويصدر منه شتمٌ ونحوه وأن ذلك لا يقدح في صلاحه، فأبو بكر رضي الله تعالى عنه غضب وشتم أهل الدار وعرف أن ذلك من الشيطان، وفيه: أن الحلف

في مثل ما صنع أبو بكر وزوجته والأضياف غير مشروع، وأن ذلك كان من الشيطان فلذلك ندم الصدّيق على ما فعل فأكل وتبعه الأضياف وأهل الدار.

[١٣٩] وعن مالك بن نضلة رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله الرجل أمُرُّ به فلا يقريني، ولا يضيفني، فيمر بي أفأجزيه؟ قال: **«لا، أقره»**، ورآني رث الثياب فقال: **«هل لك من مال؟»**، قال: قلت: من كل المال قد أعطاني الله من الإبل والغنم، قال: **«فليُرَ عليك»**.

رواه أحمد وأبو داود (٤٠٩٣) والنسائي في الزينة، وابن حبان (٢٠٦٧) مختصراً، ورواه الترمذي في البر والصلة (٤٠٦٢) بسند صحيح على شرط مسلم.

رث الثياب أي: خلقة بالية، وفي الحديث: عدم مجازاة المسيء على إساءته والعفو والصفح عنه، وذلك من أشرف الأخلاق الكريمة كما فيه مشروعية التظاهر بنعم الله تعالى من أكل طيب ولباس جميل ومركوب أنيق في غير إسراف ولا مخيلة، وذلك من شكر النعمة.

* * *

المواساة بفضول الأموال

[١٤٠] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن في سفر مع النبي ﷺ إذ جاء رجل على راحلة له قال: فجعل يصرف بصره يميناً وشمالاً، فقال رسول الله ﷺ: **«مَن كان معه فضل ظهر فليَعُد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له»** **قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل.**

رواه مسلم في اللقطة (١٢/٣٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٦٣).

فيه مواساة الغني للفقير، ومساعدة الواجد سواه من المحتاجين.

* * *

❋ الاستئذان ثلاثاً

[١٤١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي، فرجعت، قال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: **«إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»**، فقال: والله لتُقيمن عليه بينةً، أمِنكُم أحدٌ سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم، فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك.

وفي رواية فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: واحدة، ثم سكت ساعة ثم قال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: ثنتان، ثم سكت ساعة فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فقال عمر: ثلاث، ثم رجع فقال عمر للبواب: ما صنع؟ قال: رجع، قال: عليّ به، فلما جاءه قال: ما هذا الذي صنعت؟ قال: السنة، قال: السنة والله لتأتيني على هذا ببرهان وبينة أو لأفعلن بك، قال: فأتانا ونحن رفقة من الأنصار فقال: يا معشر الأنصار ألستم أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ ألم يقل رسول الله ﷺ: **«الاستئذان ثلاث، فإن أُذن لك وإلا فارجع»** فجعل القوم يمازحونه، قال أبو سعيد: ثم رفعت رأسي إليه فقلت: ما أصابك في هذا من العقوبة فأنا شريكك، قال: فأتى عمر فأخبره بذلك فقال عمر: ما كنت علمت بهذا.
وفي رواية: ألهاني عنه الصفق بالأسواق.

رواه البخاري في الاستئذان (١٣/٢٦٤/٢٦٥) وفي مواضع، ومسلم في الأدب (١٤/١٣٠/١٣٥)، وأبو داود (٥١٨٠)، والترمذي (٢٥٠٤)، وابن ماجه (٣٧٠٦) وغيرهم، وزاد مسلم في رواية: فقال عمر: إن وجد بينة تجدوه عند المنبر عشية، وإن لم يجد بينة فلن تجدوه، فلما أن جاء بالعشي وجده، قال: يا أبا موسى ما تقول؟ أقد وجدت؟ قال: نعم أُبي بن كعب، قال: عدل، قال: يا أبا الطفيل، وفي لفظ: يا أبا المنذر ما يقول هذا؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك، يا ابن الخطاب فلا تكونن عذاباً

على أصحاب رسول الله ﷺ، قال: سبحان الله أنا سمعت شيئاً فأحببت أن أثبت.

الاستئذان في الأصل: طلب الإذن في الدخول، وقد جعله المحدثون عنواناً لأبواب وآداب كثيرة يذكرونها تحته كما فعل البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم، وسنذكر كثيراً منها ههنا تبعاً لهم.

والاستئذان الذي هو طلب الإذن في الدخول إلى منزل ما، له أحكام وآداب، منها: ما ذكر في هذا الحديث من الاستئذان ثلاثاً، فإن أذن له دخل وإلا رجع، وما فعله عمر مع أبي سعيد رضي الله تعالى عنهما لم يفعله اتهاماً له، وإنما كان ذلك منه تثبُتاً كما قال، ولم يكن بلغه هذا الأدب كما صرح بذلك لاشتغاله بالتجارة وطلب المعاش ففاته سماع هذا الحديث من النبي ﷺ.

* * *

ومن آداب الاستئذان

[١٤٢] عن هَزِيل قال: جاء رجل فوقف على باب النبي ﷺ يستأذن فقام على الباب مستقبل الباب فقال له النبي ﷺ: **«هكذا عنك، فإنما الاستئذان من النظر»**.

رواه أبو داود (٥١٧٤).

[١٤٣] وعن عبدالله بن بسر قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: **«السلام عليكم»**، وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور.

رواه أبو داود في الاستئذان (٥١٨٦) بسند صحيح.

هذا من آداب الاستئذان، وهو أن يقف الإنسان على أحد جانبَي الباب ولا يقف قبالته، فإن الاستئذان إنما شرع خشية من أن يرى الإنسان عورة داخل المنزل، ولذلك جاء التهديد الشديد في ذلك كما في الآتي:

[١٤٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلاً اطّلع من بعض حُجَر النبي ﷺ فقام إليه بمِشقص ـ أو مشاقص ـ فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يخْتِلُه ليطعنه.

رواه البخاري في الأدب (٢٦٢/١٣)، ومسلم (١٣٨/١٣٧/١٤)، وأبو داود في الأدب (٥١٧١)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٢٣).

«مشقص»: بكسر الميم وسكون الشين وفتح القاف، نصل عريض من حديد. وقوله: «يختله» بفتح الياء وكسر التاء، أي: يراوغه ويستغفله ليطعنه بها في عينه. ففيه تحريم النظر إلى عورات الناس في بيوتهم، وأن ذلك يُعد من كبار الذنوب لأن إباحة فقئ أعين الغير لا يكون إلا لأمر يوجب الحد.

[١٤٥] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رجلاً اطلع من جُحْرٍ في باب رسول الله ﷺ ومع رسول الله ﷺ مِدْرَى يُرَجِّل بها رأسه، فقال له رسول الله ﷺ: **«لو أعلم أنك تنظر طعنتُ به في عينك، إنما جعل الله الإذن من أجل البصر»**.

رواه البخاري في الديات، ومسلم في الأدب (١٣٧/١٣٦/١٤)، والترمذي (٢٥٢٤)، والدارمي (٢٣٨٩).

«المدرى»: بكسر الميم، حديدة تشبه المشط يحك أو يسرح بها الشعر. وقوله: «يرجل» أي: يسرح بها شعر رأسه.

[١٤٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«مَن اطّلع في دار قوم بغير إذنهم ففقأوا عينه فقد هدرت عينه»**، وفي رواية: **«لو أن رجلاً اطلع عليك بغير إذن فخذفْتَه بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح»**.

رواه البخاري بالرواية الثانية في الديات، ومسلم (١٣٨)، وأبو داود (٥١٧٢) كلاهما في الأدب.

فالحديثان يدلان على تحريم النظر في بيت الغير بلا استئذان، وأن من

اطلع ببصره على عورة قوم ففقأوا عينه كان ذلك هدراً لا دية فيها ولا حرج على الفاقىء، وذلك يدل على عظم هذا الجرم.

* * *

كيف الاستئذان

[١٤٧] عن رِبْعِيّ قال: حدثنا رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت فقال: أألِجُ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه: **«أُخرج إلى هذا فعلِّمه الاستئذان فقل له: قل: السلام عليكم أأدخل؟»**، فسمعه الرجل فقال: السلام عليكم أأدخل؟ فأذن له النبي ﷺ، فدخل.

رواه أبو داود في الاستئذان (٥١٧٧) بسند صحيح.

[١٤٨] ونحوه عن كَلْدَة بن حنبل أن صفوان بن أمية بعثه بلبن وجداية وضغابيس إلى النبي ﷺ والنبي ﷺ بأعلى الوادي، قال: فدخلت عليه ولم أستأذن ولم أُسلّم، فقال النبي ﷺ: **«إرجع فقل السلام عليكم أأدخل»** وذلك بعدما أسلم صفوان.

رواه أحمد (٤١٤/٦)، وأبو داود (٥١٧٦)، والترمذي (٢٥٢٥) كلاهما في الاستئذان من طرق صحيحة غير ما عند الترمذي.

[١٤٩] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: استأذنت على النبي ﷺ في دَيْن كان على أبي، فقال: **«مَن هذا؟»** فقلت: أنا، فقال: **«أنا، أنا»** كأنه كره ذلك.

رواه البخاري (٢٧٢/١٣)، ومسلم في الأدب (١٣٦/١٣٥/١٤)، وأبو داود (٥١٨٧)، والترمذي (٢٥٢٦)، وابن ماجه (٣٧٠٩).

قوله: «أألج» أي: أأدخل. قوله: «وجداية» هو ولد الظبية إذا بلغ ستة أو سبعة أشهر. و«الضغابيس»: جمع ضغبوس، بضم الضاد، هو صغار القثاء.

وفي هذه الأحاديث بيان صفة الاستئذان وأنه بعدما يطرق الباب فيُقال له: مَن يجيب بقوله: أنا فلان مبيناً اسمه المعروف به، ثم يقول: السلام عليكم أأدخل أو هناك فلان، ونحو ذلك، ولا يقول: أنا أنا ولا يفتح الباب ويدخل بدون استئذان ولا سلام، وفي القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

«تستأنسوا» أي: تستأذنوا، فهذا تفصيل من القرآن للاستئذان.

* * *

الاستئذان في العورات الثلاث

[١٥٠] عن عكرمة أن نفراً من أهل العراق قالوا: يا ابن عباس كيف ترى في هذه الآية التي أُمِرنا فيها بما أمرنا ولا يعمل بها أحد: قول الله عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

قال ابن عباس: إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال، فربما دخل الخادم، أو الولد، أو يتيمة الرجل، والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله عزّ وجل بالستور والخير، فلم أرَ أحداً يعمل بذلك بعدُ.

رواه أبو داود في الاستئذان (٥١٩٢) وسنده صحيح، رجاله رجال الشيخين.

[١٥١] وعنه قال: لم يؤمر بها أكثر الناس آية الإذن، وإني لآمر جاريتي هذه تستأذن عليّ.

رواه أبو داود أيضاً (٥١٩١) بسند صحيح أيضاً.

الآية الكريمة تأمر باستئذان الممالك والأطفال على أهل الدار في أوقات ثلاث سمّاها الله عورات، وهي آخر الليل ما قبل صلاة الفجر، وعند القيلولة وسط النهار، وبعد صلاة العشاء.

لأن هذه الأوقات يختلي فيها الرجل وأهله ويضعان فيها ثيابهما، وربما يكشفان عما يكرهان رؤيته من الغير ولو من الأطفال والخدم.

فأوجب الله تعالى فيها الاستئذان عموماً، ولا حرج في عدم الاستئذان من الخدم والأطفال في غير هذه الأوقات.

نعم إذا بلغ الأطفال الحُلُمَ وجب عليهم الاستئذان في جميع الأوقات ولو على الأم والأب كما قال تعالى بعد الآية السابقة: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وقد ذكر الحافظ في الفتح (٢٦٢/١٣) آثاراً صحيحة عن الصحابة فيها الأمر بالاستئذان على الأبوين والإخوة والأخوات.

* * *

أبواب السلام
بدايته

[١٥٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما خلقه قال: اذهب فسلّم على أولئك النفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يُحَيُّونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل مَن يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن».**

رواه أحمد (٣١٥/٢)، والبخاري في الاستئذان (٢٤٢/٢٣٩/١٣) وغيره، ومسلم في الجنة ونعيمها (١٧٨/١٧).

في الحديث بيان أن بداية السلام كانت من سيدنا آدم أبي البشرية عليه الصلاة والسلام، وأنه سلّم على الملائكة بأمر من الله فردوا عليه وزادوه: ورحمة الله، وأخبره تعالى بأن هذه هي تحيته وتحية بنيه فيما بينهم، كما أنها تحية الملائكة لأهل الجنة.

وقوله: «خلق الله آدم على صورته» الضمير في صورته يعود على آدم كما هو قول جمهور العلماء وهو ظاهر الحديث، فإن قوله آخر الحديث: «**فكل من يدخل الجنة على صورة آدم**» فهو كالنص على أن الضمير له عليه السلام فهو مخلوق بهذه الصورة التي استمر عليها حتى نزل إلى الدنيا ثم مات عليها وسيعيده الله تعالى على صورته التي خلقه عليها وعلى صورته سيكون أهل الجنة، فصورته التي خلق عليها لم تتبدل وتتحول إلى صورة أخرى، ثم الحديث فيه رد على فكرة دارون اللعين في قوله بالنشوء والارتقاء، وأن الإنسان أصله قرد وليس من آدم عليه السلام، وهي فكرة خاطئة مخالفة لجميع أهل الأديان الإلٰهية ومعتقدها كافر ملعون.

* * *

❊ إفشاء السلام

[١٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابُوا، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم**».

رواه مسلم في الإيمان (٣٥/٢) بالنووي، وأبو داود في الاستئذان (٥١٩٣)، وابن ماجه في المقدمة (٦٨) والأحاديث في الأمر بإفشاء السلام كثيرة، إفشاء السلام إظهاره وتعميمه.

في الحديث أن التحابب من خصال الإيمان وكماله، كما فيه أن إفشاء السلام بين المسلمين يوجب التحابب بينهم ويُذهب الشحناء والضغينة.

وإفشاء السلام من حقوق المسلم على أخيه كما تقدم، ومظهر من

مظاهره وأسباب الألفة والأخوة الإسلامية، فهو من أظهر شعار المسلمين المميز لهم عن غيرهم من أهل الملل الأخرى.

قال العلماء: هذا مع ما فيه من رياضة النفس ولزوم التواضع وإعظام حرمات المسلمين.

وقد ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه أنه قال: «**ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار**» ورواه بعضهم مرفوعاً.

[١٥٤] وعن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ أي الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت وعلى من لم تعرف**».

رواه البخاري في الإيمان وفي الاستئذان (١٣/٢٥٧)، ومسلم في الإيمان (٦٣).

وفي الحديث مشروعية تعميم السلام على المعارف وغيرهم، لكنه مقيد بغير الكافر والفاسق كما يأتي لاحقاً.

ثم إن العلماء اتفقوا على أن البداية بالسلام سُنَّةٌ، والرد واجب، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾، بل نقل القرطبي الإجماع على ذلك، وقوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ...﴾ إلخ، معناه أن من سلّم فقال: السلام عليكم، فردُّوا عليه بمثل ذلك أو بأحسن منها وهي عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

وإفشاء السلام عام بين ذكور المسلمين وإناثهم، فالرجل كما يسلّم على الذكر مثله له أن يسلّم على الأنثى ما لم تخش فتنة، ولذلك فرق بعض الأئمة بين الشابة والمتجالة، فمنعوا السلام على الشابة وأجازوها على المتجالة.

وعمل النبي ﷺ على العموم فقد كان يسلّم على النساء كما يسلّم على الرجال والأطفال لكن الرسول ﷺ معصوم من الفتنة...

* * *

❋ فضل الزيادة في ألفاظ التحية وكلماتها

[١٥٥] عن عمران بن حُصَين رضي الله تعالى عنه أن رجلاً جاء النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فقال النبي ﷺ: «عَشْرٌ» وجاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال النبي ﷺ: «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فقال النبي ﷺ: «ثلاثون».

رواه أحمد (٤٤٠/٤٣٩/٤)، وأبو داود (٥١٩٥)، والترمذي (٢٥٠٣) كلاهما في الاستئذان، والنسائي في الكبرى (٩١/٦) بسند صحيح على شرط مسلم، وله شاهد عن أبي هريرة رواه البخاري في الأدب المفرد، وابن حبان (١٩٣١) بسند صحيح.

وفي الحديث فضل السلام وأن كل جملة منه بعشر حسنات، وقد اشتهر بين العلماء أن نهاية السلام ورده هو وبركاته، وقد جاء ما يدل على زيادة: **«ومغفرته»**.

[١٥٦] فعن زيد بن أرقم رضي الله تعالى عنه قال: كنا إذا سلّم النبي ﷺ علينا، قلنا: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته.

أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٣٣٠/١/١) بإسناد جيد رجاله ثقات، غير إبراهيم بن المختار الرازي فقال أبو حاتم: صالح الحديث، أفاده الشيخ ناصر الألباني رحمه الله تعالى في الصحيحة. فهذه الزيادة يعمل بها فإنها زيادة ثقة وسنّة تقريرية.

❋ ❋ ❋

❋ فضل البادىء بالسلام

[١٥٧] عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أَوْلى الناس بالله من بدأهم بالسلام»**.

رواه أبو داود (٥١٩٧)، والترمذي (٢٥٠٨) كلاهما في الاستئذان، وسنده صحيح عند أبي داود.

وقوله: «أوْلى الناس» أي: أقرب الناس إلى رحمة الله تعالى، ففيه فضل من يبدأ الناس بالسلام.

* * *

السلام قبل الكلام

[١٥٨] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه»**.

رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة رقم (٢١٣) بسند حسن، وبقية صرح بالتحديث، فالحديث يدل على أن من تكلم قبل السلام لا يُجاب ولا يُتكلم معه حتى يُسلّم وهذه سنة غريبة قلَّ من يفعلها.

* * *

من حق الجلوس في الطريق رد السلام

[١٥٩] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إياكم والجلوس بالطرقات»**، فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدث فيها، فقال: **«فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه»**، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: **«غضُّ البصر، وكفُّ الأذى، وردُّ السلام، والأمرُ بالمعروف، والنهي عن المنكر»**.

رواه أحمد (٦١/٤٧/٣٦/٣)، والبخاري في الاستئذان (٢٤٧/٢٤٦/١٣)، ومسلم (١٤٢/١٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨١٥) وفي الباب عن أبي هريرة ما عند أبي داود (٤٨١٦) وزاد: **«وإرشاد السبيل»**. وعن عمر عنده أيضاً (٤٨١٧) وزاد: **«وتغيثوا الملهوف وتَهدُوا الضالّ»**

وسندهما صحيح. وقوله: «ما لنا بُدٌّ» أي: لا محيد لنا عن الجلوس فيها.

[١٦٠] وعن أبي طلحة رضي الله تعالى عنه قال: كنا قعوداً بالأفنية نتحدث، فجاء رسول الله ﷺ فقام علينا فقال: **«ما لكم ولمجالس الصُّعُدات اجتنبوا مجالس الصُّعُدات»** فقلنا: إنما قعدنا لغير ما بأس، قعدنا نتذاكر ونتحدث، قال: **«إما لا، فأدُّوا حقها غضُّ البصر، وردُّ السلام، وحُسْنُ الكلام»**.

رواه مسلم في الأدب (١٤١/١٤).

«الأفنية»: جمع فِناء بكسر الفاء وهو ما كان من الأرض في جوانب الدار ونحوها. «الصُّعدات»: بضم الصاد والعين، جمع صعيد وهي الطرقات. وقوله: «إمّا لا» أي: إن لم تتركوها فأدُّوا حقها.

وفي الحديثين بيان حقوق الجلوس في الطرقات العامة وهي كما ذكرناه تسعة حقوق: غض البصر عن محاسن النساء المحرمات، والكف عن إذاية المارّة من ترك غيبتهم وظن السوء بهم، ورد السلام على من يسلّم على الجلوس، والأمر بالمعروف، والدعوة إلى الخير، والنهي عن المنكر الذي يُرى في الطريق، ثم إرشاد الضال عن الطريق وهداية المنحرف عن السبيل، ثم نصر المظلوم ومساعدة المضطر، ثم حُسن الكلام مع المارّين.

وجاءت حقوق أخرى في أحاديث بعضها لا تثبت وقد أبلغها الحافظ في الفتح إلى أربعة عشر أدباً وحقاً ونظمها في قوله:

جمعتُ آدابَ من رامَ الجلوسَ على الطريق ... من قول خَيْرِ الخلقِ إنسانًا
أفْشِ السلامَ وأحسنِ في الكلامِ وشمِّتْ ... عاطِساً وسلاماً رد إحسانًا
في الحَمْلِ عاوِنْ ومظلوماً أعِنْ وأغِثْ ... لهفانَ إهْدِ سَبيلاً واهد حَيْرَانًا
بالعُرفِ مُر وانْهَ عن نُكْرٍ وكُفَّ أذَى ... وغُضَّ طرفاً وأكْثِر ذِكْرَ مولانَا

قال النووي رحمه الله تعالى: وقد أشار النبي ﷺ إلى علة النهي من التعرض للفتن والإثم بمرور النساء وغيرهن، وقد يمتد نظر إليهن، أو فكر فيهن، أو ظن سوء فيهن، أو في غيرهن من المارين، ومن أذى الناس

باحتقار من يمر أو غيبة أو غيرها، أو إهمال رد السلام في بعض الأوقات، أو إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونحو ذلك من الأسباب التي لو خلا في بيته سلم منها، ويدخل في الأذى أن يضيّق الطريق على المارّين أو يمتنع النساء ونحوهن من الخروج في أشغالهن بسبب قعود القاعدين في الطريق أو يجلس بباب دار إنسان يتأذى بذلك أو حيث يكشف من أحوال الناس شيئاً يكرهونه... وهذه الآداب والحقوق قد تعذّر القيام بها اليوم فلا يقدر أحد على مراعاتها لغلبة الشر وانتشاره وقلة الخير وأهله.

وعلى أيٍّ، فمن حقوق الجلوس في الطرقات رد السلام على كل من مرّ وسلّم.

* * *

❋ مَن أولى بالبداءة بالسلام

[١٦١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُسلِّمُ الراكبُ على الماشي، والماشي على القاعد، والقليلُ على الكثير»**.

رواه البخاري (١٣/٢٥١)، ومسلم (١٤/١٤٠)، وأبو داود (٥١٩٩)، والترمذي (٢٥١٨) كلهم في الاستئذان، وفي رواية للبخاري (١٣/٢٥٠)، وأبي داود (٥١٩٨)، والترمذي (٢٥٢٠): **«يسلّم الصغير على الكبير والمار على القاعد والقليل على الكثير»**.

في هذا الحديث أدب من آداب التحية والسلام، وأن السنة أن يسلّم الراكب على الراجل الماشي، والماشي على الجالس، والواحد على الاثنين، والاثنان على الثلاثة، فمن فوقهم وهكذا. والصغير على الكبير سناً أو قدراً حتى ولو كان العالم صغيراً والعامي كبيراً، فالعامي الكبير سناً يعتبر صغيراً والعالم الصغير سناً يعتبر كبيراً قدراً.

* * *

❋ مشروعية السلام لمن قام من المجلس

[١٦٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أتى أحدُكم إلى المجلس فليسلّم، فإذا أراد أن يقوم فليسلّم، فليست الأولى بأحق من الآخرة»**، وفي رواية: **«فإن بدا له أن يجلس فليجلس، ثم إذا قام فليسلّم»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٠/٤٣٩)، وأبو داود (٥٢٠٨)، والترمذي (٢٥٢١) كلاهما في الاستئذان، والنسائي في الكبرى (٦/١٠٠)، وابن حبان (١٩٣١) وسنده حسن صحيح.

في الحديث مشروعية السلام عند إتيان مجلس ما وعند قيامه وانصرافه، فالسلام في الآخر كالأول ولا فارق.

❋ ❋ ❋

❋ مشروعية السلام عند افتراق الرجلين

[١٦٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا لقي أحدكم أخاه فليسلّم عليه، فإن حالت بينهما شجرة، أو جدار، أو حجر، ثم لقيه فليسلّم عليه»**.

رواه أبو داود في الاستئذان (٥٢٠٠) بسند صحيح، ورواه أيضاً البخاري في الأدب المفرد (١٠١٠)، وأبو يعلى موقوفاً.

[١٦٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إن أصحاب النبي ﷺ كانوا يكونون فتستقبلهم الشجرة، فتنطلق طائفة منهم عن يمينها وطائفة عن شمالها فإذا التقوا سلّم بعضهم على بعض، وفي رواية: كنا إذا كنا مع رسول الله ﷺ فتفرق بيننا شجرة فإذا التقينا يسلّم بعضنا على بعض.

رواه البخاري في الأدب المفرد (١٠١١) والطبراني في الأوسط، وحسنه الحافظان المنذري، والهيثمي (٨/٣٤) رحمهما الله تعالى.

وفي الحديثين مشروعية السلام ولو تكرر اللقي عن قرب إذا حالت بين الرجلين شجرة أو جدار أو نحو ذلك، بل ولو لم يحل بينهما شيء إذا كان اللقي عن قرب كما تقدم في حديث المسيء صلاته، فإنه أتى النبي ﷺ فسلّم عليه وردّ عليه، فقال له: **«ارجع فصلّ فإنك لم تصلّ»** فعل معه ذلك ثلاث مرات، وفي كلها يسلّم ويرد عليه وهو في الصحيحين.

* * *

السلام على أهل حلقة الذكر والعلم

[١٦٥] عن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، فلما وقفا على رسول الله ﷺ سلّما، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الآخر: فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله إليه، وأما الآخر فاستحيى فاستحيى الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه»**.

رواه البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، وتقدم في العلم من الجزء الأول رقم (١٢).

ففي الحديث مشروعية السلام على أهل الحلقة للذكر والعلم وفضل الجلوس معهم.

* * *

رد الواحد عن الجماعة

[١٦٦] عن علي عليه السلام رفعه قال: **«يُجزىء عن الجماعة إذا مرُوا أن يسلّم أحدهم، ويجزىء عن الجلوس أن يرد أحدهم»**.

رواه أبو داود (٥٢١٠) وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإن له شواهد يصح بها.

انظر الصحيحة للشيخ ناصر (١٤١٢/١١٤٨).

***

❁ لا يقال في التحية بداية: عليك السلام

[١٦٧] عن رجل قال: طلبت النبي ﷺ فلم أقدر عليه، فجلست فإذا نفر هو فيهم ولا أعرفه وهو يُصلح بينهم، فلما فرغ قام معه بعضهم فقالوا: يا رسول الله، فلما رأيت ذلك قلت: عليك السلام يا رسول الله، عليك السلام يا رسول الله، عليك السلام يا رسول الله، قال: «**إن عليك السلام تحية الميت**» ثم أقبل عليّ فقال: «**إذا لقي الرجل أخاه المسلم فليقل: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**» ثم ردّ عليَّ النبي ﷺ وقال: «**وعليك ورحمة الله، وعليك ورحمة الله، وعليك ورحمة الله**».

وفي رواية عن جابر بن سليم قال: أتيت النبي ﷺ فقلت: عليك السلام، قال: «**لا تقل عليك السلام، ولكن قل السلام عليكم**».

رواه الترمذي في الاستئذان من طريقيه وكلاهما صحيح، وحسّنه وصححه.

ورواه أبو داود في الاستئذان (٥٢٠٩)، والنسائي في الكبرى (٨٨/٦)، وابن حبان، والحاكم من طريق أبي تميمة الهجيمي، ورواه أبو داود في اللباس (٤٠٨٤) مطولاً، ويأتي إن شاء الله كاملاً في اللواحق.

دلّ الحديث على أن المشروع في التحية أن تكون بلفظ: «**السلام عليكم**» نعم يكون ذلك في الرد، كعليه السلام أيضاً.

ففي حديث المسيء صلاته: أنه لما سلّم على النبي ﷺ ردّ عليه بقوله: «**وعليك السلام ارجع فصلِّ...**» إلخ.

وتقدم في فضائل عائشة حديثها أن النبي ﷺ قال لها: **«إن جبريل عليه السلام يقرأ عليكِ السلام»** قالت: وعليه السلام ورحمة الله، وهو في الصحيح.

* * *

❁ السلام على من في المنزل من نائم ويقظان

[١٦٨] عن المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: أقبلت أنا وصاحبان لي قد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد فجلعنا تعرض أنفسنا على أصحاب النبي ﷺ فليس أحد يقبلنا، فأتينا النبي ﷺ فأتى بنا أهله، فإذا ثلاثة أعنُزٍ فقال النبي ﷺ: **«احتلبوا هذا اللبن»** وكنا نحتلبه فيشرب كل إنسان نصيبه ونرفع لرسول الله ﷺ نصيبه فيجيء رسول الله ﷺ من الليل فيسلّم تسليماً لا يوقظ النائم، ويُسمع اليقظان، ثم يأتي المسجد فيصلي ثم يأتي شرابه فيشربه.

رواه مسلم في الأطعمة باب إكرام الضيف (١٦/١٣/١٤) مطولاً، والترمذي في الاستئذان (٢٥٣٤) وهذا سياقه.

ففي الحديث أدب من آداب السلام وهو أن يكون بانخفاض، إذا كان بالمنزل أخلاط ما بين يقظان ونائم، فما كان يفعله ﷺ هو من جملة أخلاقه الكريمة، فكان لا يجهر بالسلام حتى لا يزعج النائمين.

* * *

❁ السلام على المصلي وكيف يرُدّ

[١٦٩] عن صهيب رضي الله تعالى عنه قال: مررت برسول الله ﷺ وهو يصلي فسلّمتُ، فردّ إليّ إشارة بأصبعه.

رواه أحمد (٣٣٢)، وأبو داود (٩٢٥)، والترمذي (٣٢٧)، وابن ماجه (١٠١٧)، وكذا ابن خزيمة (٨٨٨) وسنده صحيح عند بعضهم.

[١٧٠] وقيل لبلال رضي الله تعالى عنه: كيف كان النبي ﷺ يرد عليهم حين كانوا يسلّمون عليه وهو في الصلاة؟ قال: كان يشير بيده.

رواه أحمد (١٢/٦)، وأبو داود (٩٢٧)، والترمذي (٣٢٨) وحسنه وصححه.

فالحديثان صريحان في مشروعية السلام على المصلي وأن له أن يرد بالإشارة بيده بإصبع ونحوه، ولا يؤثر ذلك في صحة الصلاة.

* * *

السلام على النساء والأطفال

[١٧١] عن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها قالت: مرّ علينا النبي ﷺ في نسوة فسلّم علينا، وفي رواية: مرّ في المسجد يوماً وعصبة من النساء قُعود فألوى بيده بالتسليم، وأشار عبدالحميد بيده.

رواه أبو داود (٥٢٠٤)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٠١)، والترمذي في الاستئذان (٢٥١١)، والدارمي (٢٦٤٠) وسنده حسن.

[١٧٢] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: كنا نفرح يوم الجمعة، كانت لنا عجوزٌ ترسل إلى بُضاعة فتأخذ من أصول السِّلْق فتطرحه في قدر وتُكركر حبات من شعير، فإذا صلّينا الجمعة انصرفنا ونسلّم عليها فتقدمه إلينا فنفرح من أجله، وما كنا نقيل ولا نتغدى إلا بعد الجمعة.

رواه البخاري في الجمعة وفي الاستئذان (٢٧١/١٣).

قوله: «تكركر» أي: تطحن.

وفي الحديثين مشروعية السلام على النساء، وقيد العلماء ذلك إذا أمنت الفتنة ولم يؤد ذلك إلى التعارف والمحظور، فإن السلام على النساء قد يجر إلى الكلام والكلام يجر إلى ما يمنع شرعاً، فالأولى الاقتصار على السلام على من لا يخشى منهن فتنة كجماعة من النسوة مثلاً أو كن

عجائز... أو أمن الإنسان على نفسه كالنبي ﷺ، وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم (١٤٩/١٤).

أما تسليم النساء على الرجال فقد جاء في صحيح مسلم أن أم هانئ أتت النبي ﷺ يوم الفتح وهو يغتسل فسلّمت عليه فقال: «مَن هذه؟» فقالت: أم هانيء، فقال: «مرحباً بأم هانيء».

[١٧٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أنه مرّ على صبيان فسلّم عليهم وقال: كان النبي ﷺ يفعله.

وفي رواية: أتى رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون فسلّم عليهم.

وفي أخرى: انتهى إلينا رسول الله ﷺ وأنا غلامٌ في الغلمان فسلّم علينا ثم أخذ بيدي فأرسلني برسالة...

رواه البخاري (٢٦٩/١٣)، ومسلم، وأبو داود (٥٢٠٢/٥٢٠٣)، والترمذي (٢٥١٠)، والنسائي، وابن ماجه في الأدب (٢٧٠٠).

قال العلماء: في السلام على الأطفال والصغار، تدريبهم على أدب الشريعة وتمرينهم على القيام بالتكاليف الشرعية، وطرح رداء الكبر وسلوك التواضع ولين الجانب، حتى إذا احتلموا رسخ ذلك في أخلاقهم وأعماق قلوبهم.

* * *

❊ السلام على مجلس يضم المسلمين وغيرهم

[١٧٤] عن أسامة بن يزيد رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ مرّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين واليهود فسلّم عليهم.

رواه البخاري في الأدب (٢٧٦/١٣) ومسلم مطولاً، ورواه الترمذي (٢٥١٧) مختصراً، وقد تقدم في السيرة وغيرها بطوله.

في الحديث مشروعية السلام على أهل مجلس يضم المسلمين وغيرهم

من المشركين والكفار، لأن السلام ينصرف إلى المسلمين ولا حظ فيه للكافرين والملحدين.

* * *

❊ أشخاص لا يسلم عليهم

لا يسلم على قاضي الحاجة

[١٧٥] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً سلّم على النبي ﷺ وهو يبول، فلم يرد عليه النبي ﷺ السلام.

رواه مسلم وأبو داود (١٦)، والنسائي (٣٤/١)، والترمذي (٧٨)، وابن ماجه (٣٥٣) وغيرهم.

في الحديث عدم رد السلام ممن كان على قضاء حاجة من بول أو غائط، وفي ضمنه عدم مشروعيته وقتئذ.

وذكر العلماء عدم مشروعيته على من كان في الحمام، أو كان مكشوف عورته، أو كان على معصية، ونحو ذلك.

* * *

❊ عدم مشروعيته على الكفار

[١٧٦] عن سُهَيل بن أبي صالح قال: خرجت مع أبي إلى الشام، فجعلوا يَمُرُّون بصوامع فيها نصارى، فيُسلِّمون عليهم، فقال أبي: لا تبدأوهم بالسلام فإن أبا هريرة رضي الله تعالى عنه حدثنا عن رسول الله ﷺ قال: **«لا تبدأوهم بالسلام، وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيق الطريق»**.

رواه أحمد (٣٤٦/٢/٤٤٤/٤٥٩)، ومسلم في السلام (١٤/١٤٨)، وأبو داود (٥٢٠٥/٥٢٠٦/٥٢٠٧) والترمذي (٣٥١٥/١٤٧١) وغيرهم.

قوله «فاضطروهم» أي ألجئوهم إلى الطريق الضيق ولا تتركوا لهم الطريق الواسع وتسلكوا الطريق الضيق، هذا ظاهر الحديث، قال النووي: قال أصحابنا: لا يُترك للذمي صدر الطريق بل يضطر إلى أضيقه.

وقال القرطبي: لا تتنحوا لهم عن الطريق الضيق إكراماً لهم واحتراماً.

والحديث يدل على أنه لا يجوز للمسلم أن يبدأ الكافر بالسلام، فإذا بدأ الكافر فماذا يفعل معه؟ وجوابه هو الآتي:

[١٧٧] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن اليهود إذا سلّم عليكم أحدهم فإنما يقول: السام عليكم، فقولوا: وعليكم»**.

رواه البخاري في الاستئذان (١٣/٢٨١)، ومسلم في السلام (١٤/١٤٦)، وأبو داود (٥٢٠٦)، والترمذي وغيرهم.

[١٧٨] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: إن أهل الكتاب يسلّمون علينا فكيف نرد عليهم؟ قال: **«قولوا: وعليكم»**.

رواه البخاري ومسلم في المصدرين السابقين، وأبو داود (٥٢٠٧)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٧).

[١٧٩] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة إن الله يحب الرِّفق في الأمر كله»**، قالت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: **«قد قلتُ: وعليكم»**.

وفي رواية: ففطنت بهم عائشة فسبّتهم، فقال رسول الله ﷺ: **«مَهْ يا عائشة، فإن الله لا يحب الفُحْشَ والتفحُش»** فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ...﴾ الآية.

وفي رواية أخرى فقالوا: السام عليكم يا أبا القاسم، فقال: **«وعليكم»** فقالت عائشة وغضبت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: **«بلى قد سمعتُ فرددت**

عليهم، وإنا نجاب عليهم، ولا يُجابون علينا»، وفي رواية: **«يُستجاب لي فيهم، ولا يُستجاب لهم فيّ»**.

رواه البخاري في الأدب (٥٧/١٣)، وفي الاستئذان (٢٧٩/١٣/ ٢٨٠)، وفي الدعوات وفي الجهاد، ومسلم في السلام (١٤٦/١٤/١٤٧/١٤٨)، والترمذي (٢٥١٦) في الاستئذان، والنسائي في الكبرى (٤٨٢/٦)، وابن ماجه في الأدب (٣٦٩٨)، والروايات لمسلم.

السام: هو الموت. ففي هذه الأحاديث بيان بعض فضائح اليهود وقبائحهم التي يعاملون بها غيرهم، فها هم يتظاهرون بأنهم يسلّمون على النبي ﷺ وعلى أصحابه وهم يدعون عليه وعليهم بالموت، وقد فطن لهم النبي ﷺ فردّ عليهم بقوله: **«وعليكم»** فكان ذلك هو المشروع، ولا يقال: وعليكم السلام، وكان جوابه ﷺ ورده عليهم فيما قالوه وغض الطرف عن سفههم عملاً بأخلاقه الكريمة، أما مولاتنا عائشة فلعنتهم وسبّتهم وقابلتهم على فحشهم بالمثل، لكن النبي ﷺ كان لا يرضيه كلام الفحش ولو كان انتصاراً، وبيّن للسيدة عائشة بأننا عندما نجيبهم بقولنا: **«وعليكم»**، سيجيبنا الله تعالى في دعائنا عليهم دونهم، ولذا قال لها: **«وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا»**، وقد فضحهم الله عزّ وجل فيما فاهوا به وأنزل في شأنهم قرآناً يُتلى على مدى العصور، وفيما فعلته عائشة كان انتصاراً للنبي ﷺ من الظلم الذي أصابه من طرف أصحاب القردة والخنازير.

*** * ***

❊ ترك السلام على الفاسق والعاصي

قال البخاري في الاستئذان: باب مَن لم يسلّم على من اقترف ذنباً ومَن لم يرد سلامه حتى تتبين توبته وإلى متى تتبين توبة العاصي.

وقال عبدالله بن عمرو: لا تُسلّموا على شَرَبَةِ الخمر.

[١٨٠] ثم أخرج عن عبدالله بن كعب قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلّف عن تبوك ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا، حتى كملت خمسون ليلة وآذن النبي ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى الفجر.

رواه البخاري في الاستئذان هكذا مختصراً، وقد رواه هو ومسلم وغيرهما مطولاً، وقد تقدم في التفسير وفي السيرة.

والحديث استدل به العلماء، ومنهم البخاري على ترك السلام وعدم رده على العاصي والمبتدع. قال الحافظ: وقد ذهب الجمهور إلى أنه لا يسلّم على الفاسق والمبتدع.

قال النووي: فإن اضطر إلى السلام بأن خاف ترتب مفسدة في دين أو دنيا إن لم يسلّم سلّم، وكذا قال ابن العربي وزاد: وينوي أن السلام اسم من أسماء الله تعالى، فكأنه قال: والله رقيب عليكم. وقال المهلب: ترك السلام على أهل المعاصي سنّة ماضية، وبه قال كثير من أهل العلم في أهل البدع. قال: وألحق بعض الحنفية بأهل المعاصي من يتعاطى خوارم المروءة ككثرة المزاح واللهو وفحش القول والجلوس في الأسواق لرؤية من يمر من النساء ونحو ذلك.

وقال النووي: وأما المبتدع ومن اقترف ذنباً عظيماً ولم يتب منه، فلا يسلّم عليهم ولا يرد عليهم السلام كما قال جماعة من أهل العلم.

وحكمة ذلك تأديب العاصي والمبتدع وزجرهما عما هما فيه، فإن تابا ويعرف ذلك بالقرائن سلّم عليهما كما حصل لكعب بن مالك وصاحبَيْه.

وستأتي بقية للموضوع في الهجران الجائز والممنوع إن شاء الله تعالى.

* * *

❋ السلام في الكتابة إلى أهل الكتاب

[١٨١] تقدم حديث ابن عباس في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل وفيه: **«بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هِرَقل عظيم الروم، السلام على من اتبع الهدى»**.

رواه الشيخان وغيرهما، وتقدم في تفسير آل عمران وفي السيرة النبوية.

وهو يدل على أنه لا يُسلَّم عليهم على الخصوص في الكتابة إليهم لأنهم ليسوا من أهل السلام، بل يخصص السلام بعلى من اتبع الهدى، وهم المؤمنون أيًا كانوا.

❋ ❋ ❋

❋ أدب التثاؤب

[١٨٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب العُطَاسَ ويكره التثاؤب، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع، ولا يقل هاه، هاه، فإنما ذلكم من الشيطان يضحك منه»**، وفي رواية: **«التثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع»**.

رواه البخاري في الاستئذان (١٣/٢٣١)، ومسلم في الزهد (١٨/١٢٢)، وأبو داود (٥٠٢٨)، والترمذي (٢٥٦١) كلاهما في الاستئذان.

[١٨٣] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا تثاءب أحدكم في الصلاة فليكظم ما استطاع، فإن الشيطان يدخل»**، وفي رواية: **«فليمسك بيده»**.

رواه مسلم في الزهد (١٨/١٢٢/١٢٣)، وأبو داود (٥٠٢٦).

العطاس يكون من خفة البدن وانفتاح المسام وينشأ عن الزكام ويدل على النشاط بخلاف التثاؤب وهو فتح الفم مع تكاسل ويكون غالباً مع ثقل

البدن وامتلائه، وقوله: «**إن الله يحب العطاس**» لأنه يدل على الخفة والنشاط للعبادة وإضافة التثاؤب إلى الشيطان لأنه الذي يدعو إلى الشهوات التي منها كثرة الأكل، وذلك مما يكرهه الله تعالى.

وفي الحديثين بيان ما ينبغي للمتثائب فعله، وهو أن يرد التثاؤب ويمسكه ما استطاع ويضع يده على فيه ولا يفتح فيه ويقول: هاه فإن الشيطان يضحك عليه لأن فتح فمه ورفع صوته بـ«هاه» يشوّه خلقته ولذلك أمر بوضع يده على فمه.

* * *

❁ العطاس وآدابه

[١٨٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه، وخفض أو غضّ بها صوته.

رواه أبو داود في الأدب (٥٠٢٩)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٧٩)، والحاكم في الأدب (٤/٢٦٤) وسنده صحيح، وحسّنه وصححه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«غضّ وخفض»: معناهما واحد.

الحديث يدل على أن العاطس ينبغي له أن يخفض صوته بعطاسه لئلا يزعج غيره من الحاضرين كما هو الواقع، ثم يضع يده على فمه خشية أن يخرج مع عطاسه مخاطٌ أو نحوه فيؤذي جلساءه.

[١٨٥] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رجلين عطسا عند النبي ﷺ فشمّت أحدهما ولم يشمّت الآخر، فقال الذي لم يشمّته: يا رسول الله شمّتَّ هذا ولم تشمّتني؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنه حمد الله، وإنك لم تحمده**».

رواه البخاري (١٣/٢٣٤)، ومسلم في الزهد (١٨/١٢٠)، وأبو داود (٥٠٣٩)، والترمذي (٢٥٥٧)، وابن ماجه (٣٧١٣).

[١٨٦] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمِّتوه، فإن لم يحمد الله فلا تشمِّتوه**».

رواه مسلم (١٢١/١٨).

[١٨٧] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ وقد عطس رجل عنده فقال له: «**يرحمك الله**»، ثم عطس آخر، فقال له رسول الله ﷺ: «**الرجل مزكوم**»، وفي رواية: قال في الثالثة: «**وأنت مزكوم**».

رواه مسلم أيضاً (١٢٢/١٨)، وأبو داود (٥٠٣٧)، وابن ماجه (٣٧١٤)، والترمذي (٢٥٥٨) والرواية الثانية له، وحسّنه وصححه.

[١٨٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله على كل حال، وليقل أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، ويقول هو: يهديكم الله ويُصلح بالكم**».

رواه البخاري (٢٣٢/١٣٣/١٣)، وأبو داود (٥٠٣٣) ونحوه عن أبي أيوب رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (٤٢٢/٤١٩/٥) والترمذي (٢٥٥٥).

«التشميت»: بالشين المعجمة وبالسين وبالمعجمة أفصح، ومعناه: أبعد الله عنك شماتة الأعداء.

وفي هذه الأحاديث أحكام العطاس وآدابه:

فمنها: أن تشميت العاطس مأمور به، وقد اختلف الأئمة في حكمه بعد إجماعهم على مشروعيته، فقال بوجوبه الظاهرية وبعض المالكية للأحاديث الآمرة بذلك ولقوله ﷺ كما تقدم: «**وإذا عطس فحمد الله فشمِّته**» وجعل ذلك من حقوق المسلم.

وقال مالك رحمه الله تعالى: إنه فرض كفاية كرد السلام وبه قال جماعة من أهل العلم، وقال الجمهور: إنه سنّة.

ومنها: أن العاطس يشرع له أن يحمد الله تعالى عقب عطاسه ويرفع صوته بذلك.

ومنها: أن من سمعه وكان قد حمد الله أن يجيبه بقوله: يرحمك الله، فإن تكرر منه العطاس والحمد كرر التشميت، وفي الثالثة يقول له: الرجل مزكوم، أي: أصابه ريح فحصل له زكام.

ومنها: أن العاطس يرد على من شمَّته داعياً معه بقوله: يهديكم الله ويُصلح بالكم، أي: حالكم، أو يقول: يغفر الله لنا ولكم.

[١٨٩] وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «**إذا عطس الرجل فليقل: الحمد لله رب العالمين، وليقل من يرد عليه: يرحمك الله، وليقل هو: يغفر الله لي ولكم**» وسنده صحيح.

[١٩٠] وأخرج مالك في الموطأ رقم (١٨٦٦) بإسناد صحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، أنه كان إذا عطس فقيل له: يرحمك الله، يقول: يرحمنا الله وإياكم، ويغفر لنا ولكم.

ومن آداب العطاس أن من لم يحمد الله تعالى لا يُشَمَّت ولا يُدعى معه.

* * *

❋ ما يقال في تشميت أهل الكتاب

[١٩١] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: كانت اليهود تعاطس عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لها: يرحمكم الله، فكان يقول: «**يهديكم الله ويُصلح بالكم**».

رواه أبو داود (٥٠٣٨)، والترمذي (٢٥٥٣) كلاهما في الأدب،

والبخاري في الأدب المفرد (٩٤٠)، والحاكم (٢٦٨/٤) وحسّنه الترمذي وصححه هو والحاكم، وسنده صحيح.

في الحديث مشروعية تشميت أهل الكتاب تأليفاً لهم، غير أنهم ليسوا كالمسلمين بل يُدعى لهم بالهداية وصلاح الحال.

* * *

القيام للرجل الصالح إجلالاً له

[١٩٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، أن أهل قريظة نزلوا على حكم سعد فأرسل النبي ﷺ إليه فجاء فقال: **«قوموا إلى سيدكم»** أو قال: **«خيركم»**.

رواه البخاري في المغازي وفي الاستئذان (٢٨٨/١٣)، ومسلم في الجهاد والسير وجواز قتال من نقض العهد (٩٤/٩٣/٩٢/١٢)، وأبو داود (٥٢١٥) وغيرهم، وقد تقدم مطولاً مبسوطاً في السيرة.

في الحديث مشروعية القيام للرجل الصالح وسيد القوم إكراماً وإجلالاً له، وقد قدّمنا في حديث كعب بن مالك أن طلحة بن عبيدالله قام إليه يهرول يهنئه بتوبة الله عليه، ويأتي قريباً حديث عائشة في قيام النبي ﷺ لابنته فاطمة وقيامها له عليه وعليها الصلاة والسلام.

قال النووي رحمه الله في شرح مسلم على حديث الباب: فيه إكرام أهل الفضل وتلقّيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا، هكذا احتج به جماهير العلماء لاستحباب القيام. قال القاضي ـ يعني عياضاً ـ: وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس، ويمثلون قياماً طوال جلوسه.

قال النووي: القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وقد جاء فيه أحاديث، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح، وقد جمعت كل ذلك مع

كلام العلماء عليه في جزء وأجبت فيه عما توهم النهي عنه، والله أعلم.
وقد ذكر الحافظ في الفتح (٢٨٨/١٣) كلام العلماء في الموضوع وما استدلوا به، وأطال في ذلك، فليراجعه من شاء.

* * *

القيام المنهي عنه

[١٩٣] عن أبي مِجْلَزٍ قال: خرج معاوية على ابن الزبير، وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: إجلس فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن أحبَّ أن يتمثّل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار»**، وفي رواية: **«مَن سرّه»** - أي: أحبّ أو أعجبه -.

«يتمثل» أي: ينتصب له رجال قائمين.

رواه أبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي (٢٥٩٨)، وأحمد (٩١/٤) بسند حسن صحيح.

[١٩٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٤٩٦)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٦٧)، وفي الشمائل (٣٢٨)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (٦٣) وسنده صحيح على شرط مسلم، وحسّنه الترمذي وصححه.

استدل بالحديثين من منع القيام للقادمين مطلقاً لكن الحديث الأول فيه: **«مَن أحب وأعجبه قيام الناس له»، فهذا هو الممنوع لأنه يدل على التعاظم والتكبر، وهو صريح في القيام على القاعدين على عادات ملوك الروم والفرس وغيرهم، حيث كانوا يقعدون والجند والحواشي قائمون، وهو الموجود اليوم عند بعض الملوك والرؤساء، فهذا محرّم أشد التحريم، ومَن أحبّ ذلك كان من أهل النار إن لم يتب.**

أما الحديث الثاني: فكان النبي ﷺ يكره قيامهم له تواضعاً منه وابتعاداً من التشبُّه بالكفار والجبابرة، والله تعالى أعلم.

***

المصافحة والمعانقة والقبلة

[١٩٥] عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«ما من مسْلِمَين يلتقيان فيتصافحان، إلا غُفِر لهما قبل أن يتفرّقا»**.

رواه أحمد (٤/٢٨٩/٣٠٣)، وأبو داود (٥٢١٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٤٥)، وابن ماجه (٣٧٠٣).

وفي رواية لأحمد: **«فيسلّم أحدهما على صاحبه ويأخذ بيده لا يأخذ بيده إلا للّه»**. وحسّنه الترمذي وهو كما قال، وأبو إسحاق توبع.

في الحديث الترغيب في المصافحة والحث عليها لأنها من تمام السلام وذلك مما يزيد في الألفة والتحابب.

[١٩٦] وعن قتادة قال: قلت لأنس: هل كانت المصافحة في أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: نعم.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٢٩٤) والترمذي (٢٥٤٢) وحسّنه وصححه.

قال النووي رحمه الله تعالى: المصافحة سنّة مجمع عليها عند التلاقي، واستثنوا المرأة الأجنبية والأمرد لأنهما مما يشتهيان فمسّهما محرّم.

[١٩٧] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: وجّه رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب إلى بلاد الحبشة، فلما قدم منها اعتنقه النبي ﷺ وقبّل بين عينيه.

رواه الحاكم وقال: إسناده صحيح لا غبار عليه، ووافقه الذهبي.

[١٩٨] وعن الشعبي أن النبي ﷺ تلقى جعفر بن أبي طالب فالتزمه وقبّل ما بين عينيه.

رواه أبو داود (٥٢٢٠)، والطبراني بسند رجاله رجال الصحيح لكنه مرسل وقد وصله جماعة كالدارقطني، والحاكم، والطبراني، والبزار وغيرهم عن عائشة وجابر وعبدالله بن جعفر، وأبي جحيفة.

وجاء في بعض رواياته: فتلقاني رسول الله ﷺ فاعتنقني ثم قال: «**ما أدري أنا بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر**»، ووافق ذلك فتح خيبر.

رواه الطبراني في الأوسط (٧) والصغير، وسنده ضعيف.

فالحديث بهذه الطرق والشواهد ثابت بلا ريب.

[١٩٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه: «كانوا إذا تلاقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا».

أورده الهيثمي في المجمع (٣٦/٨) برواية الطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح.

[٢٠٠] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلي فسرت إليه شهراً حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبدالله بن أُنَيس، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب، فقال: ابن عبدالله؟ قلت: نعم، فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني واعتنقته.

رواه أحمد (٤٩٥/٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠)، والحاكم (٤٣٨/٤٣٧/٣) وسنده حسن صحيح، وعلقه البخاري في كتاب العلم، وصححه الحاكم والذهبي.

[٢٠١] وفي الباب عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قدم زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهما المدينة ورسول الله ﷺ في بيتي، فأتاه فقرع الباب فقام إليه رسول الله ﷺ عرياناً يجر ثوبه، والله ما رأيته عرياناً قبله ولا بعده، فاعتنقه وقبّله.

رواه الترمذي في الاستئذان (٢٥٤٦) بتهذيبي، وحسّنه، وفيه ضعف.

وتقدم لنا حديث معانقة أبي الهيثم النبي ﷺ في الشمائل، وهو حديث صحيح أصله في صحيح مسلم.

وعلى أيٍّ، فالمعانقة ثابتة عن النبي ﷺ من فعله وتقريره، وعليها كان عمل الصحابة رضي الله تعالى عنهم.

وانظر شرح السنة للبغوي (١٣/٢٩٠/٢٩٢/٢٩٣).

[٢٠٢] وعن زارع وكان في وفد عبد القيس قال: لما قدمنا المدينة فجعلنا نتبادر من رواحلنا فنقبّل يد النبي ﷺ ورِجله، وتقدم في الوفود من السيرة.

رواه أبو داود (٥٢٢٥) بسند حسن، وجوّده الحافظ، كما حسّنه ابن عبدالبر.

[٢٠٣] وعن صفوان بن عسال رضي الله تعالى عنه قال: قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، فقال صاحبه: لا تقل نبي، إنه لو سمعك كان له أربعة أعين، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بيّنات، فقال لهم: **«لا تُشرِكوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصَنة، ولا تولُّوا يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تعتدوا في السبت»**.

قال: فقبّلوا يديه ورِجليه وقالوا: نشهد أنك نبي، قال: **«فما يمنعكم أن تتّبِعوني؟»** قال: إن داود دعا ربه أن لا يزال من ذريته نبي، وإنا نخاف إن تبعناك يقتلنا اليهود.

رواه الترمذي في الاستئذان (٢٥٤٧) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٢/٣٠٦ و٥/١٩٨)، وابن ماجه (٣٧٠٥)، والحاكم (١/٩) وصححه الترمذي والحاكم، وسنده عند الترمذي صحيح رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن سلمة وهو ثقة.

[٢٠٤] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ما رأيت أحداً كان أشبه كلاماً وحديثاً من فاطمة عليها السلام برسول الله ﷺ، وكان إذا دخلت عليه رحّب بها وقام إليها فأخذ بيدها وقبّلها وأجلسها في مجلسه، وكانت هي إذا دخل عليها قامت إليه مستقبلة وقبّلت يده.

رواه أبو داود (٥٢١٧)، والترمذي في المناقب (٣٦٤٠)، والنسائي في الكبرى، والحاكم وابن حبان (٢٢٢٣) وحسّنه الترمذي وصححه وسنده صحيح، وما قيل في المنهال بن عمرو لا يضر وهو من رجال البخاري.

[٢٠٥] وعن أُسَيْد بن حُضَيْر رضي الله تعالى عنه قال: بينما هو يحدّث القوم وكان فيه مزاحٌ بيّناً يُضحكهم فطعنه النبي ﷺ في خاصرته بعود فقال: أصْبِرْني، فقال: «اصْطَبِر» قال: إن عليك قميصاً وليس عليّ قميص، فرفع النبي ﷺ عن قميصه فاحتضنه وجعل يقبّل كَشْحَهُ، قال: إنما أردت هذا يا رسول الله.

رواه أبو داود (٥٢٢٤) وسنده صحيح على شرط الشيخين.

«أصبرني» أي: مكّنّي من الاقتصاص. وقوله: «اصطبر» أي: اقتص وخذ حقك.

وفي هذه الأحاديث جواز تقبيل يد الصالح والعالم ورجليه وبطنه إجلالاً له واحتراماً ومحبة، فهؤلاء وفد عبد القيس واليهود يقبّلون يد النبي ﷺ ورِجله، وأُسيد بن حضير يقبّل كشحه وجنبه الشريف ولا ينكر عليهم، وهكذا حصل منه ﷺ أنه كان يقبّل ابنته فاطمة عليها السلام وتقبّله هي أيضاً.

وإذا ثبت تقبيل يد النبي ﷺ من الصحابة وغيرهم فما يقوله بعض الناس اليوم من أن تقبيل أيدي أولي الفضل السجدة الصغرى، وقول آخرين: إنها شرك: هو تنطُّع وخلاف للسنة.

مع أن تقبيل الأيدي وغيرها ثبت عن الصحابة وغيرهم، ففي صحيح

البخاري وغيره أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه دخل على عائشة وهي مريضة فقبّل خدّها.

[٢٠٦] وأخرج البخاري في الأدب المفرد بسند صحيح عن صهيب رضي الله تعالى عنه قال: رأيت علياً يقبّل يد العباس ورجليه رضي الله تعالى عنهما.

[٢٠٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أنه لقي الحسن بن علي عليهما السلام فقال: رأيت رسول الله ﷺ قبّل بطنك فاكشف الموضع الذي قبّله حتى أقبّله، فكشف له الحسن فقبّله.

رواه الحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

[٢٠٨] وعن الشعبي أن زيد بن ثابت قُرّبت له دابة ليركبها فأخذ ابن عباس بركابه فقال زيد: تنحَّ يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بكبرائنا وعلمائنا، فقال زيد: أرني يدك، فأخرج يده فقبّلها فقال: هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

رواه الدينوري في المجالسة، وإسناده على شرط مسلم، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق آخر.

[٢٠٩] وعن ثابت البناني قال: كنت إذا أتيت أنساً يُخْبَرُ بمكاني فأدخل عليه فآخذ بيديه فأقبلهما فأقول: بأبي هاتين اليدين مسّتا رسول الله ﷺ، وأقبّل عينيه وأقول: بأبي هاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ.

أورده الهيثمي في المجمع برواية أبي يعلى، وقال: رجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أبي بكر المقدمي، وهو ثقة، وله طريق آخر.

رواه البخاري في الأدب المفرد.

[٢١٠] وعن عبدالرحمٰن بن رزين قال: مررنا بالرَّبَذَة فقيل لنا: ههنا سلمة بن الأكوع، فأتيناه فسلّمنا عليه، فأخرج يديه فقال: بايعت بهاتين نبي الله ﷺ، فأخرج كفًا له ضخمة كأنها كفُّ بعير، فقمنا إليها فقبّلناها.

رواه البخاري في الأدب المفرد.

[٣١٩] وعن أبي نضرة أنه قبّل خد الحسن بن علي عليهما السلام.

رواه أبو داود. قال النووي: إسناد صحيح مليح.

وذكر النووي رحمه الله تعالى في الأذكار، عن سهل بن عبدالله التُسْتَرِي السيد الجليل أحد أفراد زهّاد الأمة وعبادها رضي الله تعالى عنه، أنه كان يأتي أبا داود السجستاني صاحب السنن ويقول: أخرِج لسانك الذي تحدّث به حديث رسول الله ﷺ لأقبّله، فيقبّله.

فهذه سنّة رسول الله ﷺ، وهذا عمل الصحابة فمَن بعدهم على جوازِ التقبيل، وماذا بعد هذا إلا التزمُّت والتنطُّع، وقد قال ﷺ: **«هلك المتنطِّعون»**.

رواه مسلم.

و«المتنطِّعون»: هم المتشددون في غير محل التشديد.

نعم، قال العلماء رحمهم الله تعالى: تقبيل اليد وغيرها كالرأس والخد والرِجل وغيرها يستحب أو يباح في حالتين:

إحداهما: إذا كان تعظيماً واحتراماً للشخص لأجل مصلحة دينية كعلم أو شرف أو زهد وصلاح أو غير ذلك كالوالدين وشيوخ الطالب.

ثانيهما: إذا كان على وجه العطف والشفقة والملاطفة كتقبيل الأولاد والأقارب والمحارم، وكذا إذا كان عند وداع لسفر أو قدوم منه، ويحرم أو يُكره إذا كان لذي جاه أو حاكم ظالم، كما يحرم بالإجماع التقبيل للمرأة الأجنبية أو لذكَرٍ أمرد لأن ذلك ذريعة للشهوة المحرّمة.

فما هو سائد اليوم بين العلمانيين والمتفرنجين من تبادل القبل بين الرجال والنساء من الخدود وغيرها، هو من الإباحية القذرة التي حرّمها الإسلام أشد التحريم.

خاتمة: لا يجوز للإنسان أن يمكّن يده أو غيرها للتقبيل تكبُراً ونخوة ورؤية للنفس بل ينبغي له أن يتحاشى ذلك ما وجد إليه سبيلاً.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه أبد الآبدين.

❋ من أدب المجالس

❋ التفسُّح في المجالس

[٢١٢] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يُقيمَنَّ أحدكم الرجل من مجلسه، ثم يَخلُفه فيه ولكن تفسَّحوا وتوسَّعوا»**.

رواه البخاري في الاستئذان (١٣/٣٠٣)، ومسلم في الأدب (١٤/١٦٠)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٦٣).

الحديث يدل على أن الجالس لا يُقام من مجلسه ليجلس فيه غيره لأن ذلك ينافي الأدب ويمس بحرمة المؤمن ويُحرجه، والواجب في الأدب الإسلامي أن يوسّع المسلم لأخيه ويتفسّح فيجلسا معاً كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي: توسّعوا يوسّع الله تعالى عليكم برحمته.

قال النووي: هذا النهي للتحريم فمَن سبق إلى موضع مباح في المسجد وغيره يوم الجمعة أو غيره لصلاة أو غيرها فهو أحق به، ويحرم على غيره إقامته لهذا الحديث.

ونقل الحافظ عن ابن أبي جمرة رحمه الله كلاماً هاماً مفصّلاً في الموضوع، ثم قال: والحكمة في هذا النهي منع انتقاص حق المسلم المقتضي للضغائن، والحث على التواضع المقتضي للموادة، وأيضاً فالناس في المباح كلهم سواء فمَن سبق إلى شيء استحقه، ومن استحق شيئاً فأخذ منه بغير حق فهو غصب والغصب حرام.

❋ ❋ ❋

❋ الرجل أحق بمجلسه إذا قام ورجع إليه

[٢١٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا قام أحدكم»**، وفي رواية: **«من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به»**.

رواه مسلم في الأدب (١٤/١٦١).

[٢١٤] وعن وهب بن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: **«الرجل أحق بمجلسه وإن خرج لحاجة ثم عاد فهو أحق بمجلسه»**.

رواه أحمد (٣/٤٢٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٦٤) وحسّنه وصححه، وهو عنده صحيح.

قوله: «أحق» أي: أولى. والحديثان يدلان على أن من اتخذ مجلساً في موضع مباح فهو أولى به إن قام منه لحاجة ثم رجع. قال النووي رحمه الله تعالى: فإن كان قد قعد فيه غيره فله أن يُقيمه، وعلى القاعد أن يفارقه.

* * *

❋ لا يحل للرجل أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما

[٢١٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يَحل للرجل أن يفرّق بين اثنين إلا بإذنهما»**.

رواه أحمد (٢/٢١٣)، وأبو داود (٤٨٤٥)، والترمذي (٢٧٥٦) بسند حسن، وهو صحيح لشاهد له عند أبي داود (٤٨٤٤) بسند حسن.

والحديث يدل على أنه لا يجوز للمسلم أن يفرّق بين الجالسين وأن يجلس بينهما بدون إذنهما، بل عليه أن يستأذنهما ليتفسحا ويوسعا له لئلا يؤدي ذلك إلى الخصام كما يقع كثيراً في الحرمين الشريفين وغيرهما.

* * *

❋ ملعون من جلس وسط الحلقة

[٢١٦] عن أبي مِجْلَزٍ أن رجلاً قعد وسط الحلقة فقال حذيفة رضي الله تعالى عنه: «ملعونٌ على لسان محمد ﷺ، أو: لعن الله على لسان محمد مَن قعد وسط الحلقة».

رواه أبو داود (٤٨٢٦)، والترمذي (٢٥٦٦) كلاهما في الأدب، والحاكم، وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي. وقال النووي: إسناده حسن.

فيه: أن الجلوس وسط الحلقة محرّم ملعون صاحبه.

وقد فسّر العلماء هذا القعود على وجهين: إما أن يأتي الإنسان حلقة قوم فيتخطى رقابهم ويقعد وسطها ولا يقعد حيث ينتهي به المجلس، وإما أن يقعد في الوسط فيحول بين الوجوه ويحجب بعضهم عن بعض فيتضررون ويتأذون بذلك، وذلك حرام.

* * *

الجلوس بين الظل والشمس

[٢١٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: **«إذا كان أحدكم في الشمس فقلص عنه الظل وصار بعضُه في الشمس وبعضُه في الظل فليَقُم»**.

رواه أحمد (٣٨٣/٢)، وأبو داود (٤٨٢١) بسند صحيح، وله شاهد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ بلفظ: نهى أن يجلس بين الضَّحِّ والظل، وقال: **«مجلس الشيطان»**.

رواه أحمد (٤١٣/٣) بسند صحيح، ورواه الحاكم (٢٧١/٤) وسمّى الرجل أبا هريرة وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد آخر عن بريدة رواه ابن ماجه (٣٧٢٢) وحسّنه البوصيري في الزوائد، فالحديث صحيح.

والحديث يدل على كراهة الجلوس بين الظل والشمس بحيث يكون بعضه في الشمس والبعض الآخر في الظل، ولا يعرف السر والحكمة في ذلك، غير أن الحديث مصرح بأنه مجلس الشيطان، فكان من واجب المسلم الابتعاد عن مجالس الشيطان.

* * *

❁ الجلسة المكروهة

[٢١٨] عن الشَّريد بن سُوَيْد رضي الله تعالى عنه قال: مرّ بي رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا وقد وضعتُ يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على إلْيَة يدي فقال: «**أتقعد قِعدة المغضوب عليهم؟**».

رواه أحمد (٣٨٨/٤)، وأبو داود (٤٨٤٨)، والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي.

«إِلية»: بكسر الهمزة وسكون اللام، وإلية اليد: ما غلظ منها.

وفي الحديث النهي عن التشبُّه بالكفار حتى في هيئة جلوسهم لأنهم مغضوب عليهم ولا يليق بالمسلم أن يأتسي بمن غضب الله عليهم.

[٢١٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: رأى رسول الله ﷺ رجلاً مضطجعاً على بطنه فقال: «**إنَّ هذه ضِجْعَةٌ لا يُحبُّها الله**».

رواه أحمد (٣٠٤/٢)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٧٩)، وابن حبان (١٩٥٩) بسند حسن وهو صحيح، وللحديث عن يعيش بن طخفة أو قيس بن طخفة عن أبيه قال: أصابني رسول الله ﷺ نائماً في المسجد على بطني فركضني برجله وقال: «**ما لك ولهذا النوم؟ هذه نومة يكرهها الله - أو - يبغضها الله**».

رواه أبو داود (٥٠٤٠)، وابن ماجه (٣٧٢٣)، وابن حبان (١٩٦٠) وفي اسم صحابيه اضطراب.

وشاهد آخر عن أبي أمامة رواه ابن ماجه (٣٧٢٥) وثالث عن أبي ذر رواه ابن ماجه أيضاً (٣٧٢٤) وسنده حسن، وشاهد رابع عن عمرو بن الشريد رواه أحمد (٣٩٠/٤) فالحديث لذلك صحيح.

وهو يدل على أن هذه الضجعة مبغوضة ومكروهة لله لأنها نومة الكفار من جهة، وهيئة لفعل قوم لوط من جهة أخرى فلا ينبغي للمسلم أن ينام منبطحاً على بطنه.

***

❋ الاستلقاء على القفا في المسجد

[٢٢٠] عن عَبَّاد بن تميم عن عمه عبدالله بن يزيد رضي الله تعالى عنه أنه رأى رسول الله ﷺ مستلقياً في المسجد واضعاً إحدى رجليه على الأخرى.

رواه البخاري في المساجد وفي اللباس وفي الأدب (٣٢٣/١٣)، ومسلم في اللباس (٧٧/١٤)، وأبو داود (٤٨٦٦)، والترمذي (٢٥٧٧) وغيرهم.

قوله: «مستلقياً» أي: مضطجعاً على قفاه، وهو يدل على جواز الاستلقاء على القفا في المسجد وإطلاق الرجلين ووضع إحداهما على الأخرى، وهذا محمول على ما إذا كان المستلقي في أمن من كشف عورته والنهي في الحديث التالي حيث يخشى ظهور العورة.

[٢٢١] فعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ نهى أن يرفع الرجل إحدى رجليه على الأخرى وهو مستلقٍ على ظهره.

رواه مسلم في اللباس (٧٧/١٤)، وأبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٧٨) مطولاً، فهذا النهي محمول على من خاف كشف سوءته، هكذا جمع بينهما الخطابي كما نقله في الفتح، ونحوه عند النووي في شرح مسلم، ونقل عن عياض أن استلقاءه ﷺ لعله كان فعله لضرورة أو حاجة من تعب أو طلب راحة لأنه قد علم أن جلوسه ﷺ في المجامع على خلاف هذا، بل كان يجلس متربِّعاً أو محتبياً ـ وهو كان أكثر جلوسه ـ أو القرفصاء أو مقعياً وشبهها من جلسات الوقار والتواضع. قال النووي: ويحتمل أنه ﷺ فعله لبيان الجواز.

وصفة جلسات النبي ﷺ تقدمت مستوفاة في الشمائل.

* * *

❋ ذم المجالس الخالية من ذكر الله تعالى

[٢٢٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه، إلا قاموا على مثل جيفة حمار وكان لهم حسرة»**.

رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم وسنده صحيح، وتقدم في الدعوات (ج٢/١٥٨٥)، وفي رواية: **«ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا فيه على النبي ﷺ، إلا كان عليهم تِرة يوم القيامة، إن شاء عفا عنهم وإن شاء أخذهم بها»**.

قوله: «تِرَة» بكسر التاء على وزن عِدَة، ومعناها: النقص، وهي هنا معناها: التبعة.

والحديث بلفظَيْه يدل على ذم الغافلين عن الله في مجالسهم وأنهم إن لم يذكروا الله عزّ وجل كان عليهم حسرة وندامة يوم القيامة وقاموا من مجالسهم وهي قذرة منتنة أنتن وأقذر من جيفة حمار، وكفاهم بذلك خسارة.

وحديث كفارة المجلس تقدم في الأذكار فارجع إليه في الجزء الثاني.

❋ ❋ ❋

❋ أبواب الأسماء[1] والكنى[1] وما يتبع ذلك

تحسين الاسم

[٢٢٣] عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أبردتم إليّ بريداً فابعثوه حسَنَ الوجه حسَنَ الاسم»**.

(١) الاسم كل ما جعل علامة على مسماه من حيوان وغيره، ويكون كنية ولقباً أيضاً ويطلق على الجميع: العَلَم.

رواه البزار في مسنده (١٩٨٥) بسند صحيح، وللحديث شاهد عن أبي هريرة رواه البزار، والطبراني وسنده حسن عند الطبراني، وفي الباب عن ابن عباس رواه أحمد، وعن عبدالله بن الشخير رواه الطبراني في الكبير والأوسط بسند حسن.

«البريد»: هو حامل الرسائل.

والحديث يدل على سنية تحسين الاسم وأنه لا يبعث السفير إلا حسن الوجه والاسم ليُتفاءل بذلك، وقد كان النبي ﷺ يعجبه الفألُ الحسن.

* * *

❊ التسمِّي باسماء الانبياء

[٢٢٤] عن المغيرة بن شعبة قال: لما قدمت نجران سألوني فقالوا: إنكم تقرأون: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: **«إنهم كان يُسَمُّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم»**.

رواه أحمد (٤/٢٥٢)، ومسلم في الأدب (١٤/١١٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٩٣).

﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ أي: يا شبيهة هارون في العبادة، وكان هارون رجلاً عابداً صالحاً أيام مريم، فشبّهوها به.

والحديث يدل على جواز التسمية بأسماء الأنبياء. قال النووي: وأجمع عليه العلماء، وقد قدّمنا أن النبي ﷺ قال: **«ولد لي الليلة ولد فسمّيته باسم أبي إبراهيم»**.

قال النووي رحمه الله تعالى: وقد كان في أصحابه خلائق مسمون بأسماء الأنبياء.

* * *

❋ التسمّي باسم النبي ﷺ وعدم التكني بكنيته

[٢٢٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال أبو القاسم ﷺ: «**تسمُّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي**».

رواه البخاري في الأدب (١٩٣/١٣)، ومسلم في الأدب (١١٦/١٤)، وأبو داود (٤٩٦٥) ورواه البخاري في الأدب المفرد (٨٤٤)، وأبو داود (٤٩٦٦)، والترمذي (٢٦٤٩) عنه بلفظ: نهى أن يُجْمَع بين اسمه وكنيته ويسمى محمداً أبا القاسم وسنده صحيح.

[٢٢٦] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من الأنصار ولد له غلامٌ فأراد أن يسمّيه محمداً فأتى النبي ﷺ فسأله فقال: «**أحسنت الأنصار، سَمُّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي**» وفي رواية: فسمّاه محمداً.

وفي رواية: فسمّاه القاسم فقالوا: لا تكنّيه حتى نسأل النبي ﷺ. فقال: «**سموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي**».

وفي رواية: لا نكنيك بأبا القاسم ولا ننعمك عيناً. وفيه: فقال ﷺ: «**سمِّ ابنك عبدالرحمٰن**».

رواه البخاري بالروايتين الأخيرتين (١٩٣/١٩٢/١٣)، ومسلم بالأوليتين (١١٥/١١٤/١٤).

[٢٢٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: نادى رجل بالبقيع يا أبا القاسم فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله لم أعْنِكَ إنما عنَيْتُ فلاناً، فقال رسول الله ﷺ: «**سمُّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي**».

رواه البخاري في البيوع، وعلقه في الأدب، ورواه مسلم في الأدب (١١٢/١٤)، والترمذي (٢٦٥١)، والبخاري أيضاً في الأدب المفرد (٨٤٥/٨٣٧)، وابن ماجه، وغيرهم.

في هذه الأحاديث الإذن بالتسمِّي باسم النبي ﷺ وهذا لا خلاف فيه، كما فيها النهي عن التكني بكنيته: أبي القاسم. واختلف العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى في ذلك؛ فذهب الشافعي والظاهرية إلى المنع مطلقاً سواء كان اسمه محمداً أو أحمد أم لم يكن لظاهر الأحاديث، وذهب آخرون إلى أن ذلك كان خاصاً بحياته ﷺ، أما ما بعده فيجوز، وهذا مذهب مالك. قال القاضي عياض وبه قال جمهور السلف وفقهاء الأمصار وجمهور العلماء. ورجح ابن أبي جمرة الجواز لمن ليس اسمه محمداً، وقال: الأولى الأخذ بمذهب المنع فإنه أبرأ للذمة وأعظم للحرمة، وكان جماعة من السلف يسمون محمداً ويكنون بأبي القاسم، منهم: محمد بن الحنفية، ومحمد بن جعفر بن أبي طالب، ومحمد بن أبي بكر، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص، ومحمد بن الأشعث. انظر الفتح (١٣/١٩٢/١٩٣/١٩٤)، والنووي (١٤/١١٢)، وشرح السنة (١٣/٣٣١/٣٣٤).

* * *

الرخصة في ذلك بعده ﷺ

[٢٢٨] عن علي عليه السلام قال: يا رسول الله أرأيت إن ولد لي بعدك ولد أسمِّيه محمداً وأكنِّيه بكنيتك؟ قال: «نعم»، قال: فكانت رخصة لي.

رواه أبو داود (٤٩٦٧)، والترمذي (٣٦٥٢) وحسّنه وصححه وسنده عنده على شرط البخاري.

في الحديث الترخيص بعده ﷺ في الجمع بين اسمه وكنيته فيكون ذلك دليلاً للجمهور، أما قول الإمام: «فكانت رخصة لي» هو فهم فهمه، واجتهاد منه رضي الله تعالى عنه، والحديث ليس فيه تخصيصه بذلك، والله تعالى أعلم.

* * *

❋ جواز التكني لمن لا ولد له

[٢٢٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: يا رسول الله كل صواحبي لهن كُنَى، قال: «**فاكتني بابنك عبدالله**» يعني ابن أختها عبدالله بن الزبير، فكانت تكنى بأم عبدالله. وفي رواية: كل نسائك لها كنية غيري، فقال...

رواه أحمد (٦/١٠٧/١٥١/١٨٦/٢٦٠)، وأبو داود (٤٩٧٠)، وأبو يعلى (٤/٩٩) بسند صحيح.

ففيه جواز التكني لمن ليس له ولد بأن يكنى باسم الغير، وبهذا قال كل العلماء إلا من لا عبرة به. والكنية كما هو معلوم كل ما صُدِّر بأبٍ أو أُمّ.

❋ ❋ ❋

❋ أحَب الأسماء إلى اللّه

[٢٣٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أحبَّ أسمائكم إلى الله عزّ وجل عبدالله وعبدالرحمٰن**».

رواه مسلم في الأدب (١٤/١١٣).

في الحديث أن هذين الاسمين هما أحب الأسماء إلى الله وأن للتسمّي بهما فضلاً على غيرهما لنسبة العبودية فيهما إلى الله عزّ وجل.

❋ ❋ ❋

❋ اسماء يُكره التسمِّي بها

[٢٣١] عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُسمّ غلامك رَبَاحاً، ولا يَسَاراً، ولا أفْلَحَ، ولا نافعاً**».

وفي رواية: «ولا تُسَمِّيَنَّ غلامك يساراً، ولا رباحاً، ولا نجيحاً، ولا أفلح، فإنك تقول: أثَمَّ هو فلا يكون، فيقول: لا، إنما هن أربع فلا تزيدُنَّ عليّ».

رواه مسلم في الأدب (١١٨/١١٧/١٤) بالروايتين، وأبو داود (٤٩٥٩/٤٩٥٨)، وابن ماجه (٣٦٣٠).

[٢٣٢] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عشتُ إن شاء الله أنهى أمتي أن يُسَمُّوا نافعاً، وأفلح، وبركة» قال: «فإن الرجل يقول: إذا جاء أثَمَّ بركةٌ؟ فيقولون: لا».

رواه مسلم (١١٨/١٤)، وأبو داود (٤٩٦٠) والسياق له، وزاد مسلم: «يَعْلَى».

وفي الحديثين كراهة التسمِّي بهذه الأسماء وهي: رباح، ويسار، وأفلح، ونافع، ونجيح، وبركة، ويعلى. والحكمة في ذلك هي ما بينه ﷺ بقوله: «فإنك تقول: أثم هو؟ فيقول: لا، أثَمّ بركة؟ فيقولون: لا».

لأن في الجواب بلا نفياً لليسار وللفلاح وللنفع والنجاح والبركة، وذلك مما يستبشع، ولأن ذلك ربما أدّى بصاحبه للطيرة، والنبي ﷺ كان يحب الفأل الحسن ويكره التشاؤم وقد نص العلماء على أنه يكره التسمِّي بكل ما في معنى ما ذكر.

* * *

❋ مشروعية تغيير الأسماء
تغيير حَزْن إلى سَهل

[٢٣٣] عن سعيد بن المسيب عن أبيه عن جده حَزْن أنه أتى النبي ﷺ فقال: «ما اسمك؟» قال: حَزْنٌ، قال: «أنت سَهلٌ» قال: لا أغيِّر اسماً سمّاني أبي، قال ابن المسيب: فما زالت الحُزُونة فينا بعد، وفي رواية: قال: لا السَّهْلُ يوطأ ويمتهن. قال سعيد: فظننت أنه سيصيبنا بعده حزونة.

رواه أحمد (٥/٤٣٣)، والبخاري (١٣/١٩٥)، وأبو داود (٤٩٥٦)، والرواية الأولى للبخاري والثانية لأبي داود.

«حَزْنٌ»: بفتح الحاء وسكون الزاي، هي الشدة والصعوبة وفيه نوع من التشاؤم ولذلك غيّره النبي ﷺ وقال له: **«أنت سهل»** فلم يقبل ذلك ولم يغير اسمه فكانت الصعوبة والشدة في أخلاق أولاده خُلُقاً موروثاً فيهم أباً عن جد، حتى ذكر أهل النسب أنه كان في ولد حَزْنٍ سوء خلق معروف فيهم، وقد صرّح بذلك حفيد حزن سعيد بن المسيب حيث قال في رواية البخاري: «فما زالت الحزونة فينا بعدُ».

* * *

❋ تغيير عاصية إلى جميلة

[٢٣٤] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن ابنة لعمر كانت يقال لها: عاصية، فسمّاها رسول الله ﷺ جميلة. وفي رواية: غيّر اسم عاصية وقال: **«أنتِ جميلة»**.

رواه مسلم (١٤/١١٩)، وأبو داود (٤٩٥٢)، والترمذي (٢٦٤٦) في الاستئذان، وكذا أحمد (٢/١٨)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٢٠)، وابن ماجه (٣٧٣٣).

«عاصية» هذا، لا يليق بأن يكون اسماً لامرأة مسلمة لبشاعته وقبحه.

* * *

❋ تغيير برة إلى جويرية

[٢٣٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كانت جُويرية اسمها بَرَّة فحوّل رسول الله ﷺ اسمها جُويرية، وكان يكره أن يقال: خرج من عند برة.

رواه أحمد (٣٥٣/٢٥٨/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٣١)، ومسلم في الأدب (١١٩/١٤).

* * *

❊ تحويل برة إلى زينب

[٢٣٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن زينب رضي الله تعالى عنها كان اسمها برة فقيل: تزكي نفسها، فسماها رسول الله ﷺ زينب.

وفي رواية عن زينب بنت أم سلمة رضي الله تعالى عنهما قالت: كان اسمي برة فسمّاني رسول الله ﷺ زينب، قالت: ودخلت عليه زينب بنت جحش واسمها برة فسماها زينب.

وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: **«لا تزكوا أنفسكم الله أعلم بأهل البر منكم»** فقالوا: بمَ نسمِّيها؟ قال: **«سمُّوها زينب»**.

رواه أحمد (٤٥٩/٤٣٠/٢)، والبخاري في الأدب (١٩٧/١٣)، ومسلم (١٢٠/١٤)، وأبو داود (٤٩٥٣) بعضهم عن أبي هريرة والبعض عن زينب.

فتغييره ﷺ برة إلى زينب لأن في برة نوعاً من تزكية النفس ومدحها ولذلك قال: **«لا تزكُوا أنفسكم فإن الله هو أعلم بالبرة منكن والفاجرة»** كما في رواية عند البخاري في الأدب المفرد (٨٢١) وأبو داود...

* * *

❊ تحويل أصرم إلى زرعة

[٢٣٧] عن أسامة بن أخدري أن رجلاً يقال له: أصْرَمُ، كان في النفر الذين أتوا رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: **«ما اسمك؟»** قال: أنا أصرم، قال: **«بل أنت زُرْعَةُ»**.

رواه أبو داود (٤٩٥٤) بسند صحيح، فكره الأصرم لأن من معانيه القطع فأبدله بزرعة تفاؤلاً بالزراعة.

* * *

* تبديل أبي الحكم بابي شريح

[٢٣٨] عن هانىء أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ مع قومه سمعهم يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: **«إن الله هو الحكَم، وإليه الحكم، فلِمَ تُكَنَّى أبا الحكم؟»**.

فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال رسول الله ﷺ: **«ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟»** قال: لي: شريح، ومسلم، وعبدالله، قال: **«فمَن أكبر؟»** قلت: شريح، قال: **«فأنت أبو شُرَيْح»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٨١١)، وأبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي في الكبرى (٤٦٦/٣)، والحاكم (٢٤/١)، وابن حبان (٢٥٧/٢) بالإحسان وسنده صحيح.

هذا من الأسماء التي لا تليق بالعبد لأن الحاكمية لا تكون إلا للّه عزّ وجل فكره ﷺ إسناد ذلك لغيره تعالى.

* * *

* إبدال شهاب بهشام

[٢٣٩] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ذُكِر عند رسول الله ﷺ رجل يقال له: شهاب، فقال رسول الله ﷺ: **«بل أنت هشام»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٢٥)، وأحمد (٧٥/٦)، ورجاله رجال الصحيح غير عمران القطان وهو حسن الحديث.

لم يعجبه شهاب لأنه قد يطلق على قطعة من نار بخلاف هشام، فإن من معانيه هشم الطَّعَام.

* * *

تحويل عزيز إلى عبدالرحمٰن

[٢٤٠] عن خيثمة بن عبدالرحمٰن عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ مع أبي وأنا غلام فقال له النبي ﷺ: **«ما اسم ابنك هذا؟»** قال: اسمه عزيز، فقال له رسول الله ﷺ: **«لا تسمّه عزيزاً ولكن سمّه عبدالرحمٰن، فإن أحب الأسماء إلى الله عبدالله وعبدالرحمٰن»**.

أورده نور الدين في المجمع برواية الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

فعزيز من أسماء الله تعالى فلا يجوز التسمّي به، ولذلك أمره بأن يسمّيه عبدالرحمٰن، وأخبره بأنه أحب الأسماء إلى الله تعالى لوصفه بالعبودية للّه تعالى.

* * *

إبدال شيطان بعبداللّه

[٢٤١] عن عبدالله بن قرط أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال له: **«ما اسمك؟»** قال: شيطان بن قُرْطٍ، قال: **«أنت عبدالله بن قرط»**.

رواه أحمد (٣٥٠/٤) والطبراني وسنده صحيح.

عجباً لأهل الجاهلية كيف كان الشيطان يلعب بعقولهم ويتفانون في طاعته فهل يرضى عاقل لابنه أن يجعل اسم شيطان علامة عليه، ولذا غيّر النبي ﷺ اسمه وجعل عبوديته للّه علامة عليه لأن ذلك هو الأليَق به.

* * *

❋ تحويل اسم حرام إلى حلال

[٢٤٢] عن رجلٍ من جهينة قال: سمعه النبي ﷺ وهو يقول: يا حرامٌ، فقال: «**يا حلالٌ**».

رواه أحمد (٣/٢٧١) بسند صحيح رجاله رجال الصحيح فلا معنى لحرام يسمى به الرجل ويجعل علامة عليه، فإنه اسم بشع كباقي أسماء الجاهلية.

❋ ❋ ❋

❋ إبدال جَثَّامة بحَسَّانة

[٢٤٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاءت عجوز إلى النبي ﷺ وهو عندي، فقال لها رسول الله ﷺ: «**مَن أنتِ؟**» قالت: أنا جثامةُ المزنية، فقال: «**بل أنتِ حسَّانةُ المُزَنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم، كيف كنتم بعدنا؟**» قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: «**إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حُسْن العهد من الإيمان**».

رواه الحاكم (١/١٥/١٦)، والقضاعي في مسند الشهاب (٩٧١/٩٧٢)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وتعقب بأن صالح بن رستم لم يخرج له البخاري إلا تعليقاً. وعلى أيٍّ، فالحديث صحيح.

وقوله: «إن حسن العهد» أي: إن الوفاء بالعهد من شعب الإيمان، ومن الوفاء للزوجة الإحسان إلى صديقاتها فضلاً عن أهلها وأقاربها وهذا كان هدى النبي ﷺ.

فهذا ما وقفنا عليه في السنة الصحيحة مما غيّره النبي ﷺ من الأسماء المكروهة وهو أحد عشر اسماً، ووردت أسامي أخرى حوّلها ﷺ إلى غيرها، لكن أحاديثها ضعيفة فأعرضنا عنها.

فائدة: نقل الحافظ في الفتح (١٣/١٩٧/١٩٨) عن الطبري قال: لا ينبغي التسمية باسم قبيح المعنى، ولا باسم يقتضي التزكية له، ولا باسم معناه السب، ولو كانت الأسماء إنما هي أعلام للأشخاص، لا يقصد بها حقيقة الصفة، لكن وجه الكراهة أن يسمع سامع بالاسم فيظن أنه صفة للمسمى، فلذلك كان ﷺ يحول الاسم إلى ما إذا دُعِيَ به صاحبه كان صدقاً، قال: وقد غيّر رسول الله ﷺ عدة أسماء

* * *

❁ أبغض الأسماء إلى الله تعالى

[٢٤٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أخنَعُ الأسماء عند الله رجلٌ تسمّى بملك الأملاك»**، وفي رواية: **«أخنَى الأسماء»**، وفي رواية: **«أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه، رجل كان يسمى ملك الأملاك لا ملك إلا لله تعالى»**.

رواه البخاري (١٣/٢١١/٢١٢)، ومسلم (١٤/١٢١/١٢٢)، وأبو داود (٤٩٦١)، والترمذي (٢٦٤٥) كلهم في الأدب، والرواية الثالثة لأحمد (٢/٢٤٤)، ومسلم (٤/١٢٢).

وقوله: «أخنع الأسماء» أي: أفجر من الفجور، وهو بمعنى أخبث أي: أكذب الأسماء، وقيل: أقبح أو أوضع، ورواية «أخنى الأسماء» أي: أفحش، والخنا الفحش، وقوله: «أغيظ» أي: أشد غيظاً وغضباً.

وعلى أيٍّ، فالتسمّي بهذا الاسم محرّم أشد التحريم، وقد فسّره سفيان بمثل شاه شاهان، ومعناه: ملك الملوك.

قال العلماء: ويلتحق به: خالق الخلق، وأحكم الحاكمين، وسلطان السلاطين، وأمير الأمراء، وقيل: يلتحق به أيضاً من تسمّى بشيء من أسماء الله الخاصة به كالرحمة والقدوس والجبار. وهل يلتحق به من تسمّى قاضي القضاة أو حاكم الحكام.

اختلف العلماء في ذلك، وقد ذكر الحافظ أقوالهم، ثم ختم ذلك بكلام للإمام ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى في الموضوع واختار المنع مطلقاً وسوّى بين ملك الأملاك وبين قاضي القضاة.

ومن الأسماء المحظورة التي تدل على الكذب والتزكية: عز الدين، ومحيي الدين، وناصر الدين، وزكية، وشمس الضحى، وحورية، ونهاد، ومن أقبحها التسمّي بأسامي الفنانين والفنانات والراقصات والعواهر الساقطات، أو أسامي الكفار والكافرات كما هو شائع اليوم بين المتفرنجين والمستعربين والجهلة من العوام، فلا ينبغي للمسلم أن ينساق مع العوائد الجاهلية.

* * *

❊ ما يباح ويُكره من الألفاظ والكلمات

ما جاء في يا بُنَيَّ

[٢٤٥] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يا بُنَيّ»**.

رواه مسلم (١٢٩/١٤)، وأبو داود (٤٩٦٤)، والترمذي (٢٦٤٠) وحسّنه وصححه.

[٢٤٦] وعن المغيرة بن شعبة قال: ما سأل رسول الله ﷺ أحدٌ عن الدجال أكثر مما سألته عنه فقال لي: **«أي بُنَيّ وما يُنصِبُكَ منه؟ إنه لن يَضُرّك»**.

رواه مسلم (١٣٠/١٤) ويأتي.

قوله: «وما ينصبك» من النصب وهو التعب، أي: ما يشق عليك ويتعبك منه. وقوله: «يا بني» بفتح الياء المشددة وكسرها.

وفي الحديثين جواز قول الإنسان لغير ابنه ممن هو أصغر سناً منه: يا ابني أو يا بنيّ مصغراً، وكذا يا ولدي، وفيه معنى التلطُّف كأنه يقول له:

إنك عندي بمنزلة ولدي في الشفقة، أما إذا كان قريناً له فيقول له: يا أخي، وإذا كان أكبر منه يناديه يا عم.

* * *

❋ قول الرجل مرحباً

[٢٤٧] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: لما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ قال: «**مرحباً بالوفد الذين جاؤوا غير خزايا ولا ندامى...**» الحديث.

رواه البخاري ومسلم وغيرهما مطولاً، وقد تقدم ذكره وتخريجه وشرحه في الإيمان (ج١/١٥٤).

ومعنى قوله: «مرحباً» أي: لقيت رحباً وسعة.

[٢٤٨] وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: قال النبي ﷺ لبنته فاطمة عليها السلام: «**مرحباً يا بُنَيَّتي...**» الحديث تقدم في السيرة وغيرها وهو في الصحيح.

[٢٤٩] وقالت أم هانىء رضي الله تعالى عنها: جئت النبي ﷺ فقال: «**مرحباً بأم هانىء**» وهو في الصحيح، وتقدم في السيرة أيضاً وسنذكره بتمامه قريباً.

وفي هذه الأحاديث وغيرها جواز الترحيب بالقادم على الإنسان، وذلك من حسن الأدب والمعاملة الطيبة.

* * *

❋ قولهم فداك أبي وأمي

[٢٥٠] عن علي رضي الله تعالى عنه قال: ما سمعت النبي ﷺ جمع أبويه لأحد غير سعد بن أبي وقاص. وفي رواية: ما جمع رسول الله ﷺ

أباه وأمه لأحد إلا سعد بن أبي وقاص، قال له يوم أُحد: **«ارمِ فداك أبي وأمي»**.

وقال له: **«ارم أيها الغلام الحَزَوَّر»**.

رواه البخاري (١٣/١٨٨)، ومسلم في المناقب، والترمذي في الاستئذان (٢٦٣٨)، وتقدم في غزوة أُحد من السيرة، وتقدم فيها قوله ﷺ للزبير ذلك في غزوة الخندق.

«الحزور»: بفتح الحاء والزاي والواو المفتوحة المشددة، هو الغلام القوي.

وفي الحديث جواز قول الرجل للآخر: فداك أبي وأبي، أي: أفديك بهما. وقد تكرر ذلك كثيراً على لسان النبي ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم.

* * *

قول الرجل لآخر ويلك أو ويحك

[٢٥١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يسوق بدنة فقال له: **«اركبها»** قال: يا رسول الله إنها بدنة، قال: **«اركبها ويلك»** في الثانية أو في الثالثة.

رواه البخاري ومسلم كلاهما في الحج وتقدم.

[٢٥٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ في سفر وكان معه غلام له أسود يقال له: أنجشة يحدو، فقال رسول الله ﷺ: **«ويحك يا أنجشة رويدك بالقوارير»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/١٧٠) وغيره، ويأتي لاحقاً في الحداء.

«ويلك»: أصله وَيْ وهي كلمة تأوُّه، فلما كثر استعمالهم لها وقولهم: وي فلان وصلوها باللام، وقدروها أنها منها فأعربوها، وتستعمل للتقبيح

على المخاطب فعله، وتستعمل بمعنى التحسُّر وجعلت في الشرع بمعنى الهلاك أو بواد في جهنم.

أما ويح، فقالوا: إنها كلمة ترحُّم، ومنه قوله ﷺ: **«ويح عمار، تقتله الفئة الباغية»** وقالوا: إن أكثر أهل اللغة على أن ويل كلمة عذاب، وويح كلمة رحمة، وقد استعمل إحداهما موضع الأخرى، وقد تكررتا في الأحاديث.

***

سب الدهر

[٢٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله عزّ وجل: يَسُبُّ ابنُ آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار»**، وفي رواية: **«يؤذيني ابن آدم يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتُهُما»**، وفي رواية: **«لا تسبُّوا الدهر فإن الله عزّ وجل قال: أنا الدهر الأيام والليالي لي، أجددها وأُبليها وآتي بملوك بعد ملوك»**.

رواه أحمد (٢/١٣٨/٢٧٢/٢٧٥)، والبخاري في تفسير الجاثية (١٠/١٩٥/١٩٦)، وفي التوحيد، ومسلم في الأدب (١٥/٢/٣/٤)، وأبو داود (٥٢٧٤). والروايتان الأوليتان لمسلم، والأخيرة لأحمد (٢/٤٩٦) بسند صحيح على شرط مسلم.

قوله: **«يؤذيني»** معناه: يعاملني معاملة توجب الأذى في حقكم، فهو من باب المجاز فإن الله عزّ وجل لا يصله أذًى منا فهو منزَّه عن ذلك.

وقوله: «الدهر» هو الزمان من الأيام والليالي وهو على حذف مضاف، أي: أنا رب الدهر وخالقه ومُقَلِّبُه، فمَن سبّ الدهر كأنما سبّ خالقه، والقيام عليه وهو الله عزّ وجل وقد حاد عن الصواب من جعل الدهر اسماً من أسماء الله عزّ وجل. قال العلماء: وهذا مجاز وسببه أن

العرب كانوا إذا نزلت بهم حوادث ومصائب من موت أو هرم مثلاً أو تلف مال أو قحط، نسبوا كل ذلك للزمان فيسبُّونه فيقولون: يا خيبة الدهر، فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك، وبيان أن الدهر بأيامه ولياليه خلق الله وأنه مسخَّر من قبل الله عزّ وجل لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة من نفع أو ضر.

وليراجع الفتح (١٣/١٨٤/١٨٥) (ج١٠/١٩٦) وشرح مسلم للنووي (١٥/٢/٣).

* * *

❊ ما قيل في تسمية العنب كَرْماً

[٢٥٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تُسَمُّوا العنب الكَرْم، فإن الكَرْم الرجلُ المسلمُ»**، وفي رواية: **«فإن الكَرْمَ قلبُ المؤمن»**، وفي رواية: **«ولكن قولوا: العنب والحَبَلَة»**.

رواه البخاري (١٣/١٨٤) ومسلم (١٥/٤/٥) وغيرهما.

«الحبلة»: بفتح الحاء والباء وتسكن الباء، هي شجرة العنب.

وفي الحديث كراهة تسمية العنب كرماً، وسبب النهي عن ذلك الابتعاد عن التشبُّه بالجاهلية الذين كانوا يطلقون ذلك على العنب والخمر معاً حتى سموا الخمر بمفردها كرماً لأنها في زعمهم كانت تحملهم على الكرم والسخاء، فكره الشرع إطلاق هذه اللفظة على العنب وشجره، لأنهم إذا سمعوا الكرم تذكروا بها الخمر وحنت نفوسهم إليها فرجعوا إليها أو قاربوا ذلك، وأخبرهم بأن الذي يستحق هذا الاسم هو الرجل المسلم أو قلب المؤمن لما فيه من الإيمان والنور والتقوى.

أفاده النووي رحمه الله تعالى.

* * *

❋ ما جاء في العبد والأمة والمولى والسيد وإطلاقها على الموالي

[٢٥٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يقولَنَّ أحدُكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله. وكل نسائكم إماء الله، ولكن لِيَقُلْ: غلامي وجاريتي، وفتايَ وفتاتي»**. وفي رواية: **«فإن مولاكم الله عزّ وجل»**، وفي رواية أخرى: **«لا يقل أحدكم: إسقِ ربك، أطعِم ربك، وضِّىء ربك، ولا يقل أحدكم: ربي وليقل: سيدي، مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي، وليقل: فتاي، فتاتي، غلامي»**، وفي رواية: **«لا يقولن أحدكم: عبدي أو أمتي، ولا يقولن: المملوك ربي وربتي، وليقل: المالك فتاي وفتاتي، وليقل المملوك: سيدي وسيدتي، فإنكم المملوكون، والرب الله عزّ وجل»**.

رواه أحمد (٢/٣١٦/٤٩٦)، والبخاري في العتق (٦/١٠٥)، ومسلم (١٥/٥/٦)، وأبو داود (٤٩٧٥) كلاهما في الأدب بألفاظ.

الحديث بجميع رواياته وألفاظه يدل على أن السيد لا يقول لمملوكه: عبدي وللأنثى أمتي، ذلك أن الكل عبيد الله وكل النساء إماء الله، فهم جميعهم مربوبون للّه تعالى فلا ربوبية لأحد من خلق الله على آخر، فإذا نادى السيد مملوكه، قال: غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي، والمراد بالنهي عن ذلك من استعمله على جهة التعاظم لا مَن أراد التعريف. قاله النووي رحمه الله تعالى.

أما المملوك فحسبه أن يقول: سيدي وسيدتي ومولاي. وهذا من الآداب مع الله عزّ وجل، ثم إن هذا النهي الأكثر على أنه للكراهة وسلوك مسلك الأدب، علماً بأنه ورد ما يدل على الجواز.

❋ ❋ ❋

❋ كراهة قول الإنسان: تعِس الشيطان

[٢٥٦] عن رجل قال: كنت رديف النبي ﷺ فعثرَتْ دابتُه فقلت: تعِس الشيطان، فقال: **«لا تقل تعِس الشيطان فإنك إذا قلت ذلك تعاظم حتى يكون مثل البيت، ويقول: بقوتي صرعتُه، ولكن قل: بسم الله، فإنك إذا قلت ذلك تصاغر حتى يكون مثل الذباب»**.

رواه أحمد (٥/٥٩/٧١)، وأبو داود (٤٩٨٢)، والنسائي في الكبرى (١٤٢/٦)، والحاكم (٢٩٢/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وسنده صحيح، وجاء عند بعضهم تسمية الرجل وهو عن أبي المليح عن أبيه.

«تعس»: بكسر العين، أصل التعاسة السقوط على الوجه.

وفي الحديث النهي عن ذكر الشيطان عند حدوث ما يسوء الإنسان، فإن ذكره عندئذ مما يرضيه ويعجب به ويتعاظم بسببه فيسند الفعل له ويقول: بقوتي صرعته وأسقطته على الأرض، ولكنه إذا ذُكر الله عزّ وجل خنس وأهين وذل وتصاغر حتى يصير مثل الذباب. وهذا من الآداب العظيمة، فالواجب على المسلم أن يكون دائم الذكر لله عند كل شيء يصيبه من خير أو شر ليخزي الشيطان ويذلّه، وليرضي ربه عزّ وجل.

* * *

❋ كراهة قول الإنسان خَبُثَتْ نفسي

[٢٥٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: **«لا يقولَنَ أحدكم: خَبُثَتْ نفسي، ولكن ليقل: لقِسَت نفسي»**.

رواه البخاري (١٨٣/١٣)، ومسلم (٧/١٥)، وأبو داود (٤٩٧٩) كلهم في الأدب.

[٢٥٨] وعن سهل بن حنيف رضي الله تعالى عنه مثله رواه الثلاثة المذكورون.

قوله: «خبثت» بضم الباء. «ولقِست»: بكسر القاف. قال جميع أهل اللغة والغريب وغيرهم: إن معناهما واحد. قال النووي رحمه الله تعالى: وإنما كره لفظ الخبث لبشاعة الاسم، وعلمهم الأدب في الألفاظ واستعمال حسنها وهجران خبيثها.

وانظر الفتح (١٨٣/١٣) للمزيد.

* * *

كراهة الجمع بين اسم اللّه وغيره بلا فصل

[٢٥٩] عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: خطب رجل عند النبي ﷺ فقال: مَنْ يُطِع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى، فقال النبي ﷺ: **«أسكت فبئسَ الخطيب أنت»** ثم قال رسول الله ﷺ: **«مَن يُطع الله ورسوله فقد رشد، ومَن يعصِ الله ورسوله فقد غوى، ولا تقل: مَن يعصهما»**.

رواه مسلم في كتاب الجمعة.

ففي الحديث تعليم الأدب في المنطق وكراهية الجمع بين اسم الله تعالى واسم غيره تحت حرفَيْ الكناية، لأنه يتضمن نوعاً من التسوية بين الخالق والمخلوق وذلك ينافي الأدب مع الله عزّ وجل وأسمائه.

* * *

كراهة قولهم: ما شاء اللّه وشئت

[٢٦٠] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»**.

رواه أحمد (٣٩٨/٣٩٤/٣٨٤/٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٠)، والطحاوي في المشكل (٩٠/١)، والبيهقي في السنن (٢١٦/٣) بسند صحيح.

وفي رواية قال: أتى رجل النبي ﷺ فقال: إني رأيت في المنام أني لقيتُ بعض أهل الكتاب، فقال: نِعْمَ القوم أنتم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد، فقال النبي ﷺ: **«قد كنت أكرهها منكم فقولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد»**.

رواه أحمد (٣٩٣/٥)، وابن ماجه (٢١١٨) بسند صحيح، وفيه اختلاف لا يضر، بيّنه الشيخ ناصر رحمه الله تعالى في الصحيحة رقم (١٣٧).

فهذا قريب مما سبق، فإن الواو تقتضي الجمع في العطف في قوله: **«ما شاء الله وشاء فلان»**، فلا يجوز العطف بها في مثل ما ذكر لأنه يقتضي مشاركة مشيئة الغير لمشيئة الله والواقع خلافه، فإن المشيئة هي إرادة الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فأخبر تعالى بأن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء الله، ولذلك أمر ﷺ أصحابه أن يتأدبوا مع الله عزّ وجل ومع رسوله وأن لا يجعلوه شريكاً له عزّ وجل كما جاء في رواية: **«أجعلتني لله ندًا»** فلذلك علّمهم أن يعطفوا في مثل ما ذكر بحرف «ثم» الموضوعة للتراخي وعدم التشريك، فيقول الإنسان: ما شاء الله ثم شاء فلان، كما يجوز له أن يقول: ما عليَّ إلا فضل الله ثم فضلُك، أو: ما لي بلاغٌ إلا بالله ثم بك، كما جاء في الصحيحين في قصة الأعمى، والأبرص، والأقرع، وقد تقدمت في الأنبياء.

* * *

قولهم: زعموا

[٣٦١] عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في زعموا: **«بِئْسَ مَطِيَّةُ الرجُلِ زعموا»**.

رواه أحمد (٤٠١/٥)، وأبو داود (٤٩٧٣) في الأدب، والبخاري في الأدب المفرد (٧٦٢)، والطحاوي في المشكل (٦٨/١) وسنده صحيح.

«المطية»: هي مركوب الإنسان التي يتوصل بها إلى مقصوده، فشبّه ﷺ لفظة: «زعموا» بالمطية حيث إن هذه الكلمة يقدمها الإنسان أمام كلامه ليتوصل بها إلى حاجته أيضاً، وذمها بقوله: «بئس» لأنها تستعمل غالباً في حديث لا ثبت فيه، وقد تستعمل بمعنى قال، ولم تأتِ في القرآن إلا في الإخبار عن المذمومين كما قال في الكفار: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾، وتأتي في مطلق الكذب أو ما فيه ريبة، ولذلك ذمّها النبي ﷺ، وفي ضمن ذلك النهي عنها وإبدالها بما لا ريبة فيه من الكلمات الأدبية.

* * *

لا يقال للمنافق: سيد

[٢٦٢] عن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يكُ سيداً فقد أسخطتم ربكم عزّ وجل»**.

رواه أحمد (٣٤٧/٣٤٦/٥)، والبخاري في الأدب المفرد (١١٢)، وأبو داود (٤٩٧٧)، والنسائي في الكبرى (٧٠/٦)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٩٣) وسنده صحيح.

الحديث يدل على أنه لا يجوز نداء أو مخاطبة المنافق ومن في معناه من الفسقة فضلاً عن الكفار بلفظ السيادة، لأن السيادة تدل على تفوق المسيد على غيره بفضائل التي منها مع الإيمان التقوى والشرف والعلم ومحاسن الأخلاق.

فمَن وصف بالسيادة من لا يستحقها فقد تعرض لسخط الله بل وغضبه كما جاء في رواية لهذا الحديث، رواها الحاكم (٤١١/٤)، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (١٩٨/٢) وصححه الحاكم.

ومن هنا نعلم ضلال المتفرنجين والمستعربين الذين يسيدون الكفرة والكافرات والعلمانيين واللادينيين في مخاطباتهم ومحاوراتهم وأخبارهم وفي كل المجالات.

وقوله ﷺ: «لا تقولوا للمنافق سيد» يؤخذ منه بطريق المفهوم أن ذلك مشروع بالنسبة للمؤمن، وذلك يرد على بعض المتزمتين الذين يمتنعون من سيادة من يستحق السيادة من العلماء والأشراف والصالحين. ويأتي قوله ﷺ في الحسن عليه السلام: «إن ابني هذا سيد» في أحاديث أخرى.

* * *

❋ كراهة قول الإنسان: هلك الناس

[٢٦٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكُهم».

رواه أحمد (٢/٣٤٢)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٧٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٨٣).

وقوله: «أهلكهم» بضم الكاف على المشهور، أي: هو أشدهم هلاكاً، وفيه كراهة قول الرجل: «هلك الناس»، لكن قال أبو داود: قال مالك: إذا قال ذلك تحزُّناً لما يرى في الناس، يعني في أمر دينهم، فلا أرى به بأساً، وإذا قال ذلك عُجباً بنفسه وتصاغراً للناس فهو المكروه الذي نهى عنه.

وقال النووي في شرح مسلم: واتفق العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس، واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم لأنه لا يعلم سر الله في خلقه، قالوا: فأما من قال ذلك تحزُّناً لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين فلا بأس عليه... هكذا فسره الإمام مالك وتابعه الناس عليه.

وقال الخطابي: معناه: لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساونهم ويقول: فسد الناس وهلكوا، ونحو ذلك، فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم، أي: أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في غيبهم والوقيعة فيهم، وربما أداه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنه خير منهم.

* * *

❋ ما جاء في الشِّعْر

❋ ما يجوز منه

[٢٦٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللَّهَ باطلٌ وكاد أمية بن أبي الصَّلت أن يُسْلِم»**.

رواه البخاري في الأدب (١٥٩/١٣) وغيره، ومسلم (١٣/١٢/١٥)، والترمذي (٢٦٥٨) في الاستئذان وفي الشمائل (٢٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٣٧٥٧).

وفي رواية لمسلم والترمذي: **«أشعر كلمة تكلمت بها العرب»**.

قوله: «كلمة» المراد بها هنا القطعة من الكلام. والمراد بقوله: «باطل» أي: فان مضمحل هالك لا يبقى له أثر إلا الله عزّ وجل فإنه باق حي لا يموت.

[٢٦٥] وعن الشريد رضي الله تعالى عنه قال: ردفت رسول الله ﷺ يوماً فقال: **«هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟»** قلت: نعم، قال: **«هيه»**، فأنشدته بيتاً فقال: **«هيه»**، ثم أنشدته بيتاً فقال: **«هيه»**، حتى أنشدته مائة بيت.

وفي رواية: **«فلقد كاد يسلم في شعره»**.

رواه مسلم في الأدب (١١/١٥)، وابن ماجه (٣٧٥٨).

قوله: **«كاد يسلم شعره»** وذلك لما فيه من كلامه على التوحيد والبعث وغير ذلك، ولكنه كفر ولم يسلم. وقوله: **«هيه»** أي: زد، ويروى: إيهِ.

[٢٦٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قيل لها: كان رسول الله ﷺ يتمثل شيئاً من الشعر؟ قالت: كان يتمثل من شعر عبدالله بن رواحة، قالت: وربما قال: **«ويأتيك بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ»**.

رواه أحمد (٢٢٢/٦)، والترمذي (٢٦٥٧)، وفي الشمائل (٢٤١)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٦٧) وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: «تزود» بضم التاء وكسر الواو المشددة، من التزويد وهو إعطاء الزاد.

[٣٦٧] وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: جالست النبي ﷺ أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكتٌ، فربما يتبسم معهم.

رواه أحمد، وابن أبي شيبة، والترمذي في الاستئذان (٢٦٥٩)، وفي الشمائل (٢٤٦) وحسّنه وصححه.

[٣٦٨] وعن أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الشعر حكمة**».

رواه أحمد (١٢٥/٥)، والبخاري في الأدب (١٥٦/١٣).

[٣٦٩] ومثله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بلفظ: «**إن من الشعر حِكَماً**».

رواه أبو داود (٥٠١١)، والترمذي (٢٦٥٤)، وابن ماجه (٢٠١٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٧٢٠) وحسّنه الترمذي وصححه، وصححه ابن حبان (٢٠١٧).

[٣٧٠] وآخر مثله عن ابن مسعود رواه الترمذي (٢٦٥٣) بسند صحيح.

قوله: «حكمة أو حكماً» معناه: فيه ما هو حِذقٌ نافع.

وتقدمت أحاديث أخرى في الموضوع في الجهاد وفي الفضائل وغيرهما، وجملة هذه الأحاديث تدل على أمور:

أولاً: جواز إنشاد الشعر وسماعه إذا كان خالياً من الخنا والفحش والكذب، والإكثار منه، والتغزُّل بالنساء والمردان وذكر الخمر، وقد نقل ابن عبدالبر الإجماع على جوازه إذا كان خالياً مما ذكر.

[٣٧١] وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد (٨٦٦) بسند حسن، كما

قال الحافظ عن عائشة رضي الله تعالى عنها إنها كانت تقول: الشعر منه حسن، ومنه قبيح، خذ الحسن ودع القبيح، ولقد رويت من شعر كعب بن مالك أشعاراً منها القصيدة فيها أربعون بيتاً.

وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد (٨٩٥) عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً: «**الشعر بمنزلة الكلام فحسنه كحسن الكلام وقبيحه كقبيح الكلام**» وسنده حسن وهو صحيح لشواهده كسابقه. ونسب كثير من العلماء هذا الكلام إلى الشافعي.

ثانياً: ثبوت سماع النبي ﷺ الشعر وإنشاده واستنشاده، وهذا مما لا خلاف فيه، كما ذكر هنا، وكما تقدم في غير موضع كالسيرة والمناقب، لكنه لم يكن شاعراً ينشيء الشعر من عنديته بل أعاذه الله تعالى منه كما قال تعالى عنه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾، لأن الشعر مبني أصالة على الكذب واللغو وأحلاه أكذبه، وأكثر الشعراء فسقَة منحرفون، والحالة أنهم مسلمون فكيف بغيرهم، وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾، والصالحون فيهم قليلون، ولذا نزّه الله تعالى نبيه ﷺ عن الشعر وتعاطيه.

ثالثاً: جواز سماع أشعار الكفار من أهل الجاهلية وإنشادها واستنشادها إذا لم يكن فيها محذور.

رابعاً: إن في بعض الأشعار حكماً من نصائح ومواعظ وكلام صدق نافع وغير ذلك كما في كلمة لبيد: «ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل، وكل نعيم لا محالة زائل».

فهذا كلام صدق صحيح، فإن كل ما سوى الله هالك، فانٍ ميت مضمحل، وكل نعيم هذه الحياة منقطع.

وكما في أبيات أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه ﷺ: «**كاد أن يسلم**» وذلك لما كان في كلامه من الإقرار بالوحدانية والبعث. . .

وكذا ما يوجد في كثير من كلام الشعراء الإسلاميين ولا سيما الملتزمين منهم والتائبين فإن أشعارهم كلها حِكم ومديح وثناء على الله تعالى.

وخلاصة القول في الشعر: إن ما كان في الحق والنصح والإرشاد والدلالة على الله وعلى الخير والمواعظ والثناء على المولى جلّ علاه ومدحه ومدح رسوله ﷺ وآل بيته وأصحابه والإسلام والدعوة إلى الجهاد والتحريض عليه وهجو الكفار والدفاع عن الإسلام، كل ذلك محمود ومطلوب، وقد فعله الصحابة والتابعون فمن بعدهم عبر العصور، أما ما كان خلاف ذلك فمذموم وهو المراد بالآتي.

* * *

❋ الشعر المذموم

[٢٧٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لأنْ يمتلىء جوفُ أحدِكم قيحاً حتى يريه، خير له من أن يمتلىء شعراً»**.

رواه البخاري في (١٦٧/١٣)، ومسلم (١٤/١٥)، وأبو داود (٥٠٠٩)، والترمذي (٢٦٦١)، وابن ماجه (٣٧٥٩) كلهم في الأدب، وهو في الأدب المفرد للبخاري أيضاً (٨٦٠).

[٢٧٣] ونحوه عن سعد بن أبي وقاص.

رواه مسلم (١٥/١٥)، والترمذي (٢٦٦٠)، وابن ماجه (٣٧٦٠).

قوله: «يريه» بفتح الياء وكسر الراء، أي: حتى يُفْسِده.

[٢٧٤] وعن ابن عمر مثله أيضاً.

رواه البخاري في (١٦٦/١٣).

هذه الأحاديث ظاهرها يدل على ذم الشعر مطلقاً والتنفير من حفظه، وأن امتلاء الجوف بالقيح حتى يفسده خير للمرء من أن يمتلئ شعراً، وهذا

ذم بالغ يقتضي تحريم حفظ الشعر والاشتغال به غير أن هذا عام مخصوص، قال العلماء: الصواب في معنى الحديث أن يكون الشعر غالباً عليه مستولياً عليه بحيث يشغله عن القرآن وغيره من العلوم الشرعية وذكر الله تعالى، وهذا مذموم من أي شعر كان، فأما إذا كان القرآن والحديث وغيرهما من العلوم الشرعية هو الغالب عليه فلا يضر حفظ اليسير من الشعر مع هذا لأن جوفه ليس ممتلئاً شعراً، ولهذا المعنى ترجم البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه بقوله: باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصده عن ذكر الله والعلم والقرآن.

قال النووي: قال العلماء كافة: هو مباح ما لم يكن فيه فحش، ونحوه، قالوا: وهو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح، قال: وهذا هو الصواب.

والحاصل أن الحديث مخصوص بالشعر المذموم كالأشعار التي يصف أصحابها فيها الخدود والنهود والعيون والقدود والخمر وما إلى ذلك من الفحش والفجور وذم من لا يستحق الذم وهجو الأبرياء وقذف المحصنات كما كانت ولا تزال عادة الشعراء، كما يحكى أنه اجتمع جماعة من الشعراء فقال بعض منهم: لِمَ اجتمعتم؟ فأجابه آخر: لنقذف المحصنات، فقال ثالث منهم: وهل توجد في الدنيا محصنة؟ فشعر أمثال هؤلاء هو المحرّم سماعه وحفظه وهو الذي يكون جوف المرء ممتلئاً قيحاً خير من أن يمتلىء به، والله أعلم.

وألحق العلماء بالشعر المذموم كل علم يبعد الإنسان عن الله ويقسّي قلبه ويشغله عن القيام بالواجبات والمستحبات والعلوم النافعة.

* * *

❁ الحُدَاء والغِنَاء

[٢٧٥] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان للنبي ﷺ حَادٍ يقال له: أَنْجَشَةُ، وكان حسَن الصوت، فقال له النبي ﷺ: **«رويدك يا أنجشةُ لا تكسر القوارير»** قال قتادة: يعني ضعفة النساء.

وفي رواية: كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وغلام له أسود يقال له أنجشة يَحْدُو، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا أنجشة رويدك سوقاً بالقوارير»**.

وفي رواية ثالثة: كانت أم سُلَيم مع نساء النبي ﷺ وهُنّ يسوق بهن سواق، فقال نبي الله ﷺ: **«أي أنجشة رويدك سوقك بالقوارير»**.

رواه أحمد (٣/١٠٧/١١٧/١٧٦/٢٠٦/٢٥٤)، والبخاري في الأدب (١٣/٢١٦/٢١٧)، ومسلم في الفضائل (١٥/٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/١٣٥).

[٢٧٦] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تُسْمِعُنَا من هنَيْهاتك؟ قال: وكان عامر رجلاً شاعراً فنزل يَحْدُو بالقوم يقول: اللهم لولا أنتَ ما اهتدينَا، ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا، فاغفر فداء لك ما اقتفينا، وثبِّت الأقدام إن لاقينا، وألقين سكينة علينا، إنا إذا أُصِيحَ بنا أتينا، وبالصياح عولوا علينا.

فقال رسول الله ﷺ: **«مَن هذا السائق؟»** قالوا: عامر بن الأكوع، فقال: **«رحمه الله»**، فقال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله لولا أمْتَعتنا به، ثم ذكر محاصرتهم لخيبر واستشهاد عامر هذا.

رواه البخاري في المغازي وفي الأدب (١٣/١٦٠)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٦٥/١٦٧/١٨٤/١٨٦)، وقد تقدم في السيرة من غزوة خيبر رقم (٣٩١).

قوله: «أنجشة» بسكون النون وفتح الجيم والشين هو غلام أسود كان للنبي ﷺ. وقوله: «رويدك» أي: سق سوقاً رويداً، أي: ارفق بهن، فمعناه الأمر بالرفق. و«القوارير» يعني بهن النساء فهن لضعفهن كالزجاج يسرع إليهن كسر أجسادهن، وقيل شبّههن بالقوارير لضعف عزائمهن فإنهن يفتتن بسرعة إذا سمعن الحداء والنشيد والرجز من صاحب الصوت الحسن كما كان ذلك في أنجشة، والمعنى الأول هو الظاهر من الحديث.

وقوله ﷺ: «هُنَيهاتك» مفرد هنيهة تصغير هنة وهو اسم جنس يشمل أموراً، والمراد به هنا أسمعنا من شعرك وحدائك الذي تترنم به.

وقوله: «يحدو» الحداء بضم الحاء وفتح الدال والمد آخره همزة، هو الترنُّم والغناء للإبل لتسرع في السير وليتسلى المسافر بسماع ذلك عن عناء السفر وشدة تعبه.

وفي الحديثين جواز الترنم والغناء بالرجز ونحوه على عادة العرب، وأن سماعه لا حرج فيه، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه، فهذا النبي ﷺ قد سمعه وأقرَّ الحادي عليه واستحسنه من عامر ودعا معه بالرحمة فقتل شهيداً. وقد نقل ابن عبدالبر الاتفاق على إباحته، وكان السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم يترنمون ويغنون بالحداء ونحوه. وقال الحافظ في الفتح (١٥٤/١٣): ويلتحق بالحداء هنا الحجيج المشتمل على التشوق إلى الحج بذكر الكعبة وغيرها من المشاهد، ونظيره ما يحرض أهل الجهاد على القتال ومنه غناء المرأة لتسكيت الولد في المهد.

وفي حديث أنس جواز سماع المرأة ترنُّم الرجل برجز ونحوه، إذا لم يؤدِّ إلى افتتانها بصوته.

كما فيه الرفق بالنساء في السير ونحوه وأن يعاملن حسب ضعفهن لأنهن كما يقال: الجنس الضعيف.

والحديث قد يستدل به على جواز الأغاني الحسنة وسماعها من ذي الصوت الحسن لأن الحُداء كلام موزون رقيق يستلذه سامعه ويطرب له، ولأجل ذلك كانوا يحدون به للإبل في أسفارها ومسافاتها البعيدة، فكانت إذا سمعت ذلك استلذته وانزجعت فتسرع في سيرها ولا تشعر بما تلاقيه من التعب. والصوت الحسن محبوب للنفوس من كبير وصغير حتى الطفل الصغير يشعر بلذة ونشوة إذا غنّته أمه عند بكائه فيسكت، وقد أخبر الله عزّ وجل عن نبيه داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام أنه أمر الجبال والطير أن ترجع مع قراءته، وكان الجميع يطرب لها، وأخبر ﷺ أن داود كان له مزامير وهي قراءته الزبور بصوته الجميل المطرب، وقال ﷺ لأبي

موسى: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود»، وقال ﷺ: «زيِّنوا القرآن بأصواتكم» وقال: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن». فقوله: «يتغنى» أي: يحسِّن صوته بالقرآن، وهو معنى «زيِّنوا...» إلخ.

وجاء في حديث آخر: «لَلّه أشد إذناً ـ أي: استماعاً ـ للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته».

فالصوت الحسن محبوب ومرغوب فيه ومطلوب في قراءة القرآن وفي الحداء.

***

❊ بسط القول في الغناء وإحقاق الحق فيه

الغناء من الجزئيات الفرعية المختلف فيها، وهو أصالة ينقسم القول فيه إلى ثلاثة أقسام: قسم متفق على جوازه وإباحته، وقسم متفق على تحريمه، وقسم مختلف فيه اختلافاً كثيراً، ثم هناك قسم رابع قد يكون مستحباً كما يأتي، فالمتفق على إباحته ما سمعه النبي ﷺ وحضره وشاهده من الحداء والأراجيز وأغاني الجواري، وما حضّ عليه مولاتنا عائشة في الأعراس... والمتفق على تحريمه ما كان محتفًا بالمحرمات كاختلاط النساء بالرجال مثل الحالة المشاهدة اليوم على شاشة التلفزيون، أو كان من المرأة الأجنبية الفاتنة، أو كان غناءً ماجناً يشتمل على وصف الخدود والعيون والنهود... مع آلة الطرب وشرب الخمر على عادة الفسقة وذوي المجون، فهذان القسمان لا خلاف فيهما ولا ينبغي أن يختلف فيهما، وما عداهما فمختلف فيه، منهم المبيح ومنهم المحرم ومنهم المفصل، ونحن بإذن الله تعالى سنورد أولاً أدلة الجواز والمنع معاً من الأحاديث النبوية ثم نذكر خلاصة ما تدل عليه من الإباحة أو المنع.

***

ذكر الأحاديث الدالة على إباحة الغناء

[٢٧٧] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان مما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أبمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: «**إن لكل قوم عيداً وهذا عيدنا**».

وفي رواية: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بُعاث فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه، وجاء أبو بكر فانتهرني وقال: مزمارة الشيطان عند النبي ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: «**دعْهُما**» فلما غفل غمزتهما فخرجتا.

وفي رواية: إن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى تُدَفِّفَانِ وتَضْرِبان والنبي ﷺ متغشٍّ بثوبه، فانتهرهما أبو بكر فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال: «**دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد**» وتلك الأيام أيام منى.

وفي رواية: وعندها جاريتان في أيام منى تغنيان وتضربان بالدفّ.

وفي رواية: وفيه جاريتان تلعبان بدُفّ.

رواه أحمد (٦/١٣٤)، والبخاري (١٣/٩٢/٩٤/١٢٨)، ومسلم (٦/١٨٢/١٨٤) كلاهما في العيدين.

قوله: «بُعاث» بضم الباء، هو موضع وقعت فيه وقعة بين الأوس والخزرج في الجاهلية أودت بأشرافهم وسراتهم. و«ليستا بمغنيتين» أي: لم تكونا تحسنان الغناء أو لم تكونا تتعاطينه. قوله: «بمزامير» في رواية بمزمار وفي أخرى بمزمور. قوله: «تدففان» أي: تضربان بالدف.

[٢٧٨] وعن الرُبَيِّع بنت مُعَوِّذ رضي الله تعالى عنهما قالت: جاء رسول الله ﷺ فدخل عليَّ صبيحة عرسي فجلس على فراشي كمجلسك

مني، فجعلت جُوَيْرِياتٌ يضربن بدفٍّ لهن ويندُبن مَن قُتل من آبائي يوم بدر، إلى أن قالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد.

فقال رسول الله ﷺ: **«دعي هذا، وقولي ما كنتِ تقولين»**.

رواه البخاري في المغازي غزوة بدر، وفي النكاح باب ضرب الدف في النكاح (١٠٨/١١)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢٢)، والترمذي في النكاح (٩٧٣) بتهذيبي، وابن ماجه (١٨٩٧)، والبيهقي (٢٨٩/٢٨٨/٧).

و«يَنْدُبْن»: النُّدبة بضم النون وسكون الدال، هي تعداد محاسن الميت.

[٢٧٩] وعن محمد بن حاطب الجُمحي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«فَصْلُ ما بين الحلال والحرام الدُّفُّ والصَّوْتُ»**.

رواه أحمد (٢٥٩/٤)، والترمذي (٩٧١)، والنسائي (١٠٤/٦)، وابن ماجه (١٨٩٦)، والحاكم (١٨٤/٣)، والبيهقي (٢٨٩/٧) بسند حسن، أما الحاكم فصححه ووافقه الذهبي.

[٢٨٠] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها زفّت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة ما كان معكم لهو، فإن الأنصار يُعجبهم اللهو»**.

رواه البخاري في النكاح (١٣٣/١١)، والحاكم (١٨٤/١٨٣/٢)، والبيهقي (١٨٨/٧).

المراد باللهو هنا الغناء ونحوه.

[٢٨١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: أنكحتْ عائشةُ رضي الله تعالى عنها ذات قرابة لها من الأنصار، فجاء رسول الله ﷺ فقال: **«أهديتم الفتاة؟»** قالوا: نعم، قال: **«أرسلتم معها من يُغنّي؟»** قلت: لا، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الأنصار قوم فيهم غَزَلٌ فلو بعثتم معها من يقول: أتيناكم أتيناكم فحيّانا وحيّاكم»**.

رواه ابن ماجه في النكاح (١٩٠٠)، وورواه أحمد (٣/٣٩١)، والبيهقي (٧/٢٨٩) عن جابر عن عائشة رضي الله تعالى عنهما وهو حديث حسن لطريقين له.

قوله: «غَزَل» بفتحتين، هو محادثة الفتيان والنساء.

[٢٨٢] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ سمع ناساً يُغنُّون في عرس وهم يقولون: وأهدى لها أَكْبُش يُبَحْبِحْنَ في المِرْبَد، وحِبُك في النادي، ويعلم ما في غد، قالت: فقال رسول الله ﷺ: **«لا يعلم ما في غد إلا الله سبحانه»**.

رواه الحاكم (٢/١٨٤/١٨٥)، والبيهقي (٧/٢٨٩) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قوله: «أكبش» جمع كبش. وقوله: «يبحبحن» بضم الياء وسكون الحاءين وفتح الباء الأولى وكسر الثانية، أي يتوسعن في مكانهن.

[٢٨٣] وعن عمرو بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنهما في عُرس وإذا جَوَارٍ يُغنِّين فقلت: أنتما صاحبا رسول الله ﷺ ومن أهل بدر يُفعل هذا عندكم؟ فقال: اجلس إن شئت فاسمع معنا، وإن شئت اذهب، قد رخص لنا في اللهو عند العرس.

رواه النسائي (٦/١٠٩)، والحاكم (٢/١٨٤) وسنده صحيح.

[٢٨٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ مرّ ببعض المدينة فإذا هو بجوارٍ يضربن بدُفِّهِنَّ ويتغنَّيْنَ ويَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِن بَنِي النَّجّار   يا حَبَّذا مُحَمَّدٌ مِن جَارِ

فقال النبي ﷺ: **«الله يعلمُ أني لأحِبُكن»**.

رواه ابن ماجه (١٨٩٩) بسند صحيح.

[٢٨٥] وعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ

في بعض مغازيه، فلما انصرف جاءت جارية سوداء فقالت: يا رسول الله إني كنت نذرت إن ردّك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدُّفّ وأُغنّي، فقال لها رسول الله ﷺ: **«إن كنتِ نذرتِ فاضربي، وإلا فلا»** فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، ثم دخل عمر، فألقت الدف تحت إستها ثم قعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ: **«إن الشيطان يخاف منك يا عمر، إني كنت جالساً وهي تضرب فدخل أبو بكر وهي تضرب، ثم دخل علي وهي تضرب، ثم دخل عثمان وهي تضرب، فلما دخلت أنت يا عمر ألقت الدف»**.

رواه أحمد (٣٥٣/٥)، والترمذي في المناقب (٣٤٦٢) بتهذيبي وحسنه وصححه.

فهذه تسعة أحاديث ما بين صحيح وحسن كلها تدور حول الغناء والضرب بالدف وهي بجملتها تدل على أمور:

أولاً: فيها ثبوت سماع النبي ﷺ الأغاني بإطلاق.

ثانياً: سماعه ذلك من الجواري سواء قلنا: كُنَّ صغاراً أم كباراً فالأحاديث فيها إطلاق.

ثالثاً: سماعه الضرب بالدف ووقوع ذلك في بيته وبمحضره.

رابعاً: إقراره على ذلك.

خامساً: حضه عليه وعلى اللهو.

سادساً: إنكاره على من نهى عنه.

سابعاً: جواز الغناء واللهو والضرب بالدفوف في المناسبات كأيام العيد، وفي الأعراس، وعند قدوم عالم أو صالح من سفر، أو عند إرادة الترويح عن النفس بلا سبب.

فهذه كلها تؤخذ من ظواهر الأحاديث المذكورة لا ينبغي التنازع والاختلاف فيها.

يبقى بعد هذا ملاحظات قيلت على هذه الأحاديث ولا بد من الإجابة عليها وتقييد ما ينبغي تقييده منها.

أولاً: في سماعه ﷺ الغناء والدف من الجواري، وقد تعدد ذلك منه فسمعه من الجاريتين اللتين أنكر عليهما أبو بكر، وسمعه من الجُوَيْرِيَات في بيت الرُّبَيِّع، وسمعه من الجواري اللاتي مرّ عليهن من بني النجار كما سمعه من الجارية السوداء.

والسؤال المطروح هنا هو: هل يجوز لنا سماع الأغاني والدفوف من الجواري مطلقاً اتباعاً منا لرسول الله ﷺ واقتداءً به أم لا؟

أجاز ذلك طائفة من العلماء ومنع آخرون، والحق التفصيل في ذلك، فإن كانت المغنيات جوارٍ صغاراً لا يُشْتَهَيْن ولا يؤدّي غناؤهن للافتتان بهن، فهذا لا مانع من سماعه منهن، وعلى هذا يحمل سماع النبي ﷺ إذا قلنا: بأن الجواري كنّ صغاراً كما ذهب إليه البعض فإن فرضنا بأنهن كنّ كباراً بالغات حمل ذلك على أنه كان مأموناً من الفتنة معصوماً من التلذُّذ بصوت الأجنبيات، أما غيره فلا بد من تقييد السماع منهن بالأمن من الفتنة والتلذذ بأصواتهن لأن للأذن حظاً من الزنا وهو السماع من المرأة الأجنبية التي يتلذذ بصوتها كما جاء في الحديث الصحيح، وبهذا قال جمهور العلماء وهو الصواب الذي لا ينبغي العدول عنه، وقد مرّ بك حديث الجارية السوداء وقد شاهد وسمع غناءها كل من النبي ﷺ والصدّيق وعلي وعثمان وهي سوداء لا تشتهى ولا يتلذذ بصوتها ولا بغنائها، ومثله ما أخرجه الترمذي أيضاً في فضائل عمر ٣٤٦٣ بتهذيبي عن عائشة في قصة الحبشية التي كانت تزف وتغني والنبي وعائشة والناس ينظرون إليها، وهو حديث صحيح.

ثانياً: ما جاء في هذه الأحاديث من الضرب بالدف والغناء، هل ذلك يدخل فيه الرجال أم هو خاص بالنساء؟ الظاهر عدم الفرق بين الرجال والنساء لأنه لا دليل يدل على اختصاص ذلك بالنساء إلا الرأي والاجتهاد.

ثالثاً: اختلف العلماء هل الغناء والضرب بالدفوف واللهو مقصور على الأعياد، والأعراس، والقدوم من السفر كما جاء التنصيص على ذلك فيما تقدم من الأحاديث أم ذلك عام في كل مناسبة وغيرها.

الظاهر، أن ذلك لا يختص بالعيد والعرس... بل للمسلم أن يتغنى ويضرب ويسمع ذلك متى شاء فلا حرج عليه لأنه لم يأتِ ما يمنع من ذلك، فتخصيص الغناء وضرب الدفوف بأيام الأعياد والأعراس تخصيص بدون مخصص.

رابعاً: يؤخذ من هذه الأحاديث أن الأغاني تجوز بالنثر والشعر بجميع أنواعه، وقد مرّ بك أن النبي ﷺ سمع كل ذلك، فكان يسمع الحداء والرجز، وكان يتمثل به، وسمع أغاني الجواري وغيرهن، فتخصيصه بنوع خاص مجرد رأي لا يشهد له دليل.

خامساً: ما تقدم من قوله ﷺ لمولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: «**ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو**». وقوله لها: «**أرسلتم معها من يغني؟**» «**إن الأنصار قوم فيهم غَزَلٌ**» وغير ذلك.

كل ذلك يدل على أن كلاً من اللهو والغزل مأذون فيهما، على أي لون كانا ما داما خاليين من الخنا والفحش ولم يخرجا عن الآداب الإسلامية.

سادساً: ذكر العلماء أن الأغاني إذا كانت مشتملة على ذكر الله تعالى والثناء عليه ومدح رسول الله ﷺ وذكر المواعظ والرقائق والدعوة إلى الزهد في الدنيا والتأهُّب للآخرة، أو الترويح على النفس ونحو ذلك، لا بأس بها بل قد تكون مستحبة كما يأتي.

وستأتي الخلاصة في الجائز والممنوع من الغناء بعد الفصل الآتي.

* * *

❁ الأحاديث الدالة على الغناء المحرّم

[٢٨٦] عن عبدالرحمٰن بن غَنْم الأشعري قال: حدثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري والله ما كذبني سمع النبي ﷺ يقول: «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ والحرير والخمر والمعازف، ولينزلَنّ أقوام إلى جنب علَم يروح عليهم بسَارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غداً**

فيبيتهم الله ويضع العلم ويمسخ آخرين قِردة وخنازير إلى يوم القيامة».

رواه البخاري معلقاً في الأشربة (١٢/١٥٠/١٥٥) باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسمّيه بغير اسمه، وأبو داود في اللباس (٤٠٣٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٢٠)، وابن حبان (٦٧٥٤)، والبيهقي (٣/٢٧٢) و(١٠/٢٢١).

رووه مسنداً متصلاً بعضهم مطولاً وبعضهم مختصراً.

ولابن ماجه: **«يُعْزفُ على رؤوسهم بالمعازف والقَيْنَات يخسف الله بهم الأرض»**.

والحديث صحيح لا غبار عليه خلافاً لمن ضعّفه بالانقطاع كابن حزم وغيره، وقد ردّ عليه العلماء في ذلك ردوداً كثيرة منهم ابن الصلاح والقرافي والحافظ وغيرهم.

«الحر»: بالحاء والراء هو الفرج والمراد به الزنا. و«المعازف»: جمع معزفة وهي آلات العزف والطرب. قوله: «علم» بفتحتين أي: جبلٌ. «يروح عليهم» أي: يأتيهم الراعي في المساء. «بسارحة» أي: بماشية يقال لها سارحة لأنه تسرح بالغداة إلى مرعاها وتروح في المساء إلى مأواها. «فيبيتهم الله» أي: يهلكهم ليلاً. «ويضع العلم» أي: يوقعه عليهم.

[٢٨٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: مزمارٌ عند نعمة، ورِنَّةٌ عند مصيبة»**.

رواه البزار في مسنده رقم (٧٩٥) بكشف الأستار، وقال المنذري ثم الهيثمي في المجمع (٣/١٣) رجاله ثقات وله شاهد.

[٢٨٨] عن جابر بن عبدالله عن عبدالرحمٰن رضي الله تعالى عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لم أنهَ عن البكاء، ولكني نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة لهو ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة، ولطم وجوه وشق جيوب، ورنّة شيطان»**.

رواه الطيالسي في الجنائز بترتيب البنا رحمه الله تعالى (٧٦٠)، وابن

سعد (١٣٨/١)، والحاكم (٤٠/٤)، والبيهقي (٦٩/٤) وغيرهم، وفي سنده محمد بن أبي ليلى ضعيف، وهو عند الترمذي في الجنائز (٨٩٤) بتهذيبي، عن جابر مختصراً مع قصة في أوله وحسنه وسنده صحيح على شرط مسلم.

قوله: «نغمة لهو» أي: صوت حسن يلهو. قوله: «ومزامير» هو جمع مزمار وهو آلة الزمر والغناء ومنه الزمارة. «وصوت عند مصيبة»: هو صوت النائحة على عادة الجاهلية فكانوا إذا مات لهم ميت ونزلت بهم مصيبة لطموا خدودهم وشقوا جيوب ملابسهم وتكلموا بكلام سافل. وقوله: «ورنة شيطان» أي: صوت شيطان له رنين وهو داخل فيما تقدم.

[٢٨٩] وعن عمران بن حُصين رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكون في أمتي قَذْفٌ ومَسْخٌ وخَسْفٌ»** قيل: يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال: **«إذا ظهرتْ المعازِفُ، وكثُرت القِيانُ، وشُرِبت الخمور»**.

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٤٢) بتهذيبي، ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن عبدالقدوس وهو صدوق يخطىء، فحديثه هذا حسن لذاته ويصحح لطرقه وشواهده.

وقوله: «القيان» جمع قينة، وهي المغنية.

[٢٩٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله حرَّم عليّ ـ أو حرَّم عليهم ـ الخمر والميسر والكُوبَة وكل مسكر حرام»**.

رواه أحمد (٢٨٩/٢٧٤/١)، وأبو داود في الأشربة (٣٦٩٦)، وأبو يعلى (٢٧٢٩)، وابن حبان بالموارد (٥٣٤١)، والبيهقي (٢٢٢/٢١٣/١٠) وسنده صحيح، وللحديث مع ذلك شواهد وطرق.

و«الكوبة»: هي الطبل الصغير والنرد عند أهل اليمن.

[٢٩١] وعن نافع رحمه الله تعالى أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما سمع صوت زَمّارة راعٍ، فوضع أصبعيه في أذنيه وعدل راحلته عن الطريق

وهو يقول: يا نافع أتسمع؟ فأقول: نعم، فيمضي، حتى قلت: لا، فوضع يديه وأعاد راحلته إلى الطريق، وقال: رأيت رسول الله ﷺ وسمع زمارة راع فصنع مثل هذا.

رواه أحمد (٣٨/٨/٢)، وابن سعد في الطبقات (١٦٣/٤)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢٤/٤٩٢٥/٤٩٢٦)، وابن حبان بالموارد (٢٠١٣)، والبيهقي (٢٢٢/١٠) وغيرهم من طرق بعضها صحيحة.

فهذه الأحاديث الخمسة هي أصح وأظهر ما يستدل به على تحريم الأغاني وهي كما ترى كلها مقيّدة بآلات الطرب والمعازف، وما كان كذلك لا ينبغي أن يختلف في تحريمه إذا كان الغناء مشتملاً على ذكر النساء والخدود والنهود والخمر والخنا والكلام الماجن، ولا سيما إذا كان من النساء الفاجرات العواهر أو مع الاختلاط الفاحش كالأغاني المشاهدة اليوم على شاشة التلفزيون وفي الأعراس والمناسبات الجاهلية المعاصرة، فمثل هذه الأغاني لا يقول بإباحتها إلا منحل من الدين فاسق... بل قد يكفره البعض وعلى هذه الأغاني يحمل ما جاء من التحريم عن الأئمة الأربعة وغيرهم، وهذا لا يرتاب فيه مسلم ولذلك كان تحريمها كذلك محل اتفاق إلا من لا يعتبر ولا يوثق بدينه كبعض المعاصرين، وقد عدّ ذلك ابن حجر الهيثمي في الزواجر من الكبائر، والكلام في ذلك وجيه ومعقول وذلك لما جاء في حديثَي أبي مالك وعمران بن حصين من الوعيد في ذلك وما ينزل بأولئك اللاهين المتهتكين من المسخ والخسف والقذف وذلك لا يكون إلا على ارتكاب أمر فاحش عظيم.

نعم، اختلف الناس قديماً وحديثاً في الأغاني مع الآلات إذا كانت عارية عن الأغاني الماجنة ومن المحرمات العارضة.

فأباحها البعض قديماً وحديثاً ومنعها آخرون كذلك.

استدلّ المانعون بالأحاديث الخمسة التي أوردناها آنفاً ولم يقيدوها كالمجيزين، وقد نوقشوا في استدلالهم بها، وقال المجيزون: إن هذه الأحاديث المذكورة ليست صريحة في التحريم على الإطلاق وإنما ذكرت

المعازف مقرونة بالخمر والقيان والزنا... وقالوا: إن اقتران المعازف بما ذكر يدل دلالة واضحة على أنها ليست مقصودة بالتحريم لذاتها وإنما شملها التحريم لاقترانها بشرب الخمر وبروز المغنيات الفاجرات أمام الرجال مع حليتهم الزنا والفجور، ولم تأتِ المعازف مفردة وحدها في حديث ما مع النهي عنها صراحة.

وعلى هذا، فإذا كانت آلة العزف والطرب مصحوبة بالقيان الفواجر العواهر وشرب الخمر والفجور كما جاء في نص حديثي أبي مالك وعمران بن حصين كان ذلك محرماً أشد التحريم ومنكراً يجب إنكاره ويحرم حضوره ومشاهدته وتجب التوبة منه.

فإذا خلت الأغاني من النساء اللاتي يعتبر النظر إليهن والاستماع إلى أغانيهن زنا النظر والأذن، وكانت أغاني نظيفة خالية مما ينافي الآداب الإسلامية سواء كانت بآلة أم لا فذلك مما يراه الكثيرون مباحاً.

وقد استدلّ من أباح ذلك بالأحاديث المتقدمة في الفصل الأول وهي أكثر وأصح وأصرح من أحاديث المنع كما ذكروا عن السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم ممن جاء بعدهم عبر العصور إباحة ذلك وسماعهم لها بآلة وبدونها وفيهم أئمة كبار، وذكروا منهم:

من الصحابة: عمر، وعثمان، وعبدالرحمٰن بن عوف، وأبا عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأبا مسعود الأنصاري، وأسامة بن زيد، وحمزة، وابن عمر، والبراء بن مالك، وعبدالله بن جعفر، وعبدالله بن الزبير، وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

ومن التابعين: سالم بن عبدالله، وسعيد بن المسيب، وخارجة بن زيد، وسعيد بن جبير، وشريح القاضي، وعطاء بن أبي رباح، وعامر الشعبي، وابن شهاب الزهري، وعمر بن عبدالعزيز، في خلق آخرين ممن جاء بعدهم لا يحصون منهم الأئمة الأربعة وابن عيينة وجمهور الشافعية. ذكر ذلك الإمام الشوكاني في نيل الأوطار.

وذكر غيره من التابعين طاوساً، وابن سيرين، وغيرهم كالجنيد

والقشيري والروياني، والقفال الكبير، وإمام الحرمين، والماوردي، وأبا إسحاق الشيرازي، وأبا حامد الغزالي، وأبا طالب المكي، والقاضي أبا بكر ابن العربي، وابن حزم، والسهروردي، وأبا المظفر السمعاني، والعز بن عبدالسلام وغيرهم، فهؤلاء وأضعاف أضعافهم كلهم كانوا يقولون بالأغاني المجردة أو مع آلات الطرب.

وهذا يرد ما نقله بعضهم من الإجماع على المنع والتحريم، فإن الموضوع مختلف فيه وليس من القطعيات ولكلٍّ رأي مُستنده، فلا ينبغي التشهير بمن قال بالإباحة على الشرط المتقدم، ولا سبُّه ولا تجهيله أو تضليله ورميه بكلمات نابية فاحشة كما فعل بعض المتزمتين من المتقدمين والمتأخرين، فإن المختلف فيه لا يجوز ولا يجب إنكاره كما نصّ عليه النووي والماوردي، بل وابن تيمية وابن القيم اللذان أشهرا الحرب على من أباح الغناء مطلقاً لا سيما غناء الصوفية.

* * *

السماع والغناء الصوفي

هناك سماع آخر يستعمله الصوفية في مناسباتهم ويتقربون به إلى الله عزّ وجل بآلة وبدونها، فماذا قال فيه علماؤنا وأئمتنا الربانيون رحمهم الله تعالى؟

أما أغانيهم التي اعتادوها في مجالسهم إذا كانت خالية من آلات الطرب[1] ومن الكلام الفاحش والمحرم فجائزة اتفاقاً، ولا ينبغي أن يختلف فيها كما تقدم، فإذا كانت تدعو إلى محبة الله عزّ وجل والشوق إليه ومدحه والثناء عليه وذكر شمائل رسول الله ﷺ ومدحه والدعوة إلى الزهد في الحياة وما يرقق القلوب من المواعظ وذكر الموت والآخرة وما كان من هذا القبيل فهذا لا يرتاب في جوازه بل استحبابه.

(١) أما المقرونة بالآلات ففيها الخلاف السابق كما ذكرنا.

ومثل هذا أجازه حتى خصوم الصوفية كابن الجوزي، فقد قال في تلبيس إبليس: ومن ذلك - يعني الأغاني الجائزة - أشعار ينشدها المتزهدون بتطريب وتلحين تزعج القلوب إلى ذكر الآخرة ويسمونها الزهديات كقول بعضهم:

يَا غادِياً في غفلَةٍ ورَايِحَا ... إلى مَتى تَسْتَحْسِنُ القبائحَا
وكَم إلَى كَم لا تخافُ موْقِفَا ... يَسْتنطِقُ اللّهُ به الجَوَارِحَا
يَا عَجَباً مِنكَ وأنتَ مُبْصِرٌ ... كيفَ تجنَّبْتَ الطريق الواضحَا

قال: فهذا مباح وإلى مثله أشار أحمد في الإباحة، ثم ذكر بسنده عن أبي حامد الخُلْقَاني أنه قال: قلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبدالله هذه القصائد الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء؟ قلت: يقولون:

إذَا مَا قالَ لي رَبي ... أمَا اسْتَحْيَيْتَ تَعْصِيني
وتخفي الذّنبَ مِن خَلْقِي ... وبالعصيانِ تأتِيني

فقال: أعِد عليّ، فأعدتُ عليه، فقام ودخل بيته وردّ الباب فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يقول: فذكر البيتين.

ونقل هذا الكلام الشيخ ناصر الألباني في كتابه «تحريم آلات الطرب» وأقرّه، بل قال قبله بعد أن ذكر أحاديث وآثاراً عن الصحابة وغيرهم تبيح الغناء ما نصه: فأقول: وفي هذه الأحاديث والآثار دلالة ظاهرة على جواز الغناء بدون آلة في بعض المناسبات كالتذكير بالموت أو الشوق إلى الأهل والوطن أو الترويح عن النفس والالتهاء عن وعثاء السفر ومشاقه... فهكذا يقول، ثم يحمل كغيره من خصوم الصوفية عليهم حملة عشواء بلا قيد ولا زمام فيجهلونهم ويضللونهم ويبدعونهم ويجعلون اجتماعهم على السماع منكراً وبدعة ضلالة مع أن أشعارهم وأغانيهم لا تخرج عن ذكر الله وما يقرب ويشوق إليه و...

ولذلك قال بعض المحققين من أهل البصائر: فمن الناس وبخاصة الصوفية من قال: إن الغناء يرقق القلب، ويبعث الحزن والندم على المعصية، ويهيِّجُ الشوق إلى الله تعالى، ولهذا اتخذوه وسيلة لتجديد نفوسهم، وتثبيط عزائمهم، وإثارة أشواقهم، قالوا: وهذا أمر لا يُعرف إلا بالذوق والتجربة والممارسة، ومن ذاق عرف وليس الخبر كالعيان.

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء معقباً على أحاديث النهي عن الغناء... فهو منزل على بعض أنواع الغناء الذي يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة وعشق المخلوقين، فأما ما يحرك الشوق إلى الله أو السرور بالعيد، أو حدوث الولد، أو قدوم الغائب، فهذا كله يضاد مراد الشيطان...

فذكر من ذلك ما يحرك الشوق إلى الله وذلك أكثر ما يتغنى به الصوفية، كما ذكر الإمام القشيري رحمه الله تعالى في رسالته عن أحمد بن مقاتل العكي قال: لما دخل ذو النون المصري بغداد اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوّال ـ يعني صاحب سماع وغناء صوفي ـ فاستأذنوه أن يقول بين يديه شيئاً، فأذن، فابتدأ يقول:

صغيرُ هواكَ عذَّبَنِي	فكيفَ به إذا احتنكَا
وأنتَ جمعتَ من قَلْبِي	هوى قد كان مُشْتَرَكَا
أما تَرْثِي لِمُكْتَئِب	إذا ضَحِكَ الخَلِيُّ بَكَا

قال: فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ولا يسقط على الأرض.

وذكر الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ما ينشأ عند الصوفية من السماع وآثاره، فقال في الإحياء وهو يذكر أنواعه: السابع سماع من أحبّ الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه، فالسماع في حقه صحيح لشوقه، ومؤكد لعشقه وحبه، ومُور زناد قلبه، ومستخرجٌ منه أحوالاً من المكاشفات

والملاطفات، لا يحيط الوصف بها، يعرفها من ذاقها وينكرها من كَلَّ حِسُّه عن ذوقها، وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية وجداً مأخوذ من الوجود والمصادفة، أي: صادف من نفسه أحوالاً لم يكن يصادفها قبل السماع، ثم تكون تلك الأحوال أسباباً لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقيه من الكدرات كما تنقي النار الجواهر المعروضة عليها من الخشب ثم يتبع العطاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات، وهي غاية مطالب المحبين لله تعالى ونهاية ثمرة القربات كلها، فالمفضي إليها من جملة القربات لا من جملة المعاصي، والمباحات، وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح، وتسخير الأرواح لها وتأثرها بها شوقاً وفرحاً وحزناً وانبساطاً وانقباضاً، ومعرفة السبب في تأثير الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات، والبليد الجامد القاسي القلب المحروم عن لذة السماع يتعجب من التذاذ المستمع ووجده واضطراب حاله وتغير لونه تعجب البهيمة من لذة اللوزينج، وتعجب العنين من لذة المباشرة، إلى آخر ما قال.

وقال الإمام أبو حفص عمر السُّهْرَوَرْدِي في عوارف المعارف وهو يتكلم على أقسام السماع والغناء الصوفي: وأما غير ذلك فإن كان من القصائد في ذكر الجنة والنار، والتشويق إلى دار القرار، ووصف نعيم الملك الجبار، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات، فلا سبيل إلى الإنكار.

وقال: وأما ما كان من ذكر الهجر والوصل والقطيعة والصَّدّ ممّا يقرب حمله على أمور الحق سبحانه وتعالى من تلون أحوال المريدين ودخول الآفات على الطالبين، فمَن سمع ذلك وحدث عنده ندم على ما فات، أو تجدّد عنده عزمٌ لما هو آتٍ فكيف يُنكر سماعه؟... إلخ.

وقد أفاض في ذكر سماع الصوفية الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في رسالته المشهورة، ومما قال في ذلك قوله: واعلم أن سماع الأشعار بالألحان الطيبة، والنغم المستلذة، إذا لم يعتقد المستمع محظوراً،

ولم يسمع على مذموم في الشرع، ولم يشجر في زمام هواه، ولم ينخرط في سلك لهوه مباح في الجملة.

قال: ولا خلاف أن سماع الأشعار أُنشدت بين يدَي رسول الله ﷺ وأنه سمعها ولم ينكر عليهم في إنشادها، فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان.

قال: هذا ظاهر من الأمر ثم ما يوجب للمستمع توفر الرغبة على الطاعات وتذكر ما أعدّ الله تعالى لعباده المتقين من الدرجات، ويحمله على التحرُّز من الزلاّت، ويؤدي إلى قلبه في الحال صفاء الواردات، مستحب في الدين ومختار في الشرع... إلخ.

وممن تكلم على سماع الصوفية الإمام أبو طالب المكي، ومن ذلك قوله في قوت القلوب: مَن أنكر السماع فقد أنكر على سبعين صديقاً - يعني من الصوفية العارفين - والإمام أبو نصر السراج الطوسي فصّل هذا الموضوع تفصيلاً في كتابه القيّم (اللمع) فليراجعه مَن شاء المزيد.

وعلى أيٍّ، فسماع الصوفية كله يدور حول حب الله تعالى وحب رسوله ﷺ وما يقرب إليه عزّ وجل وما يبعد منه أو ما يدل على أحوالهم معه تعالى وما كان كذلك فهو مستحب لا مباح فقط.

ولا معنى للإنكار عليهم وتجهيلهم وتبديعهم ووصفهم بصفات غير لائقة.

وخلاصة هذا الباب أن الغناء من حيث هو مباح ومحرّم ومختلف فيه ومستحب فالمباح هو ما كان خالياً عن المحرمات، والمحرم الممنوع ما كان بالأغاني الفاحشة من القيان والمعازف المضروبة عليهن مع شرب الخمر، والمختلف فيه ما كان خالياً من المحرمات مع آلة الطرب، والمستحب ما كان دالاً على الله وعلى محبته والثناء عليه ومحبة رسوله ﷺ ومدحه والدعوة إلى الزهد والعمل للآخرة ونحو ذلك.

وقد تقدم تفصيل كل ما ذكرنا وبالله التوفيق، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه وحزبه.

❊ مساوىء الأخلاق

وإذ فرغنا من إيراد مكارم الأخلاق ومحاسنها وما يتبع ذلك فلنردفها بالمساوىء التي نهى الشارع عنها وحذّر منها وذمّها.

❊ ❊ ❊

❊ تكفير المسلم بلا تاويل

[٢٩٢] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما**».

وفي رواية: «**إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما**».

رواه البخاري (١٢٩/١٣)، في الأدب، ومسلم في الإيمان (٤٩/٢)، وأبو داود (٤٦٨٧)، والترمذي في الإيمان (٢٤٥٣).

[٢٩٣] وعن أبي هريرة نحوها.

رواه البخاري (١٢٩/١٣).

[٢٩٤] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدّت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك**».

وفي رواية: «**ومَن دعا رجلاً بالكفر ـ أو قال: عدواً للّه ـ وليس كذلك إلا حار عليه**».

رواه البخاري (٧٤/١٣) ومسلم (٤٩/٢).

قوله: «فقد باء» أي: رجع، وهو معنى حار عليه. وكذا قوله: «ارتدت عليه».

في هذه الأحاديث تحريم رمي المسلم بالكفر أو بعداوته للّه تعالى، وأن في إطلاق ذلك على المسلم خطراً عظيماً لأنه إذا لم يكن المَرْمي كافراً

أو عدواً لله رجع ذلك للرامي. فتكفير المسلم عظيم لأن معناه أنه إذا مات لا يغسل ولا يكفن ولا يصلّى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يورث ماله، وأنه مخلّد في النار يوم القيامة، وهذه أمور عظيمة لا تثبت إلا بالنص كالشمس لا شبهة فيها ولا تأويل، فليتّق الله أولئك الأقوام الذين يكفّرون المسلمين بأدنى شبهة، وليعلموا أن ذلك راجع عليهم، وأن يتأنّوا في الحكم على الناس ولا يطلقون اسم الكفر أو نحوه إلا على من أنكر شيئاً معلوماً من الدين ضرورة أو اعتقد خلافه.

أما ما جاء في أحاديث إطلاق الكفر على أقوام، فذلك مؤول بالإجماع كما تقدم في الإيمان.

وانظر لهذا الموضوع فتح الباري (١٣/٧٥)، والنووي على مسلم (٢/٥٠/٥١).

* * *

❁ لعن المسلم أو دابَّة أو غيرها

[٢٩٥] عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ قال: **«لا تَلاعَنُوا بلعنة الله، ولا بغضب الله، ولا بالنار»**.

رواه أحمد (٥/١٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٠٦)، والترمذي في البر والصلة (١٨٢٠) بتهذيبي، والحاكم (١/٤٧) وحسّنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«لا تلاعنوا»: أي لا يلعن بعضكم بعضاً.

في الحديث تحريم دعاء المسلمين بعضهم على بعض باللعنة أو بالغضب أو بالنار، كأن يقول أحدهم للآخر: لعنك الله، أو غضب عليك، أو مثواك النار، ونحو ذلك، وهذا مختص بالمعين لأنه لا يدري بماذا يختم له، فقد يختم له بالسعادة وأنت دعوت عليه بالطرد والإبعاد من رحمة الله وغضبه عليه وأن مصيره النار، نعم إذا كان ذلك مع الوصف مثل لعنة الله

على الظالمين، غضب الله على الكاذبين... فهذا جائز لا مانع منه جاء به القرآن والسنة.

[٢٩٦] وعن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس المؤمن بالطَّعَّان، ولا اللَّعَّان، ولا الفاحش، ولا البذيء»**.

رواه أحمد (٤٠٥/١)، والترمذي (١٨٢١)، وابن حبان بالموارد (٤٨)، والحاكم (١٢/١) وصححه على شرطهما، وسنده عند الترمذي صحيح رجاله رجال الشيخين غير شيخه محمد بن يحيى الأزدي، وهو ثقة.

«الطعان» و«اللعان» أي: الذي يكثر منه الطعن واللعن للآخرين. و«البذيء»: من البذاءة وهو الفحش في القول، فهو عطف تفسير على الفاحش.

وفي الحديث ترهيب المسلم من الاتصاف بما ذكر، فإن المؤمن ليس من شأنه أن يكون عيّاباً للناس طعّاناً في أعراضهم كثير اللعن لهم بذيء اللسان فاحشاً في كلامه سفيهاً.

[٢٩٧] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يكونُ اللَّعَّانُون شفعاء ولا شهداء»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٤٩/١٦-١٥٠)، وأبو داود في الأدب (٤٩٠٧).

[٢٩٨] وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينبغي لصدّيق أن يكون لعّاناً»**.

رواه أحمد (٣٣٧/٢، ٣٦٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٣١٧/٣١٩)، ومسلم في البر (١٤٨/١٦).

في الحديثين الزجر عن كثرة اللعن وأن ذلك ليس من صفات الصالحين والصدّيقين الذين سيكرمهم الله عزّ وجل يوم القيامة بالشفاعة في إخوانهم العصاة والشهادة على الأمم السابقة. فمَن كان في الدنيا كثير اللعن

لإخوانه المسلمين لا يكون من الصدِّيقين ولا من الشفعاء والشهداء يوم القيامة.

وقوله في الأحاديث المتقدمة «الطعان اللعان»، «اللعانون لعاناً» بصيغ المبالغة تدل على أن ذلك لمن كثر منه اللعن، أما من قلّ منه ذلك أو كان اللعن مباحاً، فذلك غير داخل في هذا الذم، فإن النبي ﷺ لعن المصورين، والمتشبهين بالنساء... والواصلة ومن معها، وآكل الربا وموكله... ومن انتمى إلى غير أبيه وغير ذلك مما هو كثير.

[٢٩٩] وعن ثابت بن الضحاك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن حلف على ملّة غير الإسلام كاذباً فهو كما قال، وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملكه، ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم القيامة، ومَن لعن مؤمناً فهو كقتله، ومَن قذف مؤمناً بكفره فهو كقتله»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٧٤/٧٥)، وفي الأيمان والنذور (١٤/٣٤٤/٣٤٥)، ومسلم في الإيمان (٢/١١٨/١١٩)، وأبو داود (٣٠٥)، والترمذي (١٣٩٥/١٤١٠/٢٤٥٢)، والنسائي في الكبرى (٣/١٢٣/١٢٤/١٣٦)، وابن ماجه (٢٠٩٨) رووه مطولاً ومختصراً.

وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد للاعن المسلم وأن إثمه في ذلك يعادل قتله وذلك عظيم، فهو من أكبر الكبائر، فليتّق الله المسلم في إخوانه المؤمنين.

وباقي أطراف الحديث تقدمت معانيها وأحكامها في مواضعها.

[٣٠٠] وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وامرأة من الأنصار على ناقة فضجرت فلعنتها فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: **«خذوا ما عليها ودعوها فإنها ملعونة»** قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد.

رواه مسلم في البر (١٦/١٤٧)، ونحوه عن أبي برزة الأسلمي رواه مسلم (١٦/١٤٨).

في هذا الحديث بيان أن الملعون لا تجوز مصاحبته، فهذه دابة لعنتها صاحبتها فأمرها النبي ﷺ بإرسالها وتركها وأخذ ما عليها من الرحل والمتاع، وإنما فعل ذلك بها زجراً لأمثال هذه المرأة التي لعنت دابة لا تعقل، وفي ذلك إشارة إلى تحريم لعن الحيوان.

وإذا كانت مصاحبة الدابة الملعونة ممنوعة وهي غير مكلفة ولا لها عقل فكيف يكون الأمر في مرافقة ومصاحبة الملاعن من النساء والرجال؟ فلا شك أن مجانبتهم واجبة ومصاحبتهم ممنوعة.

[٣٠١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رجلاً لعن الريح عند النبي ﷺ فقال: «**لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه مَن لعن شيئاً ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٨)، والترمذي في البر والصلة (١٨٢٢)، وابن حبان (١٩٨٨) وسنده صحيح على شرط الشيخين.

في الحديث منع لعن الريح ونحوها من الكائنات الضارة وغيرها كالمطر الغزير مثلاً، والحر الشديد والبرد والنبات والرعد وغير ذلك من الأشياء فإنها مأمورة ومسيَّرة من قِبَل الله تعالى لا تملك لنفسها ولا لغيرها من النفع أو الضر مثقال ذرة أو دونها، فلعنها عبث بل سفاهة، فمَن لعن شيئاً لا يستحق اللعنة رجعت على صاحبها اللاعن كما فصّله الحديث التالي وهو:

[٣٠٢] عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد إذا لعن شيئاً صعدت اللعنة إلى السماء، فتغلق أبواب السماء دونها، ثم تهبط إلى الأرض فتُغلَق أبوابها دونها، ثم تأخذ يميناً وشمالاً، فإذا لم تجد مساغاً رجعت إلى الذي لُعِن، فإن كان لذلك أهلاً، وإلا رجعت إلى قائلها**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٠٥) بسند فيه رجل مجهول لكن الحديث حسن، لشاهد له عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (٤٢٥/٤٠٨/١) وجود هذا الشاهد المنذري في الترغيب.

فالحديث كالذي قبله يدلان على أن اللاعن لشيء ما على خطر عظيم فقد يوشك أن ترجع عليه لعنته من حيث لا يشعر.

* * *

* تحريم السباب والشتائم بغير حق

[٣٠٣] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**سِبابُ المسلم فسوقٌ، وقتالُه كفرٌ**».

رواه البخاري في الأدب (٧٤/١٣)، ومسلم (٥٨/٥٧/١)، والترمذي (٢٤٥١) كلاهما في الإيمان، والنسائي في تحريم الدم (١١٢/١١١/٧)، وابن ماجه (٣٩٣٩) ورواه الترمذي أيضاً في البر والصلة (٨٢٧) بتهذيبي.

«السباب»: بكسر السين، الشتم والكلام في العرض. وقوله: «قتاله كفر» هذا مؤول باتفاق العلماء، فمَن استحلّ قتل المسلم بلا موجب ولا تأويل كان كافراً كفراً بواحاً، ومن قتله معتقداً معصيته كان معناه كفر النعمة أو كفراً دون كفر كما جاء في أصناف أطلق عليهم اسم الكفر كما تقدم في فصل سابق.

وعلى أيٍّ: فسب المسلم وشتمه فسق وذنب عظيم، كما أن قتله كذلك من أكبر الكبائر كما هو معلوم.

[٣٠٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «أُتِيَ النبيُّ ﷺ برجل قد شرب الخمر قال: «**اضربوه**» قال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلما انصرف قال بعض القوم: أخزاك الله، قال: «**لا تقولوا هكذا، لا تُعينوا عليه الشيطان**». وفي رواية: «**لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم**». وفي رواية: «**ولكن قولوا: اللهم اغفر له اللهم ارحمه**».

رواه البخاري (٧٦/٧١/١٥)، وأبو داود (٤٤٧٨/٤٤٧٧) كلاهما في الحدود.

في الحديث النهي عن الدعاء على العاصي بالخزي ونحوه من الشتم لأن في ذلك عوناً للشيطان عليه، فإن وقوع المسلم في المعصية كانت بتزيين من الشيطان ليقع في الخزي وغضب الله فإذا دعى عليه وسبّ كان في ذلك تحصيل لمقصود الشيطان، ولذلك كان من الواجب الدعاء معه بالمغفرة والرحمة ليغتاظ الشيطان.

[٣٠٥] وعن أبي هريرة أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «**المُسْتَبَّانِ ما قالا: فعلى البادي منهما حتى يعتدي المظلوم**».

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٤٠/١٤١)، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٤)، والترمذي (١٨٢٥)، وابن حبان بالموارد (١٩٧٦).

المستبّان: اللذان يتبادلان السباب فيما بينهما.

وفي الحديث أن من بدأ غيره بالشتم والسب كان حاملاً لوزر صاحبه ما لم يتجاوز الثاني الحد، وإلا أصبح هو الظالم والبادي مظلوماً.

[٣٠٦] وعن عياض بن حمار رضي الله تعالى عنه أنه سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت الرجل يشتمني وهو أنقص مني نسباً؟ فقال رسول الله ﷺ: «**المستبّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان**».

رواه أحمد (٤/١٦٢/٢٦٦)، والبخاري في الأدب المفرد بسند صحيح.

قوله: «**يتهاتران**» أي: يقول كل واحد في صاحبه كذباً وباطلاً والسقط من القول.

وفي الحديث ذم تبادل السباب، وأن المتسابّين شيطانان يكذب كل واحد منهما على صاحبه ويرميه بسقط من القول. وفي ذلك زجر بالغ للمتسابّين.

***

❊ الغِيبة وخطرها

[٣٠٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتدرون ما الغِيبة؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«ذِكرُكَ أخاك بما يكره»** قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: **«إن كان فيه ما تقول: فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٠/٣٨٤/٤٥٨)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٤٢)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والترمذي في البر (١٧٨٠)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٦٧).

«الغيبة»: بكسر الغين، الاغتياب، وهو أن تذكر أخاك المسلم في غيبته بما يكرهه لو كان حاضراً. وقوله: «بهته» بفتحات مع تشديد التاء من البهتان وهو ما لا أصل له، أو معناه أدهشته وحيّرته بما قلت ما ليس فيه.

[٣٠٨] وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا معشرَ مَن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبَه، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه مَن اتّبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»**.

رواه أحمد (٤/٤٢٠)، وأبو داود (٤٨٨٠)، والبيهقي (١٠/٢٤٧) بسند حسن، وهو صحيح لشاهد له عن ابن عمر رواه الترمذي في البر (١٨٧٥)، وابن حبان (٥٧٦٣) ويأتي، وآخر عن البراء رواه أبو يعلى بسند حسن.

[٣٠٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما عُرِجَ بي مررتُ بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم فقلت: مَن هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»**.

رواه أحمد (٣/٢٢٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٨) وسنده صحيح.

«يخمشون»: بكسر الميم أي: يجرحون وجوههم... إلخ.
«أعراضهم»: جمع عرض بكسر العين وسكون الراء وهو محل المدح والذم من الإنسان.

[٣١٠] وعن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن مِن أربى الربا الاستطالة في عِرض المسلم بغير حق»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٧٦)، وأحمد (١٩٠/١) بسند صحيح.

قوله: «من أَرْبَى الرِّبا» جعل الربا نوعين:

أولهما: مادي وهو في المعاملات المالية وفوائد الديون وغيرها.

وثانيهما: معنوي وهو الاعتداء على المسلم في عرضه بالتنقيص والتحقير والتشهير والعيب، وجعل ﷺ هذا النوع أعظم جرماً من الأول لأن العرض أعز على الإنسان من المال.

[٣١١] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: «حَسْبُك من صفية كذا وكذا» تعني قصيرة، فقال ﷺ: **«لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزجَتْه»**.

قالت: وحكيت له إنساناً فقال ﷺ: **«ما أحب أني حكيتُ إنساناً وأن لي كذا وكذا»**.

رواه أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي في أبواب صفة القيامة (٢٣٢٥) بتهذيبي، والطحاوي في المشكل وكذا أحمد (٢٠٦/١٨٩/١٣٦/١٢٨/٦) وسنده صحيح.

قوله: «لو مُزِجَت» أي: خُلطت. قوله: «حكيت إنساناً» أي: قلّدته في أقواله وأفعاله وهيئاته.

فهذه الأحاديث وغيرها كلها تدل على تحريم غيبة المسلم بلا موجب

شرعي، وأن ذلك من أعظم الذنوب وحقوق العباد، وسنجمل الكلام في ذلك في الآتي:

أولاً: ما قاله العلماء رحمهم الله تعالى في الغيبة ومعناها تفسيراً وتفصيلاً لظاهر حديث: **«ذكرك أخاك بما يكره»** فاتفقت كلمتهم على أنها ذكر الإنسان في غيبته بما يكرهه لو سمعه وكان ذلك فيه صدقاً، فإن لم يكن فيه كان كذباً وزوراً باطلاً.

ثانياً: في الأشياء التي تُعد غيبة. قال النووي في الأذكار تبعاً لأبي حامد الغزالي في الإحياء رحمهما الله: هي ذكر المرء بما يكرهه سواء كان ذلك في بدن الشخص، أو دينه، أو دنياه، أو نفسه، أو خَلْقِه، أو خُلُقِه، أو ماله، أو والده، أو ولده، أو زوجه، أو خادمه، أو ثوبه، أو حركته، أو طلاقته، أو عبوسته، أو غير ذلك مما يتعلق به سواء ذكرته باللفظ أو بالإشارة والرمز.

قال النووي رحمه الله تعالى: وممن يستعمل التعريض في ذلك كثير من الفقهاء في التصانيف وغيرها كقولهم: قال بعض من يدّعي العلم، أو بعض من ينسب إلى الصلاح، أو نحو ذلك مما يفهم السامع المراد به، ومنه قولهم عند ذكره: الله يعافينا، الله يتوب علينا، نسأل الله السلامة، ونحو ذلك، فكل ذلك من الغيبة.

ثالثاً: الغيبة محرّمة بإجماع المسلمين، بل نقل القرطبي الإجماع على أنها من الكبائر لما جاء فيها من الوعيد، وذكر غير واحد منهم الغزالي أنها من الصغائر وفيه نظر لأنها تختلف باختلاف المتكلم فيهم، فالعلماء والصالحون ليسوا في ذلك كغيرهم.

رابعاً: مما يشهد لمن قال بأنها من الكبائر نفيه ﷺ عن المغتاب الإيمان بقلبه وأنه لا يعدو لسانه ثم نهيه ﷺ عن ذلك ثم الوعيد المعد للمعتدين على أعراض الناس وأنهم سيتولون تعذيب أنفسهم بأظافر من نحاس نار جهنم أعاذنا الله تعالى منها، ثم لا أدل على عظمها من أنها أعظم من الربا، ومعلوم ما جاء في الربا والمرابي من القوارع واللعنات،

أضف إلى ذلك قوله ﷺ لمولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها: «**لقد قلت كلمة لو مُزِجَت بماء البحر**... إلخ». فالغيبة لقذارتها وخبثها لو فرض أنها تجسّمت وأُلقيت في المحيطات لغيّرتها وأفسدتها وذلك لنتنها وقبحها، ويكفي في كل هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فمَن اغتاب أخاه المسلم كان بمثابة من يأكل لحمه وهو ميت، مع أن ذلك مكروه له لا يحبه ولا يستسيغه بحال، وفي ذلك تنفير عظيم من الاغتياب، عافانا الله من هذه البلية التي عَمَّت بها البلوى وأصبحت فاكهة المجالس لكل طبقات الناس.

* * *

❋ الغيبة قد تباح لأسباب

منها: التظلُّم كأن يقول الإنسان المظلوم لصاحب السلطة: ظلمني فلان أو فعل بي كذا وكذا، وقد قال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وقد قال ﷺ: «**لَيّ الواجد يُحِلُّ عقوبتَه وعِرضَه**»، وقد تقدم في المعاملات.

ومنها: الاستعانة على تغيير المنكر وذكر المجرم بجريمته.

ومنها: الاستفتاء بأن يقول للمفتي: ظلمني فلان أو أبي أو زوجي لحديث هند التي شكت زوجها أبا سفيان وقالت فيه: إن أبا سفيان رجل شحيح.

ومنها: الطعن في رواة الأحاديث والشهود بما فيهم، وذلك جائز بالإجماع صوناً للشريعة والحقوق.

ومنها: الإخبار عند المشاورة في معاملة أو زواج أو نحو ذلك، فيقول مثلاً فلان ضرّاب للنساء أو فقير أو معاملته غير حسنة، ونحو ذلك.

ومنها: نصح المشتري مثلاً إذا أراد أن يشتري شيئاً ما فتنصحه بأن تقول له: سلعة فلان معيبة، أو فلان خدعك ونحو ذلك.

ومنها: إذا رأى الإنسان شخصاً ساذجاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق ليأخذ عنه العلم مثلاً فله أن يذكر له ذلك ويحذّره منه إذا كان قصده النصيحة.

ومنها: أن يكون الشخص مجاهراً بالمعاصي غير مكترث ولا متستر، أو كان ظالماً حاكماً أو جابياً أو مكّاساً، فيجوز ذكرهم بما فيهم لا بغير ذلك.

وقد عنون الإمام البخاري رحمه الله تعالى على هذا المعنى بقوله في كتاب الأدب (١٣/٨١) باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب، ثم ذكر حديث عائشة وقول نبي الله ﷺ وذلك المنافق: «بئس أخو العشيرة».

ومنها: التعريف بالشخص كالأعمش، والأعرج، والأزرق، والأعمى، والقصير، والطويل، ونحو ذلك، فيجوز ذكره تعريفاً به لا تنقيصه، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

هذا ملخص ما ذكر العلماء من الغيبة الجائزة، وقد ذكروا لذلك أدلة كثيرة واردة في القرآن والسنة.

وانظر الفتح (١٣/٨٢)، والنووي على مسلم (١٦/١٤٢/١٤٣).

* * *

تحريم النميمة وأنها من الكبائر

[٣١٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: خرج النبي ﷺ من بعض حيطان المدينة فسمع صوت إنسانين يعذّبان في قبورهما فقال: **«يُعذّبان وما يُعذّبان في كبير وإنه لكبير، كان أحدهما لا يستتر من البول، وكان الآخر يمشي بالنميمة»** ثم دعا بجريدة فكسرها بكسرتين أو ثنتين فجعل كسرة في قبر هذا وكسرة في قبر هذا فقال: **«لعله يُخَفَّفُ عنهما ما لم ييبسا»**.

رواه البخاري في الطهارة وفي الأدب (٨٢/١٣)، ومسلم في الإيمان وفي الطهارة وغيرهما، وتقدم في الطهارة وهناك كمال تخريجه (٣١٨/١).

قوله: «لا يستتر». وفي رواية: «**لا يستنزه**». وفي أخرى: «**لا يستبرىء**» ومؤدّاها واحد غير أن الأول أوسع.

[٣١٣] وعن همام بن الحارث قال: مرّ رجلٌ على حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه فقيل له: هذا يُبَلِّغُ الأمراء الحديث عن الناس، فقال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة قَتَّاتٌ**». قال سفيان: والقتّات النمّام.

رواه البخاري في الأدب (٨٣/١٣)، ومسلم في الإيمان (١١٣/١١٢/٢)، وأبو داود (٤٨٧١)، والترمذي في البر (١٨٦٩) بتهذيبي.

[٣١٤] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: إن محمداً ﷺ قال: «**ألا أُنبئكم ما العَضْه، هي النميمة القالَةُ بين الناسِ**» وفي رواية: نقل الحديث من بعض الناس إلى بعض ليفسدوا بينهم.

رواه مسلم في البر والصلة (١٥٩/١٦)، وأحمد (٤٣٧/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٢٥)، والدارمي وغيرهم.

«العضه»: جاءت في الرواية بكسر العين وفتح الضاد وبفتح العين وسكون الضاد وهي الأشهر، وعلى الكسر شجر فيه شوك، وعلى الثاني الشتم وقول الزور والكلام القبيح، وهذا هو المناسب هنا.

وقال تعالى في الوليد الشقي: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ بعد ذلك ﴿زَنِيمٍ﴾ أي: دعي ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ قال العلماء: النمّام لا يكون إلا ولد زنا وبغي.

فهذه الأحاديث تدل على أن النميمة حرام وأنها من الكبائر وأن صاحبها لا يسعد بدخول الجنة مع الأولين الناجين، وأن عذابه سيبدأ به في قبره وفي البرزخ قبل يوم القيامة عياذاً بالله.

والنميمة قد بيّنها النبي ﷺ وهي نقل الكلام من بعض الناس إلى

آخرين ليفسد ما بينهم، وبيّن أن ذلك هو الشر والشتم. . . ولا شك أن النمام رجل سوء لأنه يسعى بالفساد في الأرض ويوغر قلوب المسلمين ويوقد نار الفتنة والبغضاء بين الناس، وقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾، فاللمزة والهمزة فُسّرتا بالنمّام والمغتاب وغيرهما، والنمّام يشمل كل من ينقل الكلام على وجه الإفساد، ومنهم وفي طليعتهم جواسيس الدول الذين يتجسسون على المسلمين وخاصة على العلماء والوعّاظ والدعاة إلى الله تعالى، فالأحاديث تشملهم جميعاً مع غيرهم.

وقد شرح لنا هذا الموضوع وبسطه وفصّله أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء، وعنه نقله النووي والحافظ، فقال في (ج٣/١٥٢) طبع مصطفى الحلبي: اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه، وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه. . . وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو الأقوال، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية. . . وحتى لو رأى شخصاً يخفي ماله فأفشى سره كان نميمة. . . وكل من حملت إليه النميمة وقيل له: إن فلاناً قال فيك كذا وكذا أو فعل كذا وكذا. . . فعليه أن لا يصدق من نمّ له ولا يظن بمن نمّ عنه ما نقل عنه، ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر، وأن ينهاه ويقبح له فعله وأن يبغضه إن لم ينزجر وأن لا يرضى لنفسه ما نهى النمّام عنه فينم هو على النمّام فيصير نمّاماً. . .

قال النووي: وهذا كله إذا لم يكن في النقل مصلحة شرعية وإلا فهي مستحبة أو واجبة كمن اطلع على شخص يريد إذاية شخص فحذّره منه، وكذا من أخبر الإمام أو من له ولاية بسيرة نائبه مثلاً أو أخبره بأن فلاناً يريد الفتك بك أو بأهلك. . . فكل هذا وما أشبهه ليس بحرام. . .

والحاصل أن كل كلام نقل للإفساد فهو حرام وصاحبه نمّام فاسق ويكون في ذلك جامعاً بين النميمة والغيبة وذلك عظيم وعظيم، وكل ما نقل على وجه الإصلاح والمصلحة والنصيحة كان جائزاً وقد يجب أو يستحب.

* * *

❁ شر الناس ذو الوجهين

[٣١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«من شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه»**.

وفي رواية: **«إن من شر الناس عند الله يوم القيامة...»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٨٤/٨٥)، ومسلم في البر (١٦/١٥٦/١٥٧)، وأبو داود (٤٨٧٢)، والترمذي (١٨٦٨) بتهذيبي.

[٣١٦] وعن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن كان له وجهان في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٨٧٣)، والبخاري في الأدب المفرد (١٨٨)، والدارمي، وابن حبان بالموارد (١٩٧٩)، وسنده حسن صحيح.

ذو الوجهين هو كما قال النووي وغيره: الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها، وصَنيعه نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل على الاطلاع على أسرار الطائفتين وهي مداهنة محرّمة. قال: فأما من يقصد بذلك الإصلاح بين الطائفتين فهو محمود.

قال العلماء: فكل من يأتي لطائفة بكلام فيه صلاح للأخرى ويعتذر لكل واحدة من الأخرى وينقل إليها الجميل ويستر القبيح كان ممدوحاً ولم يدخل في ذم ذي الوجهين.

وعلى أيٍّ: فذو الوجهين هو من يأتي طائفتين متعاديتين بكلام يرضي

إحداهما ويقبح له الأخرى، فإن كان يجامل كل طائفة من غير أن يقبح إحدى الطائفتين ولا يتظاهر بأنه من إحداهما دون الأخرى لم يكن مذموماً.

والحديثان يدلان على أن هذا الفعل من الكبائر وأن صاحبه من شر الناس عند الله وأن له النار يوم القيامة إن لم يتب إلى الله ويرعو عما هو عليه من النفاق.

* * *

التشديد في الكذب

[٣١٧] عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذّاباً، وعليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البِر، وإن البِر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليَصْدُقُ ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقاً».**

رواه البخاري في الأدب (١٢٢/١٢١/١٣)، ومسلم في البر (١٦٠/١٥٩/١٦)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذي في البر (١٨١٦)، والبخاري في الأدب المفرد أيضاً.

«إياكم والكذب» أي: احذروه. «إلى الفجور» اسم جامع للشر. «يهدي»: بفتح الياء، أي: يدل على النار ويوصل إليها. و«يتحرى» أي: يقصد أولي الأمرين. «البر»: بكسر الباء، اسم جامع لكل خير.

[٣١٨] وعن بهز عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ويلٌ للذي يُحدِّثُ فيكذبُ لِيُضحِكَ به القوم، ويلٌ له، ويلٌ له».**

رواه أحمد (٧/٣/٢/٥)، وأبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي في الزهد (٢١٣٦)، والدارمي، والنسائي في الكبرى (٣٢٩/٦) بسند حسن.

[٣١٩] وعن عبدالله بن عامر رضي الله تعالى عنه أنه قال: دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا فقالت: ها تعال أعطيك، فقال لها

رسول الله ﷺ: **«وما أردتِ أن تعطيه؟»** قالت: أعطيه تمراً، فقال رسول الله ﷺ: **«أما إنك لو لم تُعطِه شيئاً كُتِب عليك كَذْبَةٌ»**.

رواه أحمد (٤٤٧/٣)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩١) وفي سنده رجل مبهم. وأخرجه أحمد (٤٥٢/٢) عن أبي هريرة بلفظ: **«مَن قال لصبي تعال هاك، ثم لم يعطه شيئاً فهي كذبة»** وسنده صحيح.

«الكذب»: ضد الصدق وهو الإخبار بخلاف الواقع.

وفي هذه الأحاديث التنفير من الكذب والتحذير منه، وأن للكذاب الويل يوم القيامة ولو كان مازحاً، وأن الرجل لا يزال يكذب ويعتاده حتى يكتب عند الله كذاباً فيصبح مع الفجار عياذاً بالله، وقد اتفقوا على أنه من كبار الذنوب.

نعم، الصِّدْقُ خلق كريم يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يقصد الصدق في حديثه ويتحراه ويعتاده حتى يصير صدِّيقاً ويكتب مع الصدِّيقين، ويا لها من درجة ذكر الله أصحابها مع النبيئين والشهداء والصالحين. والمراد بكتابة الكذاب كذاباً والصادق صدِّيقاً، إما الحكم عليهما كذلك وإظهارهما للمخلوقات من الملائكة وغيرهم، وإلقاء ذلك في قلوب أهل الأرض كما جاء في المحبوب للّه تعالى، وإما أن يكتبهما في كتابين خاصَّين بهما يعرفان بهما يوم القيامة، والله تعالى أعلم.

والحديث الثالث يدل على أن الكذب يأثم عليه صاحبه وإن كان مازحاً كمن يمزح مثلاً مع الأطفال أو مع البهائم، وغير ذلك.

* * *

جواز الكذب لأجل المصلحة

[٣٢٠] عن أم كلثوم بنت عقبة رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ليس الكذاب الذي يُصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً»**.

وفي رواية: قالت: ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: «**الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها**».

وفي رواية: ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث، كان رسول الله ﷺ يقول: «**لا أعُدُّه كاذباً، الرجل يُصلح بين الناس يقول القول ولا يريد به إلا الإصلاح، والرجل يقول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها**».

رواه البخاري في الصلح (٦/٢٢٧/٢٢٨)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٥٧)، وأبو داود في الأدب (٤٩٢)، والترمذي في البر والصلة (١٧٨٥) بتهذيبي باللفظ الأول، والثاني لمسلم، والرواية الثالثة لأبي داود ونحوها عند أحمد (٦/٤٠٤) بسند صحيح.

[٣٢١] وعن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ الكذب إلا في ثلاث: يُحدِّث الرجل امرأته ليُرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليُصلِح بين الناس**».

رواه أحمد (٦/٤٥٩/٤٦١)، والترمذي (١٧٨٤) وحسّنه، ولا يضر ما قيل في إرساله.

ووجود شهر بن حوشب فإن ما سبق يقوّيه.

قوله: «ينمي» بفتح الياء وكسر الميم، أي: يبلغ.

الكذب مذموم شرعاً وعادة... وهو محرّم في جميع الشرائع غير أنه رخص فيه لمصالح خاصة كالكذب على الزوجة ليرضيها، وفي الحرب، وفي الإصلاح بين الناس كما هو صريح الحديثين.

قال النووي: قال القاضي: لا خلاف في جواز الكذب في هذه الصور، واختلفوا في المراد بالكذب المباح فيها ما هو، فقالت طائفة: هو على إطلاقه، وأجازوا قول ما لم يكن في هذه المواضع للمصلحة، وقالوا: الكذب المذموم ما فيه مضرّة، واحتجُوا بقول إبراهيم صلى الله عليه وعلى

نبينا وآله وسلم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ و﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: «إنها أختي» وقول منادي يوسف صلّى الله عليه وعلى نبينا وآله وسلّم: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ قالوا: ولا خلاف أنه لو قصد ظالم قتل رجل هو عنده مختفٍ وجب عليه الكذب في أنه لا يعلم أين هو. وقال آخرون منهم الطبري: لا يجوز الكذب في شيء أصلاً قالوا: وما جاء من الإباحة في هذا، المراد به التورية واستعمال المعاريض لا صريح الكذب، إلى آخر ما قال.

وما قالته الطائفة المانعة يخالف ظواهر الأحاديث المبيحة والتأويل لا يصار إليه إلا بحجة.

وكذلك قال النووي رحمه الله تعالى: الظاهر إباحة حقيقة الكذب في الأمور الثلاثة لكن التعريض أولى...

قال الحافظ: واتفقوا على أن المراد بالكذب في حق المرأة والرجل إنما هو فيما لا يسقط حقاً عليه أو عليها أو أخذ ما ليس له أو لها، وكذا في الحرب في غير التامين، واتفقوا على جواز الكذب عند الاضطرار كما لو قصد ظالم قتل رجل وهو مختفٍ عنده فله أن ينفي كونه عنده ويحلف على ذلك ولا يأثم(1).

* * *

❊ تحريم قول الزور وعِظَمُه

[٣٢٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مَن لم يدعْ قول الزور والعمل به والجهل فليس للّه حاجة أن يدع طعامه وشرابه**».

رواه البخاري في الصيام (١٨/٥)، وفي الأدب (٨٤/١٣) وأهل السنن، وتقدم في الصيام.

(١) انظر النووي (١٥٨/١٦)، وفتح الباري (٢٢٨/٦).

[٣٢٣] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «**ألا أُنبِّئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً: الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين، وشهادةُ الزور، أو قولُ الزور**» وكان رسول الله ﷺ متكئاً، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

رواه أحمد (٣٦/٦/٣٧/٣٨)، والبخاري في الاستئذان (٣٠٧/١٣)، ومسلم في الإيمان (٨١/٢/٨٢)، والترمذي في الشهادات (٢١٢٣) بتهذيبي.

«الزور»: هو الكذب، وقد جعله النبي ﷺ معادلاً للإشراك بالله وعقوق الوالدين وأنه يعتبر من أكبر الكبائر وليس بكبيرة فقط فهو جريمة عظمى، وقد اعتادها كثير ممن لا يخافون الله ولا يراقبونه، وعمّت بها البلوى فيمن نصبوا أنفسهم للشهادة على الناس في الأنكحة والمعاملات، وحسبهم أنهم فسّاق وأن صيامهم فاسد غير مقبول ولا يثابون عليه، وكما قرن النبي ﷺ هذا الزور بالإشراك بالله كذلك جاء في القرآن الأمر باجتنابه وقرنه بالرجس من الأوثان كما قال تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ وهكذا جعل من صفات عباد الرحمٰن أهل الغرف في الجنان أنهم برآء من شهادة الزور، كما قال تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ أي: لا يشهدون الشهادة الباطلة الكاذبة التي تضيع بها حقوق العباد.

* * *

إذاية المسلم ومضاررته

[٣٢٤] عن المغيرة بن شعبة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَسُبُّوا الأموات فتؤذوا الأحياء**».

رواه أحمد (٢٥٢/٤)، والترمذي في البر (١٨٢٦)، وابن حبان (١٩٨٧) بسند صحيح.

[٣٢٥] وعن سعيد بن زيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تؤذوا مسلماً بشتم كافر**».

رواه الحاكم (١/٣٨٥)، والبيهقي (٤/٧٥) كلاهما في الجنائز، وصححه الحاكم، وسكت عليه الذهبي.

إذاية المسلم محرّمة بأي طريق كانت، سواء كانت في نفسه أو ماله أو أهله. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾.

فجعل تعالى إذاية المسلم بهتاناً وإثماً مبيناً، وهذا غاية في الزجر والتنفير منها، وحتى سب الكافر أو الميت إن تأذى به المؤمن لا يجوز كما في الحديثين.

[٣٢٦] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أحبّ أن يُزَحْزَحَ عن النار ويدخل الجنة فلتأته مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»**.

رواه مسلم في الإمارة ضمن حديث طويل رقم (١٨٤٤).

الحديث يدل على أن من سلم الناس من إذايته كان من الناجين من النار إذا صحب ذلك الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا عظيم جداً، فليوطن المؤمن نفسه على سلامة الناس من شره، ولا يأتيهم إلا بمثل الذي يجب أن يعاملوه به.

[٣٢٧] وعن أبي صِرْمة صاحب النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«مَن ضارّ أضرّ الله به، ومَن شاقّ شاقّ اللهُ عليه»**.

رواه أحمد (٣/٤٥٣)، وأبو داود في القضاء (٣٦٣٥)، والترمذي في البر والصلة (١٧٨٦)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٢)، والبيهقي (٦/٧٠) وغيرهم، وحسّنه الترمذي ورجاله رجال الشيخين عنده غير لؤلؤة وهي مقبولة، وللحديث شاهد عن أبي سعيد الخدري.

رواه الدارقطني (٥٢٢) وغيره بسند ضعيف، وللجملة الأولى شواهد كثيرة تصحح بها، أما الجملة الثانية فلها شاهد عن عائشة في الإمارة من صحيح مسلم وفيه: **«مَن ولي من أمر أمتي شيئاً فشقّ عليهم فاشقق عليه»**

وتقدم في الإمارة رقم (١٣) فالحديث بجملته صحيح، ولذا صححه بالجملة الأولى جماعة من أهل الحديث، وانظر طرقه عند الزيلعي في نصب الراية (٣٨٥/٤) واستوعب طرقه الشيخ ناصر رحمه الله تعالى في إرواء الغليل رقم (٨٩٦).

وإذا صحّ الحديث ثبت أن مضارة المسلم بأي كانت محرّمة سواء كانت في نفسه أو أهله أو ماله في دينه أو دنياه، وهي من نوع إذايته، وقد جعل الفقهاء رحمهم الله تعالى من أحاديث النهي عن المضاراة قاعدة فقهية عامة، يندرج تحتها كثير من الجزئيات التي فيها ضرر على المسلم.

* * *

❊ تحريم الظن الكاذب والتباغض والتجسس والتحاسد والتدابر والتقاطع

[٣٢٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا - ويشير إلى صدره - بحسب امرىء من الشر أن يحقِّر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وعِرضُه، وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**.

رواه مسلم بطوله في البر والصلة (١٢١/١١٨/١٦)، ورواه البخاري في الأدب (٩٥/٩٣/١٣)، وأبو داود (٤٩١٧)، والترمذي في البر (١٧٧٣) مختصراً، وفي رواية **«ولا تناجشوا»** وهي في الصحيح.

[٣٢٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه نحوه مختصراً وزاد: **«ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٩٤/٩٥)، ومسلم في البر (١٦/١١٥)، والترمذي في البر أيضاً (١٧٨١)، وأبو داود (٤٩١٠).

هذان حديثان عظيمان في هذا الباب وخاصة حديث أبي هريرة ففيهما جملة من الأخلاق السافلة التي يجب على المسلم التنزُّه عنها ويحرم عليه أشد التحريم التخلُّق بها وتعاطيها، وزبدة ما في الحديثين هي:

أولاً: سوء الظن بالمسلم بلا حجة ظاهرة وهو حرام بل عدّه النبي ﷺ أكذب الحديث، وجاء ذلك عنه بعد التحذير منه بقوله: **«إياكم والظن»**، وهذا الظن قد نهى الله تعالى عنه عباده المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾.

قال النووي: قال الخطابي: هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس، فإن ذلك لا يملك، ونقل عن عياض أن الظن الذي يأثم به هو ما ظنه وتكلم به فإن لم يتكلم لم يأثم... فإن ظن لا يجوز له التحسُّس على أخيه ليكشف عن حاله وهي **ثانياً وثالثاً**: التحسس والتجسُّس، فالأول بالحاء والثاني بالجيم، قيل: هما بمعنى واحد وهو طلب معرفة أخبار الناس وأحوالهم الغائبة، وقيل: بالحاء الاستماع لحديث القوم، وبالجيم: البحث عن عوراتهم وكلاهما محرّم. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾.

رابعاً: التنافس في الدنيا، وهو مذموم شرعاً، وسيأتي حديث في الموضوع في الزهد والرقائق الذي فيه: **«فتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم»**. والتنافس معناه الرغبة في الشيء وحب الانفراد به، وهو مذموم في الدنيا محبوب مرغَّب فيه في شؤون الآخرة.

* * *

❋ تحريم التحاسد

خامساً: التحاسد، وهو أن يتبادل المسلمان الحسد فيما بينهما فيحسد كل منهما الآخر. والحسد تمنّي زوال النعمة عن الغير مع إضمار الحقد له وهو محرّم أشد التحريم.

[٣٣٠] وقد قدّمنا حديث: **«لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار»**.

رواه البخاري ومسلم والترمذي في البر والصلة (١٧٨٢) بتهذيبي.

فالحسد الجائز هنا، هو الغبطة والتنافس في الخير، أما سواه فلا يجوز، وقد أمرنا الله عزّ وجل أن نستعيذ ونتحصن به من شر الحاسد إذا حسد فقال تعالى: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ وفي ذلك إشارة إلى عظيم جرم الحسد وأنه مما ينبغي أن يستعاذ بالله من شرّ صاحبه لأنه قد يحمله على المكر بمحسوده وإيصال الشر إليه بجميع أنواعه.

وقد جاء في حديث: **«الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»**.

رواه أبو داود وفي سنده ضعف، وقد ذمّ الله تعالى اليهود في القرآن كثيراً على حسدهم النبي ﷺ وأنكر عليهم بقوله: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فالحسود لا يسود كما يقولون. والكلام فيه يطول.

سادساً: التباغض وهو تعاطي أسباب البغض فيصبح المسلم يضمر لأخيه البغضاء فهو أيضاً من مساوىء الأخلاق فلا ينبغي للمسلم أن يتصف به لأنه ينافي الأخوة الإسلامية، وفي هذه والتي قبلها جاء الحديث التالي:

* * *

❁ حالقة الدين

---

[٣٣١] عن الزُّبير بن العوام رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«دبّ إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، هي الحالقة لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا،**

ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا، أفلا أنبئكم بما يُثبِّت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم».

رواه الطيالسي (١٩٣)، وأحمد (١٦٧/١)، والترمذي آخر صفة القيامة (٢٣٢٨). قال المنذري: وسنده جيد وهو صحيح لشواهده.

قوله: «دب» أي: سرى ومشى إليكم خفية. قوله: «داء الأمم» أي: مرضهم، وهو يدل على أن الحسد والبغضاء من أمراض القدامى التي تسربت إلى هذه الأمة. وفي قوله: «ولا تؤمنوا حتى تحابوا» نفي الإيمان عن المتباغضين. وفي قوله: «هي الحالقة» ظاهر في أن الحسد والبغضاء يحلقان الدين كما تحلق الموسى الشعر حتى لا يبقى له أثر عياذاً بالله تعالى.

ولذلك كان إصلاح ذات البَيْن أفضل من درجة التطوع بالصيام والصلاة والصدقة، وقد قال ﷺ: **«فإن فساد ذات البَيْن هي الحالقة»** وقد تقدم في الإصلاح بين الناس وفساد ذات البَيْن يكون منها الحسد والبغضاء وما يتبعهما من التدابر والتقاطع فهي سلسلة من المساوىء.

سابعاً: التدابر وهو المقاطعة بحيث يلتقي المسلم مع أخيه فيدبر واحد منهما عن الآخر، وذلك ينشأ عن المعاداة وكل منهما حرام إلا لموجب شرعي، ويأتي موضع خاص لذلك قريباً.

* * *

❋ تحريم ظلم المسلم

ثامناً: ظلمه والاعتداء عليه في ماله أو نفسه... والظلم من أكبر الكبائر، قال الله تعالى: ﴿وَالظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

[٣٣٢] وقال النبي ﷺ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلُّوا محارمهم».

رواه أحمد (٣/٣٢٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٣)، ومسلم في البر والصلة (١٣٤/١٦) من حديث جابر رضي الله تعالى عنه.

[٣٣٣] وعن ابن عمر مثله مختصراً بلفظ: **«إن الظلم ظلمات يوم القيامة»**.

رواه البخاري في المظالم (٢٥/٦)، ومسلم في البر (١٣٤/١٦) وغيرهما.

قوله: «الظلم» فسّر العلماء الظلم بمعنيين: بوضع الشيء في غير محله، وبالتصرف في مال الغير بغير إذنه، ويشمل عبادة غير الله بالدرجة الأولى، ولذا قال تعالى في غير ما آية: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يعني: بنسبة الشريك له تعالى والصاحبة والولد... ويشمل الاعتداء على الناس بأخذ أموالهم وهضم حقوقهم والبغي عليهم والجور في محاكماتهم... ويأتي الكلام على باقيه في الرقائق إن شاء الله تعالى.

وقوله: «ظلمات يوم القيامة»، قال العلماء: هو على ظاهره بمعنى أن الظالم يأتي يوم القيامة وقد أحاطت به الظلمات فلا يهتدي سبيلاً، بينما المؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، وهذا بالإضافة إلى ما سيلقى من الشدائد والعقوبات والأنكال.

أما قوله في الحديث: «واتقوا الشح... إلخ»، الشح هو البخل بالواجب... والشُّح خلق سافل سيىء لا يحبه الله تعالى، ولذا أمرنا النبي ﷺ بالتحفُّظ منه لأنه أهلك من كان قبلنا فاستحلُّوا بسببه دماءهم ومحارمهم، وقد تقدم شيء من هذا في الزكاة.

***

❋ نصر المظلوم

[٣٣٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً»** قيل: كيف أنصره ظالماً؟ قال: **«تحجزه عن**

الظلم فإن ذلك نصره»، وفي رواية: هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «**تأخذ فوق يديه**»، وفي رواية: «**يكفه عن الظلم فذاك نصره إياه**».

رواه أحمد (٣/٢٠١)، والبخاري في المظالم (٦/٢٣)، والترمذي في الفتن.

الحديث يدل على وجوب نصر المظلوم بأي طريق أمكن، إما بأخذ حقه من الظالم، وإما بكف ظالمه عنه والأخذ على يديه إن استطاع وذلك من حقوق المسلم على أخيه.

***

❁ الإملاء للظالم حتى يأخذه

[٣٣٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عزّ وجل لَيُمْلِي للظالم فإذا أخذه لم يُفْلِته**»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾.

رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي في الكبرى، وابن ماجه، وتقدم في التفسير.

«ليملي»: بضم الياء، أي: ليمهل ويؤخر ويطيل له المدة. وقوله: «**يفلته**» أي: لم يطلقه وينفلت منه.

وفي الآية والحديث تهديد شديد للظالمين المعتدين المتجبرين، وفي ذلك ذكرى لمن كان له قلب... وراجع ما سبق في التفسير.

وسيأتي في الرقائق حديث: «**إني حرّمت الظلم على نفسي**...» إلخ.

***

❁ خذلان المؤمن

تاسعاً: خِذْلانه، ومعنى خذلانه عدم نصره في موطن يحتاج فيه إلى

من ينصره ويعينه ويدافع عنه، فمن كان في استطاعته نصره ولم ينصره فقد خذله، وهذا داخل فيّ سابقه، ويستأنس له بالحديث التالي على ضعف في سنده.

[٣٣٦] فعن جابر بن عبدالله وابن طلحة بن سهل رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«ما من امرىء يخذل مسلماً في موطنٍ يُنتقص فيه من عِرضه، ويُنتهك فيه من حرمته إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرىءٍ ينصر مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته»**.

رواه أحمد (٣٠/٤)، وأبو داود في الأدب (٤٨٨٣) وسنده صحيح على مذهب ابن حبان.

فهذا الحديث جمع بين الترغيب والترهيب، فمن نصر أخاه المسلم ودافع عن عرضه وكرامته نصره الله في الدنيا والآخرة، ومَن خذله وتركه تنتهك حرمته ويطعن في عرضه، خذله الله في موطن يكون فيه أحوج إلى من يؤيده ويعينه وينصره ويدافع عنه، وكفى بهذا زجراً لمن يخذل أخاه المسلم.

* * *

❋ احتقار المؤمن

عاشراً: قوله: **«ولا يحقره»** أي: لا يستصغره ويستقله ويجعله في عينيه حقيراً لا قيمة له عنده، فاحتقار الآخرين يدل على التكبُّر والتعاظم وذلك عظيم عند الله كما يأتي.

ولذا جاء في تمام الحديث: **«بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه»**.

ومعناه: احتقاره لأخيه كافيه عن جميع أنواع الشر، وفي هذا زجر بالغ وترهيب شديد أكيد، وفي احتقار الآخرين جاء الحديث التالي:

[٣٣٧] عن جُنْدُب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال رجلٌ: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عزّ وجل: مَن ذا الذي يتألّى عليّ أن لا أغفر لفلان إني قد غفرتُ له وأحبطتُ عملك»**.

رواه مسلم في البر والصلة رقم (٢٦٢١).

قوله: «يتألى» بفتح الياء والتاء والألف مع تشديد اللام، أي: يحلف. وقوله: «وأحبطت عملك» أي: أبطلت ثوابه.

والحديث يدل على أنه لا يجوز احتقار الناس واستصغارهم، ولا سيما إذا صدرت منهم سقطات مما لا ينجو منه بشرٌ حتى يؤدي به الحال أن يعجب بنفسه ويُقنِط غيره من رحمة الله تعالى كما فعل ذلك الرجل، فإن ذلك دخول في شؤون الله عزّ وجل فإنه لا يُدرَى المغفور له من غيره، وقد قدّمنا حديث: **«إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكُهم»**، وسيأتي في الكبر، حديث ابن مسعود وفيه: **«الكبر بطر الحق وغمط الناس»**.

و«غمطهم»: احتقارهم.

وفي هذا المعنى جاءت الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾، لأن السخرية والاستهزاء بالآخرين لا تكون إلا باحتقارهم واستصغارهم، ولذا قال الله عزّ وجل: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾، فالمحتقر قد يكون أحقر عند الله وأسقط، بينما يكون المحتقر بفتح القاف: أرفع درجة ومنزلة.

حادي عشر: قوله: «كُلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه، وعِرضه، وماله».

حرمة هذه الأشياء من المسلم من الضروريات فلا يحل سفك دمه وإراقته إلا بحق، ولا يحل عِرضه والكلام فيه وقذفه ونهشه إلا بحق، ولا يحل ماله إلا عن طيب نفسه وطريق شرعي، وقد تقدم كل ذلك في مواضعه.

* * *

❋ تحريم هجران المسلم بلا موجب شرعي

[٣٣٨] عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»**.

رواه أحمد (٥/٤١٦/٤٢١/٤٢٢)، ومالك في الجامع (١٧٤٧)، والبخاري في الأدب (١٠٧/١٣)، ومسلم في البر والصلة (١١٧/١٦)، وأبو داود (٤٩١١)، والترمذي في البر (١٧٧٨).

[٣٣٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَحِلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فمَن هجر فوق ثلاث فمات دخل النار»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٩١٤) بسند صحيح على شرط البخاري ومسلم.

[٣٤٠] وعن أبي خِراشٍ حَدْرَدِ بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«مَن هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه»**.

رواه أبو داود أيضاً (٤٩١٥).

وفي الباب عن عائشة عند أبي داود (٤٩١٣)، وعن المسور بن مخرمة عند البخاري (١٠٩/١٣)، وعن ابن عمر عند مسلم (١١٨/١١)، وعن أبي هريرة عنده أيضاً (١١٨/١٦)، وعن أنس وقد تقدم.

الهَجْر هنا: مفارقة المسلم أخاه لأسباب وحظوظ نفسانية، وهي محرّمة بالإجماع فوق ثلاثة أيام كما في هذه الأحاديث.

فمن لقي أخاه بعد الثلاث فأقل شيء أن يسلم عليه وبذلك يخرج من الهجران ويكون خير المتقاطعين، فإن لم يرد عليه وأصرّ على ذلك كان كقتله إن مرت عليه سنة وهو على ذلك، فإن مات دخل النار.

❋ ❋ ❋

* خيبة المتقاطعين

[٣٤١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تُفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس، فيغفر الله لكل عبد مؤمن لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كان بينه وبين أخيه شحناء فيقال: اتركوا أو أَركوا هذين حتى يفيئا، أنظروا هذين حتى يصطلحا ـ ثلاثاً ـ»**.

رواه مالك (١٧٥١)، وأحمد (٧٦٢٧)، ومسلم في البر والصلة (١٢٢/١٦)، وأبو داود في الأدب (٤٩١٦)، والترمذي في البر (١٨٦٦) بتهذيبي.

قوله: «شحناء» أي: بغضاء وعداوة. وقوله: «أَركوا» بفتح الهمزة وسكون الراء، أي: أخّروا. وقوله: «أنظروا» بفتح الهمزة وكسر الظاء بمعنى سابقه.

وفي الحديث فضل يومَيْ الاثنين والخميس وأن لهما بركة خاصة حيث إن الله عزّ وجل يفتح فيهما أبواب الجنة ويتفضل بسبب ذلك على عباده المؤمنين بغفران ذنوبهم إلا المتعادين المتقاطعين المتدابرين لحظوظ نفسانية فإن الله تعالى يقول لملائكته أخّروا هذين واتركوهما فلا تشملهما مغفرتي حتى يصطلحا ويتراجعا عن المدابرة. قال القرطبي: المقصود من الحديث التحذير من الإصرار على العداوة وإدامة الهجر. قال ابن رسلان: ويظهر أنه لو صالح أحدهما الآخر فلم يقبل غفر للمصالح... نقله الزرقاني في شرح الموطأ. قال ابن عبدالبر فيه ـ يعني الحديث ـ أن الشحناء من الذنوب العظام وإن لم تذكر في الكبائر... إلخ.

* * *

* الهجر المشروع

[٣٤٢] قال البخاري في الأدب من صحيحه (١٠٩/١٣) باب ما يجوز من الهجران لمن عصى. وقال كعب حين تخلّف عن النبي ﷺ ونهى النبي ﷺ المسلمين عن كلامنا وذكر خمسين ليلة...

قال الحافظ على هذا الكلام: أراد بهذه الترجمة بيان الهجران الجائز لأن عموم النهي مخصوص لمن لم يكن لهجره سبب مشروع فبيّن هنا السبب المسوغ للهجر وهو لمن صدرت منه معصية فيسوغ لمن اطلع عليها منه هجره عليها ليكف عنها.

وحديث كعب المشار إليه تقدم في التفسير وفي المغازي من السيرة، وتقدم لنا حديث هجران النبي ﷺ زينب رضي الله تعالى عنها أكثر من شهر لكلامها في صفية رضي الله تعالى عنها، تقدم ذلك في الفضائل. وهجر ﷺ نساءه شعراً تأديباً لهن على ما صدر منهن في حقه كما قدّمنا مقاطعة عائشة رضي الله تعالى عنها ابن الزبير لتكلمه فيها بما لا يتناسب وحرمة النبوة، وقد ورد أن ابن عمر هجر ولداً له لرده سنّة النبي ﷺ.

فالهجر هجران: هجر ممنوع وهو الذي لا موجب له إلا الحظوظ النفسانية فهذا مجمع على تحريمه فوق ثلاثة أيام. نقل الإجماع على ذلك ابن عبدالبر وغيره. وهجر جائز وهذا نوعان:

نوع يجوز بترك بسط الوجه مثلاً وترك تسمية المهجور مع السلام والكلام كما كان يقع من نساء النبي ﷺ معه، فقد كانت الواحدة منهن تهجره اليوم الكامل واليومين، وكانت عائشة رضي الله تعالى عنها تقول له: لا أهجر إلا اسمك، فمثل هذا مما يقع بين الرجل وزوجته وبين الوالد وولده... لا حرج فيه إن شاء الله.

أما النوع الثاني: فهو هجران الكفار وبالأخص المحاربين واللادينيين وأهل الكبائر من عصاة المسلمين المصرين المجاهرين فلا يُسلّم عليهم ولا يُوادُّون حتى يتوبوا، نعم لا يهجرون في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ومعاملاتهم مثلاً بدون موالاة ولا مواددة، وممن يجوز هجرهم أهل البدع كالخوارج، والرافضة ونحوهم من الفسقة أو الكفرة بعقائدهم. وهذا الهجر هو هجر في الله تعالى لا حظ فيه للنفوس، وقد قال ﷺ: **«مَن أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، وأنكح لله، فقد استكمل الإيمان»** ومن مقتضى البغض الهجران.

نعم ويجوز الهجران لمصالح شخصية:

قال ابن عبدالبر: أجمعوا على أنه لا يجوز الهجران فوق ثلاث إلا لمن خاف من مكالمته ما يفسد عليه دينه أو يدخل منه على نفسه أو دنياه مضرة، فإن كان كذلك جاز، ورُبّ هجر جميل خير من مخالطة مؤذية.

وهذا الهجر يسمى الهجر الوقائي، فكل من يتأذى به الإنسان فله مجانبته ومهاجرته.

وللعلامة المحدث سيدي عبدالله الصديق رحمه الله تعالى: «القول المسموع في الهجر المشروع» أفاد فيه وأجاد ينبغي الوقوف عليه.

* * *

الخيانة وخلف الوعد والغدر والفجور

[٣٤٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«آيةُ المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»**.

رواه أحمد (٢/٣٥٧)، والبخاري في الإيمان (١/٩٧)، وفي الأدب (١٣/١٢٢)، ومسلم (٢/٤٦)، وأبو عوانة (١/٢٠/٢١)، والنسائي (٨/١٠٢) كلهم في الإيمان.

[٣٤٤] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»**.

رواه أحمد (٢/١٨٩)، والبخاري في الإيمان (١/٩٧/٩٨)، ومسلم في الإيمان (٢/٤٦)، وأبو داود في السنة (٤٦٨٨)، والترمذي (٢٤٤٩)، والنسائي (٨/١٠٢) كلاهما في الإيمان.

«آية»: الآية العلامة. «المنافق»: من يبطن الكفر ويتظاهر بالإيمان. قوله: «وإذا خاصم فجر» أي: رمى غيره بالقبائح والشرور.

في الحديثين بيان خصال من مساوىء الأخلاق وهي خمسة: الكذب، وخلف الوعد، والخيانة، والغدر بعد العهد، والفجور عند الخصام، وكلها تقدمت مفرقة في غضون الكتاب بعضها في الإيمان، وبعضها في المعاملات، وبعضها في الجهاد، وكلها محرمة تنافي الإيمان، ولذلك جعلها النبي ﷺ علامة المنافق، وأن من اتصف بها كاملة كان منافقاً خالصاً، غير أنه قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر، ولا هو منافق يخلد في النار، فإن أخوة يوسف صلى الله تعالى عليه وعلى نبينا وآله وسلم جمعوا هذه الخصال، وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله، قال: وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله تعالى إشكال ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار: إن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلّق بأخلاقهم، فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا لأنه منافق نفاق الكفار المخلّدين في الدرك الأسفل من النار، وقوله ﷺ: «**كان منافقاً خالصاً**» معناه شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذي رحمه الله تعالى معناه عن العلماء مطلقاً فقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل... وهذا كلام وجيه جداً يحل إشكال الحديث فيكون من اتصف بهذه الصفات منافقاً نفاقاً عملياً لا اعتقادياً كالأصناف الذين أطلق عليهم اسم الكفر وهم مؤمنون.

* * *

❋ تحريم الكبر وأنه يكون في كل شؤون العبد

[٣٤٥] عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف، لو أقسم**

على الله لأبرّه، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عُتُلّ جوّاظ مستكبر». وفي رواية: **«كل ضعيف متضعِّف... جوّاظ جعظري زنيم»**.

رواه أحمد (٣٠٦/٤)، والبخاري في التفسير والنذور، وفي الأدب (١٠١/١٣)، ومسلم في كتاب الجنة (١٨٧/١٧)، والترمذي في أبواب صفة جهنم (٢٤٣٤)، والنسائي في الكبرى (٤٩٧/٦)، وابن ماجه في الزهد (٤١١٦).

قوله: «مُتَضَعَّف» بفتح العين المشددة أي: الذي يتضعفه الناس ويحتقرونه. وقوله: «لأبره» أي: لو حلف على شيء لأجابه الله وصدّقه فيه ولا يحنثه إكراماً له. وقوله: «عتل» بضمتين، الجافي الشديد الخصومة بالباطل، وقيل: الفظ الغليظ. وقوله: «جواظ» بفتح الجيم والواو المشددة، هو الجموع المنوع، وقيل: الكثير اللحم المختال في مشيه. والجعظري بمعناه. والزنيم الدعي: ولد الزنا.

فالحديث جاء لبيان أهل الجنة وأهل النار[١] فكان من جملة صفات أهل النار المتكبرون الذين يحتقرون الضعفاء ويستصغرونهم ويفتخرون على غيرهم ويعجبون بأنفسهم وأموالهم.

فالمتكبر هو الذي يرى نفسه أنه أكبر وأعظم من غيره. قال الغزالي رحمه الله تعالى: الكبر على قسمين، فإن ظهر على الجوارح يقال: تكبر، وإلا قيل: في نفسه كبرٌ، والأصل هو الذي في النفس وهو الاسترواح إلى رؤية النفس، والكبر يستدعي متكبراً عليه يرى نفسه فوقه، ومتكبراً به، وبه ينفصل الكبر عن العجب فمن لم يخلق إلا وحده يتصور أن يكون معجباً لا متكبراً.

والمتكبر من شأنه أن يدفع الحق ولا يقبله إضافة إلى احتقاره الآخرين ولذا كان الكبر ملازماً للكفار والجبابرة والطغاة، وفي ذلك جاء الحديث التالي:

---

(١) والكلام على جملة الحديث يأتي في الرقائق.

[٣٤٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»**، وفي رواية: **«والعزة إزاري»**، وفي رواية: **«العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذّبته»**.

رواه أحمد (٤٤٢/٤٢٧/٤١٤/٣٧٦/٢٤٨/٢)، ومسلم في البر والصلة (١٧٣/١٦)، وأبو داود في الأدب (٤٠٩٠)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٤) بألفاظ متقاربة.

قوله: «الكبرياء ردائي...» إلخ، هما صفتان للّه تعالى، فمذهب السلف إبقاؤهما على ظاهرهما وعدم الخوض في تفسيرهما وتفويض معناهما وكيفيتهما إلى الله عزّ وجل مع تنزيهه تعالى عن صفات المحدثات.

وقال آخرون من الخلف: ذلك مجاز واستعارة حسنة ضرب ذلك مثلاً لكون العز والكبرياء بالله تعالى أحق، وله ألزم، واقتضاهما جلاله.

وقوله: «من ينازعني» أي: من يتخلق بذلك قصمته وألقيته في النار.

وفي الحديث وعيد شديد لمن ينازع الله في كبريائه وعظمته وجلاله، فمن تكبر على عباد الله وتعاظم عليهم عذّبه الله تعالى، لأنه نازع الله في صفة من صفاته فتخلّق بالكبرياء الذي هو من صفات الربوبية، وفي هذا زجر بالغ للمتكبرين.

[٣٤٧] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبْر»** قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: **«إن الله جميل يحب الجمال، الكِبْرُ بطر الحق، وغمط الناس»**.

رواه مسلم في الإيمان (٩٠/٨٩/٢) مع النووي، وأبو داود (٤٠٩١)، والترمذي في البر والصلة (١٨٤٣)، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٣) وغيرهم.

في الحديث أن حب الإنسان لبس الثوب الحسن أو الحذاء الحسن

ونحو ذلك، ليس من الكبر إن لم يرد بذلك التفاخر والتعاظم على الغير، وإنما الكبر هو بطر الحق أي: دفعه وعدم قبوله، وغمط الناس وغمصهم أي: احتقارهم وازدراؤهم والتعاظم عليهم، كما فيه أن الله يحب الجمال في كل شيء لأنه تعالى جميل ولا أجمل منه إطلاقاً.

وفي الحديث وعيد شديد وتهديد أكيد للمتكبرين، فمَن مات على كبريائه حرم دخول الجنة مع السابقين أو اللاحقين إن كان كافراً أو مؤمناً استحلّ ذلك ولو كان كبره ضئيلاً عياذاً بالله تعالى.

وقد ذمّ الله المتكبرين والمختالين في غير ما آية من القرآن الكريم.

[٣٤٨] وعن جبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه قال: يقولون ـ لي في التيه ـ وقد ركبتُ الحمار، ولبستُ الشملة، وقد حلبتُ الشاة، وقد قال لي رسول الله ﷺ: **«مَن فعل هذا، فليس فيه من الكِبرِ شيء»**.

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٤٥) بسند صحيح رجاله رجال مسلم غير علي بن عيسى بن يزيد البغدادي، وهو ثقة.

قوله: «التيه» أي: يصفونه بالكبر.

وفي الحديث بيان أن من زاول هذه الأشياء من ركوب الحمار، ولبس الشملة، وحلب الشاة كان خالياً من الكبر، لأن ما ذكر يتحاشى عنه المتكبرون المتعاظمون.

[٣٤٩] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلوا واشربوا وتصدّقوا والبسوا ما لم يخالطه إسراف أو مخيلة»**.

رواه ابن ماجه (٣٦٠٥) بسند حسن أو صحيح، وعلّقه البخاري في اللباس من صحيحه مجزوماً به، ونحوه عن ابن عباس رواه ابن أبي شيبة (١٧/٥) بسند صحيح وهو أيضاً عند البخاري معلقاً.

وهما يدلان على أن للإنسان أن يتمتع بكل ما شاء من مأكول ومشروب وملبوس إذا خلا ذلك عن الإسراف والتبذير ومجاوزة الحد، والكبرياء لأن المخيلة هي التكبُّر والخيلاء، وذلك قد يكون في الألبسة

والمركوبات والمآكل والمشارب كما يكون في غيرها، وقد تقدمت أحاديث في اللباس تتحدث عن الخيلاء ووعيد المتكبرين.

* * *

❊ عظم جرم تعذيب الناس والحيوان

[٣٥٠] عن خالد بن حَكِيم بن حزام قال: تناول أبو عُبيدة رجلاً بشيء فنهاه خالد بن الوليد فقال: أغضبتَ الأمير، فأتاه فقال: إني لم أرِد أن أُغضِبك ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة، أشد الناس عذاباً للناس في الدنيا»**.

رواه أحمد (٤/٩٠)، والحميدي في مسنده (٥٦٢) بسند صحيح.

قوله: «أشد الناس» هو على حذف من، لأن أشد الناس عذاباً هو الكافر.

وعلى أيٍّ، فهو وعيد شديد وتهديد أكيد للذين يعذّبون عباد الله ولا سيما إذا كانوا مظلومين كما يقع ممن يتولون ذلك من شرط الظلمة والكفرة فإنهم يعذبون الناس بأنواع من العذاب لم يُسمع بمثلها ليرغموهم على الاعتراف بحق أو باطل فهؤلاء سيلقون جزاءهم من الله الجزاء الأوفى، يوم لا يُعذِّب عذابه أحد ولا يوثِق وثاقه أحد.

[٣٥١] وعن هشام بن حكيم بن حزام أنه مرّ على أناس من الأنباط بالشام قد أُقيموا في الشمس، وفي رواية: وصبّ على رؤوسهم الزيت فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية، وفي رواية: يعذبون في الخراج، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا»**، قال: وأمير الناس يومئذ عُمَيْر بن سعد على فلسطين، قال: فدخل عليه فحدثه فخلى سبيلهم.

رواه أحمد (٣/٤٠٣/٤٦٨)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٦٧/١٦٨)، وأبو داود في الجهاد (٣٠٤).

قوله: «الأنباط» هم فلاحو العجم، وفي رواية: من أهل الذمة. كان هؤلاء الكفار قد فرضت عليهم الجزية ولعلهم لم يجدوا ما يؤدون به فحُبِسوا وعُذّبوا، فأنكر ذلك هشام بن حكيم وحدّث عن رسول الله ﷺ بهذا الحديث.

ففيه تحريم تعذيب عباد الله تعالى ولو كانوا كفاراً إذا كان ذلك ناشئاً عن ظلم وباطل. وإذا كان تعذيب الكفار لا يجوز فكيف بتعذيب المسلمين ولا سيما الأبرياء أو المتهمين، إن ذلك عند الله لعظيم.

وهذا لا ينافي تعذيبهم بحق كتعزير مثلاً وتأديب، فأحرى القصاص والحدود.

[٣٥٢] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«عُذّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها إذ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٧٢/١٦) وهو في الصحيحين بنحوه عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما وقد تقدما في الأنبياء، (رقم ٥٩٨).

ففي الحديث تحريم تعذيب الحيوان ولا سيما المأذون فيه فلا يجوز تعذيبه ولا ترك تغذيته وإن حبس وجب الإحسان إليه. وقد تقدم تحريم قتل الحيوان فليرجع إليه.

* * *

❊ النهي عن الغضب وما قيل فيه

[٣٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوْصِني، قال: **«لا تغضب»** فردّد مراراً، قال: **«لا تغضب»**، وفي رواية: علّمني شيئاً ولا تكثر علي لعلي أعيه، قال: **«لا تغضب...»** إلخ.

رواه أحمد (٣٦٢/١٧٥/٢) وفي مواضع، والبخاري في الأدب (١٣٥/١٣٤/١٣)، والترمذي في البر والصلة (١٨٦٣).

في الحديث النهي عن تعاطي أسباب الغضب والتعرض لما يثيره، والمذموم منه هو العمل بمقتضاه من العداوة والمقاطعة والسب والشتم وما إلى ذلك مما ينشأ عنه، لأن الغضب طبيعي في الإنسان. قال الخطابي: معنى قوله: «لا تغضب» اجتنب أسباب الغضب ولا تتعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه لأنه أمر طبيعي لا يزول من الجبلة. قال العلماء: لأنه من تكليف المحال، فالمراد بالحديث ما كان من قبيل ما يكتسب بالرياضة. واتفقوا على أن هذا في الغضب لغير الله، أما ما كان لانتهاك حرمة من حرمات الله فهو واجب من شعب الإيمان ومقتضياته، وهذا كان خلق النبي ﷺ كما قدّمنا في الشمائل وغيرها.

* * *

❋ مجاهدة النفس على العمل بمقتضى الغضب

[٣٥٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس الشديد بالصُّرَعة، إنما الشديد الذي يملِك نفسه عند الغضب»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣٤/١٣)، ومسلم في البر والصلة (١٦٢/١٦).

«الصرعة»: بضم الصاد وفتح الراء والعين هو الذي يكثر منه صرع الناس عند المصارعة.

[٣٥٥] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما تعدُّون الرَّقوب فيكم؟»** قال: قلنا: الذي لا يولد له، قال: **«ليس ذلك بالرقوب، ولكنه الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئاً»** قال: **«فما تعُدُّون الصُّرعة فيكم؟»** قال: قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٦١).

«الرقوب»: بفتح الراء المشددة وضم القاف، هو عند العرب من لا يولد له أصلاً أو لا يعيش له ولد، لكن النبي ﷺ بيّن لهم أن الرقوب الحقيقي هو الذي لم يقدم للآخرة من أولاده شيئاً.

وفي الحديثين بيان فضل من يجاهد نفسه عند الغضب فيكظم غيظه ولا يعمل بمقتضى غضبه فيخاصم وينازع ويشتم ويضرب.

فهذا هو الشديد الحقيقي والقوي شرعاً لأنه جاهد نفسه فانتصر عليها وهزمها ولم يطعها في العمل بمقتضى غضبها.

وقد قدّمنا سابقاً فضل كظم الغظيم فليرجع إليه فإن له تعلُّقاً بهذا.

* * *

❁ دواء الغضب

[٣٥٦] عن سليمان بن صُرَد رضي الله تعالى عنه قال: استبّ رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه، وفي رواية: فجعل أحدهما يغضب ويحمر وجهه، فنظر إليه النبي ﷺ فقال: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**»، فقام إلى الرجل رجلٌ ممن سمع النبي ﷺ فقال: أتدري ما قال رسول الله ﷺ آنفاً؟ قال: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**» فقال له الرجل: أمجنوناً تراني، وفي رواية: إني لست بمجنون.

رواه أحمد (٦/٣٩٤)، والبخاري في الأدب (١٣/١٣٤)، ومسلم (١٦/١٦٣/١٦٤)، وأبو داود في الأدب (٤٧٨١).

[٣٥٧] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «**إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع**».

رواه أحمد (٥/١٥٢)، وأبو داود (٤٧٨٢) وسنده صحيح.

قوله: «استبَّ رجلان» أي: تشاتما.

وقول ذلك الرجل: «أمجنوناً تراني؟» فيه سوء أدب مع الحضرة النبوية، ولعله كان من أجلاف العرب أو من المنافقين، لأن المؤمن الصادق لا يصدر منه مثل هذا الكلام الساقط.

وفي هذين الحديثين بيان لعلاج الغضب ودواء من صدر منه، وهو أمران اثنان:

أحدهما: أن يستعيذ بالله من الشيطان لأن الغضب في غير ما يتعلق بالله... هو من نزغات الشيطان وهو الحامل عليه فكان من الواجب الالتجاء إلى التحصن منه بالله عزّ وجل لئلا يسترسل به فيخرج بسببه عن اعتدال طبيعته فيتكلم بالباطل ويأتي بالقبائح المترتبة عليه.

وثانيهما: إذا أحسّ بالغضب وفورانه وكان قائماً فعليه أن يقعد، فإن سكن وذهب عنه وإلا فعليه أن يضطجع، فإنه لا شك سيذهب عنه لأن النبي ﷺ لا ينطق بخلاف الواقع ولا ندري الحكمة في القعود والاضطجاع هنا، فالله أعلم بمراد نبيه ﷺ بذلك.

* * *

نَتْنُ دعوى الجاهلية

[٣٥٨] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال المهاجري: يا للمهاجرين، وقال الأنصاري: يا للأنصار، فسمع ذلك النبي ﷺ فقال: **«ما بالُ دعوى الجاهلية؟»** قالوا: رجل من المهاجرين كسع رجلاً من الأنصار، فقال النبي ﷺ: **«دعوها فإنها منتنة»** فسمع ذلك عبدالله بن أبي بنُ سلول فقال: أوَقد فعلوها؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذل. فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: **«دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»**، وفي رواية: فقال له ابنه

عبدالله بن عبدالله: والله لا تنقلب حتى تُقر أنك الذليل، ورسول الله ﷺ العزيز، ففعل.

رواه أحمد (٣/٣٩٢/٣٩٣/٣٣٨)، والبخاري في التفسير (١٠/٢٧٤/٢٧٥)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٣٧/١٣٨/١٣٩)، والترمذي (٣٠٩٧) بتهذيبي.

قوله: «كسع» بفتحتين: أي: ضرب دبره بيده أو بصدر قدمه أو سيف أو نحو ذلك. وقوله: «دعوها» يعني دعوى الجاهلية وهي الاستغاثة للانتصار، وهي قولهم هنا: يا للمهاجرين، يا للأنصار. وقوله: «فإنها منتنة» أي: هذه الكلمة قذرة خبيثة لأنها تؤدي إلى سفك الدماء وإفساد ذات البَيْن.

وفي الحديث ذم دعوى الجاهلية والاستنصار بالعشائر للتقاتل على طريقة ما كان عليه الكفار العرب قبل الإسلام حمية وعصبية، وذلك حرام أشد التحريم لا يجوز في الإسلام.

وفي الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الإغضاء عما كان يصدر من المنافقين تنازلاً عن حقه ﷺ وسلوكاً منه طريق الحكمة والسياسة، ولذلك لم يأذن لسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في قتل ابن أبي المنافق مع أنه سبّ النبي ﷺ وحطّ من قدره بحيث لو صدر ذلك اليوم من أحد لحكم بارتداده ووجب إعدامه.

[٣٥٩] وعن أُبَي بن كعب رضي الله تعالى عنه أنه سمع رجلاً قال: يا لَفُلان، فقال له: اعْضُضْ بِهَن أبيك، ولم يَكْن، فقال له: يا أبا المنذر ما كنت فحّاشاً، فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَن تعزَّى بعزاء الجاهلية فأعِضُّوه بهن أبيه ولا تَكْنُوا**».

رواه أحمد (٦/١٣٦)، وابنه في زيادته (٥/١٣٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٩٣٦) وسندهما صحيح.

قوله: «اعضض» أي: عض بأسنانك ذكر والدك، يصرح له بذَكَرِ أبيه

صراحة رداً لما أتى به من عزاء الجاهلية. و«الْهَن»: هو الفرج وما يُستقبح ذكره. وقوله: «تَعَزَّى» أي: انتمى وانتسب كقوله: يا لفلان يا لبني فلان، فهذا عزاء الجاهلية وذلك محرّم مذموم، ولذلك كان من اللائق أن يُفحش على من تعزّى بذلك دون عزاء الإسلام وهو قولهم: يا للمسلمين، أو التصبُّر عند المصيبة بقوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾.

* * *

ذم الافتخار بالآباء والأنساب

[٣٦٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليَدَعَنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجِعْلان التي تدفع بأنفها النتن»**، وفي رواية: **«والناس بنو آدم وآدم من تراب»**.

رواه أحمد (٢/٣٦١/٣٦٦/٥٢٣)، وأبو داود في الأدب (٥١١٦)، والترمذي في المناقب (٣٧١٦) وهو آخر حديث فيه، وحسّنه وصححه.

وللحديث شواهد بعضها حسنة وصحيحة أشرت إليها في تهذيب الترمذي.

«عبية»: بضم العين وكسرها ثم باء مكسورة مشددة وياء مفتوحة مشددة، هي نخوها وفخرها وكبرياؤها. قوله: «الجعلان» بكسر الجيم، وفي رواية «الجعل» بضم الجيم وفتح العين، هي دويبة سوداء تعتاد تكوير العذرة والنتن ودفعها بأنفها.

وفي الحديث ذم التفاخر بالأنساب ولا سيما إذا كان الآباء كفرة أو فجرة، فالإنسان بإيمانه وطاعته لربه وتقواه وليس بافتخاره وتطاوله على غيره بحسبه ونسبه وماله وجاهه، فالناس كلهم سواء أصالة أبوهم آدم وآدم خلق من تراب، ثم هم متفاوتون فإنهم إما مؤمن بَرٌّ تقي كريم على الله، وإما

فاجر شقي هيّن على الله، ففيمَ التفاخر إذاً وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

[٣٦١] وعن عياض بن حمار رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يبغي أحدٌ على أحد، ولا يفخر أحدٌ على أحد»**.

رواه مسلم في صفة القيامة (١٧/٢٠٠)، وابن ماجه (٤١٧٩) وله شاهد عن أنس رواه ابن ماجه (٤٢١٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٤٣٦) وحسّنه البوصيري في الزوائد.

قوله: «لا يبغي» البغي: هو الظلم والتطاول على الغير والاعتداء عليه، والفخر: التباهي والتمدُّح بالمناقب والمكارم حقاً كانت أم باطلة.

ففي الحديث النهي عن التفاخر والبغي على الغير وكلاهما محرّم.

* * *

الطعن في الأنساب

[٣٦٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اثنان في الناس هما بهم كفر: الطّعن في النسب، والنياحة على الميت»**.

رواه أحمد (٢/٤٩٦)، ومسلم في الإيمان (٢/٥٧) بالنووي.

الطعن في الأنساب عظيم يعتبر قذفاً يطالب الطاعن بشهادته العادلة على ما قال، وإلا جلد حد القذف. ولذلك جعله النبي ﷺ كفراً، وهو وإن لم يرد به الكفر المخرج من الملة إذا لم يعتقد حلية ذلك فذلك عظيم لأنه ليس من أخلاق أهل الإسلام.

وقد جاء في هذا المعنى غير ما حديث.

* * *

❋ النهي عن إدخال الحزن على المسلم

[٣٦٣] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يُحزنه»**.

رواه أحمد (١/٤٦٠/٤٦٢)، والبخاري في الأدب (١٣/٣٢٥/٣٢٦)، ومسلم في آخر السلام (١٤/١٦٨)، وأبو داود في الأدب (٤٨٥١)، والترمذي (٢٦٣٦)، وابن ماجه (٣٧٧٥).

«المناجاة»: المساررة.

قال النووي رحمه الله تعالى: وفي هذه الأحاديث النهي عن تناجي اثنين بحضرة ثالث وكذا ثلاثة وأكثر بحضرة واحد، وهو نهي تحريم فيحرم على الجماعة المناجاة دون واحد منهم إلا أن يأذن، ثم ذكر أن النهي عام في كل الأزمان عند جماهير العلماء غير أن هذا ما لم يختلطوا بالناس ولم يبقَ الواحد منفرداً.

والحكمة في النهي عن ذلك وتحريمه أنه يحزن الثالث وذلك يؤذيه، وإذاية المسلم محرّمة. وانظر الفتح (١٣/٣٢٥) للمزيد.

❋ ❋ ❋

❋ المتشدق في الكلام مبغوض للّه تعالى

[٣٦٤] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل يُبغض البليغ من الرجال الذي يتخلّل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها»**.

رواه أحمد (٢/١٦٥/١٨٧)، وأبو داود في الأدب (٥٠٠٥)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٦٢)، وحسّنه الترمذي، وهو كما قال.

«يتخلل» أي: يدير لسانه حول أسنانه ويتشدق في الكلام.

وفي الحديث ذم البليغ الذي يتظاهر بالفصاحة والبيان ويكثر الثرثرة في كلامه، فإن ذلك أكثره إن لم يكن كله نفاق ورياء وتصنُّع، وذلك إشراك ككثير من الخطباء والمحاضرين والمعجبين بأنفسهم وكلامهم.

وقد يكونون داخلين في الحديث التالي وهو:

[٣٦٥] عن عمر بن سعد ـ يعني ابن أبي وقاص ـ قال: كانت لي حاجة إلى أبي سعد فقدمت بين يدَي حاجتي كلاماً مما يحدث الناس يوصلون لم يكن يسمعه، فلما فرغ قال: يا بني قد فرغت من كلامك؟ قال: نعم، قال: ما كنت من حاجتك أبعد ولا كنت فيك أزهد مني منذ سمعت كلامك هذا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يكون قوم يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقرة من الأرض»**.

رواه أحمد (١/١٧٥/١٧٦/١٨٤) من طرق هو بها حسن.

فهذا الحديث يشير إلى أنه سيكون أقوام يتمعشون بألسنتهم بما أوتوا من فصاحة وبيان، وقد يكون مشيراً إلى من يأكل بالتجسُّس على المسلمين.

[٣٦٦] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«الحياء والعِيُّ شُعبتان من الإيمان، والبذاء والبيان شُعبتان من النفاق»**.

رواه أحمد (٥/٢٦٩) والترمذي في البر والصلة (١٨٧٠) وحسّنه، والحاكم (١/٥٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي. وسنده صحيح رجاله عند الترمذي رجال الصحيح.

قال الترمذي: والعِيُّ قلة الكلام، والبذاء هو الفحش في الكلام، والبيان هو كثرة الكلام مثل هؤلاء الخطباء الذين يخطبون فيتوسعون في الكلام ويتفصّحون فيه من مدح الناس فيما لا يرضي الله.

فالحديث يدل على أن العي بكسر العين وهو قلة الكلام وعدم المبالغة في البيان من خصال الإيمان، بينما البيان والتفصُّح خصلة من النفاق.

* * *

❋ ذم الوقاحة وذهاب الحياء

[٣٦٧] عن أبي مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستحِ فافعل ما شئت»** وفي رواية: **«فاصنع ما شئت»**.

رواه البخاري في الأنبياء وفي الأدب (١٣٩/١٣)، وأبو داود (٤٧٩٧)، وابن ماجه (٤١٨٣).

[٣٦٨] وعن حذيفة بلفظ: **«إن آخر ما تعلق به أهل الجاهلية من كلام النبوة: إذا لم تستحِ فافعل ما شئت»**.

رواه أحمد (٤٠٥/٥) بسند صحيح.

في الحديثين أن الحياء محمود في جميع الشرائع وعند كل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وعلى نبينا وآله، وأنه كان من كلامهم: إذا لم تستحِ... إلخ.

وقد اختلف العلماء في توجيه قوله: **«إذا لم تستحِ فافعل ما شئت»** فقيل: هو أمر تهديد ومعناه إذا نزع منك الحياء فافعلَ ما شئت فإن الله مجازيك عليه، وقيل: هو أمر بمعنى الخبر، أي: مَن لا يستحي يصنع ما أراد. وقال الخطابي: الحكمة في التعبير بلفظ الأمر دون الخبر أن الذي يكف الإنسان عن مواقعة الشر هو الحياء، فإذا تركه صار كالمأمور طبعاً بارتكاب كل شر.

وقال النووي في الأربعين: الأمر فيه للإباحة، أي: إذا أردت فعل شيء فإن كان مما لا تستحي إذا فعلته من الله ولا من الناس فافعله وإلا فلا.

وعلى أيٍّ، فالحياء محمود وهو من الإيمان كما تقدم أول الكتاب من الجزء الأول، وفي حديث أبي أمامة السابق قريباً.

وفقدانه من النفاق، فمَن لا حياء له لا إيمان له، لأن الوقاحة وصفاقة الوجه تتطلب مزاولة كل شر وترك كل خير، والواقع أكبر شاهد على ذلك، والموضوع يحتاج إلى بسط أكثر.

* * *

❋ ذم المدح في الوجه

[٣٦٩] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يُثْني على رجلٍ ويُطريه في المِدحة فقال: «**أهلكتُم ـ أو قطعتُم ـ ظهر الرجل**».

رواه البخاري في الأدب (٨٧/١٣)، ومسلم في الزهد (١٢٧/١٨) وغيرهما.

[٣٧٠] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: مدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ قال: فقال: «**ويحك قطعتَ عُنُقَ صاحبك مراراً، إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة فليقل: أحسبُ فلاناً والله حَسِيبُهُ، ولا أزكي على الله أحداً، أحسبه إن كان يعلم ذلك كذا وكذا**»، وفي رواية: «**إنه كان يُرى أنه كذلك**».

رواه البخاري (٨٧/١٣)، ومسلم (١٢٧/١٢٦/١٨)، وأبو داود في الأدب (٤٨٠٥) وجاء في حديث عند ابن ماجه (٣٧٤٣) بلفظ: «**إياكم والتمادح فإنه الذبح**» وسنده حسن.

قوله: «يطريه» بضم الياء، أي: قد جاوز الحد في المدح. وقوله: «قطعتم ظهر الرجل» وهو معنى قطعت عنق صاحبك وذلك عبارة عن الهلاك. وقوله: «يُرى» بضم الياء، أي: يظن.

ظاهر الحديثين يدل على منع المدح في الوجه لأن ذلك قد يؤدي بالممدوح إلى الإعجاب والتكبر والفخر... وفي ذلك هلاك دينه ولذلك شبّه النبي ﷺ ذلك بقطع عنقه أو ظهره، وأرشدنا ﷺ إلى الطريق الأسلم

وهو أن لا نجزم بما نقول من المدح إذا كنا مادحين ولا بد فنقول: نحسب كذا وكذا ولا نزكي أحداً بعينه لأنه قد يكون له هنات غيبية لا نعرفها.

[٣٧١] وعن أبي معمر قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء فجعل المقداد يَحْثِي عليه التراب وقال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المدّاحين التراب.

رواه مسلم في الزهد (١٢٨/١٢٧/١٨)، وأحمد (٥/٦).

[٣٧٢] وعن همام بن الحارث أن رجلاً جعل يمدح عثمان فعمد المقداد فجثا على ركبتيه، وكان رجلاً ضخماً فجعل يحثو في وجهه الحصباء فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إذا رأيتم المدّاحين فاحثوا في وجوههم التراب**».

رواه أحمد (٥/٦)، ومسلم (١٢٨/١٨)، وأبو داود (٤٨٠٤)، وابن ماجه (٣٧٤٢).

وفي هذين الحديثين إرشاد من النبي ﷺ بأن نقابل مادحنا بحثي وجهه بالتراب، وقد حمله المقداد على ظاهره وهو راوي الحديثين، وقد فعل ذلك مرتين وعمله هذا يرد قول من أول الحديث بما لا يتفق وظاهره.

نعم جاءت أحاديث أخرى كثيرة في الصحيحين وغيرهما فيها المدح من النبي ﷺ ومن غيره. وهي تعارض أحاديث الباب.

قال النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: وطريق الجمع بينها أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف أو على من يُخاف عليه فتنةٌ من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح، وأما من لا يُخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة، بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير والازدياد منه أو الدوام عليه أو الاقتداء به، كان مستحباً.

وقد أطال الحافظ القول في الموضوع فانظره (ج١٣/٨٨) من كتاب الأدب.

* * *

❋ ذم الجدال والمراء بالباطل

[٣٧٣] عن أبي أُمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلا أوتوا الجَدَل**»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

رواه أحمد (٢٥٦/٢٥٢/٥)، والترمذي (٣٠٣٩) بتهذيبي، وابن ماجه (٤٨)، والحاكم (٤٤٧/٢) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم.

«الجدل»: بفتحتين، الخصومة بالباطل.

والحديث يدل على أن من أراد الله به الضلال صرفه إلى كثرة الجدال وكفى بذلك زجراً للمغرمين بالجدال، بل قد يكونون أبغض خلق الله كما في الحديث التالي:

[٣٧٤] وعن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**أبغضُ الرجال إلى الله الألدُّ الخَصِمُ**».

رواه أحمد (٢٠٥/٦٣/٥٥/٦)، والبخاري في التفسير (٢٥٤/٩) وغيره، ومسلم في العلم (٢١٩/١٦)، والترمذي في التفسير (٣٧٨٥)، والنسائي في الكبرى (٣٠١/٦).

«الألد الخصم»: بفتح الخاء وكسر الصاد، وهو الكثير الخصام الشديد في ذلك الذي يغلب غيره في الخصام. فليتباعد المسلم عن كثرة الجدال والخصام خشية أن يصيبه غضب الله تعالى.

هذا ما أردنا ذكره من الآداب والمكارم والمساوىء، بيد أن هناك بعض أحاديث فاتتنا أفردناها عقبه في باب ملحق.





ملحقات واستدراكات

❁ رفع درجة الوالدين باستغفار ولدهما

[٣٧٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الرجلَ لتُرفعُ درجتُه في الجنة فيقول: أنّى هذا، فيقال: باستغفار ولدك لك**».

رواه ابن ماجه (٣٦٦٠) بإسناد صحيح كما قال البوصيري في الزوائد في الحديث فضل من خلف بعده ولداً صالحاً يدعو معه ويستغفر له، وأن الله عزّ وجل يرفع له الدرجات بسبب ذلك، ويكون ذلك من جملة أعماله التي خلفها بعده كما تقدم في حديث مسلم: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث...**» فذكر منهم ولداً صالحاً يدعو له.

❁ ❁ ❁

❁ التنابز بالألقاب

[٣٧٦] عن أبي جَبِيرَةَ بن الضحاك رضي الله تعالى عنه قال: كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة فيدعى ببعضها فعسى أن يكره، قال: ونزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، وفي رواية: وليس أحد منا إلا له لقب أو لقبان، قال: فكان إذا دعي بلقبه قلنا: يا رسول الله إن هذا يكره هذا.

رواه أحمد (٦٩/٤) و(٣٨٠/٥)، وأبو داود (٤٩٦٢)، والنسائي في

الكبرى (٦/٤٦٦) وكذا البخاري في الأدب المفرد (٣٣٠)، وابن حبان بالموارد (١٧٦) ، والحاكم (٢/٤٦٣ و٤/٢٨١/٢٨٢) وحسّنه الترمذي وصححه، ورواه ابن ماجه في الأدب (٣٧٤١) بلفظ قال: فينا نزلت معشر الأنصار: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، قدم علينا رسول الله ﷺ والرجل منا له الاسمان والثلاثة، فكان النبي ﷺ ربما دعاهم ببعض تلك الأسماء فيقال: يا رسول الله إنه يغضب من هذا، فنزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

«التنابز بالألقاب»: التنادي بالأسماء المكروهة للإنسان وذلك محرّم وفسوق بنص الآية الكريمة والنبز هو اللقب بما فيه ذم.

فإذا كان للمسلم لقب يكرهه لا يجوز نداؤه به لأن ذلك يسوءه ويتأذى به.

* * *

❊ اللعب بالحمام

[٣٧٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامة فقال: **«شيطان يتبع شيطانة»**.

رواه أبو داود في الأدب (٤٩٤٠)، وابن ماجه (٣٧٦٥) بسند حسن وهو صحيح لشاهدين له، عن عائشة عند ابن ماجه (٣٧٦٤) بسند صحيح، وعن عثمان عنده أيضاً (٣٧٦٦) ورجاله ثقات ولا يضر انقطاعه.

قوله: «شيطان» سمّى ﷺ كلاً منهما شيطاناً لأن الرجل اللاعب بها غافل بعيد عن الحق مشتغل بما لا يعنيه، أما الحمامة: فلأنها أغفلت الرجل عن الله وشغلته عما يهمه من صلاح دينه ودنياه.

ثم إن الاشتغال باللعب بالحمام ونحوها من اللهو ومن فعل أهل البطالة وكل ما كان من هذا القبيل فهو من وحي الشيطان، وإن كان مباحاً لكنه دناءة وقلة مروءة وقطع الوقت في الباطل.

* * *

❊ عِظَمُ جُرْم الشيخ الزاني والملك الكذاب والعائل المستكبر

[٣٧٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر»**.

رواه مسلم في الإيمان (١١٥/٢)، والنسائي في الكبرى (٢٦٩/٤).

العائل: الفقير.

تخصيص النبي ﷺ هؤلاء الثلاثة بهذا الوعيد لبُعدهم عن هذه المعاصي وضعف دواعيها عندهم وإن كان ذلك محرّماً على كل الناس، فإن الزنا فاحشة عظيمة منكرة لكنها من الشيخ الذي ضعفت لديه دواعيه أعظم وأفحش، والكذب محرّم أشد التحريم على كل الناس لكنه من ذي السلطة أقبح لأن دواعيه فيه مفقودة، والتكبُّر جريمة نكراء لكنه من الفقير أنكر وأشنع لأنه ليس لديه ما يدعوه إلى التكبُّر.

فترتُّب ذلك الوعيد العظيم على هذه الجرائم لأن تعاطيها من هؤلاء فيه نوع من الاستخفاف بحق الله تعالى حفظنا الله عزّ وجل مما يوجب سخطه وغضبه.

❊ ❊ ❊

❊ من الجوامع

[٣٧٩] عن جابر بن سليم قال: رأيت رجلاً يَصْدُرُ الناس عن رأيه لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه. قلت: مَن هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ، قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: **«لا تقل عليك السلام، فإن عليك السلام تحيةُ الميت، قل السلام عليك»** قال: قلت: أنت رسول الله ﷺ؟ قال: **«أنا رسول الله الذي إذا أصابك ضُرٌّ فدعوتَه كشفه عنك، وإن أصابك عامُ سنةٍ فدعوته أنبتها لك، وإذا كنت بأرض قفراء أو**

فلاةٍ فضلّتْ راحلتُك فدعوته ردّها عليك» قلت: اعهد إليّ، قال: **«لا تسُبَّنَّ أحداً»** قال: فما سَبَبْتُ بعده حراً، ولا عبداً، ولا بعيراً، ولا شاةً، قال: **«ولا تحقِّرن شيئاً من المعروف، وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك، إن ذلك من المعروف، وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة، وإن الله لا يحب المخيلة، وإن امرؤ شتمك وعيَّرك بما يعلم فيك فلا تعيِّره بما تعلم فيه فإنما وبال ذلك عليه»**.

رواه أبو داود في اللباس (٤٠٨٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٣٦) وحسّنه وصححه، ورواه أبو داود في الاستئذان (٥٢٠٩)، والنسائي في الكبرى (٨٨/٦) وغيرهما من طريق أبي تميمة الهجيمي.

في هذا الحديث عدة إرشادات ووصايا نبوية هامة.

ففيه أدب من آداب السلام وهو أن لا يبدأ الإنسان السلام على الغير بلفظ منكر: «سلام عليك» بل يأتي به معرّفاً: «السلام عليكم» وقد تقدم هذا في السلام.

وفيه تذكير بأن الله عزّ وجل هو ربنا ومالكنا والقائم بشؤوننا، فهو الذي يكشف ضرّنا، وهو الذي يرزقنا، وهو الذي يفرّج علينا كرباتنا.

وفيه أن المسلم لا ينبغي له أن يستصغر شيئاً من الخير، ومنه لقاء المسلم بانبساط وابتسامة فإن ذلك من جملة المعروف الذي يحتقره الناس.

وفيه أدب من آداب اللباس وهو أن لا يسبل ثيابه إلى ما تحت الكعبين، فإن ذلك من التكبُّر والمخيلة والله لا يحب المختالين، وقد تقدم هذا أيضاً في اللباس.

وفيه الصفح عن الجهلة والإعراض عن سفههم وعدم مقابلتهم بالمثل وأن يتركوا يبوؤون بوبال ما قالوا.

***

❋ كراهة نوم الرجل فوق سطح ليس بمحجور

[٣٨٠] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن ينام الرجل على سطح ليس بمحجور»، وفي رواية: **«مَن بات على ظهر بيت ليس له حِجَارٌ فقدَ بَرِئَتْ منه الذِّمَّةُ»**.

رواه الترمذي في الاستئذان (٢٦٦٥) بتهذيبي، وهو حديث صحيح لشاهد له عن رجل من الصحابة، رواه أحمد (٢٧١/٧٩/٤) بسند صحيح، وعن علي بن شيبان، رواه أبو داود في الأدب (٥٠٤١) بسند لا بأس به في الشواهد.

قوله: «بمحجور» أي: ليس عليه حِجَارٌ وهو ما يُحاطُ عليه من جدار يمنع وقوع الناس منه.

وفي الحديث كراهة نوم الإنسان على سطح ليس له جدار وستر يمنع من السقوط، وظاهر قوله نهى، وبرئت منه الذمة: تحريم ذلك ولم أرَ مَن صرّح بالتحريم.

❋ ❋ ❋

❋ لا تكونوا إمّعة

[٣٨١] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تكونوا إمَّعةً، تقولون إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تُحسِنوا، وإن أساؤوا فلا تَظْلِموا»**.

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٥١)، وابن ماجه (١٤٤٣)، وابن حبان (٧١٢).

والحديث حسن لطرقه ولشاهد له عن أنس رواه البزار وأبو يعلى. قال الحافظ المنذري رحمه الله تعالى في الترغيب بإسناد جيد.

«إمّعة»: بكسر الهمزة وتشديد الميم المفتوحة، هو الذي يتبع كل ناعق ويقلد كل أحد بدون روية ولا برهان. ففي الحديث ذم التقليد الأعمى في الخير والشر، وذلك من شأن ضعاف العقول، وما ضلّ من ضلّ إلا بالتقليد.

* * *

ما جاء في لعن النبي ﷺ غيره وأن ذلك زكاة وأجر وقربة للملعون

[٣٨٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم إني أتخذ عندك عهداً لن تُخْلِفَنِيهِ، فإنما أنا بشر فأي المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة، وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»، وفي رواية: «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر وإني قد اتخذت عندك...» إلخ، وفي رواية: «أن يكون ذلك له زكاةً وأجراً».

رواه البخاري في الدعوات (ج١٣/٤٢٥/٤٢٦)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٥١/١٥٢/١٥٣).

[٣٨٣] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: دخل على رسول الله ﷺ رجلان فكلماه بشيء لا أدري ما هو؟ فأغضباه، فلعنهما وسبّهما، فلما خرجا قلت: يا رسول الله من أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان، قال: «وما ذاك؟» قالت: قلت: لعنتهما وسببتهما، قال: «أوَما علمتِ ما شارطت عليه ربي؟» قلت: «اللهم إنما أنا بشر فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاةً وأجراً».

رواه مسلم (١٦/١٥٠).

[٣٨٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كانت عند أم سُلَيم يتيمة وهي أم أنس، فرأى رسول الله ﷺ اليتيمة فقال: «آنتِ هِيَهْ لقد كَبِرْتِ لا كبر سِنُّكِ» فرجعت اليتيمة إلى أم سليم تبكي، فقالت أم سليم: ما لكِ

يا بُنَيَّةُ؟ قالت الجارية: دعا عليّ رسول الله ﷺ أن لا يكبر سني فالآن لا يكبَرُ سني أبداً ـ أو قالت: قرني ـ فخرجت أم سليم مستعجلة تَلوثُ خِمارها حتى لقيت رسول الله ﷺ فقال لها رسول الله ﷺ: «**ما لكِ يا أم سليم؟**» فقالت: يا نبي الله أدعوتَ على يتيمتي؟ قال: «**وما ذاك يا أم سليم؟**» قالت: زعمتْ أنك دعوتَ أن لا يكبر سنها ولا يكبر قرنها، قال: فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «**يا أم سليم أما تعلمين أن شرطي على ربي أني اشترطت على ربي فقلت: إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر، فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوة ليس لها بأهل، أن يجعلها له طهوراً وزكاةً وقربة يقربه بها منه يوم القيامة**».

رواه أيضاً مسلم (١٦/١٥٤/١٥٥) وعنده نحوه أيضاً عن جابر بن عبدالله.

في هذه الأحاديث فوائد نجملها في الآتي:

أولاً: أن النبي ﷺ كان بشراً من جملة البشر تطرأ عليه جميع الأعراض البشرية وصفاتها، فكان يفرح ويحزن ويضحك ويبكي ويغضب ويرضى ويشتهي النساء ويعجبه حسنهن ويتزوج ويمرض وتصيبه آلام الحياة وأهوالها... حتى توفي وخرجت روحه الطاهرة من جسمه الشريف كما تخرج من سائر البشر.

ثانياً: كان إذا غضب سبّ أو لعن مَن أغضبه، يدل عليه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها ولم يكن هذا منه عادة، بل وقع نادراً لأنه لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، واللعن والشتم فحش.

ثالثاً: فيها أن من لعنه وكان أهلاً لها كانت وبالاً عليه، فإذا لعن شخصاً حسب ما يوجب ذلك منه ظاهراً وكان في الواقع غير مستحق للعن ولا للسب، جعل الله ذلك له أجراً وبركة ورحمة وقربة يقربه الله بها إليه يوم القيامة، وقد جاء في مسند أحمد (٣/١٤١) من حديث أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ دفع إلى حفصة رجلاً لتحفظه ففرّ وهي غافلة فقال لها النبي ﷺ: «**قطع الله يدك**»، فرفعت يديها فدخل عليها فقال: «**ما**

شأنك؟» فقالت: قلت: قبل لي: كذا وكذا، فقال لها: **«ضعي يديك فإني سألت الله عزّ وجل أيما إنسان من أمتي دعوت الله عزّ وجل عليه أن يجعلها له مغفرة»**. وسنده صحيح على شرط مسلم، وما قيل في حسين بن واقد لا يضر هنا.

رابعاً: كان ﷺ قد اتخذ من الله عهداً بذلك والله لا يخلف الميعاد، وهذا من رحمته ﷺ بأمته وشفقته عليهم.

خامساً: هذا الشرط والعهد الذي أخذه على الله هو خاص بالمؤمنين، أما الكفار والمنافقون فخارجون عن ذلك، ولذلك صحّ عنه الدعاء عليهم ولعنه إياهم، وهكذا كل من يستحق اللعنة من الطغاة والظالمين المعتدين والفاسقين المنهمكين.

* * *

الأرواح جنود مجنّدة

[٣٨٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«الأرواح جنود مجنّدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»**.

رواه أحمد (٢/٢٩٥/٥٢٧/٥٣٩)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٨٥)، وأبو داود في الأدب (٤٨٣٤).

وعن عائشة مثله، رواه البخاري.

قوله: «جنود مجنّدة» أي: جموع مجتمعة. قوله: «فما تعارف» أي: عرف بعضهم بعضاً. وقوله: «وما تناكر» هو ضد سابقه. وقوله: «ائتلف» الائتلاف هو التوافق والاختلاف ضده.

ومعنى الحديث: أن أرواح بني آدم بعد خلقها كانت جموعاً مجتمعة في عالم الأرواح منها حزب الله ومنها حزب الشيطان فما تعرف بعضها من بعض قبل حلولها في أجسامها حصل بينهما الألفة والتوافق حال اجتماعهما

بالأجساد في الدنيا، وما وقع بينهما التناكر في عالم الأرواح اختلفا ولم يتوافقا في عالم الأجساد والأشباح.

فما يوجد في هذا العالم من التوافق والائتلاف والتناكر والاختلاف فتجد الطيب الكريم الصالح يميل إلى جنسه ويتفق معه بينما الخبيث السيئ الأخلاق المنحرف لا تراه يصاحب إلا مثيله وجنسه ولا يكاد يأتلف مع الصالح، كل ذلك تابع لما حصل في عالم الأرواح مما سبق به علمُ الله وقضاؤه وقدره لا إله إلا هو يفعل ما يشاء لا يُسأل عما يفعل.

* * *

الولد قرّة العين

[٣٨٦] عن جُبَيْر بن نُفَيْر قال: جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً فمرّ به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاسْتُغضِبَ، فجعلت أعجب، ما قال إلا خيراً، ثم أقبل عليه فقال:

ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضراً غيّبه الله عنه؟ لا يدري لو شهده كيف يكون فيه؟ والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كبّهم الله على مناخرهم في جهنم، لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله عزّ وجل إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم، فتصدقون بما جاء به نبيكم ﷺ؟ قد كُفيتُم البلاء بغيركم، والله لقد بُعِث النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها نبي قط في فترة وجاهلية، ما يرون أن ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل، وفرق به بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده أو ولده كافراً، وقد فتح الله قُفْلَ قلبه بالإيمان ويعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تقرّ عينُه، وهو يعلم أن حبيبه في النار وأنها لَلتي قال الله عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٨٧)، وأحمد (٣/٢/٦)، وابن حبان (١٦٨٤) مع الموارد، وسنده صحيح.

في هذا الأثر عبرة وبشرى لمن ولد في الإسلام لا يعرف ولا يعبد رباً غير الله عزّ وجل، وليحمد الله عزّ وجل ليل نهار على أن خلقه مسلماً وجعل أبويه وأولاده مسلمين تقر بهم عيناه، ولم يجعلهم كفاراً من أهل النار، فالحمد لله على ذلك حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه مباركاً عليه كما يحب ربنا ويرضى.

* * *

من حقوق الجار

[٣٨٧] عن عبدالله بن المُسَاور قال: سمعت ابن عباس يخبر ابن الزبير يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**ليس المؤمن الذي يَشْبَعُ وجاره جائع**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٢)، والحاكم (١٦٧/٤) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقال الحافظان المنذري والهيثمي في المجمع (١٦٧/٨)، رواه الطبراني وأبو يعلى ورجاله ثقات، والحديث صحيح لشواهد له ذكر بعضها المنذري وغيره.

هذا من حقوق الجار وهو أن لا يشبع الإنسان وجاره إلى جانبه جائع لا يجد ما يسد به رمقه، فمن واجب المؤمن أن يتفقد جيرانه ويسأل عن أحوالهم ويواسيهم إذا كانوا محتاجين ضائعين، وفّقنا الله والمسلمين للعمل بذلك.

* * *

وعيد مؤذي جاره

[٣٨٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتصدق، وتؤذي جيرانها

بلسانها، فقال رسول الله ﷺ: **«لا خير فيها، هي من أهل النار»**، قالوا: وفلانة تصلي المكتوبة وتصدق بأثوار، ولا تؤذي أحداً، فقال رسول الله ﷺ: **«هي من أهل الجنة»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (١١٩)، وأحمد (٢/٤٤٠)، وابن حبان (٢٠٥٤)، والحاكم (٤/١٦٦) وسنده صحيح.

في الحديث دليل على أن إذاية الجار وخاصة إذا كان باللسان توجب لصاحبها النار، وإن صلّى وصام وقام الليل وتصدّق مما يدل على أن ذلك عند الله عظيم وإن ظنه الغافلون والجاهلون هيّناً يتساهلون فيه.

كما أن مَن اقتصر على أداء واجبه من الصلاة وغيرها وتصدّق ولو بشيء ضئيل وكان الناس في أمن من إذايته كان من أهل الجنة بفضل الله تعالى.

[٣٨٩] وعن أبي جحيفة رضي الله تعالى عنه قال: شكا رجل إلى النبي ﷺ جاره فقال: **«احمل متاعك فضعه على الطريق فمَن مرّ به يلعنه»** فجعل كل من مرّ به يلعنه، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: ما لقيتُ من الناس؟ فقال: **«إن لعنة الله فوق لعنتهم»** ثم قال للذي شكا: **«كُفيتَ»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (١٢٥) بسند حسن صحيح.

هذا وعيد آخر لمؤذي جاره وهو نزول لعنة الله تعالى عليه، فمَن أوذي من طرف جاره فليعالج ذلك بهذا الدواء النبوي الذي أرشد ذلك الصحابي إليه وهو إخراج متاعه إلى الشارع وإخباره المارّة بما فعله معه جاره.

* * *

تحريم ضرب الوجه

[٣٩٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا ضرب أحدكم فليجتنب الوجه، ولا تقل قبّح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته»**.

رواه أحمد (٢/٢٥١/٤٣٤)، والبخاري في كتاب العتق (١٠٨/٦) من صحيحه، وفي الأدب المفرد (١٧٣)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٦٥/١٦٦)، واللفظ لأحمد وباقيهم رووه مختصراً.

في الحديث تحريم ضرب الوجه لأنه مجمع المحاسن فأقل شيء يشينه، كما أن فيه تحريم السباب بهذه الألفاظ: قبّح الله وجهك... إلخ، فالله تعالى خلق الإنسان في أفضل صورة وأحسن تقويم فكيف تدعو على أخيك بتقبيح وجهه ووجه من أشبه وجهه، فإن هذا السب يشمل حتى وجه أبينا آدم لأنه مخلوق على هذه الصورة الموجودة في بنيه، ولذا ختم الحديث بقوله: «**فإن الله تعالى خلق آدم على صورته**» أي: صورة آدم، فالضمير يعود على آدم، وقد قدّمنا الكلام على هذا في الأبواب السابقة.

* * *

كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته

[٣٩١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، وعبد الرجل** - وفي رواية: والخادم - **راع على مال سيده، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته**».

رواه البخاري في كتاب الجمعة (٣/٣١/٣٢)، ومسلم في الإمارة (١٢/٢١٣)، وأبو داود في الخراج (٢٩٢٨)، والترمذي في الجهاد (١٥٦٤) بتهذيبي.

قال النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: الراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه، وما هو تحت نظره، ففيه أن كل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته.

فالحديث يدل على أن هؤلاء كلهم رعاة، والراعي يجب عليه حفظ ما استرعاه سواء كان رئيس دولة، أو زوجاً ذا أسرة، أو امرأة ذات بعل، أو خادماً لبيت ونحوه، أو ولداً مكلّفاً بمال والده... فالكل راع وهو مسؤول يوم القيامة عن رعيته هل حفظها أم ضيّعها.

وهكذا الإنسان من حيث هو راع على جوارحه التي كلف بحفظها عما حرّم الله تعالى عليه، وسيسأل عنها جارحة جارحة، اللهم عفواً وغفراً.

* * *

❊ ما لا يجوز من المزاح

[٣٩٢] عن يزيد بن سعيد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يأخذ أحدكم متاع صاحبه لاعباً ولا جادًا، فإذا أخذ أحدكم عصا صاحبه فليَرُدّها إليه**».

رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٤١)، وأبو داود في الأدب (٥٠٠٣)، والترمذي في الفتن (١٩٩١) بسند صحيح على شرط مسلم عند الترمذي.

[٣٩٣] وعن عبدالرحمٰن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرون مع النبي ﷺ فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى حبل معه فأخذه ففزع، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ لمسلم أن يُرَوِّعَ مسلماً**».

رواه أبو داود في الأدب (٥٠٠٤)، وأحمد (٣٦٢/٥) بسند حسن صحيح.

«روّع» أي: أفزعه وأزعجه.

[٣٩٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**من أشار على أخيه بحديدة لعنته الملائكة**»، وفي رواية: «**وإن كان أخاه لأبيه وأمه**».

رواه مسلم في البر والصلة (١٦٩/١٦)، والترمذي في الفتن (١٩٩٢).

وفي الحديث الآخر: **«لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار»**.

رواه البخاري (٧٠٧٢)، ومسلم (٢٦١٧) كلاهما عن أبي هريرة عنه ﷺ.

في هذه الأحاديث منع الممازحة التي تؤدي إلى إذاية المسلم وإزعاجه كعادة كثير من الناس في مزاحهم مع الآخرين حتى يُدخلوا عليهم الحزن ويتسببوا في إذايتهم، فقد يكونون ملعونين بلعنة الله من حيث لا يشعرون.

* * *

طيب النفس

[٣٩٥] عن عُبَيْد الجهني رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وعليه أثر غُسْل وهو طيِّبُ النفس، فظننا أنه ألَمّ بأهله، فقلنا: يا رسول الله نراك طيب النفس؟ قال: **«أجل والحمد لله»** ثم ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: **«إنه لا بأس بالغِنى لمن اتقى، والصحة لمن اتقى خيرٌ من الغنى، وطيب النفس من النِّعَم»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٠١)، وابن ماجه في التجارات (٢١٤١) بسند صحيح، كما قال البوصيري في الزوائد.

في الحديث أن الثراء وكثرة المال مع تقوى الله وأداء حقوقه ليس بممنوع ولا بمذموم، فقد قال ﷺ لعمرو بن العاص: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**، لكن هناك ما هو خير من الثراء وهو الصحة والعافية مع تقوى الله تعالى وهو يشير بذلك إلى أن الفقر مع العافية والاستقامة خير للإنسان وأسلم له.

وفيه أن طيب النفس وفرحها وطمأنينتها من نِعَم الله تعالى على

الإنسان، وهذا مما لا يرتاب فيه، بل ذلك من أعظم نِعَم الله علينا والحمد لله.

* * *

❊ من صفات المؤمن والفاجر

[٣٩٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجر خَبٌّ لئيم»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٤١٨)، وأبو داود في الأدب (٤٧٩٠)، والترمذي في البر والصلة (١٨١٠)، وأبو يعلى (٦٠٠٧)، والحاكم (٤٣/١)، وكذا أحمد (٣٩٤/٢) وهو حديث حسن لطريقين له ولذا حسّنه جماعة.

قوله: «غر» بكسر الغين، و«خب» بفتح الخاء وكسرها، ومعناه أن المؤمن من شأنه وأخلاقه الكريمة الاغترار بظواهر الناس وتغاضيه عن الشرور لصفاء باطنه وطهارته، أما الفاجر فهو بخلافه خدّاع ماكر بحّاث عن الشرور مفسِد في الأرض، باطنه خبيث قذر موصوف باللؤم والنذالة.

* * *

❊ من سعادة الإنسان

[٣٩٧] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربعٌ من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربع من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمسكن الضيق، والمركب السوء»**.

رواه ابن حبان (١٢٣٢) مع الموارد بسند صحيح، ورواه أحمد (١٦٨/١) بنحوه، والطبراني والبزار والحاكم كما قال المنذري.

ورواه البخاري في الأدب المفرد (٤٥٧) عن نافع بن عبدالوارث مختصراً.

قوله: «من سعادة» و«من شقاوة» يعني: في الدنيا.

فسعادة الإنسان في هذه الحياة أن تكون له زوجة صالحة تعينه على دينه ودنياه... ومسكن واسع يسعه وأهله وضيفه... وجار صالح يساعده على الخير ويأمن من شره... ومركب هنيء يركبه ويحمل أثقاله إلى حيث شاء بدون عناء ولا إزعاج. أما شقاوة المرء في هذه الدنيا فبالعكس مما ذكرنا بما هو مذكور في الحديث.

* * *

من الكبر والتعاظم

[٣٩٨] عن عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فجاء رجل من أهل البادية عليه جبّة سيجَان مزرورةٌ بالديباج، فقال: **«ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس»** قال: يريد أن يضع كل فارس ابن فارس، ويرفع كل راع ابن راع، قال: فأخذ رسول الله ﷺ بمجامع جبّته وقال: **«ألا أرى عليك لباس من لا يعقل؟»** ثم قال: **«إن نبي الله نوحاً ـ صلّى الله عليه وعلى نبينا وآله وسلّم ـ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاصٌّ عليك الوصية: آمرُك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين: آمرك بلا إلٰه إلا الله فإن السماوات السبع والأرضين السبع، لو وضعت في كفّة، ووضعت لا إلٰه إلا الله في كفّة لرجحت بهن، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع كُنّ حلقةً مُبهمةً لقصمتهُنّ لا إلٰه إلا الله وسبحان الله وبحمده، فإنها صلاةُ كل شيء، وبها يُرزق كل شيء، وأنهاك عن الشرك والكبر»** فقلت: أو قيل: يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه فما الكبر؟ هو أن يكون لأحدنا حلّة يلبسها؟ قال: **«لا»**، قال: فهو أن يكون لأحدنا نعلان حسنان لهما شراكان حسنان؟ قال: **«لا»**، قال: فهو أن يكون

لأحدنا دابة يركبها؟ قال: «لا»، قال: فهو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه؟ قال: «لا»، قال: يا رسول الله فما الكبر؟ قال: **«سَفَهُ الحق وغَمْصُ الناس»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٨)، وأحمد (٢/١٦٩/١٧٠/٢٢٥) وسنده صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (٢٢٠/٤) برواية أحمد والطبراني بنحوه، قال: وزاد في رواية: **«وأوصيك بالتسبيح فإنها عبادة الخلق وبالتكبير»**، ورواه البزار من حديث ابن عمر ورجال أحمد ثقات.

قوله: «مبهمة» أي: مغلقة. قوله: «قصمتهن» أي: كسرتهن. قوله: «سفه الحق» بفتح السين والفاء، أي: جهله وعدم قبوله. وقوله: «غمص الناس» بفتح العين وسكون الميم آخره صاد، وفي رواية مسلم غمط بالطاء، والمراد بذلك احتقار الناس والاستخفاف فيهم والتكبُّر عليهم.

وفي هذا الحديث فوائد:

منها: مشروعية الوصية عند الوفاة وخاصة للأولاد وهي مؤكدة أو واجبة في شرعنا كما قدّمنا في الوصايا.

ومنها: فضل الذكر وبالأخص بالتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير، بل هذا أفضل الأذكار إطلاقاً بعد القرآن الكريم.

ومنها: وجود الميزان يوم القيامة وأنه حق ثابت له كفّتان وهو مذهب أهل السنة خلافاً للمعتزلة ومَن لفّ لفهم من أهل البدع والعقلانيين.

ومنها: أن الأرضين سبعٌ كالسماوات في الخلق والعدد والطبقات وهذا ظاهر القرآن فلا ندعه لنظريات الغربيين وأذنابهم.

ومنها: وهي بيت القصيد أن الكبر هو دفع الحق وعدم قبوله مع احتقار الناس والتعاظم والتكبُّر عليهم. وليس من الكبر التجمُّل بالألبسة الجميلة المباحة أو ركوب السيارات ونحوها أو اتخاذ الأصحاب يجلسون إليه يأنس بهم... فكل هذه الأشياء ليست من الكبر إذا لم يكن فيها تفاخر أو إعجاب أو إسراف وإلا كانت محرّمة تحريماً عارضاً.

[٣٩٩] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«مَن تعظَّمَ في نفسه، أو اختال في مِشْيَتِه، لقي الله عزّ وجل وهو عليه غضبان»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٤٩)، وأحمد (١١٨/٢)، والحاكم (٦٠/١) وسنده صحيح على شرط البخاري، وأورده المنذري في الترغيب، وعزاه لكبير الطبراني وقال: رواته محتج بهم في الصحيح.

وقوله: «تعظم» بفتحات مع تشديد الظاء، أي: تكبّر ورأى نفسه عظيماً فوق الناس. وقوله: «اختال في مشيته» أي: مشى مشية المتكبرين، فالاختيال والخيلاء: الكبر والإعجاب بالنفس.

وفي الحديث زجر بالغ لأولئك المتعاظمين المتكبرين الذين يتعاظمون في أنفسهم ويحتقرون غيرهم وأنهم إن ماتوا بدون توبة من ذلك لقوا الله وهو غاضب عليهم وكفاهم بذلك خسارة.

* * *

❁ مَن برىء من الكِبْر

[٤٠٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما استكبر من أكل معه خادمه، وركب الحمار بالأسواق، واعتقل الشاةَ فحلبها»**.

رواه البخاري في الأدب المفرد (٥٥٠) بسند حسن صحيح.

هذه الخصال لا يتصف بها ويزاولها إلا الطبقة الفقيرة أو القريبة منها، فمَن اتصف بها كان بريئاً من الكبر وذلك أنه لا يتصور من المتكبر الأناني أن يجالس خادمه حتى يأكل معه، ومن المستحيل عادة أن يركب الحمار أو أي مركوب عصري سافل كالدراجة مثلاً أو سيارة قديمة أو رخيصة أو كانت من نوع لا يقتنيه إلا عامة الناس، وهكذا الحال في حلب الشاة، فالمتكبر يستنكف من تعاون أهل الدار ومن يتبعهم من الخدم والرعاء.

* * *

❋ ثلاث لا تُرَد

[٤٠١] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثٌ لا تُرد: الوسائد، والدُّهن، واللَّبَن»**.

رواه الترمذي في الاستئذان رقم (٢٦٠١)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٩٩/١)، والطبراني في الكبير، وسنده حسن.

فيه أن هذه الثلاث إذا عرضت على الإنسان لا يردها وهي: الوسائد، والدهن وهو الطيب واللبن وهو الحليب.

[٤٠٢] وقد جاء في صحيح البخاري وغيره عن أنس قال: إن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب.

[٤٠٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن عُرِض عليه طيبٌ فلا يَرُدَّه فإنه خفيف المحمل طيب الرائحة»**.

رواه مسلم في الأدب (٩/١٤)، وأحمد (٣٢٠/٢)، والنسائي في الكبرى (٤٢٨/٥) إلا أن مسلماً قال: **«ريحان»** بدل **«طيب»**.

والريحان في اللغة كل نبت مشموم طيب الريح، والطيب كل ما له ريح طيبة من أنواع العطورات.

وفي هذا الحديث كسابقَيْه استحباب قبول الطيب وعدم رده لأنه لا كلفة فيه ولا منّة، وهو مع ذلك طيب الرائحة محبوبٌ للنفوس، ولذلك جاء الإسلام بسنيّة استعماله في المجامع العامة كالجُمَع والأعياد والحج... وكان النبي ﷺ يحبه ويُكثر من استعماله.

❋ ❋ ❋

❋ من خصال الخير

[٤٠٤] عن ابن عَمْرو رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أربع إذا كُنّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: صِدْقُ الحديث، وحِفْظُ الأمانة، وحُسْنُ الخُلُقِ، وعِفَّةُ مَطْعَمٍ».

رواه أحمد (١٧٧/٢)، والحاكم (٤/٤/٤)، ومن طريقه البيهقي في شعب الإيمان (٣٢١/٤) وسنده صحيح، وابن لهيعة روى عنه هنا عبدالله بن وهب وحديثه عنه صحيح كباقي العبادلة.

وفي الحديث الترغيب في التخلُّق بهذه الأخلاق المذكورة إذ هي من المكارم وأخلاق الإسلام العامة.

وإلى هنا انتهى بنا الكلام على الآداب والأخلاق وقد تقدم الكثير منها في غضون الكتاب ضمن كتبٍ وأبواب سابقة، وستأتي أخلاق أخرى في الزهد والرقائق إن شاء الله تعالى.

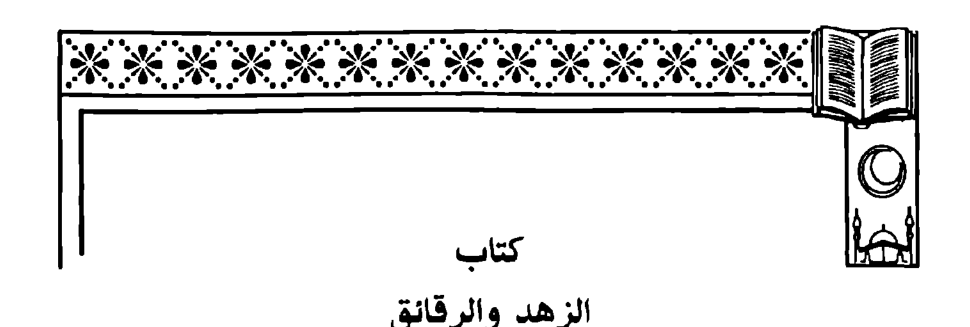
والحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وذريته وزوجاته وأصحابه أبد الآبدين.

في هذه الكتب الثلاثة: الآداب، والأخلاق، والبر والصلة، من الأحاديث الصحيحة الزائدة على الصحيحين نحوٌ من مائة وستين حديثاً.

ويليه كتاب الزهد والرقائق





كتاب
الزهد والرقائق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ،

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه

الحمد للّه ذي العزة والجبروت، والملك والملكوت، خالق الخلائق ومقدّر آجالهم وأرزاقهم، المحيي المميت، الواحد في الذات والأفعال والصفات، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، أول بلا بداية، وآخِر بلا نهاية، هو الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون، كل شيء هالك إلا وجهه.

وصلّ اللهم وسلّم وبارك على أفضل خلقك، وأكرم رسلك، سيدنا محمد القائل: **«اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»** وعلى آله الطيبين الطاهرين، وزوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين، وعلى صحابته وخاصة المهاجرين منهم والأنصار والأكرمين ومن تبعهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد، فهذا هو قسم الزهد والرقائق جعلناه من خواتم الكتاب اقتداءً بأئمتنا الذين حفظوا لنا السنّة المطهرة وجمعوها لنا في دواوين مرتّبة على الكتب والأبواب، فإنهم غالباً ما يذكرون الزهد والرقائق أواخر كتبهم مقرونتين بالفتن وأشراط الساعة كما فعل مسلم في صحيحه، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي في سننهم، ليكون ذلك تفاؤلاً بحُسن خاتمة العمر والرجوع إلى الله تعالى والتأهُب للقاء الله عزّ وجل، ختم الله لنا بالسعادة

والشهادة، آمين.

* * *

ما هو الزهد

اتفقت كلمة أهل اللغة العربية على أن الزهد هو الإعراض عن الشيء وتركه.

وهو في الإسلام ترك الدنيا والإعراض عن زينتها وزخارفها والاشتغال بالله تعالى وما يقرب إليه من خير وعمل.

وإذا رجعنا إلى سيرة نبينا ﷺ وشمائله وسيرة أصحابه وجدناهم على ما ذكرنا من الإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما أقبل عليه مَن جاء بعدهم من لذة، ومال، وجاه... وكان هذا عاماً في الصحابة والسلف الصالح.

غير أن ذلك لا يعني ترك الدنيا مطلقاً، بل لا بد من تعاطي أسباب العيش وتعمير الأرض واستثمارها مع عدم الإخلاد إلى الدنيا والرضاء بها والاطمئنان إليها، بل الهدف والمقصود هو التعلُّق بالله عزّ وجل وعبادته وإخراج من القلب ما سواه من الكائنات.

ولذلك قال بعض الأكابر: اجعل الدنيا في يدك، ولا تجعلها في قلبك فإنها لا تضرك.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال لعمرو بن العاص: **«نعم المال الصالح للرجل الصالح»**.

بمعنى أنه يأخذه من حقه وينفقه فيما جُعل له ولا يُعلّق قلبَه به ولا يُمسِكُه.

وهذه كانت طريقة السلف رضي الله تعالى عنهم. وسيمر بك ما يؤيد هذا من السنة المطهرة وعمل الصحابة...

أما علماؤنا الربانيون رضي الله تعالى عنهم، فقد تكلموا في الزهد ومعناه ومراتبه وذكروا فيه أقوالاً وأفاضوا في ذلك بما لا مزيد عليه، وأشهر من تكلم على ذلك وأفاض أبو حامد الغزالي، وابن الجوزي، وابن قدامة، والإمام القشيري، والسهروردي، وابن القيم رحمهم الله تعالى.

وجعلوا للزهد مراتب، فيه ما هو واجب كالزهد في المحرمات وبعض الشبهات، وما هو مستحب كالزهد فيما زاد على الضروريات من مشتهيات الحياة وفضولها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ومركب... والله المستعان على ذلك فإننا ضعفاء.

* * *

❋ ما هي الرقائق

الرقائق ويقال: رقاق جمع رقيقة وهي كل ما يُحدث في القلب رقة من خشية ووجل وخوف من عذاب الله وسخطه وغضبه، ورجاء رحمته وفضله وإحسانه... وما يحمل على الرجوع إلى الله والتوبة إليه والزهد في الدنيا والعمل للآخرة وما يؤول إلى ذلك.

فمَن قرأ الرقائق ونظر فيها رقّ قلبه ودمعت عيناه، ومَن أعرض عنها وغفل عن النظر فيها أو سماعها قسا قلبه وغلظ واشتد وغطاه الران، فبعُد عن الله عزّ وجل ومات خاسراً عائذاً بالله تعالى.

* * *

❋ لا عيش في الحقيقة إلا عيش الآخرة

[١] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون يحفرون في غداة باردة فلم يكن لهم عبيدٌ يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النَّصَب والجوع قال: «**اللهم إن العيش**

عيشُ الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»، فقالوا مجيبين: نحن اللذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً.

وفي رواية: **«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة»**، وفي رواية: **«فأصلِح الأنصار»**، وفي أخرى: **«فأكرِم»**... إلخ.

رواه أحمد (٣/٢٧٢/٢٧٦)، والبخاري في المناقب (٨/١١٩)، وفي المغازي (٨/٣٩٨)، وفي الرقاق (٥/١٤)، ومسلم في الجهاد (١٢/١٧٢/١٧٣) وغيرهم، وجاء أيضاً من حديث سهل بن سعد بنحو ذلك، فقوله ﷺ: **«لا عيش إلا عيش الآخرة»** تزهيد منه في هذه الحياة وترغيب لهم في العمل للآخرة، وأن الحياة الحقيقية التي لا حياة فوقها ولا نهاية لها هي حياة الدار الآخرة وهذا موافق لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: لهي الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص، أما الدنيا فقال فيها أول الآية: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ أي: ما هي إلا غرور ينقضي سريعاً ويزول كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون.

وقال تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وقال: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾، وقال لنبيه ﷺ محذراً له من فتنة الحياة وزخارفها: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

ومعنى الآية الكريمة: لا تنظر يا نبيي إلى ما متّعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها الخادع وزينتها لنبتليهم في ذلك.

فمن القطعيات البديهية التي لا يجادل فيها من في قلبه نور الإيمان، أن الحياة إنما هي حياة الآخرة وأن الدنيا ما هي إلا كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، وقال عز وجل: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾، وقال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

فالعاقل هو الذي يؤثِر حياة الآخرة وطيبها على الحياة الدنيا ورغد

عيشها، لكن الإنسان يفتتن بزهرتها ونضارتها فيركن إليها ويذهل عن الآخرة لما طبع عليه من حب الشهوات كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ ولذلك اقتضت حكمة الله تعالى ردع عباده عن الاسترسال في شهوات هذه الحياة وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم فأكثر من ذم الدنيا وعيبها وشرح حالها وسرعة زوالها والمقارنة بينها وبين الآخرة.

* * *

المحافظة على الوقت واغتنام العمر

[٢] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«نِعْمتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس: الصحة والفراغ»**.

رواه أحمد (٢٨٥/٣٤٤/١)، والبخاري في الرقاق (٤/٣/١٤)، والترمذي (٢١٢٦)، وابن ماجه (٤١٧٠) كلاهما في الزهد.

«مغبون»: الغبن بفتح الغين وسكون الباء، المخادعة في البيع ونقص ثمن السلعة.

فالصحة والفراغ نعمتان عظيمتان من الله عزّ وجل سيُسأل عنهما العبد يوم القيامة مع سائر النِعَم الأخرى التي تتوارد عليه طول حياته، فإن قام بحق الله فيها وشكره عليها ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بالله والطاعة والاستقامة كان من الفائزين السعداء، وإن قصر في ذلك ولم يقم بحق الله فيها كان خاسراً مغبوناً ومخدوعاً في تجارته. وما أكثر هذا الصنف من البشر فإن أغلبهم لا ينتفعون بصحتهم وفراغهم فهم مغبونون خاسرون وسيأتون كذلك يوم التغابن.

[٣] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكِبَيّ فقال: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»**،

وفي رواية: «**وعد نفسك من أهل القبور**» وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.

رواه أحمد (٢/٢٤/٤١)، والبخاري في الرقاق (٩/٨/١٤)، والترمذي (٢١٥٣) وابن ماجه (٤١٤٤) كلاهما في الزهد، والرواية الثانية وهي: «**وعد نفسك من أهل القبور**» لم يروها البخاري.

فهذه وصية من النبي ﷺ لابن عمر ثم لسائر مسلمي الأمة حيث أوصاه بالإعراض عن الحياة والإقبال على ما يهمه من أمور الآخرة، وأن لا يركن إلى زخارف الدنيا ونضارتها وبهجتها، وأن يكون في حالته كالغريب المستوحش من الناس الذي لا يكاد يستأنس بأحد، أو كعابر سبيل يريد بلداً شاسعاً فهو لا يقيم بمكان، ولا يحمل معه من الزاد سوى ما يحتاجه في عبوره.

وقد علّق النووي رحمه الله تعالى على هذا الحديث بكلام موجز جامع فقال: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بالبقاء فيها والتعلُّق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه.

وقال الحافظ رحمه الله تعالى نقلاً عن ابن بطال رحمه الله تعالى: وفي ذلك إشارة إلى إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر إلى أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل.

ومعنى كلام ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: اقصر أملك عن طول الحياة، فإذا جاءك الليل فاجتهد فيه واعمل عمل من لا يرجو البقاء إلى الصباح، وإذا أقبل الصباح فكن في يومك كأنك ستموت قبل أن تمسي، وانتهز الفُرَص، واعمل لآخرتك في جميع أحوال حياتك. وكلامه هذا مقتضب من الحديث التالي وهو:

[٤] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال لرجل وهو يعظه: «**اغتنِم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل**

سُقْمِك، وفراغك قبل شُغْلك، وشبابك قبل هرمك، وغِناك قبل فقرك».

رواه الحاكم (٣٠٦/٤) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

ورواه أحمد وابن المبارك كلاهما في الزهد، والخطيب في اقتضاء العلم العمل (١٧٠) عن عمرو بن ميمون مرسلاً وسنده حسن لوجود جعفر بن برقان، وهو صدوق يهم كما في التقريب للحافظ.

قوله: «وهو يعظه» أي: يذكره بما يرقق قلبه.

فهذه إرشادات نبوية ذكّرنا بها النبي ﷺ بواسطة ذلك الرجل فأمرنا أن نجتهد ونجعل اكتساب الأعمال الصالحة في هذه الحياة غنيمة ندخرها لآخرتنا، وذلك بمراعاة مجموعة من النِعَم الإمدادية التي تتوارد على الإنسان، وتتعاقب عليه ما دام في هذه الحياة، لا تنفك عنه بحال، وهي: الحياة، والصحة، والفراغ، والشباب، والغنى، ويقابلها أضدادها الخمس وهي من طوارىء الحياة وبلاياها اللازمة للإنسان، وهي: الموت، والسقم، والشغل، والهرم، فالعاقل الكيِّسُ هو الذي يغتنم التقرُّب إلى الله بأنواع الخير والبر في الخمس الأولى قبل فواتها وهجوم الخمس الثانية عليه، فإنها إذا نزلت به لا يستطيع معها أي عمل ينفعه في آخرته... لكن الإنسان لا يعرف مزايا هذه النِعَم الخمس وخيرها وفضلها حتى يفقدها وتحل محلها أضدادها.

وقد كان المسلمون الأولون على جانب عظيم من المحافظة على أوقاتهم والضن بها. ومن رجع إلى تراجم أعلام الأمة وعلمائها وعبادها رأى من ذلك العجب، وفي هذا ورد عنهم حِكَم وأقوال كقول الإمام علي عليه السلام: **«ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل».**

ذكره البخاري في الرقاق (١١/١٠/١٤) معلّقاً بصيغة الجزم وهو قطعة من حديث جاء عنه مرفوعاً وموقوفاً رواه ابن أبي الدنيا في الزهد، وأبو نعيم في الحلية.

وكتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنهما: يا أخي اغتنم صحتك وفراغك من قبل أن ينزل بك من البلاء ما لا يستطيع أحد من الناس رده عليك.

ذكره الخطيب بسنده في «اقتضاء العلم العمل».

وذلك لأن كل يوم يمضي، وكل ساعة تنقضي، وكل لحظة تمر ليس في مقدور أحد استعادتها والعمل فيها بحال، فأحرى أن تصرف ما ينزل بك من البلاء...

وجاء عن الحسن البصري رحمه الله تعالى أنه قال: **ما من يوم ينشق فجره إلا وينادي مناد يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوّد مني، فإني إذا مضيت لا أعود إلى يوم القيامة**. وقال: **أدركت أقواماً كانوا على أوقاتهم أشد منكم حرصاً على دراهمكم ودنانيركم**.

وكان السلف يقولون: من علامة المقت إضاعة الوقت. ويقولون: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك. وقال بعضهم: مَن كان يومه كأمسه فهو مغبون، ومَن كان يومه شراً من أمسه فهو ملعون.

وقال أحمد بن أيوب أحد شيوخ البخاري رحمهما الله تعالى:

اغتنِمْ في الفراغِ فضلَ ركوعٍ فعسى أنْ يكونَ موتُكَ بَغْتَهْ
كَمْ صحيحٍ رأيتَ من غيرِ سُقْمٍ ذَهَبَتْ نفسُه الصحيحة فَلْتَهْ

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى ورضي عنه:

إنّ لِلّهِ عباداً فُطَنَا طَلّقوا الدنيا وخافوا الفِتَنَا
نظروا فيهَا فلمّا عَلِمُوا أنّها ليست لِحَيٍّ وطَنَا
جعلوها لُجّةً واتخذوا صالحَ الأعمال فيها سُفُنَا

وكلامهم في هذا كثير جداً، والمقصود أن الخاسر المغبون في آخرته هو الذي له فضل فراغ وصحة جسم وما يكفيه من قوت ولم يداهمه هرمٌ ولا خرفٌ، ثم لا يقدم لنفسه ما ينفعُه في آخرته بل يقتل وقته الغالي في

السفاسف والفضول، ويضيع حياته الذهبية في اللغو واللهو وقيل وقال، وقد أجاد العارف ابن عطاء الله رحمه الله تعالى ورضي عنه في حكمه حيث قال: «الخِذلانُ كُلُّ الخِذلانِ أن تتفرَّغَ من الشواغل ثم لا تتوجه إليه» يعني الله تعالى، فحياتك أيها الإنسان نعمة من الله تعالى عليك وتسخير منه لك كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

* * *

❊ نعمة طول العمر

[٥] عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: **«مَن طال عمره وحسُن عمله»**، قال: أي الناس شر؟ قال: **«مَن طال عمره وساء عمله»**.

رواه أحمد (٥/٤٣/٤٤)، والترمذي (٢١٥٠) بتهذيبي، والدارمي (٢٧٤٥/٢٧٤٦)، والحاكم (١/٣٣٩) وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه وابن جدعان. روى عنه شعبة قبل الاختلاط ويؤيده حديث عبدالله بن بسر عند أحمد (٤/١٨٨/١٩٠)، والترمذي (٢١٤٩) بسند حسن بالشطر الأول.

فطول العمر من نِعَم الله العظيمة على العبد، إذ بطول العمر يزداد أجراً بازدياد الطاعات... فيكون خير الناس من طال عمره وحسن عمله فيصبح من الأكياس الأبرار، فإذا عكس فأفنى عمره في الآثام والشهوات... كان من المفلسين الأشرار، وعليه فلا معنى لاستعجال الموت وطلبه بسبب ما يطرأ على الإنسان من مصائب الحياة وبلايا الدنيا، ولذلك نهى النبي ﷺ عن تمنّي الموت.

[٦] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يتمنين أحدكم الموت إما محسناً فلعله يزداد، وإما مُسيئاً فلعله يَسْتَعْتِب»**.

رواه أحمد (٣٠٩/٢٦٣/٢)، والبخاري في الطب والمرض (٢٣٥/٢٣٤/١٢)، وفي التمنّي (٣٥٠/٣٤٩).

«يستعتب» أي: يطلب من الله رفع العتاب وذلك يكون بالتوبة.

وفي رواية: «**لا يتمنين أحدكم الموت ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً**».

رواه أحمد (٣٥٠/٣١٦/٢)، ومسلم.

[٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدكم الموت لِضُرٍّ نزل به، فإن كان لا بد متمنّياً فليقل: اللهم أحيِني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي**».

رواه أحمد (٢٤٧/٣)، والبخاري في الطب والمرض (٢٣٢/١٢)، وفي الدعوات (٤٠١/١٣)، ومسلم في الذكر والدعاء (٨/٧/١٧)، وأبو داود (٣١٠٩/٣١٠٨) والترمذي (٨٦٥) والنسائي (٣/٤) في الجنائز.

فحياة المسلم لها خير كبير، فمَن وُفِّق لطاعة الله وصالح الأعمال كانت حياته زاخرة بالقربات وأجورها وخاصة الأعمال العظيمة في الإسلام التي لها أهمية عظمى كالصلاة مثلاً، والصيام، والصدقة، والحج والعمرة، والجهاد في سبيل الله، وبِر الوالدين، وتلاوة القرآن، وذكر الله عزّ وجل المتوالي ليل نهار، والصلاة على النبي ﷺ التي لا يخلو منها وقت، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله بجميع وسائلها، وتعليم المسلمين ما يهمهم من العلوم الدينية النافعة ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل، وتحفيظ القرآن الأطفال، والسعي في مصالح المسلمين وقضاء حوائجهم، والتفريج عن المكروبين، ونصر المظلومين، وإدخال السرور على المحزونين، إلى غير ذلك من الأعمال العظيمة التي يتعاطاها المؤمن في حياته، بل مجرد الحياة مع الإيمان وحده لا يعد لها شيء إذ هو أفضل الأعمال فكيف إذا أضيف إليه غيره من أنواع القربات، فحياة المؤمن والحمد لله كلها خير. ولذا جاء في حديث: «**ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يُعَمَّر في الإسلام لتسبيحه وتهليله**».

رواه أحمد (١٦٣/١) عن عبدالله بن شداد مرسلاً بسند صحيح.

فكيف مع هذا الخير العظيم يتمنى المسلم الموت ويستعجله، نعم، له أن يدعو به مع التفويض كما في حديث أنس: **«وتوفّني إذا كانت الوفاة خيراً لي»**، وكما جاء في حديث: **«وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»**.

رواه أحمد والترمذي والحاكم بسند صحيح وتقدم في تفسير سورة ص مطولاً.

قال النووي على حديث أنس: فيه التصريح بكراهة تمنّي الموت لضر نزل به من مرض، أو فاقة، أو محنة من عدو، أو نحو ذلك من مشاق الدنيا، فأما إذا خاف ضرراً في دينه أو فتنة فيه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره، وقد فعل هذا الثاني خلائق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم، قال: وفيه أنه إن خالف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه فليقل: اللهم أحيِني إن كانت الحياة خيراً لي... إلخ، والأفضل الصبر والسكون للقضاء.

شرح مسلم (٨/٧/١٧).

* * *

❁ الإنسان والأمل وحب الحياة

[٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: خطّ النبي ﷺ خطوطاً فقال: **«هذا الأمل وهذا أجله فبينما هو كذلك إذ جاءه الخط الأقرب»**، وفي رواية: **«هذا ابن آدم وهذا أجله»** فوضع يده عند قفاه ثم بسطها، فقال: **«وثَمّ أجلُه وثَمّ أجلُه»**.

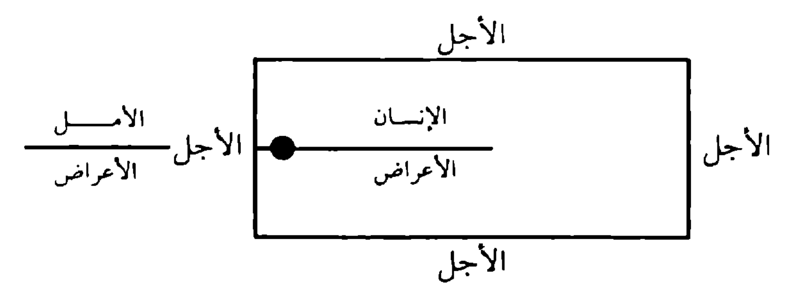
رواه البخاري في الرقاق (١٣/١٤) باللفظ الأول، أما الرواية الثانية فأخرجها أحمد (٢٥٧/٣)، والترمذي (٢١٥٤)، وابن ماجه (٤٢٣٢) كلاهما في الزهد، وابن حبان (٢٥٥٤) بالموارد وسنده صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه.

[٩] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: خطّ النبي ﷺ خطًا مُربّعاً، وخطّ خطًا في الوسط خارجاً، وخطّ خطوطاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط فقال: **«هذا الإنسانُ، وهذا أجلُه محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطوط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٢/١١/١٤)، والترمذي في القيامة (٢٢٧٥) بتهذيبي، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣١).

قوله: «الأعراض» يعني هنا كل ما يعرض للإنسان من حوادث وأمراض تنهشه. وقوله: «نَهَشه» أي: أصابه، وأصل النهش لدغ كل ذي سم، وعبّر بذلك مبالغة في الإهلاك.

ومعنى هذا الحديث وسابقه أن أجل الإنسان أقرب إليه من الآمال التي يتمناها ويدبّر أمرها ليل نهار رغم ما يطرأ عليه من الآفات وينهشه من الأعراض وبرسم هذا المثال المذكور يتضح معنى الحديث وما قبله جلياً وهو:



فقوله في الحديث: «هذا الإنسان» يشير إلى النقطة الداخلة عند الخط الداخلي. وبقوله: «وهذا أجلُه محيطٌ به» يشير إلى الخط المربّع المستوي الزوايا. وبقوله: «وهذا الذي هو خارج أملُه» يشير إلى الخط الخارجي عن المربع. وبقوله: «وهذه الخطوط الصغار» يشير بها إلى ما خطّ تحت الخط الطويل الداخلي والخارجي.

فهذا مثَل ضربه النبي ﷺ للإنسان وأجله وأمله والآفات والأعراض

الطارئة عليه في حياته، فإنه إن سلم من هذا لم يسلم من ذاك، وإن سلم من الجميع ولم تصبه آفة من مرض، أو فقد مال أو أهل أو أي بلية... بغتَه أجله أو وقع في الهرم ثم وافاه الموت.

[١٠] كما قال ﷺ: **«مُثّلَ ابنُ آدم وإلى جنبه تسعةٌ وتسعون مَنِيَّة، إن أخطأته المنايا وقع في الهَرَم حتى يموت»**.

رواه الترمذي في القدر (١٩٨٢)، وفي أبواب القيامة والزهد (٢٢٧٧) وحسّنه هنا وصحّحه.

قوله: «منية» بفتح الميم وكسر النون ثم ياء مشددة مفتوحة هي البلية المهلكة، وبذلك سمي الموت. وقوله «إن أخطأته المنايا» أي: جاوزته أسباب الموت من مرض، وجوع، وغرق، وحرق، وحرب... ولم يُصَب بإحدى ذلك وقع في الكِبَر والشيخوخة والهرم حتى يوافيه أجله المحتوم.

فالإنسان في هذه الحياة لا يخلو من البلايا والمهالك وأسباب الموت وهي المعبَّر عنها بالمنايا، فإن نجا منها في حياته الطويلة وذلك نادر وقع في الداء الذي لا دواء له وهو نهاية الكبر من الهرم والخَرف والضعف، ثم يأتي بعده الموت وهو الداء الذي أعيا الإنسان من يوم خلقه الله تعالى.

[١١] كما قال ﷺ: **«تداووا عباد الله، فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواءً غيرَ داءٍ واحد، إلا الموت والهرم»**.

رواه أحمد (٣٧٨/٤)، والبخاري في الأدب المفرد، وأبو داود (٣٨٥٥)، والترمذي (١٨٨١)، والنسائي في الكبرى، وابن ماجه (٣٤٣٦) وحسّنه الترمذي وصححه، وهو عند بعضهم بالاقتصار على الهرم وهو من حديث أسامة بن شريك.

والمقصود أن المثالين السابقين فيهما إرشاد إلى قصر الأمل، وهو أن يكون المسلم دائم النظر إلى قرب أجله، وأن لا يكون حريصاً على طول الحياة والبقاء فيها والشغف بالأماني الباطلة وكثرة التدبير فيما لا يكون غالباً، فإن ذلك من موجبات الغفلة وأسباب الحسرات، وليحذر أن يكون

ممن يشملهم قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾.

ومع كون طول الأمل مذموماً شرعاً فالإنسان من طبيعته كلما تقدم به السِّن ازداد أملاً وحباً للمال وحرصاً على الحياة إلا مَن شاء الله، وهذا ما جاء في الحديث التالي:

[١٢] فعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يَهرم ابنُ آدم ويشِبُّ معه اثنان: الحرص على العمر، والحرص على المال**»، وفي رواية: «**يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال وطول العمر**».

رواه أحمد (٣/١٩٢/٢٥٦/٢٧٥)، والبخاري في الرقاق (١٤/١٥/١٦)، ومسلم في الزكاة (٧/١٣٨)، والترمذي في الزهد (٢١٥٩)، وفي صفة جهنم (٢٢٧٦)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٣٤).

[١٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى أن رسول الله ﷺ قال: «**قلب الشيخ شابٌّ على حب اثنتين: طول الحياة، وحب المال**».

وفي رواية: «**لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل**».

رواه البخاري في الرقاق باللفظ الثاني (١٤/١٥)، ومسلم في الزكاة (٧/١٣٨)، والترمذي (٢١٥٨) في الزهد بالرواية الأولى، ورواه ابن ماجه في الزهد أيضاً (٤٢٣٣)، والحاكم (٤/٣٢٨) وجعله البوصيري من الزوائد، والحاكم من المستدركات وليس كذلك.

قوله: «يَهرمُ» أي: يكبر ويضعف كما في الرواية الثانية. وقوله: «ويشب» بفتح الياء وكسر الشين، أي: يقوى ويعظم. وقوله: «شابٌّ» على صيغة اسم الفاعل أي: قويٌّ نَشِط. و«الحرص» بكسر الحاء وسكون الراء: الرغبة في الشيء مع محبته.

فابن آدم مفطور ومجبول على حب طول العمر والبقاء مع حب المال والرغبة فيه حتى إنه لشدة حرصه على المال والحياة لا يزيده تقدم السن

وكثرة المال إلا طمعاً في زيادة أكثر، ويود لو يعمر ألوفاً من السنين، وأن تكون له أودية من الذهب...

وهذا الحرص على طول العمر... مذموم إذا كان بقصد قضاء الشهوات والاسترسال في اتباع الملذات المحرمات، أما إذا كان بقصد الزيادة في البر والخير والرجوع إلى الله تعالى فلا يذم، وكذا إذا كان من العالم المتعدي نفعه فقد قال ابن الجوزي: الأمل مذموم للناس إلا للعلماء، فلولا أملهم لما صنّفوا ولا ألّفوا.

[١٤] وعن ابن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: مرّ عليّ رسول الله ﷺ ونحن نعالج خُصّاً لنا، فقال: «**ما هذا؟**» فقلنا: وَهَى فنحن نصْلِحُه، فقال: «**ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك**».

وفي رواية: مرّ بي رسول الله ﷺ وأنا أُطَيِّنُ حائطاً لي أنا وأمي فقال: «**ما هذا يا عبدالله؟**» فقلت: يا رسول الله شيء أُصْلِحُه، فقال: «**الأمر أسرع من ذلك**».

رواه أحمد (١٦١/٢)، وأبو داود (٥٢٣٥/٥٢٣٦) في الأدب، والترمذي (٢١٥٥)، وابن ماجه (٤١٦٠) كلاهما في الزهد، وابن حبان بالموارد (٢٥٥٥/٢٥٥٦)، والروايتان لأبي داود، وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: «نعالج» أي: نزاول. وقوله «خصًا لنا» هو بضم الخاء: البيت من قصب. وقوله: «وهى» بفتح الهاء وكسرها، أي: بلي وضعف أو تخرّق. وقوله: «الأمر أسرع أو أعجل من ذلك» ومعناه: ما أظن نزول الموت بكم إلا أسرع من خراب هذا البيت فكيف تعمل في إصلاحه وقد يفاجئك الأجل قبل ذلك فلأن تسعى في إصلاح عملك أوْلى وأجدر من إصلاح بيتك. ففيه الحض على قصر الأمل، والتزهيد في طول البقاء، وهذا لا يعني ترك تعاطي أسباب الحياة من مسكن ومأكل ومشرب وملبس، بل ذلك منه ﷺ تذكير فقط، وإيقاظ الغافلين.

* * *

❋ لا عذر لأبناء الستين فما فوق

[١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: **«أعْذَرَ اللَّهُ إلى امرىء أخَّر أجله حتى بلغ ستين سنة»**، وفي رواية: **«لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين سنة، لقد أعذر الله إليه»**.

رواه أحمد (٢/٢٧٥/٣٢٠/٤١٧)، والبخاري في الرقاق (١٤/١٤).

«أعذر الله»: الإعذار إزالة العذر، والمعنى أنه لم يبقَ له اعتذار كأن يقول: لو مدّ لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال: أعذر إليه إذا بلغه أقصى الغاية في العذر ومكّنه منه، وإذا لم يكن له عذر في ترك الطاعة مع تمكنه منها بالعمر الذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ إلا الاستغفار والطاعة والإقبال على الآخرة بالكلية. أفاده الحافظ في الفتح. وقوله: «أخّر أجله» أي: أطاله.

فمَن بلغ إلى هذا السن من العمر وهي الستون سنة لم يترك الله تعالى للعبد سبباً في الاعتذار، لأن هذا السن هو معترك المنايا غالباً وسن الإنابة والرجوع إلى الله عزّ وجل وترقُّب الموت، فلا ينبغي له حينئذ إلا التوجه إلى الله بكليته والإقبال عليه والمبادرة إلى كل ما يقرب إليه والإكثار من تلاوة القرآن الكريم والاستغفار وذكر الله ودعائه والصلاة على حبيبه ﷺ.

فما بقي له بعد هذا السن إلا انتظار الموت ولقاء الله عزّ وجل كما دلّ عليه الحديث التالي:

❋ ❋ ❋

❋ اعمار هذه الأمة ما بين الستين والسبعين

[١٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢١٥١)، وفي الدعوات (٣٣١٧)، وابن ماجه في الزهد أيضاً (٤٢٣٦) وسنده صحيح وله شاهد عن أنس.

رواه أبو يعلى بسند صحيح.

الحديث يفيد أن أعمار هذه الأمة تنقضي في هذا العقد وهو ما بين الستين والسبعين، وهذا من باب الغالب فإنه هناك من يعمر فيجاوز الثمانين والتسعين إلى المائة فما وراءها لكن ذلك قلة. متّعنا الله بحياتنا في طاعته، آمين.

فالمسلم الذي متّعه الله تعالى بمجاوزة الستين والسبعين ينبغي له أن يزداد تيقُّظاً واستعداداً للموت.

وقد ذكر غير واحد من المؤرخين أنه كان ببغداد عالِم يدرس اثنتي عشرة مادة من مختلف الفنون العلمية، فخرج يوماً لشأن له فسمع شاعراً ماجناً يقول:

إذَا العِشرونَ من شعبان ولَّتْ ... فواصِلْ شُرْبَ ليلِكَ بالنهارِ
ولا تشرَبْ بأقداحٍ صغارٍ ... فقدْ ضاقَ الزّمانُ عن الصغارِ

فخرج هائماً على وجهه إلى مكة المكرمة، فلم يزل بها يتعبّد الله تعالى حتى وافاه أجله. لقد أيقظه ذلك الماجن الذي ضاق وقته عن الشرب من صغار الأواني بقدوم رمضان.

فهكذا من تقدم سنُّه وأشرف على الرحيل لم يبقَ له وقت يدرس فيه العلوم الإضافية أو يكتب فيها وما أكثرها، بل ينبغي له أن يشتغل بما هو أهم من ذلك ويجاهد نفسه في الإخلاص للّه عزّ وجل فإن أكثر المشتغلين بالعلم لا إخلاص عندهم.

* * *

❋ الدنيا سجن المؤمن

[١٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر»**.

رواه أحمد (٢/٣٢٣/٣٨٩/٤٨٥)، ومسلم (١٨/٩٣)، والترمذي (٢١٤٤)، وابن ماجه (٤١١٣)، كلهم في الزهد، وابن حبان بالموارد (٢٤٨٨).

قوله: «الدنيا» مأخوذ من الدنو وهو القرب لقربها من الآخرة، أو من الدناءة والخِسّة وسقوط القيمة لما يحدث فيها من الشرك والكفر بالله والفسوق والفجور، فكانت لذلك دنيئة.

وكانت الدنيا سجن المؤمن لأن المسجون يكون فاقد الحرية، والمؤمن في الدنيا مأمور بالتكاليف والأوامر والنواهي الشرعية، فهي تحد من حريته الطبيعية، فحيثما اتجه وجد القيود التي تمنعه من تعاطي ما تشتهيه نفسه من المحرمات أو ترك الواجبات، فحياته منظّمة محدودة مع رقابة عليه، فكان بهذا الاعتبار كالمسجون وسط هذه الدائرة، وهذا بخلاف الكافر، فحبله على غاربه يرتع في الملذات والشهوات دون قيد ولا حدود، يفعل ما يريد ويترك ما يشاء فيوشك أن يصير إلى سجن القبر، فسجن البرزخ فسجن الجحيم حيث تتضاءل دونه كل السجون.

أما المؤمن فسوف يطلق سراحه ويستريح من هَم الدنيا وبلاياها، ويُكافأ على ما كان فيه من سجن بفضاء فسيح ونعيم وسعادة.

* * *

❁ طرق الجنة والنار

[١٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حُفَّت الجنةُ بالمكاره، وحُفَّت النارُ بالشهوات»**، وفي رواية **«حُجِبَت»**.

زواه أحمد (٢/٣٨٠)، والبخاري في الرقاق (١٤/١٠٢)، ومسلم في أول كتاب الجنة (١٧/١٦٥)، والترمذي في الزهد (٢٣٧٦)، والدارمي في الرقاق (٢٨٤٦).

قوله: «حُفَّت» هو معنى حُجِبَتْ، أي: أُحيطت.

يعني أن كلاً من الجنة والنار محاط ومحفوف بما يناسبه، فالجنة محاطة بالتكاليف والمشاق التي تكرهها النفس فلا يوصل إليها إلا باقتحام المكاره بالمحافظة على العبادات والمواظبة عليها والوقوف مع ما شرعه الله تعالى مع الصبر على مشاق ذلك، وكظم الغيظ، والعفو، والحلم، والصدقة، والإحسان إلى المسيء والصبر عن الشهوات التي حرّمها الله عزّ وجل وعلى المصائب والبلايا والتسليم لأوامر الله تعالى ونحو ذلك.

وهكذا النار محجوبة ومحفوفة بالشهوات التي حرّم الله مقارفتها وذلك كالقتل مثلاً والزنا، وشرب الخمر، والكذب، والخيانة، والدياثة، والظلم، والربا، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، والغيبة، والنميمة، والمكس، والنظر إلى المحرمات... ونحو ذلك من الشهوات المحظورة.

ولهذا الحديث سبب يتضح بالحديث التالي:

[١٩] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل عليه السلام إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعِزّتك لا يسمعُ بها أحدٌ إلا دخلها، فأمر بها فحُجِبَتْ بالمكاره، قال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، قال: فرجع إليها وإذا هي قد حُجبتْ بالمكاره فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحدٌ، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: فوَعزتك لقد خشيت أن لا يسمع بها أحدٌ فيدخلها، فأمر بها فحُفّت بالشهوات فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحدٌ إلا دخلها»**.

رواه أحمد (٢/٣٣٢/٣٣٣)، وأبو داود في كتاب السنة (٤٧٤٤)، والنسائي في الأيمان والنذور (٧/٣/٤)، والترمذي في أبواب صفة الجنة (٢٣٧٧)، والحاكم (١/٣٧)، وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: «يَركبُ بعضُها» أي: يعلو بعضها بعضاً لشدة اندلاعها واشتعالها.

فالنجاة النجاة عباد الله فعلينا بالوقوف عند الأمر والنهي، والصبر على المكاره، وعن الشهوات والتقلل من الدنيا والرغبة فيما عند الله عزّ وجل.

* * *

هوان الدنيا على الله تعالى

[٢٠] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ مرّ بالسوق فمرّ بجدي أسكَّ ميِّتٍ فتناوله فأخذ بأذنيه، ثم قال: «**أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟**» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: «**أتحبون أنه لكم؟**» قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً، لأنه أسكُّ، فكيف وهو ميت، فقال: «**والله لَلدُّنيا أهونُ على الله من هذا عليكم**».

رواه أحمد (٣/٣٦٥)، ومسلم في الزهد (١٨/٩٣).

قوله: «أَسَكّ» أي: صغير الأذنين.

[٢١] وعن المستورد بن شداد رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع الركب الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ على السَّخْلةِ الميتة، فقال رسول الله ﷺ: «**تَرَوْنَ هذه هانت على أهلها حين ألْقَوها**» قالوا: من هوانها ألقوها يا رسول الله، قال: «**الدنيا أهونُ على الله من هذه على أهلها**».

رواه أحمد (٤/٢٢٩)، والترمذي (٢١٤١)، وابن ماجه (٤١١١)، كلاهما في الزهد بسند حسن وهو صحيح لغيره، ورواه أحمد والدارمي في الرقاق (٣٧٤٠).

قوله: «السخلة» بفتح السين وسكون الخاء، ولد المعز أو الضأن.
قوله: «أهون» أي: أذل وأحقر.

أفاد الحديثان أن الدنيا بلغت من الحقارة عند الله والهوان عليه أعظم من هوان ودناءة ذلك الجدي الناقص الميت القذر عند أهله.

[٢٢] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو كانت الدُّنيا تَعدِلُ عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**.

رواه الترمذي (٢١٤٠) وابن ماجه (٤/١٠) كلاهما في الزهد، وحسّنه الترمذي وصححه.

«البعوضة»: صغار البق كما في النهاية.

وهذا نهاية ما يكون من دناءة الدنيا وخستها، فالحياة التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة كيف يكون لها قيمة، فلو كانت لها قيمة لما متّع بها الكفرة واللادينيين وعبدة غيره تعالى، ولما سقاهم منها ولو جرعة ماء، ومع ذلك ترى الناس مفتونين ومغرمين بها بل قد سمّى النبي ﷺ المشغوفين بها عبّدة لها كما يأتي لاحقاً.

* * *

❊ الدنيا ملعونة إلا ما كان منها للّه تعالى

[٢٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، أو عالماً أو متعلماً»**.

رواه الترمذي (٢١٤٢)، وابن ماجه (٤١١٢) كلاهما في الزهد وسنده حسن.

واللعنة: الإبعاد فإذا وردت في الكافر فمعناها الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، وإذا وردت في المؤمن الفاسق فالمراد بها الإبعاد عن منازل الأبرار وهي هنا مطلق الإبعاد. فهي وما فيها من متاع بعيدة من الله

إلا ما كان منها له تعالى كالإيمان به وطاعته وعبادته وما يؤول إلى ذلك مما يستعان به عليه كالسعي في الحصول على المعيشة للاستعانة بها على العبادة، وكالعلماء بالله تعالى وبأحكامه والمتعلمين العلوم الإسلامية النافعة وذكر الله عزّ وجل وما والاه...

* * *

مثل الدنيا كما صورها النبي ﷺ

[٢٤] عن المستورد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما الدنيا في الآخرة إلا مَثَلُ ما يجعلُ أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بماذا ترجع»**.

رواه أحمد (٢٢٨/٤/٢٢٩/٢٣٠)، ومسلم (١٩٢/١٨)، والترمذي (٢١٤٣)، وابن ماجه (٤١٠٨) كلهم في الزهد.

و«اليم»: البحر.

فهذا مثَل ضربه النبي ﷺ للدنيا، وبيّن أن كل متاعها وملذاتها... بالنسبة لمتاع الآخرة كالذي يعلق بالأصبع من الماء إذا أدخل البحر فذلك لا شيء بالنسبة لماء البحر.

[٢٥] وعن أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن مطعم ابن آدم قد ضرب للدنيا مثلاً، فانظر ما يخرج من ابن آدم وإن قزّحه وملّحه قد علم إلى ما يصير»**.

رواه عبدالله بن أحمد في زوائد مسند أبيه (١٣٦/٥)، وابن حبان بالموارد (٢٤٨٩) بسند صحيح.

قوله: «قزّحه» بتشديد الزاي أي: جعل فيه التوابل والأبازر. قوله: «وملحه» بفتحات مع تخفيف اللام: أي ألقى فيه الملح.

وهذا أيضاً مثل آخر رائع ضرب لخساسة الدنيا فمثلها في الدناءة ثم

اضمحلالها وذهابها كالطعام الذي يصنعه الإنسان ويهيئه ويتناوله سائغاً شهياً هنيئاً مريئاً ثم ينقلب ويخرج منه عذرة قذرة منتنة فهذا مثل الدنيا فهل من مذكر.

ويزيد هذا وضوحاً:

[٣٦] حديث سلمان رضي الله تعالى عنه قال: جاء قوم إلى رسول الله ﷺ فقال: **«ألكم طعام؟»** قالوا: نعم، قال: **«فلكم شراب؟»** قالوا: نعم، قال: **«فتُصَفُّونَه»** قالوا: نعم، قال: **«وتبرّدُونَه»**، قالوا: نعم، قال: **«فإن معادهما كمعاد الدنيا يقوم أحدكم إلى خلف بيته فيمسك على أنفه من نتنه»**.

رواه الطبراني: قال نور الدين (١٠/٢٨٨): رجاله رجال الصحيح.

[٣٧] وعن الضحاك بن سفيان أن رسول الله ﷺ قال: **«يا ضحّاك ما طعامك؟»** قال: يا رسول الله اللحم واللبن، قال: **«ثم يصير إلى ماذا؟»**، قال: إلى ما قد علمت، قال: **«فإن الله تعالى ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا»**.

رواه أحمد (٣/٤٥٢)، والطبراني في الكبير (٨١٣٨) وهو حسن صحيح.

فهذه هي الدنيا في واقعها كما صوّرها لنا نبينا ﷺ.

وقد وردت في القرآن الكريم آيات ضرب الله فيها مثلاً لهذه الحياة الزائفة تحذيراً من الركون إليها وتزهيداً في الاطمئنان إليها فمن ذلك:

قوله تعالى في سورة يونس آية (٢٤): ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

ومعنى الآية: إنما صفة الحياة الدنيا وحالها العجيبة في فنائها وزوالها وذهاب نعيمها واغترار الناس وخداعهم بنضارتها وملذاتها كمثل مطر نزل من السماء فنبت به أنواع من النبات مختلط بعضه ببعض من جملة ما يأكله

الناس من الحبوب والثمار والبقول والفواكه وما يأكله الإبل والبقر والغنم من الكلأ والتبن والشعير، حتى إذا أخذت الأرض حُسنها وبهجتها وتزخرفت وتزيّنت بالأزهار والحبوب والثمار وظنّ أصحابها الفلاحون والمزارعون أنهم متمكنون من الانتفاع بها محصلون لثمارها وغلتها جاءها قضاؤنا بهلاك ما عليها من النبات إما ليلاً وإما نهاراً فصيّرناها محصودة مقطوعة لا شيء فيها كأنها لم تكن عامرة قائمة قبل ذلك. فمثل الدنيا مع أصحابها كمثل الزراع مع مزروعاتهم إذا أشرفوا على تحصيلها جاءتهم ريح عاصفة، أو سيول عارمة فحصدت مزارعهم حصداً.

ومنها قوله عزّ وجل في سورة الكهف آية (٤٥): ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾.

ومعناه: بيّن يا نبيي للناس مثل هذه الحياة في فنائها واضمحلالها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وافياً وغزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثفه، فأصبح ذلك النبات وصار بعد بهرجه الخادع متفتتاً تسفه الرياح يميناً وشمالاً فالدنيا مثل ذلك تماماً.

ومن ذلك قوله عزّ وجل في سورة الحديد آية (٢٠): ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾.

ومعنى الآية: اعلموا يا معشر السامعين أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا لعب يُتعبُ الناس فيها أنفسهم كإتعاب الصبيان أنفسهم باللعب وشغل للإنسان بشغله عن الآخرة وطاعة الله وزينة يتزين بها الجهلاء كالملابس الحسنة الفارهة، والمنازل الرفيعة العالية المزخرفة، والمراكب البهية الغالية، ومباهاة وافتخار بالأحساب والأنساب والمال والولد كما قال القائل:

أترى أهل القصور إذا أُميتُوا بنَوْا فوقَ المقابر بالصخورِ
أبَوْا إلا مباهاة وفخراً على الفقراء حتى في القُبُورِ

وذلك كمثل مطر غزير أصاب أرضاً فأعجب الزرّاع نباته لخضرته بكثرة الأمطار ثم ييبس بعد خضرته ونضرته فتراه مصفر اللون بعد أن كان زاهياً ناضراً ثم يتحطم ويتكسر بعد يبسه وجفافه فيصبح هشيماً متكسراً تذروه الرياح، فكذلك حال الدنيا. وستأتي آيات في التزهيد في الدنيا والتحذير من الاغترار بها لاحقاً إن شاء الله تعالى، وقد أفاض أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى ورضي عنه في الإحياء في الكلام على الدنيا وصورها في أبشع صورة وضرب لها أمثالاً مؤثرة كما يعلم من مراجعة ربع المهلكات من الإحياء.

* * *

التزهيد في الدنيا

[٢٨] عن عبدالله بن الشخِّير رضي الله تعالى عنه أنه انتهى إلى النبي ﷺ وهو يقول: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ①﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدَّقتَ فأمضيتَ، أو أكلتَ فأفنيتَ، أو لبستَ فأبليتَ**».

رواه أحمد (٤/٦٤/٦٥)، ومسلم (١٨/٩٤)، والترمذي (٢١٦١) كلاهما في الزهد، ورواه النسائي في الكبرى (٦/٥٢١)، والترمذي في التفسير أيضاً (٣١٣٦).

إن أمر الإنسان لعجيب، فهو حريص على الدنيا والاستكثار منها والتفاخر بها، وليس له من ذلك إلا ما يتصدق به وينفقه منها في أبواب الخير فيدخره لآخرته أو ما ينفقه على نفسه في حياته مما يقيم به بنيته، أما ما عدا ذلك مما هو شحيح به وحريص على كنزه وإدخاره فلا حظ له فيه بل سيذهب ويتركه وراءه لورثته ثم يحاسَب عليه.

[٢٩] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يقولُ العبد: مالي، مالي، إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك فهو ذاهبٌ وتاركُه للناس».

رواه مسلم في الزهد (٩٤/١٨).

قوله: «فاقتنى» أي: ادخره لآخرته.

[٣٠] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يتْبَعُ الميّتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقى واحدٌ، يتبعه أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله».

رواه البخاري في الرقاق (١٥٣/١٤)، ومسلم (٩٥/١٨)، والترمذي (٢١٩٧) كلاهما في الزهد، فالعاقل هو الذي يعمل جاهداً لإنقاذ مُهْجَتِهِ، ويدأب على تقديم أنواع القرب ويتوسع في الإكثار من العمل الصالح فإن هذا هو الذي سيبقى معه ويصاحبه في قبره.

[٣١] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذِئْبانِ جائعانِ أُرسلا في غنمٍ بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه».

رواه أحمد (٤٦٠/٣)، والترمذي في الزهد (٢١٩٤)، والدارمي في الرقاق (٢٧٣٣) وابن حبان بالموارد (٢٤٧٢)، وسنده صحيح.

ففي الحديث ذم الحرص على المال، والجاه، والرئاسة، والمراكز الشرفية، فإن ذلك أخطر شيء على دين المسلم وأشد إفساداً من إرسال ذئبين جائعين لقطيع من الغنم. وهذا الحديث أفرده بالشرح ابن رجب وهو مطبوع ضمن الرسائل المنيرية.

[٣٢] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خيرٌ لك، وإن تمسك شرٌ لك، ولا تُلامُ على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى».

رواه أحمد (٢٦٢/٥)، ومسلم في الزكاة (١٢٦/٧)، والترمذي في الزهد (٢١٦٣).

«أن تبذل»: ضبطه النووي بفتح الهمزة. و«الفضل»: هو الزائد على حاجتك وحاجة عيالك. و«الكفاف»: القوت الذي يكفي الإنسان عن الناس ويغنيه عنهم.

ومعنى الحديث أن إعطاء ما يفضل عن حاجة الإنسان وحاجة أهله وذويه مما تجب عليه نفقتهم خير له عند الله عزّ وجل لبقاء ثوابه، وإن أمسكه وكنزه كان شراً له لأنه إن أمسك ذلك عن واجب استحق العقاب عليه وإن أمسك عن المستحب فقد فوّت مصلحة نفسه في آخرته ونقص ثوابه وذلك كله شر، نعم لا يُلام الإنسان على تحصيل وكسب وإدخار ما يكفيه عن الناس من الضروريات.

وقوله: «وابدأ بمن تعول» معناه: ابدأ بالإنفاق على من تلزمك نفقته من نفسك وأهلك وعيالك.

[٣٣] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تتَّخِذُوا الضَّيعةَ فترغبوا في الدُّنيا»**.

رواه أحمد (٤٤٣/٤٢٦/٣٧٧/١)، والترمذي في الزهد (٢١٤٨)، وابن حبان (٢٤٧١)، والحاكم (٣٣٢/٤) وسنده حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«الضيعة»: بفتح الضاد وسكون الياء، المزرعة والبستان وما يكون منه معاش الإنسان ولو من تجارة وصناعة وأكثر ما تطلق على العقار والأرض المغلة، والمراد بالنهي عن اتخاذ الضيعة هو التوغل في الاشتغال بالدنيا والإخلاد إليها والانهماك في طلبها مع الذهول والغفلة عن الآخرة، أما ما كان في غير ذلك من طلب المعاش الضروري فمحبوب ومطلوب.

* * *

فضل الكفاف والقناعة

[٣٤] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«قد أفلحَ مَن أسلمَ، ورُزقَ كفافاً وقنَّعَهُ الله بما آتاه»**.

رواه أحمد (٢/١٦٨/١٧٢/١٧٣)، ومسلم في الزكاة (٧/١٤٥)، والترمذي (٢١٦٩)، وابن ماجه (٤١٣٨) كلاهما في الزهد.

[٣٥] وعن فضالة بن عبيد رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«طوبى لمن هُدِي للإسلام وكان عيشُه كفافاً وقَنِع»**.

رواه أحمد (٦/١٩)، والترمذي في الزهد (٢١٧٠)، وابن حبان بالموارد (٢٥٤١)، والحاكم في الإيمان (١/٣٤/٣٥) وسنده صحيح، وصححه الترمذي والحاكم، ووافقه الذهبي.

الحديثان يدلان على أن سعادة الإنسان هو أن يوفقه الله عزّ وجل ويهديه للإيمان به وطاعته ويعطيه من العيش ما يكفيه فلا مال له زائد يطغيه ولا عنده فقر مدقع ينسيه ثم يُتم عليه النعمة فيجعله قانعاً راضياً بما أعطاه ربه تعالى.

[٣٦] وعن عبيدالله بن مِحْصَنٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أصبح منكم آمناً في سِرْبِهِ، معافى في جسمه، عنده قوتُ يومه، فكأنما حيزت له الدنيا»**.

رواه الترمذي (٢١٦٦)، وابن ماجه (٤١٤١) كلاهما في الزهد، والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٠) وحسّنه الترمذي لشاهد له عن أبي الدرداء.

رواه ابن حبان (٢٥٠٣).

«سربه»: ضبط بكسر السين وسكون الراء، أي: آمناً في نفسه أو أهله وعياله، وبفتح السين أي: في مسلكه وطريقه وبفتحتين أي: في بيته.

وعلى أيٍّ، فمن أوتي هذه الثلاث: الأمن على النفس والأهل والمال، والمعافاة في الجسم، وقوت اليوم كان كمن أعطي الدنيا بأتمها فينبغي له أن لا يتطلع لشيء آخر.

[٣٧] وعن عثمان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ليس**

لابن آدم حقٌّ في سوى هذه الخصال: بيتٌ يسكنه، وثوبٌ يواري عورته، وجلف الخبز والماء».

رواه أحمد (٦٢/١)، والترمذي في الزهد (٢١٦١)، والحاكم في الرقاق (٣١٢/٤)، وصححه الترمذي والحاكم ووافقه الذهبي، وكذا صححه العراقي في المغني.

«الجلف»: بكسر الجيم هو الخبز ليس معه إدام.

والحديث يفيد أنه لا حاجة للإنسان تدعوه إلى تحصيل غير هذه الأشياء الأربعة الضرورية لأن بها قوام بنيته فما زاد عليها فهو فضول.

واختلفوا في المراد بالحق في الحديث فقيل: هو ما وجب للإنسان من الله تعالى من غير تبعة في الآخرة ولا سؤال، فمَن اكتفى بذلك لم يسأل عنه لأنه من الحقوق التي لا بد للنفس منها أما ما عداها مما فيه حظوظ النفس فسيُسأل عنها.

وقيل: المراد بالحق هو ما يستحقه الإنسان من الله عزّ وجل لافتقاره إليه وتوقف معيشته عليه وهو قريب من الأول.

والمقصود: هو فضل القناعة وترك ما زاد على الضروريات من المسكن، والملبس، والمأكل، والمشرب، والمركب، وإن كان ذلك مباحاً لأن الإكثار منه قد يؤدي إلى فساد النفس وطغيانها ووقوعها في المحرمات.

[٣٨] وعن أبي وائل رحمه الله تعالى قال: جاء معاوية إلى أبي هاشم بن عتبة وهو مريض يعوده فقال: يا خال، ما يبكيك؟ أوجعٌ يشئزك؟ أو حرص على الدنيا؟ قال: كلٌّ لا، ولكن رسول الله ﷺ عهد إليّ عهداً لم آخذ به، قال: **«إنما يكفيك من جمع المال خادمٌ ومركبٌ في سبيل الله، وأجدني اليوم قد جمعتُ»**.

رواه أحمد (٤٤٤/٤٤٣/٣) (ج٥/٢٩٠)، والترمذي (٢١٤٧)، وابن ماجه (٤١٠٣) كلاهما في الزهد، وابن حبان بالموارد (٢٤٧٨) وسنده

صحيح وله شواهد عن أنس وخباب، انظر تهذيبي لجامع الترمذي (٢١٤٧).

«يشئزك»: بضم الياء وكسر الهمزة أي: يقلقك وزناً ومعنى. وقوله: «عهد إليّ» أي: أوصاني.

عهد إليه النبي ﷺ أن يكتفي من جمع المال بخادم ومركب في سبيل الله، وهكذا نرى النبي ﷺ يرشد أصحابه وينصحهم ويزهدهم في الحياة وأن لا يأخذوا منها إلا مثل زاد الراكب.

[٣٩] وعن أبي عبدالرحمٰن الحُبُلي قال: سمعت عبدالله بن عمرو بن العاص وسأله رجلٌ فقال: ألستَ من فقراء المهاجرين؟ قال: نعم، فقال له عبدالله: ألك امرأة تأوي إليها؟ قال: نعم، قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم، قال: فأنت من الأغنياء، قال: فإن لي خادماً، قال: فأنت من الملوك.

رواه مسلم في الزهد (١١٠/١٠٩/١٨) هكذا موقوفاً.

فانظر أيها المسلم إلى همّة هذا الصحابي وإلى ما كان يعتقده في هذه الحياة وأن من كانت له زوجة ومسكن عنده من الأغنياء، فمن زاد على ذلك خادماً كان من الملوك. فهذا نهاية ما يكون من الزهد، وهذا ما تعلمه الصحابة رضي الله تعالى عنهم من مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ.

* * *

❋ الغنى غنى النفس

[٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس الغِنَى عن كثرة العَرَض، ولكن الغِنَى غِنى النفس»**.

رواه أحمد (٢٤٣/٢) وفي مواضع، والبخاري في الرقاق (٤٩/١٤)، ومسلم في الزكاة (١٤٠/٧)، والترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٤١٣٧) كلاهما في الزهد.

«العرض»: بفتحتين، متاع الدنيا، ومعناه: أن الغنى ليس بالثراء واقتناء الأموال وكثرة متاع الدنيا وحطامها، وإنما الغنى في الحقيقة هو القناعة ورضا النفس بما تيسّر مع طمأنينة القلب، فمَن أوتي هذا فهو الغنى حقاً، وإن كان أفقر البشرية مالاً، وعكسه هو الفقير مهما كانت ثرواته وأمواله وأملاكه فهو دائماً يتطلع إلى المزيد من الثراء وذلك يجعله فقير القلب مدى حياته حتى يفاجئه الموت كما يدل لذلك الحديث التالي:

[٤١] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لو أن لابن آدم مثل وادٍ مالاً لأحبّ أنّ له إليه مثله، ولا يملأ عينَ ابن آدم إلا التراب، ويتوبُ الله على من تاب»**.

قال ابن عباس: فلا أدري من القرآن هو أم لا؟

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٣٠/٣١)، ومسلم في الزكاة (٧/١٣٩).

[٤٢] ونحوه عن أنس رضي الله تعالى عنه بلفظ: **«لو كان لابن آدم واديان من مال ـ وفي رواية: من ذهب ـ لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب...»**.

رواه البخاري ومسلم والترمذي في الزهد (٢١٥٧).

وفي الباب عن ابن الزبير في البخاري (١٤/٣٢)، وعن أبي هريرة عند ابن ماجه في الزهد (٤٢٣٥) بسند صحيح.

[٤٣] وعن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: إنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة فأُنسِيتها غير أني قد حفظت منها: **«لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب»**.

رواه مسلم في الزكاة (٧/١٤٠).

قوله: «لابتغى» أي: طلب.

ففي هذا الحديث بيان ما جبل عليه ابن آدم من الحرص على الازدياد من المال وأن الإكثار منه لا يزيده إلا حرصاً وشرهاً ورغبة في كنزه وجمعه، وأنه لا يملأ قلبه إلا الموت ومواراته في التراب.

وفي قول ابن عباس: فلا أدري من القرآن هو أم لا، يعني: **«لو كان لابن آدم...»** إلخ.

وقد صرّح أبو موسى في حديثه بأنه حفظ ذلك من جملة القرآن ومما كان قد أنسيه كما جاء في صحيح البخاري عن أُبي بن كعب أيضاً قال: كنا نُرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾﴾.

فذلك كله يدل على أن لفظ هذا الحديث كان قرآناً ثم نُسخ لفظه وبقي معناه... وقد علّق الحافظ على ما في الباب نقلاً عن ابن بطال بقوله: وفي أحاديث الباب ذم الحرص والشره، ومن ثم آثر أكثر السلف التقلل والقناعة باليسير، والرضا بالكفاف، ووجه ظنهم أن الحديث المذكور من القرآن ما تضمنه من ذم الحرص على الاستكثار من جمع المال والتقريع بالموت الذي يقطع ذلك، ولا بد لكل أحد منه، فلما نزلت هذه السورة وتضمنت معنى ذلك مع الزيادة عليه علموا أن الأول من كلام النبي ﷺ وقد شرحه بعضهم على أنه كان قرآناً ونسخت تلاوته لما نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾﴾ فاستمرت تلاوتها فكانت ناسخة لتلاوة ذلك، وأما الحكم فيه والمعنى فلم ينسخ، إذ نسخ التلاوة لا يستلزم المعارضة بين الناسخ والمنسوخ كنسخ الحكم، والأول أولى وليس ذلك من النسخ في شيء. قال الحافظ: قلت: يؤيد ما ورد ما أخرجه الترمذي من طريق زر بن حُبَيْش عن أُبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال له: **«إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن فقرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾** قال: وقرأ فيها: **إن الدين عند الله الحنيفية السمحة»** وفيه: وقرأ عليه: **«لو أن لابن آدم وادياً من مال...»** الحديث، وفيه: **«ويتوب الله على من تاب»** وسنده جيد... إلخ.

* * *

❊ هلاك المنهمكين في الدنيا وذلتهم

[٤٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تعِسَ عبدُ الدينار، وعبدُ الدرهم، وعبدُ الخميصة، إن أُعْطِي رضي، وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»**.

رواه البخاري في الجهاد، وفي الرقاق (٢٩/١٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٣٦).

«تعس»: بكسر العين وتفتح، عثر وانكبّ على وجهه. «الخميصة»: ثوب من خز أو صوف معلّم أو من ثوب أسود. «انتكس» أي: انقلب على رأسه. «وإذا شيك» أي: أصيب بشوكة فلا تزال بالمنقاش.

وقوله: «تعس عبد الدينار...» إلخ، فيه ذم بالغ لمن همّه المال والتهافت على حطام الدنيا حتى كأنه عبد له لأن العبودية هي غاية تقديس الشيء ومحبته وإيثاره والتذلل له، فمَن أخلد إلى الدنيا وآثرها على الآخرة كان ولا شك عبداً لها، فإذا أُعطي رضي وإن لم يُعط سخط، ولهذا دعا النبي ﷺ على من هذا وصفه بالتعاسة والخيبة والهلاك والانكباب على الوجه وأنه إذا أصيب بشوكة لا أخرجها الله منه ولا عافاه منها ولا أوجد له من يخرجها منه بالمنقاش، لأن من كان كذلك أصيب بالبطر والطغيان ونسيان الآخرة فخسر دنياه وآخرته.

وفي قوله ﷺ: **«تعس وانتكس»** نقل الحافظ عن الطيبي أنه قال: فيه الترقي في الدعاء عليه لأنه إذا تعس انكبّ على وجهه فإذا انتكس انقلب على رأسه.

[٤٥] وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه قال: ورأى سكة وشيئاً من آلة الحرث سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذلّ»**.

رواه البخاري أول المزارعة (٤٠٢/٥).

وقوله: «سكة» بكسر السين، هي الآلة التي يحرث بها.

وظاهر الحديث يدل على ذم الحراثة مطلقاً وأن من اشتغل بذلك أذلّه الله تعالى، والأمر على خلاف ذلك، بل المراد بذلك والله أعلم ما أشار إليه البخاري في الترجمة بقوله: «باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع، أو مجاوزة الحد الذي أمر به» فيكون المذموم من ذلك ما يؤدي إلى ترك الحقوق الواجبة أو مجاوزة الحد في الاشتغال بالزراعة حتى تترك الواجبات الأولية، ومنها الجهاد في سبيل الله والاستعداد للعدو فإن أي أمة أو قوم أهملوا هذا الجانب واشتغلوا بالحياء أذلّهم الله بتسلُط عدوهم عليهم.

ويزيد هذا وضوحاً الحديث التالي وهو:

[٤٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا تبايعتم بالعِينَة، وأخذتُم أذنابَ البقر، ورضيتُم بالزرع، وتركتُم الجهادَ، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم**».

رواه أحمد (٤٢/٢٨/٢)، وأبو داود (٣٤٦٢)، والبيهقي (٣١٦/٤) من طرق هو بها صحيح.

«العِينة»: بكسر العين، نوع من البيوعات الفاسدة، وصورته: أن يبيع الرجل سلعته إلى أجل، ثم يبيعها المشتري لبائعها الأول بثمن أقل معجلاً. وهو من أقبح طرق أكل أموال الناس بالباطل.

فالحديث واضح في أن لزوم الكسب والحراثة والزراعة المؤدي إلى إهمال باب الجهاد والإعراض عن القيام بشؤون الدين ومهامه من أسباب الذل، وأن كل قوم كان هذا سبيلهم وشأنهم كانوا أغرق في الخزي والذل كما هو واقع المسلمين اليوم فلا يرفع عنهم هذا الذل المخيّم عليهم إلا بالرجوع إلى دينهم، وهيهات هيهات.

* * *

❊ ذم الإكثار من الدنيا ممن لا يجود بها

[٤٧] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو في ظل الكعبة وهو يقول: «**هم الأخسرون ورب الكعبة، هم الأخسرون ورب الكعبة**» قال: فقلت: مَن هم بأبي أنت وأمي يا رسول الله؟ قال: «**هم الأكثرون أموالاً إلا من قال: هكذا وهكذا وهكذا**».

وفي رواية: «**إن الأكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه، وعن شماله، ومن خلفه، وقليل ما هم**»، وفي رواية: «**الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وكسبه من طيب**».

رواه أحمد (١٥٨/١٥٢/٥)، والبخاري في الأيمان والنذور (٣٣٢/١٤) وفي الزكاة، ومسلم (٧٦/٧٥/٧)، والترمذي (٥٤٩)، والنسائي (٨/٥) كلهم في الزكاة.

والرواية الثانية: رواها البخاري في الرقاق (٤٢/٣٨/١٤).

والثالثة: رواها ابن ماجه في الزهد (٤١٣٠) بسند صحيح، ومثله عنده (٤١٣١) عن أبي هريرة بسند صحيح أيضاً كما قال البوصيري.

وقوله: «الأكثرون...» إلخ، ولو كان من الحلال. وقوله: «هم الأخسرون» و«الأسفلون» ذلك يدل على أن الأغنياء وذوي الثروات هالكون خاسرون سافلون في جهنم إلا من أدّى حق الله في أمواله وتوسّع في الإنفاق في أبواب الخير فهذا ماله نِعم المعين له على دينه كما في الحديث التالي:

[٤٨] فعن عمرو بن العاص قال: بعث إليّ النبيُّ ﷺ فأمرني أن آخذ على ثيابي وسلاحي ثم آتيه، ففعلت، فأتيته وهو يتوضأ فصعَّد إليّ البصر ثم طأطأ ثم قال: «**يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيُغنِمك الله وأَرْغَبُ لك زعبة من المال صالحة**»، قلت: إني لم أُسْلِم رغبة في المال، إنما أسلمتُ رغبةً في الإسلام فأكون مع رسول الله ﷺ، فقال: «**يا عَمْرو نِعم المال الصالح للمرء الصالح**».

رواه أحمد (٢٠٢/٤)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٩٩)، والحاكم بسند صحيح.

قوله: «وأزعَبُ» بفتح العين، أي: أقطع لك قطعة من المال. قوله: «نِعم المال» أي: نعم المال الحلال الطيب مطية وعوناً للرجل الصالح صاحب الروح الطيبة، فالأكثرون أموالاً هم الأقلون ثواباً والأخسرون مالاً والأسفلون يوم القيامة فإن ثروات الدنيا حلالها حساب وحرامها عقاب فالمكثرون على خطر يوم القيامة على كل الأحوال والصالحون فيهم قليل.

* * *

❋ التحذير من فتنة المال والدنيا

[٤٩] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله مُسْتحلفُكُم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء».

رواه أحمد (٤٦/٨٤/٢٢/١٩/٣)، ومسلم في الرقاق (٥٥/١٧).

قوله: «فاتقوا» أي: تحفظوا من فتنتهن وغوائلهن وتجنّبوا ذلك ما استطعتم.

إن مظاهر الدنيا بهيجة حلوةٌ خَضِرةٌ تحبها النفوس وتميل إليها بالطبع كما تميل للفاكهة الخضراء الحلوة فيجب الحذر منها فإن ظاهرها حلو أخضر وباطنها خبيث قذر.

وقد جعلها الله عزّ وجل للإنسان مظاهر للابتلاء واستخلفه فيها لينظر تعالى ماذا يكون أمره فيها هل يطيعه فيتحفظ منها أم يعصيه فيتبع شهواتها وينخدع بنضارتها وملذاتها.

ولخطورتها أمرنا النبي ﷺ أن نتحفظ منها ونتجنب غوائلها ومصايدها

وقرنها بالنساء لأنهما شقيقتان في الفتنة والخطورة، بل فتنة النساء أشد وأخطر على الرجل كما قال ﷺ: **«ما تركت بعدي فتنة أضرُّ على الرجال من النساء»**.

رواه الشيخان، ويأتي في الفتن.

وقدّمنا حديث مسلم: **«إن المرأة إذا أقبلت أقبلت في صورة شيطان، وإذا أدبرت أدبرت في صورة شيطان»**، فماذا يكون الأمر إذاً مع هذا الجنس الخطير الذي جعله النبي ﷺ يُقبل ويُدبر في صورة شيطان.

وإنما قرن النبي ﷺ النساء بالدنيا لأنهن من جملة الدنيا التي يتمتع بها كما قال ﷺ: **«الدنيا متاعٌ، وخيرُ متاعها الزوجة الصالحة»**.

رواه أحمد ومسلم وغيرهما، وقد تقدم.

[٥٠] وعن خَوْلة بنت قيس وكانت تحت حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن هذا المال خَضِرةٌ حلوةٌ مَن أصابه بحقه بورك له فيه، ورُبّ مُتَخَوّض فيما شاءت به نفسه من مال الله ورسوله ليس له يوم القيامة إلا النار»**.

رواه عبدالرزاق (٦٩٦٢)، والحميدي (٣٥٣)، وأحمد (٦/٣٦٤/٣٧٨/٤١٠)، والترمذي في الزهد (٢١٩٢)، وابن حبان (٤٥١٢) وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه، وأصله في الخمس من صحيح البخاري (ج٧/٢٧) بلفظ: **«إن رجالاً يتخوّضون في مال الله بغير حق، فلهم النار يوم القيامة»**.

قوله: «متخوض» أي: متصرف وهو معنى رواية البخاري «يتخوضون» أي: يتصرفون.

وفي الحديث التحذير من غوائل الدنيا والتصرف فيها بغير ما شرعه الله تعالى، وأن من أخذ المال من طريقه المشروع، وأنفقه في مصارفه المأمور بها بارك الله له في ماله، وإلا كان مآله النار لأنه خاض في مال الله ورسوله بالباطل وتصرف فيه بالتشهّي. ويزيد هذا وضوحاً وتفصيلاً الحديث التالي:

[٥٩] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرجُ الله لكم من بركات الأرض»** قيل: وما بركات الأرض؟ قال: **«زهرةُ الدنيا»** فقال رجل: هل يأتي الخيرُ بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننتُ أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه فقال: **«أين السائل؟»** قال: أنا، قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك، قال: **«لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خَضِرةٌ حُلوةٌ، وإن كل ما أنبتَ الربيعُ يقتلُ حَبَطاً أو يُلِمُّ إلا آكلة الخَضِرة، أكلتْ حتى إذا امتدّت خاصرتاها استقبلت الشمسَ اجْتَرَّتْ وثلطَتْ وبالت، ثم عادتْ فأكلت، وإن هذا المالَ حلوةٌ، من أخذه بحقه ووضعه في حقه، فنِعْمَ المعونة هو، وإن أخذه بغير حق كان كالذي يأكل ولا يشبع»**.

رواه أحمد (٩١/٣)، والبخاري في الرقاق (٢٢/٢٠/١٤) وفي الزكاة وفي الجهاد، والنسائي في الزكاة، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٥).

قوله: «زهرة الدنيا» أي: زينتها وبهجتها ومتاعها من العين، والثياب، والزروع، والمراكب، وغير ذلك مما يفتخر الناس بحسنه. وقوله: «حَبَطاً» بفتحتين، والحبط بالحاء انتفاخ البطن من كثرة الأكل. وقوله: «أو يُلِمُّ» بضم الياء، أي: يقرب من الهلاك. وقوله: «إلا آكلة الخضرة» بفتح الخاء وكسر الضاد، وهو ضرب من الكلأ يعجب الماشية. وقوله: «خاصرتاها» تثنية خاصرة وهما جانبا البطن من الحيوان. وقوله: «اجترّت» أي: أخرجت ما أكلته من بطنها وأعادت مضغه. قوله: «وثلطت» بفتحات، أي: ألقت ما في بطنها رقيقاً.

ومعنى ذلك أنها إذا شبعت فثقل عليها ما أكلت أخرجته من بطنها واجترّت فازداد نعومة ثم تستقبل الشمس فتحمى بها فيسهل خروجه، فإذا خرج زال الانتفاخ فسلمت، أما من لم تتمكن من ذلك، فإن الانتفاخ يقتلها سريعاً.

ونستفيد من هذا الحديث الشريف أن النبي ﷺ علم بإعلام من الله عزّ وجل أن أخطر شيء يخافه على أمته هو بسط الدنيا عليهم واتساع

خيراتها وبركاتها وأن ذلك وإن كان خيراً، والخير لا يأتي إلا بالخير، لكن الخير قد يعرض له الشر فإخراج بركات الأرض وزهرتها وبهجتها ونضارتها هو خير بلا شك لمن أحسن التصرف فيه، لكنه قد ينقلب شراً على من يخوض فيه بغير حق فيجعله هالكاً خاسراً، ولذلك ضرب النبي ﷺ مثلين لذلك، أحدهما: للمسرف المُفرط في جمع الدنيا المانع من إنفاقها في وجهها والخائض فيها بلا حدود ولا قيود، ومثل لهذا الصنف بالدابة التي تأكل وتبالغ في ذلك ولا تحتاط لنفسها فيقتلها انتفاخ بطنها بما أفرطت فيه من المرعى. ثانيهما: المقتصد في الكسب والجمع وانتفاعه بذلك وصرفه في وجوهه ومهامه، ومثل لهذا بالدابة التي ترعى الخضرة فإذا امتلأت خاصرتاها احتاطت لنفسها فجلست في الشمس فاجترّت ومضغت ما رعته مرة ثانية فرقّ في بطنها فألقته فنجت وسلمت.

وبذلك تبين للسائل أن الخير قد ينقلب شراً، فزهرة الدنيا خير، أي: خير لمن اتقى الله، لكنه قد يصير لصاحبه شراً قاتلاً.

ولذلك ختم النبي ﷺ ضرب المثلين بقوله: «**وإن هذا المال حلوة خَضِرةٌ مَن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنِعْم المعونة هو، وإن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع**» ومثل هذا ما جاء في حديث حكيم بن حزام التالي وهو:

[٥٢] عن حكيم بن حزام رضي الله تعالى عنه قال: سألت النبي ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**إن هذا المال خضرة حلوة، فمَن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومَن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع**».

رواه أحمد (٤٣٤/٣)، ومسلم في الزكاة (١٢٦/٧)، وكذا البخاري.

«بإشراف نفس» أي: مع تطلُّع وشره، فكل من كان فيه شره وحرص على المال وتطلع إليه بأي طريق ولم يقتصد في ذلك كان كالذي يكون به داء لا يشبع بسببه وإن ملأ بطنه.

قال النووي رحمه الله تعالى: وفي هذا الحديث وما قبله وما بعده

الحث على التعفُّف والقناعة والرضا بما تيسر في عفاف وإن كان قليلاً، والإجمال في الكسب وأنه لا يغتر الإنسان بكثرة ما يحصل له بإشراف ونحوه فإنه لا يبارك له فيه. . .

ولينظر للتوسع في شرح حديث أبي سعيد «الفتح» ففيه فوائد هامة.

[٥٣] وعن عَمْرو بن عوف وكان شهد بدراً مع رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين فسمعت الأنصار بقدومه، فوافقت صلاة الصبح مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف تعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم وقال: **«أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة وأنه جاء بشيء؟»** قالوا: أجل يا رسول الله، قال: **«فأبْشِروا وأمِّلوا ما يَسُرُّكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتُهلككم كما أهلكتهم»** وفي رواية: **«فتلهيكم كما ألهتهم»**.

رواه أحمد (٣٢٧/١٣٧/٤)، والبخاري في الجزية وفي المناقب وفي الرقاق (٢٠/١٩/١٤)، ومسلم في الزهد (٩٥/١٨)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٨٣)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧).

التنافس في الشيء: الرغبة فيه مع حب الانفراد به والصراع من أجله.

والحديث يدل على أن بسط الدنيا سبب في التنافس عليها وذلك من أسباب هلاك الدين وأن الأقدمين كان من أسباب هلاكهم التنافس في الدنيا وذلك الذي خشيه النبي ﷺ على الأمة وهذا بخلاف الفقر وقلة ذات اليد، فإن ذلك مأمون لأن مثله لا يقع عليه التنافس والتحاسد والتقاتل والتقاطع، ولهذا ترجم البخاري على هذا الحديث بقوله: «باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها» فبسط الحياة فتنة أي فتنة كما في الحديث التالي:

[٥٤] عن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«إن لكلِّ أمّةٍ فتنة، وفتنةُ أمّتي المال»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢١٥٦)، وحسّنه وصححه وابن حبان (٢٤٧٠)، والحاكم (٤١٨/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

وإنما كان المال فتنة لأن النفوس مفطورة على حبه وإيثاره والضن به، والتقاتل والمعاداة من أجله.

فالعاقل من جنّبه الله تعالى فتنة الدنيا ولم يغتر بمظاهرها وبهجتها اعتماداً على قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: لا تخدعنكم بحلوتها وخضرتها وزينتها وملذاتها، قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾، فيا خسارة من نسي الآخرة ورضي بالحياة الدنيا واطمأن بها... وغفل عما يراد منه فكان ممن قال الله عزّ وجل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾.

* * *

❋ ذم كثرة الأكل والمبالغة في الترف والتنعُّم

[٥٥] عن المقدام بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما ملأ آدميٌّ وعاء شرًا من بطنه، بحَسْب ابن آدم أكلات يُقمن صُلبَه، فإن كان لا محالة، فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفَسِه»**.

رواه أحمد (١٣٢/٤)، والترمذي في الزهد (٢١٩٨)، وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٩)، والحاكم في الرقاق (٣٣١/٤)، وحسنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«وعاء»: آنية. «بحسب» أي: كافيه. «أكُلات»: بضم الهمزة والكاف، أي: لقيمات كما في رواية لابن ماجه وغيره. «صلبه» بضم الصاد أي: ظهره.

ومعناه: أن شر ما يملأه الإنسان من الأواني بطنه لأن ذلك سبيل إلى فساد الجسم والروح معاً، فالجسم يظهر فيه كثرة الأمراض الناشئة عن دوام البطنة والتخم والروح تضعف نورانيته، وبذلك يقسو القلب ويبدو على الجسم الكسل والفتور ولهذا أرشدنا نبينا ﷺ إلى ما فيه صلاحنا في ذلك فوجهنا إبقاء على قلوبنا. . . أنه إذا كان ولا بد من تجاوز المفروض في الأكل فلتكن القسمة ثلاثية ثلث الأحشاء للطعام، وثلث للشراب، والثلث الباقي للنَّفَس.

على أن كثرة الشبع والإفراط في التنعُّم والترفه من أسباب البُعد عن الله عزّ وجل، بل المتصف بذلك من شرار الخلق كما جاء في الحديث التالي:

[٥٦] فعن فاطمة بنت الحسين عليهما السلام أن رسول الله ﷺ قال: **«إنّ من شرار أمّتي الذين غُذُوا بالنعيم الذين يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب، يتشدّقون بالكلام»**.

رواه الإمام أحمد في الزهد رقم (٤٠٠) هكذا مرسلاً بسند حسن، ورواه ابن المبارك في الزهد أيضاً رقم (٢٦٢) عن عروة بن رويم مرسلاً بسند صحيح بلفظ: **«شرار أمتي الذين وُلدوا في النعيم وغُذُوا بالنعيم، هِمّتهم ألوان الطعام»**.

فالحديث حسن بطريقيه.

[٥٧] وجاء عن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في رسالة بعثها إلى عتبة بن فرقد أحد عماله قال له فيها: **«وإياكم والتنعُّم، وزي أهل الشرك، ولبوس الحرير»**، وفي رواية: **«وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعُّم وزي العجم»**.

رواه أحمد (١٦/١)، والبخاري (٤٠٠/١٢/٤٠١)، ومسلم (٤٦/١٤) والسياق له، والرواية الثانية أخرجها الإسماعيلي في صحيحه كما في الفتح.

فالمبالغة في التنعُّم والبذخ ومجاوزة الحد مذمومة شرعاً وعقلاً، ولخطورة ذلك كان النبي ﷺ يحذّر من ذلك كثيراً، وأخبر أصحابه بما سيرونه من ذلك في مستقبلهم بعد فقرهم وحاجتهم.

[٥٨] فعن طلحة النضْري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حديث: **«ولكن عسى أن تُدركوا زماناً ـ أو من أدركه منكم ـ يُغْدى ويُراح عليكم بالجِفان، وتَلْبَسون مثل أستار الكعبة»**.

رواه أحمد (٣/٤٨٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٤/٥٤٨/٥٤٩) وصححه ووافقه الذهبي.

[٥٩] ويشهد له أيضاً حديث الإمام علي عليه السلام عنه ﷺ قال: **«كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة، وراح في حلة، ووُضعت بين يديه صَحْفَةٌ، ورُفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة»** قالوا: يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نتفرغ للعبادة ونُكْفى المؤونةَ، فقال رسول الله ﷺ: **«لا أنتم اليوم خير منكم يومئذ»**.

رواه الترمذي (٢٢٩٧) في صفة القيامة، وحسّنه، وهذا القدر صحيح بسابقه.

وقد صدق الواقعُ هذا الحديثَ وما قبله منذ القرون الأولى فأصبح الناس ولا يزالون في نعيم وترف وتوسُّع زائد في المآكل والمشارب والملابس... ولم يبقَ الأمر مقصوراً على ما أخبر به ﷺ بل تفاقم الشأن وجاوز الحد لا في الأكل ولا في الألبسة... فمن الناس من له أكثر من عشرة ملابس... وفي طبقات مِنْ الناس من توضعُ بين يديه في كل وَجْبَةٍ عدّةُ أواني، في كل آنية صنفٌ من الأطعمة، وهذا بالإضافة إلى أواني المشتهيات وأنواع الفواكه.

حقاً إننا أصبحنا فراعنة جبابرة يوشك أن يخسف الله بنا لأننا تجاوزنا الحدود. غفرانك يا ربنا.

[٦٠] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: تَجَشَّأ رجلٌ عند النبي ﷺ فقال: **«كُفَّ عنا جُشاءك، فإن أكثرهم شِبَعاً في الدنيا أطولُهم جوعاً يوم القيامة»**.

رواه الترمذي (٢٠٩٩) في الزهد، وابن ماجه في الفتن (٣٣٥٠)، وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإن له شواهد يحسن بها. وانظر تهذيبي للجامع في الرقم السابق.

«الجشاء»: بضم الجيم، صوت مع ريح يخرج صاعداً من المعدة بعد امتلائها، وهو يدل على أن الشبع والإفراط في الأكل المذمومَيْن هو أن يصير الشبع والتنعُّم عادة للإنسان والإكثار من ذلك، أما الشبع المرة بعد المرة والإقلال من ذلك فلا يدخل في هذا الذم لقوله ﷺ: «**فإن أكثرهم شبعاً**... إلخ».

* * *

ذم البناء فوق الحاجة

[٦١] عن قيس بن أبي حازم رحمه الله تعالى قال: دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات، فقال: إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ولم تنقصهم الدنيا، وإنا أصبنا ما لا نجد له موضعاً إلا التراب، ولولا أن النبي ﷺ نهانا أن ندعو بالموت لدعوت به، قال: ثم أتيناه مرة أخرى وهو يبني حائطاً له، فقال: إن المسلم لَيُؤْجَرُ في كل شيء ينفقه إلا في شيء يجعله في هذا التراب.

رواه البخاري في المرضى (١٢/٢٣٣)، وفي الأدب المفرد (٤٥٤)، ومسلم في الذكر والدعاء باب تمنّي الموت (ج١٧/٨)، ورواه الترمذي (٢٣٠٣)، وابن ماجه (٤١٦٣) كلاهما في الزهد عنه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يؤجر الرجلُ في نفقته كلها إلا في التراب**»، وفي رواية: «**في البناء**» وحسّنه الترمذي وصححه.

وظاهر هذا الحديث يقتضي ذم البناء على الإطلاق، وأنه لا يثاب عليه صاحبه، لكن هذا محمول على ما لا تمس إليه الحاجة مما لا بد منه لاتقاء الحر والبرد والتحفُّظ من اللصوص أو كان طلباً للعيش أو بناء المساجد

والمدارس الإسلامية، والمستشفيات ونحو ذلك مما فيه مصلحة خاصة أو عامة فإن كل ذلك يؤجَر عليه المسلم.

[٦٢] وقد جاء عن أنس رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «أمَا إنّ كل بناء وبالٌ على صاحبه إلا ما لا، إلا ما لا».

رواه أبو داود في الأدب (٥٢٣٧) ورجاله ثقات غير رجل وله شاهد عن واثلة عند الطبراني، أي: إلا ما لا بد منه فإنه لا يكون وبالاً على صاحبه بل يكون مأجوراً عليه حسب نيته.

وقد كان السلف يتحاشون عن تتبُّع البناء ورفعه والإكثار منه تورعاً، وتركاً له رغبة فيما هو أفضل واتباعاً لرسول الله ﷺ في زهده، وورعه، ورغبته عن الدنيا.

[٦٣] فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: رأيتني مع النبي ﷺ بنيتُ بيدي بيتاً يُكنُّنِي عن المطر، ويُظِلُّني من الشمس، ما أعانني عليه أحدٌ من خلق الله.

رواه البخاري في الاستئذان (١٣/٣٣٦/٣٣٧).

[٦٤] وعنه قال: والله ما وضعت لبنة على لبنة، ولا غرستُ نخلةً منذ قبض النبي ﷺ.

رواه البخاري أيضاً (١٣/٣٣٧).

وهذا كله محمول على الزهد وترك المباح وما زاد على الحاجة. نعم البناء الذي اعتاده الناس، وخاصة ما فشى في هذه العصور مما تفنن فيه الناس هو من المنكرات العظيمة ومن التبذير والإسراف المقيت الذي يُبغضه الله ولا يرضاه. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾.

* * *

❋ من فضائل الفقر والفقراء

[٦٥] عن محمود بن لبيد رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«اثنتان يكرههما ابن آدم، يكره الموت والموت خيرٌ للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال وقلةُ المال أقل للحساب»**.

رواه أحمد (٥/٤٢٧) من طريقين وسندهما صحيح.

في الحديث فضل قلة المال والقناعة باليسير رغم أن الإنسان ولو كان مؤمناً يكره الفقر والفاقة وذلك خير له من الثراء لأن القليل حسابه يسير.

[٦٦] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما طلعت شمسٌ قط إلا بجنبتيها ملكان يناديان إنهما لَيُسْمِعان مَن على وجه الأرض غير الثقلين، يا أيها الناس هلمُّوا إلى ربكم فإن ما قلّ وكفى خيرٌ مما كثُر وألهى، ولا آبت شمس قط إلا بُعث بجنبتيها ملكان يناديان: اللهم أعطِ مُنفِقاً خلَفاً، وأعطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»**.

رواه أحمد (٥/١٩٧) بسند صحيح وآخره في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

ففي هذا الحديث فضل قلة ذات اليد الكافي وأن ذلك خير من الكثرة التي تلهي المسلم عما يهمه من شؤون دينه.

[٦٧] وعن محمود بن لبيد أيضاً أن النبي ﷺ قال: **«إن الله لَيَحمي عبده الدنيا وهو يُحبُه، كما تَحمُون مرضاكم الطعام والشراب تخافون عليه»**.

رواه أحمد (٥/٤٢٧/٤٢٨) وسنده صحيح.

ورواه الترمذي في أول الطب (١٨٨٠)، وابن حبان (٢٤٧٤)، والحاكم (٤/٣٠٩) من حديث محمود بن لبيد عن قتادة بن النعمان، وسياقه عند الترمذي: **«إذا أحبَ اللّهُ عبداً حماه الدنيا، كما يَظَلُ أحدُكم يحمي سَقِيمه الماء»**.

وسنده صحيح رجاله رجال الصحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: «لَيَحْمِي»، «حماه الدنيا» أي: منعه منها.

فالحديث بلفظَيْه يدل على فضل كبير للفقر بالنسبة للمؤمن وأن ذلك يدل على محبة الله تعالى إياه لأنه لكرامته عليه يمنعه من ثروات الدنيا وكثرة متاعها لئلا تضره في دينه وتُشغله عن عبادته تعالى والاشتغال به.

وقد يظن الجاهلون أن ابتلاء الله عبده بالفقر هو شر له وإهانة من الله له، كما أن إنعامه عليه بخيرات الدنيا واتساعها عليه خير له وإكرام من الله، وهذا ظن خاطىء، فإن وجود الدنيا وعدمها لا يدل على خير ولا شر، ولذلك ردّ الله تعالى على من ظنّ هذا الخطأ فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾.

فقدر على رزقه: أي ضيّقه عليه.

[٦٨] وجاء في حديث: **«إن الله يُعطي الدنيا مَن يحب ومَن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من يُحِب»**.

رواه أحمد (٣٨٧/١)، والبخاري في الأدب المفرد (٢٧٥) مطولاً بسند صحيح.

[٦٩] وعن مصعب بن سعد قال: رأى سعدٌ أن له فضلاً على مَن دونه فقال النبي ﷺ: **«هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضُعفائكم»**.

رواه أحمد (١٧٣/١)، والبخاري في الجهاد (٤٢٩/٦).

[٧٠] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ابْغُوني في ضعفائكم فإنما تُرزقون أو تُنصرون بضعفائكم»**، وفي رواية: **«إنما ينصر اللهُ هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم»**.

رواه أحمد (١٩٨/٥)، وأبو داود (٢٥٩٤)، والترمذي (١٥٦١)،

والنسائي (٦/٣٨) ثلاثتهم في الجهاد، وابن حبان (١٦٢٠)، والحاكم (١٠٦/٣/ ١٤٥) وحسّنه الترمذي وصححه.

«ابغوني» بهمزة وصل، أي: اطلبوا لي.

وفي الحديثين فضل الفقراء الصالحين وأن الله عزّ وجل ينصر الأمة ويرزقها بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم.

[٧١] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أنه قال: مرّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: **«ما رأيك في هذا؟»** فقال: رجل من أشراف الناس هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنكحَ، وإن شفع أن يُشَفَّعَ، قال: فسكت رسول الله ﷺ، ثم مرّ رجل فقال له رسول الله ﷺ: **«ما رأيك في هذا؟»** فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حري إن خطبَ أن لا يُنكحَ، وإن شفعَ أن لا يُشفَّعَ، وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٥٤/٥٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٢٠).

يستفاد من الحديث أن المؤمن الفقير الذي يحتقره الناس ولا يقضون له حاجة ولا يبالون به قد يكون أكرم عند الله عزّ وجل وخيراً من كثير من الأغنياء الذين يحترمهم الناس ويجلّونهم ويتوددون إليهم ويقدمونهم في المحافل... ويكونون عند الله لا يزنون جناح بعوضة.

ومن عجيب أمر الناس أنهم يُكرمون الغني ويحبونه ويعظّمونه وإن لم يروا منه نفعاً، بينما الفقير يحتقرونه ويبغضونه وإن لم يروا منه شراً.

بل العجيب هو أنك ترى الكلاب تحرك أذنابها وتبش للغني وتفرح به، فإذا رأت الفقير نبحت عليه وهاجمته وأرادت عقره.

[٧٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«رُبَّ أشعثَ مَدْفوعٍ بالأبواب لو أقسمَ على الله لأبرّه»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٦/١٧٤) بالنووي.

«الأشعث»: هو الطويل العهد بترجيل شعر رأسه. وقوله: «مدفوع بالأبواب» معناه: لا قدر له ولا منزلة عند الناس فهم يحتقرونه ويطردونه عن المجامع.

والحديث يدل على أن في الضعفاء والفقراء ممن يحتقرهم الناس مَن لو سأل الله تعالى شيئاً وحلف عليه لأجابه وأبرّ قَسَمه ولا يحنثه وذلك لكرامته عليه وقربه منه وفضله عنده، جعلنا الله تعالى منهم، آمين.

[٧٣] وعن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«قمتُ على باب الجنة فإذا عامة مَن دخلها المساكين، وإذا أصحاب الجَدِّ محبوسون إلا أصحاب النار فقد أُمر بهم إلى النار، وقمتُ على باب النار فإذا عامّة مَن دخلها النساء»**.

رواه البخاري في الرقاق (٢٠٩/١٤) وفي النكاح، ومسلم في الرقاق أيضاً (٥٣/٥٢/١٧) في باب أكثر أهل الجنة الفقراء.

[٧٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال محمد ﷺ: **«اطَّلعتُ في الجنة فرأيتُ أكثر أهلها الفقراء، واطَّلعتُ في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»**.

رواه مسلم (٥٣/١٧)، ومثله عن عمران بن الحصين رواه البخاري (٢٠٩/٢٠٨/١٤) وكذا رواه مسلم بنحوه، ويأتي في ذكر الجنة والنار إن شاء الله تعالى.

في هذه الأحاديث بيان أن أكثر سكان الجنة الفقراء، وذلك يدل على فضلهم، فلولا كرامتهم على الله لما حماهم الدنيا وصرف فتنتها عنهم، بينما الأكثرون سَيُحْبَسون للحساب والمناقشة، والقليل مَن ينجو منهم، عافانا الله مما ابتلى به غيرنا، فقد جاء في حديث لعبدالله بن عَمْرو: «... **واطَّلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء»**.

رواه أحمد (١٧٣/٢) قال المنذري: بإسناد جيد.

[٧٥] وعن أم الدرداء عن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما قالت:

قلت له: ما لك لا تطلب ما يطلب فلان وفلان؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن وراءكم عقبةً كؤوداً لا يجوزها المُثقلُون**».

رواه الطبراني، قال المنذري: بإسناد صحيح.

وفي رواية: «**إن بين أيديكم عقبة كؤوداً لا ينجو منها إلا كل مُخِفٌ**».

رواه البزار، قال المنذري: بإسناد حسن.

قوله: «عقبة كؤوداً» الكؤود بفتح الكاف: هي العقبة الصعبة، والمراد بها الصراط.

والحديث بروايتيه يدل على فضل المقلّين من حطام الدنيا لأنهم الناجون من العقبة الكؤود لخفتهم، أما المكثرون المثقلون بتبعات الدنيا فلا ينجو منها إلا من ومن ممن ستشمله رحمة الله عزّ وجل.

[٧٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَدخلُ فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يومٍ، وهو خمسُمائة عام**».

رواه أحمد (٢/٢٩٦/٣٤٣/٤٥١/٥١٣)، والترمذي (٢١٧٤)، وابن ماجه (٤١٢٢) كلاهما في الزهد، وأبو يعلى (٨/٦٠)، وابن حبان (٦٧٦) وحسّنه الترمذي وصححه.

هذه مزية عظيمة للفقراء حيث إنهم يسبقون الأغنياء للجنة وينعمون ويكرمون فيها قبلهم بخمسمائة عام، إنه لفضل كبير.

وظاهر هذا الحديث أن هذا الفضل لعموم فقراء المسلمين، غير أن الحديث التالي يخصصه بفقراء المهاجرين.

[٧٧] فعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن فقراء المهاجرين يَسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفاً**».

رواه مسلم في الزهد (١٨/١١٠).

قوله: «أربعين خريفاً» أي: أربعين عاماً.

[٧٨] وكذا حديث ثوبان رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«حوضي من عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضاً»** فذكر الحديث وفيه: **«أول الناس ورداً عليه فقراء المهاجرين الشُعْثُ رؤوساً، الدُنسُ ثياباً، الذين لا ينكحون المُنَعَّمات، ولا يفتح لهم السُدَد»** قال عمر ـ يعني ابن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه ـ: لكني نكحتُ المتنعمات، وفتحت لي السدد، نكحت فاطمة بنت عبدالملك، لا جرم أني لا أغسل رأسي حتى يشعث، ولا أغسل ثوبي الذي يلي جسدي حتى يتسخ.

رواه أحمد (٥/٢٧٥)، والترمذي (٢٢٦٥)، وابن ماجه (٤٣٠٣) كلاهما في الزهد، والحاكم (٤/١٨٤) وسنده صحيح، وصححه الحاكم، ويأتي في بيان الحوض.

«الشعث»: بضم الشين وسكون العين، جمع أشعث هو المتفرق الشعر الغير مسرح. «الدُنُس» بضمتين وتسكن النون جمع الدنس بفتح وكسر، هو الوسِخُ الطويل العهد بالاغتسال. و«السدد»: بضم السين وفتح الدال جمع سدة، الباب.

ففي الحديث الأول تخصيص الفقراء السابقين إلى الجنة بفقراء المهاجرين.

كما أن الثاني يدل على أن أول من يرد على الحوض فقراء المهاجرين ولذلك اختلف العلماء هل هذا التخصيص معتبر أم لا، والظاهر أن فقراء المهاجرين يسبقون أغنياء الصحابة، وهكذا غيرهم من سائر باقي الأمة، ففقراؤهم يسبقون أغنياءهم.

والحديثان ظاهران في فضل الفقراء والفقر، وإن لقلة ذات اليد لشأناً ليس لغيره.

وكفى الفقراء فضلاً وكرامة أن أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحبس نفسه معهم، ونهاه أن لا يطردهم عن مجلسه طاعة لمن اتبع هواه من الكفار وكان أمره فرطاً، فقال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ

﴿وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ . . .﴾ الآية، وقال عزّ وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾.

[٧٩] وعن خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه في قوله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال: جاء الأقرع بن حابس التميمي، وعُيَيْنة بن حِصن الفزاري، فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال، وصهيب، وخباب، وناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حوله حقّروهم فأتوه فخلوا به، فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العربُ فضْلَنا، فإن وجوه العرب ترد عليك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعْبُد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فأقعدهم إن شئت، قال: «نعم» قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً رضي الله تعالى عنه ليكتب ونحن قعود في ناحية إذ نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾، ثم قال: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ﴾ فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: **«سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة»** فدنونا منه يومئذ حتى وضعنا رُكَبَنَا على ركبتيه، فكان رسول الله ﷺ يجلس معنا فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾، قال: **«تجالس الأشراف ولا تُطِع مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا»** قال: عيينة، والأقرع، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ قال: **«هلاكاً»** ثم ضرب لهم مثلاً رجلين كمثل الحياة الدنيا، قال: فكان رسول الله ﷺ يقعد معنا فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه وإلا صبر أبداً حتى نقوم.

رواه ابن أبي شيبة في الفضائل من المصنف (٣٢٥١٨) بالآية الأولى، وأبو يعلى كاملاً، كما عند البوصيري في الإتحاف (٦٤٧٦) وسنده صحيح.

[٨٠] وعن عبدالرحمٰن بن سهل بن حنيف رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو في بعض أبياته: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ خرج يلتمس فوجد قوماً يذكرون الله تعالى، منهم ثائر الرأس، وحافي الجِلْد، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم فقال: «**الحمد لله الذي جعل في أمّتي من أمرني أن أصْبر نفسي معهم**».

رواه ابن جرير (٢٣٥/١٥)، والطبراني قال في المجمع (٢١/٧) ورجاله رجال الصحيح، ونحوه عن أبي سعيد الخدري عند الطبراني في الأوسط (٨٨٦) وأبي يعلى وغيرهما.

[٨١] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبي ﷺ ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: أُطرد هؤلاء لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل ورجلان لستُ أسمّيهما، فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ. . .﴾ إلخ.

رواه مسلم في الفضائل (١٨٨/١٨٧/١٥)، والنسائي في الكبرى (٣٤٠/٦)، وأبو يعلى (٨٢٢)، والحاكم (٣١٩/٣) وغيرهم.

ففي هذه الأحاديث فضل فقراء الصحابة ومن كان على نهجهم وسار على دربهم، وأنهم عند الله بالمكان الأعلى لا يبْلُغُ شأوَهم إلا من كان مثلهم بل جاء ما يدل على أن من أغضبهم غضب الله تعالى عليه.

[٨٢] فعن عائذ بن عَمرو المزني وهو من أهل بيعة الرضوان رضي الله تعالى عنه، أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب، وبلال في نفر، فقالوا: ما أخذَتْ سيوفُ الله من عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟ فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال: «يا

أبا بكر لعلك أغضبتَهم؟ لئن كنتَ أغضبتَهُم لقد أغضبتَ ربَّك» فأتاهم فقال: يا إخوتاه أغضبتُكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أُخَيَّ.

رواه مسلم في الفضائل (٦٦/١٦).

ففي هذا فضل ظاهر للضعفة من المؤمنين الصالحين وأن إذايتهم توجب غضب الله تعالى، فهذا أبو سفيان وإن أسلم تكلم فيه هؤلاء الصحابة الضعفة الصالحون بما يعد غيبة حتى أنكر عليهم الصدِّيق، لكن النبي ﷺ راعى قلوبهم ولم ينكر عليهم ذلك لاجتهادهم في شأن أبي سفيان، بل وجه شبه العتب إلى الصدِّيق فقال له: **«لعلك أغضبتهم فلئن كنت أغضبتهم لقد أغضبتَ ربك»** فهذه عظيمة بالنسبة للصدِّيق فلولا فضل أولئك ومنزلتهم عند الله تعالى لما قابل الصدِّيق وهو من هو بهذا الكلام.

* * *

❋ نبذة من عيش النبي ﷺ وعيش أصحابه

[٨٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو على سرير مضطجع مرمّل بشريط، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف، فدخل عليه نفر من أصحابه ودخل عمر فانحرف رسول الله ﷺ انحرافةً فلم يرَ عمر بين جنبيه وبين الشريط ثوباً، وقد أثّر الشريط بجنب رسول الله ﷺ فبكى عمر، فقال له النبي ﷺ: **«ما يبكيك يا عمر؟»** فقال: والله إلا أن أكون أعلم أنك أكرم على الله عزّ وجل من كسرى وقيصر، وهما يعبثان في الدنيا فيما يعبثان فيه، وأنت يا رسول الله بالمكان الذي أرى، فقال النبي ﷺ: **«أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»** فقال عمر: بلى، قال: **«فإنه كذاك»**.

[٨٤] وفي رواية عن عمر: وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف وأن عند رجليه قرظاً مصبوراً، وعند رأسه أُهُبٌ مُعلّقةٌ فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيت فقال: **«ما يبكيك؟»** فقلت: يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هو فيه وأنت رسول الله...

وفي رواية فقلت: يا رسول الله ادعُ الله فليوسع على أمتك فإن فارساً والروم قد وسّع عليهم وأعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً فقال: **«أوَفي هذا أنت يا ابن الخطاب؟»** وفي رواية: **«أوَفي شك أنت يا ابن الخطاب؟ إن أولئك قوم قد عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا»**، فقلت: يا رسول الله استغفر لي.

رواه أحمد (١٤٠/١٣٩/٣)، والبخاري في التفسير (٢٨٤/١٠) وفي النكاح (١٩٩/١١)، ومسلم فيه أيضاً (٩٢/٨٣/٨٢/١٠) من طرق وألفاظ مطولاً، وقد تقدم في مواضع.

وقوله: «أدم» بفتحتين، أي: جلد. وقوله: «قرظاً» بفتحتين، هو حَب كالعدس. وقوله: «مصبوراً» أي: مجموعاً. وقوله: «أهُبّ» بضمتين جمع إهاب: الجلد.

وفي هذا الحديث عبرة لنا ولأولئك المغرورين بالحياة الذين لا يألون جهداً في السعي وراء سرابها، والسخرية ممن يدعو إلى الزهد فيها والتقلُّل منها، فها هو ذا نبي الله ﷺ ينكر على ابن الخطاب ما رغب فيه ويعرّفه بأن الدنيا جعلها الله للكفرة، أما المؤمنون فاختار لهم الآخرة.

ويقول له بكل صراحة: **«أفي شك أنت يا ابن الخطاب... أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»**.

فماذا عسى أن يقول أولئك الراغبون في الدنيا الهائمون فيها بعد هذا، فمَن كان يريد الآخرة فليأتسِ برسول الله ﷺ ويتخذه قدوة في كل ميادين حياته وليس بتطويل اللحية وتقصير الثياب فحسب.

[٨٥] فعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: **«ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»**.

رواه أحمد (٤٤١/٣٩١/١)، والترمذي (٢١٩٥)، وابن ماجه (٤١٠٩)

كلاهما في الزهد، والحاكم (٤/٣١٠) وهو حديث صحيح لشواهده لذلك حسّنه وصححه الترمذي.

«وطاء» بكسر الواو أي: فراشاً ليناً.

وفي الحديث ما كان عليه النبي ﷺ من الانزواء عن الدنيا والزهد الكامل فيها، وقد شبّه نفسه في هذه الحياة بالراكب الذي يقطع المفاوز ويستريح تحت ظل شجرة عند اشتداد الحر فإذا ذهب وهجه انصرف عنها وتركها، فالدنيا مفازة وأهلها ركاب مسافرون يوشكون أن يقطعوها ويتركوها.

[٨٦] وليقينه ﷺ بدناءة الدنيا وفنائها، كان يقول: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**».

رواه البخاري (١٤/٧٣)، ومسلم (١٨/١٠٥) كلاهما في الرقاق، والترمذي (٢١٨١)، وابن ماجه (٤١٣٩) كلاهما في الزهد.

قوله: «قوتاً» أي: بقدر الحاجة مما لا فضول فيه يبعث على الترفُّه والتبسُّط في الدنيا وهو الكفاف.

قال ابن بطال: فيه دليل على فضل الكفاف وأخذ البلغة من الدنيا، والزهد فيما فوق ذلك رغبة في توفير نعيم الآخرة، وإيثاراً لما يبقى على ما يفنى، فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك. نقله الحافظ.

وقال القرطبي: معنى الحديث أنه طلب الكفاف، فإن القوت ما يقوت البدن ويكف عن الحاجة وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً.

وقد قدّمنا في الشمائل وغيرها ما فيه كفاية من عيش النبي ﷺ.

[٨٧] وعن محمد بن سيرين رحمه الله تعالى قال: كنا عند أبي هريرة وعليه ثوبان مُمَشَّقان من كتان، فمخط في أحدهما ثم قال: بخ، بخ، يتمخط أبو هريرة في الكتان، لقد رأيتني وإني لأخرّ فيما بين منبر رسول الله ﷺ وحُجرة عائشة من الجوع مغشياً علي، فيجيء الجائي فيضع

رِجله على عنقي يرى أن بي الجنون، وما بي جنون، وما هو إلا الجوع.

رواه البخاري في الاعتصام (٦٨/١٧)، والترمذي في الزهد (٢١٨٦)، وفي الشمائل (١٢٩).

«ممشقان»: بضم الميم الأولى وفتح الثانية ثم شين مشددة مفتوحة، المشق بالكسر المغرة وهو الطين الأحمر، وقوله: «بخ بخ» كلمة مدح ورضى بالشيء تكرر للمبالغة وفيها لغات.

وفيه ما كان عليه الصحابة من الحاجة الشديدة حتى كان يصل بهم الحال أن يسقطوا من صفوف الصلاة لشدة الجوع وضعفهم.

[٨٨] وعن فَضالة بن عُبَيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا صلّى بالناس يَخِرُّ رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة، وهم أصحاب الصُّفَّةِ حتى تقول الأعراب: هؤلاء مجانين أو مجانون، فإذا صلّى رسول الله ﷺ انصرف إليهم فقال: **«لو تعلمون ما لكم عند الله لأحببتم أن تزدادوا فاقةً وحاجة»** قال فضالة: أنا يومئذ مع رسول الله ﷺ.

رواه الترمذي في الزهد (٢١٨٧)، وابن حبان (٢٥٣٨) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه.

قوله: «يخر» أي: يسقط. «من الخصاصة» بفتح الخاء، أي: الجوع والضعف.

[٨٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: والله الذي لا إلٰه إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يوماً على طريقتهم الذي يخرجون منه، فمرّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني، فمرّ ولم يفعل، ثم مرّ بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشبعني فمرّ ولم يفعل، وفي رواية ليستتبعني، ثم مرّ بي أبو القاسم ﷺ فتبسّم حين رآني وعرف ما في نفسي وما في وجهي ثم قال: **«يا أبا هر»**، قلت: لبّيك يا رسول الله، قال: **«الْحَق»** ومضى، فاتَّبَعْتُه، فدخل، فاستأذن فأذن لي

فدخل فوجد لبناً في قدح فقال: «**من أين هذا اللبن؟**» قالوا: أهداه لك فلان، أو فلانة، قال: «**أبا هِرّ**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي**» قال: وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، إذا أتته صدقةٌ بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هديةٌ أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك فقلت: وما هذا اللبن في أهل الصفة؟ كنت أحقَّ أن أصيب من هذا اللبن شربةً أتقوّى بها، فإذا جاء أمرني فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بدٌّ، فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم، وأخذوا مجالسهم من البيت، قال: «**يا أبا هر**»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «**خذ فاعْطِهم**»، فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليّ القدح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح فيشرب حتى يروى، ثم يرد علي القدح حتى انتهيت إلى النبي ﷺ وقد رَوِي القومُ كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسم فقال: «**يا أبا هر**»، قلت: لبّيك يا رسول الله، قال: «**بقيت أنا وأنت**»، قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «**أقعد فاشرب**» فقعدت فشربت، فقال: «**اشرب**» فشربت فما زال يقول: «**اشرب**» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق ما أجد له مسلكاً، قال: «**فأرني**» فأعطيته القدح، فحمد الله وسمّى وشرب الفضلة.

رواه البخاري في الرقاق (٦١/١٤) باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخلّيهم عن الدنيا.

في هذا الحديث فوائد:

منها: ما كان عليه الصحابة من الخصاصة والحاجة وقلة ذات اليد.

ومنها: صبرهم على الجوع وتحمُّلهم مشاقه رغبة في الآخرة ومحبة في صحبة رسول الله ﷺ وجواره والكون معه ونصره.

ومنها: جواز الانقطاع إلى عبادة الله ولزوم المسجد لمن لا أهل له أو لا رغبة له في التزوج، كأهل الصفة الذين كانوا ملازمين للمسجد النبوي

يتلون كتاب الله تعالى ويعبدونه قانعين بما يفتح الله تعالى عليهم، فإذا طرق باب الجهاد كانوا أول من يبادر إليه.

ومنها: أن النبي ﷺ كان يواسيهم بالصدقة ويدفع إليهم كل ما جاءه منها ولا يشاركهم فيها، فإذا جاءته هدية استدعاهم إليها وأكل معهم منها.

ومنها: تلك المعجزة العظمى التي حصلت للنبي ﷺ في البركة في اللبن حيث شرب الجم الغفير من القدح حتى شبعوا ورووي جميعهم وبقي منها فضلة كان آخر من شربها النبي ﷺ، وكم لذلك من مثيل قد تقدم في السيرة.

[٩٠] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، ورأيتنا نغزو وما لنا طعام إلا ورق الحُبْلة، وهذا السَّمر، وإن أحدنا ليضع كما تضع الشاة، ما له خِلْطٌ، ثم أصبحت بنو أسَد تُعَزِّرُني على الإسلام خِبتُ إذاً وضلّ سَعْيي.

رواه أحمد (١٨٦/١٨١/١٧٤/١)، والبخاري في الأطعمة وفي الرقاق (٦٩/٦٨/١٤)، ومسلم في الزهد والرقاق (١٠١/١٠٠/١٨) وغيرهم.

«الحبلة»: بضم الحاء وسكون الباء و«السمر» بفتح السين المشددة وضم الميم. قال أبو عبيد وغيره: هما نوعان من شجر البادية. وقيل: الحُبْلة ثمر العضاه وهو شجر الشوك كالطلح والعوسج. وقوله: «ما له خلط» بكسر الخاء، يعني يصير بعراً لا يختلط لشدة يبسه. وقوله: «تعزرني» أي: توقفني على الأحكام وتعلمني.

أفاد الحديث أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم كان قد بلغ بهم الحال في الخصاصة أن أكلوا ورق الشجر ورعوا كما ترعى الدواب، والحال أنهم يجاهدون العدو حتى أنهم كانوا يضعون كما تضع الشياه من البعر.

وفيه فضل سعد بن أبي وقاص وأنه كان من أول من قاتل العدو ورمى في سبيل الله، وكان ذلك في أول سرية بعثها النبي ﷺ بإمارة عبيدة بن الحارث.

وقوله: «ثم أصبحت بنو أسد» كان هذا إنكاراً منه على بني أسد الذين شكوه إلى عمر حتى قالوا فيه: إنه لا يحسن أن يصلي، وقد تقدم ذلك في الفضائل.

[٩١] وقال عتبة بن غزوان رضي الله تعالى عنه: ولقد رأيتُني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى قَرِحَتْ أشداقنا فالتقطت بردة فاشتققتها بيني وبين سعد بن مالك فاتزرت بنصفها واتزر بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحدٌ حياً إلا أصبح أميراً على مِصرٍ من الأمصار.

رواه أحمد (١٧٤/٤) (ج٥/٦١) ومسلم في أول الزهد (١٠٢/١٨).

قوله: «قرحت» بفتح القاف وكسر الراء، يعني صار في أفواهنا قروح وجراح من خشونة ويبوسة الورق الذي نأكله.

وهذا كالذي قبله في خصاصتهم وأكلهم ورق الشجر وأخبارهم في هذا كثيرة، وقد تقدم بعضها في كتاب السيرة.

[٩٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لقد رأيت سبعين من أصحاب الصُفَّةِ ما منهم رجلٌ عليه رداءٌ، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته.

رواه البخاري في الصلاة في نوم الرجل في المسجد (٨٣/٨٢/٢).

يستفاد من هذا الحديث أن هؤلاء الصحابة لم يكن لأحد منهم رداء وإزار ولا له ثوبان، بل كانوا قد بلغوا في الحاجة إلى فقد ما يستر جميع جسد أحدهم وهذا نهاية ما يكون من الخصاصة، فقد كانوا جامعين بين الجوع والعري لكنهم توسّعوا بعد الفتوحات الإسلامية وأقبلت عليهم الدنيا، وأصبح الكثير من فقرائهم أمراء على الأمصار رضي الله تعالى عنهم.

[٩٣] وعن أبي هريرة أيضاً قال: خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج

فيها، ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: **«ما جاء بك يا أبا بكر؟»** فقال: خرجت ألقى رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه، فلم يلبث أن جاء عمر فقال: **«ما جاء بك يا عمر؟»** قال: الجوع يا رسول الله، قال: **«وأنا قد وجدت بعض ذلك»**، فانطلقوا إلى منزل أبي الهيثم بن التَّيْهان الأنصاري وكان رجلاً كثير النخل والشاء ولم يكن له خدم، فلم يجدوه فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء، ولم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقِرْبَةٍ يَزْعَبُها، فوضعها ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويَفْدِيه بأبيه وأمه، ثم انطلق بهم إلى حديقته فبسط لهم بساطاً ثم انطلق إلى نخلة فجاء بقِنْوٍ فوضعه، فقال النبي ﷺ: **«أفلا تنقيت لنا من رطبه؟»** فقال: يا رسول الله إني أردت أن تختاروا، وقال: **«تخيّروا من رُطَبِهِ وبُسْره»** فأكلوا وشربوا من ذلك الماء، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة ظِلٌ باردٌ ورُطبٌ طَيِّبٌ وماءٌ باردٌ»**، فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً فقال النبي ﷺ: **«لا تذْبَحَنَّ ذات دَرٍّ»** فذبح لهم عَناقاً أو جدياً، فأتاهم بها فأكلوا، فقال النبي ﷺ: **«هل لك خادم؟»** قال: لا، قال: **«فإذا أتانا سَبْيٌ فأتِنا»**، فأُتِي النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالثٌ، فأتاه أبو الهيثم فقال النبي ﷺ: **«اختر منهما»**، فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال ﷺ: **«إن المُستشار مُؤتمَن، خذ هذا فإني رأيته يصلي واسْتَوْصِ به معروفاً»** فانطلق أبو الهيثم إلى امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ فقالت امرأته: ما أنت ببالغ ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تُعتِقه، قال: هو عَتِيقٌ، فقال النبي ﷺ: **«إن الله لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خبالاً، ومن يُوق بطانة السوء فقد وُقِي»**.

رواه أبو داود في الأدب (٥١٢٨)، والترمذي في الزهد (٢١٨٨)، وفي الشمائل (١٣٤) مطولاً بسند صحيح على شرط البخاري عند الترمذي في طريق، ورواه مسلم في الأشربة (٢٠٣٨) مختصراً إلى قوله: **«هل لك خادم»** وأبعاضه واردة عند غير الترمذي مفرّقة بأسانيد صحيحة.

«يستعذب»: أي يأتينا بماء عذب. **«يزعبها»**: كيمنعها أي: يحملها

ممتلئة. «فجاء بقنو»: بكسر القاف، هو عذق النخلة الحامل للتمر. «ذات در»: أي صاحبة لبن. «عناقاً»: بفتح العين، هي الأنثى من المعز. «بطانة»: بكسر الباء، هو الصاحب الذي تثق به وتطلعه على سرك. «لا تألوه خَبَالاً»: أي لا تقصر في إفساد أمره، والخبال: الفساد.

وفي الحديث بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ هو وأصحابه من الحاجة والخصاصة وشظف العيش وقلة ذات اليد حتى من الضروريات التي يقيمون بها أصلابهم، وهم مع ذلك صابرون راضون بما قدّر الله تعالى عليهم، محتسبون قانعون بما يسد رمقهم.

هذا ونبينا ﷺ قد عرض عليه الرب تعالى أن يكون نبياً غنياً... فاختار الفقر مع العبودية لله عزّ وجل. وقد قدّمنا في الشمائل النبوية ما فيه كفاية من ذكر ما جاء في عيش النبي ﷺ.

وفي الحديث مع ذلك فوائد لا تخفى على القارىء اللبيب.

* * *

حال من كان همه الدنيا

[٩٤] عن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن كانت الدنيا همّه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومَن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة»**.

رواه أحمد (١٨٣/٥) وابن ماجه في الزهد (٤١٠٥)، وابن حبان بالموارد (٧٢)، وسنده صحيح.

وأخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٨٦) عن أنس بنحوه.

[٩٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: **«إن الله يقول: يا ابن آدم تفرّغ لعبادتي، أملأ صدرك غِنًى وأسد فقرك، وإن لا تفعل ملأتُ يديك شُغْلاً ولم أسُدّ فقرك»**.

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٨٧)، وابن ماجه في الزهد (٤١٠٧)، وابن حبان (٢٤٧٧) بإسناد لا بأس به وهو صحيح لسابقه ولشاهد له عن معقل بن يسار.

رواه الحاكم في الرقاق (٤٢٦/٤) وصححه.

قوله: «وأسد فقرك» أي: أقضي لك مهماتك وأغنيك عن الخلق.

الحديثان يدلان على أن الله عزّ وجل يعامل عباده حسب نياتهم وهممهم، فمن كان همه الآخرة والعمل لها والانقطاع لعبادة الله جمع الله شمله وقضى له ما يهمه من أمر دنياه وجعل قلبه غنياً به تعالى.

أما من كانت نيته الدنيا وطلبها والجري وراءها والغرور بزينتها وبهجتها وشهواتها ناسياً آخرته، فهذا سيملأ الله يديه شغلاً ويعيش مفتوناً مشتت الشمل فقير الصدر وإن ملك الدنيا كلها.

وفي القرآن الكريم: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

قال المفسرون: عبّر تعالى بحرثي الآخرة والدنيا عن العمل، فحرث الآخرة الإيمان والعمل الصالح. وحرث الدنيا هو العمل لها والقناعة بها وبمشتهياتها، فمن كان قصده الآخرة ضاعف الله له الأجور، ومن كان همه الدنيا أعطاه الله ما قدر له منها وكان في الآخرة صفر اليدين لا نصيب له منها، وقال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾.

ومعناه أن من كان يريد بعمله الدنيا فقط، فلها يعمل ويسعى ليس له هم إلا الدنيا وزينتها ومستلذاتها، عجّل الله تعالى له فيها ما يشاء تعجيله من نعيمها لا كل ما يريده، ثم جعل له في الآخرة جهنم يدخلها مهاناً حقيراً طريداً من رحمة الله.

ومن أراد الدار الآخرة وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات والحالة أنه مؤمن صادق الإيمان، فهذا كان عمله مقبولاً عند الله.

فكل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة يعطيه تعالى من عطائه الواسع فضلاً منه تعالى فيعطي المؤمن والكافر والطائع والعاصي، وما كان عطاؤه تعالى ممنوعاً عن أحد. . . ثم ختم الآيات بقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ تزهيداً في الدنيا وترغيباً في الآخرة.

وقال عزّ وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قال قتادة: من كانت الدنيا همه ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة.

وفي أمثال هؤلاء ممن لا تهمهم الآخرة ولا يرجون لقاء الله يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

فهذا الصنف من الناس يشمل الكفار وأشباههم ممن أعمتهم الدنيا عن الآخرة وأصبحوا كأنهم لا يتوقعون لقاء الله ولا يخطر ببالهم ما سيلقونه وراء هذه الحياة، فهؤلاء قد قنعوا بهذه الحياة الخسيسة عن الآخرة النفيسة، وآثروا ما يفنى على ما يبقى واطمأنوا بها وسكنوا إليها وغفلوا عن آيات الله التشريعية والكونية فلم ينظروا ولم يتفكروا، فهؤلاء مثواهم ومصيرهم النار بسبب إجرامهم ونسيانهم ما خلقوا لأجله.

والآيات في هذا المعنى كثيرة في القرآن الكريم كلها تزهد في الدنيا وتقلل من شأنها وترغب في الآخرة وتعظم أمرها.

* * *

❊ لا تنظر إلى من هو فوقك في الدنيا

[٩٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»**.

وفي رواية: **«إذا نظر أحدُكم إلى مَن فُضِّل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى مَن هو أسفل منه ممن فُضِّل عليه»**.

رواه أحمد (٢/٢٥٤/٤٨١)، والبخاري بالرواية الثانية في الرقاق (١٠٥/١٤)، ومسلم في الزهد والرقائق (٩٧/١٨)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٣١)، وابن ماجه في الزهد (٤١٤٣) وغيرهم بالرواية الأولى.

قوله: «أجدر» أي: أحق. «أن لا تزدروا»: أي تحتقروا نعمة الله عليكم.

يستفاد من الحديث أنه يجب على المسلم أن ينظر دائماً إلى من هم دونه في الخلقة والصورة والمال والأهل والأولاد ونِعَم الدنيا ليدوم شكره لله تعالى وإكباره لما أسدى إليه من النعم، ولا ينظر إلى من هو فوقه ممن فضل عليه في حُسن الصورة وتمام الجسم والبسط في الدنيا وكثرة المال والرياسة والجاه والصدارة والمناصب، فإن من نظر إلى أمثال هؤلاء احتقر ما أنعم الله تعالى به عليه من نعمه الكثيرة المتوالية، ثم هو مع ذلك لا يزال في تعب مع نفسه في منافستهم واللحاق بهم وتفوقه عليهم، وذلك عذاب عظيم وخسران مبين.

قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير، لأن الإنسان إذا رأى من فضل عليه في الدنيا طلبت نفسه مثل ذلك واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى وحرص على الازدياد ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس، وأما إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها ظهرت له نعمة الله تعالى عليه فشكرها وتواضع وفعل فيه الخير... نقله النووي رحمه الله تعالى.

هذا ما يتعلق بشؤون الدنيا، أما أمور الآخرة فينبغي للإنسان أن ينظر دائماً إلى من هو فوقه في قوة الإيمان والاستقامة وكثرة الأعمال الصالحة ليحتقر نفسه وتقصيره، فيحمله ذلك على التنافس مع من تفوّق عليه في تقوى الله عزّ وجل وتزكية نفسه، وفي ذلك خيره وصلاحه إن شاء الله.

* * *

فائدة

[٩٧] إذا علمت ما تقدم من التزهيد في الدنيا والأمر بالحذر منها وفضل الفقر والفقراء وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من التقلُّل من الدنيا والإعراض عنها والرغبة في الآخرة، تبين لك فضل الفقر وذم الغنى، وقد اختلف علماؤنا رحمهم الله تعالى في أيهما أفضل اختلافاً كثيراً فمنهم من رجح الفقر، ومنهم من رجح الغنى، ومنهم من فصل كأبي حامد الغزالي ومن تبعه.

والحق في ذلك أن يقال: إن الأمر يختلف باختلاف الأحوال، فالفقير الصابر القانع الراضي خير وأفضل من الغني الشاكر، فلا ينبغي أن يتشكك في ذلك لأن الفقر هو الذي اختاره الله تعالى لنبيه ﷺ فكان أزهد الناس في الحياة وعاش مقلاً من الدنيا قانعاً بالكفاف والقوت الذي كان يدعو به فيقول: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**». وكان راضياً بما آتاه الله منها ولا يختار الله له إلا الأفضل.

وهذا ما اختاره أكثر مشايخ الصوفية وكثير من العلماء وقالوا: إن الغنى وإن كان فيه خير لكنه عائق عن الله عزّ وجل غالباً، والفقر وإن كان فيه خطر أيضاً غير أن الغنى أشد خطراً من فتنة الفقر، فالسلامة معه أكثر. وانظر للتوسع كتاب الفقر من «الإحياء» لأبي حامد الغزالي، وكتاب الرقاق من «الفتح» في باب فضل الفقر.

* * *

❋ ذكر الموت والقبور

[٩٨] قال أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: **«يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفةُ تتبعها الرادِفة، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموتُ بما فيه»**.

رواه أحمد (١٣٦/٥)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٧٨)، والحاكم (٤٢١/٢) وصححه، وهو كما قال الشاهد له.

«الراجفة»: النفخة الأولى. «الرادفة»: النفخة الثانية.

وفي الحديث تذكير من النبي ﷺ لأمته بأن يكثروا ذكر الله عزّ وجل قبل مجيء الموت والقيامة حيث لا ينفع الإنسان شيء إلا ما قدّمه في حياته.

[٩٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أكثِروا ذِكْرَ هَاذِمِ اللذَّاتِ»**. يعني: الموت.

رواه أحمد (٢٩٣/٢)، والترمذي (٢١٢٩)، وابن ماجه (٤٢٥٨) كلاهما في الزهد، والنسائي (٤/٥)، وابن حبان (٢٥٥٩)، والحاكم (٣٢١/٤) بسند صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«هاذم»: بالذال المعجمة، أي: قاطع، وبالدال المهملة، أي: دافعها ومخربها.

ذكر الموت يكون بالتفكر فيه وفي سكراته وشدائده وما سيؤول أمر الإنسان إليه من نعيم أو عذاب وبماذا سيختم له ومن سيتولى قبض روحه أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب، وماذا سيلقى في قبره؟ هذا هو ذكره وليس معناه ترداد لفظ الموت باللسان كما يفعله البعض.

ولا شك أن التفكر فيما ذكرناه ينغص عيش الإنسان ويقطع لذاته ويخربها، ويحمله على الاستعداد للقاء الله عزّ وجل. أما نسيانه والغفلة عنه فيعتبر كارثة وخسارة... ولذا قال القائل:

واذكُر المـوتَ تـجـدْ راحـةً ... فـي ادِّكـارِ الـمـوتِ تـقـصـيرُ الأمَلْ

والقائل الآخر:

صَاحِ شَمِّرْ ولاَ تَزَلْ ذَاكِرَ الموتِ فنِسيانه ضلالٌ مُبينْ

[١٠٠] وعن هانىء مولى عثمان قال: كان عثمان رضي الله تعالى عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يَبُلَّ لحيتَه، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن القبر أولُ منزلٍ من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد منه**»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ما رأيتُ منظراً قط إلا القبر أفظع منه**».

رواه أحمد (٦٤/٦٣/١)، والترمذي (٢١٣٠)، وابن ماجه (٤٢٦٧) كلاهما في الزهد، والحاكم (٣٣١/٣٣٠/٤)، والبيهقي في السنن (٥٦/٤) وسنده حسن كما قال الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الحديث يدل على أن هول القبر عظيم، وأن منظره أفظع شيء وأشنعه، فليس للإنسان أهول ما يلقاه بعد موته من القبر، ولذلك كان سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه يبكي إذا وقف على قبر ويتأثر بمنظره لأنه أول منزل ينزله الراحل عن هذه الدار فلا يدري ماذا سيلقى فيه، فالله المستعان على ما هنالك.

ولتأثير القبور على القلوب والاتعاظ بها سنّ لنا النبي ﷺ زيارتها وأخبرنا بأن ذلك يُذكِّر الآخرة ويُرقّق القلوب ويُدمع العيون.

[١٠١] فعن بريدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قد كنتُ نهيتكُم عن زيارة القبور، فقد أُذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فزوروها فإنها تذكّر الآخرة**»، وفي رواية: «**فإنها تذكّر الموت**»، وفي أخرى: «**فإنها تُرقّق القلب، وتُدمِع العين، وتُذكّر الآخرة، ولا تقولوا هُجراً**».

رواه أحمد (٣٦١/٥)، ومسلم في الجنائز (٤٦/٧) وفي الأضاحي (١٣٤/١٣)، والترمذي (٩٣٩)، والنسائي (٧٣/٤)، وأبو داود (٣٢٣٥) كلهم في الجنائز واللفظ للترمذي، والرواية الثانية لمسلم والنسائي عن أبي هريرة، والثالثة رواها الحاكم (٣٧٦/١).

قوله: «هجراً» بضم الهاء وسكون الجيم، هو الكلام القبيح الفاحش.

الحديث جاء بالإذن في زيارة القبور بعد النهي عنها لما فيها من مصالح، أهمها: أنها تذكّر زوّارها بالموت والآخرة وترقّق قلوبهم وتحملهم على البكاء من خوف المآل وفي ذلك خير لهم. فإن المتردد على المقابر لا يزال صاحياً من غفلاته حزيناً على تقصيره في جانب ربه باكياً على تفريطه في حقوقه.

وقد كان من عادات السلف إكثارهم من الترداد على المقابر والاعتبار بها عملاً بالسنّة النبوية، ولهم في ذلك أخبار وحكايات مؤثرة.

قيل للإمام علي رضي الله تعالى عنه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ فقال: إني أجدهم خير جيران، إني أجدهم جيران صدق، يَكُفُّون الألسنة ويُذكِّرون الآخرة..

وكان أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال: أجلس إلى قوم يُذَكِّروني معادي، وإذا قمت لم يغتابوني.

ونظر عمرو بن العاص إلى المقبرة فنزل فصلّى ركعتين فقيل له: هذا شيء لم تكن تصنعه، فقال: ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببتُ أن أتقرّب إلى الله بهما.

وكان جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه يأتي القبور ليلاً ويقول: يا أهل القبور ما لي إذا دعوتكم لا تجيبوني، ثم يقول: حيل والله بينهم وبين جوابي، وكأني بي أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر.

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول: ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي في بواطنك.

وكان عطاء السلمي إذا جَنّ عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم قال: يا أهل القبور متُّم فوامَوْتاه، وعاينتُم أعمالكم فواعملاه، ثم يقول: غداً عطاء في القبور، غداً عطاء في القبور، فلا يزال ذلك دأبَه حتى يُصبحَ.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبدالعزيز رضي الله

تعالى عنه إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل عليّ فقال: يا ميمون هذه قبور آبائي بني أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذّاتهم وعيشهم، أما تراهم صرعى قد حلّت بهم المثلاتُ، واستحكم فيهم البِلَى، وأصابت الهوام مقيلاً في أبدانهم، ثم بكى وقال: والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمِنَ منْ عذاب الله.

وقال ثابت البناني: دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها إذا بصوت قائل: يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها.

وقال حاتم الأصم: مَن مرّ بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدعُ لهم فقد خان نفسه وخانهم.

وكان الربيع بن خُثَيم قد حفر في داره قبراً فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ ثم يرددها ويرد على نفسه: يا ربيع قد رجّعتُك فاعمل.

قال أبو موسى التميمي: توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم الحسن فقال له الحسن: يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة، فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال:

أخافُ وراءَ القبر إن لم تُعافِني ... أشدَّ من القبر التِهاباً وأضْيَقَا
إذا جاءني يومَ القيامةِ قائدٌ ... عنيفٌ وسوّاقٌ يَسوقُ الفرزدقا
لقدْ خابَ من أولادِ آدم مَن مشى ... إلى النار مغلولَ القلادةِ أزرقا

ومرّ داود الطائي على امرأة تبكي على قبر ولدها وهي تقول:

عُدِمتُ الحياةَ ولا نِلتُهَا ... إذا كنت في القبرِ قد ألحدوكَ
فكيف أذوقُ لطعمِ الكرَى ... وأنتَ بيمناك قد وسّدوكَ

ثم قالت: يا ابناه بأي خدَّيك بدأ الدود؟ فصعِق داود مكانه وخرّ مغشياً عليه.

وقال مالك بن دينار: مررت بالمقبرة فأنشأت أقول:

وأيـن الـمُـدِلُّ بـسُـلْـطـانـهِ   وأيـن الـمُـزَكـي إذا افـتـخـر

فنوديت من بينها أسمع صوتاً ولا أرى شخصاً:

تـفـانَـوْا جَـمـيـعـاً فـمـا مُـخْـبـر   ومـاتـوا جـمـيـعـاً ومـاتَ الـخـبرُ
تـروحُ وتَـغْـدو بَـنـاتُ الـثَّـرى   فـتَـمْـحُـو مـحـاسـن تـلـك الـصُّـور
فـيـا سـائـلـي عـن أنـاسٍ مَـضـوا   أمـا لـك فـيـمـا تـرى مُـعْـتَـبَـر

ووجد على قبر مكتوباً:

يـا أيُّـهـا الـنـاسُ كـان لـي أمـلٌ   قَـصُـر بـي عـن بـلـوغـه الأجـلُ
فـلـيـتـقِ الـلّـهَ ربَّـه رجـلٌ   أمـكـنَـه فـي حـيـاتـه الـعـمـلُ
مـا أنـا وحـدي نُـقِـلـتُ حـيـث تـرى   كُـلٌّ إلـى مـثـلـه سَـيَـنْـتَـقِـلُ

ووجد على قبر آخر:

إنّ الحبيب من الأحباب مُخْتَلسٌ   لا يمنعُ الموتَ بوَّابٌ ولا حرَسُ
فكيف تفرحُ بالدنيا ولذَّتِهَا   يا مَن يُعَدُّ عليه اللفظُ والنَّفَسُ
أصبحتَ يا غافلاً في النقص مُنْغمِسًا   وأنت دهرك في اللذات منغمِسُ
لا يرحم الموتُ ذا جهل لِغِرّتِه   ولا الذي كان منه العلم يُقْتَبَسُ
كم أقرتَّ الموتُ في قبر وقفت به   عن الجواب لساناً ما به خَرَسُ
قد كان قصرُك معموراً له شُرف   فقبرك اليوم في الأجداث مندَرِسُ

وكلامهم وأخبارهم وأحوالهم في هذا الباب أكثر من أن يأتي عليها الحصر، وقد اعتنى العلماء بأقوال وأخبار الزهّاد والعباد في الموت وأحواله إذ الموت لا ينجو منه أحد مهما كان حاله ومستواه وقوته فهو من السنن

الإلهية في خلقه، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تلفت الأنظار إلى هذا الأمر الجلل، والحدَث الخطير لتعتبر بها ذوو البصائر ويستعدوا له بما يجب من الزاد والعمل الصالح والتوبة النصوح.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ وقال: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ﴾، وقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾، وقال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾، وقال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ﴾، وقال لنبيه وحبيبه ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

وكان من دعاء النبي ﷺ: **«أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون»**.

فالموت لا يهاب أحداً، ولا يخاف ذا سلطان أو جاه أو مال أو منعة، ولا يرحم صغيراً، ولا يوقر كبيراً.

قال أبو العتاهية:

بَيـن عَـيْـن كـلِّ حـي ... عَـلَـمُ الـمـوتِ يـلـوحُ
نُـخ عـلـى نـفـسِـكَ يـا ... مـسـكـيـنُ إن كـنـتَ تـنـوحُ
لـتَـمـوتَـنَّ وإن عُـمِّـرْ ... تَ مـا عُـمِّـرَ نُـوحُ

وقال مسلم بن الوليد:

كـم رأيـنـا مـن أنـاس هـلـكـوا ... وبـكـى أحـبـابُـهـم ثـم بـكـوا
تـركـوا الـدنـيـا لـمـن بـعـدَهـم ... ودُهـم لـو قـدّمـوا مـا تـركـوا

وقال أبو جعفر المنصور العباسي عند وفاته:

أبا جعفر حانت وفاتك وانقضت ... سِـنُـوك وأمـرُ الله لا بُـدَّ واقـعُ
فـهـل كـاهِـنٌ أعـددتَـه أو مُـنَـجِّـم ... أبـا جـعـفـر عـنـك الـمـنـيـة دافـعُ

وقال عدي بن زيد:

أيـن أهـلُ الـديـار مـن قـوم نـوح ... ثـم عـاد مـن بـعـدهـم وثـمـودُ

بينما هم على الأسرّة والأنـ ... ـمَاطِ أفضتْ إلى التراب الخدودُ
وأطباءٌ بعدهم لحقوهم ... ضَلّ عنهم سُعوطُهم واللَّدودُ
وصحيح أضحى يعودُ مريضاً ... وهو أدنى للموت ممن يعودُ

وقال آخر:

ولدتْك إذ ولدتْك أمُك باكِيًا ... والقومُ حوْلك يضحكون سرورًا
فاعمل ليوم أن تكون إذا بكَوْا ... في يوم موتك ضاحكاً مسرورًا

* * *

حفظ الجوارح

[١٠٢] عن أبي سعيد رفعه: **«إذا أصبح ابنُ آدم فإن الأعضاء كُلَّها تُكفِّر اللسان فتقول: اتّقِ الله فينا فإنّما نحن بك، فإن استقمْتَ استقمْنا، وإن اعوججت اعوجَجْنا»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢٢٢٧)، وابن خزيمة والبيهقي في الشُعب (ج٤/٢٤٣/٢٤٤) وسنده حسن.

«تكفر اللسان»: أي تتذلل وتخضع له.

والحديث يدل على أن الجوارح كلها تابعة للسان فإن استقام وصلح كان ما عداه تابعاً له وإن اعوجّ وفسد اعوجّت الجوارح وفسدت، وفيه صحة كلام الأعضاء وأطراف الإنسان وأنها تتكلم كل صباح وتناشد اللسان بكلام لا نسمعه ولا نفهمه.

[١٠٣] وعن بلال بن الحارث رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغَ ما بلغتْ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٤٦٩/٣)، والترمذي في الزهد (٢١٣٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٦٩)، والحاكم (٤٥/١) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

الواجب على المسلم أن يكون على حذر مما يتكلم به فقد تخرج من لسانه هفوة لا يشعر بخطرها وفيها ما يوجب سخط الله عليه حتى يلقاه، وفي هذا مجال واسع هلك بسببه أقوام وأقوام، وقد قدّمنا بعض هذا في الأدب.

[١٠٤] وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«ويلٌ للذي يُحدِّث بالحديث ليُضحِك القوم فيكذب، ويلٌ له، ويلٌ له»**.

رواه أحمد (٧/٣/٢/٥)، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٠)، والترمذي في الزهد (٢١٣٦)، والنسائي في الكبرى (٣٢٩/٦)، والحاكم (٤٦/١) بسند حسن.

في الحديث وعيد شديد وذم لمن اعتادوا الإكثار من المزاح والتشدق بحكايات وأكاذيب ليُضحكوا بها الناس في المجالس والمجامع، وأن ذلك يُعد من كبار الذنوب.

نعم لا مانع من المزاح المرة بعد المرة إذا كان عارياً عن الكذب، وذكّر الناس بما يكرهون، فقد جاءت بذلك السنة العملية والقولية.

* * *

❋ زنا الجوارح

[١٠٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ما رأيت أشبه باللَّمَم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: **«إن اللّهَ كتب على ابن آدم حظَّه من الزِّنا، أدرك ذلك لا محالة، فزِنا العين النظر، وزِنا اللسان المنطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرجُ يُصَدِّق ذلك كلَّه ويكذِّبه»**.

وفي رواية عنه ﷺ قال: «**كُتِبَ على ابن آدم نصيبُه من الزنا، مدركٌ ذلك لا محالةَ، فالعينان زناهما النظر، والأُذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدُ زناها البطش، والرِّجْلُ زِناها الخُطا، والقلبُ يهوَى ويتمنّى ويُصدِّق ذلك الفرجُ ويُكذبُه**».

وفي رواية: «**لكلِّ بني آدمَ حَظٌّ من الزنا، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرِجلان يزنيان وزناهما المشي، والفم يزني وزناه القُبل، والقلب يهوى ويتمنى، والفرجُ يصدِّق ذلك أو يُكذِّبه**».

رواه البخاري في الاستئذان (٢٦٣/١٣)، ومسلم في القدر (٢٠٦/٢٠٥/١٦) بالرواية الأولى، ورواه مسلم بالرواية الثانية، أما الثالثة فرواها أحمد (٣٤٣/٢) وغيره بسند صحيح، وهو عند أحمد (٥٣٥/٥٢٨/٤١١/٣٧٢/٢) بنحو ما سبق.

[١٠٦] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (٤١٢/١) بسند صحيح بلفظ: «**العينان تزنيان، واليدان تزنيان، والرجلان تزنيان، والفرج يزني**».

قوله: «إن الله كتب» أي: قدّر في اللوح المحفوظ، فإن المقادير كلها كتبت فيه قبل أن يخلق الله السماوات والأرض بخمسين ألف عام كما قدّمنا في القدر. وقوله: «حظه» أي: نصيبه، وقوله: «وزناه القبل» بضم القاف وفتح الباء، جمع قبلة.

الحديث بجميع رواياته يدل على أن لكل هذه الجوارح المذكورة حظاً من الزنا لا بد وأن يقع لأنه قد سبق به قضاء الله وقدره.

وذكر ﷺ من هذه الجوارح الزانية ثمانية وهي: العينان، والأذنان، واليدان، والرجلان، والفم، واللسان، والقلب، والفرج، فالسبعة الأولى زناها مجازي سمي بذلك لأنه وسيلة إلى الزنا الأكبر الحقيقي وهو الفاحشة، ولأن كل جارحة تأخذ حظها من الالتذاذ والشهوة. فالعينان تستلذان بالنظر إلى محاسن المرأة والمثير منها وهي كلها فتنة ومثيرة، والنظر هو رائد الزنا

وأول فتنة تصيب القلب، والأذنان تستلذان بالاستماع إلى كلام المرأة الرقيق وخاصة الأغاني فهي بريد الزنا، واليدان تتلذذان بالملامسة، والرجلان تتلذذان بالمشي إلى الموعد، واللسان يتلذذ بالكلام والمغازلة مع النساء، والفم يتلذذ باللثم والتقبيل، أما القلب فيتلذذ بالتفكُّر والتمنّي.

وهذه كلها مقدمات ووسائل للفاحشة، فالفرج هو الذي يصدق ما سبق من الوسائل أو يكذبها، فإن وقع الإنسان في الفاحشة كتب عليه جميع ما سبق مضافاً إليها وكان قد أتى جريمة من أعظم الجرائم.

قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: معنى الحديث أن ابن آدم قدر عليه نصيب من الزنا، فمنهم من يكون زناه حقيقياً بإدخال الفرج في الفرج الحرام، ومنهم من يكون زناه مجازاً بالنظر الحرام أو الاستماع إلى الزنا وما يتعلق بتحصيله، أو بالمس باليد بأن يمس أجنبية بيده أو يقبّلها، أو بالمشي بالرِجل إلى الزنا، أو النظر أو اللمس أو الحديث الحرام مع أجنبية ونحو ذلك أو بالفكر بالقلب. فكل هذه أنواع من الزنا المجازي، والفرج يصدق ذلك كله أو يكذبه، معناه: أنه قد يحقق الزنا بالفرج وقد لا يحققه بأن لا يولج الفرج في الفرج وإن قارب ذلك، والله أعلم... قال: وأما قول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة، فمعناه تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ ومعنى الآية والله أعلم: الذين يجتنبون المعاصي غير اللمم يغفر لهم اللمم كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، فمعنى الآيتين أن اجتناب الكبائر يسقط الصغائر وهي اللمم.

وفسره ابن عباس بما في هذا الحديث من النظر واللمس ونحوهما، وهو كما قال.

هذا هو الصحيح في تفسير اللمم... إلخ.

* * *

❊ شهوات البطون والفروج

[١٠٧] عن أبي بَرْزَةَ الأسلَمِي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: **«إن مما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومُضِلاَّت الهوى»**.

رواه أحمد (٤/٤٢٠/٤٢٣) بسند صحيح.

قوله: «شهوات الغي» بفتح الغين وتشديد الياء، أصله الضلال والانهماك في الباطل. قوله: «ومضلات الهوى» أي: ما تهواه النفس من المعاصي.

خشي النبي ﷺ على أمته ما سيتبعونه من الشهوات الباطلة والانهماك في الضلال والإغراق في موافقة النفس في مستلذاتها وإطلاق العنان لها في تناول أكل المحرمات وإتيان الفواحش من الزنا واللواط... واتباع كل ما تهواه من شهواتها المحظورة.

وقد وقعت الأمة فيما خاف عليها ﷺ فغوت وضلّت وانهمكت في الغي والضلال ولم تعد تفكر وتهتم إلا فيما يعود إلى البطون والفروج.

❊ ❊ ❊

❊ ترك ما لا يعني

[١٠٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢١٣٨) وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) متصلاً ومرسلاً، والحديث حسّنه النووي وغيره.

الحديث يدل على أن ترك ما لا حاجة فيه من دين أو دنيا من محاسن الإسلام وكمال الإيمان، ويدخل في هذا كل المكروهات وكثير من المباحات.

❊ ❊ ❊

❊ البِر والإثم

[١٠٩] عن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال النبي ﷺ: **«البِرُّ حُسْنُ الخُلُق، والإثمُ ما حاكَ في نفسِك وكرِهتَ أن يطَّلِعَ عليه الناس»**.

رواه أحمد (١٨٢/٤)، ومسلم في البر والصلة (١١١/١١٠/١٦)، والترمذي في الزهد (٢٢٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد.

«البر»: بكسر الباء، هو اسم جامع لكل خير وحسن الخلق بعض أفراده.

وقوله: «ما حاك في نفسك» أي: تحرك وتردد في الصدر.

في الحديث بيان ما يعرف به البر والإثم، وأن الأول معظم أنواعه معاملة الآخرين بالأخلاق الحسنة والمعاملة الجميلة، بينما النوع الثاني وهو الإثم الذي يلام عليه الإنسان هو كل شيء يتردد في النفس ولا يطمئن إليه القلب ولا ينشرح إليه ويدخل في هذا المحرمات والمشتبه فيها والمكروهات وبعض المباحات التي تخل بالمروءة، فإن كثيراً من ذلك يفعله الإنسان ولا يحب أن يطلع عليه غيره من الناس فيعرف أن ذلك قد يكون من المباحات المشتبه فيها فتلحق بما في تعاطيه إثم، أما المحرمات المقطوع بها فلا يتردد القلب في محظورها ومنعها.

❊ ❊ ❊

❊ الحذر من الذنوب وإن دقّت

[١١٠] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إيّاكم ومُحَقَّرات الذنوب، فإنما مَثَلُ مُحَقَّرات الذنوب كمثل قومٍ نزلوا بطن وادٍ فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى جمعوا ما**

أنضجوا به خُبزهم، وإنّ مُحقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تُهلكه».

رواه أحمد (٥/٣٣١) قال الحافظ في الفتح: بسند حسن بل هو صحيح في الجملة.

[١١١] فعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة إياكِ ومُحَقَّرات الأعمال فإن لها من الله طالباً».**

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٤٣) قال في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات.

«محقرات»: بضم الميم وفتح الحاء والقاف المشددة، هي الذنوب التي يحتقرها الناس ولا يبالون بها.

والحديثان يدلان على وجوب الحذر من صغار الذنوب التي لا يتورع الناس عن ارتكابها كأكل لقمة من طعام الغير بغير إذنه أو نظرة إلى ما لا يحل النظر إليه أو لمس يد امرأة أجنبية مثلاً، فأمثال هذه الهفوات وإن كانت صغائر تغفر بالحسنات لكن الإصرار عليها قد يصيِّرها كبيرة تهلك الإنسان ويعاقبه الله عليها في الدنيا والآخرة، وقد ضرب النبي ﷺ للإصرار على صغار الذنوب مثلاً بقوم سفر نزلوا بواد وتفرقوا يجمعون الحطب ليوقدوا ناراً، فجاء كل واحد بعود فاجتمع عندهم ما أنضجوا به خبزهم. فهكذا صغار الذنوب إذا تراكمت أهلكت صاحبها.

قال ابن بطال: المحقرات إذا كثرت صارت كباراً مع الإصرار. وقد أخرج أسد بن موسى في الزهد عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: إن الرجل ليعمل الحسنة فيثق بها وينسى المُحَقَّرات فيلقى الله وقد أحاطت به، وإن الرجل ليعمل السيئة فلا يزال منها مُشفقاً حتى يلقى الله آمناً. ذكره الحافظ.

[١١٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشَّعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات. يعني بذلك المهلكات. وفي رواية: كنا نعدها ونحن مع رسول الله ﷺ من الكبائر.

رواه البخاري في الرقاق (١١٣/١٤) بالرواية الأولى والثانية، عزاها الحافظ في الفتح إلى الإسماعيلي، يعني في مستخرجه على صحيح البخاري.

قوله: «أدقّ» أفعل تفضيل من الدقة، أي: هي أهون وأحقر عندكم من دقة الشعر.

وفي هذا الأثر إشارة إلى تغيُّر الحال التي كان عليها الناس أيام النبوة وأن ما كانوا يعدّونه من الذنوب مهلكاً أصبح عند من جاء بعدهم شيئاً حقيراً لا يتورعون عنه، وفيه التحذير من التهاون بارتكاب صغار الذنوب وتحقيرها، وذلك ليس من شأن المؤمن كما يدل عليه الآتي:

[١١٣] فعن الحارث بن سويد رحمه الله تعالى قال: حدثنا عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه حديثين: أحدهما: عن النبي ﷺ، والآخر: عن نفسه، قال: «**إن المؤمنَ يرى ذنوبه كأنه قاعدٌ تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذُباب مرّ على أنفه**» فقال به هكذا... بيده فوق أنفه.

رواه البخاري في الدعوات (٣٥١/٣٥٠/١٣)، وأحمد رقم (٣٦٢٧) والترمذي في صفة القيامة (٢٣١٧).

ففي هذا بيان موقف المؤمن والفاجر من الذنوب، فالمؤمن يستعظمه ويخاف العقوبة عليه بينما الفاجر يحتقره ولا يعيره أي اهتمام.

قال الحافظ: قال ابن أبي جمرة: السبب في ذلك أن قلب المؤمن منور فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه عظم الأمر عليه... قال الحافظ: وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان فلا يأمن العقوبة بسببها، وهذا مثل المؤمن أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيىء، ثم نقل عن المحب الطبري، قال: إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته لأنه على يقين من الذنب وليس على يقين من المغفرة، والفاجر قليل المعرفة بالله فلذلك قلّ خوفه واستهان بالمعصية.

[١١٤] وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لأعلَمنَّ أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضاً، فيجعلها الله عزّ وجل هباءً منثوراً»** قال ثوبان: يا رسول الله صِفْهم لنا جلهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: **«أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٤٥) قال في الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات.

قوله: «من جلدتكم» أي: من جنسكم. «ويأخذون من الليل» أي: يأخذون من عبادة الليل وقيامه نصيباً مثلكم.

في هذا الحديث وعيد شديد وتهديد أكيد لمن ينتهكون محارم الله عزّ وجل في خلواتهم، فرغم أنهم يُكثرون من القربات والأعمال الصالحة ويحيون الليالي بالقيام، فإن كل ذلك سيجعل لهم كالهباء الذي تنثره الرياح، لأنهم ماتوا مصرّين على ما كانوا يفعلون ولم يتوبوا ويرعووا عما كانوا يأتون.

[١١٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال: **«إن العبد إذا أذنب ذنباً نُكِتَتْ في قلبه نكتةٌ سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبُه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلوَ قلبَه فهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾»**.

رواه أحمد (٢/٢٩٧)، والترمذي في التفسير (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٤)، وابن حبان (١٧٧١)، والحاكم (٢/٥١٧) وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«نُكِتَتْ»: بضم النون وكسر الكاف، أي: جعل فيه أثر كالنقطة شبه الوسخ في المرآة. «صقل»: بالصاد والسين بضم أوله، أي: جلي وذهب صداه. قوله: «الران» قال المفسرون: هو الذنب على الذنب حتى يسود

القلب. وذكر ابن كثير: أن الرين يعتري الكفار، والغيم الأبرار، والغين المقربين. وأصل الران، ويقال: الرين من ران وهو التغطية والصدأ على القلب وهو يعتري الكفار والمسرفين في الإجرام والفواحش. فالذنوب إذا تتابعت على القلب ولم يتب صاحبها أصبح أسود مظلماً فإن تاب ورجع إلى الله تعالى صقل وانجلى.

* * *

❊ أكثر ما يدخل الناس الجنة والنار

[١١٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة قال: «**تقوى الله وحُسن الخُلُق**» وسئل عن أكثر ما يُدخل الناس النار قال: «**الفَمُ والفَرْج**».

رواه أحمد (٢/٢٩١/٣٩٢/٤٤٢) والترمذي في البر والصلة (١٨٤٨) وابن ماجه في الزهد (٤٢٤٦) وابن حبان في الموارد (١٩٢٣)، وحسّنه الترمذي وصححه.

في الحديث بيان أكثر ما يوجب الجنة وما يوجب النار.

فأكثر أسباب دخول الجنة تقوى الله والاستقامة والخلق الحسن.

قال ابن المبارك: حسن الخلق هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى. أما أكثر أسباب موجبات النار فالفم والفرج لما يرتكبانه من الفواحش وكبار الذنوب والموبقات، فالفم ينشأ عنه الكفر والكذب واللعن والشتم والقذف وغيرها من الكبائر. والفرج ينشأ عنه الزنا واللواط... وهما من الفواحش العظام، فالإصرار على ما يصدر منهما موجب للنار إلا أن يعفو ربنا الكريم. وإنما عبّر ﷺ بقوله: «**أكثر**» لأن أسباب الجنة والنار لا تنحصر فيما ذكر.

[١١٧] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال

رسول الله ﷺ: **«مَن يضمن لي ما بين لِحْيَيْه وما بين رِجْليه أضمن له الجنة»**، وفي رواية: **«من يتوكل لي. . . أتوكل له بالجنة»**.

رواه البخاري في الرقاق (٩٠/١٤) وفي المحاربين، والترمذي في الزهد (٢٢٢٨) وابن ماجه.

قوله: «من يضمن لي» هو معنى: من يتوكل لي. قال الحافظ: بمعنى الوفاء بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه وهو أداء الحق الذي عليه. فالمعنى: من أدّى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه، وأدى الحق الذي يجب على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام. وقوله: «ما بين لحييه» المراد به اللسان. و«ما بين رجليه»: الفرج.

ففي الحديث التحريض على حفظ اللسان والفرج، وأن من حفظهما وقام بما يجب من حقوقهما كانت له الجنة مضمونة بضمان النبي ﷺ.

[١١٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن وقاهُ اللّهُ شرَّ ما بين لِحْيَيْه، وشرَّ ما بين رجليه دخل الجنة»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢٢٢٩)، وابن حبان بالموارد (٢٥٤٦)، وحسّنه الترمذي وصححه، وسنده صحيح عنده.

«من وقاه الله»: أي حفظه من شرهما.

ففي الحديث بشارة بالجنة كسابقه لمن حفظ هذين العضوين الخطيرين، ودخول الجنة لمن حفظهما يحتمل الدخول بدون سابقة عذاب إن مات صاحبهما طيباً تقياً. ويحتمل الدخول ولو بعد سابقة عذاب إن كان هناك ما يوجب العذاب من كبار الذنوب التي لم يتب منها صاحبها التي ارتكبها بغير لسانه وفرجه. والله غفور رحيم.

* * *

❋ استحيوا من الله حق الحياء

[١١٩] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اسْتَحْيوا من الله حقَّ الحياء»**، قلنا: يا نبيَّ الله إنا نَسْتَحْيِي والحمد لله، قال: **«ليس ذاك، ولكن الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى، وتذكر الموت والبِلَى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»**.

رواه أحمد (٣٦٧١) (ج١/٣٨٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٧٩)، والحاكم (٤/٣٢٣)، والبيهقي في الشعب (٦/١٤١/١٤٢) و(٧/٣٥٤) كلهم من طريق الصباح بن محمد وهو ضعيف. لكن للحديث طريق آخر، رواه الطبراني في الصغير (١/١٧٧) وجاء أيضاً عن الحسن مرسلاً كما أشار إليه البيهقي، فالحديث حسن والحديث صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: «الرأس وما وعى» أي: ما حفظه، والمراد به حفظ ما وعاه من معرفة الله تعالى والعلم بالحلال والحرام وأن لا يضيع ذلك، ثم حفظ السمع والبصر واللسان من هفواتها.

وقوله: «والبطن وما حوى» أي: ما جمع فيه بأن يحفظه من أكل الحرام وما فيه شبهة وأن يحفظ كذلك فرجه من الفواحش. وقوله: «البِلَى» أراد به مآل الإنسان في القبر.

فيستفاد من الحديث أن الحياء من الله تعالى هو أن لا يرى الإنسان على معصيته ومخالفة أمره، فمن حفظ جوارحه وراقب الله عزّ وجل في ذلك فهو المستحيي منه، وهذا باب واسع فإنه يدخل فيه حتى إتيان بعض المباحات فضلاً عن خلاف الأولى والمكروهات. فقد وجد في السلف من كان يستحيي من الله أن يمد رجليه، أو يكشف عورته عند قضاء حاجته، نسأل الله تعالى العفو والمسامحة وأن يعاملنا بمحض فضله، آمين.

❋ ❋ ❋

❊ اضمنوا لي سِتًّا أضمن لكم الجنة

[١٢٠] عن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اضمنوا لي ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة: أدُّوا إذا ائتُمِنتُم، وأوفوا إذا عاهدتم، واصدقوا إذا حدّثتم، واحفظوا فروجكم، وغضُّوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديكم**».

رواه أحمد (٣٢٣/٥)، وابن حبان (٥٠٦/١)، والحاكم (٣٥٨/٤/٣٥٩) والبيهقي في السنن (٢٨٨/٦) وفي الشعب (٣٢٠/٤/٣٢١) بسند حسن، وهو وإن كان منقطعاً فإن له شاهداً عن أنس بن مالك، رواه الحاكم (٣٥٩/٤)، بسند حسن وشاهد ثان عن الزبير، رواه البيهقي في شعب الإيمان (٣٦٤/٤/٣٦٥) ولا يضر انقطاعه، فالحديث بذلك صحيح.

هذه ست خصال من ضمنها للنبي ﷺ وحافظ عليها كان ضامناً له الجنة بإذن الله تعالى وهي: أداء الأمانات، وحفظ العهود، والصدق في الحديث، وحفظ الفروج من الفواحش، وغض الأبصار عن المحارم، وكف الأيدي عن سفك الدماء، وأخذ أموال الناس بالباطل، وضرب من لا يستحق الضرب، وغير ذلك.

وما أشد هذه الست وأثقلها على النفوس إلا من وفقه الله تعالى.

❊ ❊ ❊

❊ مَن يأخذ عني هذه الكلمات فيعمل بهن أو يُعَلِّم من يعمل بهن

[١٢١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يُعلّم من يعمل بهن؟**» فقال أبو هريرة: قلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعدّ خمساً وقال: «**اتّقِ المحارمَ تكن أعبدَ الناس، وارضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسِن إلى جارك تكن مؤمناً، وأحِبَّ للناس ما تحبّ لنفسك تكُن مسلماً، ولا تُكثِر الضحك فإن كثرة الضحك تُميت القلب**».

رواه أحمد (٢/٣١٠)، والترمذي في أول الزهد (٢١٢٧)، والبيهقي في الشعب (٧/٧٨) وفي سنده جهالة، لكنه حسن كما قال الترمذي فإن له طريقاً آخر بنحوه، رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢١٧) وحسّنه البوصيري في الزوائد.

وقسم الضحك رواه ابن ماجه (٤١٩٣) بسند صحيح.

«المحارم»: جمع محرَمة بفتح الراء وضمها وهي كل ما لا يحل انتهاكه من المحظورات. وقوله: «تكن أعبد الناس» أي: من أعبدهم، لأن ترك ذلك يوجب القيام بالفرائض. وقوله: «بما قسم الله لك» أي: ما أعطاك من الرزق «تكن أغنى الناس» أي: غنياً بقلبك لقناعتك. وقوله: «تميت القلب» أي: تصيِّره كالميت لا يأتي منه شيء ينتفع به.

فهذه الخصال الخمس من جوامع الوصايا والإرشادات النبوية ولها أخوات ستذكر لاحقاً. فمن تخلّق بها كان قد حاز قصب السبق في الخير والبر:

أولاً: من توقّى المحرمات الظاهرة والباطنة كان من أعبد الناس لأن صحيفته تكون نقية من السيئات، ويلزم من ذلك الإتيان بالواجبات، فإن زاد على ذلك الإتيان بالنوافل ولو قليلة ازداد بذلك خيراً وبركة، وهذا هو العابد، والإقلال من نوافل الأعمال مع ترك المحرمات، وأداء الواجبات خير كثير للعبد من كثرة الأعمال الصالحة وكثرة السيئات، فإن السلامة لا يضاهيها أي شيء.

ثانياً: من رضي وقنع بالقسمة التي قدّرها الله تعالى له من الرزق ولم يتطلع لغير ذلك كان أغنى الناس لأن الغنى في الحقيقة هو غنى القلب وذلك يكون بالقناعة بالمقدور.

ثالثاً: إسداء الخير إلى الجار ورفع الأذى عنه من موجبات كمال الإيمان، وقد تقدم في البر والصلة ما جاء من الوصية بالجار.

رابعاً: لا يكمل إيمان المرء وإسلامه حتى يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير.

خامساً: إن الضحك المشروع المحمود هو التبسُّم، والضحك بالقهقهة وإن كان مباحاً أحياناً كما جاء في السنّة، لكن الإكثار منه والمداومة عليه يصيِّر القلب مريضاً وقد يقسو ويصدأ بالران فيموت فلا يؤثر فيه شيء ولا يأتي منه خير البتة، عياذاً بالله.

***

ثلاث منجيات وثلاث مهلكات

[١٢٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثٌ كفّاراتٌ، وثلاثٌ درجاتٌ، وثلاثٌ مُنَجياتٌ، وثلاثٌ مُهلِكاتٌ. فأما الكفارات: فإسباغ الوضوء في السَّبَرَات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، ونقل الأقدام إلى الجماعات. وأما الدرجات: فإطعام الطعام، وإفشاء السلام، والصلاة بالليل والناس نيام. وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغِنى، وخشية الله في السر والعلانية. وأما المُهلِكات: فشُحٌّ مطاعٌ، وهوى مُتَّبَعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه»**.

رواه البزار (٨٠) مع كشف الأستار كاملاً، ورواه البيهقي في الشعب (٤٧١/١) مختصراً، وللحديث طرق وشواهد عن جماعة من الصحابة.

قال المنذري رحمه الله تعالى في الترغيب: وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى. وقال النور في المجمع (٩١/١) وفيه زائدة بن أبي الرقاد وزياد النميري وكلاهما مختلف في الاحتجاج به، وقد علمت أن له شواهد.

في الحديث اثنتا عشرة خصلة، تسع منهن يحملن بشارات ومسرّات، وثلاث منهن فيهن وعيد وتهديد وتحذير.

فالتسع الأُوَلُ منهن، ثلاث يكفرن الخطايا والذنوب وهن: إتمام الوضوء عند شدة البرد، وانتظار صلاة ثانية بعد أداء الأولى، ونقل الخطا إلى المساجد لِصلاة الجماعة. وثلاث يرفعن لصاحبها درجات يوم القيامة

وهي الإنفاق في أوجه الخير وإطعام المحتاجين وإفشاء السلام بين الناس ثم الصلاة ليلاً والناس في غمرة نائمون. وثلاث ينجين صاحبها من المهالك في الدنيا والآخرة وهي العدل وإعطاء كل ذي حق حقه في جميع الأحوال سواء كان المرء غضبان أم راضياً. والقصد والوسط في الإنفاق حالتَيْ الفقر والغنى كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ وخوف الله في السر والعلن.

أما الثلاث البواقي فهن الموبقات المهلكات للإنسان وهن: الشح والبخل بما يملكه الإنسان من متاع وحطام، واتباع هوى النفس في كل ما تشتهيه من محظورات، وإعجاب المرء بنفسه إما لجماله أو ماله أو حسبه أو علمه أو عمله... فهذه مهلكات لمن أصرّ عليها ومات متلبساً بها.

* * *

لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً

[١٢٣] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماءُ وحُقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملكٌ واضعٌ جبهته لله ساجداً، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرشِ، ولخرجتم إلى الصُعُداتِ تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرةً تُعضَد»**.

رواه أحمد (١٧٣/٥)، والترمذي (٢١٣٤)، وابن ماجه (٤١٩٠) كلاهما في الزهد، والحاكم (٥١٠/٢) (ج٥٤٤/٤/٥٧٩) بسند صحيح، وله شاهدان عن أبي الدرداء وأبي هريرة عند الحاكم وغيره.

[١٢٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»**.

رواه البخاري في التفسير وفي الرقاق (١٠٢/١٤)، ومسلم في

الفضائل، والترمذي في الزهد (٢١٣٥)، والدارمي في الرقاق (٢٧٣٨).

ومثله عن أنس عند البخاري في الرقاق (١٠٢/١٤)، وابن ماجه (٤١٩١) في الزهد.

قوله: «أطّت السماء» أي: صوّتت. «الصُعُدات»: بضم الصاد والعين جمع صعد بضمتين، والمراد بها هنا البراري. «تجأرون»: أي تتضرعون من الجؤار وهو التضرع ورفع الصوت بالاستغاثة.

والحديث الأول: يدل على عظمة أمر الله في خلقه وما جعله في السماء وأودع فيها من كثرة الملائكة حتى ثقلت بحملهم، وذلك يدل على عظمة الله عزّ وجل وكبريائه كما يدل على ما كان عليه النبي ﷺ من العلم بأحوال البرزخ وما وراء الطبيعة من الأهوال التي كان يشاهدها وكثرة الملائكة وأنواع الجن من العفاريت والزوابع وغير ذلك مما يتعلق بعظمة الله وانتقامه ممن يعصيه..

فلو شاهد الواحد منا ذلك لما ضحك ولعاش حياته باكياً ولما تلذذ بامرأة قط ولخرجنا جميعاً فارّين بأنفسنا إلى البراري والمفاوز نستغيث بالله ونجأر إليه.

* * *

الانقطاع إلى الله عزّ وجل

[١٢٥] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كان أخوان على عهد رسول الله ﷺ فكان أحدهما يأتي النبي ﷺ والآخر يحترف، فشكى المحترف أخاه إلى النبي ﷺ فقال: **«لعلك تُرزَق به»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢١٦٥)، والحاكم (٩٤/١)، وابن عبدالبر في كتاب العلم (٥٩/١) وسنده صحيح على شرط مسلم عند الترمذي.

في قوله ﷺ: **«لعلك تُرزق به»** دليل على أن الانقطاع إلى الله

عزّ وجل لعبادته أو تعلُّم دينه يعد من أعظم أسباب الرزق، وأن أسباب طلب العيش ليست خاصة بالمهن والحرف وغيرها من الأسباب الحسية العادية بل من أهمها وأعظمها تقوى الله والانقطاع لعبادته عزّ وجل. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾.

ولا أدل على ما ذكرنا من قوله ﷺ للأخ المحترف: «**لعلك ترزق به**» يعني بسبب عبادة أخيه وانقطاعه إلى مجالسة النبي ﷺ وتعلُّمه منه ما يأتي إليه من الوحي الإلهي يُهيىء الله له الرزق ويغدقه عليه.

* * *

❁ من نزلت به فاقة فانزلها بالله

[١٣٦] عن عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسدّ فاقته، ومَن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجل**».

رواه أحمد (٣٦٩٦)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٥)، والترمذي في الزهد (٢١٤٦) بسند صحيح على شرط مسلم.

«فاقة»: أي حاجة شديدة. «لم تسد» أي: لم تقض.

والحديث يدل على أنه ينبغي للمؤمن أن ينزل جميع شؤونه ومطالبه بالله، وأن يتعلق به تعلقاً كاملاً لأنه القادر على تغيير الحال وقضاء المآرب كلها، أما الغير فليس له من التصريف والتدبير في هذا الكون بذاته قلامة ظفر أو أقل، فكيف يعتمد عليه دون الله.

* * *

❋ ثلاث أقسم عليهن

[١٢٧] عن أبي كبشة الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«ثلاثٌ أُقسِمُ عليهن، وأُحدثكم حديثاً فاحفظوه»**، قال: **«ما نقص مالَ عبدٍ من صدقة، ولا ظُلم عبدٌ مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقرٍ** - أو كلمة نحوها -، **وأحدثكم حديثاً فاحفظوه»**، فقال: **«إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي ربه فيه ويصل به رحمه ويعلم للّه فيه حقاً، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم، لا يتقي فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم للّه فيه حقاً، فهو بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء»**.

رواه أحمد (٢٣١/٤)، والترمذي في الزهد (٢١٤٥) بهذا السياق مطولاً، ورواه أحمد (٢٣٠/٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٢٨) بالاقتصار على المثل، وحسّنه الترمذي وصححه.

قوله: «يخبط» بفتح الياء وكسر الباء، ومعناه: يتصرف فيه على غير بصيرة، وفي المثل: (فلان يخبط خبط عشواء).

في الحديث فوائد وإرشادات:

أولاً: فضل الصدقة وأن المال الذي أُخرجت منه ينمو ويزداد بركة.

ثانياً: فضل الصبر وحبس النفس عن التسخُّط والتضجُّر عندما يصاب الإنسان بظلم في ماله، أو عرضه، أو أهله، وأنه بذلك يزداد عزاً ورفعة.

ثالثاً: ذم التسوُّل وخاصة الإكثار منه لغير ضرورة، فإن ذلك يفتح عليه باب الفقر والحاجة.

رابعاً: ضرب النبي ﷺ مثلاً للدنيا بأربعة نفر: ذي علم ومال، وذي علم لا مال له، وذي مال بلا علم، وذي فاقة وجهل.

فالأولان أجرهما سواء، الأول: بعلمه ونفقته، والثاني: بنيته، فهما بأعلى المنازل يوم القيامة، والأخريان: وِزرهما سواءً، الأول: بخبْطه في مال الله بغير حق وبصيرة، والثاني: بنيته السيئة فهما في النار سيّان بأقبح المنازل عياذاً بالله.

* * *

❋ العزلة راحة للمؤمن من خُلاَّط السوء

[١٢٨] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: «**مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره**».

رواه البخاري في الجهاد وفي الرقاق (١٤/١١٥)، ومسلم في فضل الجهاد (١٣/٣٣/٣٤) وغيرهما.

«الشعب»: أصله الطريق بين الجبلين.

[١٢٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من خير معاش الناس لهم رجلٌ مُمسك عِنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هَيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانّه، أو رجل في غُنَيمَةٍ في رأس شَعَفَةٍ من هذه الشَّعَف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير**».

«على متنه» أي: ظهره. وقوله: «هيعة» هي الصوت عند حضور العدو. وقوله: «يبتغي القتل مظانه» أي: يطلبه في مواطنه التي يرجى فيها لعظيم رغبته في الشهادة. وقوله: «شعفة» بفتحات هي أعلى الجبل.

[١٣٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: **«ألا أخبركم بخير الناس؟ رجل ممسك بعِنان فرسه في سبيل الله، ألا أخبركم بالذي يتلوه؟ رجل معتزل في غُنَيْمَةٍ يؤدي حق الله فيها، ألا أخبركم بشر الناس؟ رجل يسأل بالله ولا يعطى به»**، وفي رواية: **«رجل معتزل في شعب يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعتزل شرور الناس»**.

رواه أحمد (١/٢٣٧/٣١٩/٣٢٢)، والترمذي في فضائل الجهاد (١٥١٥)، والنسائي في الكبرى (٢/٤٤)، وابن حبان (١٥٩٣/١٥٩٤) ورجاله رجال الشيخين غير ابن لهيعة. ولا يضر هنا للحديث السابق ولشاهد آخر عن أبي هريرة.

رواه الحاكم (٢/٦٧) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

قوله: «بعنان» بكسر العين، وهو سيرُ اللجام.

في هذه الأحاديث دليل على أن أفضل الناس الصنفان المذكوران:

أولهما: وهو أفضلهما رجل مؤمن يجاهد في سبيل الله لا يسمع صوتاً أو نداءً بذلك إلا خرج يطلب الشهادة والقتل في سبيل الله حريص على ذلك شديد الرغبة في قتال العدو.

ثانيهما: وهو يتلو سابقه في الفضل رجل مؤمن معتزل عن الناس في غنيمة له في رأس جبل أو في شعب من الشعاب أو نحو ذلك، قانع بما أعطاه الله من الرزق القليل، يعبد الله ويتّقيه ويؤدي حقوقه ليس من الناس إلا في خير لا يؤذي أحداً يدوم على ذلك حتى يأتيه أجله المحتوم.

وقد استدل بهذه الأحاديث من اختار العزلة على الخلطة وهم أكثر الزهّاد والنسّاك وكثير من أهل العلم لأن في ذلك السلامة من كثير من الغوائل والفتن والمعاصي.

والحق الأبلج الذي لا ينبغي أن يختلف فيه، هو أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، والزمان، والمكان، فقد تكون العزلة واجبة أو مستحبة على الأقل إذا ظهرت الفتن وكثر الشر وأهل الفساد، وعلى ذلك

يحمل كل ما جاء في هذا الصدد كما تقدم لنا في حديث أبي سعيد: «يوشك أن يكون خير مال المسلم... يفر بدينه من الفتن» وحديث عبدالله بن عمرو: «وإذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم» أي: اختلطت وفسدت ولم يبقَ لهم عهود ولا حرمة ولا ذمام. «وخفت أماناتُهم» أي: قلّت فيهم الأمانة وأصبحوا يموج بعضهم في بعض فلا يعرف الأمين من الخائن ولا البر من الفاجر... وشبك بين أصابعه ثم قال له: «الزم بيتك واملك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر الخاصة، ودع عنك أمر العامة».

فإذا رأى المسلم ما ذكر فعليه أن يعتزل شرور الناس ومجامعهم العامة ويحفظ عليه لسانه ويأخذ ما يعرفه من الشريعة فيتمسك به ويشارك الناس في الجماعات والجمعات وغير ذلك من المعروف، ويترك ما ينكره من أمر الناس، وعليه نفسه فليجاهدها في الله وليسعَ في تزكيتها وليدع شؤون العامة فلا يتدخل فيها، هذا ما يقتضيه المقام والسلامة لا يعد لها شيء.

* * *

❋ إذا أراد اللّه بعبد خيراً عسَّلَهُ

[١٣١] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا أراد الله بعبدٍ خيراً استعمله»** فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: **«يوفقه لعملٍ صالحٍ قبل الموت»**.

رواه أحمد (١٢٠/١٠٦/٣)، والترمذي في القدر (١٩٧٤)، وابن حبان (١٨٢١)، والحاكم (٣٤٠/١) بسند صحيح على شرطهما، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم.

[١٣٢] وعن عمرو بن الحَمِق الخزاعي قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله بعبد خيراً عسَّله قبل موته»** قيل: وما عسَّله قبل موته؟ قال: **«يفتح له عمل صالح بين يدَي موته حتى يرضى عنه مَن حوله»**.

وفي رواية: «**يفتح له عمل صالح بين يدي موته يؤخذ به عنه فيحببه إلى أهله وجيرانه**».

رواه أحمد (١٣٥/٤) (ج٥/٢٢٤)، وابن حبان (١٨٢٢/١٨٢٣)، والحاكم (٣٤٠/١) وسنده صحيح.

وقوله: «عسله» شبّه العمل الصالح بالعسل لأن العرب تسمي كل ما تستحليه عسلاً.

الحديثان يدلان على أن من وفّق للعمل الصالح آخر حياته والإقبال على الله عزّ وجل فمات على ذلك، كان ذلك علامة على حُسن حاله، وأن الله تعالى أراد به خيراً، وأنه سعيد بفضل الله ورحمته.

* * *

الأعمال بالخواتيم

[١٣٣] عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله تعالى عنه قال: نظر النبي ﷺ إلى رجل يقاتل المشركين، وكان من أعظم المسلمين غَنَاءً عنهم فقال: «**مَن أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا**»، فتبعه رجل فلم يزل على ذلك حتى جُرحَ فاستعجل الموت فقال بِذُبابة سيفه فوضعه بين ثَدْيَيْه فتحامل عليه حتى خرجَ من بين كتفيه، فقال النبي ﷺ: «**إن العبدَ ليعملُ فيما يرى الناسُ عملَ أهل الجنة وإنه لمن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار وهو من أهل الجنة، وإنما الأعمالُ بخواتيمها**».

رواه البخاري في الرقاق (١١٤/١١٣/١٤)، ومسلم في القدر (٢٠٠/١٩٩/١٦).

[١٣٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عملُه بعمل**

أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة».

رواه مسلم في القدر (١٦/١٩٩).

ما ذكر في هذين الحديثين من انقلاب آخر العمر هو نادر والله سبحانه وتعالى حكم عدل، فمَن انقلبت أعماله من أعمال أهل الجنة إلى أعمال أهل النار فمات عليها لا بد وأن يكون في قلبه دغل ودخَن ولم يكن في إسلامه وأعماله صادقاً.

وإنما ذكر الحديثان وأمثالهما ليكون المؤمن على حذر وأن لا يأمن من سوء الخاتمة.

ونقل الحافظ عن ابن بطال قال: في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة، وتدبير لطيف، لأنه لو علم وكان ناجياً أعجِب وكسل، وإن كان هالكاً ازداد عتواً فحُجب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء.

قال الحافظ: وقد روى الطبري عن حفص بن حُمَيد قال: قلت لابن المبارك: رأيت رجلاً قتل رجلاً ظلماً فقلت في نفسي: أنا أفضل من هذا، فقال: أمنك على نفسك أشد من ذنبه. قال الطبري: لأنه لا يدري ما يؤول إليه الأمر، لعل القاتل يتوب فتُقبلُ توبتُه، ولعل الذي أنكر عليه يختم له بخاتمة السوء.

* * *

❋ جهاد النفس

[١٣٥] عن فضالة بن عُبَيْدٍ رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: **«ألا أُخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم، وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب».**

رواه أحمد (٢٢/٢١/٦)، وابن حبان (٢٥) مطولاً، ورواه الترمذي في الجهاد (١٤٨٦) وحسّنه وصححه، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٤)، وابن حبان (٢٥١٩)، والحاكم (١١/١٠/١) مختصراً وسنده صحيح.

وللحديث شواهد لأبعاضه تقدم بعضها في الإيمان وفي الأدب وشاهدنا منه هنا جملتا جهاد النفس والهجرة.

أما جهاد العدو، فقد تقدم الكلام عليه في كتاب الجهاد بما أغنى عن إعادته، وأما جهاد النفس وهو الجهاد الأكبر كما جاء به حديث: «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس**» فمعناه: قصرها وحملها على طاعة الله عزّ وجل أمراً ونهياً، وإتماماً للفائدة الأكيدة ننقل ما ذكره الحافظ في الفتح على قول البخاري في الرقاق: باب من جاهد نفسه في طاعة الله عزّ وجل ما نصه:

وقال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾، ويقع بمنع النفس عن المعاصي، وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشهوات المباحة لتتوفر لها في الآخرة.

قال الحافظ: ولئلا يعتاد الإكثار فيألفه فيجره إلى الشبهات فلا يأمن أن يقع في الحرام، قال: ونقل القشيري عن شيخه أبي علي الدقاق: من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريق شبهة. وعن أبي عمرو بن بجيد: من كرم عليه دينه هانت عليه نفسه.

قال القشيري: أصل مجاهدة النفس فطمها عن المألوفات، وحملها على غير هواها. وللنفس صفتان: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات. فالمجاهدة تقع بحسب ذلك. قال بعض الأئمة: جهاد النفس داخل في جهاد العدو، فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس، لأنها تدعو إلى اللذات المفضية بصاحبها إلى الوقوع في الحرام الذي يسخط الرب، والشيطان هو المعين على ذلك ويزينه لها، فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدته نفسه حملها على اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه،

وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدين فالأول: الجهاد الباطن، والثاني: الجهاد الظاهر.

قال الحافظ: وجهاد النفس أربع مراتب: حملها على تعلُّم أمور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثم حملها على تعليم من لا يعلم، ثم الدعاء إلى توحيد الله وقتال من خالف دينه وجحد نعمه، وأقوى المعين على جهاد النفس جهاد الشيطان بدفع ما يلقي إليه من الشبهة والشك، ثم تحسين ما نهى عنه من المحرمات، ثم ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات، وتمام ذلك من المجاهدة أن يكون متيقظاً لنفسه في جميع أحواله فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات وبالله التوفيق.

أما بالنسبة للجملة الثانية وهي الهجرة، فالهجرة العادية المعروفة تقدم الكلام عليها في الجهاد وفي السيرة.

أما الهجرة الحقيقية التي يحسب لها ألف حساب هي هجرة المعاصي والذنوب والفواحش والابتعاد عنها، ويلزم من ذلك هجران أهلها وقرناء السوء، ثم هجران مظان وقوعها ومواضعها. وبذلك تتم طاعة العبد لمولاه ويصلح حاله وتتزكى نفسه، وفقنا الله تعالى لما يوجب رضاه وأبعدنا مما يوجب سخطه ومقته.

***

❋ اتقِ اللّه حيثما كنت

[١٣٦] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتّقِ الله حيثُما كنت، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها، وخالق الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ»**.

رواه أحمد (١٥٣/٥)، والترمذي في البر والصلة (١٨٣١)، والدارمي في الرقاق (٣٧٩٤)، والحاكم (٥٤/١) وحسنه الترمذي وصححه، وكذا

صححه الحاكم على شرط البخاري ومسلم، وليس كما قال بل هو صحيح فقط، وما قيل من انقطاعه ينجبر بشواهده.

وهذا الحديث من جوامع إرشاداته ﷺ، فإن التقوى أساس الدين، وما ذكر بعدها هو من ذكر الخاص بعد العام، فإن فعل الحسنات بعد السيئات، ومعاشرة الناس بالأخلاق الحسنة من جملة التقوى.

والتقوى اسم مأخوذ من الوقاية وهو البُعد أو التباعد عما يضر، وجاء الأمر الإلهي بالتقوى في القرآن والسنة مسنداً تارة لله تعالى كقوله: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾، ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، ﴿وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ﴾ ومرة مسنداً إلى عذاب الله وناره كقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾، وثالثاً جاءت مسندة إلى يوم القيامة كقوله عزّ وجل: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

والمراد بالجميع هو التحفُّظ مما يوجب عذاب الله وعقابه وسخطه وغضبه وذلك يكون بالإيمان الصحيح والتوحيد الخالص، والعمل الصالح، واجتناب ما ينافي ذلك من الشرك والكفر والمعاصي والرذائل.

ولذا قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: المتقي: من يتقي الشرك والكبائر والفواحش.

والتقوى على مراتب خمسة: تقوى الكفر وتكون بالإيمان واعتناق دين الإسلام والنطق بالشهادتين. وتقوى المعاصي والفواحش وتكون بتركها مع العمل الصالح ولزوم التوبة كلما وقع ذنب. وتقوى الشبهات وتكون بلزوم الورع والابتعاد عما يحوم حول الحرام. وتقوى المباحات وتكون بالزهد في الحياة والمشتهيات المباحة. وتقوى ما سوى الله من الكائنات وتكون بوحدة الشهود والحضور مع الله في كل الحالات والإعراض عما سواه، وهذه أعلى مراتب التقوى ولا يتصف بها إلا أكابر المقربين.

ولعظم التقوى اهتمّ الله عزّ وجل بها في القرآن الكريم وذكرها في نحو من مائتين وأربعة عشر موضعاً إما أمراً بها أو مدحاً لها أو لأصحابها، أو بياناً لجزاء المتصفين بها وما أعدّه الله لهم في الآخرة، وقد ذكرتها مفصلة في كتابي «مع السابقين إلى الجنة بلا عتاب ولا عقاب».

وقد أكثر الله تعالى ورسوله ﷺ الأمر بها، وأشهر ما جاء في القرآن

في ذلك قوله عزّ وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾.

وقوله جلّ ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾.

وجاء في ذلك عشرات الأوامر بها.

وهكذا جاء الأمر بها عن النبي ﷺ بكثرة كقوله في موعظته المشهورة: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة**».

ولما خطب يوم النحر في حجة الوداع وصّى الناس بتقوى الله والسمع والطاعة لأئمتهم، وقال لأبي ذر في حديث له طويل: «**أوصيك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله**»، وقال أبو سعيد الخدري: قلت: يا رسول الله أوصني، قال: «**أوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء**». وقال: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**».

[١٣٧] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا الله ربكم، وصلُّوا خَمْسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة أموالكم طيبة بها أنفسكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم**».

رواه الترمذي قبل الزكاة (٥٤٨)، وابن حبان (٧٩٥)، والحاكم (٣٨٩/١) بسند صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وهذا الحديث قطعة من خطبته ﷺ في حجة الوداع...

وكان ﷺ إذا بعث سرية وصّى أميرها في خاصة نفسه بتقوى الله ويمن معه من المسلمين خيراً كما قدّمنا ذلك في الجهاد.

وعلى أيٍّ، فتقوى الله هي وصية الله لجميع خلقه من الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾، ولم يزل المسلمون منذ أيام السلف الصالح حتى وقتنا هذا وإلى ما شاء الله يتواصون بالتقوى والتحلِّي بها في السر والعلن.

* * *

❊ قل ربي الله ثم استقم

[١٣٨] وعن سفيان الثقفي رضي الله تعالى عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك، قال ﷺ: **«قل آمنت بالله ثم استقم»**، وفي رواية: **«قل ربي الله ثم استقم»**، قلت: فما أتقي؟ فأومأ إلى لسانه، وفي رواية: قلت: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال: **«هذا»**.

رواه مسلم في الإيمان (٩/٨/٢) مختصراً باللفظ الأول، ورواه أحمد (٤١٣/٣ و٣٨٥/٤)، والترمذي في الزهد (٢٢٣٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٢) كاملاً.

والحديث موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الآية.

فمن آمن بالله عزّ وجل وآمن بباقي كليات الإيمان ثم لزم طاعة الله وداوم على ذلك حتى الموت فقد حاز كل خير ولا يحتاج إلى شيء آخر يسأل عنه.

والاستقامة هي الثبات على الإيمان وطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ في الأقوال والأفعال والسلوك الحسن مع التخلي عن الفواحش والآثام، وهذا هو المطلوب من العبد ولأجله خُلق.

قال أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في رسالته: الاستقامة درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيماً في حالته ضاع سعيه وخاب جهده، قال: وقيل: الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر لأنها الخروج عن المعهودات ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدَي الله تعالى على حقيقة الصدق، ولذلك قال ﷺ: **«استقيموا ولن تحصوا»**.

وقوله ﷺ: **«اتقِ الله حيثما كنت»** يعني: أينما كنت في حضرك أو سفرك وعلى أي حال كنت في سرك وعلانيتك.

❋ إن الحسنات يُذهبن السيئات

وقوله ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» موافق لقوله عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ويزيد ذلك وضوحاً الأحاديث التالية:

[١٣٩] فعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها دون أن أمسها، فأنا هذا فاقضِ فِيَّ بما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، قال: فلم يرد النبي ﷺ شيئاً فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، فقال رجل من القوم: يا نبي الله هذا له خاصة، فقال: «**بل للناس كافة**».

وفي رواية: إن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ ...﴾ الآية، قال الرجل: إليّ هذا؟ قال: «**لمن عمل بها من أمتي**».

رواه البخاري في الصلاة وفي التفسير (٩/٤٢٦/٤٢٧)، ومسلم في التوبة (١٧/٧٩/٨٠/٨١)، والترمذي (٣٩١١)، والنسائي (٦/٣٦٦) كلاهما في التفسير، وابن ماجه في الصلاة (١٣٩٨) وفي الزهد (٤٢٥٤) واللفظ الأول: لمسلم والترمذي، والثاني: للشيخين والنسائي...

قوله: «**عالجت**» أي: داعبتها ونلت منها ما يكون بين الرجل وزوجته من قبلة ومباشرة... «**من غير أن أمسها**» أي أجامعها.

[١٤٠] وعن أبي اليَسَر رضي الله تعالى عنه قال: أتتني امرأة تبتاع تمراً فقلت: إن في البيت تمراً أطيب منه، فدخلتْ معي في البيت فأهويتُ إليها فقبّلتها فأتيتُ أبا بكر فذكرتُ ذلك له، فقال: استر على نفسك وتب ولا تخبر أحداً، فلم أصبر، فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال: استُر على نفسك وتُب ولا تخبر أحداً، فلم أصبر فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال لي: «**أخَلَفْتَ غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا؟**» حتى تمنى أنه لم

يكن أسلم إلا تلك الساعة حتى ظنّ أنه من أهل النار، قال: وأطرق رسول الله ﷺ طويلاً حتى أوحي إليه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ . . .﴾ الآية، قال أبو اليسر: فأتيتُ رسول الله ﷺ فقرأها عليّ فقال أصحابه: يا رسول الله ألهذا خاصة أم للناس عامة؟ قال: «**بل للناس عامة**».

رواه الترمذي (٢٩١٣)، والنسائي (٣٦٦/٦)، وابن جرير (١٣٧/١١) ثلاثتهم في التفسير، وحسّنه الترمذي وصححه.

«تبتاع»: أي تشتري. «فأهويت» أي: ملت إليها.

[**١٤١**] ونحوه عن معاذ رضي الله تعالى عنه قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله أرأيت رجلاً لقي امرأة وليس بينهما معرفة فليس يأتي الرجل إلى امرأته شيئاً إلا قد أتى هو إليها إلا أنه لم يجامعها، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ . . .﴾ الآية، فأمره أن يتوضأ ويصلي، قال معاذ: فقلت: يا رسول الله أهي له خاصة أو للمؤمنين عامة؟ قال: «**بل للمؤمنين عامة**».

رواه الترمذي (٢٩/٢) وسنده صحيح ولا يضر انقطاعه لسابقيه. . .

الظاهر أن هذه القصة كانت واحدة وقعت لرجل واحد هو أبو اليسر بن عمرو الأنصاري تصرف الرواة والناقلون في ألفاظها.

وفي الآية الكريمة مع هذه الأحاديث فضل واسع ورحمة شاملة للمؤمنين الذين تصدر منهم الهفوات واللمم من الذنوب الساعة بعد الساعة وأن ذلك يكفره الله بالحسنات، وأعظم ذلك وأشرفه الصلوات والمحافظة عليها. وفي حديثَي ابن مسعود وأبي اليسر أنه ينبغي لمن أتى ذنباً في خفاء أن يستر على نفسه ويتوب إلى الله منه ولا يذكره لأحد، فإن الله ذو الفضل الواسع يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات، وعلى كلٍّ فمَن صدرت منه سيئة فليتبعها حسنة أو حسنات ليكفر الله تعالى عنه بمنّه ورحمته.

أما قوله: «وخالق الناس بخلق حسن» فتقدم معناه مشروحاً بتوسُّع في الآداب والأخلاق.

* * *

❋ مراقبة اللّه والحضور معه وذكره

[١٤٢] عن حنظلة الأُسَيْدي رضي الله تعالى عنه وكان من كتّاب رسول الله ﷺ أنه مرّ بأبي بكر وهو يبكي فقال: «ما لك يا حنظلةُ؟» قال: نافق حنظلة يا أبا بكر نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة كأنّا رأيُ عينٍ، فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضَّيعة ونسينا كثيراً، قال: فوالله إنا كذلك، انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فانطلقنا، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: **«ما لك يا حنظلة؟»** قال: نافق حنظلة يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين فإذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيراً، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم، وعلى فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» ثلاث مرات.

رواه أحمد (٣٤٦/١٢٨/٤)، ومسلم في كتاب التوبة (٦٧/٦٦/١٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٣٢/٢٢٧٣) ورواه الطيالسي (٨٣) مختصراً بسند صحيح.

[١٤٣] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: إنا إذا كنا عندك فحدثتنا رقّت قلوبنا فإذا خرجنا من عندك عافسنا النساء والصبيان وفعلنا وفعلنا، فقال النبي ﷺ: «**إن تلك الساعة لو تدومون عليها لصافحتكم الملائكة**».

رواه أحمد (١٧٥/٣)، وأبو يعلى (١١٤/٣) بسند صحيح، وعزاه النور (٣٠٨/١٠) للبزار وأبي يعلى وقال: رجال البزار رجال الصحيح غير زهير بن الرازي وهو ثقة.

[١٤٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قلنا: يا رسول الله ما لنا إذا كنا عندك رَقَّتْ قلوبنا، وزهدنا وكنا من أهل الآخرة، فإذا خرجنا من عندك فأنِسْنا أهالينا وشممنا الأولاد أنكرنا أنفُسنا، فقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم تكونون إذا خرجتُم من عندي كنتم على حالتكم ذلك لزارتكم الملائكة في بيوتكم ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلْقٍ جديدٍ كي يذنبوا فيغفر لهم».

رواه الطيالسي (٧٥)، والحميدي (١١٥٠)، والترمذي في صفة الجنة (٢٣٤٣) وسنده صحيح عند بعضهم، وأورده النور في المجمع (٣٩٦/١٠) مختصراً برواية البزار، والطبراني في الأوسط وقال: رجاله رجال الصحيح.

قوله: «كأنا رأي عين» أي: كأننا نشاهد النار والجنة عياناً. قوله: «عافسنا» أي: عالجنا. و«الضيعة»: معاش الإنسان من تجارة وصناعة وحرفة.

دلّت هذه الأحاديث على أمور:

أولاً: أن التذكير بالجنة والنار ينفع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾، وخاصة إذا كان ذلك صادراً عن قلب صادق منوّر.

ثانياً: قد يصل الإنسان بالتذكير إلى حالة يرق معها قلبه ويعزم على التخلي عن الدنيا ويعد نفسه من أهل الآخرة ويصير كأنه يشاهد الجنة والنار.

ثالثاً: إن هذه الحالة لا تدوم للإنسان وذلك لما يطرأ عليه من مزاولة شؤون الحياة ومخالطة الأهل والأولاد والتمادي فيما لا علاقة له بالآخرة، وهذه الحالة قد تأتي بالتذكير، وقد تأتي بالتفكر أو حالة الذكر، وقد تأتي فجأة ثم سرعان ما تنقلب الأحوال إلى الأمور الطبيعية.

رابعاً: فيها دليل على أن المؤمن إذا داوم على التفكر في شؤون الآخرة وما يهدف إليها وذكر الله عزّ وجل مع الحضور ومراقبة الله تعالى، وصل إلى مقام مع الله تعالى يشاهد فيه الملائكة وتزوره عياناً وتصافحه في جميع مجال حياته في طريقه ومجالسه وفرشه.

خامساً: في ذلك دليل على جواز رؤية الملائكة وما وراء الطبيعة مما لا يُرَى لعامة الناس، وفي هذا ألف الإمام السيوطي رحمه الله تعالى: «تنوير الحَلَك في إمكان رؤية النبي والملك» وهذا لا يتردد فيه إلا معاند أو جاهل.

سادساً: في ذلك إثبات كرامات الأولياء التي هي الأمر الخارق للعادة مع التقوى والصلاح، والأدلة على ذلك كثيرة قرآناً وسنّة وإجماعاً، ويأتي الكلام عليها لاحقاً.

سابعاً: في قوله ﷺ: «**ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» دليل على أن المؤمن لا يلام على غفلته ومزاولته شهواته وأنه ليس بمطالَب بالحضور مع الله وبعبادته دائماً وعلى كل أحواله، بل ساعة يكون فيها مع الله بالعبادة من صلاة وتلاوة وذكر وتفكُّر، وساعة يكون فيها مع نفسه وشهواته، بل ومع المعصية، كما يدل عليه قوله ﷺ: «**لو لم تذنبوا**».

ثامناً: ليس في هذا إغراء على المعاصي كما قد يفهمه البعض، بل المراد بذلك بيان قضاء الله وحكمته في خلقه بأن قدّر عليهم الذنوب لحكم بالغة فيستغفرون منها فتتجلّى فيهم مغفرة الله ويظهر فيهم عفوه ورحمته إذا هم تابوا إليه، وسيأتي مزيد لهذا في التوبة إن شاء الله تعالى.

تاسعاً: وهو مسك الختام في هذه الأحاديث إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يجاهد نفسه ويقبل على الله عزّ وجل بكليته وأن يكون دائم الحضور مع الله ومراقبته في السر والعلن وأن لا ينسى الآخرة والمآل.

* * *

❊ تفكروا في آيات اللّه

[١٤٥] عن عبدالله بن سلام رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله فقال رسول الله ﷺ: «**فيمَ تتفكرون؟**» قالوا: نتفكر في الله، قال: «**لا تفكروا في الله وتفكروا في خلق الله، فإن ربنا خلق ملَكاً قدماه في الأرض السافلة السفلى ورأسه قد جاوز السماء العليا، ما بين قدميه إلى ركبتيه مسيرة ستمائة عام، وما بين كعبيه إلى أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام، والخالق أعظم من المخلوق**».

رواه أبو نعيم في الحلية (٦/٦٧) بسند حسن وعبدالجليل بن عطية

حسن الحديث، قال فيه الحافظ في التقريب: صدوق يهم وشهر بن حوشب، قال فيه النووي في شرح مسلم: تكلم فيه بغير حجة.

والحديث قال فيه العراقي في «المغني» بعد أن عزاه لأبي نعيم، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه. ثم إن الحديث له شواهد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، رواه الطبراني في الأوسط (٦٣١٥) واللالكائي في السُنة، والبيهقي في الشعب وسنده ضعيف جداً، وعن أبي هريرة وأبي ذر وابن عباس وغيرهم. وكلها ضعيفة والعمدة على الأول.

[١٤٦] وعن عُبَيْد بن عُمَيْر رحمه الله تعالى، قال لعائشة رضي الله تعالى عنها: أخبريني بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ؟ قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: **«يا عائشة ذريني أتعبَّد الليلة لربي»** قلت: والله إني لأحب قربك وأحب مباشرتك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت: فلم يزل يبكي حتى بلَّ حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى، فلم يزل يبكي حتى بلّ الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لِمَ تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: **«أفلا أكون عبداً شكوراً؟ لقد نزلت عليَّ الليلة آيةٌ ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها»**.

رواه ابن حبان في صحيحه بالإحسان (٦٢٠)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي (١٨٦)، وابن أبي الدنيا في التفكر، وابن المنذر كما في الدر المنثور (٢/٤٠٩) وسنده صحيح على شرط مسلم عند ابن حبان.

«التفكُّر»: هو التأمُّل والتدبُّر، ويقرب من هذه العبارات التذكُّر والنظر والاعتبار، ولقد أكثر الله عزّ وجل في القرآن الكريم من الأمر بالتفكُّر ومدح أصحابه ولفت أنظار عباده إلى النظر والاعتبار بآياته ومكوناته.

كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم...﴾ الآية.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

وقوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾.

وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

والآيات في ذلك كثيرة مفرّقة في سور القرآن الكريم.

والتفكر الذي دعا الله عباده إليه يكون في آلاء الله تعالى ونعمه وآياته الكونية الدالة عليه، وهي التي جاء بها الحديث: **«تفكروا في خلق الله»**، وهي التي أكثر الله من ذكرها في كتابه الكريم كدلائل عليه وكررها تكراراً كثيراً في أكثر السور كالسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم، والليل والنهار والريح والسحاب والمطر والنبات والزروع والثمار والحيوان والدواب

والأنعام والبحار والسفن، والجبال والأنهار... وذلك باعتبار أن أكثرها أصل مادة حياة الإنسان والحيوان وأنها أكثر الآيات وأكبرها وأظهرها دلالة على الربوبية ووحدة الألوهية.

فالتفكر في هذه الكائنات وما أودع الله عزّ وجل فيها من عجائب وحكم وأسرار يثمر معرفة الله عزّ وجل واليقين به، وذلك هو المقصود الأهم، وإذا عرف الإنسان الله عزّ وجل عبده حق عبادته وعلم بتفكره وتيقظه أن ما عند الله في الآخرة خير وأبقى فعمل لذلك وشمّر عن ساق الجِد حتى يوافيه أجله.

هذا ولا يوجد أجمع للفكرة وأنفع للقلب وأدعى لعمل الآخرة من قراءة القرآن بالتفكر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال، وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث اليقين في الله ومعرفته بصفاته وأسمائه وما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال، وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي للمؤمن أن يقرأه ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكر فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة، فقراءة آية بتفكّر وتفهُّم خير من ختمة بغير تدبُّر وفهم، وقد صحّ عن النبي ﷺ أنه بات ليلة يردد قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾، وقد تقدم في بحث القرآن من الجزء الثاني.

وقوله ﷺ: «**فإن ربنا خلق ملكاً قدماه في الأرض...**» إلخ، هذا مما يدل على عظمة الله عزّ وجل، فإذا كان ملك واحد خلق على هذا الشكل فكيف بغيره ممن لم نسمع بهم، وهم لا يحصون كثرة. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ومن هذا القبيل ما يلي:

[١٤٧] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُذِنَ لي أن أحدّث عن ملكٍ من ملائكة الله تعالى من حملة العرش ما بين شحمة أذنيه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة**».

رواه أبو داود في كتاب السنة (٤٧٢٧) بسند صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (١/٨٠) برواية أوسط الطبراني، وقال: ورجاله رجال الصحيح.

[١٤٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله أذن لي أن أحدّث عن ديكٍ قد مرقت رجلاه الأرض، وعنقه مُنثَنٍ تحت العرش وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا، فيرد عليه: ما يعلم ذلك من حلف بي كاذباً»**.

رواه الطبراني في الأوسط (٧٣٢٠)، والحاكم (٢٩٧/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه المنذري وغيره.

فهذا من العظمة بمكان! ملكٌ واحدٌ مسافة ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة، هذا شيء مدهش فكيف يا ترى يكون طوله وعرضه، وهذا ملك واحد من حملة العرش وهم ذوو عدد، فهؤلاء حملة العرش وقد عرفت عظمتهم فكيف بالعرش المحمول الذي هو سقف العوالم كلها من جنة ونار وسماوات وأرضين، إنه أعظم خلق الله عزّ وجل فكيف يكون خالقه وخالق الأكوان، إن العقول تقصر عن معرفة عظمة ذاته التي ليس كمثلها شيء والتي لا تتصورها عقول الخلق ولا تدرك كنهها الأبصار.

وقوله في حديث أبي هريرة: **«أن أحدث عن ديك»** هو ملك على صفة ديك، ولا غضاضة في ذلك، وإنما الغضاضة فيما جاء في حديث الأوعال الذي تضاربت فيه الأنظار، وقد قدمنا الكلام عليه في التفسير.

وقوله ﷺ في حديث عائشة: **«أُنزلت عليّ الليلة آية ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر»** المراد بها قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ الآية.

* * *

الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف

[١٤٩] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عزّ وجل قال: **«إن الله عزّ وجل كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمَن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنةً كاملة، فمن**

همَّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومَن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله سيئةً واحدةً».

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٠٦/١١٢) واللفظ له.

ورواه مسلم في الإيمان (٢/١٤٧/١٤٨) بألفاظ منها:

«قال الله عزّ وجل: إذا تحدّث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها»، وفي رواية: **«فإن عملها كتبتها عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف. وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإن عملها فأنا أكتبها له بمثلها»**، وقال رسول الله ﷺ: **«قالت الملائكة: ربِّ ذاك عبدك يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به، فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرَّايَ»**.

قوله: «مَن همّ بحسنة» الهمُّ بالشيء يطلق على خاطر النفس الذي لا يثبت، وعليه حملوا قوله تعالى في شأن سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ أي: خطر بباله ولم يعزم على ذلك. ويطلق على العزم ومنه في شأن امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ أي: عزمت وصمّمت، وعلى هذا يحمل هنا الهم أي: عزم بفعل الحسنة. وعزَم بفعل السيئة. وقوله: «إذا تحدث عبدي بأن يعمل» المراد بالتحدث هنا تحدث النفس وهو الهم والعزم السابق. وقوله: «ارقُبُوه» أي: انتظروه، وقوله: «من جرَّايَ» بفتح الجيم وتشديد الراء ثم ألف مقصورة، أي: تركها من أجلي وخوفاً مني.

وفي هذا الحديث فوائد:

أولاً: إن الله عزّ وجل كتب على الإنسان كل ما يأتيه من حسنات وسيئات وجعله تعالى مظهراً لتنفيذ قضائه، ماضياً فيه حكمه العادل.

ثانياً: تفضله على عباده المؤمنين بمجازاتهم بالحسنات على ما يهمون

ويعزمون عليه من الخير ولم يعملوه، وأنه تعالى يكتب لهم بكل همّة حسنة كاملة، بينما هم إذا عزموا على الشيء المشروع وعملوه ضاعف لهم الأجور والحسنات من عشر حسنات للحسنة الواحدة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وذلك حسب إيمان العبد وإخلاصه وخشوعه وحضوره مع الله تعالى ومحبته له.

ثالثاً: وهي من عظيم لطف الله ورحمته بعباده المؤمنين أن من عزم وصمم على إتيان مخالفة وفعل سيئة ثم جاهد نفسه وتركها خوفاً من الله عزّ وجل كتبت له حسنة وغفر له ما كان قد عزم عليه، فإن باشر السيئة واقترفها كتبت له سيئة واحدة بلا تضعيف، وفي ذلك من واسع فضل الله ورحمته بعباده ما يحمل العبد على فرحه بربه ورضاه به، وهيامه في محبته والإقبال على عبادته...

رابعاً: في الحديث دليل على أن أعمال القلوب تكتب كأعمال الجوارح الظاهرة، وأن الله عزّ وجل يعطي للكتبة الكرام اطلاعاً على ذلك كي يكتبوه ويكون قوله تعالى في شأنهم: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ شاملاً لفعل القلوب.

خامساً: في الحديث التفرقة بين ما يخطر على القلوب من الخواطر والوساوس النفسانية والشيطانية التي لا تثبت، وبين الخواطر التي يقع عليها العزم والتصميم لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، فما عزم عليه يؤاخذ عليه وما لا فلا.

وعلى الثاني حمل الحديث التالي:

[١٥٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل تجاوز لأمتي عما حدّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تكلّم به»**، وفي رواية: **«عما وسوست»**.

رواه البخاري في العتق (٦/٨٧)، وفي الأيمان والنذور (١٤/٣٥٧)، ومسلم في الإيمان (٢/١٤٧).

والمراد بالوسوسة هنا هو حديث النفس وتردد الشيء في باطن الإنسان من غير أن يطمئن إليه ويستقر عنده وهي الخواطر التي لا عزم معها ولا تصميم. فهذه من المعفوات المتجاوز عن الأخذ بها لأنها مما لا يستطاع دفعه. ولذلك كان مَن حدّثته نفسه بقتل شخص أو ارتكاب فاحشة، أو طلاق زوجة... كان معفوًا عنه ولا إثم عليه في ذلك ولا يلزمه طلاق.

هذا، وقد أطال الحافظ في الفتح الكلام على حديث: «مَن همّ...» إلخ، ونقل كثيراً من آراء العلماء، وكذا النووي في شرح مسلم، وما ذكرناه هي الخلاصة التي ينبغي الاعتماد عليها، والله تعالى أعلم.

* * *

❊ قرب الجنة والنار من العباد

[١٥١] عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«الجنةُ أقربُ إلى أحدكم من شِراك نعله، والنارُ مثلُ ذلك»**.

رواه أحمد (٤١٣/٣٨٧/١)، والبخاري في الرقاق (١٠٤/١٤).

«شراك نعله»: الشراك هو السير الذي يكون بوجه النعل ونحوه.

ومعنى الحديث كما قال العلماء: إن تحصيل الجنة سهل قريب بتصحيح القصد وفعل الطاعة والنار كذلك بموافقة الهوى وفعل المعصية.

فالطاعة موصلة إلى الجنة، والمعصية موصلة إلى النار، وإن الطاعة والمعصية قد تكون في أيسر الأشياء، فينبغي للمرء أن لا يزهد في قليل من الخير أن يأتيه ولا في قليل من الشر أن يجتنبه، فإنه لا يعلم الحسنة التي يرحمه الله بها، ولا السيئة التي يسخط عليه بها. والقرب هنا معنوي، فإن الجنة فوق السماوات السبع والنار أسفل سافلين.

* * *

❋ النوم عن الجنة والنار

[١٥٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما رأيتُ مثل النار نام هاربُها، ولا مثل الجنة نام طالبُها»**.

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٤٢٠)، والبغوي في شرح السنة (٣٧٢/١٤)، وأبو نعيم في الحلية (١٧٨/٨)، والقضاعي في مسند الشهاب (٦٧/٢)، وهو وإن كان في سنده يحيى بن عبيدالله بن موهب وهو ضعيف فإنه قد أخرجه الطبراني في الأوسط عن أنس والسهمي في تاريخ جرجان عن عمر رضي الله تعالى عنه، فالحديث لذلك حسن. أفاده الشيخ ناصر في الصحيحة (٩٥٣).

قوله: «مثلَ النار» أي: في الشدة والهول.

ومعنى الحديث: أن النار مع كونها لا مثيل لها في أنواع العذاب والأهوال والخزي والنكال، ومع ذلك ترى الفارّين منها غافلين عنها نائمين، وإن الجنة أيضاً لا يوازيها شيء في النعيم والخير والبهجة والسرور... ومع ذلك تجد محبِّيها وطالبيها ساهين نائمين عنها وعن التزود لها.

❋ ❋ ❋

❋ من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل

[١٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن خافَ أدلجَ، ومَن أدلجَ بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»**.

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٧١)، والحاكم (٣٠٧/٤/٣٠٨) وصححه ووافقه الذهبي، وفيه ضعف، وله شاهد عن أُبي بن كعب رواه أبو نعيم في الحلية (٣٧٧/٨)، والحاكم (٣٠٨/٤). فالحديث حسن كما قال الترمذي أو صحيح.

قوله: «أدلج» الإدلاج السير أول الليل وهو مثل ضرب لسالك الآخرة وأن من سارع إلى فعل الخيرات وانتهز الفرص في الأوقات المناسبة وفراغ القلب ونشاط الجوارح لا بد أن يصل إلى منزله الخالد وهو الجنة كما يصل المسافر المدلج أول الليل إلى منزله.

وقوله: «ألا إن سلعة الله غالية» هو تنبيه منه ﷺ لنا بأن الله عزّ وجل جعل سلعته وبضاعته الجنة وعرض بيعها على عباده وجعل ثمنها غالياً مرتفعاً، فمَن أدّى ثمنها حازها وأحرز عليها، ومَن لم يؤدِّ ثمنها رجع خاسئاً خائباً، وثمنها هو الإيمان والعمل الصالح وتقوى الله في السر والعلن.

وهذا كما قال تعالى في الجهاد في سبيل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ...﴾ الآية، غير أن في الآية جعل السلعة الأنفس والأموال والثمن الجنة، وفي الحديث جعل السلعة الجنة وثمنها الإيمان والعمل الصالح.

* * *

خير الناس التَّقِيُّ النَّقِيُّ

[١٥٤] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: **«كل مَخمُوم القَلْب، صدوقُ اللسان»** قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: **«هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي، ولا غل، ولا حسد»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢١٦) قال في الزوائد: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

«مخموم القلب»: هو النقي الطاهر القلب الذي لا غل فيه ولا حسد، مضافاً إليه صدق اللسان.

فمَن كان كذلك كان أفضل الناس لأنه إذا صلح القلب صلحت الجوارح، فلا يأتي منها إلا الطاعة.

* * *

نقض عرى الإسلام

[١٥٥] عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لَتُنْتَقَضَنَّ عُرَى الإسلام عروةً عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، أولهن نقضاً الحكم، وآخرهن الصلاة**».

رواه أحمد (٢٥١/٥)، والحاكم (٩٢/٤)، وابن حبان بالإحسان (٦٧١٥/١٥)، وسنده صحيح، وعزاه النور في المجمع (٢٨١/٧) لأحمد والطبراني وقال: رجالهما رجال الصحيح، وله شاهد عن فيروز الديلمي رواه أحمد (٢٣٢/٤) بلفظ: «**لينقضن الإسلام عروة عروة، كما ينقض الحبل قوة قوة**». وسنده صحيح.

«لتُنتقضن» بضم التاء الأولى وفتح التاء الثانية والقاف، أي: تحل وتفسخ. وقوله: «عرى» بضم العين وفتح الراء ثم ألف مقصورة جمع عروة وهي في الأصل ما يكون في طرف الكوز ونحوه مما يمسك به، واستعير هنا لما يتمسك به من أمور الديانة. وقوله: «تشبث» أي: تمسك. وقوله: «كما ينقض الحبل» أي: كما يفسخ.

وفي الحديثين تنبؤ من النبي ﷺ بما سيحصل للإسلام بعد كماله وقوته وانتشاره من نقض وفسخ لقواعد الدين وأصوله واضمحلال معالمه وضعفه، وأن أول ما يذهب ويغيب منه تعطيل الحكم بما شرعه الله تعالى، ويصبح الناس كلما ذهبت عروة من عرى الدين تركوها وتمسكوا بما يليها حتى تذهب وتضمحل جميع قواعد الدين ولا يبقى بينهم ظاهراً إلا الصلاة ثم تكون هي الأخيرة تركاً وغياباً.

* * *

❊ الجزاء على الحسنات في الدنيا والآخرة

[١٥٦] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يُعطَى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطْعَمُ بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنةٌ يُجْزَى بها»**، وفي رواية: **«إن الكافر إذا عمل حسنة أُطعم بها طُعمة من الدنيا، وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة، ويُعْقِبُه رزقاً في الدنيا على طاعته»**.

رواه أحمد (٣/١٢٣/١٢٥/٢٨٣)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٤٩/١٥٠) واللفظان له.

قوله: «أفضى» أي: صار إلى الآخرة.

في الحديث وعد من الله عزّ وجل للمؤمن بأنه تعالى يجازيه على حسناته في الدنيا بالرزق الطيب والعافية والأمان والحفظ، ثم يجازيه جزاء ثانية في الآخرة وهو خير وأبقى، والحديث موافق لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

ومن جزائه تعالى لعبده المؤمن في الدنيا أن يحييه حياة طيبة كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

والحياة الطيبة في الدنيا هي الرزق الحلال الكافي مع القناعة والراحة والانشراح والطمأنينة، وهي سعادة معجلة للمؤمن.

أما الكافر فما عمله في هذه الحياة من خير كصلة، وصدقة، وضيافة، وإحسان، وخلق حسن. . . فيجازى على ذلك في الدنيا بالبسط في الحياة ورغد العيش والعافية وطول العمر ونصر على الأعداء ونحو ذلك. أما في الآخرة فأجمع العلماء على أنه إذا مات على كفره ليس له ثواب في الآخرة وليس له إلا العذاب الخالد.

وقوله في أول الحديث: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة» معناه: لا يترك مجازاته بشيء من حسناته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾.

والظلم يطلق على النقص وهضم الحقوق، كما يطلق على أخذ حق الغير وهو في كل الأحوال مستحيل على الله عزّ وجل.

* * *

❁ عجباً لأمر المؤمن

[١٥٧] عن صُهَيْب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجباً لأمر المؤمن إنَّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر وكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له»**.

رواه أحمد (٣٣٢/٣/٣٣٣)، ومسلم في أحاديث متفرقة من الزهد (١٢٥/١٨).

«العجب»: بفتحتين، انفعال نفساني يعتري الإنسان عند استعظامه الشيء أو استطرافه أو إنكاره ما يرد عليه وهو في حق الله صفة له تخالف صفات المحدثات، وقد يفسره بعضهم برضاه بالشيء.

ولا شك أن أمر المؤمن وما قضى الله تعالى عليه من الخير والشر مما يتعجب منه لأن كل ذلك خير له، فإذا أصيب بما يسره من الخير والبسط فحمد الله عزّ وجل وشكره كان خيراً كثيراً له بما سيجازيه الله عليه من الثواب الجزيل، وإذا أصيب بما يكرهه من الضراء والبلايا فصبر على ذلك وحبس نفسه ولم يتضجر ولم يقنط كان خيراً له أيضاً أي خير، وسيقابل بالأجور العظيمة ومنتهى ذلك جنة الخلد، وهذا بخلاف غيره من الكفار والمنافقين وأشباههم فإنهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً.

* * *

❁ ما يغفر وما لا يغفر من الظلم والذنوب

[١٥٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الدواوين عند الله عزّ وجل ثلاثة: ديوان لا يعبأ الله به شيئاً، وديوان لا يترك الله منه شيئاً، وديوان لا يغفره الله، فأما الديوان الذي لا يغفره الله فالشرك بالله، قال الله عزّ وجل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾، وأما الديوان الذي لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين ربه من صوم يوم تركه، أو صلاة تركها، فإن الله عزّ وجل يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء، وأما الديوان الذي لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً، القصاص لا محالة»**.

رواه أحمد (٦/٢٤٠)، والبيهقي في الشعب (٦/٥٢) وفي رواية له ذكر آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ وفي سنده صدقة بن موسى صدوق له أوهام، ويزيد بن بابنوس مقبول كذا في التقريب لكن الحديث حسن لشاهد له عن أنس رضي الله تعالى عنه بلفظ: **«الظلم ثلاثة: فظلم لا يتركه الله...»** فذكره بمعناه، رواه الطيالسي في مسنده رقم (٢١٨٤) (ج٢/٦٠/٦١) مع المنحة، وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٠٩) وفيه يزيد الرقاشي زاهد ضعيف ومثله يستشهد به لأنه لم يُتهم بكذب.

والحديث يدل على عدل الله عزّ وجل، وبالتالي فضله وشمول رحمته ولطفه بعباده، فسيقضي بين عباده يوم القيامة ويعدل في قضائه ولا يظلم أحداً ممن كفر به وعبد غيره، فهذا سيحكم فيه بخلوده في النار ولا يغفر له ظلمه لأن الشرك ظلم عظيم، أما من ظلم غيره بأخذ حق له أو نقصه، فهذا لا يترك ولا يغفر إلا بأدائه والاقتصاص من الظالم.

أما ما بين العبد وربه من هنات شخصية فالله عزّ وجل سيتجاوز برحمته عن ذلك ولا يبالي، وهذا من كمال عدله وواسع فضله سبحانه وتعالى.

[١٥٩] وسيأتي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن

رسول الله ﷺ قال: «**إذا خلص المؤمنون من النار حُبِسوا بقنطرة بين الجنة والنار فيتقاصُّون مظالم كانت بينهم في الدنيا...**».

رواه البخاري في المظالم والرقاق.

قوله: «فيتقاصُّون» بتشديد الصاد، أي: يقتص بعضهم من بعض فيما كان بينهم من المظالم.

[١٦٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت له مظلِمةٌ لأخيه من عِرضه أو شيء، فليتحلَّله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**».

١ رواه البخاري في المظالم (٢٧/٢٦/٦) وفي الرقاق (١٨٧/١٤)، وأحمد (٥٠٦/٤٣٥/٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٩) ويأتي في القيامة.

قوله: «مظلمة» بكسر اللام، أي: ما ظلمه إياه. قوله: «من عرضه» بكسر العين وسكون الراء، العرض محل المدح والذم من الإنسان. وقوله: «أو شيء»، في رواية: أو مال. وقوله: «فحمل عليه»، في رواية: فجعل عليه. وقوله: «فليتحلله» أي: ليطلب منه أن يجعله في حِل ويسامحه.

وفي الحديث وعيد شديد وتهديد بالغ لمن يظلم غيره سواء كان بالنيل من عرضه كتكفيره أو تبديعه أو لعنه أو سبه وشتمه أو قذفه أو الكلام فيه بأي سوء يكرهه أو كان بأخذ ماله غصباً أو سرقة أو غشاً أو نصباً أو كان سفكاً لدمه أو سعياً في سبيل ذلك.

فالواجب على المسلم الذي عليه مظالم من هذا القبيل، أن يتحلل ذلك ما دام على قيد الحياة، فإذا أفضى إلى الآخرة اقتصّ منه فيؤخذ من حسناته فتدفع إلى أرباب المظالم فإن فنيت أخذت سيئاتهم فجعلت عليه ثم ألقي في النار، نعوذ بالله من غضبه وعقابه، وهذا هو المفلس الآتي.

* * *

❁ المفلس يوم القيامة

[١٦١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون مَن المفلس؟»** قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: **«المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيقعد فيقتصُّ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا، أُخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار»**.

رواه مسلم في البر والصلة (١٣٦/١٣٥/١٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٨).

«المفلس»: بضم الميم من الإفلاس وهو عند الناس من أحاطت به الديون ولا يجد ما يقضي به غرماءه، وهو في الحقيقة والواقع من يفلس يوم القيامة بأن يأتي وقتها بجبال من الحسنات كسبها من أعماله الصالحة في الدنيا، لكنه أفضى إلى الآخرة وعليه مظالم للعباد من شتم وقذف وأخذ مال وسفك دم وضرب جسم فيقتص منه بأخذ حسناته على وجه القصاص، فإذا فنيت حسناته أخذت سيئات المظلومين فألقيت عليه ثم طرح في النار وأصبح من الهالكين، فهذا هو المفلس الحقيقي.

❁ ❁ ❁

❁ الإنسان والشيطان

[١٦٢] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن إبليس يضعُ عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدُهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، فيدنيه منه ويقول: نعم أنت»**، وفي رواية: **«فيلتزمه»**، وفي رواية: **«إن عرش**

إبليس على البحر فيبعث سراياه فيفتنون الناس فأعظمهم عنده أعظمهم فتنة».

رواه أحمد (٣/٣١٤)، ومسلم في صفة القيامة (١٥٧/١٥٦/١٧).

«العرش»: هو سرير الملك. وقوله: «فيدنيه» أي: يقربه منه. وقوله: «فيلتزمه» أي: يحتضنه فرحاً به ومحبة فيه.

والحديث يدل على أن الشيطان الأكبر إبليس اللعين له عرش وسرير على البحر وأن له جنوداً من أبنائه يبعثهم سرايا في الدنيا يفتنون الناس عن دينهم فأقربهم منه منزلة ومكانة أشدهم وأعظمهم فتنة للناس، وعداوة الشيطان للإنسان وتسلُّطه عليه وإغوائه إياه من الأمور المعلومة بالضرورة في الإسلام، فالشيطان العدو الأول للإنسان لا يفتر عن وسوسته وإغوائه.

[١٦٣] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلُّون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم».**

رواه أحمد (٣/٣٥٤)، ومسلم في صفة القيامة (١٥٦/١٧)، والترمذي في البر والصلة (١٧٨٣).

«التحريش»: الإغراء والتحريض على الخصومة. وقوله: «أيس» أي: قنط.

في الحديث أن الشيطان لما أيس من تكفير المصلِّين وخاصة في الجزيرة العربية مهد الإسلام ومنبعه قنع بما يوقعه فيما بينهم من التحريض على الخصومات والتهاجر والتقاتل وما إلى ذلك من الفواحش، فهو الحامل الناس على ذلك، بل كل ما يقع في هذا الكون من منكر وفساد، فالحامل عليه والمزين له هو إبليس بلية من الله تعالى لعباده، وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾.

ولا سبيل للحيلولة بينه وبين العبد إلا الالتجاء إلى الله تعالى من شره، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ...﴾ الآية.

[١٦٤] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينُه من الجن»، قالوا: وإياك يا رسول الله، وفي رواية: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»**.

رواه أحمد (١/٣٨٥/٣٩٧/٤٠١)، ومسلم في القيامة (١٧/١٥٧)، والدارمي (٢٧٣٧).

[١٦٥] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: فغِرتُ عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال: **«ما لكِ يا عائشة أغِرتِ؟»** فقلت: وما لي لا يغارُ مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: **«أقد جاءك شيطانك؟»** قالت: يا رسول الله أوَمعي شيطان؟ قال: «نعم»، قلت: ومع كل إنسان؟ قال: **«نعم»**، قلت: ومعك؟ قال: **«نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم»**.

رواه مسلم (١٧/١٥٨) وفي الباب عن ابن عباس وجابر عند أحمد في المسند.

قوله: «وُكِّل به قرينُه» أي: شيطانه. وقوله: «فأسلم» ضبطت الميم بالضمة والفتحة فمن رفع قال: معناه أنا أسلم من شره وفتنته، ومن فتح قال: معناه أن القرين أشهر إسلامه وصار مؤمناً لا يأمرني إلا بخير، ورجح القاضي عياض الفتح واختاره النووي.

والحديثان يدلان على أنه ما من عبد أياً كان إلا معه قرين من الجن يأمره بالشر ويغويه وينهاه عن الخير، ولا ريب أن هذا من محن الله تعالى التي ابتلى بها عباده في هذه الدار حيث سلط عليهم الشيطان وأقدره على الوساوس والإغواء وجعله سبباً لكفر الناس وحملهم على الغواية والضلال ولا ينجو منه إلا الأكابر من أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم بعصمتهم منه ومن نزغاته.

نعم، وكذا بعض أكابر الأولياء قد يضعف قرينهم فلا يتأثرون به لقوة روحانيتهم وكثرة مجاهدتهم.

وفي الحديثين دليل على أن قرين النبي ﷺ كان قد أسلم وآمن بالله ورسوله وبما جاء به، ولذلك كان ﷺ مأموناً من الأمر بالشر والنهي عن الخير وهذا من جملة خصائصه ﷺ التي خصّه الله بها.

[١٦٦٦] وعن صفية بنت حُيَيّ رضي الله تعالى عنها قالت: كان النبي ﷺ معتكفاً فأتَيْتُه أزورُه ليلاً فحدثْتُه ثم قمتُ لأنقلب فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد فمرّ رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا فقال النبي ﷺ: **«على رِسْلِكُما إنها صفية بنت حُيَي»** فقالا: سبحان الله يا رسول الله، قال: **«إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً ـ أو قال ـ شيئاً»**.

رواه البخاري في الخمس (١٨/٧) وفي الاعتكاف، ومسلم في الأدب (١٥٦/١٤) وأبو داود في الصيام (٢٤٧٠)، وابن ماجه في الصيام (١٧٧٩).

قوله: «على رسلكما» بكسر الراء واللام، أي: كونا على هيئتكما في المشي.

في هذا الحديث فوائد:

منها جواز خروج المرأة ليلاً لزيارة بعض أقاربها والتحدث عندهم.

ومنها: مشروعية تشييع الزائر إلى داره.

ومنها ذهاب الرجل مع زوجته سوياً خارج البيت.

ومنها: أن من كانت معه امرأة من أقاربه ينبغي له أن يعرّف بها الناس لئلا يظنوا به ظن السوء.

ومنها: الابتعاد عن مواقف التهم كالمشي مع امرأة أجنبية أو الوقوف معها في محل خال من الناس مثلاً، وغير ذلك مما يتهم فيه الإنسان بما يخدش في دينه.

ومنها: الاستعداد للتحفظ من الشيطان ومكائده فإنه يجري من الإنسان

مجرى الدم، يعني والله أعلم أن الله عزّ وجل أعطاه قدرة على الجري في مجاري دم الإنسان وباطنه وسلّطه عليه بإلقاء وساوسه ونزغاته.

ومنها: رحمة رسول الله ﷺ وشفقته على ذينك الرجلين وصيانته قلوبهما وجوارحهما حيث خاف أن يلقي الشيطان في قلوبهما من السوء به ﷺ وذلك كفر. فعرّفهما بأن المرأة زوجته فلانة.

* * *

المؤمن البائس والكافر المُنَعَّم

[١٦٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغُ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيتَ بؤساً قط؟ هل مرّ بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»**.

رواه أحمد (٢٠٣/٣)، ومسلم في صفة القيامة (١٤٩/١٧)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٢١).

قوله: «فيصبغ» أي: يغمس غمسة كما في رواية: «اغمسوه». وقوله: «بؤساً» أي: شدة وفقراً.

في الحديث وعيد شديد وزجر بالغ لمن كفر بالله وقضى حياته في نعيم متوال متناه فسيغمس يوم القيامة في عذاب الله غمسة واحدة فينسى كل ما كان فيه من نعيم لشدة الهول ونهاية العذاب عياذاً بالله تعالى، كما فيه بشارة للمؤمن الذي كان في حياته أشد الناس حاجة وفقراً فصبر على ذلك حتى وافاه أجله فإنه سيغمس أيضاً غمسة في الجنة فينسى كل ما مرّ عليه من الشدائد والفقر والقلة والبؤس وذلك لما يلمسه ويشاهده... من النعيم

الذي ما سمع ولا رأى مثله، وفي ذلك حض على الصبر وتحمّل مشاق الحياة والتنافس في عمل الآخرة.

* * *

يا عبادي، يا عبادي، يا عبادي

[١٦٨] عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجل أنه قال: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحرّماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضالٌ إلا من هديته، فاستهدوني أهْدِكُم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمتُه فاستطعموني أُطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوتُه، فاستكسوني أكْسُكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمَن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه».

رواه أحمد (١٧٧/١٦٠/٥)، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٣٠)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣/٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥٧).

هذا حديث عظيم الشأن فيه بإجمال أن الأمور كلها بيد الله عزّ وجل، فالهداية بيده، والأرزاق بيده، وخزائنه واسعة ملأى لا تنفذ وأنه واسع المغفرة يغفر الذنوب والخطايا وكبار السيئات لمن استغفره طاعتنا لا تنفعه ولا تزيد في ملكه شيئاً، كما أن معاصينا لا تضره ولا تنقص من ملكه

شيئاً، جواد واجد ماجد عطاؤه كلام، وعذابه كلام إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فله الأمر كله، وله الحكم كله، وله الحمد كله في الأولى والآخرة.

* * *

❊ الإخلاص وفضله والنية الصالحة

[١٦٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه، فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغْبُق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب شجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبُوقَهما فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبُق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى يشرق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج.

وقال الآخر: اللهم كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إليّ، فأردتُها على نفسها فامتنعتْ مني حتى ألمّت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرَّجْتُ من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتُها، اللهم إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم إني استأجرتُ أُجراء فأعطيتهم أجرهم غير رجل

واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبدالله أدِّني أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل، والبقر، والغنم، والرقيق، فقال: يا عبدالله لا تستهزىء بي، فقلت: إني لا أستهزىء بك، فأخذه كله فاستاقه، فلم يترك منه شيئاً، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

رواه أحمد (١١٦/٢)، والبخاري في الإجارة (٣٥٦/٥) وفي آخر الأنبياء (٣١٧/٧، ٣٢٠)، ومسلم في الرقاق (٥٨/٥٥/١٧).

«ثلاثة نفر»: بفتح النون والفاء، في رواية رهط. «لا أغبق»: الغبوق بفتح الغين، هو الحليب الذي يشرب بالعشي. «والصبية يتضاغون» أي: يصيحون من الجوع. «ألمّت بها سنة» أي: نزلت بها سنة مقحطة لم تنبت الأرض فيها شيئاً. «تفض الخاتم»: كنت بذلك عن الوطء.

في هذا الحديث فوائد وأحكام وآداب تقدمت الإشارة إليها في الأنبياء (ج٨/٥٦٦).

والشاهد منه هنا هو إخلاص أولئك الثلاثة في أعمالهم وتفريج كربتهم بتوسلهم بها إلى الله عزّ وجل، ففيه فضل إخلاص العمل للّه الذي لا يقبل الله عزّ وجل أي عمل إلا إذا كان خالصاً له لا يشوبه أي علة من رياء أو سمعة أو تصنُّع.

[١٧٠] وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب امرىء مسلم: إخلاص العمل للّه، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم».**

رواه ابن ماجه (٢٣٠)، والدارمي (٢٣٥) والحديث صحيح لشواهده، فقد جاء عن أنس رواه أحمد (٢٢٥/٣) وعن جبير بن مطعم رواه أحمد (٨٢/٨٠/٤) وغيره، وجاء مطولاً بأسانيد صحيحة وذكرت أصله في العلم من الجزء الأول ص(٢٨)، وفي تهذيب الترمذي (٢٤٧١) من أبواب العلم.

قوله: «لا يغل» من الإغلال وهو الخيانة أو من الغل وهو الحقد والشحناء، وعلى أيٍّ فمعناه أن قلب الرجل المسلم لا يصدر عنه الحقد والشحناء والخيانة والميول عن الحق. وقوله: «إخلاص العمل للّه» الإخلاص أن يقصد بالعمل وجه الله ورضاه دون غرض آخر من سمعة ورياء. والإخلاص يضاده الشرك وهو أصغر وأكبر، فالأكبر يضاده الإخلاص في التوحيد، والأصغر وهو الرياء والسمعة يضاده الإخلاص في العمل لوجه الله عزّ وجل.

والإخلاص هو روح الأعمال وهو العروة الوثقى، والذروة العليا المأمور بها على ألسنة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهو شرطٌ لصحة الإيمان والأعمال.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ أي أمروا أن يجعلوا دينهم خالصاً لوجه الله لا يشوبه شرك ولا نفاق ولا رياء ولا حظوظ شيطانية.

وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ أي: الصافي من جميع الشركيات.

وقال تعالى عن التائبين من المنافقين: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿١٤٦﴾﴾.

قال العلماء: التوبة أول مقام من مقامات اليقين والإخلاص خاتمتها، والإخلاص وضده من الشرك يتواردان على القلب، فهو مصدر القصد والنية والبواعث وعلى ما عزم عليه ونواه الحكم، فمن نوى شيئاً من القربات لوجه الله عزّ وجل وعمله ولم يشبه بشيء آخر كان مخلصاً، فإذا طرأ عليه شيء من شوائب الرياء عند العمل لا يتركه وليرد ما طرأ عليه ويستغفر الله تعالى ولا يضره ذلك إن شاء الله عزّ وجل.

وعلى أيٍّ: فالله عزّ وجل لا يقبل من الأعمال والأقوال والعزائم إلا ما أريد به وجه الله تعالى وخلص له

[١٧١] ففي حديث أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلا ما ابتغي به وجه الله تعالى»**.

رواه الطبراني. قال المنذري رحمه الله: بإسناد لا بأس به.

* * *

الرياء والسمعة

[١٧٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشِّرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركتُه وشِرْكه»**، وفي رواية: **«فمَن عمل لي عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء وهو للذي أشرك»**.

رواه مسلم (١٨/١١٥) باللفظ الأول، وابن ماجه (٤٢٠٢) باللفظ الثاني، كلاهما في الزهد.

في الحديث تحريم خلط العمل للّه تعالى بغيره فإن ذلك يعتبر شركاً، وهو إما شرك أكبر موجب للخلود في النار كمن عبد الله وعبد معه غيره، وإما شرك أصغر كمن أراد بعمله وجه الله تعالى، ولكنه راءىٰ به غير الله ليحمد ويثنى عليه، وليقال: إنه كذا وكذا مما يتعاطاه المراؤون، وكل ذلك باطل لا يقبله الله عزّ وجل وهو بريء منه.

وقد قال الله تعالى في هذا المعنى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

فالآية الكريمة مصرحة بأن من كان يؤمن بالله عزّ وجل ويأمل لقاءه ويرجو ثوابه ويخاف عقابه فيجب عليه أن يعمل أعمالاً صالحة وليخلصها للّه عزّ وجل ولا يرائي بها أحداً، ولا يبتغي بذلك غير وجه الله، فإن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان خالصاً له.

والشرك في الآية: هو الشرك الأصغر الذي يدخل في الأعمال

والأقوال المتقرب بها إلى الله وهو التظاهر للناس ومراءاتهم بها ليعرفوا منزلته فيعظّموه ويحترموه ويثنوا عليه لأجل ذلك. فهذا شرك خفي.

[١٧٣] وعن أبي سعيد بن أبي فضالة الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا جمع الله الناس ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه نادى منادٍ: مَن كان أشرك في عمل عمله للّه أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك**».

رواه أحمد (٣/٤٦٦) (ج٤/٣١٥)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٠)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٣)، وابن حبان (٢٤٩٩) وهو حسن لغيره.

فالحديث كسابقه جاء مؤكداً ومبيناً للآية الكريمة.

[١٧٤] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**»، فأعادها ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: «**لا شيء له**»، ثم قال: «**إن الله عزّ وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغِي به وجْهُه**».

رواه أبو داود والنسائي في الجهاد (٦/٢٢) بسند حسن صحيح.

ففي قوله: «يلتمس الأجر والذكر» هو الرياء والشرك الأصغر فإنه أراد بغزوه الأجر من الله ثم ذكره عند الناس بالجرأة والشجاعة، فهذا شرك في العمل، والله لا يقبل إلا ما أريد به وجهه وحده.

[١٧٥] وهذا ما جاء عند الجماعة عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: الرجل يقاتل لِيُذْكَرَ، ويقاتل ليغنم، ويقاتل لِيُرى مكانه فمَن في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله**».

فقوله: «ليذكر» أي: يذكره الناس بالإقدام والنجدة. وكذا قوله: «لِيُرى مكانه» أي: ليرى الناس مكانه من القتال فيمدحونه فذلك حظه وليس له من الأجر شيء، وحسب المرائي من الشر أن يكون به شبه بالمنافقين،

وقد قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ...﴾ الآية، في آيات وأحاديث جاءت في شأنهم، ومن أشد ما جاء في المرائين قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦...﴾ الآية، فكفى بذلك زجراً وخسارة.

ومن أنواع الرياء ما يبينه الحديث الآتي:

[١٧٦] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال فقال: **«ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟»** قلنا: بلى، فقال: **«الشرك الخفي: أن يقوم الرجل يصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٠٤) وحسّنه البوصيري.

فالصلاة خير عمل، ولكنها تنقلب شر عمل بمراءاتها عن صاحبها يزين قراءتها وطول ركوعها وسجودها... ليذكره الناس بذلك ويثنون عليه، فهذا من الشرك الخفي الذي لا يتفطن له الناس وهو من الشهوة الخفية.

[١٧٧] فعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أخوف ما أتخوّف على أمتي الإشراك بالله، أما إني لست أقول: يعبدون شمساً ولا قمراً ولا وثناً، ولكن أعمالاً لغير الله، وشهوة خفية»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٠٥) قال البوصيري: في إسناده عامر بن عبدالله لم أرَ من تكلم فيه وباقي رجال الإسناد ثقات. ويتأيد بما في الباب.

فالرياء شهوة خفية لا يطلع عليها أكثر الناس.

***

❋ من وعيد المرائين

[١٧٨] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن سمَّع سمَّعَ الله به، ومن راءى راءى الله به»**.

رواه مسلم في الزهد (١١٦/١٨)، ومثله عن جندب رواه البخاري في الرقاق (١٢٠/١٤)، ومسلم في الزهد (١١٦/١٨) وفي الباب أحاديث في معناه.

جاء في «الفتح» في الرياء والسمعة قال: والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها. والسمعة: بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سمع، والمراد بها نحو ما في الرياء لكنها تتعلق بحاسة السمع، والرياء بحاسة البصر. وقال الغزالي: المعنى طلب المنزلة في قلوب الناس بأن يريهم الخصال المحمودة والمرائي هو العامل. وقال ابن عبدالسلام: الرياء أن يعمل لغير الله، والسمعة أن يخفي عمله لله ثم يحدث به الناس.

وقال الخطابي: معناه: من عمل عملاً على غير إخلاص وإنما يريد أن يراه الناس ويسمعوه جوزي على ذلك بأن يشهره الله ويفضحه ويظهر ما كان يبطنه، وقيل: من قصد بعمله الجاه والمنزلة عند الناس ولم يرد به وجه الله فإن الله يجعله حديثاً عند الناس الذين أراد نيل المنزلة عندهم، ولا ثواب له في الآخرة. ومعنى يرائي يطلعهم على أنه فعل ذلك لهم لا لوجهه... وقيل: المراد من قصد بعمله أن يسمعه الناس ويروه ليعظموه وتعلو منزلته عندهم حصل له ما قصد، وكان ذلك جزاءه على عمله ولا يثاب عليه في الآخرة. انتهى من الفتح.

وقال النووي: قال العلماء: معناه: من راءى بعمله وسمَّعه الناس ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمَّع الله به يوم القيامة الناس وفضحه...

وعلى أيٍّ، ففي الحديث وعيد شديد وفضيحة للمرائي يوم القيامة، نسأل الله تعالى السلامة والعافية، آمين.

[١٧٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجلٌ استُشْهِد فأُتي به، فعرَّفه نِعمَه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشْهِدتُ، قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ ليقال جريء، فقد قيل، ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار، ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به**

فعرّفه نِعمَه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبل يُحَبُّ أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ ولكنك فعلتَ ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه، ثم أُلقي في النار».

رواه أحمد (٢/٣٢٢)، ومسلم في الجهاد (١٣/٥٠/٥١)، والنسائي كذلك (٦/٢٠/٢١).

في هذا وعيد شديد لهؤلاء الأصناف الثلاثة الذين يراؤون بأعمالهم ولا يخلصونها لوجه الله تعالى، كما فيه زجر بالغ لهم.

قال النووي رحمه الله تعالى: قوله ﷺ في الغازي، والعالم، والجواد، وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله، وإدخالهم النار دليل على تغليظ تحريم الرياء وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، وفيه أن العمومات الواردة في فضل الجهاد إنما هي لمن أراد الله تعالى بذلك مخلصاً، وكذلك الثناء على العلماء وعلى المنفقين في وجوه الخيرات كله محمول على من فعل ذلك للّه تعالى مخلصاً، وهذا الباب واسع متشعب وقد استقصاه أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء، وذكر له من الآفات والدقائق ما يجب الوقوف عليه فانظره في ربع المهلكات.

* * *

✵ ما يظن أنه رياء وليس منه

[١٨٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل: يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل فيسُرُّه فإذا اطلع عليه أعجبه، قال

رسول الله ﷺ: **«له أجران: أجر السر، وأجر العلانية»** وفي رواية: إني أعمل العمل فيُطّلع عليه فيعجبني؟ قال: **«لك أجران...»**.

رواه الترمذي (٢٢٠٢) وابن ماجه (٤٢٢٦) كلاهما في الزهد، وابن حبان بالموارد (٣٥١٦)، وسنده صحيح ولا يضر إرسال من أرسله، وله شاهد عن أبي ذر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ:

[١٨١] قال: قلت له: الرجل يعمل العمل للّه فيحبه الناس عليه؟ قال: **«ذلك عاجل بشرى المؤمن»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٢٥) بسند صحيح.

قال الترمذي رحمه الله تعالى: وقد فسر بعض أهل العلم هذا الحديث: **«إذا اطلع عليه فأعجبه»** إنما معناه أن يعجبه ثناء الناس عليه بالخير لقول النبي ﷺ: **«أنتم شهداء الله في الأرض»** فيعجبه ثناء الناس عليه لهذا، فأما إذا أعجبه ليعلم الناس منه الخير ويُكرمَ ويُعظَّم على ذلك فهذا رياء. وقال بعض أهل العلم: إذا اطلع عليه فأعجبه رجاء أن يعمل بعمله فتكون له مثل أجورهم، فهذا له مذهب آخر.

إنما الأعمال بالنيات فمَن عمل عملاً صالحاً أخلص فيه للّه تعالى ولم يُرد به غيره، ثم اطلع عليه وأثنى الناس عليه وعظّموه وأكرموه لا يضره ذلك إن شاء الله، فإنه لم يقصد بعمله شيئاً من ذلك فعمله صحيح مقبول عند الله وثناء الناس عليه وما يتبع ذلك هي بشرى من الله تعالى له معجلة. ومع ذلك فلا ينبغي له أن يغتر بذلك.

* * *

ماذا يفعل من خاف الرياء

[١٨٢] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال: **«يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل»** فقال له: من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا

رسول الله؟ قال: **«قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نُشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه»**.

رواه أحمد (٤٠٣/٤) والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير أبي علي الكاهلي فوثقه ابن حبان ولم يجرحه أحد. أفاده المنذري والهيثمي، وله شاهد عن حذيفة رواه أبو يعلى (٥٨) بنحوه، وفيه يقول كل يوم ثلاث مرات وهو صالح للاستشهاد به، فالحديث حسن بطريقيه.

ففي الحديث بيان دواء من يخاف الرياء في أعماله وأنه يقول هذا التعوذ ثلاث مرات كل يوم فيحفظه الله تعالى من هذا الداء القاتل إن شاء الله تعالى.

وكان الشيخ سيدي أحمد زروق رحمه الله تعالى موفَّقاً كثيراً حيث جعله في وظيفته العظيمة التي اعتاد قراءتها الشاذليون.

فليواظب المؤمن على قراءته صباحاً ومساءً.

ومع ذلك فيجب عليه أن يكون على حذر من دقائق الرياء كعلانيتها، حفظنا الله من الرياء والسمعة في السر والعلن وجعل جميع أقوالنا وأعمالنا وأحوالنا خالصة لوجهه الكريم إنه قريب جواد سميع مجيب الدعاء.

* * *

❁ التوبة

التوبة هي الرجوع من المعصية إلى طاعة الله تعالى مصحوباً مع الندم على المعصية والإقلاع عنها ونية عدم الرجوع إليها مع صلاة ركعتين والاستغفار ورد مظالم العباد والتحلُّل منها.

وهي واجبة من كل ذنب كبيراً كان أم صغيراً كان الذنب شخصياً مع الله أم متعلقاً بالآخرين، كان المذنب ذكراً أم أنثى تقياً أم مخلطاً أم فاجراً، ومَن تاب توبة متوفرة الشروط قبلت قطعاً من الكافر ومن المؤمن على القول الصحيح.

وهي عند أهل السلوك أول مقام يجب فيه على السالك التحقق به والمداومة عليه كُلما صدر منه ذنب، ولا يخلو إنسان من هفوة أو هفوات مهما كان قدره إلا الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. وقد أكثر الله عزّ وجل من ذكر التوبة والأمر بها ومدح التائبين والثناء عليهم والإشادة بهم كما جاء مثل ذلك عن نبينا ﷺ فقد قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ...﴾ الآية، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، وقال: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ أي: يقبل توبته، وقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾، وقال: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، وقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ في آيات كثيرة كلها تأمر بالتوبة وتثني على أصحابها وتخبر بفضل الله ورحمته وقبولها وغفران الذنوب وتكفير السيئات بعد صدورها.

وقد قدّمنا في الجزء الثاني ص(٦٩٩/٧٠٤) بعض أشهر الأحاديث الواردة في التوبة كحديث:

[١٨٣] «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم مائة مرة».

رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

[١٨٤] وحديث: **«إن الله عزّ وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها».**

رواه مسلم وغيره.

[١٨٥] وحديث: **«مَن تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه»**.

رواه مسلم في أحاديث أخرى فارجع إليها، وسأذكر هنا بعض ما لم يذكر هنالك.

[١٨٦] فعن الإمام علي عليه السلام قال: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً ينفعني الله منه بما يشاء أن ينفعني، فإذا حدثني رجل من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدّقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من رجل يذنب ذنباً، ثم يقوم فيتطهر فيحسن الطهور، ثم يصلي، ثم يستغفر الله تبارك وتعالى إلا غفر الله له»**، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا...﴾ إلخ.

رواه أحمد (١/٩/١٠)، والحميدي (٤٩)، وأبو داود (١٥٢١)، والترمذي في الصلاة (٣٦٣) وفي التفسير (٢٨١٢)، والنسائي في الكبرى (٣١٤/٦)، وابن ماجه (١٣٩٥) بسند صحيح.

ففي الحديث فوائد:

أولاً: من آداب التوبة التطهر والصلاة ثم الاستغفار.

ثانياً: تأكد غفران الذنب بعد التوبة منه وهذا لا خلاف فيه.

ثالثاً: قد تصدر من المؤمن فاحشة من الفواحش كزنا وسرقة وشرب خمر مثلاً، فإذا تاب منها غفر الله له وأدخله جنته مخلّداً فيها، وهذا وعد من الله تعالى وهو لا يُخلف وعده.

[١٨٧] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«التائب من الذنب كمن لا ذنب له»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠)، وأبو نعيم في الحلية (٢١٠/٤)،

والقضاعي في مسند الشهاب (١٠٨) حسّنه الحافظ وغيره لشواهده.

الحديث نصّ في أن من تاب لا يبقى عليه ذنب، وهذا مما يجب أن لا يختلف فيه لتظافر الأدلة على ذلك.

[١٨٨] وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عزّ وجل، قال الله تعالى: **«يا ابن آدم إنك ما دعوتَنِي ورجوتَنِي غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة»**.

رواه الترمذي في الأدعية (٣٥٤٠) بتهذيبي وهو حسن صحيح لشواهده.

قوله: «ولا أبالي» أي: لا أعبأ بتلك الذنوب والخطايا. وقوله: «عنان السماء» بفتح العين هو السحاب. وقوله «بقراب الأرض» بضم القاف، أي: بما يقارب ملء الأرض ذنوباً.

وفي الحديث شمول مغفرة الله للمستغفرين ولو كانت ذنوبهم تقارب ملء الأرض فإنه تعالى لا يتعاظمه شيء فينبغي للعبد أن يكون دائم الاستغفار فإنه لا يدري متى تصادفه رحمة الله.

* * *

خير الخطائين التوّابون

[١٨٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«كلُّ ابن آدم خطّاء، وخيرُ الخطّائين التوّابون»**.

رواه أحمد (١٩٨/٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣١٨) بتهذيبي، وابن ماجه في الزهد (٤٢٥١)، والدارمي في الرقاق (٢٧٣٠)، والحاكم (٢٤٤/٤) وسنده حسن وصححه الحاكم وابن القطان.

في الحديث فائدتان:

الأولى: أن التوابين خير العصاة وأهل الخطايا، وذلك لرجوعهم إلى الله تعالى وتعلقهم به والتجائهم إليه في تكفير وغفران ما اقترفوا، وفي ذلك خير كبير لهم.

الفائدة الثانية: فيه أن كل بني آدم مذنبون بل كثيرو الخطايا لا يخلون من ذلك الآونة بعد الآونة لأن تلك طبيعتهم إلا المعصومين من الأنبياء فهم خارجون عن هذه الكلية، ولذلك قال إمامنا أبو حامد الغزالي قدّس الله سره في أول ربع المنجيات من الإحياء: بعد كلام... بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين، والتجرد للشر دون التلافي سجية الشياطين، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة الآدميين، فالمتجرد للخير ملك مقرّب عند الملك الديّان، والمتجرد للشر شيطان، والمتلافي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان.

قال: فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيتان، وكل عبد يصحح نسبه إما إلى الملائكة، أو إلى آدم، أو إلى الشيطان، فالتائب قد أقام البرهان على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم عجناً مُحْكماً لا يخلصه إلا إحدى النارين: نار الندم أو نار جهنم.

[١٩٠] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن تغفر اللهم تغفر جماً، وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا»**.

رواه الترمذي في تفسير سورة النجم (٣٠٦٨)، والحاكم (٤٦٩/٢) وحسّنه الترمذي وصححه وهو على شرط مسلم عنده وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

قوله: «تغفر جماً» أي: كثيراً. وقوله: «لا ألمّا» أي: لم يلم بالمعصية.

وفي الحديث بيان منه ﷺ لطبيعة الإنسان في هذه الحياة وأنه لا يخلو أحد من الذنوب والإلمام بها، وأن الله عزّ وجل يقابلهم بالعفو والمسامحة والغفران وإن كثرت منهم الذنوب، لأن رحمته تعالى سبقت غضبه.

[١٩١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن عبداً أذنب ذنباً فقال: أذنبتُ ذنباً فاغفر لي، قال: فقال ربه عزّ وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، فمكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر فقال: أذنبت ذنباً فاغفره لي، قال: قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، فغفر له، فمكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر فقال: أذنبت ذنباً فاغفر لي، قال: قال ربه عزّ وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به، قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء**»، وفي رواية: «**اعمل ما شئت قد غفرت لك**».

رواه أحمد (٢/٤٠٥/٤٩٢)، والبخاري في التوحيد (١٧/٢٤٨/٢٤٩)، ومسلم في التوبة (١٧/٧٥/٧٦).

قوله: «اعمل ما شئت» ليس معناه الأمر بالإتيان بالذنوب وإباحتها، بل معناه: ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك فافعل ما شئت إذا كنت على تلك الحالة لأن ذلك هو مقتضى حكمة الله عزّ وجل في عباده، ولذا قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: لو تكرر الذنب مائة مرة أو ألف مرة أو أكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة به جميعها صحّت توبته... إلخ.

[١٩٢] ولهذا جاء في حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ما أصرّ من استغفر وإن عاد في اليوم سعبين مرة**».

رواه الطبراني في الدعاء (١٧٩٧) بسند حسن في الشواهد، وله شاهد عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه رواه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٣٢٧) بتهذيبي، وأبو يعلى (١٣٧) وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإنه ليس شديد الضعف فيحسن الحديث به.

غير أن هذا الاستغفار كما قال القرطبي في التفسير: هو الذي ثبت معناه في القلب مقارناً باللسان لينحل به عقد الإصرار، ويحصل معه الندم، فهو ترجمة للتوبة.

[١٩٣] وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله تعالى عنه أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون فيغفر لهم»**.

وفي رواية: **«لو أنكم لم تكن لكم ذنوبٌ يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم»**.

رواه أحمد (٥/٤١٤)، ومسلم في التوبة (١٧/٦٤/٦٥)، والترمذي في الدعوات (٣٣٠٦) بتهذيبي.

[١٩٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لو لم تُذْنِبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم»**.

رواه أحمد (٢/٣٠٤/٣٠٥/٤٤٥)، ومسلم في التوبة (١٧/٦٥) وتقدم هذا في الجزء الثاني.

* * *

❋ حكمة وقوع الذنوب من عباد اللّه المؤمنين

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون في هذا الكون الخير والشر، والطاعة والمعصية، والإيمان والكفر، قد سبق كل ذلك في علم الله عزّ وجل، وكتبه في اللوح المحفوظ الذي هو أم الكتاب، فما قضاه وقدّره هو كائن لا يتخلّف أبداً أياً كان ذلك المقضي، ومن العقائد اليقينية الإسلامية الإيمان بالقدر، وأن كل ما وقع أو سيقع في هذا الكون وغيره قد سبق به علم الله وكتابته. ومنها المعاصي والذنوب بجميع أنواعها، فلا يخلو

إنسان من زلة يُصيبها، ومعصية يقع فيها، شاء أم أبى، قضاء أبرمه الله تعالى وقضاه.

وأفاد الحديثان عدة فوائد وحكم:

منها: أن الذنوب لا بد أن تصدر من العباد ولا يخلو منها مكان ولا زمان ولا إنسان إلا الأنبياء عليهم السلام، فمَن حاول العصمة منها حاول ما لا يمكن أبداً.

ولذا قال الشوكاني رحمه الله تعالى في شرح الحصن الحصين: وفي الحديث دليل على كثرة وقوع الذنوب من بني آدم وأن من حاول أن لا يقع منه ذنب البتة فقد حاول ما لا يكون، لأن هذا - أعني وقوع الذنب - من النوع الإنساني هو الذي جبلهم عليه وقد خلقهم الله تعالى وأمرهم بالخير والكف عن الشر، ولكن ما في جبلتهم يأبى أن لا يقع منهم ذنب، لأن العصمة لا تكون إلا لمن أعطى النبوة من بني آدم، فلو أرادوا أن لا يذنبوا أصلاً راموا ما ليس لهم...

ومنها: أن من حكم وقوعها من العباد وخاصة المؤمنين منهم رجوعهم إلى الله تعالى واستغفارهم من الوقوع فيها، واعترافهم للّه عزّ وجل بها وأنه وحده الذي يغفرها.

ومنها: أنه لو خلا الكون من سقطات العباد وزلاّتهم، وأصبحوا جميعهم معصومين من الخطايا لأماتهم الله وذهب بهم، وأتى بقوم آخرين يوافقون قضاءه وقدره فيذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم، لأن العباد مظهر من مظاهر تجليات أسماء الله تعالى وصفاته، فالمذنبون الرجّاعون إلى الله كلما أذنبوا تتجلى فيهم آثار أسماء الله وصفاته الجمالية، كالغفور والتوّاب، والرحيم ونحوها، فإذا لم يوجد مذنبون يستغفرون الله تعالى ويتوبون إليه ليغفر لهم ويتوب عليهم، توقفت تصرفاته تعالى بهذه الأسماء كما تتوقف أسماؤه الأخرى الجلالية كالقهّار والجبّار والمنتقم... إذا لم يعصه كافر أو فاجر... وكل ذلك ينافي حكمته في خلقه وكونه ولا يُسأل عما يفعل.

ومنها: أن المعصية قد تكون دواء للمؤمن، كمرض العجب، فدواؤه السقطات والهفوات.

[١٩٥] فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لو لم تكونوا تذنبون لخِفْتُ عليكم ما هو أكبر من ذلك العُجْبُ العُجْبُ»**.

رواه القضاعي في مسند الشهاب رقم (٨٨٢)، والبيهقي في الشعب.

وهو حديث حسن جيد كما قال المنذري والمناوي وأستاذنا أبو الفيض في «فتح الوهّاب» وذلك لشواهده، فالمؤمن إذا صفا له الوقت مع الله تعالى ومنّ عليه بالاستقامة ربما دخله العجب بطاعته وأعماله الصالحة، ويرى فضله على غيره فيبتليه الله تعالى بالذنب علاجاً له، لأن الإعجاب بحاله حال استقامته ربما كان أعظم خطراً على دينه من الذنب الذي يقع فيه الآونة بعد الآونة، ويتوب ويستغفر منه فقد يترتب على الوقوع في الذنب أحوال وخير كبير كالذلة والافتقار إلى الله تعالى والرجوع إليه وتجديد المحبة، وتقوية الإيمان، والجِد والاجتهاد، واحتقار النفس واستصغارها، والنظر إلى الآخرين بعين الإكبار. وقد ذكر الإمام ابن عطاء الله رحمه الله تعالى في حكمه حكمتين عظيمتين لصدور الذنب من السالك، فقال رحمه الله تعالى ورضي عنه: ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول. معصيةٌ أورثتكَ ذُلاً وافتقاراً خيرٌ من طاعة أورثتْ عِزًّا واستكباراً.

وعلّق الشيخ سيدي أحمد زروق رحمه الله تعالى على الحكمة الأولى: وقضى عليك بالذنب، فكان سبباً في الوصول بما يفتح به عليك من أبواب الهداية والخير التي أصولها ثلاث: الانكسار، والتوبة، والتشمير مع الحذر الموجبين للجد والإخلاص، المخلصين من العيوب والذنوب. ثم نقل عن العارف أبي العباس المرسي رحمه الله تعالى، أن العبد قد يطيع الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يعملها ويطلب من الله تعالى العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله تعالى ويعتذر منه ويستصغر نفسه ويعظم من لم يعمله، فهذه سيئة

أحاطت بها حسنات فأيتهما الطاعة وأيتهما المعصية؟

وعلّق على قوله: معصية أورثتك ذلاً... إلخ. الخير في الطاعة بالذات، والشر فيها بالعرض، والشر في المعصية بالذات، والخير فيها بالعرض، وخير الطاعة من حيث أنها عبودية له وخضوع بين يديه، ورجوع إليه وطلب لما عنده، وشر المعصية في ضد ذلك، فإذا أوجبت الطاعة ما هو بالمعصية بالذات كانت شراً، وإذا أوجبت المعصية ما هو في الطاعة بالذات كانت خيراً.

ثم نقل عن الشيخ سيدي أبي مدين رحمه الله تعالى أنه قال: «انكسار العاصي خيرٌ من صَوْلة المطيع».

* * *

من فوائد ابن القيم

وقد ذكر الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه القيم «طريق الهجرتين»، حول هذا الموضوع كلاماً نفيساً جداً تحت عنوان: قاعدة في مشاهد الناس في المعاصي والذنوب، فذكر ستة مشاهد ثم قال: المشهد السابع مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله في تخليته بينه وبينَ الذنب، وإقداره عليه، وتهيئته أسبابه له، وأنه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه، ولكنه خلّى بينه وبينه لحكمة عظيمة لا يعلم مجموعها إلا الله تعالى.

ثم ذكر ذلك من أحدٍ وثلاثين وجهاً، وهذه خلاصتها بإجمال:

أحدها: أن الله يحب التوّابين ويفرح بتوبتهم، فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذنب.

الثاني: تعريف العبد عزة الله تعالى في قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه.

الثالث: تعريفه حاجته إلى حفظه وصيانته.

الرابع: استجلابه من العبد استعانته به واستعاذته به من عدوه وشر نفسه والالتجاء إليه والابتهال بين يديه.

الخامس: إرادته من عبده الذل والانكسار وتصاغر نفسه عنده بعد نظره إلى صلاح نفسه واستقامتها.

السادس: تعريفه بخَنْقَتِهِ نفسه وأنها الخطّاءة الجاهلة وأن كل ما لديها من علم وعمل وخير فمنن من الله تعالى مَنَّ بها عليه لا من نفسه.

السابع: تعريفه عبده سعة حلمه وكرمه في ستره عبده فإنه لو شاء لهتكه وفضحه بين عباده.

الثامن: تعريفه أنه لا طريق إلى نجاته إلا بعفوه ومغفرته.

التاسع: تعريفه كرمه في قبوله توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته.

العاشر: إقامة الحجة على عبده، فإن عذّبه فبِعَدْله وببعض حقه عليه بل باليسير منه.

الحادي عشر: أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلاّتهم بما يجب أن يعامله الله تعالى به فيسامحهم ويعفو عنهم.

الثاني عشر: أن يقيم معاذير الخلائق ويتسع رحمته لهم.

الثالث عشر: أن يقطع صولة الطاعة من قلبه فتتبدل برقة ورحمة.

الرابع عشر: أن يُعْرِيَه من رداء العجب بعمله ويعالجه به.

الخامس عشر: أن يُلبسه لباس الذل الذي لا يليق إلا بالعبيد.

السادس عشر: أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والبكاء والندم.

السابع عشر: أن يعرف مقداره مع معافاته وفضله في توفيقه وحفظه.

الثامن عشر: أن يستخرج منه محبته وشكره لربه إذا تاب فإن الله يحبه ويوجب له بهذه التوبة مزيد محبة وشكر ورضى لا يحصل بدون التوبة.

التاسع عشر: أنه إذا شهد إساءته وظلمه، واستكثر القليل من نعمة الله

تعالى عليه لعلمه بأن الواصل إليه منها كثيرٌ على مسيء مثله، فهو دائماً مستقل لعمله كائناً ما كان.

العشرون: أنه يوجب التيقُّظ له والحذر من مصائد العدو ومكائده، ويعرِّفه من أين يدخل عليه وبماذا يحذر منه كالطبيب الذي ذاق المرض والدواء.

الحادي والعشرون: أن مثل هذا ينتفع به المرضى لمعرفته بأمراضهم وأدوائها.

الثاني والعشرون: أنه يرفع عنه حجاب الدعوى ويفتح له طريق الفاقة، فإنه لا حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب من العبودية، فإن دوام الفقر إلى الله تعالى مع التخليط خير من الصفا مع العجب.

الثالث والعشرون: أنه يكون في القلب أمراض مزمنة لا يشعر بها فيطلب دواءها فيمن عليه اللطيف الخبير ويقضي عليه بذنب ظاهر فيجد ألم مرضه فيحتمي ويشرب الدواء النافع بالتوبة فتزول تلك الأمراض.

الرابع والعشرون: أن يذيقه ألم الحجاب والبُعد عنه تعالى بارتكاب الذنب ليكمل له نعمته وسروره إذا أقبل بقلبه إليه وجمعه عليه وأقامه في طاعته، فيكون التذاذه في ذلك بعد أن صدر منه ما صدر بمنزلة التذاذ الظمآن بالماء العذب الزلال، والشديد الخوف بالأمن، والمحب الطويل الهجر بوصل محبوبه، وإن لطف الرب وبره وإحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا. فيا بؤس من أعرض عن معرفة ربه ومحبته.

الخامس والعشرون: امتحان العبد واختياره هل يصح لعبوديته تعالى وولايته أم لا، فإنه إذا وقع الذنب سُلِبَ حلاوة الطاعة ووقع في الوحشة، فإن كان ممن يصلح، اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة فحنّت وتضرّعت واستعانت بربها ليردها إلى ما عوّدها من بره ولطفه، وإن ركنت عنها واستمر إعراضها ولم تحس بفاقتها الشديدة إلى مراجعة قربها من ربها عَلِمَ أنها لا تصلح للّه تعالى.

السادس والعشرون: أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان، ولو لم يخلق فيه هذه الدواعي لم يكن إنساناً بل ملكاً، فالذنب من موجبات البشرية، كما أن النسيان من موجباتها، كما قال النبي ﷺ: **«كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»** ولا يتم الابتلاء والاختبار إلا بذلك.

السابع والعشرون: أن ينسيه رؤية طاعته، ويشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه، فإن الله تعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه، والإخبار بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة، فإن ما تقبل من الأعمال رُفع من القلب رؤيته، ومن اللسان ذكره. وقال بعض السلف: إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه إذا ذكرها ندم واستقال وتضرّع إلى الله تعالى وبادر إلى محوها، وانكسر وذلّ لربه وزال عنه عُجْبُه وكِبْرُه، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويمن بها ويعتد بها ويتكبّر بها حتى يدخل النار.

الثامن والعشرون: أن شهود ذنبه وخطيئته يوجب له أن لا يرى له على أحد فضلاً، ولا له على أحد حقاً، فإنه إذا شهد عيب نفسه بفاحشة وخطئها وذنوبها لا يظن أنه خير من مسلم وإذا شهد ذلك لم ير لها على الناس حقوقاً من الإكرام يتقاضاهم إياها، ويذمهم على ترك القيام بمعافاتها عنده أخس قدراً وأقل قيمة من أن يكون لها على عباد الله حقوق يجب مراعاتها أو لها عليهم فضل يستحق أن يلزموه لأجلها، فيرى أن من سلّم عليه أو لقيه بوجه منبسط قد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه فاستراح في نفسه واستراح الناس من تعبه وشكايته، فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقر عينه، وأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط، فسبحان ذي الحكمة الباهرة التي بهرت عقول العالمين.

التاسع والعشرون: أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر

فيها، فإنه في شغل بعيبه ونفسه. وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسي عيبه وتفرغ لعيوب الناس، فالأول: علامة السعادة، والثاني: علامة الشقاوة.

الثلاثون: أنه يوجب له الإحسان إلى الناس والاستغفار لإخوانه الخاطئين من المؤمنين فيصير هجيراه: ربِّ اغفر لي ولوالديَّ وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، فإنه يشهد أن إخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أصيب به، محتاجون إلى مثل ما هو محتاج إليه، فكما يُحِبُّ أن يستغفر له أخوه المسلم يحب أن يستغفر هو لأخيه المسلم.

الحادي والثلاثون: أنه يوجب له سعة إبطائه وحلمه ومغفرته لمن أساء إليه فإنه إذا شهد نفسه مع ربه سبحانه مسيئاً خاطئاً مذنباً مع فرط إحسانه إليه وبره وشدة حاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، وهذا حاله مع ربه فكيف يطمع أن يستقيم له الخلق ويعاملوه بمحض الإحسان، وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة؟ وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد وهو مع ربه ليس كذلك، وهذا يوجب أن يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم ويغض عن الاستقصاء في طلب حقه قبلهم. انتهى كلام ابن القيم وهو كلام نفيس للغاية.

* * *

❊ الذنوب وأقسامها

لأهمية هذا الباب وحاجة الناس إليه حاجتهم للطعام والشراب لا بد أن نشير إلى أن الذنوب فيها صغائر وكبائر وأكبر كما جاء في الكتاب والسنة واتفق عليه العلماء.

فالصغائر كالنظرة، واللمس، والقبلة للمرأة الأجنبية أو الذكر الأمرد المشتهى، والمشي إلى موعد المعصية، وأخذ مثل درهم الغير، وأكل نحو تمرة مثلاً، والخلوة بالأجنبية والكلام معها فيما هو خارج عن المعروف

والآداب الإسلامية، وسماع الملاهي والمزامير، وتعاطي الشبهات، ومخالطة الفسّاق أحياناً، ولبس الديباج، والتختُّم بالذهب، وسب الولد، أو ضربه زيادة على مقدار الأدب، وكذب لا ضرر فيه، واللعب بالقردة، ونطاح الأكباش، ومهارشة الديكة، والعبث في الصلاة، واقتناء الكلب لغير الحاجة، ونحو ذلك، وهي لا تنحصر، وقد ذكر جملة كبيرة منها الشيخ مرتضى الزبيدي في شرح الإحياء..

وجعل الغزالي وغيره من الصغائر الغيبة أو سماعها، والتجسُّس، وسوء الظن، والكذب في بعض الأقوال، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإكرام السلاطين الظلمة، ومصادقة الفجّار، والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين، وفي بعض ما ذكروه خلاف.

أما الكبائر فكثيرة أيضاً وقد ذكرها مفصّلة ابن حجر الهيتمي في الزواجر فأبلغها إلى أكثر من أربعمائة كبيرة، وفي بعضها نظر ونزاع.

وقد جاء التنصيص في الكتاب والسنة على بعضها كالقتل، والزنا، واللواط، والسرقة، وشرب الخمر، وقذف المحصنات، وأكل الربا، والتعامل به، وأكل مال اليتيم، وأخذ أموال الناس بالباطل، وقطع الرحم، والسحر، والنميمة، وشهادة الزور، والقوادة، والدياثة، وشتم الآخرين أو لعنهم، وكذا لعن الوالدين أو شتمهما ولو بسبب، وعموم عقوقهما من باب أولى، والفرار من الزحف، وأكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أهلّ به لغير الله، واليمين الغموس، ونكث الصفقة، والأمن من مكر الله، ومنع ابن السبيل من فضل الماء، وعدم التنزُّه من البول، والإضرار في الوصية، والغلول من الغنيمة، والإلحاد في بيت الله الحرام، والجمع بين الصلاتين بغير عذر، واتخاذه عادة، ومفارقة جماعة المسلمين وموالاة الظلمة والكفرة، وهي كثيرة لمن تتبعها، وفيها ما هي كبيرة وأكبر كما يتضح من الأحاديث الآتية:

[١٩٦] فعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»** ثلاثاً. وفي رواية: **«ألا أخبركم؟»** قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور»**

قال: وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

رواه البخاري في الشهادات، وفي الاستئذان (١٣/٣٠٧)، ومسلم في الإيمان (٢/٨١/٨٢)، والترمذي في الشهادات (٢١٢٣) وفي التفسير (٢٨٢٤)، وأحمد وغيرهم.

[١٩٧] وعن أنس بنحوه، وزاد فيه: **«وقتل النفس»**.

رواه الشيخان والترمذي.

[١٩٨] وعن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ: **«الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين»**، أو قال: **«اليمين الغموس»**.

رواه أحمد (٢/٢٠١)، والبخاري في الديات وفي الأيمان والنذور، والترمذي في التفسير (٢٨٢٦) وحسّنه وصححه.

[١٩٩] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من الكبائر أن يشتم الرجل والديه»** قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: **«نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويشتم أمه فيشتم أمه»**.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٧)، ومسلم في الإيمان (٢/٨٣)، وأبو داود في الأدب (٥١٤١)، والترمذي في البر والصلة (١٧٤٨).

[٢٠٠] وعن عُمَيْر وكانت له صحبة أن رجلاً سأله فقال: يا رسول الله ما الكبائر؟ فقال: **«هُنَّ تِسْعٌ»** فذكر معنى الحديث التالي وزاد: **«وعقوق الوالدين المُسْلِمَيْن، واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياءً وأمواتاً»**.

رواه أبو داود في الوصايا (٢٨٧٥)، والنسائي في المحاربة من الكبرى (٢/٢٩٠) وهو حديث حسن لغيره.

[٢٠١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات»**، قيل: يا رسول الله وما هن؟ قال: **«الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق،**

وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات».

رواه البخاري في الوصايا وغيرها، ومسلم في الإيمان (٨٣/٨٢/٢)، وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٦)، والنسائي فيه أيضاً (١١٤/٤) من الكبرى.

ففي جملة هذه الأحاديث بيان كبار المعاصي وأكبرها وأنها ليست متساوية بل هي متفاوتة حسب مفاسدها ومضارها وقد ذكر غير واحد من العلماء أن أكبرها: الإشراك والكفر بالله، ثم ترك الصلاة، ثم قتل النفس بغير حق، ثم الزنا، ثم اللواط، ثم العقوق، ثم أكل مال اليتيم، ثم أكل أموال الناس بالباطل، ثم المراباة، ثم قذف المحصنات، ثم السحر، ثم باقي المعاصي حسب مفاسدها اجتماعياً وأُسَرِيًا وفردياً.

* * *

❋ ما هو حد الكبيرة؟

وتعرف الكبيرة غير المنصوص عليها بما ذكر العلماء في حدها.

فقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: الكبائر كل ذنب ختمه الله تعالى بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب. وقال بعضهم: هي ما أوعد الله تعالى عليه بنار أو حد في الدنيا، وقيل غير ذلك من الأقوال.

وعلى أيٍّ، فكل ذنب أوعد الله على صاحبه بالعذاب، أو غضب عليه أو لعنه، أو ذكر أنه فاحشة، أو فسق، أو جاء أنه لا يكلمه ولا ينظر إليه يوم القيامة، أو ذكر أنه بهتان، أو أن صاحبه منافق، ونحو ذلك. فكل ما جاء كذلك فهو كبيرة، وما عدا ذلك فهو صغيرة. أما ما جاء عن بعض السلف وغيرهم أن كل شيء نهى الله تعالى عنه فإنه كبيرة فمقصودهم أن كل مخالفة هي بالنسبة إلى جلال الله وعظمته كبيرة، ولا يخالفون في أن المعاصي فيها كبائر وصغائر لتظافر الدلائل من الكتاب والسنّة على ذلك، واتفاق جمهور العلماء عليها.

قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ الآية.

والسيئات التي تكفر هي الصغائر بلا شك.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾، واللمم: هي الصغائر.

[٢٠٢] وقال ﷺ: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، يكفرن ما بينهن ـ إنْ اجتنبت الكبائر ـ**» وفي رواية: «**ما لم تغش الكبائر**».

رواه مسلم والترمذي وغيرهما من حديث أبي هريرة.

فالحديث نصّ في أن الله يكفّر السيئات بالصلوات الخمس وما ذكر معها إذا لم تغشَ الكبائر واجتنبت فيكون المغفور هي الصغائر، وهذا مما يجب أن لا يتنازع فيه.

* * *

بماذا تغفر الذنوب كبيرها وصغيرها

يبقى هنا أمر آخر وهو بالغ الأهمية: بماذا تكفر الذنوب وما يغفر منها وما لا يغفر؟ وإجابة عن هذا نقول بإذن الله وعونه: أما الصغائر فتغفر باجتناب الكبائر وبكل قربة وطاعة وعمل صالح بدون استثناء، فتغفر بالطهارة، وبالصلاة مطلقاً، وبالصدقة، وبتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والصلاة على رسول الله ﷺ وبجميع أنواع البر والإحسان. وهذا لا خلاف فيه بين العلماء فإذا لم يكن للإنسان صغائر يكفر له بعض الكبائر وإذا لم توجد له كبائر ترفع له بها الدرجات.

أما بالنسبة للكبائر فتغفر بأمور جاءت بها الشريعة:

منها: التوبة النصوح كما تقدم، ومنها: الحج المبرور، ومنها: بر

الوالدين المسلمين، ومنها الجهاد في سبيل الله، ومنها: صلاة التسبيح، وقد تكفر بأنواع الطاعات، كما جاء ببعض ذلك عموم الأحاديث وفضل الله واسع.

أما الذي لا يغفر مطلقاً فهو الشرك بالله والكفر به ما دام صاحبه لم يسلم، فإذا أشهر إسلامه بصدق وإخلاص غفر الله له كل ما سلف.

* * *

الخوف والرجاء

[٢٠٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو بالموت، فقال له: **«كيف تجدك؟»** فقال: والله يا رسول الله أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: **«لا يجتمعان في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنه مما يخاف»**.

رواه الترمذي في الجنائز (٨٧٥)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦١)، وجوّده النووي، وحسّنه المنذري وغيره.

يستفاد من الحديث الشريف أن المؤمن الحازم ينبغي أن يكون جامعاً بين حالتَي الخوف والرجاء في جميع مراحل حياته فيرجو رحمة الله ومغفرته ويخاف سطوته وعذابه. وهذه حالة الربانيين من عباد الله عزّ وجل كما قال تعالى في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ وقال تعالى في صفة أهل التهجد وقيام الليل: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا...﴾ الآية.

وقال جلّ علاه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾.

وقال في شأن الملائكة وما عبد من دون الله من الصالحين: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾.

وهكذا جمع الله عزّ وجل في القرآن الكريم بين الخوف والرجاء فلا يذكر النار أو أهلها إلا ذكر بجنبها الجنة أو أهلها، ولا يذكر عقابه وغضبه إلا ذكر رحمته ومغفرته وعفوه، كقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

ثم ذكر ضد هؤلاء فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وكقوله في الآية الأخرى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

ثم قال في الجانب الآخر: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾.

ثم قال في المؤمنين الصالحين ترغيباً في السير على نهجهم: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَـٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ الآية.

وقال: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

ثم قال في الربانيين السعداء: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

وهكذا شأن القرآن في كل سورة يجمع بين الترغيب والترهيب ليكون المؤمن دائماً جامعاً بين الخوف والرجاء، وهكذا جاءت التربية النبوية كما يعرف من السنة المطهرة.

ولذلك قال علماؤنا الربانيون: الخوف والرجاء كجناحَيْ الطائر إذا

استويا استوى الطير وتمّ طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وهكذا الخوف والرجاء إذا استويا استوت حالة المؤمن واستقام، وإذا نقص أحدهما أو كلاهما نقص دينه أو ذهب بالكلية، فإن مَن غلّب جانب الرجاء على الخوف وقع في الأمن من مكر الله وعقابه، وأطلق لنفسه العنان وترك التكاليف الشرعية وارتكب المحرمات اعتماداً منه على فضل الله ورحمته في زعمه، وإذا غلّب جانب الخوف على الرجاء وقع في اليأس والقنوط من رحمة الله فلا يبقى له أمل ولا رجاء في عفو الله ورحمته، وكلا الحالتين ضلال وخروج عن الصراط السوي، أما فقدهما معاً فلا يخاف ولا يرجو. فهذا هالك لأنه لا يكون كذلك إلا كافر ملحد.

* * *

الرجاء وما جاء فيه

[٢٠٤] الرجاء هو ضد اليأس وهو أن يأمل من الله عزّ وجل أن يقبل أعماله الصالحة ويثيبه عليها ويغفر له ويتجاوز عن سيئاته، ولا يكون الرجاء إلا مع العمل وإلا كان أمنية وغروراً وحمقاً.

ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ الآية.

فرتّب تعالى رجاءهم على إتيانهم بالأعمال الصالحة من تلاوة كتاب الله وإقام الصلاة والإنفاق مما رزقهم الله تعالى.

فهؤلاء هم المستحقون للرجاء، أما المتمادي في الذنوب والمنهمك في الفواحش والمخالفات مع عدم التوبة والرجوع إلى الله تعالى ثم يقول: إني أرجو الله أن يغفر لي، فإنه غفور رحيم، فهذا مغرور ومخدوع ورجاؤه رجاء الكذّابين الحمقى.

وقد أخبر تعالى عن أمثال هؤلاء بقوله: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ﴾.

وقال تعالى عن صاحب البستان الكافر المغرور: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا﴾.

قال يحيى بن معاذ الرازي أحد الزهّاد النسّاك: من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببذر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمنّي على الله عزّ وجل مع الإفراط، وأنشد:

مـا بـالُ ديـنـك تـرضَى أن تُـدَنِّـسَـهُ وثوْبُك الدَّهرَ مغسولٌ مِنَ الدَّنَسِ
تَرجُو النجاةَ ولم تَسْلُكْ مسالِكَهَا إنَّ السفينة لا تجري على اليبسِ

وفي حكم ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: «الرجاءُ ما قارنَهُ عَمَلٌ، وإلاّ فهو أُمْنِيَةٌ».

وقال الحافظ في الفتح: والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليُحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجياً عدم المؤاخذة بغير ندم ولا إقلاع فهذا في غرور.

وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل.

ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو.

وقال جمهور العلماء: الأوْلى أن يرجح الإنسان جانب الخوف في حياته، فإذا مرض رجح الرجاء، وأما عند الموت فاستحبُّوا الاقتصار على الرجاء دون الخوف وهذه:

* * *

❊ بعض أحاديث الرجاء

[٢٠٥] عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يموتَنَ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ ظنّه بالله عزّ وجل»**.

رواه أحمد (٣١٥/٣) وفي مواضع، ومسلم (٢٠٩/١٧)، وأبو داود (٣١١٣)، وابن ماجه (٤١٦٧).

[٢٠٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يقول الله عزّ وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني»**.

رواه البخاري في التوحيد (١٥٩/١٥٥/١٨)، ومسلم في الذكر والدعاء (٣/٢/١٧)، وابن ماجه (٣٨٢٢) وغيرهم في حديث طويل تقدم في أبواب سابقة.

ومعنى تحسين الظن بالله أن يغلب الإنسان ظنه بأن الله عزّ وجل سيقبل أعماله ويثيبه عليها ويتجاوز عن زلاّته وذنوبه ويشمله بعفوه وإحسانه ويعمه برحمته وكرمه ولا يقنط من رحمة الله وخاصة عند الوفاة.

[٢٠٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إنّ الله خلق الرحمةَ يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمةً، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»** وفي رواية: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في الجنة أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من الجنة أحد»**، وفي رواية: **«أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها»**، وفي رواية: **«فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»**، **«وأخّر الله تعالى تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٤٨٤/٣٩٧/٣٣٤/٢)، والبخاري في الأدب وفي الرقاق

(٨٣/٨٢/١٤)، ومسلم في التوبة (٧٠/٦٩/٦٨/١٧)، والترمذي في الأدعية (٣٣٠٩/٣٣٠٨) بتهذيبي.

[٢٠٨] وعنه عن رسول الله ﷺ قال: **«لما خلق الله الخلق كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش إن رحمتي تغلب غضبي»**، وفي رواية: **«غلبت غضبي»**، وفي أخرى: **«سبقت غضبي»**.

رواه أحمد (٤٦٦/٤٣٣/٢)، والبخاري في التوحيد (١٨٥/١٧)، ومسلم في التوبة (٦٨/٦٧/١٧)، والحميدي (١١٢٦)، والترمذي في الأدعية (٣٣١٠)، والنسائي في الكبرى (٤١٧/٤)، وابن ماجه (١٨٩) وغيرهم.

[٢٠٩] وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قدم رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تَسْعَى، إذا وجدت صبياً في السبي أخذتْه فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: **«أتُرَوْنَ هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»** قلنا: لا والله، فقال: **«للّهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها»**، وفي رواية: **«لا والله وهي تقدر على أن لا تطرحه»**.

رواه البخاري في الأدب (٣٧/١٣)، ومسلم في التوبة (٧٠/٦٩/١٧).

[٢١٠] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرّ النبي ﷺ في نفر من أصحابه وصبي على الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله ما كانت هذه لِتُلْقِيَ ابنها في النار، فقال ﷺ: **«ولا الله بطارح حبيبه في النار»**، وفي رواية: **«ولا الله يلقي حبيبه في النار»**.

رواه أحمد (١٠٥/١٠٤/٣)، والحاكم (٥٨/١)، وأبو يعلى (٣٧٣٥) وصححه الحاكم على شرطهما، ووافقه الذهبي وعزاه النور في المجمع (٣٨٣/١٠) لأحمد والبزار وأبي يعلى، وقال: رجالهم رجال الصحيح.

في جملة هذه الأحاديث تتجلّى رحمة الله تعالى بعباده وتحمل بشارات عظيمة لأهل الإيمان الطائعين منهم والعاصين. ويتضح ذلك في الآتي:

أولاً: كثرة عدد رحمة الله تعالى، وهذه الرحمات من صفات الأفعال،

أما رحمة الذات فلا تتعدد، وإذا كانت رحمة واحدة تسع أهل الدنيا بإنسها وجنّها، وحيواناتها وهوامها. . . فيتراحمون ويتعاطفون بها، حتى إن السباع والنمار والأفاعي تعطف على أولادها وترحمها.

فكيف بيوم القيامة الذي سيكون فيه مائة رحمة، فلا شك أن الله عزّ وجل سيشمل جميع عباده المؤمنين برحمته.

قال النووي: هذه الأحاديث من أحاديث الرجاء والبشارة للمسلمين. قال العلماء: لأنه إذا حصل للإنسان من رحمة واحدة في هذه الدار المبنية على الأكدار. الإسلام والقرآن والصلاة والرحمة في قلبه وغير ذلك مما أنعم الله تعالى به فكيف الظن بمائة رحمة في الدار الآخرة وهي دار القرار ودار الجزاء. . .

ثانياً: قوله تعالى: «إن رحمتي تسبق غضبي» معناه كما قال العلماء كثرة الرحمة وشمولها للعباد وأن الله عزّ وجل يرحم أكثر مما ينتقم.

ثالثاً: قوله: «غضبي» غضب الله تعالى صفة له ليست كصفة المخلوقات كرضاه أيضاً وسخطه. وقال البعض: غضب الله ورضاه يرجعان إلى معنى الإرادة، فإرادته الإثابة للمطيع، ومنفعة العبد تسمى رضا ورحمة، وإرادته عقاب العاصي وخذلانه تسمى غضباً، وإرادته سبحانه وتعالى صفة له قديمة يريد بها جميع المرادات. قاله النووي.

وهذا على مذهب الخلف المتأولين، والله تعالى أعلم.

رابعاً: في حديثَيْ أنس بشارة أي بشارة للمحبين للّه عزّ وجل حيث إنه أخبر على لسان رسوله ﷺ وخبره صدق أنه لا يعذب حبيبه، وهل يوجد في الدنيا مؤمن صادق لا يحب الله عزّ وجل، لا والله، فلتقر أعين المحبين بهذه البشارة، وليطربوا ويرقصوا فرحاً بالله عزّ وجل.

خامساً: في قوله ﷺ في حديث عمر: **«للّه أرحم بعباده من هذه بولدها»** بشارة أخرى لأنه إذا كانت المرأة أرحم الناس بولدها فهي تؤثره

على نفسها وتفديه بحياتها وروحها... فكيف بأرحم الراحمين أرحم بعباده من أنفسهم؟...

سادساً: في قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «فلو يعلم الكا... ولو يعلم المؤمن...» إلخ»، دليل على أنه ينبغي للمؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء فيرجو رحمة الله تعالى ومغفرته ولا يقنط وييأس لسعة رحمة الله وفضله وشمول مغفرته.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ إلخ.

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية.

وقال: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

ثم يخاف الله مع ذلك فلا يأمن مكر الله وعقابه وغضبه على... شديد العقاب، وعذابه هو العذاب الأليم، ولا يعذب عذابه أحد.

والأحاديث في فضل الرجاء كثيرة، تقدم كثير منها في كتب سابقة.

* * *

حديث القاتل مائة نفس

[٢١١] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن نبي الله ﷺ قال: **«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعةً وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجل عالِم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال:**

ومَن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى إذا هو بنصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم - أي: حَكَماً - فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها».

وفي أخرى: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي، وقال: قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له».

وفي رواية: «فنأى بصدره نحوها».

رواه مسلم في التوبة (١٧/٨٢/٨٤) بألفاظه. ورواه البخاري في أحاديث بني إسرائيل (٧/٣٢٤/٣٢٥) بنحوه، وأخرجه ابن ماجه أيضاً في الديات (٢٦٢٢) مطولاً بنحوه.

في هذا الحديث شمول رحمة الله تعالى ومغفرته حتى للقاتل العمد الذي تكرر منه القتل وتاب وندم على ما جنت يداه. وهذا مما لا ينبغي أن يجادل فيه لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، والقاتل داخل في عموم من يشاء.

وجاء في حديث عبادة المتقدم: «فمَن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذّبه».

والقصة وإن كانت في رجل من بني إسرائيل فإن شرع من قبلنا شرع لنا إن لم يأتِ ما يخالفه، وهنا ذكره النبي ﷺ في معرض شمول مغفرة الله للقاتل، ولم يعقبه بشيء فكان شرعاً لنا، وإذا كان مثل هذا غفر له، وهو من الأمة التي كانت كتب عليها الآصار والأغلال، فكيف بمن هو من الأمة المرحومة صاحبة الدين اليسر السمح أمّة الإسلام؟!

وفي الحديث وجوب مقاطعة أهل المعاصي وأماكنهم والالتجاء إلى صحبة الصالحين ولزوم ديارهم. وفيه فضل العالِم على العابد، فإن الرجل الجاني ما نجا وغفر له إلا بإرشاد العالِم وفتواه.

* * *

من أرجى آيات القرآن والسنة للمؤمنين

من أكثر الآيات رجاء لعامة المؤمنين ثلاث آيات:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

فهذه الآيات الثلاث من أعظم ما في القرآن رجاء كما قال العلماء، أما من الأحاديث فكثيرة ومنها الآتي:

[٣١٢] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يجيء يوم القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم ويضعها على اليهود والنصارى»**.

رواه مسلم في التوبة (٨٦/١٧).

قال عمر بن عبدالعزيز والشافعي رحمهما الله تعالى: هذا الحديث أرجى حديث للمسلمين. قال النووي: وهو كما قالا لما فيه من التصريح بفداء كل مسلم وتعميم الفداء، ولله الحمد...

[٣١٣] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قيل له: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: **«يُدْنى المؤمن يوم القيامة من ربه عزّ وجل حتى يضع عليه كَنَفَه فيقرره بذنوبه تعرف ذنب كذا؟**

يقول: أعرف مرتين، فيقول: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته، وأما الكفار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾».

رواه أحمد (١٠٥/٢)، والبخاري في المظالم وفي التفسير (٤٢٤/٩) وفي الأدب (١٠٠/٩٩/١٣) وفي التوحيد، ومسلم في التوبة (٨٧/١٧)، والنسائي في الكبرى (٣٦٤/٦)، وابن ماجه (١٨٣).

«النجوى»: ما يتكلم به المرء يسمع به نفسه، والمراد بها هنا المناجاة التي ستقع بين الرب سبحانه يوم القيامة مع المؤمنين. وقوله: «كنفه» بفتحات، أي: ستره وعفوه.

فهذا من أرجى الأحاديث للمؤمنين حيث سيستر عباده عما جنوه في الدنيا ثم يغفر لهم بعد اعترافهم بما فعلوه...

* * *

حديث البطاقة

[٢١٤] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله عزّ وجل سَيُخَلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشُر عليه تسعةً وتسعين سجلاً، كلُّ سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمَك كَتَبتي الحافظون؟ يقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيُخرَجُ بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فيقول: احضُر وزنَك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: فإنك لا تُظلَم، قال: فتوضَعُ السجلاتُ في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقُلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء».**

رواه الترمذي في الإيمان (٢٤٥٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠)،

وابن حبان بالموارد (٢٥٢٤)، والحاكم (٦/١) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي وسنده صحيح عند الترمذي في طريق له.

قوله: «سيخلص» بفتح السين وضم الياء وفتح الخاء وكسر اللام المشددة، ومعناه يميز ويختار. وقوله: «سجلاً» بكسر السين والجيم هو الكتاب الكبير. وقوله: «فطاشت» أي: خفَّتْ.

وفي الحديث فضل كلمة التوحيد وأنها لا يثقل معها شيء وأن لها شأناً عند الله تعالى ولا شك في ذلك فإنها مفتاح الجنة وبدونها لا يصح أي عمل، ولها من الفضائل والمزايا والخصائص ما ليس لغيرها من فروع الدين فهي أفضل الأقوال إطلاقاً وأشرف وأعظم ما يُدَّخر للآخرة، فصاحبها الصادق جدير بأن ترجح كفة حسناته وتخف كفة سيئاته.

نسأل الله تعالى أن يعاملنا بمحض فضله وكرمه، وأن يشملنا برحمته الواسعة، وأن لا يعاملنا بما نستحقه من أعمالنا إنه جواد كريم.

* * *

الخوف وما يتعلق به

الخوف هو تألُّم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وهو سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على طاعته عزّ وجل أمراً ونهياً وهو يختلف باختلاف الخائفين، فمن الناس من يخاف الموت قبل التوبة، ومنهم من يخاف عذاب الله وغضبه، ومنهم من يخاف الوقوف بين يدَي الله، ومنهم من يخاف الاستدراج بكثرة النعم، ومنهم من يخاف حرمان الجنة، ومنهم من يخاف سوء الخاتمة والسابقة، فإن الله عزّ وجل قبض قبضة بيمينه فقال: **«هؤلاء للجنة ولا أبالي، وقبض قبضة أخرى وقال: هؤلاء للنار ولا أبالي»**.

رواه أحمد (٦٨/٥) عن أبي نضرة بسند صحيح.

ولا يدري الإنسان في أي القبضتين وقع، فهو دائم الخوف من ذلك.

والناس متفاوتون في الخوف فكلما كان الإنسان أعرَف بالله وبنفسه كان أخوف منه وأخشى.

[٢١٥] ولذا قال النبي ﷺ: **«شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»**.

قال ذلك لما قال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله شبت.

وفي رواية: **«شيبتني هود وأخواتها»**.

رواه الترمذي في التفسير (٣٠٨٠)، وفي الشمائل (٤٠)، والحاكم (٢/٣٤٣/٤٢٦) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وقد تقدم في التفسير وفي الشمائل.

وللحديث شاهد عن عقبة بن عامر عزاه النور في المجمع (٣٧/٧) للطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح، وآخر عن أبي جحيفة وهو في شمائل الترمذي (٤١).

وقوله «شيبتني هود...» إلخ، أي: ما ذكرته هذه السورة ومثيلاتها من أهوال القيامة، إن انفعالي بها ترك لديَّ هذا الشيب! الذي هو أثر الخوف ودليل الفزع!

وتقدم حديث: **«لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»**.

وحديث عائشة: **«ذريني أتعبّد إلى ربي...»** مع بكائه الشديد.

وحديث: قيامه حتى تورّمت قدماه.

وتقدم حديث: **«أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»**.

رواه البخاري وغيره، في أحاديث كثيرة تقدمت في خوفه ﷺ، وقد جاءت آيات كثيرة وأحاديث أخرى نبوية في الخوف والخائفين وما أعدّ الله لهم وأكرمهم به...

قال الله تعالى في الأمر بالخوف: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ أي: خافوني، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾، وقال: ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِ﴾.

وقال في فضل الخوف والخائفين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ ...﴾، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

والآيات في هذا كثيرة في القرآن الكريم.

[٢١٦] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: **«لا يا بنت الصدِّيق ولكنهم الذين يصومون، ويصلُّون، ويتصدَّقون، وهم يخافون أن لا تُقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون»**.

رواه أحمد (٢٠٥/١٥٩/٦)، والترمذي (٢٩٦٩) بتهذيبي، وابن ماجه (٤١٩٨)، وابن جرير (٣٤/١٨) والحاكم (٣٩٤/٣٩٣/٢) وصححه ووافقه الذهبي وتقدم غير ما مرة.

ومعنى الآية الكريمة مع الحديث: أن المؤمنين الذين هم من جلال الله وعظمته خائفون، ومن خوف عذاب الله حذرون، والذين هم بآيات الله التشريعية والكونية يؤمنون، ولا يشركون مع الله أحداً بل يُخلصون العبادة له وحده، والذين يعطون العطاء من زكاة وصدقة ويتقربون إلى الله بأنواع القربات، وأفعال البر والخير، وهم مع ذلك يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم، فهم دائماً خائفون وجلون.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

قال بعض الأكابر: إن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن، فالصفة الأولى: دلّت على حصول الخوف الشديد، والثانية: دلّت على التصديق بوحدانية الله تعالى، والثالثة: دلّت على ترك الرياء في الطاعات، والرابعة: دلّت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاث يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير وذلك هو نهاية مقام الصديقين رزقنا الله تعالى التحقق بذلك، آمين.

وتقدم لنا حديث الترمذي: **«مَن خاف أدلج ومَن أدلج بلغ المنزل»**.

[٢١٧] وعن أبي قتادة وأبي الدهماء وكانا يكثران الحج قالا: أتينا على رجل من أهل البادية فقال البدوي: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلّمني مما علّمه الله فكان فيما حفظت عنه أن قال: **«إنك لن تدع شيئاً اتقاء الله تبارك وتعالى، إلا آتاك الله خيراً منه»**.

رواه أحمد (٧٩/٥) بسند صحيح.

قوله: «اتقاء الله» أي: خوفاً من الله.

ففي الحديث الترغيب في الخوف من الله وترك مخالفته خشية منه.

[٢١٨] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدّث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ولكن سمعته أكثر من ذلك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما قعد مقعد الرجل من امرأته أُرْعِدَتْ وبكت، فقال: ما يُبكيكِ أكرهتكِ؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنت هذا وما فعلتيه، اذهبي فهي لكِ، وقال: لا والله لا أعصي الله بعدها أبداً، فمات من ليلته، فأصبح مكتوب على بابه: إن الله قد غفر للكفل»**.

رواه أحمد رقم (٤٧٤٧)، والترمذي (٢٣١٦) بتهذيبي، وابن حبان بالموارد (٢٤٥٣)، والحاكم (٤/٢٥٤) وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«الكفل»: بكسر الكاف، اسم رجل وليس بالنبي المذكور في القرآن.
«أرعدت»: أي اضطربت من خوف الله.

وفي الحديث فضل الخوف من الله وأن مآل الخائف لا يكون إلا خيراً، فالمرأة التي خافت الله عزّ وجل وبكت من ارتكاب ما حرّمه الله تعالى عوّضها تعالى ستين ديناراً بدون أي مقابل، اللهم إلا خوف الله مضافاً إلى ذلك حفظ كرامتها، أما الكفل فغفر الله تعالى له كل ما سبق من ذنوب، ولا يعلم ما فعله إلا الله وأكرمه بالموت عقب توبته النصوح وكتب على بابه تنويهاً به ومدحاً له: إن الله قد غفر للكفل. ويا لها من بشارة.

[٢١٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا متُّ فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذرُّوني في الريح، فوالله لئن قدر الله عليّ ليُعذّبني عذاباً ما عذّبه أحداً، فلما مات فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيكِ منه، نفعلت، فإذا هو قائم فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك»** وفي رواية: **«مخافتك، فغفر له»**.

رواه البخاري في ذكر بني إسرائيل (٧/٣٣٢/٣٣٣)، ومسلم (١٧/٧٠/٧١/٧٢) وغيرهما.

والحديث وارد عن أبي سعيد الخدري رواه الشيخان وعن حذيفة رواه البخاري.

ورواية أبي سعيد: **«ما حملك؟ قال: مخافتك، فتلقاه برحمته»**.

وفي رواية حذيفة: **«لمَ فعلت ذلك؟ قال: من خشيتك، فغفر الله له»**.

كان هذا الرجل من بني إسرائيل وكان في أول أمره نبّاشاً للقبور ثم اتسع حاله فأثرى وكان كثير الذنوب لم يعمل خيراً قط، فلما حضرته الوفاة

ندم على ما قدّم في حياته من مجاوزة حدود الله تعالى وتيقّن أنه لا مفر له من عذاب الله، فأوصى بنيه إذا هو مات أن يحرقوه ويذروا رماد عظامه في يوم عاصف وظن أنه إذا فعل ذلك لا يجمعه الله، فلما توفي امتثل بنوه ما أوصاهم به، فيحدثنا نبينا ﷺ بما أوحَى الله إليه أنه إذا كان يوم القيامة جمع رماد عظامه فيكون إنساناً بإذن الله تعالى فيخاطبه الله عزّ وجل: ما حملك على ما صنعت؟ فيجيب الله عزّ وجل: فعلت ذلك مخافة وخشية منك، فيرحمه الله عزّ وجل ويغفر له كل ما سلف من سيئات وهنات بدون سابقة عذاب ولا حساب عسير.

وفي هذا فضل كبير وبشارة عظيمة لمن خاف الله عزّ وجل ولو في آخر لحظة من حياته.

وفي الحديث فوائد كثيرة بسطتها في عجائب الأقدمين.

* * *

فضل البكاء من خشية اللّه

[٢٢٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يَلِجُ النارَ رجلٌ بكى من خشيةِ الله حتى يعودَ اللبنُ في الضَّرع، ولا يجتمعُ غبارٌ في سبيل الله ودخان جهنم»**.

رواه الحميدي (١٠٩١)، والطيالسي (٢٠٤٠)، وأحمد (٥٠٥/٤٤١/٢٥٦/٢)، والترمذي في الجهاد (١٤٩٥)، وفي الزهد (٢١٣٣)، والنسائي (١٣/١١/٦)، والحاكم (٧٢/٢ و٢٦٠/٤) وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي وذلك لطرقه.

[٢٢١] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله»**.

رواه الترمذي في الجهاد (١٥٠٢) وحسّنه وذلك لشواهده.

قوله: «يلج» الولوج هو الدخول. وقوله: «تحرس» أي: تكلأ.

وفي الحديثين فضل البكاء من خوف الله وخشيته سواء كان الخوف من عذابه تعالى وعقابه، أو كان من عظمته وجلاله وكبريائه، فأحرى إذا كان محبة فيه وشوقاً إليه. ولا يخفى ما في قوله: **«لا يلج النار»**، وقوله: **«عينان لا تمسهما النار»** من عظيم الرجاء والبشارة الكبرى.

[٢٢٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سبعةٌ يُظِلُّهم الله في ظِلّه يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عزّ وجل، ورجل قلبه مُعلّقٌ بالمسجد، إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفِق يمينُه»**.

رواه أحمد (٢/٤٣٩)، والبخاري ومسلم وغيرهم، وقد تقدم في الأدب.

وفي الحديث فضل هؤلاء السبعة وأنهم سيكونون من المظللين تحت عرش الله يوم لا ظل إلا ظله، ومنهم الباكي خالياً من خوف الله أو عظمته أو محبته، فإن الذاكر قد تحصل له أحوال، فتارة يبكي خوفاً على نفسه مما جنته يداه، ومرة يبكي محبة في الله وشوقاً إليه، وأخرى يبكي لجلال الله وكبريائه، وكل ذلك مما يوجب رضا الله عزّ وجل ويكون سبباً في تظليل العبد تحت ظل الله.

* * *

❋ الصبر

[٢٢٣] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما

عنده، فقال لهم حين أنفق كل شيء بيده: **«ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغنِ يُغنه الله، ومن يتصبّر يُصبّره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»**.

رواه أحمد (٩٣/٣)، والبخاري في الرقاق (٨٥/٨٤/١٤) وفي الزكاة، ومسلم في الزكاة أيضاً (١٤٥/١٤٤/٧).

في الحديث الحث على التعفُّف والقناعة والصبر على ضيق العيش وغيره من المكاره، والصبر هو الحبس عن الشيء، والتصبُّر تكلُّف الصبر ومعالجة النفس على ترك ما تريده، والصبر يكون على المواظبة على فعل الواجبات، وعلى الكف عن المحرمات، وعلى تحمُّل أنواع البلايا.

وهو من المقامات العظيمة لا يتصف به كاملاً إلا أكابر عباد الله الصالحين، ولذلك أكثر الله عزّ وجل من الأمر به وبيان فضل أهله حتى أنه ذكر في القرآن نحو من مائة مرة، وذكره تعالى على أنواع مختلفة بيّنها مفصلة الشيخ مرتضى الزبيدي رحمه الله تعالى في شرح الإحياء فلينظرها من أراد البسط.

وهذه بعض آيات الصبر:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾، وقال: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾، وقال: ﴿مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في آيات كثيرة.

فأكرم بمن يؤتى أجره بغير حساب، ويكون محفوفاً بمعية الله تعالى وصلاته عليه وهدايته ورحمته، فيا له من مقام، إنه مقام الصبر، ولذا قال نبينا ﷺ في هذا الحديث: **«وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»** ذلك لأنه الأصل في التكاليف الشرعية فبدونه لا يكون شيء أصلاً.

[٢٢٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر فقال: **«اتقي الله واصبري»**، فقالت: إليك عني فإنك لم تُصَب بمصيبتي ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوّابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: **«إنما الصبرُ عند الصدْمَةِ الأولى»**.

رواه البخاري ومسلم، وتقدم في الجنائز.

ففي الحديث الأمر بالصبر وأن ذلك يكون عند بداية المصيبة، فذلك هو الصبر المعتبر شرعاً والذي يثاب عليه صاحبه.

[٢٢٥] وعنه أيضاً قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله عزّ وجل قال: إذا ابتليتُ عبدي بحبيبتيه فصبر، عوَّضْتُه منهما الجنة** - يريد عينيه -».

رواه البخاري في الطب والمرضى (١٢/٢٢٠) والترمذي في الزهد (٢٢٢٠).

[٢٢٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رفعه إلى النبي ﷺ قال: **«يقول الله عزّ وجل: مَن أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب، لم أرضَ له ثواباً دون الجنة»**.

رواه أحمد (٢/٢٦٥)، والترمذي في الزهد (٢٢٢١)، والدارمي (٧٩٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٤٥) وغيرهم بسند صحيح على شرطهما.

ففي الحديثين فضل الصبر على المصيبة وبالأخص إذا كانت في فقدان عضو من أعضاء الإنسان كذهاب البصر مثلاً، فإن للصبر على ذلك احتساباً للأجر من الله تعالى فضلاً عظيماً، وأي فضل أعظم من دخول الجنة لا سيما إذا كان بدون سابقة عذاب.

[٢٢٧] وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله تعالى قال: قال لي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى،

قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت إني أُصْرَعُ، وإني أتكشّفُ، فادعُ الله تعالى لي، قال: **«إن شئتِ صبرتِ ولكِ الجنة، وإن شئتِ دعوتُ الله تعالى أن يعافيكِ»** فقالت: أصبر، وقالت: إني أتكشفُ فادعُ الله أن لا أتكشف، فدعا لها.

رواه البخاري في المرضى (٢١٨/١٢)، ومسلم في البر والصلة (١٣١/١٦).

الصرع قد يكون من بخار رديء يرتفع إلى الدماغ من بعض الأعضاء، ويكون من مس الجن وهو الأغلب على الناس.

وفي الحديث فضل الصبر على من أصيب بذلك وأن صاحبه من أهل الجنة والله لا يُخلف وعده. والأحاديث في الصبر كثيرة وقد تقدم في الأدب حديث أبي مالك الأشعري الذي فيه: **«والصبر ضياء»** وهو عند مسلم وغيره، وسمي الصبر ضياء لأن الضياء فيه نور مع نوع حرارة وإحراق، ولما كان الصبر شاقاً على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه، سمي ضياء لمشقته على النفوس.

قال العلماء: والصبر المحمود ثلاثة أنواع: الصبر على طاعة الله تعالى، والصبر عن معاصي الله عزّ وجل، والصبر على أقدار الله تعالى المؤلمة.

وقالوا: إن الصبر على الطاعات وعن المحرمات أفضل من الصبر على البلايا والأقدار، والله تعالى أعلم.

* * *

❊ الشكر

[٢٢٨] عن صهيب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عجباً لأمرِ المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له»**.

رواه مسلم في الزهد (١٢٥/١٨).

فيه فضل المؤمن في كل أحواله سواء في سرائه أو ضرائه، فإذا ناله ما يَسُرُّه وشكر الله على ذلك أثابه الله عليه فكان خيراً له، وإن أصابه ما يؤلمه من الآفات فقابله بالصبر وعدم التسخُّط جازاه الله على ذلك أيضاً فكان خيراً له، ولا يعطى هذا الخير إلا للمؤمن فهو المستحق لذلك فضلاً من الله ورحمة به.

أما الصبر فقد تقدم ما فيه. وأما الشكر فهو في اللغة الثناء على من أسدى إلى الإنسان خيراً، وفي الإسلام يكون باللسان والجوارح، فباللسان يكون بالثناء على الله تعالى وحمده على ما أسدى إلينا من خير ومعروف.

[٢٢٩] ففي حديث النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**التحدُّث بنِعَم الله شُكْرٌ، وتركها كُفرٌ، ومَن لم يشكر القليل لا يشكر الكثير**»، وفي رواية: «**ومَن لم يشكر الناس لم يشكر الله**».

رواه بطوله البيهقي في شعب الإيمان (١٠٢/٤ و٥١٦/٦/٥١٧) ولأبعاضه شواهد يحسن بها، وانظر المسند (٢٧٨/٤/٣٧٥) ومسند الشهاب (٤٣/١).

[٢٣٠] وعن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**مَن أبلى بلاءً فذكره فقد شكره، وإن كتمه فقد كفره**».

رواه أبو داود في الأدب (٤٨١٤) بسند صحيح على شرط مسلم.

«أبلى»: أي اجتهد في الأمر وبالغ فيه.

فالتحدث بنِعَم الله تعالى على العبد وإظهار الرضا بذلك يعتبر شكر اللسان، فمَن ترك ذلك وكتمه فقد كفر بنِعَم الله تعالى عليه.

أما الشكر بالجوارح فيكون بصرف جميعها في طاعة الله تعالى والتوقي من الاستعانة بنِعَم الله تعالى على معصيته فمَن تحقق بذلك كان شاكراً للّه عزّ وجل.

[٢٣١] ولذا جاء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**الطاعمُ الشاكرُ بمنزلة الصائم الصابر**».

رواه أحمد (٢٨٣/٢)، والترمذي في صفة القيامة (٢٣٠٧)، وابن ماجه (١٧٦٤)، والحاكم (٤٢٢/١ و١٣٦/٤) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وذكره البخاري معلقاً ونحوه عن سنان بن سنة رواه الدارمي وابن ماجه (١٧٦٥) بسند صحيح.

والمراد «بالطاعم الشاكر»، أي الطائع لله تعالى القائم بحقوقه وحقوق عباده، فهذا هو الذي يحرز على منزلة الصائم الصابر وناهيك بالصبر على الصيام وفضل ذلك فإنه جاء:

[٢٣٢] عن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«عليك بالصوم فإنه لا مِثْلَ له»**.

رواه أحمد والنسائي والحاكم بسند صحيح وقد تقدم.

وقد أمر الله عزّ وجل في كتابه عباده أن يشكروه، فقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ فجعل ضد الشكر الكفران.

كما وعد عزّ وجل الشاكرين لنِعَمه بزيادتها عليهم وأوعد على كفرانها بعذابه الشديد فقال عزّ وجل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، وقال: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ وهكذا أمر عباده بحمده في كثير من آي القرآن كقوله تعالى: قل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية، و﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ وحمد نفسه بنفسه في خمس سوَر، وفي ضمن ذلك الأمر بحمده، فقال في الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ وقال في سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ . . .﴾ الآية، وقال في سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾﴾ الآية، وقال في سورة فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ. . .﴾ الآية، وقال في سورة سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ. . .﴾ الآية، وهكذا حمد نفسه في كثير من السُّور كقوله: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ﴾

وقال: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ، وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ فهو تعالى يحب الحمد والمدح والثناء عليه.

ولذا جاء في الصحيح: «**لا أحد أحب إليه المدح من الله...**» إلخ، وقد تقدم.

ورغّب ﷺ أمته في حمد الله والثناء عليه، ووعد فاعل ذلك برضاه والجنة.

[٢٣٣] فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأَكْلَةَ فيحمدُه عليها، ويشربُ الشَّربة فيحمده عليها**».

رواه مسلم آخر الذكر والدعاء (١٧/٥٠/٥١).

«الأكلة» و«الشربة»: بفتح الهمزة والشين، أي: المرة من الأكل والشرب.

[٢٣٤] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة وسمُّوه بيت الحمد**».

رواه الترمذي في الجنائز (٩٠٦)، والطيالسي (٢٠٩٩)، والبيهقي (٤/٦٨) بسند حسن.

قال «**لملائكته**»: المراد بهم ملك الموت ومساعدوه. قوله: «**وثمرة فؤاده**» سمى الولد ثمرة الفؤاد لأنه نتيجة الأب فهو كالثمرة بالنسبة للشجرة. وقوله: «**واسترجع**» أي قال: «**إنا للّه وإنا إليه راجعون**».

وفي الحديث فضل فقدان الأولاد والصبر على ذلك مع حمد الله عليه والاسترجاع والرضا بما قدّر الله تعالى، وأن ذلك من أسباب دخول الجنة بفضل الله تعالى ورحمته.

ثم إننا ما أمرنا بالحمد والشكر لله تعالى إلا لما أسدى إلينا من خير ورحمة وأسبغ علينا من آلاء ونِعَم التي لا نستطيع إحصاءها ولا القيام بشكرها على الوجه الأتم اللائق بها.

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ...﴾ الآية، إننا مغمورون في نعم الله عزّ وجل، وأصولها خمسة وهي:

نعمة الإيجاد، ثم نعمة الإمداد، ثم نعمة بعثة الرسل، ثم نعمة الإيمان، ثم نعمة دخول الجنة. فهذه النِعَم الخمس هي أصول النِعَم ولا يد للإنسان فيها، فهي مجرد تفضل من الله تعالى على عباده، ولو أراد الإنسان تفصيل ما اشتملت عليه هذه الخمس من نِعَم لكتب فيها المجلدات فكيف بالنِعَم الأخرى المهيأة للإنسان والخادمة والمسخرة له: كخلق الله السماوات والأرض وما فيهما من عجائب وغرائب المخلوقات، وتسخير السحاب وإنزال الأمطار، وإنبات الزروع والفواكه والثمار، وتسخير البحار والأنهار، وتعاقب الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر وما إلى ذلك من النعم المهيأة للإنسان التي تحار في تفصيلها العقول، بل مجرد إيجاد الإنسان وحده وما ركب فيه من آيات وأحاطه الله تعالى به من نِعَم تتضاءل دونه كل النِعَم، ولذلك أوجب الله تعالى عليه الإيمان به وبما جاءت به الرسل... وأمره بطاعته والعبودية له قياماً بشكره على ذلك.

وشرع لنا نبينا ﷺ مضافاً إلى ذلك التصدُّق بثلاثمائة وستين صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، وجعل صلاة ركعتَي الضحى تقوم مقام تلك الصدقات، كما شرع لنا الحمد في جميع أحوال حياتنا الليلية والنهارية، كما تقدم تفصيل ذلك في أبواب سابقة، كل ذلك شرع لنؤدي شكر تركيب جسدنا وما فيه من عظام وعضلات وعروق ولحم وقطع وأعضاء، وما غيب داخله في ظلمة الأحشاء من قلب وكبد ورئة ومرارة ومعدة وكلية، وغير ذلك مما جعله الله في هذا الجسم الإنساني من عجائب وآيات، وكان أول من أمر بالشكر وحمد الله تعالى أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم لتقتدي بهم أممهم.

فقال تعالى في إمام الحنفاء خليل الرحمٰن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾.

وقال في نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

وقال في كليمه موسى عليه السلام: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

وقال في نبيه داود عليه السلام: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾.

وقال في نبيه سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾.

وقال: ﴿لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ...﴾ الآية.

وقال لنبينا ﷺ: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

وتقدم حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أنه ﷺ قام حتى تورّمت قدماه فقالت له في ذلك فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**».

ولِمَا للشكر من الأهمية جاء ذكره في القرآن في نحو من خمسة وسبعين موضعاً، وجاء ذكر الحمد أيضاً في نحو من خمسة وأربعين موضعاً، كل ذلك تحريضاً على القيام بحمد الله تعالى وبشكره على نِعَمِه المتوالية على الإنسان باللسان والقلب والجوارح، جعلنا الله تعالى بفضله وإحسانه ممن يحمده ويشكره آناء الليل وآناء النهار، آمين.

* * *

التوكل على الله تعالى

[٣٢٥] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يَسْتَرْقون ولا يتطيّرون، وعلى ربهم يَتَوكَّلُون**».

رواه البخاري ومسلم وتقدم، ويأتي مطولاً في ذكر الجنة والنار.

التوكل على الله هو الاعتماد عليه دون غيره، وتفويض الأمور إليه في جميع شؤون العبد، فالاعتماد على الله يكون في الرزق، والاعتماد عليه في النصر على الأعداء، والاعتماد عليه في الشفاء من الأمراض، والاعتماد عليه في الحفظ من الآفات والطوارىء، والاعتماد عليه في غفران الذنوب والعفو عن السيئات، والاعتماد عليه في دخول الجنة دون الاعتماد على العمل. وكل ذلك لا بد وأن يكون مع الأسباب فالأسباب لا تنافي التوكل.

وقد وردت في التوكل آيات كريمات:

كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: من اعتمد على الله فهو كافيه، فلو لم يأتِ في ذلك إلا هذه الآية لكفت المتوكلين على الله فكيف بغيرها من الآي وهي كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقال: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وقال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وقال: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وقال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾، وقال: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ والآيات في ذلك كثيرة، وقد ذكر التوكل في القرآن في نحو من ستين مرة.

[٢٣٦] وعن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لو أنكم توكلتم على الله حقَّ توكله، لرُزِقتم كما تُرزَق الطيرُ تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً»**.

رواه أحمد (٣٠/١)، والترمذي في الزهد (٢١٦٤)، وابن ماجه في الزهد (٤١٦٤)، وابن حبان بالموارد (٥٤٨)، والحاكم (٣١٨/٤) بسند صحيح، وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

قوله: «حق توكله» أي: بأن تعلموا يقيناً أن لا رازق إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا فاعل إلا الله، ولا مانع ولا ضار إلا الله. وقوله:

«خماصاً» بكسر الخاء، جمع خميص، أي: جياعاً. وقوله: «بطاناً» بكسر الباء، جمع بطين، أي: عظيم البطن.

والمعنى تغدو جائعة خميصة البطن ثم تأتي لأوكارها في المساء شباعاً مليئة البطن.

وفي الحديث الحض على التوكل والاعتماد على الله مع تعاطي الأسباب، فإن الطير تتحرك وتنتشر هنا وهناك تطلب رزقها مع الاعتماد على الله تعالى، فليكن المسلم مثلها.

[٢٣٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل: يا رسول الله أعْقِلُها وأتوكّلُ أو أطْلِقُها وأتوكل؟ قال: **«اعقِلْها وتوكّل»**.

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٣٣٥) والحديث حسن صحيح لشاهد له عن عمرو بن أمية الضَّمْرِي رواه ابن حبان (٢٥٤٩) بسند صحيح.

في الحديث مشروعية ربط الأسباب بمسبباتها مع الاعتماد على الله بعد ذلك، فالدابة يجب ربطها بالعقال ثم التوكل على الله في حفظها وهكذا في كل شيء، من جلب نفع، أو دفع ضر لا بد من اتخاذ الأسباب، إلا في أحوال خاصة لا يقاس عليها، كما يذكر عن الخليل عليه السلام قوله: «علمه بحالي يكفيه عن سؤالي»، وما يذكر عن بعض الزهّاد فإن للناس مقامات، ولكل مقام أهل وأحوال.

وقد أفاض الإمام الغزالي رحمه الله تعالى القول في التوكل والمتوكلين وأقسام الناس في ذلك وأحوالهم بما لا يوجد عند غيره كعادته رضي الله تعالى عنه وإيانا.

* * *

❁ محبة اللّه عزّ وجل

[٢٣٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما**

سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»، وفي رواية: **«وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه».**

رواه البخاري (٦٨/٦٦/١)، ومسلم (١٣/٢) كلاهما في الإيمان وتقدم في الإيمان.

أصل المحبة الميل إلى ما يوافق المحب. ومحبة الله تعالى من أصول الإيمان، ولا يخلو مؤمن من محبة الله تعالى، غير أن الناس فيها متفاوتون، فكلما كان الإنسان أتقى لله وأطوعَ كانت محبته أقوى وكانت منزلته في المحبة الغاية القصوى من مقامات اليقين فليس بعدها مقام كالأنس والرضا إلا ثمرة من ثمارها، ولا قبلها مقام كالتوبة والزهد والصبر والتوكل... إلا مقدمات لها.

وأجمع العلماء على أن أصل الحب لله تعالى ولرسوله ﷺ فرض واجب لا يتم الإيمان إلا به ثم ينمو ويقوى بفعل القربات، وترك السيئات، وقسم بعضهم محبة الله تعالى إلى قسمين: فرض وندب، فالفرض المحبة التي تبعث على امتثال أوامر الله تعالى والانتهاء عن معاصيه، والرضا بما يقدره عليه. والندب أن يواظب على النوافل ويتجنب الوقوع في الشبهات.

ثم إن موجب محبة الله تعالى بالأصالة هو إنعامه علينا وإحسانه إلينا ورحمته ولطفه بنا وإسداؤه إلينا كل خير وتفضله علينا بجميع ما نحتاجه في حياتنا من جلب نفع، ودفع ضر، وهذا بالإضافة إلى ما هو متصف به من الكماليات وصفات الجمال والجلال ظاهراً وباطناً مع تنزهه عن كل نقص وسمات المحدثات.

وكل ذلك يستلذه العقل السليم ويميل إلى صاحبه بالمحبة بالطبع كما نحب الأنبياء والصحابة والصالحين والعلماء الربانيين.

ولما كان الإحسان وإسداء المعروف مما يوجب المحبة كانت محبة رسول الله ﷺ تابعة لمحبة الله ولذلك:

[٣٣٩] قال ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده، وولده، والناس أجمعين»، وفي رواية زيادة: **«وأهله».**

رواه البخاري (٦٤/١)، ومسلم (١٥/٢) كلاهما في الإيمان، وهو من حديث أنس، فمحبة رسول الله ﷺ من محبة الله تعالى، ولذلك جعل هنا في الحديث محبته مقدمة على محبة الأهل والوالدين والأولاد وسائر الناس، كما جعل ذلك في الله عزّ وجل كما في الحديث السابق: **«أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»**.

وكانت محبة النبي ﷺ من محبة الله تعالى لأن كل خير وصل إلينا من الله بهدايته إيانا إلى الصراط المستقيم ودوام النعم والإبعاد من الجحيم، ودفعه عنا المضار والمكاره، فهو ﷺ الواسطة فيها مضافاً إلى ما كان عليه من حسن الصورة وجمال الظاهر وما كان متصفاً به من خلال الجلال وأنواع الفضائل مما لم يجمع لأحد قبله.

[٢٤٠] ولذا جاء في حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«أحِبُّوا الله لِما يَغذوكم من نِعَمِه، وأحبوني بحب الله، وأحِبُّوا أهل بيتي بِحُبّي»**.

رواه الترمذي في المناقب (٣٥٦٢) وحسّنه، والحاكم (١٤٩/٣/ ١٥٠) وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: **«لما يغذوكم»** أي: يرزقكم. وقوله: **«بحب الله»** و**«بحبي»** أي: بسبب ذلك.

ففي الحديث بيان بعض الأسباب التي تحمل على محبة الله تعالى ومحبة رسوله ﷺ...

فموجب محبة الله إسباغه علينا النِعَم، وموجب محبة رسول الله ﷺ حبه للّه وحب الله إياه...

وهكذا محبة أهل البيت موجبها هو حبه ﷺ إياهم، وكل ذلك يرجع إلى محبة الله عزّ وجل كمحبة الصالحين وأهل الفضل أيضاً، ولذلك كان النبي ﷺ يسأل الله حبه وحب كل من يحبه...

[٢٤١] كما جاء في حديث معاذ وغيره أن رسول الله ﷺ كان يدعو:

«وأسألك حُبَّك، وحُبَّ من يُحِبُّك، وحُبَّ عملٍ يُقَرِّبُ إلى حُبِّك».

رواه أحمد (٥/٢٤٣) والترمذي في تفسير (سورة ص) وغيرها، في حديث طويل بسند صحيح، فكل من أحبَّ من يحب الله، أو أحبَّ أي عمل يقرب إلى حب الله فهو من محبة الله عزّ وجل.

ولأهمية محبة الله ومحبة رسوله ﷺ كان صاحبها مع من يحب كما في الحديث المتواتر: «أنت مع من أحببت»، «المرء مع من أحب» وقد تقدما في الأدب برقم (٦١/٦٢).

ولم يصب من استشكل محبة العبد لله أو العكس فإن ذلك يرده صريح القرآن ونصوص السنة كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، وقال عزّ وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فأثبت تعالى محبته للمؤمنين ومحبتهم له سبحانه. ومحبته تعالى لعباده هي صفة له تليق بجلاله وعظمته، وليست كمحبة المخلوقين..

هذا ولمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ علامات ودلائل:

فمنها: طاعتهما فيما يأمران به وينهيان عنه. وأن لا يتلقى شيء من المأمورات والمنهيات والحلال والحرام إلا من القرآن والسنة، وأن يرضى المحب بما شرعه الله ورسوله ﷺ حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما جاء عن الشارع.

ومنها: حب القرآن وتعلُّمه وتعليمه. كحب السنّة المحمدية وتعلُّمها والدعوة إلى العمل بها.

ومن أعظم علامات حب الله: اتباع نبيه المصطفى ﷺ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

ومنها: تقديم محبة الله ورسوله ﷺ على كل محبوب كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ...﴾ الآية.

فأوعد تعالى بانتظار عذاب الله تعالى من يقدّم محبة الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر والأموال والتجارة والمساكين على محبة الله ورسوله ﷺ، وجعل من فعل ذلك من الظالمين الذين حرموا هداية الله تعالى وهو زجر بالغ.

ومن آياتها أيضاً الشوق إلى لقاء الله تعالى لقوله ﷺ: «**مَن أحبَّ لقاء الله أحبَّ الله لقاءه**» رواه الشيخان. فالمحب الفاني في الله يحب لقاءه دائماً، وهذا بخلاف غيره ممن لا يحب لقاءه إلا عند بشارته برضوان الله ورحمته وجنته عند الغرغرة، ولهذا قالوا: أرجى آية للمحبين قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾.

* * *

من ثمرات محبة اللّه عزّ وجل

[٢٤٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله إذا أحبَّ عبداً دعا جبريل عليه السلام فقال: إني أحب فلاناً فأحِبَّه، قال: فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحِبُّوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض...**» الحديث.

رواه البخاري في الأدب (١٣/٧١) وغيره، ومسلم في البر والصلة (١٦/١٨٣/١٨٤) وقد تقدم في الأدب برقم (٦٠) مع الكلام عليه.

والحديث موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾، فالمؤمن الصالح يحبه الله وتحبه الملائكة ويحبه المؤمنون.

[٢٤٣] وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول: مَن عادى لي ولياً فقد آذَنْتُهُ بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترَضْتُه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحِبَّه،**

فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجله التي يمشي بها، وإن سألني لأُعطِيَنَّهُ، ولئن استعاذني لأُعيذَنَّهُ، وما تردّدتُ عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مُساءته».

رواه البخاري في الرقاق (١٣١/١٢٥/١٤).

هذا حديث عظيم يعرف بحديث الأولياء، وفيه فوائد جليلة وعزيزة.

منها: تحريم معاداة أولياء الله تعالى والمراد بهم العلماء بالله المواظبون على طاعته أمراً ونهياً المخلصون في عبادته، وأن من عاداهم كان كمن حارب الله ومن حارب الله قصمه وأهلكه. وفي قوله: «**فقد آذنته بالحرب**» تهديد شديد ووعيد بالغ لأعداء أولياء الله تعالى.

ومنها: أن موالاة الولي موالاة للّه تعالى ومعاداته معاداة للّه، فعدوُّ ولي الله عدو لله.

ومنها: أن أشرف القربات وأحبها إلى الله عزّ وجل أداء فرائض الإسلام من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وجهاد، وبرور، وأداء الأمانات، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وما إلى ذلك من التكاليف الشرعية المأمور بها، ويدخل في ذلك ترك الفواحش وكبار الذنوب.

ومنها: أن المثابرة على نوافل الخير بعد أداء الفرائض من موجبات محبة الله عزّ وجل، ذلك أن الآتي بالنوافل لا يأتيها إلا باختيار منه طمعاً في الزيادة والتقرُّب إلى الله ومحبة فيما عنده وهذا بخلاف الفرائض فإن الآتي بها يؤديها خوفاً من عقاب الله في الغالب.

ومنها: أن المؤمن المتقي المثابر على أداء الواجبات والمتوسع في نوافل الخيرات قد يصل بذلك فضلاً من الله إلى مقام المحبوبية فيحبه الله تعالى ويُكرمه بثمرات التقوى في الدنيا قبل الآخرة بشارة له، وذلك بأن يكون سبحانه وتعالى سمع عبده المحبوب وبصره، ويده ورِجله، وهذه هي غاية ثمرة التقوى في الدنيا.

وقد اختلف علماؤنا رحمهم الله في معنى كون الله تعالى سمعَ عبده وبصره ويده ورِجله على أقوال ثمانية ذكرها الحافظ في الفتح، والذي يظهر كما قال كثير من الربانيين: أن الله عزّ وجل يُكرم عبده المحبوب بأن يجعل في سمعه قوة الإسماع فيسمع بها المسموعات البعيدة، ويجعل في بصره قوة الإبصار فيبصر ما لا يراه الناس من المبصرات الحسية والمعنوية، وهكذا يعطيه قوة في يده فيبطش ويأخذ ويعطي بما لا يستطيعه غيره، ويعطيه قوة في رِجله فيطوي له الأرض ويمشي على الماء مثلاً فيكون كل ذلك كرامة له. وقد وجد في الصالحين وكثير من الأولياء من أكرموا بما ذكرنا وليس في ذلك حرج ولا أدنى شبهة، فإن الكل بيد الله لا يملك أحد معه قلامة ظفر من جلب نفع أو دفع ضر.

وفي هذا الحديث حجة لظهور الكرامات على أيدي أولياء الله تعالى ولذلك أدلة كثيرة مشهورة، وقد ذكرت جملة منها في أوائل «المطرب بمشاهير أولياء المغرب».

وهي من جملة عقائد أهل السنة.

قال السفاريني في «عقيدة أهل الفرقة المرضية»:

وكلُّ خارق أتى عن صالح ... من تابع لشرعِنا وناصِح

فإنها من الكراماتِ التي ... بها نقولُ فاقفُ للأدِلّة

ومَن نفاها من ذوي الضلال ... فقد أتى في ذلك بالمحال

لأنها شهيرةٌ ولم تزلْ ... في كُلِّ عَصْرٍ يا شقا أهلِ الزَّلَلْ

وقال اللقاني في «الجوهرة»:

وأثبِتْ للأولياء الكرامة ... ومَن نفاها فانبُذَنْ كلامَهْ

وقد ألّف العلماء فيها مؤلّفات عديدة طبع منها الكثير.

ومن فوائد هذا الحديث أن الله عزّ وجل يكره مساءة عبده المحب، فهو يكره الموت وشدائده وأهواله، والله تعالى يكره إصابته بالسوء وهو

الموت الذي لا بد له منه وهو باب لقاء الله عزّ وجل. ولذا روي أن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت لما أتاه ليقبض روحه: هل رأيت خليلاً يُميت خليله؟ فأوحى الله تعالى إليه: قل له: **«هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليله؟»** فقال: يا ملك الموت الآن فاقبض.

ذكره الغزالي في «الإحياء»، والحافظ في «الفتح» وغيرهما.

ومن فوائد الحديث أيضاً أن من أتى بما وجب عليه وتقرّب بالنوافل لم يرد دعاؤه، وذلك من جملة كراماته. وفي الحديث غير ذلك، والله أعلم.

* * *

الرضا بالأقدار والشوق إلى لقاء اللّه

[٢٤٤] عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما أنه صلّى بالقوم صلاة فأوجز فيها فقيل له: لقد خففت أو أوجزت الصلاة، فقال: أما على ذلك فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله ﷺ.

«اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيِني ما علمتَ الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيماً لا يبيد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء ـ وفي رواية: الرضا بالقضاء ـ وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك في غير ضرّاءِ مُضِرّة، ولا فتنةٍ مُضِلّة، اللهم زيّنّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين».

رواه أحمد (٢٦٤/٤)، والنسائي في الكبرى (٣٨٨/٣٨٧/١) وفي المجتبى، والحاكم (٥٢٤/١) من طريقين، وسنده صحيح في طريق، وحماد بن سلمة روى عن عطاء بن السائب قبل اختلاطه.

هذا حديث عظيم من جوامع الدعوات النبوية. وقد جاء فيه الدعاء بالرضا بالقضاء، والشوق إلى لقاء الله.

وقد تكلم الناس كثيراً في المراد بالرضى بالقضاء، والشوق إلى لقاء الله.

قال علماؤنا الربّانيون رحمهم الله تعالى: إن الرضا بالأقدار والشوق إلى لقاء الله تعالى ينشآن عن محبة العبد للّه تعالى فهما من ثمراتها. وقالوا: إن الرضا من أعلى مقامات المقربين وإن كان الناس يتفاوتون فيه كتفاوتهم في المحبة.

ومعنى الرضا بالأقدار أن لا يعترض على ما قدّره الله تعالى وحكم به، وأن تسلم كل الأمور للّه تعالى، وأنه الذي قدّرها سواء كانت خيراً أم شراً طاعة أم معصية، نعم إذا كان المَقْضِيُّ معصية لا يجوز الرضى به لأن الله لا يرضى المعصية كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، وإن كان طاعة وجب الرضا به لقوله عزّ وجل: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ فالله تعالى قدّر الطاعة والمعصية وأرادهما لكنه يرضى بالطاعة ويبغض المعصية فلا بد من الجمع بين ما أراده الله تعالى من رضى وبغض فهذا حكمه، ولا يُسأل عما يفعل فالكل بقضائه وإرادته. قال تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، وقال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أما مَن سوّى في الرضا بين الكفر والإيمان والطاعة والفجور، وقال: إن كل ذلك فعل الله يجب الرضا به فهذا ضلال وخلاف لشريعة الإسلام وحكمة الله في خلقه لأنه يلزم منه عدم الإنكار لما نهى الله تعالى عنه وترك أمور الديانة كلها تسليماً للأقدار، وكل ذلك مروق من الدين.

ولذا قال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى في «رسالته» المشهورة: واعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء الذي أمر بالرضا به، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به كالمعاصي وفنون محن المسلمين...

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي: لا يرضى لأحد من عباده الكفر، ولا يحبه، ولا يأمر به، ولا يفعل فعل الراضي بأن يأذن فيه ويقر عليه، ويثيب فاعله ويمدحه، بل يفعل فعل

الساخط بأن ينهى عنه ويذم عليه ويعاقب مرتكبه، وإن كان بإرادته إذ لا يخرج شيء عنها وعن قضائه وفعله، وقالوا: إن الله مقدّر الأشياء ومريدها، والعباد مكتسبون لأفعالهم الاختيارية وعلى كسبهم يترتب الثواب والعقاب. . . وهذا معنى يجب فيه التسليم ولا يجوز فيه التدقيق لحديث: **«إذا ذُكِرَ القدَرُ فأمسِكوا»** لأن ذلك فوق مستوى عقولنا.

[٢٤٥] وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إنَّ عِظَمَ الجزاء مع عِظَم البلاء، وإن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمَن رضي فله الرضا، ومَن سخِطَ فله السُخط»**.

رواه الترمذي في الزهد (٢٢١٦)، وابن ماجه (٤٠٣١) بسند حسن.

في الحديث أن من ابتلي في نفسه أو أهله أو ماله فقابل ذلك بالرضا والتسليم للأقدار قابله الله بالرضا وعظم الجزاء، ومَن تسخّط ولم يرضَ بذلك كان من الخائبين الخاسرين له السخط من الله تعالى، ويا ويل من سخط الله تعالى عليه.

وفي الحديث الشريف فضل الرضا عن الله تعالى بما قدّره عليه من البلايا والمحن.

[٢٤٦] وقد جاء عن العباس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً»**.

رواه الطيالسي وأحمد (٢٠٨/١) ومسلم (٢/٢) والترمذي (٢٤٤٠) كلاهما في الإيمان.

[٢٤٧] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن قال رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، وجبت له الجنة»**.

رواه أبو داود (٥٢٩)، والحاكم (٥١٨/١) بسند صحيح، وأصله في الجهاد من صحيح مسلم (٢٨/١٣)، والنسائي (١٨/١٧/٦) مطولاً، وقد تقدم كسابقه في الإيمان في الحديثين فضل الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبنبينا رسولاً.

فيلزم من الرضا بالله رباً أن يقبل كل ما تأتي به الأقدار من البلايا والمحن، وأن لا يعترض على الله في شيء مما قضاه عليه، إلا أن المقضيات المنهي عنها لا يرضاها كما قدّمنا، مع الإيمان بأنها من جملة ما قضاه الله عزَّ وجلَّ.

ويلزم من الرضا بالإسلام ديناً أن لا يتعبّد الله عزّ وجل إلا بما جاء به دين الإسلام مما فصّله القرآن والسنّة المحمدية.

ويلزم من الرضا بنبينا محمد ﷺ رسولاً أن يتبعه في كل ما شرعه وجاء به من عند الله تعالى، وأن لا يقدم عليه وعلى شريعته أي خلق سواه، سواء كان نبياً أم إماماً أو عالماً من أمته.

فمَن تحقق بما ذكرنا وجد في قلبه حلاوة الإيمان ووجبت له الجنة بفضل الله ورحمته.

هذا ومن ثمرات الرضا عن الله تعالى وبما قدرَ وقضى رضاه تعالى على العبد كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ وقال عز وجل عن صحابة رسوله ﷺ الذين بايعوه على القتال والموت في سبيل الله بيعة الرضوان: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ...﴾ الآية.

فرضا العبد لا يكون إلا بعد رضا الله تعالى عنه كالمحبة، فمحبة الله تعالى لعبده سابقة على محبة العبد للّه، فلولا أنه تعالى أحبك ورضي عنك لما وُفقتَ للإيمان به وطاعته والتديّن له تعالى.

ومن ثمرات محبة الله تعالى والرضا عنه الاشتياق إليه وإلى لقائه، فإن مَن أحبّ شيئاً اشتاق إلى لقائه ورؤيته، ولا يتم لقاء الله عزّ وجل ورؤيته إلا بقطع عقبة الموت، فلذلك كان المشتاقون إلى الله تعالى يحنون إلى الموت وينتظرونه بانشراح وفرح، ولذا قال بعض أهل البصائر من الربانيين في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ﴾ إنها أعظم آية في القرآن

بشارة للمحبين المشتاقين إلى الله عزّ وجل، فإنها تبشرهم بأن أجل لقائه تعالى آت، ولا بد، فلينتظروه. ولهذا جاء في الحديث السالف الذكر في دعائه ﷺ: **«وأسألك الشوق إلى لقائك»** فلنقتدِ به ﷺ.

فنقول: اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وبصفاتك العلا أن تجعلنا من المحبوبين المرضيين لديك، كما نسألك الشوق إليك يا سميع يا قريب يا مجيب، برحمتك وفضلك، آمين.

وبهذا انتهى كتاب الزهد والرقائق، والحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وزوجه وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين.

في كتاب الزهد والرقائق من الأحاديث الصحيحة الزائدة على «الصحيحين» نحوٌ من مائة وعشرين حديثاً.

ويليه كتاب الفتن وأشراط الساعة





فهرس الجزء الحادي عشر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ISBN 978-9953-81-974-7



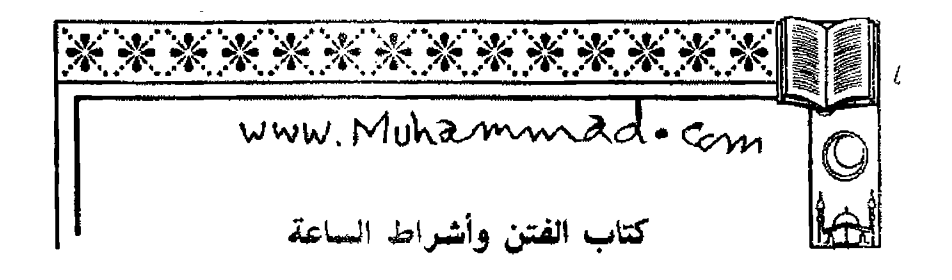
دار ابن حزم

بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366

هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)

البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb

الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com



كتاب الفتن وأشراط الساعة

أصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت في كل ما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أطلقت على كل مكروه أو كان آيلاً إليه كالكفر والإثم والعذاب والقتال والإفساد والمال والأولاد والاختلاف... وكلها إطلاقات جاء بها القرآن والسنة، غير أن أكثر ما جاءت به الأحاديث في التحذير من الفتنة، فتنة الحروب والمقاتلة على المُلك والسلطة كما يبدو من الأحاديث الآتية. نسأل الله عزّ وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجنّبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن.

ولنشرع في ذكر ما جاء في شأن الفتن عن النبي ﷺ مستعينين بالله عزّ وجل فنقول:

❊ ❊ ❊

❊ تنبؤه ﷺ بكثرة الفتن وأنها تعم جميع البيوت

[١] عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ أشرف على أُطُم من آطام المدينة ثم قال: **«هل تَرَوْنَ ما أرى؟»** قالوا: لا، قال: **«إني لأرَى مواقِعَ الفِتَنِ تقع خلال بيوتكم كمواقع القَطْر»**.

رواه البخاري في علامات النبوة (٧/٤٢٥) وفي الفتن (١٦/١١٨/١١٩)، ومسلم في الفتن (١٨/٧) أيضاً.

«أطم»: بضم الهمزة والطاء هو الحصن أو القصر. قوله: «مواقع» جمع موقع، أي: مواضع وقوعها ونزولها. «خلال»: بكسر الخاء، أي: وسطها.

وفي الحديث إشارة إلى ما نزل بالصحابة وغيرهم بالمدينة من الفتن كمقتل عثمان رضي الله تعالى عنه وما نشأ عن ذلك من وقائع الجمل، وصفِّين، والنهروان، وغير ذلك، فإن الجميع كان سببه قتل عثمان بالمدينة ثم انتشرت الفتن في البلاد.

[٢] وعن كرز بن علقمة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تقعُ الفتنُ كأنها الظُّلَلُ، تعودون فيه أساوِدَ صُبًّا يَضربُ بعضُكم رِقابَ بَعْضٍ»**.

رواه الطيالسي (٥٢)، وأحمد (٣/٤٧٧)، وابن حبان بالموارد (١٨٧٠)، والحاكم (٤/٤٥٥) بسند صحيح.

«الظُّلَل»: بضم الظاء وفتح اللام، هي كل ما أظلَّ الإنسان، ويريد بذلك كأنها السحاب أو الجبال. «أساود»: جمع أسود وهو أخبث الحيّات والثعابين وأعظمها. «صُبًّا»: بضم الصاد جمع صبوب.

ومعنى الحديث أنكم ستصيرون كالأفاعي إذا أرادت النهش واللدغ ارتفعت ثم انصبّت على اللديغ، وكذلك ستفعلون مع بعضكم بعضاً، وقد حصل ما تنبأ به ﷺ بين الصحابة كما هو معلوم.

* * *

الفتنة التي تموج كموج البحر

[٣] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: كنا جلوساً عند عمر رضي الله تعالى عنه فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة؟ قلت: أنا، قال: هات، قلت: ذكر فتنة الرجل في أهله، وماله، وولده، وجاره، **«تكفرها الصلاةَ، والصدقة»**، وفي رواية: **«والصيام»** وفي أخرى:

«والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» قال: ليس عن هذا أسألك، أسألك عن التي تموج كموج البحر، قلت: ليس عليك منها بأسٌ يا أمير المؤمنين، إنّ بينك وبينها باباً مغلقاً، قال: أرأيتَ البابَ يُفتحُ أو يُكسر؟ قلت: لا، بل يُكسرُ، قال: إذاً لا يُغلقُ أبداً. فسئل حذيفة مَن البابُ؟ قال: عمر.

رواه أحمد (٥/٣٨٦/٤٠١/٤٠٥)، والبخاري في المواقيت، وفي الزكاة، وفي الصيام، وفي التفسير، وفي الفتن (١٦/١٥٩)، ومسلم (١٨/١٦/١٧)، وابن ماجه، كلاهما في الفتن.

قوله: «تموج» أي: ترتفع وتضطرب. وقوله: «بينك وبينها باباً مغلقاً» يعني: بينك وبين زمانها باب مغلق وهو وجودك.

وفي الحديث فوائد:

أولاها: اختصاص حذيفة رضي الله تعالى عنه بالاطلاع على الفتن المرتقبة، وأنه كان له علم بها بتفصيل وتدقيق لأنه كان حريصاً على تعلُّم الشر من النبي ﷺ كما يأتي.

ثانيها: أن الفتن التي تحصل للإنسان مع أهله وجاره وفي ماله تُكَفِّر وتُمْحَى بأنواع القربات كالصلاة مثلاً، والصيام، والصدقة، والأمر بالخير، والنهي عن الشر، وهذه حسنات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

ثالثها: يؤخذ من هذا التكفير أنها تغفر حتى الكبائر لأن الفتن التي تنشأ عما ذكر لا تخلو من كبائر كشتائم ولعائن بل وضرب ويمين كاذبة إلى غير ذلك، والله ذو فضل واسع فلا يتعاظمه شيء ولا تحجر رحمته.

رابعها: أن الفتن العظمى التي تموج كموج البحر كانت مسدوداً عليها بوجود عمر رضي الله تعالى عنه، فلما قتل انفتحت أبوابها فلم تُغلق إلى يوم القيامة.

* * *

❁ ما موقف المسلم من الفتن إذا كثرت وانتشرت

[٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ستكونُ فِتَنٌ: القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السّاعي، مَن تشرَّفَ لها تَستَشرِفُهُ، فمَن وجدَ ملجأً أو معاذاً فلْيَعُذ به»**.

رواه أحمد (٢/٢٨٢)، والبخاري (١٦/١٣٨/١٣٩)، ومسلم (١٨/٨) كلاهما في الفتن، ورواه البخاري أيضاً في الأنبياء.

[٥] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنها ستكونُ فِتَنٌ، ألاَ ثمَّ تكون فتنةٌ القاعدُ فيها خيرٌ من الماشي فيها، والماشي فيها خيرٌ من السّاعي إليها، ألا فإذا نزلت أو وقعت فمَن كان له إبلٌ فليلحق بإبله، ومَن كانت له غَنمٌ فليلحق بغنمه، ومَن كانت له أرضٌ فليلحق بأرضه»**، قال: فقال رجل: يا رسول الله أرأيت من لم يكن له إبلٌ ولا غنمٌ ولا أرض؟ قال: **«يعمِد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لِيَنْج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلّغت، اللهم هل بلّغت، اللهم هل بلّغت»**، قال: فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن أُكرِهتُ حتى ينطلق بي إلى أحد الصفَّين، أو إحدى الفئتين فضربني رجل بسيفه أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: **«يبوء بإثمه وإثمك ويكون من أصحاب النار»**.

رواه مسلم في الفتن (١٨/٩/١٠).

قوله: «من تشرف لها» أي: من طلع لها بشخصه طالعته، والاستشراف للشيء رفع الرأس والنظر إليه.

وفي الحديثين إشارة إلى أن المراد بهذه الفتن الملاحم والحروب، وفيهما دليل على عدم المشاركة فيها، وهذا محمول على المقاتلة على الملك والباطل، ففي هذه الحال يجب الاعتزال والاشتغال بما يهم، ويحرم الدخول معهم فإن أكره فلا يقاتل.

أما إذا كان الحق واضحاً فيجب القتال عليه ونصر الحق بأي طريق أمكن ولو بالدعاء.

[٦] وعن سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه أنه دخل على الحجاج فقال: يا ابن الأكوع ارْتَدَدْتَ على عقِبَيْكَ تَعَرَّبْتَ؟ قال: لا، ولكنّ رسول الله ﷺ أذِن لي في البَدْوِ.

وعن يزيد بن أبي عُبَيْد قال: لما قتل عثمان رضي الله تعالى عنه خرج سلمة بن الأكوع إلى الرَّبَذَة وتزوج هناك امرأة وولدت له أولاداً فلم يزل بها حتى قبل أن يموت بليال فنزل المدينة.

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٥٠/١٥١).

سلمة بن الأكوع رضي الله تعالى عنه لما رأى تداعي الفتنة بقتل الإمام عثمان ظلماً اعتزل وخرج للبادية فراراً بدينه، خوفاً من أن تصيبه فتنة فاعترض عليه جماعة ومنهم الحجاج الظالم لأن الرجوع بعد الهجرة إلى موضع الهجرة كان يعد ردة، كما جاء في حديث عند النسائي: «**لعن الله آكل الربا وموكله...**» الحديث، وفيه: «**والمرتد بعد هجرته أعرابياً**»، وجاء في حديث الكبائر من جملته: «**مَن رجع بعد هجرته أعرابياً**» وكان ذلك معروفاً أيام النبوة وما بعدها، لكن سلمة هذا بيّن لهم أن النبي ﷺ أذِن له في ذلك كما أذِن لغيره أيام الفتن.

[٧] وعن سعيد بن إياس بن سلمة أن أباه حدّثه قال: قدم سلمة المدينة فلقيه بُرَيدةُ بن الخُصَيْب فقال: ارتددتَ عن هجرتك؟ فقال: معاذَ الله إني في إذنٍ من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «**أبدوا يا أسلم**» قالوا: إنا نخاف أن يقدح ذلك في هجرتنا، قال: «**أنتم مهاجرون حيث كنتم**» وله شاهد من رواية عمرو بن عبدالرحمٰن بن جرهد قال: سمعت رجلاً يقول لجابر: مَن بقي من أصحاب رسول الله ﷺ؟ قال: أنس بن مالك، وسلمة بن الأكوع. فقال رجل: أما سلمة فقد ارتدّ عن هجرته، فقال: لا تقل ذلك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول لأسلم: «**أبدوا**» قالوا: إنا

نخاف أن نرتد بعد هجرتنا، قال: «**أنتم مهاجرون حيث كنتم**» قال الحافظ في «الفتح»: وسند كل منهما حسن.

والربذة: بفتحات مع تشديد الراء موضع خارج المدينة لجهة الشرق بينهما كما قالوا خمس مراحل، كان يسكنها أبو ذر وسلمة بن الأكوع.

ويستفاد من حديث سلمة مشروعية الاعتزال عن جمهور الناس والخروج إلى البادية فراراً من الفتن، كما في الحديث التالي لأبي سعيد.

[٨] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك أن يكون خيرُ مال المسلم غنماً يتَّبعُ بها شعف الجبال ومواقع القَطر يفِرُّ بدينه من الفتن**».

رواه مالك في الاستئذان، وأحمد (٥٧/٤٣/٣٠/٦/٣)، والبخاري في الإيمان، وفي بدء الخلق، وفي الفتن (١٥٢/١٦) وفي الرقاق، وأبو داود (٤٢٢٧) والنسائي، وابن ماجه (٣٩٨).

«شعف»: بفتحتين جمع شعفة أي أعالي الجبال. والمراد بذلك أن ينفرد عن الناس ويعتزلهم ويتحرى مواقع العشب والنبات ويكتفي بما تدره له غنيمته من اللبن.

والحديث نصّ في أن الفرار من الفتن من دين الإسلام وأن المسلم الشحيح بدينه ينبغي له أن يفر من الفتن ما استطاع إلى ذلك سبيلاً وأن لا يشارك الجمهور في ذلك فإنه قلما يسلم له دينه.

[٩] فعن أم مالك البَهْزِية قالت: ذكر رسول الله ﷺ فتنةً فقرّبها، قالت: قلت: يا رسول الله مَن خير الناس فيها؟ قال: «**رجل في ماشيته يؤدي حقَّها ويعبد ربه، ورجل أخذ برأس فرسه يُخيف العدو ويُخيفونه**».

الحديث رواه الترمذي في الفتن (٢٠٠٧)، وعبدالرزاق (٣٦٨/١١)، والحاكم (٤٤٦/٤) وسنده صحيح عند الآخرين.

ومعناه وارد في الصحيحين وغيرهما، البخاري في الجهاد (٣٤٦/٦)، ومسلم في الجهاد (٣٤/٣٣/١٣)، والترمذي في الجهاد أيضاً (١٥٢٣)،

وعبدالرزاق في الفتن (٣٦٨/١١) وهو عندهم عن أبي سعيد الخدري، ويأتي في الرقاق مع حديث لابن عباس.

رواه أحمد (٣٢٢/٣١٩/٢٣٧/١) والترمذي (١٥١٥) وغيرهما.

وقولها: «فقرّبها» أي: ذكرها قريبة.

وفي الحديث بيان ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في الفتنة، وأنه يجب عليه أن يكون بين أمرين: إما أن يجاهد في سبيل الله ويقاتل العدو الكافر، وإلا فليعتزل وليشتغل بربه ويكتفي في العيش بما تعطيه إياه غنيمته مع أداء ما يلزمه من حقها كالزكاة ونحوها.

[١٠] وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: كان سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه في إبلٍ له وغنم، فأتاه عمر ابنه فلما رآه قال: أعوذ بالله من شر هذا الراكب، فلما انتهى إليه قال: يا أبتِ أرضيتَ أن تكونَ أعرابياً في إبلك وغنمك، والناس بالمدينة يتنازعون في الملك، قال: فضرب صدره بيده، وقال: أُسكُتْ يا بُنَيَّ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله يحبُّ العبدَ التقيّ الغنيّ الخَفِيّ**».

رواه مسلم في أول كتاب الزهد (١٠٠/١٨).

المراد بالغنيّ غَنِيُّ النفس للحديث الآتي في الرقاق: «**ولكن الغِنَى غِنَى النفس**» وقوله: «الخفي» بالخاء المعجمة، أي: الخامل المنقطع عن الناس وشرورهم إلى العبادة والاشتغال بأمور نفسه.

والحديث استدل به من قال بأفضلية العزلة لا سيما أيام الفتن كما فعل سعد بن أبي وقاص، فإنه كان قد بنى قصراً خارج المدينة واعتزل فيه وترك الناس يخوضون في الفتن والمقاتلة على الملك حتى وافاه أجله.

[١١] وعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنهما قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت: يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟

قال: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**» قال: قلت: وما دَخَنُه؟ قال: «**قوم يَهْدون بغير هَدْيي تعرفُ منهم وتُنكر**»، وفي رواية: «**قوم يستُّون بغير سنّتي، ويهتدون بغير هديي**» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم دعاة على أبواب جهنم مَن أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله صِفْهُم لنا، قال: «**هم من جِلْدَتِنَا، ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: فما تأمرنيْ إن أدركني ذلك؟ قال: «**تلزم جماعة المسلمين وإمامهم**»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعةَ ولا إمام؟ قال: «**فاعتزل تلك الفِرَق كُلَّها، ولو أن تعضَّ بأصلِ شجرةٍ حتى يدركك الموتُ وأنت على ذلك**».

رواه البخاري في المناقب (٤٢٧/٧) وفي الفتن (١٤٥/١٤٤/١٦)، ومسلم في الإمارة (١٣٨/١٣٦/١٢).

قوله: «**وفيه دَخَن**» بفتحتين، أي: كدرة وسواد، وأصل الدخن أن يكون في لون الدابة كدرة إلى سواد.

هذا حديث عظيم الشأن فيه فوائد هامة:

منها: الاهتمام بمعرفة المناكيرِ والشرور والفتن وأسبابها مخافة الوقوع فيها، وكان لحذيفة رضي الله تعالى عنه الحظ الأوفر في ذلك لاختصاصه بسؤال النبي ﷺ عما سيقع في المستقبل من الفتن والشر.

ومنها: نعمة الله تعالى على عباده بدين الإسلام وهدايتهم إليه بعدما كانوا في جاهلية جهلاء وكفر وقتل بعضهم بعضاً وإتيانهم الفواحش.

ومنها: إخباره ﷺ بأنه سيكون شر بعد ما جاء به من الخير والدين، وكان ذلك ما حصل من الحروب والفتن والاختلافات التي وقعت بعد مقتل عثمان رضي الله تعالى عنه بين الصحابة وفي أيام المروانيين. ثم إخباره عليه السلام أنه سيكون بعد ذلك الشر خير مع ما فيه من الكدورة وما لا يحمد، وكان هذا الخير ما وقع في خلافة عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه ودَخَنُه ما حصل بعده من الأمراء الذين جاؤوا بما يعرف وما ينكر فكان فيهم من يتمسك بالسنّة والعدل، وفيهم من يجور ويدعو إلى البدعة والضلال.

ومن فوائد الحديث:

إخباره ﷺ بدعاة جهنم ويتمثلون في هؤلاء الدعاة إلى الأفكار الهدّامة الذين ظهروا في عصرنا هنا وهناك من أهل جلدتنا وممن يتكلمون بألسنتنا العربية ممن درسوا في بلاد الغرب على المستشرقين فأتوا بلاد الإسلام يدعون فيها إلى ما تلقونه من الكفار من الأفكار الكافرة فمَن أجابهم إلى ما يدعون إليه قذفوه في جهنم.

ومنها: أن من أدرك ذلك الوقت فعليه بلزوم جماعة أهل الحق وإمامهم إن كان، فإن لم يوجد لهم إمام معتبر شرعاً ولا لهم جماعة وإنما هي فِرَق وأحزاب كل بما لديهم فرحون، فعليه بالاعتزال والتمسك بما يعرفه من الحق، وليدم على ذلك حتى يوافيه أجله. وهذا وأيم الله هو وقتنا هذا فمَن فتح الله بصيرته فعليه نفسه وليدع الناس يخوضون في لا شيء. ويؤيد ما ذكرنا الحديث التالي:

[١٢] وعن ابن عَمْرو رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكرَ الفتنة، أو ذُكرت عنده، قال: **«إذا رأيتَ الناس قد مَرِجَتْ عهودهم، وخفَّت أماناتهم، وكانوا هكذا»** وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه فقلت: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك؟ قال: **«الزم بيتك وأملِك عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تُنكر، وعليك بأمر خاصّة نفسك، ودع عنك أمرَ العامّة»**.

رواه أحمد (٢/٢١٢)، وأبو داود (٤٣٤٣)، والحاكم (٤/٥٢٥) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسّنه الحافظان المنذري والعراقي، والحديث صحيح لطرقه:

فقد رواه أحمد (٢/٢٢١) وأبو داود (٤٣٤٢) وابن ماجه، والحاكم (٤/٤٣٥) من طريق آخر بسند صحيح بلفظ: **«كيف بكم وبزمان ـ أو ـ يوشك أن يأتي زمانٌ، يُغربلُ الناس فيه غربلة تبقى حُثالةٌ من الناس قد مرجت عهودُهم وأماناتُهم، واختلفوا فكانوا هكذا»** وشبك بين أصابعه، فقالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: **«تأخذون ما تَعرفون، وتذَرُون ما تُنكِرون، وتُقبلون على أمر خاصّتكم، وتذَرُون أمر عامّتِكم»**.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

[۱۳] وله شاهد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه رواه ابن حبان بالموارد (١٨٤٩)، بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «**كيف أنتَ يا عبدالله بن عَمرو إذا بقيتَ في حُثالةٍ من الناس؟**» قال: وذاك ما هم يا رسول الله؟ قال: «**ذاك إذا مرجت عهودهم وأماناتهم، وصاروا هكذا**» وشبك بين أصابعه، قال: فكيف ترى يا رسول الله؟ قال: «**تعملُ بما تعرفُ، وتدعُ ما تُنكرُ، وتعملُ بخاصّة نفسك، وتدع عوامَّ الناس**» وسنده صحيح.

وذكره البخاري معلقاً في أبواب المساجد من صحيحه (١١٢/١١١/٢) مجزوماً به مختصراً بلفظ: «**يا عبدالله بنَ عمرو كيف بك إذا بقيت في حثالة من الناس؟**».

قوله: «مرجت» بفتح الميم وكسر الراء، أي: فسدت واضطربت واختلفت. وقوله: «عهودهم» جمع عهد وهو اليمين، والأمان، والذمة. وقوله: «وخفت» أي: قلت «أماناتهم» وهي ضد الخيانة. وقوله: «يغربل الناس» معناه يذهب الصالحون ويبقى الأراذل. وقوله: «تبقى حثالة» هي بضم الحاء وهي الرذيل من كل شيء، والمراد هنا تبقى الأشرار من الناس وأراذلهم.

والحديث بجميع ألفاظه يدل على أنه إذا ظهرت الفتن وفسد الناس واضطربت عهودهم من الأيمان والذمم وقلّت أماناتهم وكانوا في اختلاف وهرج ومرج وذهب صالحوهم ولم يبقَ إلا أشرارهم والأرذلون منهم، فعلى الإنسان أن يلزم نفسه وخاصته ويدع الناس من شره ويترك شؤون العامة ويتمسك بما يعرفه من دين الله تعالى ويترك ما ينكره على الناس مما يخالف الشرع.

وهذا كما ترى، من الأحاديث الدالة على اعتزال الفتن ومجانبة أهلها وعدم مشاركتهم فيما هم فيه من الاختلاف والتناطح على المراكز والرئاسة.

* * *

❁ عرض الفتن على القلوب وذهاب الأمانة و(مدح الخوَنة)

[١٤] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تُعرَضُ الفتنُ على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أُشرِبَها نكتت فيه نكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلب أنكرها نُكِتت فيه نكتةٌ بيضاء حتى يصيرَ على قلبين أبيض مثل الصفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرضُ، والآخر أسود مرْبادًا كالكوز مُجَخْياً، لا يعرفُ معروفاً ولا يُنكر منكراً، إلا ما أُشرب من هواه».

رواه مسلم في الإيمان (١٧٢/١٧١/٣).

قوله: «تعرض» أي: تلصق بجانب القلوب كما يلصق الحصير بجنب النائم شيئاً بعد شيء. وقيل معناه: تظهر الفتن على القلوب فتنة بعد أخرى كالحصير الذي ينسج عوداً عوداً على عادة العرب، فشبّه عرض الفتن على القلوب واحدة بعد أخرى بعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً بعد واحد.

وقوله: «فأي قلب أُشربها» أي: حلّت منه محل الشراب فأحبها. وقوله: «أنكرها» أي: ردها ولم يقبلها. وقوله: «مرباداً» أي: أسود يخالطه شيء يسير من البياض، واربد لونه إذا تغير ودخله سواد. وقوله: «كالكوز مجخياً» هو بضم الميم وفتح الجيم وكسر الخاء المشددة، أي: مائلاً.

والحديث يدل على أن الفتن ستكثر وتنتشر وتظهر على القلوب وتلصق بجانبها ويكون الناس في شأنها فريقين: فريق تؤثر فيه ويشرب حبها فيسود قلبه بظلمتها فيميل عن الحق ويتبع هواه فيصبح لا يعرف حقاً من باطل، ولا منكراً من معروف. أما الفريق الثاني، فينكرها ويردها ولا يقبلها بحال فتنكت في قلبه نكتة بيضاء بنور الحق والإيمان فيصير قلبه أبيض ناصعاً فلا تضره أي فتنة طوال حياته.

والذي يظهر أن هذا الحديث يشير إلى فتنة العقيدة وآراء أهل الأهواء

كالرفض، والنصب، والقدر، والاعتزال، وما إلى ذلك من الأهواء، والله أعلم.

والحديث أعم من ذلك، وقد جاء ما يدل على أن هنالك من لا تضره الفتنة.

[١٥] فعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلا أنا أخافها عليه، إلا محمد بن مسلمة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا تضرك الفتنة»**.

رواه أبو داود في السنة (٤٦٦٣) بسند صحيح لغيره.

فهذه خصيصة لهذا الصحابي خصّه بها النبي ﷺ وأنه في أمن وأمان من الفتن.

[١٦] وعن حذيفة أيضاً قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر، حدثنا: **«أن الأمانة نزلت في جَذْرِ قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة»**، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: **«ينام الرجلُ النومةَ فتقبض الأمانة من قلبه، فيظل أثرُها مثل الوَكْتِ، ثم ينامُ النومةَ فتُقبضُ الأمانةُ من قلبه، فيظلُّ أثرها مثل المَجْلِ كجمرٍ دحرجته على رجلك فنَفط فتراه مُنْتَبِراً وليس فيه شيء، ثم أخذ حصًى فدحرجه على رِجله فيُصبح الناسُ يتبايعون لا يكاد أحدٌ يؤدي الأمانة حتى يقال: إن في بني فلان رجلاً أميناً حتى يقال للرجل: ما أجلَده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقالُ حبة من خردلٍ من إيمان، ولقد أتى عليّ زمانٌ وما أُبالي أيكم بايعتُ لئن كان مسلماً ليَرُدَّنَّه عليَّ دينُه، ولئن كان نصرانياً أو يهودياً ليرُدَّنّه عليّ ساعيه، وأما اليوم فما كنت لأبايعَ منكم إلا فلاناً وفلاناً»**.

رواه أحمد (٥/٣٨٣)، والبخاري في الفتن (١٦/١٤٨/١٤٩)، ومسلم في الإيمان (٢/١٦٨/١٦٩/١٧٠)، والترمذي في الفتن (٢٠٠٩) بتهذيبي.

«الأمانة»: كل ما ائتمن عليه الإنسان. وأشملها ما ذكر في قوله

عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، فالآية شاملة لجميع أنواع الأمانات، وقوله: «جذر» بفتح الجيم وكسرها مع سكون الذال أي: أصل قلوبهم. وقوله: «الوكت» بفتح الواو وسكون الكاف، هو الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه. و«المجل» بفتح الميم وسكون الجيم هو أثر العمل في الكف. و«منتبراً» أي منتفخاً.

والحديث يدل على أن الأمانة سترفع من قلوب الناس حتى لا يكاد أحد يحافظ عليها ولا يبقى منها إلا آثارها، وأنه سوف يصبح الأمين في الناس غريباً وتنقلب الأوضاع حيث يمدح الخائن والمنافق ومن لا دين له فيقال فيه: ما أجلده، وما أظرفه، وما أعقله، وليس في قلبه وزن حبة خردل من إيمان، وما أكثر هذا الصنف في وقتنا، وإن ذلك لفتنة فيا رب لا تجعلنا فتنة للخونة والمنافقين.

* * *

❊ مبادرة الفتن المظلمة المضلة بالأعمال الصالحة

[١٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال فتناً كقِطع الليل المُظلم يصبح الرجلُ مؤمناً، ويُمسي كافراً، ويُمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعَرضٍ من الدنيا»**.

رواه أحمد (٣/٣٠٤/٣٧٢)، ومسلم في الإيمان (٢/١٣٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٢٦).

«بادروا»: أي سابقوا وسارعوا بالأعمال الصالحة. «بعرض»: بفتح العين والراء.

في الحديث الأمر بالمبادرة إلى الإكثار من الإتيان بأنواع القربات قبل تعذرها والانشغال عنها بما يداهم الإنسان من الفتن المتكاثرة المتراكمة

كتراكم الليل المظلم، حتى إن الإنسان لشدة الفتن ينقلب في اليوم الواحد مرتين أو مرات فيصبح مؤمناً ويمسي كافراً وعكسه.

والحديث يشير إلى أن ذلك يكون بسبب عرض الدنيا فيبيع لذلك دينه فيكفر بدون أن يشعر، والأمثلة على هذا كثيرة عياذاً بالله.

* * *

أشقى الناس بالفتن العرب

[١٨] عن زينب بنت أم سلمة، عن أم حبيبة، عن زينب بنت جحش رضي الله تعالى عنهن أن النبي ﷺ استيقظ من نومه. وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ يوماً فزعاً مُحمراً وجهه وهو يقول: **«لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليومَ من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه»** وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت: فقلت: يا رسول الله أنهلِك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا كثُر الخَبَثُ»**.

رواه أحمد (٦/٤٢٨/٤٢٩)، والبخاري (١٦/١١٧/١١٨)، ومسلم (١٨/٣/٤) كلاهما في الفتن، وأخرجه أيضاً عبدالرزاق (١١/٣٦٣) والترمذي.

«الويل»: الهلاك. و«الردم»: هو السد الذي بناه ذو القرنين، ويأتي الكلام عليه مع يأجوج ومأجوج. وقوله: «الخبث» بفتحتين، فسره الجمهور بالفسوق والفجور. وقيل: المراد به الزنا خاصة، وقيل: أولاد الزنا.

قال النووي رحمه الله تعالى: والظاهر أنه المعاصي مطلقاً.

وقوله: «أنهلك» بكسر اللام.

والحديث يدل على أن العرب هم مصدر الفتن، وأنهم أول من يقعون فيها من هذه الأمة، والحديث قد يكون مشيراً إلى ما حصل بين الصحابة وغيرهم ممن جاء بعدهم إلى وقتنا هذا كما يشهد له التاريخ، وها نحن

نشاهد الفتن متوالية على العرب، والغرب كله بجميع دول أوروبا وأمريكا... مع الشرقيين يكيدون لهم ويحاربونهم ويمتصون ثرواتهم عن طيب نفس أو كره، وكوَّنوا في وسطهم دويلة الصهاينة الملاعن، وأشعلوا نيران الحروب بينها وبينهم ليل نهار ولا ندري ماذا يكون في غدنا.

والحديث يدل أيضاً على أنه إذا كثر الشر وانتشر الفجور وظهرت المعاصي أهلك الله جميع الناس، ولا ينفعهم وجود الصالحين ولا أهل الفضل والدين بينهم كما هو حالنا اليوم.

* * *

❊ فزع النبي ﷺ من نزول الفتن

[١٩] عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها زوج النبي ﷺ قالت: استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزِعاً يقول: **«سبحان الله ماذا أنزل الله من الخزائن؟ وماذا أنزل من الفتن؟ مَن يوقظ صواحب الحجرات؟** ـ يريد أزواجه ـ **لكي يُصلِّينَ، رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عارية في الآخرة»**.

رواه البخاري في الفتن (١٢٩/١٦)، وعبدالرزاق (٣٦٣/١١)، وأحمد والترمذي.

في الحديث بيان ما أطلع الله تعالى عليه نبيه ﷺ من فتوح خزائن الأموال وظهور الفتن التي تنشأ عن ذلك من التنافس والمقاتلة عليها، وقد حصل كل ذلك. وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من الاهتمام بأهله وتحريضهن على الاستيقاظ للصلاة والتهجُّد ليلاً لينقذن أنفسهن من المهالك ويتضرّعن إلى الله من الحفظ والحماية من الفتن.

وقوله: «رُبّ كاسية...» إلخ، يعني والله أعلم: قد تكون المرأة في الدنيا كاسية لكنها عارية أو شبه عارية فتعاقب على ذلك في الآخرة بالعُري جزاء على ذلك وفضيحة لها بين الخلائق، أو يكون معناه: كاسية من نعم الله عارية من شكر الله الذي تظهر ثمرته في الآخرة بالثواب، أو معناه:

كاسية في الدنيا بأنواع الحلل والألبسة الفاخرة المتنوعة لكنها في الآخرة عارية من الثواب لعدم عملها الصالح في الدنيا.

والحديث وإن جاء في نساء النبي ﷺ فهو شامل لجميع نساء الأمة، ففيه تحذيرهن من الاتصاف بما ذكر، والله تعالى أعلم.

* * *

❁ لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه

[٣٠] عن الزُّبَيْر بن عدِيٍّ رحمه الله تعالى قال: أتينا أنسَ بن مالك رضي الله تعالى عنه فشكونا إليه ما نلقى من الحَجَّاج فقال: اصبِروا فإنه لا يأتي عليكم زمانٌ إلا الذي بعده شرٌّ منه حتى تلْقَوا ربكم، سمعتُه من نبيكم ﷺ.

رواه البخاري في الفتن (١٢٧/١٢٦/١٦).

في هذا علَم من أعلام النبوة، فإن ما أخبر به من توالي الشر وتجدُّده بكثرة عاماً بعد عام وشهراً بعد شهر، بل ويوماً بعد يوم هو الواقع منذ غياب النبي ﷺ.

فالحديث يدل على أن الأزمنة المتأخرة شر من المتقدمة، وهو على إطلاقه فيه إشكال من حيث إن بعض الأزمنة تكون أخف شراً مما قبلها كما وقع أيام عمر بن عبدالعزيز رضي الله تعالى عنه، فإن الشر فيه كان قليلاً بالنسبة لما كان قبله، ويجاب عن ذلك بأن ذلك أغلبي، ولا بد للناس من تنفيس كما وقع في بعض العصور وكما سيقع أيام المهدي وعيسى عليهما السلام.

وقوله: «شكونا إلى أنس ما نلقى من الحجاج» يعني ابن يوسف الثقفي وهو الأمير الجبار الظالم المشهور، فإن ظلمه فاق ظلم كل ظالم قبله، وقد أحصوا عنه ما قتله من العلماء والنسّاك... فذكروا عنه أنه قتل مائة وعشرين ألف نفسٍ ظلماً، كما أخرجه الترمذي بسند صحيح.

وقد ذكر الحافظ في «الفتح» عن الزبير يعني ابن بكار في «الموفقيات» من طريق مجالد عن الشعبي قال: كان عمر فمَن بعده إذا أخذوا العاصي أقاموه للناس ونزعوا عمامته، فلما كان زياد ضرب في الجنايات بالسياط، ثم زاد مصعب بن الزبير حلق اللحية، فلما كان بشر بن مروان سمَّر كفَّ الجاني بمسمار، فلما قدم الحجاج قال: هذا كله لَعِبٌ، فقتل بالسيف.

ملحوظة: وقوله: «لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه» المراد بالشر ذهاب العلماء وأهل الدين وظهور المعاصي وكثرة أهلها وانتشار الظلم والجور، وليس المراد بالشر القحط والجدب وارتفاع الأسعار وظهور الفقر والمجاعات، بل الأمر بالعكس، فقد فُتحت أبواب الدنيا وبُسطت، وأغدق الله تعالى على العباد النِعَم وتوسّعوا في الحياة...

* * *

❁ تقاتل المسلمين وما سيكون بينهم من الباس وانهم سيسلطون على بعضهم بعضاً

[٣١] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن حملَ علينا السلاحَ فليس منا»**.

رواه مالك وأحمد (١٤٢/٥٣/١٦/٣/٢)، والبخاري في الفتن (١٣١/١٦)، ومسلم في الإيمان (١٠٧/٢)، وأبو داود والنسائي، ومثله عن أبي موسى رواه البخاري (١٣١/١٦)، وعن أبي هريرة عند مسلم وابن ماجه بزيادة: **«ومَن غشّنا فليس منا»**.

والحديث يدل على أن من حمل السلاح يريد قتال المسلمين فليس منهم، أي: ليس على طريقتهم ولا هديهم، فهم برآء منه. وهذا غاية في التنفير من قتال المسلمين والزجر عنه، وهذا محمول على القتال الغير المشروع كما يأتي:

[٣٢] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا

المسلمانِ حمل أحدهما على أخيه السلاح فهما في جُرُفِ جهنم، فإذا قتل أحدهما صاحبَه دخلاها جميعاً».

رواه أحمد (٤١/٥)، ومسلم في الفتن (١٢/١٨).

في الحديث وعيد شديد لحمل السلاح على المسلمين أو مقاتلتهم بلا حق.

[٢٣] وفي رواية عن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ ـ يعني علياً عليه السلام ـ قال: فقال: يا أحنف ارجع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا تواجه المسلمان بسيفَيهما فالقاتلُ والمقتولُ في النار»** قال: فقلت أو قيل: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: **«إنه قد أراد قتل صاحبه»**، وفي رواية عن الحسن ـ يعني البصري ـ قال: خرجت بسلاحي ليالي الفتنة فاستقبلني أبو بكرة... إلخ.

رواه البخاري (١٤١/١٤٠/٦)، ومسلم (١١/١٠/١٨)، وأبو داود (٤٢٦٨) كلهم في الفتن.

وقوله: «ليالي الفتنة» المراد بالفتنة الحرب التي وقعت بين الإمام علي وطلحة والزبير وعائشة رضي الله تعالى عنهم، وكان أبو بكرة ممن تخلّف عن القتال مع أحد الفريقين فثبط الأحنف عن القتال مع الإمام علي، واستدل له بالحديث المذكور وكان غير مصيب في ذلك، فإن الحديث وارد فيمن تقاتل لأجل الملك والعصبية والحمية، فالقاتل في ذلك والمقتول كلاهما في النار، فالقاتل يدخلها لقتله أخاه المسلم بغير حق، والمقتول يدخلها لأنه كان حريصاً على قتل أخيه فاستحقها بنيّته، والحديث نصّ في كونهما لم يخرجا بتقاتلهما عن الإسلام، وهذا طبعاً إذا لم يستحلا القتل بدون تأويل وإلا كانا مرتدين مخلّدين في النار.

[٢٤] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«لا ترجعوا بعدي كُفاراً يضرب بعضكم رقابَ بعض».**

رواه أحمد (٨٧/٢)، والبخاري في الفتن (١٣٤/١٦) وغيرهما.

وجاء عن جرير في الصحيحين وعن أبي بكرة وابن عباس في البخاري (١٣٧/٦)، والترمذي في الفتن (٢٠٢٤).

وقوله: «لا ترجعوا كفاراً...» إلخ، ظاهره أن قتل المسلم يوجب الكفر وذلك ليس بمراد فإنه مؤول ولا بد، بمعنى لا تفعلوا بالمؤمنين ما تفعلون بالكفار ولا تفعلوا بهم ما لا يحل وأنتم ترونه حراماً أو لا ترجعوا كفاراً باستحلالكم قتال إخوانكم، ولذا جاء في رواية ابن عباس عند البخاري في الفتن (١٣٧/١٦): **«لا ترتدُّوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»** ففيه النهي عن الارتداد والكفر واستحلال قتال المسلمين.

[٢٥] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مرّ بمسجد بني معاوية دخل فركع فيه ركعتين وصلّينا معه ودعا ربه طويلاً ثم انصرف إلينا فقال ﷺ: **«سألت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين، ومنعني واحدة، سألتُ ربي أن لا يُهلك أمتي بالسنة فأعطانيها، وسألته أن لا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها»**.

رواه أحمد (١٨٢/١)، ومسلم في الفتن (١٥/١٤/١٨).

[٢٦] وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ مُلكُها ما زوى لي منها، وأُعطِيتُ الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يُهلِكها بسَنَةٍ عامة، وأن لا يُسلِّط عليهم عدواً من سِوَى أنفسهم فيَستَبِيحَ بَيضَتَهُم، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُردُّ، وإني أعطيتُك لأمتك أن لا أُهلِكهم بسنة عامة، وأن لا أسلِّط عليهم عدواً من سوى أنفسهم يستبيحُ بيضتَهم، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها ـ أو قال ـ من بين أقطارها، حتى يكونَ بعضُهم يُهلِكُ بعضاً، ويسبي بعضُهم بعضاً، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلِّين، وإذا وُضع في أمتي السيفُ لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة»**.

رواه أحمد (٥/٢٧٨)، ومسلم في الفتن (١٤/١٣/١٨)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي في الفتن (٢٠٠٦)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

«زوى»: بفتحتين وتخفيف الواو أي: جمع. «الكنزين»: الذهب والفضة، والمراد بهما كنزَي كسرى ملك العجم وقيصر ملك الروم. «فيستبيح بيضتهم» أي: يستأصل مجتمعهم.

[٣٧] وعن خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه قال: صلّى رسول الله ﷺ صلاة فأطالها فقالوا: يا رسول الله صلّيتَ صلاةً لم تكن تُصلّيها؟ قال: **«أجل، إنها صلاة رغبة ورهبة، إني سألتُ الله فيها ثلاثاً...»** فذكر الحديث بنحو ما سبق وفيه: **«وسألته أن لا يُذيقَ بعضَهم بأسَ بعض فمنعنيها»**.

رواه أحمد والترمذي في الفتن (٢٠٠٥) وحسّنه وصححه وهو عنده على شرط مسلم.

وقوله: «صلاة رغبة ورهبة» معناه: أنها مشتملة على الرجاء والخوف معاً.

وفي هذه الأحاديث معجزات للنبي ﷺ، فقد تنبّأ بأشياء فوقعت كما أخبر، كجمع الأرض له، ورؤيته المشارق والمغارب، وإخباره بأن الإسلام سيمتد فيما ظهر له من الأقطار الشرقية والغربية، فحصل ذلك في مدة يسيرة فانتشر الإسلام شرقاً وغرباً إلى أن بلغ المحيط الهادي شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً، بل تعداه إلى أمريكا وأوروبا شمالاً وأندونيسيا... وقارة أستراليا جنوباً، غير أنه انتشر بكثرة في وسط الكرة الأرضية من شرق آسيا إلى أمريكا.

كما أخبر بأن المسلمين سيفتحون بلادَي كسرى والروم وهما العملاقان اللذان كانا يُمثلان القوة المسيطرة على أكثر الأقطار فمزّقهما الله تمزيقاً على أيدي أبطال الإسلام من الصحابة والتابعين رضي الله تعالى عنهم، ففتحتا أيام الصدّيق والفاروق رضي الله تعالى عنهما وأنفقت أموالهما في سبيل الله.

وفي هذه الأحاديث اهتمام النبي ﷺ بأمته وشفقته عليها ورحمته بها

حيث سأل ربه لها دفع ما يسوءهم ويَغْبِتُهم، فسأله ثلاثاً أجابه إلى ثنتين ومنعه الثالثة، وذلك لسابق علمه وقضائه الذي لا يتبدل ولا يتغير.

فأجابه إلى أنه لا يعم جميع أمته بالقحط والجوع، بل إذا وقعت المجاعات في جهة أو جهات حصل الخصب والخير في جهات أخرى، وأنه لا يسلط عليهم جميعاً عدواً من غيرهم فيستأصل كل الأمة ويقضي عليها باستعمارها واستذلالها واستغلال أراضيها والسيطرة عليها، بل لا بد وأن تبقى جهات من الأقطار التي يحكمها المسلمون محفوظة من الكفار وأعداء الإسلام، وهكذا حصل كما أخبر ﷺ بما وعده الله عزّ وجل به.

فقد هاجم الكفار بلاد الإسلام وغزوا المسلمين مرات واستعمروا كثيراً من الأقطار عبر العصور حتى جاءت الحرب العالمية الأولى فاجتمعت دول أوروبا على حرب كل بلاد الإسلام واستعمروا ما قدِّر لهم، ورغم أنهم حكموا كل الأقطار بعجميها وعربيها لكنهم لم يستطيعوا بإذن الله تعالى استعمار كل بلاد الأمة بل بقيت بلاد الحرمين الشريفين وبعض القطر اليمني فحفظهما الله تعالى من استيلاء الكفار عليهما مصداقاً لما وعد الله تعالى به نبيه ﷺ.

نعم، إنما الذي يقضي على الأمة ويمزق جميعها ويحاربها هم أبناؤها، فهم الذين يقتل بعضهم بعضاً، ويسبون نساءهم وذراريهم، ويستحلون أموالهم، ويذيق بعضُهم بأس بعض كما هو الواقع بداية من أيام الصحابة حتى وقتنا هذا.

ملحوظة: جاء في حديث سعد المخرّج في الصحيحين بدل: تسلط العدو من غيرهم: **«وسألته أن لا يُهلك أمتي بالغرق فأعطانيها»**.

وهذا أيضاً يصدقه الواقع والتاريخ، فلم يسمع أن الله عزّ وجل أغرق جميع الأمة بالفيضانات والسيول...

وعلى أيٍّ، فما ذكر في هذه الأحاديث من جملة الفتن التي تتعرض لها الأمة.

* * *

❁ كثرة الهرج والعبادة فيه

[٢٨] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ من ورائكم أياماً، يُرفع فيها العلمُ، ويكثرُ فيها الهَرْجُ»، قالوا: يا** رسول الله ما الهرج؟ قال: **«القتلُ»**.

رواه البخاري (١٢٥/١٢٤/١٦) في الفتن، ومسلم في العلم (٢٢٢/١٦)، والترمذي (٢٠٣٠)، وابن ماجه (٤٠٥١) كلاهما في الفتن.

[٢٩] وعن مَعقِل بن يسار رضي الله تعالى عنه رده إلى النبي ﷺ قال: **«العبادةُ في الهَرْج كهِجْرةٍ إليّ»**.

رواه أحمد (٣٥/٥)، ومسلم (٨٨/١٨)، والترمذي (٢٠٣١)، وابن ماجه (٣٩٨٥) كلهم في الفتن.

قوله: «إن من ورائكم» أي: في آخر الزمان بدليل رواية البخاري الآتية لاحقاً: **«إن بين يديّ الساعة»**.

وفي الحديث الأول: علَمٌ من أعلام النبوة حيث أخبر ﷺ بوقت يرفع فيه العلم - يعني علمَ الدين - ويكون ذلك بذهاب العلماء كما يأتي.

وأنه سيكثر فيه القتل وسفك الدماء بدون حق وهو المعبّر عنه بالهرج، وهذا هو الواقع، فإن ذلك متوالٍ بدون انقطاع في كثير من الأقطار وخاصة بلاد الإسلام التي جاء التحدُّث عن أهلها.

أما الحديث الثاني: فيدل على خير عظيم وهو أن الاشتغال بالعبادة والتوجه إلى الله عزّ وجل أيام الفتن والحروب فيه أجر عظيم وذلك لغفلة الناس وانشغالهم بالحروب، فالمشتغل بذلك يحرز بفضل الله على درجة المهاجر إلى رسول الله ﷺ، وقد تحدّث القرآن الكريم كثيراً عن أجر المهاجرين وجزائهم، فالواجب على المسلم أيام الفتن هو الاشتغال بربه.

❁ ❁ ❁

❁ نزول عقاب اللّه عند ظهور الشر وعدم تغييره

[٣٠] عن أبي بكر الصدّيق رضي الله تعالى عنه قال: إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنّ الناس إذا رأوا الظالمَ فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعُمَّهم الله بعقاب منه**».

رواه أحمد وأبو داود في الملاحم، والترمذي وابن ماجه في الفتن بسند صحيح على شرط مسلم، وتقدم في التفسير.

قوله: «**فلم يأخذوا...**» إلخ، أي: لم يكُفُّوه عن ظلمه بالأمر والنهي. قوله: «**أوشك**» أي: قارب عندئذ أن يشملهم الله تعالى جميعاً بالعذاب عقاباً لهم.

فالحديث يدل على أن ترك الإنكار على أهل الظلم والإفساد يوجب عقاب الله.

[٣١] وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه فتدعونه فلا يُستجاب لكم**».

رواه الترمذي في الفتن (١٩٩٩) بتهذيبي، وحسّنه، وذلك لطريق له عند أحمد (٥٨٩/٥٨٨/٥) وشاهد عن عائشة عند ابن ماجه (٤٠٠٤).

هو كسابقه في نزول العذاب عند ظهور الشرور وترك الإنكار، ويزاد على العذاب عدم استجابة دعاء الصالحين للعموم.

[٣٢] وعن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ القائم على حدود الله والمُدْهِن فيها كمَثلِ قوم استهَموا على سفينةٍ في البحر، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فكان الذين في البحر أسفلها يصعدون فيسْتَقون الماء فيصُبُّون على الذين في أعلاها، فقال الذين في أعلاها: لا ندعُكم تصعدون فتؤذوننا، فقال**

الذين في أسفلها: فإنا نثقبها في أسفلها فنستقي، فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعاً، وإن تركوهم غرقوا جميعاً».

رواه أحمد (٤/٢٦٨/٢٧٠)، والبخاري في الشركة (٦/٥٨)، والشهادات (٦/٢٢٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٠٣) بتهذيبي.

قوله: «القائم» أي: الذي يأمر وينهى. وقوله: «والمدهن» بضم الميم وسكون الدال وكسر الهاء هو المداهن الذي يشاهد المنكر ويجامل صاحبه مع قدرته على التغيير أو مفارقة صاحب المنكر. وقوله: «فإن أخذوا» أي: مسكوا أيديهم.

فهذا الحديث يبين المجتمع الذي يظهر فيه المنكر، فإن أخذ الناس على أيدي أهله وأنكروا عليهم وحالوا بينهم وبينه نجى جميعهم، وإن تركوهم وما هم عليه شملهم عقاب الله وعذابه ولم ينجُ منهم طالح ولا صالح.

* * *

❊ الخسف بالبغاة وأهل الفساد

[٣٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم»** فقلت: يا رسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومَن ليس منهم؟ قال: **«يخسف بأولهم وآخرهم ثم يُبعثون على نياتهم»**.

رواه البخاري في الحج وفي البيوع.

[٣٤] وعن حفصة رضي الله تعالى عنها أنها سمعت النبي ﷺ يقول: **«ليَؤمّنّ هذا البيت جيشٌ يغزونه حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسفُ بأوسطهم ويُنادي أولُهم آخرهم، ثم يُخسف بهم فلا يبقى إلا الشريد الذي يُخبر عنهم»** فقال رجل: أشهد عليك أنك لم تكذب على حفصة، وأشهد على حفصة أنها لم تكذب على النبي ﷺ.

وفي رواية: «**لا ينتهي الناس عن غزو هذا البيت حتى يغزوَ جيشٌ، حتى إذا كانوا بالبيداء ـ أو ـ ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم ولم ينجُ أوسطهم**» قلت: يا رسول الله فمَن كره منهم؟ قال: «**يبعثهم الله على ما في نفوسهم**».

رواه مسلم (٦/٥/١٨)، والترمذي (٢٠١٤)، وابن ماجه (٤٠٦٤) ثلاثتهم في الفتن.

[**٣٥**] وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها سئلت عن الجيش الذي يُخسفُ به وكان ذلك في أيام ابن الزبير، فقالت: قال رسول الله ﷺ: «**يعوذ عائذ بالبيت فيُبعث إليه بعثٌ**»، وفي رواية: «**سيعوذ بهذا البيت ـ يعني الكعبة ـ قوم ليست لهم مَنَعَةٌ، ولا عددٌ، ولا عُدَّةٌ، يُبعث إليهم جيشٌ حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم**»، قال يوسف: وأهل الشام يومئذ يسيرون إلى مكة، فقال عبدالله بن صفوان: أما والله ما هو بهذا الجيش، فقالت أم سلمة: لعل فيهم المكره، قال: «**إنهم يُبعثون على نياتهم**».

رواه مسلم (٦/٥/١٨)، والترمذي (٢٠٠١)، وابن ماجه (٤٠٦٥) كلهم في الفتن.

«البيداء»: هي كل أرض لا نبات بها. وقوله: «يُخسف بهم» أي: تبتلعهم الأرض عقاباً لهم على انتهاك حرمة بيت الله. قوله: «سيعوذ بالبيت» أي: سيلجأ إليه ويتحصن به. قوله: «منعة» بفتحات، أي: ليس لهم عزة ولا حامي يحميهم. وقوله: «عددٌ» أي: ليس لهم جيش كثير. «ولا عدة»: بضم العين، أي: ولا لهم قوة من الأسلحة.

[**٣٦**] وعن أبي مالك الأشعري أو أبي عامرٍ رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَيَكُونَنَّ من أُمَّتي قومٌ يستحلُّون الحِر والحريرَ، والخمرَ والمعازفَ، ولينزلن أقوام إلى جنبِ عَلَم تروحُ عليهم سارِحةٌ لهم فيأتيهم رجلٌ لحاجةٍ فيقولون: إرجع إلينا غداً، فيبيتهم الله، ويضع العلَم، ويَمسخُ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة**».

رواه البخاري في الأشربة بصيغة التعليق وهو متصل صحيح خلافاً

لمن ضعّفه كابنِ حزم ومَن قلده، وأخرجه أيضاً متصلاً جماعة كما قدّمنا في الأغاني من الأدب.

وقوله: «من أمتي» أي: أمة الدعوة وليسوا من أمة الإجابة لأنهم كفار باستحلالهم هذه الأشياء المذكورة المحرّمة، وهي أربعة أشياء: الحر بكسر الحاء ثم راء، وهو الفرج، والمراد استحلالهم الزنا. ثم الحرير، ثم الخمر، وهذه الثلاثة محرّمة بالإجماع إلا الحرير بالنسبة للنساء، والرابع: المعازف وهي آلات الطرب واللهو وهي محرّمة إذا احتفت بها الخمر والزنا والأغاني الماجنة الفاحشة وبالأخص إذا كانت من النساء على الحالة المشاهدة اليوم فإن هذه المشاهد من مؤجبات العذاب والمسخ قطعاً.

فهذه الأحاديث تدل على أن الله عزّ وجل سيُنزل عذابه ونقمته بكل من انتهك حرمة الله وقصد غزو بيته الحرام أو أسرف في الفجور وأفرط في مجاهرة الله بالمعاصي حتى بلغ به الحال إلى استحلال المحرمات والفواحش وما أخبر به ﷺ في هذه الأحاديث من معجزاته العظيمة، فإن المستحلين للزنا وما معه وجدوا في عصرنا وما أكثرهم ومن يلقي نظرة خاطفة على المحطات الفضائية التلفزيونية يرى من مشاهد هذه المخازي ما يستحيي منه الشيطان، أما غزو البيت والخسف بقاصديه فسيكون في مستقبل الزمان مصداقاً لوعد الله تعالى ورسوله ﷺ.

وفي الأحاديث الثلاثة الأولى دليل على أن العذاب والخسف قد يصيب حتى الصالحين ممن يوجدون مع المعتدين لأنهم كانوا مكثرين لسوادهم، فيكون ذلك تصعيراً لهم ورفعاً لدرجاتهم، ويبعثون يوم القيامة على نياتهم فيجازون بحسب ذلك.

وقد أخرج البخاري في الفتن (١٧١/١٦) عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال:

[٣٧] قال رسول الله ﷺ: **«إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذابُ مَن كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم، إن كان صالحاً فعقباه صالحة، وإلا فسيئة»**. وفيها البعد عن أهل الفساد والتحذير من مجالستهم ومصاحبة

المبطلين لئلا ينال الإنسان ما يعاقبون به والعياذ بالله، وهذه من السنن الإلهية في عباده التي لا تتخلف، فأيما قوم ظهرت فيهم المعاصي وأعلنوا بها أنزل الله تعالى بهم بأسه.

* * *

❋ ذهاب الصالحين وتسلط الأشرار على الأخيار

[٣٨] عن المرداس الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يذهبُ الصالحون الأولَ فالأولَ، ويبقى حثالةٌ كحثالة الشعير أو التمر، لا يباليهم الله تعالى بالة»**.

رواه أحمد (١٩٣/٤)، والبخاري في الرقاق (٢٨/٢٧/١٤)، والدارمي (٢٧/٢٢).

«حثالة»: بضم الحاء ثم ثاء، وفي رواية: «حفالة» بالفاء، وهو الرديء من التمر أو الشعير. «لا يباليهم الله» أي: لا يعبأ بهم.

والحديث يدل على أن الله عزّ وجل يقبض إليه الأتقياء والصالحين حتى لا يبقى إلا الأشرار، وهذا يقع في كل العصور وليس خاصاً بوقت دون وقت.

وقد يكون الحديث مشيراً إلى آخر الزمان عند تغرب الدين وأهله وغلبة الشر ومتعاطيه.

[٣٩] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مشت أُمَّتي المُطَيطاء وخدمها أبناء الملوك، أبناء فارس والروم، سُلِّط شِرارُها على خيارها»**.

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٩٠) من طريقين، أحدهما: سنده صحيح وله شاهد عن أبي هريرة رواه الطبراني بسند حسن.

«المطيطاء»: بفتح الطاءين بينهما ياء ساكنة، هي مشية فيها تبختُر، وهي مشية المتكبرين.

وفي الحديث إخباره ﷺ بتسلُّط الأشرار على الأخيار، والمراد بالأشرار الكفار والظلَمَة وأهل الجور، وذلك يكون عند ظهور الترف والتنعُّم والإخلاد إلى الحياة، والتظاهر بالتعاظم والاتصاف بالتكبُّر... وقد وقع ذلك في تاريخ الإسلام، فعندما فتحت الأقطار والأمصار وجلب الأسارى واتخذ الناس الخدَمة والخادمات من العجم أصبح كثير من الناس كالملوك في حياتهم، ثم عاقبهم الله عزّ وجل بتسلُّط شرار الخلق عليهم.

* * *

التمسُّك بالدين والصابر عليه عند الفتن وتغرُّب الإسلام

[٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إنكم في زمان مَن ترك منكم عُشْرَ ما أُمِرَ به هلك، ثم يأتي زمانٌ مَن عمل منهم بعُشْرِ ما أُمِرَ به نجا»**.

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٩٥)، والطبراني في الصغير (١٣٨/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٣١٦/٧) بسند رجاله ثقات غير نعيم بن حماد الحافظ فتكلموا فيه لكن وثقه أحمد وابن معين والعجلي، وروى له البخاري تعليقاً، وكفى.

المراد بالعشر في الحديث كما قال العلماء: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا التكاليف الشرعية فإنه لا يجوز تركها بحال، وإنما كان الأولون هالكين لأن الدين في وقتهم كان قائماً منصوراً وأهله متوافرون، أما الآخرون فوقتهم وقت كفر وظلم وضعف وتغرُّب وعموم المعاصي وانتشار الفساد وأهله وقلة أنصار الدين، فلذلك كانوا ناجين لأنهم قاموا بما في وسعهم.

[٤١] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأتي على الناس زمانٌ الصابرُ فيهم على دينه كالقابض على الجمر»**.

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٨٨) بتهذيبي، وهو وإن كان في سنده عمر بن شاكر وفيه ضعف فإن معناه صحيح فله شاهد عن أبي هريرة رواه

أحمد (٥/٣٩٠/٣٩١) بسند حسن في الشواهد، وشاهد ثان عن أبي ثعلبة الخشني رواه الترمذي في التفسير (٢٨٦٠) بتهذيبي.

الحديث مطابق لحالتنا التي نعيشها اليوم، فإن التمسك بالدين فيه صعب جداً على الأكثرية من الناس الذين يدعون الإسلام، فمَن تمسك بدينه اليوم فأحلّ حلاله وحرّم حرامه وقام بالتكاليف الشرعية حسب طاقته كان كأنه قابض على جمرة من النار لشدة الأمر وصعوبته، وفي هذا يأتي أجر الواحد منهم كأجر خمسين من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، كما جاء في حديث آخر.

* * *

❊ تمنِّي الموت عند الفتن

[٤٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا تذهبُ الدنيا حتى يمُرَّ الرجلُ على القبر فيتمرَّغُ عليه ويقول: يا ليتني كنتُ مكان صاحب هذا القبر وليس به الدينُ، إلا البلاء»**.

رواه البخاري (١٦/١٨٧)، ومسلم في الفتن (١٨/٣٤)، وابن ماجه (٤٠٣٧).

قد وقع هذا بكثرة عبر العصور لكثرة البلاء والفتن النازلة بالناس، فيمر الرجل بقبر أخيه فيغبطه لموته ويتمنى أن لو مات فيكون مكان صاحب القبر. وهذا من الناحية الشرعية لا يجوز، فإن الواجب على المسلم الصبر لتصاريف الأقدار وتفويض الأمور للّه عزّ وجل يفعل فيها ما يشاء، وقد قدّمنا في الجنائز ما فيه كفاية للموضوع.

* * *

❊ هلاكُ الأمّة على يد أُغَيْلِمَة

[٤٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«هلاكُ أمّتي على يد أُغَيْلِمَة من قريش»**.

وفي رواية: «هلكة أمتي على يدَيْ غِلْمة من قريش» فقال مروان: لعنةُ الله عليهم غِلْمةً، فقال أبو هريرة: لو شئت أن أقول: بني فلان وبني فلان لفعلتُ، قال عَمرو بن يحيى: فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا الشام فإذا رآهم غلماناً أحداثاً قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم، قلنا: أنت أعلم.

رواه البخاري (١٦/١١٥/١١٦)، ومسلم (١٨/٤١) كلاهما في الفتن واللفظ للبخاري، ولفظ مسلم: «يُهلِكُ أمتي هذا الحيُ من قريش»، قالوا: فما تأمرنا؟ قال: «لو أن الناس اعتزلوهم».

قوله: «أُغَيْلِمَةٌ» هو تصغير غلمة بمعنى غلمان.

ومعناه: أن هلاك الأمة سيكون بواسطة أمراء من قريش أحداث الأسنان ليست لهم عقول ناضجة. وكان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يرى أنهم بنو أمية لأنهم كانوا كذلك، والحديث عام فإن المتأخرين ليسوا بأقل إفساداً أو إهلاكاً من السابقين، فإن في الأمراء اللاحقين من كفّروا شعوبهم وورّطوهم في أمور عويصة، وقوله ﷺ: «لو أن الناس اعتزلوهم» معناه: أن لا يشاركوهم في أمورهم التي يمارسونها ويفرُّوا عنهم بدينهم.

وأخذ العلماء من هذا الحديث مشروعية هجران البلدة التي يقع فيها التظاهر بالمعاصي والمنكر جهاراً لأن ذلك سبب وقوع الفتن التي ينشأ عنها الهلاك. وقد قدّمنا بعض هذا في الجهاد.

***

الأمراء المُضِلُّون والإنكار عليهم

[٤٤] عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أخافُ على أمّتي الأئمة المُضِلّين».

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٥٩) بسند صحيح، ولذا حسّنه وصححه.

«الأئمة المضلُّون»: هم الأمراء والولاة الظلَمة الطغاة الذين يغيرون أوضاع الأمة، ويُحَكِّمون فيهم غير شريعة الإسلام، ويشيعون في الناس الفواحش والمناكير، ويطغون في البلاد ويكثرون فيها الفساد، فمن أمثال هؤلاء كان ﷺ يخاف على أمته وقد وقعت فيما خاف عليها.

[٤٥] وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ قال: «**إنه سيكون عليكم أئمةٌ تعرفون وتُنكرون، فمَن أنكر فقد برىء، ومَن كره فقد سَلِم، ولكن مَن رَضي وتابع**».

رواه أحمد (٦/٢٩٥)، ومسلم في المغازي (٨/٢٤٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٦٠)، والترمذي في الفتن (٣٠٩٣).

قوله: «**تعرفون وتنكرون**» أي: ترون منهم ما هو معروف في الشرع وما هو منكر. وقوله: «**فقد برئ**» أي: قطع الصلة بينه وبين ما هم عليه حيث لم يداهنهم ولم يوافقهم على ما يرتكبونه. وقوله: «**فقد سلم**» أي: من إثم ما يأتونه لأنه أبغض ما هم متلبسون به وكرهه. وقوله: «**ولكن من رضي وتابع**» يعني من استحسن حالهم وتبعهم على ظلمهم وفجورهم فهو منهم.

وفي الحديث مشروعية الإنكار على ولاة الجور حسب الإمكان ولو بكراهة القلب إن لم يستطع بغيره، فمَن رأى المنكر ولم يستطع إنكاره باليد أو اللسان فكرهه كان في حلٍّ ولم يكن عليه إثم، وهذا من لطف الله بعباده المؤمنين.

* * *

مصدر الفتن وجهتها

[٤٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ وهو مستقبل المشرق يقول: «**ألا إنّ الفتنةَ ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان**»، وفي رواية: «**قرن الشمس**».

وفي رواية: سمعت رسول الله ﷺ يشير بيده نحو المشرق ويقول: **«ها إن الفتنة ههنا ـ ثلاثاً ـ حيث يطلع قرن الشيطان»**.

وفي رواية: قام عند باب حفصة فقال بيده نحو المشرق: **«الفتنة ههنا...»**.

وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة فقال: **«رأس الكفر من ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان»** يعني: المشرق.

وفي رواية عن سالم بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما يقول: يا أهل العراق ما أسألَكُم عن الصغيرة وأركبَكُم للكبيرة، سمعت أبي عبدالله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الفتنة تجيء من ههنا»** وأومأ بيده نحو المشرق **«من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم يضرب بعضُكم رقاب بعض، وإنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأً فقال الله عزّ وجل: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾»**.

رواه البخاري (١٦/١٥٥)، ومسلم (١٨/٣١/٣٢)، والترمذي (٢٠٩٦) ثلاثتهم في الفتن، والألفاظ كلها لمسلم.

[٤٧] وعن ابن عمر أيضاً قال: ذكر النبي ﷺ فقال: **«اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا»**، قالوا: وفي نجدنا؟ قال: **«اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا»**، قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا، فأظنه قال في الثالثة: **«هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان»**.

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٥٦) وفي مواضع.

قوله: «قرن الشيطان» حمله بعضهم على ظاهره وأن للشيطان قرناً أو قرنين يقرنهما بالشمس عند طلوعها ليسجد له عبدَة الشمس، وقيل: القرن هنا قوة الشيطان وما يستعين به، وقيل: فيه إشارة إلى جيل خاص يعيث في الأرض فساداً، والله أعلم بمراد نبيه ﷺ، وقوله: «وفي نجدنا» النجد كل ما ارتفع من الأرض، وبلاد نجد معروفة، والحديث يحتمل نجداً الإقليم المعروف، ويحتمل كل ما ارتفع من تلك الجهات عن تهامة ومنها مكة

والمدينة، فيكون المراد بذلك نجداً والكويت والبصرة والكوفة وبغداد أو جميع القطر العراقي. وقوله: «هناك الزلازل والفتن» الزلازل جمع زلزال والمراد بها زلزلة القلوب وتحريكها عن مواضعها لكثرة الفتن.

وما في الحديثين صدقه الواقع، فإن أول فتنة فرّقت بين المسلمين وهي قتل عثمان وما تلاه كانت من تلك الجهة الشرقية كما يأتي إن شاء الله تعالى، فكانت مسرحاً للحروب أيام الصحابة فمن بعدهم عبر العصور، ثم إن الفرق الضالّة كالخوارج، والشيعة الروافض، والقدرية، والمعتزلة، وغيرها من هناك ظهرت واستفحل أمرها.

فصلّى الله وسلم وبارك على هذا النبي العظيم الذي أطلعه الله عزّ وجل على ما كان وما يكون من الفتن وغيرها.

* * *

بيان الفتن المنصوص عليها والمشار إليها: فتنة قتل عثمان رضي الله تعالى عنه

[٤٨] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عثمانُ إن ولاّك الله هذا الأمر يوماً، فأراد المنافقون أن تخلعَ قميصك الذي قمّصك الله فلا تخلعه»** يقول ذلك ثلاث مرات.

رواه أحمد (١٤٩/٧٥/٦)، والترمذي (٣٤٧١)، والحاكم (١٠٠/٩٩/٣) كلاهما في المناقب، وابن ماجه في المقدمة (١١٢) وحسّنه الترمذي وصححه الحاكم وهو كما قال.

قوله: «قميصك» كنى بالقميص عن الخلافة وهو يفيد أن معارضيه كان فيهم منافقون وخاطئون.

[٤٩] وعن الأشعث الصنعاني أن خطباء قامت في الشام وفيهم رجال من أصحاب النبي ﷺ فقام آخرهم رجل يقال له: مرة بن كعب فقال: لولا حديث سمعته من رسول الله ﷺ ما قمت، وذكر الفتن فقربها، فمرّ

رجلٌ مُقَنَّعٌ بثوب فقال: هذا يومئذ على الهدى، فقمت إليه فإذا هو عثمان بن عفان، فأقبلت عليه بوجهه فقلت هذا؟ قال: نعم.

رواه أحمد (٢٣٥/٤)، والترمذي (٣٤٧٠)، والحاكم (١٠٢/٣) وصححه الترمذي والحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي، ورواه أحمد (٢٣٦/٤) وابن ماجه (١١١) عن كعب بن مرة، وأخرجه عبدالرزاق في مصنفه (٣٦٧/١١) وأحمد عن كعب بن عجرة بدل مرة بن كعب.

قوله: «مقنع» بضم الميم وفتحتين مع تشديد النون، أي: وضع ثوباً على رأسه تحت عمامته.

في هذين الحديثين إشارة إلى ما حصل للإمام سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه وأنه كان على الحق في الفتنة التي أصابته، ويؤيده الحديث المتقدم في فضائله وفيه: **«ائذن له وبشّره بالجنة على بلوى تصيبه»** وهو في الصحيح، بل كان في ذلك على عهد من رسول الله ﷺ.

[٥٠] فعن أبي سهلة قال: قال لي عثمان يوم الدار إن رسول الله ﷺ قد عهد إليّ عهداً فأنا صابرٌ عليه.

رواه الترمذي في المناقب (٣٤٧٣) وحسّنه وصححه.

وكان السبب في الفتنة التي نزلت به ما ذكره الحافظ في «الفتح» ملخصاً من كتب التاريخ: أن أمراء الأمصار كانوا من أقاربه؛ كان بالشام كلها معاوية، وبالبصرة سعيد بن العاص، وبمصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وبخراسان عبدالله بن عامر. وكان من حج منهم يَشْكُون من أميره، وكان عثمان لين العريكة، كثير الإحسان والحلم، وكان يستبدل بعض أمرائه فيرضيهم، ثم يعيده بعدُ إلى أن رحل أهل مصر يشكون من ابن أبي سرح فعزله، وكتب لهم كتاباً بتولية محمد بن أبي بكر الصدّيق، فرضوا بذلك، فلما كانوا في أثناء الطريق رأوا راكباً على راحلة فاستخبروه فأخبرهم أنه من عند عثمان باستقرار ابن أبي سرح ومعاقبة جماعة من أعيانهم، فأخذوا الكتاب ورجعوا وواجهوه به فحلف أنه ما كتب ولا أذن، فقالوا: سلّمنا كاتبك، فخشي عليه منهم القتل، وكان كاتبه مروان بن الحكم وهو ابن

عمه، فغضبوا وحصروه في داره، واجتمع جماعة يحمونه منهم فكان ينهاهم عن القتال إلى أن تسوّروا عليه من دار إلى دار فدخلوا عليه فقتلوه فعظم ذلك على أهل الخير من الصحابة وغيرهم... إلخ.

وقال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم: وأما عثمان رضي الله تعالى عنه فخلافته صحيحة بالإجماع، وقتل مظلوماً، وقتلته فسقة لأن موجبات القتل مضبوطة، ولم يجرِ منه ما يقتضيه، ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة وإنما قتله همج رعاع من غوغاء القبائل وسفلة الأطراف والأرذال تحزّبوا وقصدوه من مصر فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعه فحصروه حتى قتلوه رضي الله تعالى عنه.

وقد ذكرت قصة قتله مبسوطة في كتابي (فضائل الصحابة).

وكانت هذه الفتنة هي أول فتنة فرّقت بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم وفتحت باب القتال بينهم.

* * *

فتنة وقعة الجمل

[٥١] عن أبي رافع رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «**إنه سيكون بينك وبين عائشة أمرٌ**» قال: أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**» قال: أنا؟! قال: فأنا أشقاهم يا رسول الله، قال: «**لا ولكن إذا كان ذلك فارددها إلى مأمنها**».

رواه أحمد (٦/٣٩٣)، والبزار. قال الهيثمي في المجمع (٧/٢٣٤) رجاله ثقات. وقال الحافظ في الفتن من الفتح (١٦/١٦٥) بسند حسن.

فهذا الحديث الشريف مع كونه يتضمن معجزة للنبي ﷺ بإخباره بمحاربة السيدة عائشة الإمام علياً يشير إلى أمرين اثنين هامَّين، أحدهما: صواب الإمام علي رضي الله تعالى عنه وأنه الأولى بالحق، وأنه لم يكن شقياً في وقعة الجمل. ثانياً: خطأ مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها في

اجتهادها ذلك، كما أنها لم تخرج بفعلها وخروجها مع طلحة والزبير عن زوجيتها لرسول الله ﷺ بل لا تزال موضع احترام وتعظيم، ولذلك أمر النبي ﷺ الإمام علياً أن يردها إلى بيتها ومحل أمنها رضي الله تعالى عنهما.

[٥٢] وقد جاء عن أم سلمة رضي الله تعالى عنها عنه ﷺ أنه قال لعلي رضي الله تعالى عنه: «**إن وليت من أمرها** ـ يعني عائشة ـ **شيئاً فارفق بها**».

رواه الحاكم (١١٩/٣) وصححه على شرط الشيخين.

وقد امتثل الإمام على ما أمره به ﷺ فأحسن إليها وردها إلى المدينة مكرَّمة محترمة.

[٥٣] وعن قيس بن أبي حازم قال: لما أقبلت عائشة رضي الله تعالى عنها فنزلت بعض مياه بني عامر نبحت عليها الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: الحوأب، قالت: ما أظُنُّنِي إلا راجعة، فقال لها بعض من كان معها: بل تقدمين فيراكِ المسلمون فيُصلِحُ الله ذات بينهم، فقالت: إن النبي ﷺ قال ذات يوم: «**كيف بإحداكن تنبحُ عليها كلاب الحوأب؟**».

رواه عبدالرزاق (٣٦٥/١١)، وأحمد (٩٧/٥٢/٦)، وابن أبي شيبة (٢٦٠/٢٥٩/١٥)، وابن حبان بالإحسان (٦٧٣٢)، والحاكم (١٢٠/٣) وسنده صحيح على شرط الشيخين عند بعضهم.

قوله: «فقال لها بعض...» إلخ، القائل هو الزبير كما عند أحمد. وقوله: «الحوأب» بفتح الحاء وسكون الواو بعده همزة مفتوحة. وقوله: «كيف بإحداكن» فيه تلميح بذم صاحبة ذلك وتعجيب من حالها مع مقامها العالي النزيه رضي الله تعالى عنها.

[٥٤] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال لنسائه: «**أيتكُنَّ صاحبة الجمل الأذبَب؟ تخرجُ حتى تنبحها كلاب الحوأب يُقتل عن يمينها وعن شمالها قتلى كثيرٌ وتنجو بعدما كادت**».

رواه البزار، قال الهيثمي في المجمع (٢٣٤/٧) رجاله ثقات.

قوله: «الجمل الأدبب» بهمزة مفتوحة ودال ساكنة ثم موحدتين الأولى منهما مفتوحة وهو الجمل الكثير الشعر، وكان ذلك مركوب عائشة في الوقعة، فهذه الأحاديث كلها تنص على وقعة الجمل، وأن عائشة رضي الله تعالى عنها ستكون في جملة الجيش وأنه سيقتل دونها قتلى كثير وأنها في سيرها وطريقها ستمر على ماء لبني عامر يقال له: الحوأب وتنبح عليها كلابه، وقد وقع كل ذلك مصداقاً لما أخبر به ﷺ.

وسبب هذه الفتنة العمياء والوقعة الشنعاء هو امتداد من فتنة عثمان رضي الله تعالى عنه، فإنه لما قتل وبويع الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكان من المبايعين له طلحة والزبير رضي الله تعالى عنهما كلماه في شأن قتلة عثمان ليقتصوا منهم، فتريث لذلك وقال لهما: حتى تتم البيعة ويأتي أهله للمطالبة بدمه فحينئذٍ نحكم فيهم، فخالف طلحة والزبير. . . فلم يلبثا أن خرجا قاصدين البصرة بصحبة عائشة للمطالبة بقتلة عثمان، فلما بلغ ذلك علياً خرج وراءهم بجيش ورأى أنهم نكثوا البيعة، فلما لحق بهم بالبصرة كلمهم في ذلك وأقنعهم رجعوا للحق، لكن قتلة عثمان وكان أغلبهم من الكوفة في جيش الإمام علي تآمروا ليلاً وقالوا: إن وقع الصلح فسوف يقتص منا، فنشبوا القتال فثار الجمعان فكان ما كان بدون علم من رؤساء الفريقين، فقتل من الجانبين عشرات الألوف.

وقد اتفق العلماء والأئمة رحمهم الله تعالى على أن خروج طلحة والزبير وعائشة رضي الله تعالى عنهم لهذا الصلح والمطالبة بدم عثمان في ذلك الوقت بالذات كان خطأً عظيماً منهم رضي الله تعالى عنهم.

وقالوا: إن الحق كان في جانب الإمام علي رضي الله تعالى عنه وكان الآخرون مجتهدين فأخطأوا وهم مغفور لهم، وكيف لا وفيهم طلحة والزبير وهما من العشرة المبشَّرين بالجنة ومن البدريين. . . وفيهم أم المؤمنين حبيبة رسول الله ﷺ وزوجته في الدنيا والآخرة مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، لكن الحق لا يستحيي من أحد، وهو أولى من كل قريب وحبيب وصديق.

[٥٥] ولذلك قال عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما في ذلك الموقف وهو من أكابر أنصار الإمام علي وشيعته المخلصين:

إن عائشة قد سارت إلى البصرة ووالله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي؟

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٦٩) من طريق عبدالله بن زياد الأسدي قال: لما سار طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة بعث علي عمار بن ياسر وحسن بن علي فقدما علينا الكوفة فصعدا المنبر فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه وقام عمار أسفل من الحسن فاجتمعنا إليه فسمعت عماراً يقول: إن عائشة... فذكره.

قال الحافظ في «الفتح»: ومراد عمار بذلك أن الصواب في تلك القصة كان مع علي، وأن عائشة مع ذلك لم تخرج بذلك عن الإسلام، ولا أن تكون زوجة النبي ﷺ في الجنة، فكان ذلك يُعد من إنصاف عمار وشدة ورعه وتحرّيه قول الحق. اهـ.

ومن المنصفين في هذا الشأن أيضاً أبو بكرة.

[٥٦] فقد قال رضي الله تعالى عنه: لقد نفعني الله، وفي رواية: لقد عصمني الله بكلمة أيام الجمل: لما بلغ النبي ﷺ أن فارساً ملّكوا ابنة كسرى، وفي رواية: لما هلك كسرى قال النبي ﷺ: **«مَن استخلفوا؟»** قالوا: ابنته، فقال: **«لن يُفلِحَ قومٌ ولوا أمرهم امرأة»**.

رواه أحمد (٥/٤٧/٥١)، والبخاري في الفتن (١٦/١٦٤/١٦٦)، والترمذي والنسائي وغيرهم، وقد تقدم في الإمارة والخلافة.

وظاهر هذا الحديث يدل على عدم جواز ولاية المرأة الولاية العامة بما فيها الرئاسة والخلافة والوزارة والسفارة والقضاء والقيادة وغير ذلك من الولايات التي تحتاج المرأة فيها إلى الاختلاط بالرجال والبروز لهم والاجتماع بهم، وكل أمة أو قوم خالفوا ذلك فولوا المرأة على شأن من شؤونهم العامة فلن يفلحوا أبداً وسيكون مآلهم الانهيار والهلاك طال الزمان

أو قصر. وهذا مذهب كل الأئمة والعلماء إلا بعض الحنفية، فأجازوا للمرأة تولي القضاء للنساء...

وانظر أقوال الأئمة في منعها ذلك عند ابن حزم في «المحلى» (٤٥/١)، و«المغني» لابن قدامة (٣٦/١٠)، وشرح المهذب (١٦٣/١٨) وانظر ما سبق في الخلافة وكتابي (المرأة المتبرجة).

أما رئاسة السيدة عائشة لذلك الجيش فقد أجمع العلماء على خطئها وهي نفسها ندمت على ما صنعت وكانت تبكي على ذلك.

ولا يوجد في تاريخ الإسلام بداية من زمان رسول الله ﷺ وأيام الخلفاء الراشدين وزمان السلف أن امرأة وليت شيئاً للخلفاء وما يذكر عن عمر رضي الله تعالى عنه من توليته امرأة وظيفة في السوق هو باطل لا يصح عنه.

* * *

فتنة وقعة صفين

[٥٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعةُ حتى يقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مَقتلةٌ عظيمة دعواهما واحدةٌ».**

رواه البخاري (١٩٦/١٦)، ومسلم (١٣/١٢/١٨) كلاهما في الفتن، ورواه البخاري أيضاً في دلائل النبوة (٤٢٨/٦).

قوله: «فئتان» أي: جماعتان. قوله: «دعوتهما واحدة» أي: كل من الفئتين يطلب الحق، وهذا قد حصل بين الإمام علي وبين معاوية فإنهما اقتتلا ليالي بصفّين وكان كل منهما يدعو إلى ما يراه حقاً وكان الحق مع الإمام علي باتفاق أهل السنة، وكان معاوية باغياً عليه، ويدل لهذا حديث:

[٥٨] أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه في قصة بناء المسجد

النبوي. . . وفيه قوله ﷺ: **«ويحَ عمارٌ تقتُله الفئةُ الباغيةُ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار»** فجعل عمار يقول: أعوذ بالله من الفتن.

رواه أحمد (٩١/٥/٣)، والبخاري في المساجد (٨٨/٨٧/٢) وفي الجهاد (٣٧٠/٦) وغيرهما. ورواه مسلم في الفتن (٤٠/٣٩/١٨) بلفظ: **«بؤس ابن سمية تقتلك فئة باغية»** ورواه أيضاً عن أم سلمة وأبي قتادة. ورواه الترمذي في المناقب عن أبي هريرة (٣٥٧٢) بلفظ: **«أبشِر يا عمار تقتلك الفئة الباغية»** وحسّنه وصححه، وهذا الحديث متواتر. قال الحافظ في الإصابة: إنها أحاديث متواترة. وأورده في الفتح عن جماعة ثم قال: غالب طرقه صحيحة أو حسنة، وفيه عن جماعة آخرين يطول عددهم. وهكذا ذكره الحافظ السيوطي والإمام ابن جعفر الكتاني في الأحاديث المتواترة.

فهذا الحديث ظاهر في وقعة صفّين لأن عماراً قتل فيها من طرف جيش معاوية وهو نصّ في أنه كان باغياً على الإمام علي يدعو إلى النار، وأن الإمام علياً كان محقاً يدعو إلى الجنة.

قال النووي في شرح مسلم (٤٠/١٨) قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة في أن علياً رضي الله تعالى عنه كان محقاً والطائفة الأخرى بغاة. . .

وكان السبب في هذه الفتنة قتل عثمان أيضاً، فإنه لما قتل وبويع الإمام علي رضي الله تعالى عنه من طرف المهاجرين والأنصار وأهل الحل والعقد بعث إلى معاوية بالشام أن يبايعه، فامتنع واعتذر بأنه لا يبايع حتى يأخذ له الثأر لابن عمه عثمان، فأجابه الإمام علي بأن يدخل فيما دخل فيه الناس ثم يتحاكمون إليه فيقتص لهم من الجناة، فأصرّ معاوية على رفض البيعة، فخرج علي للعراق، وبعد وقعة الجمل استنفر معاوية الشوام لمحاربته فالتقى الجيشان بصفّين بكسر الصاد والفاء وتشديدها، موضع بالعراق على شاطىء الفرات بين الرقة وبالسر، فكانت تلك الوقعة المشؤومة التي ذهب ضحيتها سبعون ألف مسلم؛ خمسة وعشرون ألفاً من أصحاب الإمام علي وخمسة وأربعون ألفاً من أصحاب معاوية، وكان جيش علي مائة

وعشرين ألفاً، وجيش معاوية تسعين ألفاً، ودامت هذه الحرب مائة يوم وعشرة أيام، وكانت الوقائع تسعين وقعة.

وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم انقسموا في هذه الفتنة ثلاث فرق: فرقة كانت مع الإمام علي وهم الأكثر، إذ كان معه سبعون بدرياً، وسبعمائة من أهل بيعة الرضوان، وأربعمائة من بقايا سائر المهاجرين والأنصار، وباقيهم من سائر الآفاق، وفرقة كانت مع معاوية وهم قلائل، وممن عرف منهم: عمرو بن العاص وابنه عبدالله، والمغيرة بن شعبة، والنعمان بن بشير، ومعاوية بن خديج، ومسلمة بن مخلد في آخرين قلائل.

وقسم اعتزلوا الفريقين، ولم يهتدوا لفريق الصواب، وكان منهم: ابن عمر، وسعد بن أبي وقاص، وأسامة بن زيد، وأبو بكرة وغيرهم، ولما قتل عمار وكان في جيش الإمام علي اتضح الحق ولحق جماعة ممن اعتزلوا بجيش الإمام علي، كما ندم آخرون على عدم نصرته والقتال معه.

والحمد لله الذي عافانا من تلك الفتن، ولو كنا من أهلها لنصرنا الإمام علياً وقاتلنا معه حتى الموت.

* * *

فتنة قتال الخوارج

[٥٩] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً إذ أتاه ذو الخُوَيْصِرَة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: **«ويلك، ومَن يعدل إذا لم أعدل، قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل»** فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضربَ عُنُقَه، فقال: **«دعه فإن له أصحاباً يَحقِرُ أحدُكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرُقون من الدين كما يمرُق السهم من الرمِيَّة»**، قال: **«آيتهم رجلٌ أسودُ إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البَضْعَة تَدَرْدَرُ، يخرجون على حين فرقة من الناس»**.

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعتُ هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتُمِسَ فأتِي به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ.

رواه أحمد (٥٧/٥٦/٣)، والبخاري في دلائل النبوة (٤٣٠/٧) وفي أحاديث الأنبياء (١٨٧/٧) وفي المغازي (١٣١/١٣٠/٩) وفي استتابة المرتدين (٣٢٤/٣٢٠/١٥)، ومسلم في الزكاة (١٦٧/١٦٢/١٦١/٧)، وأبو داود (٤٧٦٣) وغيرهم.

وفي رواية للبخاري: «**يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»، وفي رواية لمسلم: «**يخرجون في فرقة من الناس سيماهم التحليق**»، قال: «**هم شر الخلق أو من شر الخلق يقتلهم أدنى الطائفتين إلى الحق**».

وفي رواية لأبي داود عن أُبي وعن أنس: «**هم شر الخلق والخليقة، طوبى لمن قتلهم وقتلوه سيماهم التحليق**».

وفي رواية لمسلم (١٦٨/٧)، والنسائي في الكبرى (١٥٩/١٥٨/٥): «**تمرُق مارقة عن فرقة من المسلمين...**» إلخ.

قوله: «ويلك» أي: لك الهلاك. وقوله: «تراقيهم» جمع ترقوة وهي الحناجر. «يمرقون» أي: يخرجون. «تدردر»: بفتح الدالين بينهما راء ساكنة أي: تتحرك. «التحليق» أي: حلق رؤوسهم. «أدنى» أي: أقرب الطائفتين. قوله: «المخدج» أي: الناقص الخلقة.

[٦٠] وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله**».

وفي رواية: «**يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، يحسبون**

أنه لهم وهو عليهم، ولو يعلم الجيش الذين يصيبونهم ما قضى الله لهم على لسان نبيهم ﷺ لاتكلوا عن العمل... وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد، وليس له ذراع على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعرات بيض».

قال علي: فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذراريكم وأموالكم، والله إني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله... وفيه قول علي: التمسوا فيهم المُخَدَّجَ، فالتمسوه فلم يجدوه، فقام بنفسه حتى أتى ناساً قد قتل بعضهم على بعض، قال: أخرجوهم فوجدوه مما يلي الأرض فكبّر ثم قال: صدق الله وبلغ رسوله، فقام إليه عبيدة السلماني فقال: يا أمير المؤمنين الله الذي لا إلٰه إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ؟ فقال: **«إي، والله الذي لا إلٰه إلا هو»** حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف.

روى جميعها مسلم في كتاب الزكاة (١٧٣/١٦٩/٧)، ورواه البخاري في استتابة المرتدين (٣١٦/٣١٤/١٥) باللفظ الأول. ورواه أحمد (٩٢/٩١/١) وأبو داود (٤٧٦٨) بالرواية الثانية.

[٦١] وعن سهل بن حُنَيف رضي الله تعالى عنه أنه سئل هل سمعت النبي ﷺ يذكر الخوارج؟ فقال: سمعته يقول: **«يَتيهُ قومٌ قِبَلَ المشرق محلقة رؤوسهم».**

رواه مسلم (١٧٥/٧).

[٦٢] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: **«شر قتلى تحت أديم السماء، وخير قتيل من قتلوه، كلاب النار، قد كان هؤلاء مسلمين فصاروا كفاراً»،** فقيل له: يا أبا أمامة هذا شيء تقوله؟ قال: بل سمعته من رسول الله ﷺ.

رواه أحمد (٢٥٦/٢٥٣/٥)، والترمذي في تفسير سورة آل عمران (٢٨٠٨) وابن ماجه (١٧٦) بسند حسن.

قوله: «أحداث الأسنان» أي: شباب. «سفهاء الأحلام» أي: لا عقول لهم ناضجة، «يقولون من خير قول البرية» فقد كانوا يقولون: لا حكم إلا للّه.

فهذه الأحاديث صريحة في الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي رضي الله تعالى عنه، وكان السبب في ذلك أنه لما أشرف جيش معاوية على الهزيمة بَيَّت أصحاب معاوية مكيدة ضد الإمام علي برئاسة عمرو بن العاص فدعوا إلى التحكيم ورفعوا المصاحف فقبل الإمام علي رضي الله تعالى عنه فخلعوه وأقرُّوا معاوية، فخرجت جموع غفيرة من جيش الإمام علي وكفَّروه وكفَّروا كل من وافق على التحكيم، وقالوا: لا حكم إلا للّه، واستباحوا دماء مخالفيهم وأموالهم، وكان فيهم كثير من القراء والزهّاد وبعض الصحابة، ومنهم ذو الخويصرة التميمي الذي قال للنبي ﷺ: اعدل فإن هذه قسمة لم يرد بها وجه الله. وفيهم المخدج الذي لا ذراع له وإنما إحدى عضدَيْه على رأسها مثل ثدي المرأة تتحرك.

فبعث الإمام علي إليهم عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما يذكرهم ويدعوهم إلى الرجوع إلى الحق فتاب ورجع منهم عدد كبير وأصرّ الباقون على خروجهم فأخافوا الطريق، وأراقوا الدماء، فخرج إليهم الإمام فقاتلهم قتالاً شديداً حتى هزمهم وبحث عن المخدج فوجده، وكان ذلك علامة على صواب الإمام رضي الله تعالى عنه دونهم، وظهرت معجزة النبي ﷺ في إخباره بهم وبصفاتهم وأنهم شر الخليقة يقتلون المسلمين ويتركون الوثنيين، يحسنون القول ويسيئون الفعل مع كثرة صلاتهم وقراءتهم القرآن، وأنهم كلاب النار شر القتلى، طوبى لمن قتلهم وقتلوه.

ووقعتهم مع الإمام هي المعروفة بوقعة النهروان.

وهؤلاء هم أصل الخوارج الذين صارت بعد ذلك لهم مبادىء وعقائد وفروع متطرفة مخالفة لأهل السنة والجماعة.

وقد قدّمت بعض الكلام عليهم في الخلافة وتوابعها فارجع إليها، كما ذكرت ذلك مفصّلاً في كتابيّ: «فضائل الصحابة»، وفي «الأنوار الباهرة».

* * *

❁ فتنة قتل الإمام علي رضي اللّه تعالى عنه

[٦٣] عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال له ولعلي: «**ألا أُحدِّثكما بأشقى الناس؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «**أُحَيْمِرُ ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه** - يعني قرنه - **حتى تبْتَلَّ هذه من الدم** - يعني لحيته -».

رواه أحمد (٢٦٣/٤)، والحاكم (١٤١/٣) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وكذا صححه السيوطي في تاريخ الخلفاء.

وللحديث شواهد عن جابر بن سمرة وصهيب وغيرهما.

قوله: «أحيمر» هو تصغير أحمر. و«عاقر الناقة»: يعني ناقة صالح عليه السلام، وكان اسمه قُدَار على وزن غراب. وقوله: «قرنه» يعني رأسه.

[٦٤] وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: إن مما عهد إليّ النبي ﷺ أن الأمةَ تستغْدِرُ بي بعده.

رواه الحاكم (١٤٠/٣/١٤٢/١٤٣) وصححه ووافقه الذهبي.

كان السبب في قتل الإمام علي واستشهاده رضي الله تعالى عنه أنه لما وقع التحكيم بينه وبين معاوية وخرج عليه الخوارج وكفّروه كما كفّروا طلحة والزبير وعثمان ومعاوية وكل من كان معهم، وقاتلهم الإمام علي رضي الله تعالى عنه وهزمهم وانتصر عليهم، انتدب ثلاثة من الخوارج وتآمروا على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص باعتبار أن هؤلاء الثلاثة هم قادة الفتنة، وتعاهدوا على أن يكون ذلك في ليلة واحدة ليلة حادي عشر أو سابع عشر من رمضان وذلك سنة أربعين من الهجرة. ثم توجه كل منهم إلى المصر الذي فيه صاحبه فقدم اللعين الأشقى عبدالرحمٰن بن مُلْجم المرادي الكوفي فلقي أصحابه من الخوارج فكاتمهم ما يريدون، فلما كانت الليلة المعهودة وكانت صبيحة يوم الجمعة وقد خرج الإمام علي من الباب ينادي: أيها

الناس الصلاة الصلاة، اعترضه المقيت ابن ملجم فضربه بالسيف المسموم على رأسه فأصاب دماغه وأقام الجمعة والسبت وتوفي يوم الأحد رضي الله تعالى عنه. ذكره ابن سعد وغيره، وكان ذلك عام أربعين وعمره ثلاث وستون سنة.

ولما توفي رضي الله تعالى عنه أُخذ ابن ملجم فعذّبوه وقطعوا بعض أطرافه ثم قتلوه وأحرقوه، علماً بأن الإمام علياً كان قد أوصاهم به خيراً وأمرهم أن يُحسنوا قتله. وقد أساء وما أحسن عمران بن حطان الخارجي حيث قال يمدح ابن ملجم:

يَا ضَرْبَةً مِن تَقِيٍّ ما أرادَ بِهَا ... إلا لِيَبْلُغَ مِن ذي العرش رضوانَا
إنـي لأذكـرُهُ يـومـاً فـأحْـسِـبُـهُ ... أوْفَى البـرِيَّـةِ عِـنـدَ الـلّـهِ ميـزانَـا
أكـرم بـقـوم بـطـونُ الأرض أقبُـرهُـم ... لـم يُخَلِّطُوا دينَهـم بغيـاً وعُدْوَانَا

وقد أحسن وأجاد الإمام أبو الطيب الطبري رحمه الله تعالى حيث قال:

إنـي لأبـرأُ مِـمّـا أنـتَ قـائِـلُـهُ ... في ابن مُلْجِمِ الملعون بُهْتَانَا
إنـي لأذكـره يـومـاً فـألـعـنُـه ... ديناً وألعن عِمرانَ بن حِطَّانا
عليكَ ثُم عليه الدَّهرَ مُتَّصِلاً ... لـعـائـنُ الله إسـراراً وإعـلانـا
فـأنـتـم مـن كـلاب الـنـار جـاء بـذا ... نـصُّ الشريعة بـرهـانـاً وتِبْيَـانَـا

فهنيئاً للإمام علي عليه السلام بالشهادة على يد هذا اللعين، إذ الشهادة منزلة عالية لا ينالها ويحرز عليها إلا المصطفون من خلق الله تعالى وقليل ما هم، إذ ليس كل من يُقتل يكون شهيداً، فهيهات هيهات. فنسأل الله عزّ وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ثم بنبيه وابنته الزهراء والحسنين والمهاجرين والأنصار وباقي الصحابة الكرام أن يمنَّ علينا ويختم لنا بالشهادة، آمين، والحمد للّه رب العالمين.

* * *

❁ فتنة قتل الحسين عليه السلام

[٦٥] عن عبدالله بن نُجَي عن أبيه أنه سار مع علي وكان صاحبَ مطهرته، فلما حاذى نينوى وهو منطلق إلى صِفِّين فنادى علي: اصبر أبا عبدالله، اصبر أبا عبدالله بشَطِّ الفرات. قلت: وما ذاك؟ قال: دخلتُ على النبي ﷺ ذات يوم وعيناه تفيضان، قلت: يا نبي الله أغضبكَ أحدٌ؟ ما شأن عينيك تفيضان؟ قال: «**بل قام من عندي جبريل قبلُ فحدّثني أن الحُسين يُقتل بشط الفرات**»، قال: فقال: «**هل لك إلى أن أُشِمَّك من تربته؟**» قال: «قلت: نعم، فمدّ يده فقبض قبضة من تراب فأعطانيها فلم أملك عينَي أن فاضتا».

رواه أحمد (٨٥/١) بسند صحيح، وأورده الهيثمي (١٨٧/٩) برواية أحمد والبزار والطبراني، وقال: رجاله ثقات.

«نينوى»: بكسر النون الأولى وفتح الثانية آخره ألف مقصورة: بلدة بالعراق كان منها نبي الله يونس على نبينا وعليه الصلاة والسلام. «شط» بفتح الشين: جانب الوادي. «الفرات» بضم الفاء: نهر عظيم بالعراق ينحدر من جبال تركيا كدجلة ويشق العراق ثم يصب في الخليج العربي. «تفيضان» بفتح التاء، أي: بالدمع.

في هذا الحديث معجزة للنبي ﷺ كسابقيه، وعلم من أعلام النبوة، حيث أخبر بفتنة قتل الحسين قبل وقوعها بعدة عقود مع تعيين القطر والموضع فصدق الله ذلك، ووقع كما قال.

وسبب هذه الفتنة أن معاوية كان قد عهد إلى ابنه يزيد بالخلافة في حياته، فلما مات بايعه أهل الشام، ثم بعث إلى أهل المدينة من يأخذ له البيعة فامتنع الحسين وابن الزبير في آخرين من بيعته نظراً لكونه غير أهل ولا مستحق للخلافة، ثم خرج الحسين وابن الزبير لمكة المكرمة فجعل أهل العراق يكاتبون الحسين بالقدوم إليهم ليبايعوه، وجاءته من طرفهم عدة

رسائل وكتب، فبعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل ليأخذ له البيعة منهم، فذهب ونزل الكوفة، فاجتمع إليه نحو من ثمانية عشر ألفاً فبايعوه على إمرة الحسين وحلفوا له لَيَنْصُرُنَّه بأنفسهم وأموالهم. فبلغ ذلك عبيدالله بن زياد وكان أمير البصرة من قبل يزيد، فخرج إلى الكوفة بعد أن ضمها إليه يزيد فجمع أشراف الناس وأمراء القبائل فخطبهم ورغّبهم، ورهّبهم، وخذل الناس وأفسد كل من كاتب الحسين وبايعه بواسطة مسلم بن عقيل، فتفرّق الجميع وبقي مسلم بن عقيل وحده وهام على وجهه واختفى عند امرأة ثم دُلَّ عليه فألقي عليه القبض وأُتي به ابن زياد فقتله. وخرج الحسين عليه السلام متوجهاً للعراق في أهل بيته وأقاربه وذويه بعد أن حذّره جماعة من أهله وذوي الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ منهم عبدالله بن عمر وقالوا له: لك العبرة بما فعله أهل العراق بأبيك وأخيك.

[٦٦] وقال له ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: إن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فخيَّره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة ولم يرد الدنيا، وإنك بضعةٌ من رسول الله ﷺ كذلك يريد منكم، فأبى، فاعتنقه ابن عمر وقال: أستودعك الله والسلام.

رواه البزار والطبراني وابن حبان (٦٩٦٨) بسند حسن، وقال الهيثمي (١٩٢/٩): رجال البزار ثقات.

ولما وصل الحسين العراق وجد الأمر على خلاف ما كان يظن، فبعث إليه عبيدالله بن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف مقاتل أكثرهم ممن كان يكاتبه، وبايعه بواسطة ابن عمه مسلم بن عقيل وطلبوا منه النزول على حكم عبيدالله بن زياد وبيعته ليزيد فأبى الاستسلام لذلك فقاتلوه ومنعوه الماء ثلاثة أيام فقاتلهم هو وأصحابه وأهل بيته قتال الأبطال حتى قتل بين يديه جميع من كان معه، وكانوا لا يزيدون على اثنين وسبعين رجلاً... وبقي وحده، ثم هاجموه وأحدقوا به وهو يقاتل يميناً وشمالاً حتى أثخنوه ثم قتلوه وحزوا رأسه ووطأوا جسده الشريف بالخيل وداسوه بحوافيرها حتى ألصقوه بالأرض.

هكذا فعل الأمويون وأذنابهم ببضعة رسول الله ﷺ وريحانته من الدنيا، جازاهم الله بما يستحقون.

[٦٧] وكان قد قُتِلَ معه في هذه المعركة الأليمة من أهله وأقاربه: أولاده الأربعة: علي الأكبر، وعبدالله، وأبو بكر، والقاسم. أبناء الحسين عليهم السلام وإخوته الخمسة: العباس، وجعفر، وعبدالله، وعثمان، وأبو بكر، أولاد الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام وولدا عمه جعفر بن عقيل، وقبله مسلم بن عقيل وابن عمه محمد بن جعفر، وابن ابن عمه عون بن عبدالله بن جعفر رضي الله تعالى عنهم.

رواه الطبراني. قال الهيثمي (٩/١٩٨): بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: قتل مع الحسين بن علي عليهما السلام ستة عشر رجلاً من أهل بيته والله ما على ظهر الأرض يومئذ أهل بيت يشبهونهم.

وعلى أيٍّ، فلم يتقدم في تاريخ الإسلام فجيعة ولا رزية أفظع وأقبح من قتل الحسين وأهل بيته.. على كثرة ما وقع في الإسلام من نكبات.

ولذلك مقت كل مسلم يحب الله ورسوله وأهل بيته يزيد بن معاوية وعبيدالله بن زياد منذ ذلك الحين حتى وقتنا هذا وإلى ما شاء الله وبقي مسلم على وجه الأرض.

مـاذَا تـقـولُـون إن قـال الـنـبيّ لـكُـم ... مـاذا فـعـلـتُـم وأنـتُـم آخِـرُ الأمـمْ
بـعِـتْـرَتِـي وبـأنـصـاري وذُرّيّـتِـي ... منهم أُسارى وقَتْلَى ضُرِجُوا بدَمْ
ما كانَ هذا جَزَائِي إذا نَصَحْتُ لكُمْ ... أن تـخـلـفـونـي فـي ذَوِي رَحِـمْ
أتَـرْجُـو أمـةٌ قـتـلـتْ حُـسَـيْـنـاً ... شـفـاعـةَ جـدِّه يـومَ الـحِـسَـابْ

* * *

[٦٨] عن ثروان بن ملحان قال: كنا جلوساً في المسجد فمرّ علينا عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما فقلنا له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ يقول في الفتنة، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكون بعدي قوم يأخذون المُلْكَ يَقتلُ عليه بعضُهم بعضاً**»، قال: قلنا له: لو حدّثنا غيرُك ما صدّقناه، قال: «**فإنه سيكون**».

رواه أحمد (٢٦٣/٤)، وابن أبي شيبة، وأورده الهيثمي في المجمع (٢٩٢/٧) برواية أبي يعلى (١٦٥٠) والطبراني، وقال: رجاله رجال الصحيح غير ثروان وهو ثقة وله شاهد عن جابر رواه الطبراني في الأوسط (٦٤٦٥) ورجاله ثقات غير عبد الأول المعلم، فقال في المجمع (٢٩٢/٧): لم أعرفه.

هذا من أعلام النبوة، وقد صدقه الواقع والتاريخ، فكم أُريقت من دماء وانتُهكت من حرمات ونُهبت من أموال وقُتل من شيوخ ونساء وأطفال وأبرياء عبر التاريخ في سبيل الاستيلاء على البلاد وطلب المُلك والرئاسة حتى وجد بكثرة من قام ضد والده أو أخيه أو عمه... وحتى في المائة الأولى وقع ما وقع من سفك الدماء في طلب المُلك لإقامة الخلافة كما في الأثر التالي:

[٦٩] عن أبي المنهال قال: لما كان ابن زياد ومروان بالشام، ووثب ابن الزبير بمكة، ووثب القراء بالبصرة، فانطلقت مع أبي إلى أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه حتى دخلنا عليه في داره وهو جالس في ظل عُلِّيّة له من قصَب، فجلسنا إليه فأنشأ أبي يستطعمه الحديث فقال: يا أبا برزة ألا ترى ما وقع فيه الناس؟ فأول شيء سمعتُه تكلم به: إني احتسبتُ عند الله أني أصبحتُ ساخطاً على أحياء قريش، إنكم يا معشر العرب كنتم على الحال الذي علمتم من الذلة والقلة والضلالة، وإن الله أنقذكم بالإسلام وبمحمد ﷺ حتى بلغ بكم ما ترون، وهذه الدنيا التي أفسدت بينكم، إن ذاك الذي بالشام والله إن يقاتل إلا على الدنيا، إن هؤلاء الذين بين أظهركم

والله إن يقاتلون إلا على الدنيا، وإن ذاك الذي بمكة والله إن يقاتل إلا على الدنيا.

رواه البخاري في الفتن (١٦/١٨٣/١٨٥).

«عُلّية»: بضم العين وكسرها وكسر اللام وتشديدها وفتح الياء المشددة هي الغرفة. قوله: «الذي بالشام» هو مروان بن الحكم. وقوله: «الذين بين أظهركم» هم الخوارج المعنيون بالقراء. وقوله: «الذي بمكة» هو عبدالله بن الزبير.

كان أبو برزة رضي الله تعالى عنه يرى أن هؤلاء المتنازعين المذكورين كلهم كانوا يتقاتلون على الدنيا وطلب المُلك وليس على الدين وإقامة الخلافة الراشدة، غير أن الجمهور كانوا يرون الخلافة لابن الزبير دون معارضيه، وحروب هؤلاء مع بعضهم البعض، قد أسهبت في تفاصيلها كتب تاريخ الإسلام ومنها «تاريخ الطبري» ثم «تاريخ ابن الأثير»، و«البداية والنهاية» لابن كثير فليرجع إليها من أراد الاطلاع على تفصيل ذلك.

* * *

فتنة الأحلاس وغيرها

[٧٠] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: كنا قعوداً عند رسول الله ﷺ فذكر الفِتَن فأكثر في ذكرها، حتى ذكر فتنةَ الأحلاس فقال قائل: يا رسول الله وما فتنة الأحلاس؟ قال: **«هي هَرَبٌ وحَرَبٌ، ثم فتنة السراء، دَخَنُها من تحت قدَمَيْ رجُلٍ من أهل بيتي، يزعم أنه مني وليس مني، وإنما أوليائي المتقون، ثم يصطلح الناس على رجلٍ كوركٍ على ضلَع، ثم فتنة الدُهَيماء لا تدَعُ أحداً من هذه الأمة إلا لطمَتْه لطْمةً، فإذا قيل انفضت تمادت، يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً، حتى يصيرَ الناسُ إلى فُسْطاطَيْن، فسطاط إيمان لا نفاق فيه، وفسطاط نفاق لا إيمان فيه، فإذا كان ذاكم فانتظروا الدجال من يومه أو من غده»**.

رواه أبو داود في الفتن (٤٢٤٢) بسند صحيح.

«حرب»: بفتحتين: هو ذهاب المال والأهل. «دخنها»: بفتح الدال والخاء أي: إثارتها وهيجانها وظهورها. «كورك على ضلع» أي: لا يناسبه الملك ولا يلائمه كالورك على ضلع فإنه لا يلائمه. «فتنة الدهيماء» أي: السوداء المظلمة وقيل: الداهية. «فسطاط»: الفسطاط الخيمة الكبيرة والمراد بها هنا الفرقة المنحازة عن الفرقة الأخرى.

في هذا الحديث أيضاً معجزة للنبي ﷺ وعلَم من أعلام نبوته حيث أخبر بفتن ودواهي ستصيب المسلمين في مستقبل الزمان وأنه تنزل بهم فتنة تسمى فتنة الأحلاس للزومها ودوامها وطول لبثها كلزوم الأحلاس والبسط للبيوت، وهي فتنة عظيمة يكثر فيها الفرار والمحاربة ونهب الأموال وسبي الأهل أو موتهم، ثم تصيبهم فتنة أخرى وهي فتنة النِعَم التي تسر من صحة ورخاء وعافية ويكون أصلها وظهورها من رجل يزعم أنه من أهل البيت والنبي ﷺ بريء منه لأنه ظالم فتّان لا يستحق الخلافة، وأولياء النبي ﷺ هم المتقون لا غيرهم، ثم بعد فِتَن وحروب يقع الصلح بين الناس فيبايعون رجلاً لا يستقيم له الأمر لأنه ليس أهلاً له ثم تأتي فتنة أخرى سوداء مظلمة لا تترك أحداً إلا أصابته وضربته، وتتمادى هذه الفتنة حتى إذا قيل خمدت وانتهى أمرها استمرت وبلغت غايتها، وبعد هذه العمياء السوداء يصير الناس فرقتين فرقة مؤمنة صالحة ليس في أهلها شائبة نفاق، وفرقة منافقة ليس في إحداها مؤمن فإذا مرت هذه الفتن وافترق الناس على هذا النحو حان وقت خروج الدجال.

فهذه عدة فتن تنبأ بها النبي ﷺ عن ربه عزّ وجل ولا شك أن أكثرها قد وقع ولا ندريها بالضبط وبقي منها ما يعقبه خروج الدجال، وسيأتي بيان وقت خروجه والحالة التي يخرج عندها.

* * *

❁ ثلاث فتن لا يتركن شيئاً

[٧١] عن أبي إدريس الخولاني رحمه الله تعالى كان يقول: قال حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي

كائنة فيما بيني وبين الساعة وما بي إلا أن يكون رسول الله ﷺ أسَرَّ إليّ في ذلك شيئاً لم يحدثه غيري، ولكن رسول الله ﷺ قال وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن فقال رسول الله ﷺ وهو يعد الفتن: «**منهن ثلاثٌ لا يكَدْنَ يذَرْنَ شيئاً، ومنهن فتنٌ كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار**» قال حذيفة: فذهب أولئك الرهط كلهم غيري.

رواه مسلم في الفتن (١٥/١٨).

في هذا الحديث إشارة إلى عدة فتن ستكون عظيمة هائلة دواهي تحصد الناس حصداً. وقد تكون هذه الفتن هي ما حصل في وقائع الجمل، وصفِّين، والنهروان، فإنها لم تذر شيئاً، وقد قتل فيها كثير من بقايا أفاضل الصحابة، وقد تكون مشيرة أيضاً إلى وقعة الحرة التي كانت بين أهل المدينة المنورة وجيش يزيد الذي بعثه من الشام لقتالهم عام (٦٣) من الهجرة فإنه قُتل فيها كثيرٌ من بقايا المهاجرين والأنصار دفاعاً عن مدينة الرسول ﷺ فاستشهدوا وقتل أكابر أولاد الصحابة واستحلّ جيش يزيد المدينة ثلاثة أيام وجالت الخيل في المسجد النبوي الشريف وانتهبت البيوت وافتُضّت الأبكار واستُحلّت الفروج، ثم أنزل الله تعالى بأسه بيزيد وقائد جيشه في القريب العاجل. وقد جاء عند عبدالرزاق (٣٥٨/١١) والبخاري عن سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى قال: ثارت الفتنة الأولى فلم يبقَ ممن شهد بدراً أحد، ثم كانت الفتنة الثانية فلم يبقَ ممن شهد الحديبية أحد، قال: وأظن لو كانت الثالثة لم ترفع وفي الناس صباح... فالفتنة الأولى فتنة قتل عثمان، والثانية فتنة وقعة الحرة.

* * *

فتنة قتال الروم للمسلمين واستعمارهم بلادهم

[٧٢] عن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكَلةُ إلى قَصْعَتِها**»، فقال قائل: ومن قلةٍ نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغثاءِ**

السيل، ولَيَنْزِعَنَّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، ولَيَقْذِفَنَّ الله في قلوبكم الوَهْن»، فقال قائل: يا رسول الله وما الوَهْنُ؟ قال: «حُبُّ الدنيا وكراهيةُ الموت».

رواه أحمد (٥/٢٧٨)، وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/١٨٢) وسنده صحيح عند أحمد، وله شاهد عن أبي هريرة رواه أحمد (٢/٣٥٩) وسنده ضعيف.

«يوشك»: أي يقرب. «تداعى» بفتحات، أي: تجتمع عليكم ويدعو بعضهم بعضاً إلى محاربتكم. «الأكلة» بفتحات: جمع آكل. «غثاء» بضم الغين، هو ما يجمعه السيل من القمامة والزبل. «الوهن» بفتح الواو وسكون الهاء، هو الضعف.

وفي الحديث علَم من أعلام النبوة ومعجزة ظاهرة للنبي ﷺ حيث أخبر باجتماع الأمم الكافرة على محاربة المسلمين، وقد حصل هذا مراراً، لكن الحديث يتجلى في الحروب الصليبية في القرون الوسطى حيث اجتمعت دول أوروبا وهاجمت بلاد المسلمين حتى أخذوا منهم بيت المقدس وكثيراً من بلادهم، ثم تجلّى مرة ثانية في الحرب العالمية الأولى حيث اتفقوا أيضاً على غزو جميع بلاد المسلمين فهاجموهم واقتسموها بينهم واستعمروها عقوداً، ولا زال استعمارهم ظاهراً في بلاد الإسلام.

وذكر النبي ﷺ أن سبب ذلك هو ضعف المسلمين مادياً ومعنوياً وحبهم الدنيا وكراهيتهم القتال والموت في سبيل الله.

أما قوله: «ولكنكم غثاء...» إلخ، فهذا ينطبق على مسلمي زماننا فهم مع كثرتهم لا تقوم منهم قائمة لإعراضهم عن دينهم واقتفائهم حضارة الغرب وتوغلهم في اتباع الشهوات ومحاربة الله تعالى ومجاهرته بأنواع المعاصي وكبار الذنوب بأمرائهم وشعوبهم... مع تفوُّق العدو عليهم بالأسلحة المتطورة والصناعات الحديثة والأمر كله لله من قبل ومن بعد.

[٧٣] وعن ذي مخبر رضي الله تعالى عنه رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستصالحون الروم صلحاً

آمناً فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم فتنصرون وتغنمون وتسلمون، ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول، فيرفع رجل من أهلِ النصرانية الصليب فيقول: غلب الصليبُ، فيغضبُ رجل من المسلمين فيَدُقُّه، فعند ذلك تغدر الروم وتجمع للملحمة» وفي رواية: **«ويثور المسلمون إلى أسلحتهم فيقتتلون فيُكرم اللّهُ تلك العصابة بالشهادة»**، وفي رواية: **«فيجتمعون لكم فيأتونكم في ثمانين غاية، مع كل غاية عشرة آلاف»**.

رواه أحمد (٩١/٤، ٤٠٩/٥)، وأبو داود في الملاحم (٤٢٩٢)، وابن ماجه (٤٠٨٩) في الفتن، وسنده صحيح.

قوله: «آمناً» أي: ذا أمن. «بمرج»: هو الموضع الذي ترعى فيه المواشي والدواب. «تُلُول»: جمع تَلّ وهو ما اجتمع من الأرض من تراب ورمل وارتفع شيئاً ما. وقوله: «غاية» أي: راية.

في هذا الحديث تنبؤ من حضرة النبي ﷺ بما سيقع بين المسلمين والروم وأنه سيقع بينهم صلح ويتشاركون في قتال عدو للجانبين ثم تغدر الروم فيتقاتلون مع المسلمين فينتصر الروم عليهم لكثرتهم ويكرم الله المسلمين بالشهادة، ومثل هذا الذي أشار إليه الحديث قد وقع في الشرق والأندلس، والله تعالى أعلم.

[٧٤] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوشك المسلمون أن يُحاصَروا إلى المدينة حتى يكون أبعدُ مسالِحِهم سَلاح»**.

رواه أبو داود في الفتن (٤٢٥٠)، وفي الملاحم (٤٢٩٩)، والحاكم في الفتن (٨٦٠٦/٨٠٧) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

قوله: «مسالحهم» هو جمع مسلحة، وهم القوم الذين يحفظون الثغور من العدو لأنهم يكونون ذوي سلاح، وقيل: المراد بالمسلحة هنا موضع الثغر، و«سَلاح» موضع قريب من خيبر.

وما في هذا الحديث الشريف لم يأتِ بعد ولا يعرف في التاريخ أن

الكفار حاصروا المسلمين إلى المدينة وأن ثغرهم كان بسلاح قرب خيبر وسيكون ما أخبر به النبي ﷺ في وقت لاحق ولا بد مصداقاً لما تنبأ به.

[٧٥] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنّ فُسطاطَ المسلمين يوم المَلْحمة بالغُوطة إلى جانب مدينة يقال لها: دمشق من خير مدائن الشام».

رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٨) وسنده صحيح ولا يضر هنا هشام بن عمار.

قوله: «فسطاط» هو بضم الفاء: أي: حصنهم من الفتن وأصل الفسطاط الخيمة. «الملحمة» أي: الوقعة العظيمة في الفتنة. «بالغوطة» بضم الغين، موضع بالشام كثير المياه والشجر، وهي مشهورة بدمشق بكسر الدال وفتح الميم.

والحديث يفيد أنه ستكون مقتلة عظيمة بين المسلمين والكفار بالشام، وأن حصن المسلمين سيكون بغوطة دمشق، وقد تكون هذه الوقعة قد مضت في غابر التاريخ، وقد تكون لا زالت مرتقبة، فالله تعالى أعلم.

وفي الحديث فضل دمشق وفضيلة أهلها، وقد وردت أحاديث في فضائل الشام أفردها العلماء بالتأليف.

وتقدم لنا حديث: «اللهم بارك لنا في شامنا» وهو في الصحيح.

[٧٦] وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله أين تأمُرُني؟ قال: «ههنا» ونحا بيده نحو الشام.

رواه أحمد (٣/٥)، والترمذي في الفتن (٢٠٢٣) وحسّنه وصححه.

وهذا الفضل يكون للشام وأهلها ما لم ينحرفوا عن الدين وينسلخوا من تعاليمه، فإذا فعلوا لم يبقَ خير في عموم الأمة للحديث التالي:

[٧٧] فعن قرة بن إياس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا فسدَ الشامُ فلا خيرَ فيكم».

رواه أحمد (٤٣٦/٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٢٢) بتهذيبي، وابن حبان (١٨٥١) وحسّنه وصححه الترمذي، وسنده عنده على شرط مسلم.

والآن أصبحت الشام كسائر البلاد الإسلامية يحكمها العلمانيون الإباحيون والشعب متفسخ متميع والمؤمنون الملتزمون غرباء قلائل كسائر بلاد الإسلام باستثناء الحرمين الشريفين ونحوهما، فالدين بهما قائم ظاهر والحمد للّه مصداقاً لقوله ﷺ:

[٧٨] إن «**الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرُزُ بين المسجدين كما تأرز الحية في حجرها**».

رواه أحمد (٣٨٩/٢)، ومسلم في الإيمان (٩٠/١) من حديث أبي هريرة.

«تأرز» أي: تجتمع، ومعناه أن الإيمان سيجتمع أيام غربته إلى مكة والمدينة لأنهما دار الإسلام ومقره وأصله، فالحمد للّه على ذلك.

فالأمة والحمد للّه لا يزال فيها خير فلا تجتمع على ضلالة كالتالي:

[٧٩] فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا يجمع أمتي** - أو قال: - **أمة محمد على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومَن شذَّ شذَّ إلى النار**».

رواه الترمذي في الفتن بهذا السياق (١٩٩٦) وفي سنده سليمان بن سفيان وهو ضعيف لكن للحديث طرق وشواهد يصحح معها، فإنه وارد عن ابن عباس وأنس وأبي ذر وأبي هريرة وحذيفة وبعضها شاهد لبعض فقراته.

ورواه الحاكم من طرق (١١٦/١) وأشار إلى أنه صحيح بل تساهل ابن الهمام وغيره فحكموا بتواتره.

فالحديث نصّ في أن الأمة لا يكون جميعها مجمعين على الضلال وأنه لا بد أن يكون فيها مَن هو قائم بأمر الله من العلماء الربانيين ومَن

يقتفي أثرهم من العامة لقوله ﷺ في الحديث المتواتر: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك**» وقد تقدم تخريجه في أول الكتاب.

***

❋ فتنة صحبة ذوي السلطة والدخول عليهم

[٨٠] عن كعب بن عجرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن تسعة، خمسة، وأربعة، أحد العددين من العرب والآخر من العجم، فقال: «**اسمعوا وأطيعوا، هل سمعتم أنه سيكونُ بعدي أمراءُ، فمَن دخل عليهم فصدّقهم في كذبهم وأعانهم على ظلمهم، فليس مني ولستُ منه وليس بوارد علي الحوض، ومَن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم، فهو مني وأنا منه وهو وارد عليّ الحوض**».

وفي رواية: قال لي رسول الله ﷺ: «**أُعيذك بالله يا كعبُ بن عجرة من أمراء يكونون من بعدي، فمَن غشي أبوابهم...**» فذكره بمعناه.

رواه أحمد (٢٤٣/٤)، والنسائي في البيعة (١٤٣/٧)، والترمذي في الصلاة (٥٤٧) وفي الفتن (٢٠٨٧)، وابن حبان (١٥٧١/١٥٧٢/١٥٧٣) بأسانيد صحيحة، وحسّنه الترمذي وصححه في الفتن وللحديث شواهد منها عن جابر. رواه ابن حبان (١٥٦٩) والحاكم (٤٧٩/٣/٤٨٠) بسند صحيح. وعن خباب بن الأرت رواه ابن حبان (١٥٧٤) وعن ابن عمر رواه أحمد (٥٧٠٢) وغيرهم.

قوله: «أعيذك» أي: أجيرك. وقوله: «من أمراء» أي: من الدخول عليهم وصحبتهم. وقوله: «يكونون من بعدي» يعني سفهاء ظلَمَة مارقين مفسدين كذبَة. قوله: «فمَن غشي» أي: دخل عليهم. «فليس مني» أي: لا صلة بيني وبينه، فأنا بريء منه.

وفي الحديث ذم الأمراء الظلَمَة وخاصة المفسدين منهم. وفيه التنفير من الدخول عليهم وتصديقهم في باطلهم وكذبهم ولو بالسكوت، ومداهنتهم، فمَن فعل ذلك فليس له بالنبي ﷺ صلة وسيحرم من ورود حوضه ﷺ.

فيا ويل ويا خسارة العلماء المنافقين الذين يغشون مجالس الأمراء الظلَمَة بله العلمانيين والإباحيين، فتلك فتنة لا توازيها فتنة، ولذا جاء في الحديث التالي:

[٨١] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**مَن سكن البادية جفا، ومَن اتبع الصيد غفل، ومَن أتى أبواب السلطان افْتُتِن**»، وفي رواية: «**مَن بدا جفا**».

رواه أحمد (٣٣٦٢)، وأبو داود في الصيد (٢٨٥٩)، والنسائي في الكبرى (١٥٤/٣)، والترمذي في الفتن (٢٠٨٤) ورجاله رجال الصحيح غير أبي موسى فمجهول، غير أنه رواه البزار بسند حسن كما قال الهيثمي والمناوي، وللحديث شاهد عن أبي هريرة رواه أبو داود (٢٨٦٠) وفي سنده شيخ مجهول.

وعلى أيٍّ، فالحديث ثابت، وقد أحسن وأصاب الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى في حواشي «المسند» حيث جزم بصحته.

قوله: «جفا» أي: قسى قلبه وغلظ لابتعاده عن أهل العلم وصحبتهم، وانشغاله بالفلاحة ورعاية المواشي. وقوله: «غفل» أي: عن العبادة وإتيان القربات. وقوله: «ومَن أتى أبواب السلطان» أي: غشي أبواب ذوي السلطة طمعاً فيما عندهم من الدنيا، فمَن فعل ذلك وتردد عليهم افتتن في دينه، لأن المتردد عليهم لا يخلو حاله معهم من أحد أمرين: إما أن يوافقهم على ظلمهم وانحرافهم ولو بسكوته، وفي ذلك هلاك دينه وخسارة آخرته، وإما أن يخالفهم وينكر عليهم، وفي ذلك خطره، فهو في كلا الحالتين مفتون في دينه ودنياه.

حفظنا الله من غشيان أبوابهم والاجتماع بهم وعصمنا من الركون إليهم، آمين.

* * *

فتنة الدنيا

[٨٢] عن عَمْرو بن عوف رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها وكان النبي ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمَّر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلّى رسول الله ﷺ انصرف فتعرّضوا له فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال: **«أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين»**، قالوا: أجل يا رسول الله، قال: **«أبشروا وأملوا ما يسُرَكم فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تُبسطَ الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافَسُوها كما تنافسوها فتُهلِكَكم كما أهلكتْهُم»**، وفي رواية: **«وتُلْهِيكم كما ألهتهُم»**.

رواه أحمد (٣٢٧/١٣٧/٤)، والبخاري في الجزية (٧٢/٧٠/٧) وفي المغازي وفي الرقاق، ومسلم (٩٥/١٨)، والترمذي (٢٤٦٢) كلاهما في الزهد، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٧).

ويأتي أيضاً في الرقاق قوله: «أبشروا...» إلخ، أي: سيحصل لكم المقصود، وسيفتح الله عليكم ما تأملوه من الدنيا.

[٨٣] وعن عبدالله بن عَمرو رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا فتحت عليكم فارس والروم أيُّ قوم أنتم؟»** قال عبدالرحمٰن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله ﷺ: **«أوَغير ذلك، تتنافسون**

ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون ـ أو نحو ذلك ـ **ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين فتجعلون بعضهم على رقاب بعض»**.

رواه مسلم (٩٦/١٨) في الزهد، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩٦).

[٨٤] وعن طلحة النضري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«عسى أن تدركوا زماناً حتى يُغْدَى على أحدِكم بِجفْنة ويُراح عليه بأخرى، وتلبسون أمثال أستار الكعبة»**، قالوا: يا رسول الله أنحن اليوم خير أم ذاك اليوم؟ قال: **«بل أنتم اليوم متحابُّون، وأنتم يومئذ متباغضون يضربُ بعضكم رقاب بعض»**.

رواه أحمد (٣٨٧/٣) بسند صحيح. ورواه أيضاً الحاكم (١٥/٣) وصححه.

«يُغدى» بضم الياء: أي يؤتى عليه في وقت الغداء بجفنة من طعام ويؤتى عليه في المساء بمثلها. وقوله: **«وتلبسون أمثال أستار الكعبة»** أي: ترتدون الملابس الرفيعة الرائعة وتجاوزون الحد في ذلك، أو تتخذون أستاراً لبيوتكم وجدرانها كما يتخذ ذلك للكعبة.

وفي هذه الأحاديث معجزات للنبي ﷺ، كإخباره بفتح بلادَي فارس والروم وبسط الحياة على الناس وتوسعهم فيها حتى يأكلوا في اليوم عدة أكلات، ويظهر فيهم الترف الفاحش ويتفننون في أنواع الأقمشة والملابس ويصبحون لأجل ذلك متنافسين في الدنيا يتحاسدون عليها ثم يحملهم ذلك على التقاطع والتباغض والتقاتل فيهلكون كما هلك من كان قبلهم، وأنهم سينقلبون من خير وطمأنينة وأُخُوّة وتحابُب إلى شر وفتنة وتدابر... وقد حصل كل ما أخبر به ﷺ والصحابة لا يزالون متواجدين على قيد الحياة، فالدنيا هي فتنة هذه الأمة التي أهلكتهم كما في الحديث التالي:

[٨٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن هذا الدينار والدرهم أهلكا مَن كان قبلكم وهما مُهلِكاكُم»**.

رواه أبو محمد بن شيبان العدل، والمخلص، كلاهما في «فوائديهما»

بسند صحيح على شرط مسلم. أفاده الشيخ ناصر في الصحيحة (١٧٠٣)، وأورده الحافظان المنذري والهيثمي برواية البزار وقالا: بإسناد جيد لكن من حديث ابن مسعود فالحديث صحيح.

وتخصيصه ﷺ الدينار والدرهم، لأنهما الأصل في المال ومتاع الدنيا.

* * *

❋ فتنة الأولاد

[٨٦] عن بريدة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ كان يخطب فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان يمشيان ويعثران، فنزل ﷺ من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: «**صدق الله ورسوله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ نظرتُ إلى هذين الصَّبِيَّيْن يمشيان ويعثُران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**».

رواه أحمد (٣/٣٥٤)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي في المناقب (٣٥٤٦)، وابن ماجه في اللباس (٣٦٠٠)، وابن حبان (٢٢٣٠) بأسانيد حسنة صحيحة.

فتنة الأولاد مع الأموال نصّ القرآن الكريم عليها، وما أعظمهما من فتنة، فالمال أمره واضح معلوم لكل الناس، أما الأولاد فلا يحس بفتنتهما ويذوقها إلا من ولد له ففتنتهم حاصلة في جميع مراحل حياتهم... بداية من الولادة فالرضاعة فالطفولة فالصبا فالشباب، وتعظم الفتنة وتشتد في بداية الشباب حتى الشيخوخة، ومن لم يقاسِ فتنة الأولاد ويعانها لم يولد بعد، ولم يُفتن قط، وعلى أيٍّ فالمال والبنون نعمتان من الله على العباد وهبتان وهبهما الله له، وهما زينة الحياة كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهما جمال هذه الحياة، فالحياة بدونهما حياة ناقصة، لكنهما فتنة وبلاء وامتحان قد يحولان بين العبد وبين سعادته الأبدية إذا انشغل بهما ولم

يقم بحق الله فيما وهبا له فعصى الله في سبيلهما ووقع في العظائم من أجلهما.

لكن الله عزّ وجل لطيف بعباده رحيم بهم فقد يغفر ما يحصل من فتنتهما بنحو صلاة وصدقة وصيام ونحو ذلك كما قدّمنا في حديث حذيفة: **«فتنةُ الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تكفِّرها الصلاة والصدقة والصيام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»**.

* * *

فتنة النساء

[٨٧] عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أضرُّ على الرجال من النساء»**.

رواه أحمد (٢٠١/٢٠٠/٥)، والبخاري في النكاح، ومسلم في الرقاق (٥٤/١٧)، والترمذي في الاستئذان (٢٥٩٠)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٩١)، والبيهقي في النكاح (٩١/٧).

[٨٨] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: **«إن الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإن الله مُستَخْلِفُكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»**.

وفي رواية: **«لينظر كيف تعملون»**.

رواه أحمد (٢٢/١٩/٣)، ومسلم في الرقاق (٥٥/١٧)، والترمذي في الزهد، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٠).

«حلوة» أي: تستحليها النفوس. «خضرة»: بكسر الضاد أي: تعجب الناظرين ويحبونها كما يحبون الخضرة. «مستخلفكم» أي: جاعلكم تعمرونها وتخلفون فيها من سبقكم.

إن المرأة كلها فتنة صوتها وجمالها وجميع أطرافها وخاصة المثيرات منها كوجهها، ونهديها، وشعرها.. بل ومظهرها، ولذلك كانت أعظم فتنة للرجل وأضر عليه وأخطر من كل شيء، فحياتنا كلها فتن: فتنة المال، والغنى، وفتنة الفقر، وفتنة الأولاد، وفتنة الكفر، وفتنة المعاصي، وفتنة التفرُّق والاختلاف، وفتنة الحروب، وفتنة الظلم والظلمة، وفتنة الدجال وهي شر ما ينتظر... ورغم كل ذلك ففتنة المرأة أخطر شيء على الرجل بعد الكفر.

فهي أصل كل فتنة لا سيما بعدما طغت وأبانت عن وقاحتها، وخرجت عن طبيعتها وأنوثتها، وأصبحت تشارك الرجل في جميع ميادين الحياة: في الشارع، في المدرسة، في الجامعات، في المحاكم، في الدوائر، في الأندية، في المسرح، في الوزارة، في البرلمان... عارية متبرجة، متفرنجة، راقصة، مغنية... وجلبت على الرجل وخاصة المسلم الملتزم كل ويل وبلاء، وكلّفته ما لا طاقة له به، حتى قال ناصح معاصر غيور وهو يوسف النبهاني رحمه الله تعالى:

نساءٌ رجالٌ كالعُراة تَعَانَقُوا ... بأحسنِ أشكالٍ تُثير الهوى قصرا
فلو نظر العِنِّينُ فيهنّ نظرةً ... لما احتاج في تقويم قُوتِه أُخْرى
وأتقى عباد الله ليس بمُمكنٍ ... هنالك تَقْواه إذا لم يكن صَخْرا
فإن لم يكن هذا زنا فإنه ... أخوه سوى أنّ الزنا فعلُه سِرًا
ومن قبل هذا ما سمِعنا بأُمّة ... قد استحسنَتْه هكذا عَلَناً جَهْرا
فنحمدُ رب العالمين لِشَرعِه ... حجاباً عن الإسلام قد حَجَبَ العُهْرَا

ولذا نبّه النبي ﷺ إلى فتنة المرأة وجعل إقبالها وإدبارها كالشيطان، وأرشد أمته إن رأى أحد امرأة فأعجبته فليأتِ أهله ليخفف من الفتنة التي نزلت به.

[٨٩] فعن جابر رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة فأتى امرأتَه زينب وهي تَمْعَسُ مَنِيئة لها فقضى حاجتَه ثم خرج إلى أصحابه

فقال: «إن المرأة تُقبِلُ في صورة شيطان، وتُدبرُ في صور شيطان، فإذا أبصر أحدُكم امرأةً فليأتِ أهلَه فإن ذلك يرد ما في نفسه».

وفي رواية: «إذا أحدكم أعجبته المرأةُ فوقعت في قلبه فلْيَعْمِدْ إلى امرأته فليواقِعْها فإن ذلك يردُّ ما في نفسه».

وفي رواية: «فإذا رأى أحدُكم امرأة فأعجبته فليأتِ أهله، فإنَّ معها مثل الذي معها».

وفي رواية: كان النبي ﷺ جالساً فمرّت به امرأة فأعجبته... إلخ.

رواه أحمد (٣٩٥/٣٤٨/٣٤١/٣٣٠/٣) ومسلم (١٧٧/٩) وأبو داود (٢١٥١) والترمذي (١٠٤١) والنسائي في الكبرى (٣٥/٥) والبيهقي (٩٠/٧) كلهم في النكاح بألفاظ.

[٩٠] وعن أبي كبشة الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: كان رسول الله ﷺ جالساً في أصحابه فدخل ثم خرج وقد اغتسل فقلنا: يا رسول الله قد كان شيء؟ قال: «أجل، مرّت بي فلانةٌ فوقع في قلبي شهوة النساء فأتيت بعض أزواجي، فأصبتُها، فكذلك فافعلوا، فإنه من أماثل أعمالِكم إتيانُ الحلال».

رواه أحمد (٢٣١/٤)، والطبراني في الأوسط (٣٢٧٥) وسنده حسن صحيح، وأورده الهيثمي في المجمع (٢٩٢/٦) وقال: رجال أحمد ثقات.

قوله: «تمعس» بفتح التاء والسين بينهما ميم ساكنة، أي: تدلك. «منيئة»: بفتح الميم وكسر النون ثم همزة آخرها تاء، هو الجلد الذي يوضع في الدبغ. وقوله: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان...» إلخ، شبّهها بصورة الشيطان لأن مظهرها وبروزها يدعوان إلى الشر ويثيران الشهوة والفتنة والهوى وذلك لما جبل عليه الرجال من الميل إلى النساء والالتذاذ بالنظر إليهن وما يتعلق بهن، فهي من هذه الناحية شبيهة بالشيطان في دعوته إلى الشر وتزيينه له فكانت لذلك كأنها شيطان.

ويؤخذ من الحديثين أمور ستة:

أولاً: الناس كلهم في الطبائع البشرية سواء، حتى أكابر الصالحين منهم، فهذا نبي الله ﷺ كان يتأثر بجمال النساء ويعجبه حسنهن، وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾.

ثانياً: قد يترتب عن النظر إلى النساء فتنة لا يطفئها إلا قضاء الشهوة ولو كانت نظرة المفاجأة كما صدر من النبي ﷺ.

ثالثاً: فيهما إرشاد من النبي ﷺ لأمته إلى علاج الشهوة الجنسية إذا ثارت بالنظر إلى محاسن النساء، وذلك بقضائها من الزوجة في القريب العاجل لئلا يترتب على ثورانها ضرر في الجسم والقلب... فإن لم توجد زوجة فعلى الإنسان أن يتصبّر ويُكثر من الصيام أو يبحث عن الأدوية المادية التي تخفف من شهوته، وأن يبتعد كل البُعد عما يثير شهوته، والله المستعان.

رابعاً: فيهما أن الزوجة يجب عليها طاعة زوجها في قضاء شهوته ولو كانت في شغلها الشاغل.

خامساً: أخذ العلماء من الحديثين تقليل خروج المرأة ومرورها بين الرجال إلا لضرورة ملحّة خشية أن تفتن الرجال. وهذا قد أصبح في خبر كان اليوم لطغيان النساء وخروجهن عن تعاليم الإسلام وتجاوزهن الحدود التي أمرن بها أو نُهين عنها.

سادساً: ما جعله الله عزّ وجل من ميول الجنسين بعضهما لبعض وتبادل الالتذاذ بينهما هو من الابتلاء الإلٰهي الذي جعله تعالى في هذه الدار وما أعظمه وأشقه على نفوس المؤمنين، فإنه لا يصبر على ذلك ويجاهد نفسه عليه إلا أكابر الصالحين الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه. فالله المستعان على هذه البلية.

* * *

❁ فتنة تفرُّق الأمة

[٩١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»**.

رواه أبو داود في السنة (٤٥٩٦)، والترمذي في الإيمان كما تقدم، وحسّنه وصححه.

وفي رواية لمعاوية: **«ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة»**.

وفي رواية له: **«وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء، كما يتجارى الكلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عِرقٌ ولا مفصل إلا دخله»**.

رواه أحمد وأبو داود (٤٥٩٧) بسند صحيح، وانظر ما سبق من الجزء الأول.

قوله: «تتجارى» التجاري الوقوع في الأهواء الضالة والتداعي فيها تشبيهاً بجري الفرس. و«الكلب»: بفتحتين داء يعرض للكلاب إذا عضّت حيواناً عرض له مرض خطير قد يقتله.

في الحديثين معجزة للنبي ﷺ في إخباره بالفتنة التي تصيب أمته من تفرُّقها واختلافها وتعاديها وأنها ستصل إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها ضالة منحرفة عن هدي القرآن والسنّة وطريق السلف، وأنها من أهل النار إلا واحدة فهي الناجية والسعيدة وهي المعبّر عنها في الحديث بالجماعة، وهم أهل الحق.

ويؤخذ من الحديثين أمور أربعة:

أولاً: تفرُّق الأمة في العقائد وأصول الدين وذلك مذموم، أما في الفروع فإن هذا التفرق والاختلاف فيه المحمود والمذموم وقد اختلف الصحابة والسلف في جزئيات كثيرة.

أما في العقائد فلم يختلفوا وما ظهرت العقائد الفاسدة كبدعة الرفض وغلو التشيُّع، والقَدَر، والاعتزال، والخروج على أئمة الحق، والنَّصب وعداوة أهل البيت، والتعطيل، والتشبيه، والتجسيم إلا من غيرهم.

ثانياً: كل هذه الفرق مآلها النار لخروجها عن الحق وضلالها ولا ينجو منها إلا من كان على هدي الرسول ﷺ وأصحابه.

ثالثاً: قوله: «**كلها في النار**» لا يعني أنها كلها كافرة مخلّدة في النار بل فيها ما هو كافر بعقيدته وما هو مسلم فاسق فهو كباقي الفسّاق الذين ماتوا مصرّين على معاصيهم فهم في مشيئة الله تعالى سيحاسبهم وتوزن حسناتهم مع سيئاتهم، ومنها بدعهم وانحرافهم فما رجح كان العمل عليه ثم مشيئة الله تعالى، وهذا التقسيم مأخوذ من قوله ﷺ: «**وستفترق أمتي**» فنسبها إليه، فهم مسلمون إلا من خرج عنهم ببدعته. وفي هذا جواب عن الإشكال الذي استشكله بعضهم في الحديث.

رابعاً: قد ترتب على هذا التفرق فتن عظيمة حتى سفكت في سبيله الدماء و... مما هو معلوم في تاريخنا الطويل، ولا زلنا نعاني من ذلك من بعض الفرق كالرافضة مثلاً الذين انتشرت بدعتهم وعمت كثيراً من البلدان الإسلامية، وانطلت عقائدهم الفاسدة الخرافية على كثير من الناس.

* * *

فتنة اتباع الكفار والتشبُّه بهم

[٩٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لتتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَن كان قَبْلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لتبعتموهم**» قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «**فمَن؟**».

رواه البخاري في الاعتصام (٦٤/٦٣/١٧) وفي الأنبياء (١٧)، ومسلم في العلم (٢١٩/١٦) وغيرهما.

«سنن»: بفتحتين، أي: طريق. «جحر ضب» أي: ثقبه الذي يأوي إليه. والضب بفتح الضاد مع تشديدها، حيوان معروف.

[٩٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمّتي مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع**»، قيل له: يا رسول الله كفارس والروم؟ قال: «**من الناس إلا أولئك**».

رواه البخاري في الاعتصام (٦٣/١٧) ومثله عن أبي سعيد الخدري عند مسلم في العلم (٢١٩/١٦) وهو في الاعتصام من البخاري (٦٣/١٧).

في هذه الأحاديث معجزة للنبي ﷺ حيث أخبر بأن الأمة ستقتفي أثر من قبلها من الكتابيين والمجوس وتقلدهم في شؤونهم كلها حسنها وقبيحها، وقد صدق ذلك الواقع فقد تبعوهم في جميع شؤونهم، في عقائدهم الكافرة، وأخلاقهم الفاسدة، وأحوال مجتمعاتهم الباطلة، وكل أهوائهم وأمورهم، وتبعوهم في أحوالهم الاجتماعية، واقتصادهم، وسياستهم، وأنظمتهم العسكرية، وقوانينهم في الحكم، وفصل الدين عن السياسة، وأنظمتهم في التعليم والمواد الدراسية، وفي الفنون الجميلة من أغاني ماجنة ورقص ورياضة عارية... وتشبههم بهم في ملابسهم وأزيائهم بذكورهم وإناثهم وجميع مظاهرهم حتى أصبحوا نسخاً من الكفار وذابت شخصيتهم وعروبتهم فيهم، ولم يعد يميز بين الكافر والمسلم وخاصة في الطبقة المثقفة والحاكمة، فهم أغرق الناس في اتباع حضارتهم القذرة وثقافتهم الفاسدة النتنة. وقد اتفق العلماء الأقدمون الربانيون على تحريم اتباع الكفار والتشبُّه بهم فيما يختصون به، وجاءت بذلك آيات من القرآن وأحاديث نبوية تحذر من ذلك وتنهى عنه، جمعها كثير من علمائنا رحمهم الله تعالى.

فهذه فتنة عارمة عمّت العالم الإسلامي إلا من شاء الله تعالى من المؤمنين الملتزمين.

[٩٤] وعن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حُنين، مرّ بشجرة للمشركين كانوا يعلقون عليها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فقالوا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «**سبحان الله هذا كما قال قوم**

موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ والذي نفسي بيده لتَركبُنَّ سَنَن من كان قبلكم».

رواه الترمذي في الفتن (٢٠١٠)، وأحمد (٢١٨/٥)، والحميدي (٨٤٨)، والنسائي في الكبرى (٥٩٩/٦) بسند صحيح، وحسنه الترمذي وصححه.

«لَتركبُن»: أي لتتبعُنَّ.

* * *

عذاب هذه الأمة الفتن والزلال والقتل

[٩٥] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أمّتي هذه أمّةٌ مرحومةٌ، ليس عليها عذابٌ في الآخرة، عذابُها في الدنيا الفتنُ، والزلازلُ، والقتلُ».**

رواه أحمد (٤٠٨/٤/٤١٠/٤١٨)، وأبو داود في الفتن (٤٢٧٨)، والحاكم (٤٤٤/٤) من طريق هو بها صحيح.

في الحديث بشارة لهذه الأمة وأن الله عزّ وجل جعل حظها من عذاب الآخرة ما يصيبها في هذه الحياة من الفتن والزلازل والقتل فتذهب إلى الآخرة وقد غفر الله لها، نسأل الله عزّ وجل أن يسامحنا ويغفر لنا زلاّتنا وخطايانا وأن يعافينا من جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن بفضله وكرمه وإحسانه.

* * *



كتاب أشراط الساعة

أشراط الساعة هي علامات قرب قيامها، والساعة إذا أُطلقت في القرآن والسنة فالمراد بها انقراض هذا العالم واضمحلاله وفناؤه، وما يحدث عند ذلك ويصاحبه من انقلاب كوني هائل، وأحداث جسام تشمل الشمس والقمر والكواكب، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، كما تشمل البشر، وتهز الكون هزًّا عنيفاً ينتثر فيه كل ما في الوجود ولا يبقى شيء إلا وقد تبدل وتغير من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب.

وقد تحدّث القرآن الكريم عن الساعة كثيراً وذكر أهوالها ومشاهدها وبيّن للناس اقترابها وهم في غفلة عنها مُعرضون، وسيأتي الكلام عليها وعلى ما بعدها مفصّلاً.

ولخطر الساعة وما يصاحبها من أهوال كان أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم يسألونه ﷺ عن وقت قيامها، فكان الله تعالى يتولى جوابهم فجاء في ذلك قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: متى استقرارها وحصولها.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

وقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾ فكانت الأجوبة عنها كلها مصرحة بأن علم وقت قيامها بالضبط هو عند الله عزّ وجل، قد أخفى وقت حصولها عن خلقه إلا من شاء الله.

وهكذا جاء عن النبي ﷺ في عدة أحاديث كما يأتي مفصّلاً، لكنه تعالى ذكر لعباده علامات لها تنذر بوقت قيامها وقرب ذلك ليتأهبوا لها ويستعدوا لحلولها بكثرة البر والعمل الصالح.

* * *

❁ للساعة أشراط صغرى وكبرى

ثم إن أشراط الساعة قسّمها علماؤنا رحمهم الله تعالى إلى قسمين: صغرى وكبرى، فالصغرى هي التي تقدمت في تاريخ الإسلام حتى وقتنا هذا، وسميت صغرى لبُعدها عن القيامة، وقد تقدم أكثرها وظهر الكثير منها في عصرنا الذي نعيشه، ولا زال بعضها لم يأتِ بعدُ، أما الكبرى فهي العلامات التي إذا ظهرت كانت القيامة على الأبواب.

وأكثر العلماء جعلوها صغرى وكبرى كما ذكرنا، وقد جعلها بعضهم صغرى ووسطى وكبرى، منهم: البرزنجي وصاحب «موسوعة الآخرة» وإليه يشير كلام الحافظ، وتمثيله لذلك في «الفتح» (ج١٦/١٩٦/١٩٧) حيث قال بعد كلام: لكنه على أقسام:

أحدها: ما وقع على وفق ما قال، **والثاني**: ما وقعت مبادئه ولم يستحكم، **والثالث**: ما لم يقع منه شيء ولكنه سيقع.

فالنمط الأول: تقدم معظمه في علامات النبوة، وقد استوفى البيهقي في الدلائل ما ورد من ذلك بالأسانيد المقبولة، والمذكور منه هنا اقتتال الفئتين العظيمتين، وظهور الفتن، وكثرة الهرج، وتطاول الناس في البنيان، وتمني بعض الناس الموت، وقتال الترك... قال:

ومن النمط الثاني: تقارب الزمان، وكثرة الزلازل، وخروج الدجالين الكذابين.

ثم ذكر أمثلة لهذا النمط، منه ما وقع ومنه ما لم يأتِ بعد.

قال: ومن **النمط الثالث**: طلوع الشمس من مغربها.

ثم ذكر أمثلة أخرى لذلك، غير أن بعض ما ذكر هنا قد تقدم، ومنه

وجد في زماننا، وليس من الأشراط الكبرى كتخوين الأمين وائتمان الخائن... وتكلُّم الرويبضة، وظهور أمور عظام يتفاقم فيها شأننا، وزوال الجبال عن أماكنها، فإن هذه كلها ظهرت في عصرنا كما هو معلوم.

ثم إنهم ذكروا من العلامات الصغرى كل الأحداث التي وقعت في الأمة بداية من قتل الفاروق، فعثمان، فعلي، فالحسين... رضي الله تعالى عنهم، حتى العصور الأخيرة اعتماداً على ما ورد من أحاديث الفتن العامة.

* * *

❋ العلامات الصغرى:

بعثة النبي ﷺ

[٩٦] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُعِثتُ أنا والساعة كهاتين**» وضمّ السبابة والوسطى. وفي رواية: «**كفضل إحداهما على الأخرى**».

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٣٣/١٣٤)، ومسلم (١٨/٨٩/٩٠)، والترمذي (٢٠٤٤) كلاهما في الفتن، ومثله عن أبي هريرة عند البخاري (١٤/١٣٤) وعن المستورد عند الترمذي (٢٠٤٣) بسند حسن صحيح.

ومعنى الحديث: أنه ﷺ بُعث آخر الزمان ولم يبقَ لقيام الساعة من بعثته إلا مقدار ما بين طرفَيْ إصبعيه الوسطى والسبابة، فبعثته قريبة من القيامة، فهو من علاماتها، ولذلك يقال له: نبي آخر الزمان.

* * *

❋ من أشراط الساعة

[٩٧] عن عوف بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قُبّة أدَم فقال: «**اعْدُدْ ستاً بين يدَيِ الساعة: موتي، ثم فتحُ بيتِ المَقْدس، ثم مُوتَان يأخذ فيكم كقُعَاصِ الغنم، ثم استفاضة**

المال حتى يُعطى الرجلُ مائة دينار فيظلُّ ساخطاً، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلَتْه، ثم هُدنةٌ تكون بينكم وبين بني الأصفر فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً»، وفي رواية: فاستبكيتُ حتى جعل رسول الله ﷺ يُسَكِّتُني.

رواه أحمد (٦/٢٥)، والبخاري في الجهاد باب الجزية (٧/٨٧/٨٨)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٤٢).

قوله: «كقُعَاص» بضم القاف ثم عين مفتوحة هو داء يأخذ الغنم لا يلبثها أن تموت.. «استفاضة المال» أي: انتشاره وفيضانه. «غاية» أي: راية.

* * *

❋ موته ﷺ

في هذا الحديث الشريف عدة علامات للساعة، **أولاهن**: موت النبي ﷺ وهي من المصائب العظيمة بل لا مصيبة للأمة فوقها، ولذلك قال ﷺ: **«مَن أُصيب بمصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنها أعظم المصائب»**.

رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/٢٧٥)، وابن السني في «اليوم والليلة» (٢١٩) عن عطاء بن أبي رباح مرسلاً بسند صحيح، وله شواهد عن بريدة رواه ابن السني (٢١٨) وعن عائشة عند الطبراني كما في «المجمع» (٣/١٢) وعن سابط الجُمَحِي رواه ابن سعد (٢/٢٧٥)، والطبراني في «الكبير» كما في «المجمع» (٣/٢) فالحديث لذلك حسن أو أعلى.

فغيابه ﷺ مصيبة لا يُعادلها شيء من المصائب مهما عظمت، ووفاته بالتالي من أشراط الساعة.

* * *

❋ فتح بيت المقدس

ثانيتها: فتح بيت المقدس، وقد حصل ذلك في خلافة سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، وكان فتحه سنة ست عشرة من الهجرة على أيدي أبطال الإسلام، وطهّره الله عزّ وجل من اليهود والنصارى ثم مع ممر العصور أخذه الصليبيون وبقي تحت احتلالهم عقوداً من الزمان، ثم فتح مرة ثانية على يد بطل الإسلام الشهم صلاح الدين الأيوبي، وها هو الآن تحت الاحتلال الصهيوني، وسيفتح مرة ثالثة بإذن الله تعالى على أيدي المؤمنين الذين ينطق لهم الحجر والشجر، وهذا لا يكون إلا وقت المهدي أو عيسى عليهما السلام، أما مسلمو عصرنا فأسقط وأهون من أن يكلمهم الحجر والشجر وينتصروا على اليهود وقد فقدوا القوتين المادية والروحية.

❋ ❋ ❋

❋ مُوْتَان كقُعَاص الغنم

ثالثتها: داء يصيب المسلمين يموت به خلق كثير، وهذا الداء قد ظهر بالشام أيام سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه أطلق عليه طاعون عمواس ـ وهو الكوليرا، بلغة العصر ـ وعمواس مدينة بفلسطين وقع بها الطاعون في خلافة الفاروق، يقال: إنه مات فيه نحو من خمسة وعشرين ألف مسلم، وكان من بينهم البطل أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه، وقد قدّمنا في الطب والمرض قصة سيدنا عمر في رجوعه وعدم دخوله لموضع الطاعون.

❋ ❋ ❋

❋ استفاضة المال

رابعتها: انتشار المال حتى يحرز الإنسان على مال كثير نحو مائة دينار في يومه فيظل متسخطاً يرى أنه قليل. وهذا وقع كثيراً، وكانت بدايته أيام

الفتوحات الإسلامية الأولى وامتد ذلك إلى عصرنا، فنحن الآن نشاهد كثيراً من التجار والرأسماليين يربحون في اليوم الواحد الربح الباهظ، فإذا نقص لهم شيء من ذلك وهم غير خاسرين تسخّطوا وجعلوا يشتكون من القلة والأزمة، فالحديث يتجلى في هؤلاء الشياطين بأجلى مظهر.

* * *

❊ فتنة شاملة لا ينجو منها بيت

خامستها: فتنة عامة في المسلمين العرب لا تبقي أحداً، قال العلماء: إن هذه الفتنة كان افتتاحها بقتل أمير المؤمنين سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه ثم استمرت الفتن متوالية.

* * *

❊ هدنة بين المسلمين وبين الروم ثم حرب بين الجانبين

سادسة الأشراط المذكورة في الحديث: صلحٌ يقع بين المسلمين وبين الروم، ثم يغدر الكفار فيأتون بجيش عظيم كثيف عرمرم يقدر عدده بنحو مليون مقاتل، وهذه العلامة بهذا العدد من جيش بني الأصفر ما سمعنا بمثلها بين المسلمين والروم، فإن لم تكن مضت فلا بد أن تقع لأن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى.

وقد نقل الحافظ في «الفتح» عن ابن المُنَيِّر أن قصة الروم لم تجتمع إلى الآن ولا بلغنا أنهم غزوا في البر في هذا العدد، فهي من الأمور التي لم تقع بعد...

ثم ذكر عن «الفتن» لنعيم بن حماد: أن هذه القصة تكون في زمن المهدي على يد ملك من آل هرقل. والله تعالى أعلم.

* * *

❊ فتح كنوز كسرى مع غنى الناس وعدم وجود من يقبل الصدقة

[٩٨] عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: بينما أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكى إليه الفاقة، وأتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل، فقال: **«يا عدي بن حاتم إن طالت بك حياةٌ لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله»**، فقلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّارُ طيىء الذين سعَّروا البلاد؟ **«ولئن طالت بك حياة لتُفتحَنَّ كنوزُ كسرى»**، قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: **«كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياةٌ لترَينَّ الرجلَ يُخْرِجُ مِلءَ كفِّيه من ذهب أو فضة يطلب مَن يقبله منه فلا يجده»**.

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى، ولئن طالت بكم حياة سترون الثالثة.

رواه البخاري في علامات النبوة (٧/٤٢٣/٤٢٤).

«الفاقة»: الحاجة والفقر. «قطع السبيل»: يعني بذلك اللصوص وقطاع الطريق. «الظعينة»: هي في الأصل اسم للهودج فسميت به المرأة. «الحيرة» بكسر الحاء بعدها ياء ساكنة فراء مفتوحة: بلدة بالعراق قرب الكوفة كانت مسكن ملوك العرب من قِبَلِ الفُرس. «دُعَّارُ» بضم الدال وتشديد العين: جمع داعر وهو الشاطر الخبيث المفسد. «طيىء»: هي قبيلة عدي بن حاتم وهي فيما بين الحجاز والعراق وكانوا يقطعون الطريق على كل من مرّ بهم. «سَعَّروا» بتشديد العين أي: أوقدوا نار الفتن، وملأوا الأرض شراً وفساداً. «كسرى» بكسر الكاف: هو عَلَمٌ على كل من ملك الفرس في القديم. «يخرج ملء كفِّيه»: وهذا قطعاً يكون عند فتح كنوز الأرض وسيكون ذلك أيام المهدي وعيسى.

في الحديث معجزات للنبي ﷺ، وعلامات للساعة.

منها: انتشار العدل والقضاء على الفساد والمفسدين وحصول الأمان حتى تسافر المرأة بمفردها عدة مراحل لا تخاف في طريقها غير الله عزّ وجل، وهذا قد وقع أيام الخلفاء الراشدين وخاصة في خلافة عمر.

ومنها: القضاء على ملك فارس وفتح بلادهم وأخذ كنوزهم وإنفاقها في سبيل الله، وقد جاء في ذلك أحاديث منها:

[٩٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا هلَكَ كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصرُ فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتُنفَقنّ كنوزهما في سبيل الله»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٣/٢٤٠)، والبخاري في علامات النبوة (٧/٤٣٨)، ومسلم في الفتن (١٨/٤١/٤٢).

[١٠٠] وعن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لتَفْتَحنَّ عصابةٌ من المسلمين كنوزَ كسرى التي في القصر الأبيض»** فكنت أنا وأبي فيهم فأصبنا من ذلك ألف درهم.

رواه مسلم في الفتن (١٨/٤٣).

«عصابة» أي: جماعة.

ففي الحديثين تنبؤ من النبي ﷺ بفتح بلاد كسرى والروم ومحو مُلْكَيْهما البتةَ، وأن المسلمين سينفقون كنوزهما في سبيل الله تعالى. وقد وقع كل ذلك أيام خلافة الصدِّيق والفاروق رضي الله تعالى عنهما، وفي حديث جابر شهادة من النبي ﷺ لفاتحي بلاد كسرى بالإسلام، وأنهم لا يخرجون عنه بما ارتكبه بعضهم من سفك دماء المسلمين.

ومما في حديث عدي من الأشراط وأعلام النبوة أن الدنيا ستفتح خيراتها ويستغني كل الناس ولا يكاد يوجد فقير محتاج يقبل الصدقة، وجاء في هذا أيضاً أحاديث كالتالي:

[١٠١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يكثُر فيهم المالُ فيفيض حتى يهم رب المال من**

يتقبَلُ منه صدقتَه»، وفي رواية: «**وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرَبَ لي فيه**»، وفي رواية: «**حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه**».

رواه البخاري في الفتن، ومسلم في الزكاة (٧/٩٧) بألفاظ.

[١٠٢] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَقيءُ الأرض أفلاذَ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطِعَتْ يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً**».

رواه مسلم في الزكاة (٧/٩٧/٩٨)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٩) بتهذيبي، وابن حبان (١٥/٩٠).

وقوله: «لا أربَ لي فيه» أي: لا حاجة لي فيه الآن. «تقيء»: من القيء، أي: تلقي ما في تخومها من كنوز الذهب والفضة. و«الأفلاذ»: القطع منهما. قوله: «فيجيء القاتل...» إلخ، فكل هؤلاء سيعترفون بأن سبب ما فعلوه من تلك المعاصي هو المال ثم يتركونه فلا يأخذونه لاستغنائهم عنه. وهذا لا زال لم يأتِ بعد، وسيكون أيام المهدي أو عيسى إن شاء الله تعالى حيث سيستغني الناس كلهم ولا يبقى لهم حاجة في المال.

واستفاضة المال وكثرته وقع في عصور مختلفة بداية من الفتوحات الإسلامية الأولى وامتداداً إلى بعض العصور، إلى وقتنا هذا الذي فاض فيه المال وكثر، وسيأتي وقت لا يقبل فيه أحد شيئاً من الآخرين.

* * *

آية انشقاق القمر

[١٠٣] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ فانشقّ القمر فلقتين، فلقة من وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**» يعني: اقتربت الساعة وانشق القمر.

رواه أحمد (٣٥٨٣)، والبخاري في التفسير وفي أوائل السيرة والترمذي وغيرهم، وفي الباب عن أنس وابن عمر وجبير بن مطعم وجماعة، وقد تقدم ذلك في التفسير.

آية انشقاق القمر آية عظيمة ومعجزة للنبي ﷺ باهرة، وهي من أشراط الساعة وعلامات قربها، ولذلك قال تعالى في الآية الكريمة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

* * *

الفتوحات الإسلامية

[١٠٤] عن جابر بن سمرة رضي الله تعالى عنه عن نافع بن عتبة رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، قال: فأتى النبيَّ ﷺ قوم من قبل المغرب عليهم ثيابُ الصوف فوافقوه عند أكمَةٍ، فإنهم لقيامٌ ورسول الله ﷺ قاعد، قال: فقالت لي نفسي: ائتهم فقم بينهم وبينه لا يَغْتَالُونَه، قال: ثم قلت: لعلّهُ نَجِيٌ معهم، فأتيتهم فقمت بينهم وبينه، قال: فحفظت منه أربع كلماتٍ أعدُّهُنَّ في يدي، قال: **«تَغزُون جزيرةَ العرب فيفتحُها الله، ثم فارسَ، فيفتحُها الله، ثم تغزون الروم فيفتحُها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله»** قال: فقال نافع: يا جابر لا تُرَى الدجال يخرج حتى تفتح الروم.

رواه مسلم (٢٦/١٨) وابن ماجه (٤٠٩١) كلاهما في الفتن.

«يغتالونه» أي: يأخذونه بغتة من حيث لا يشعر. قوله: «نَجِيٌ» أي: يُسَارِرُهم في شيء بينه وبينهم.

وفي الحديث معجزة للنبي ﷺ وعلَم من أعلام نبوته حيث أخبر بفتح هذه الأقطار بعد غزوها وأن آخر ما يغزو المسلمون الدجال لعنه الله فينتصرون عليه. وقد حقق الله عزّ وجل فتح بلاد فارس، والروم والجزيرة في أوائل أيام الخلفاء رضي الله تعالى عنهم، وسيغزون الروم مرة أخرى قبل خروج الدجال، كما يأتي إن شاء الله في ذكر خروجه ووقته.

وكل هذا يُعد من أشراط الساعة.

❊ آيتان عجيبتان

[١٠٥] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى تكلم السباعُ الإنس، وحتى يكلمَ الرجل عذبةُ سوطه وشراكُ نعله، وتخبره فخذُه بما أحدث أهله بعده»**.

رواه أحمد (٨٤/٣)، والترمذي في الفتن (٣٠١١)، وابن حبان بالموارد (٥٨٠)، والحاكم (٤٦٧/٤) وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي، وللحديث قصة عند أحمد عن أبي سعد قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي فانتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقاً ساقه الله إليّ، فقال: يا عجبي ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره فأمر رسول الله ﷺ فنودي: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: أخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: **«صدق والذي نفسي بيده...»** الحديث.

في هذا الحديث معجزة للنبي ﷺ من جهتين: **أولاً: من جهة إخبار الذئب بصدق رسول الله ﷺ ونبوته، وثانياً:**

❊ ❊ ❊

❊ تكلُّم السباع والفخذ والسوط مع الإنسان

أما السباع فهذا ذئب قد كلم ذلك الراعي بكلام دار بينهما، وقد يقع ذلك في وقت ما أيضاً. أما تكلم الفخذ والسوط فلا ندري كيف يكون ذلك ولا بد أن يقع، وقد يكون ذلك إشارة إلى آلة التسجيل التي قد توضع عند الإنسان في جيب سرواله أو نحوه، كما أن تكلم السباع قد يكون فيه إشارة

أيضاً إلى ما يقع من الحركات الغريبة والألعاب من الحيوانات المعلَّمة التي يستخدمها مدربو الحيوانات اليوم، والله أعلم بمراد نبيه ﷺ. والمقصود أن ما ذكر من أشراط الساعة الصغرى.

* * *

عدة اشراط

[١٠٦] عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه قال: أحدثكم حديثاً سمعتُه من رسول الله ﷺ لا يُحدثكم أحدٌ بعدي أنه سمعه من رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**إنّ من أشراط الساعة أن يُرفع العلمُ، ويظهر الجهلُ، ويفشو الزنا، ويُشرب الخمرُ، ويكثرُ النساء، ويقلُ الرجال، حتى يكون لخمسين امرأةً قَيِّمٌ واحدٌ**».

رواه أحمد (١٥١/٣)، والبخاري في العلم (١٨٩/١٨٨/١)، ومسلم في العلم أيضاً (٢٢١/١٦)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٥)، وابن ماجه فيه (٤٠٤٥)، وكذا النسائي في الكبرى (٤٥٥/٣).

«رفع العلم»: وذلك يكون بموت أهله. و«يظهر الجهل» أي: يثبت ويشيع. و«يفشو الزنا» أي: يكثر وينتشر ويظهر. و«يشرب الخمر» أي: يكثر شربه. «قيم واحد» أي: من يقوم بأمورهن.

في هذا الحديث عدة أشراط:

❑ أولاً: رفع العلم وظهور الجهل:

فرفع العلم والمراد به علم الدين الإسلامي يكون بموت أهله، فأيما عالم توفي ذهب معه علمه، ولا يكون له خلَف فيما كان يحمله من علوم، وبذلك ينتشر الجهل بين الناس ويترأس العامة رؤوس جهّال فيضِلُّون ويُضِلُّون.

❑ ثانياً: فشو الزنا:

وفشوه انتشاره وكثرته كما هو حال واقعنا اليوم، فقد عمّت به البلوى وظهر في الحواضر والبوادي ظهوراً لم يتقدم له مثيل في تاريخ الإسلام، فقد هيئت له الفنادق، والدور المفروشة في سائر العالم الإسلامي، أما الغرب فلا تسأل عما عندهم، وقد تكلمت عليه في كتاب «المرأة المتبرجة».

❑ ثالثاً: شرب الخمر:

والمراد بذلك، الإكثار منه حتى يصبح كشرب الماء واللبن... كأنه مباح، وهو الواقع في هذا العصر فلا تتجه إلى جهة إلا وجدت حانات يباع ويشرب فيها الخمر، بل كثير من المتاجر الغذائية فيها الخمر يباع جهاراً وتعطى لبيعه الرخص من طرف المسؤولين، أما الفنادق وبعض المقاهي العامة فلا يتورعون عن تقديم الخمور إلى زبائنهم.

❑ رابعاً: كثرة النساء وقلة الرجال:

وذلك يكون بكثرة ولادة الإناث وقلة الذكور، ثم موت الذكور بكثرة وقلة موت النساء، وهذا مشاهد في وقتنا، فإن الإحصاءات تفيد بأكثرية النساء وأنهن يمثلن أكثر من ضعفَيْ الرجال.

ومن الملموس المحسوس أنه يموت عشرة رجال ثم تموت امرأة واحدة، ولذلك يوجد الأرامل بكثرة، وقد تأتي الحروب فيقتل فيها الألوف من الرجال ولا تقتل امرأة واحدة، بل ذكروا عن الحرب العالمية الثانية أنه قتل فيها عشرات من ملايين الرجال وتركوا وراءهم ملايين من النساء وكان ذلك سبباً لخروج المرأة الأوروبية لعملها في المعامل وغيرها، ثم إن كثرة النساء وقلة الرجال ابتلاء من الله تعالى للرجال. وتخصيص هذه الأشراط بالذكر لاختلال الأمور التي يحصل بحفظها صلاح الدين والدنيا وهي: الدين، والعقل، والنسب، والنفس، والمال. فاختلال ما ذكر مؤذن بخراب العالم. وانظر «الفتح» من كتاب العلم.

ومن عرض هذه الأشراط يتبين أنها كلها وجدت وتتجدد في كل عصر، نعم، قوله: «حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد» هذا لم يأتِ بعد وإذا وجد فبقلة.

[١٠٧] وعن عبدالله بن مسعود وأبي موسى رضي الله تعالى عنهما قالا: قال النبي ﷺ: **«إن بين يدَي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج، والهرج: القتل»**.

رواه البخاري في الفتن (١٢٥/١٢٤/١٦)، ومسلم في العلم (٢٦٧٢) وغيرهما.

* * *

أشراط أخرى متنوعة جامعة

[١٠٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يقتتل فئتان عظيمتان يكون بينهما مَقْتَلَةٌ عظيمةٌ دعواهما واحدةٌ، وحتى يبعث دجّالون كذّابون، قريب من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتَكْثُر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهَرْج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيضُ حتى يُهِمَّ رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي عرضه عليه: لا أرب لي فيه، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحَتِه فلا يَطعَمُه، ولتقومن الساعة وهو يَليطُ حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أُكْلَتَه إلى فيه فلا يَطعمُها»**.

رواه البخاري (٢٠٢/١٩٦/١٦) في الفتن، وغيرها مطولاً، ورواه مسلم في الإيمان وفي الزكاة وفي الفتن مقطعاً.

وفي هذا الحديث نحو من إحدى عشرة علامة من علامات الساعة كلها من الأشراط الصغرى، إلا طلوع الشمس من مغربها فمن الكبرى.

❑ الأولى: تقاتل فئتين عظيمتين دعواهما واحدة:

وقد قدّمنا سابقاً في الفتن أن المراد بهاتين الفئتين هما فئة الإمام علي وفئة معاوية، فإن كلاً منهما كان يدعو إلى ما يراه حقاً.

وقد تكون الفئتان فئة علي وفئة طلحة والزبير وعائشة رضي الله تعالى عنهما، وذلك ظاهر أيضاً، وقد قدّمنا ذلك في وقعتَيْ الجمل وصفِّين.

❑ الثانية: خروج الدجاجلة والكذّابين:

والمراد بهؤلاء المتنبئون المدّعون النبوة، وقد أخبر ﷺ بأن عددهم يقارب الثلاثين، بل جاء التصريح بعددهم وأنهم سبعة وعشرون.

[١٠٩] فعن حذيفة رضي الله تعالى عنه أن نبي الله ﷺ قال: **«في أمتي كذّابون، ودجّالون، سبعة وعشرون، منهم أربعة نسوة، وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي»**.

رواه أحمد (٣٩٦/٥)، والطحاوي في «مشكله» (١٠٤/٤)، والطبراني في «الأوسط» (٥٥٨٢) وسنده صحيح على شرط مسلم.

فهذا نص في عدد المتنبئين الذين يدّعون النبوة وأن منهم أربع نسوة، وقد تقدم في التاريخ الكثيرون منهم، وكان في عصر الصحابة مسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، ومالك بن نويرة، وسجاح الكاهنة التي تزوجها مسيلمة، وكان بعد هؤلاء المختار الثقفي الذي أخبر به النبي ﷺ على الخصوص وسمّاه الكذاب كما سمّى الحجاج المبير.

وهكذا؛ تتابع الدجاجلة الكذّابون، وتتالى ادعاؤهم النبوة حتى جاء

الكذاب عباس ميرزا غلام أحمد القادياني، فخرج في إيران عام ١٢٣٣ الهجري وادّعى النبوة، وقد ضلّ به أقوام لا زال أمرهم ممتداً إلى الآن وهم المعبَّر عنهم بالقاديانية ويسمون أنفسهم الأحمدية، لعنهم الله وقطع دابرهم، وقد جاءت الأحاديث بهؤلاء الكذَبة عن جماعة من الصحابة. وقد ادّعى النبوة والمهدوية في عصرنا جماعة في الشرق والغرب، وقد يكون تقدم العدد المذكور في الحديث، وقد يكون بقي منه البعض حتى يأتي الدجال فيتمم عددهم.

❑ الثالثة: قبض العلم:

وقد قدّمنا أنه يقبض بموت العلماء حتى لا يبقى إلا الجهلة.

❑ الرابعة: كثرة الزلازل:

والزلازل من الأشراط الموجودة في كل العصور، وقد كثرت في زماننا هذا في كل الأقطار وخاصة بآسيا وأمريكا.

وقد جاءت فيها أحاديث وأنها من الأشراط وعلامات قرب الساعة.

[١١٠] فمنها: عن سلمة بن نفيل السكوني قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ قال له قائل: يا رسول الله هل أُتيتَ بطعام من السماء؟ قال: «نعم»، قال: وبماذا؟ قال: «مِسْخَنة»، قالوا: فهل كان فيها فضل عنك؟ قال: «نعم»، قال: فما فعل به؟ قال: **«رفع وهو يوحى إلي أني مكفوت غير لابث فيكم، ولستم لابثين بعدي إلا قليلاً، بل تلبثون حتى تقولوا متى، وستأتون أفناداً يفني بعضكم بعضاً، وبين يدَي الساعة مَوْتَانٌ شديدٌ، وبعده سنوات الزلازل»**.

رواه أحمد (٤٠٤/٤)، والدارمي (٥٦)، والحاكم (٤٤٧/٤/٤٤٨) وسنده صحيح.

وصححه الحاكم، وقال الذهبي: من غرائب الصحيح.

«مسخنة»: بكسر الميم القِذر. «مكفوت» أي: ميت ومضموم إلى

القبر. «أفناداً» أي: تأتون جماعة إثر جماعة. «يفني» أي: يقتل بعضكم بعضاً. «الزلازل»: جمع زلزلة وهي التحرك والاضطراب.

فالحديث يدل على أنه سيقع موتان كثير بين يدَي الساعة ثم يعقب ذلك سنوات كلها زلازل وتحركات للأرض.

[١١١] ومنها: عن عبدالله بن حوالة أنه نزل على ابن زغب الأيادي فقال له: بعثنا رسول الله ﷺ لِنغْنَمَ على أقدامنا فرجعنا لم نغنم شيئاً وعرف الجُهد في وجوهنا فقام فينا فقال: **«اللهم لا تكِلْهم إليّ فأضعُفَ عنهم، ولا تكِلْهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها، ولا تكِلْهم إلى الناس فيستأثروا عليهم»**، ثم قال: **«ليُفْتَحَنَّ لكم الشامُ، والرومُ، وفارسُ - أو الروم وفارس - حتى يكونَ لأحدكم من الإبل كذا وكذا، ومن البقر كذا وكذا، ومن الغنم حتى يُعْطى أحدُهم مائة دينار فيَسْخَطُها»**، ثم وضع يده على رأسي أو هامتي، فقال: **«يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة، فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك»**.

رواه أحمد (٥/٢٨٨)، وأبو داود في الجهاد (٢٥٣٥). قال الحافظ: لا بأس بإسناده. فهذا الحديث مع كونه فيه معجزات للنبي ﷺ بما سيقع من الفتوحات وانتشار الخيرات وفيضان المال؛ فيه إخبار بما سيصيب الأمة من الزلازل وكثرة البلايا والأمور العظيمة التي تداهمهم بين يدَي الساعة. وقد تقدم آخر الفتن بأن هذه الأمة لا عذاب عليها في الآخرة، وإنما قدّم لها ذلك في الدنيا فأصابها بالقتل والبلاء والزلازل فذلك حسبها. نسأل الله تعالى العافية.

❑ الخامسة: تقارب الزمان:

وقد جاء في هذا حديث مفصّل مفسّر وهو:

[١١٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعةُ حتى يتقارب الزمان، فتكون السنةُ كالشهر، ويكون الشهرُ**

كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كاحتراق السَّعَفَة أو الخوصة».

رواه أحمد (٥٣٨/٥٣٧/٢)، وابن حبان (١٨٨٧) بسند صحيح، وله شاهد عن أنس رواه الترمذي في الزهد (٢١٤٩) بمثله غير أن فيه: «كالضرمة من النار». والضرمة: بفتح وسكون، الشعلة الواحدة، وبالتحريك الشعفة في طرفها نار، وقد تكلم علماؤنا القدامى رحمهم الله تعالى في معنى هذا التقارب وتوجيهه فكلٌ قال بما ظهر له، والحقيقة أن تقارب الزمان هو الذي نعيشه نحن اليوم بعد ظهور هذه المركوبات المخترعات من السيارات، والقطارات، والطائرات، فحصل بها طي الزمان والمكان معاً فأصبحت المسافة التي كانت تقطع في السنة، تطوىٰ في شهر أو أقل وكذا مسافة الشهر تقطع مثلاً في أسبوع في سيارة ونحوها، وقد تقطع في ثلاث ساعات وهكذا، فهذا هو التقارب الظاهر والله أعلم بمراد نبيه ﷺ، وليس المراد بالتقارب نقصان السنين والأيام والشهور أو ذهاب البركة كما قيل.

❑ الخامسة والسادسة والسابعة: ظهور الفتن وكثرة الهرج والقتل واستفاضة المال:

وقد تقدم كل ذلك سابقاً في الفتن.

❑ الثامنة: التطاول في البنيان:

يعني التنافس في طول البناء والمباهاة في ذلك وهذا قد وقع امتداداً من العصور الأولى حتى وقتنا هذا، وقد فشى ذلك في هذا العصر بكثرة وتجلّى بأجلى مظهر في أصحاب ذلك.

[١١٣] وقد سئل رسول الله ﷺ متى الساعة؟ فقال: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها: إذا رأيت الأمة تلد ربتها فذاك من أشراطها، وإذا رأيت الحفاة العراة الصم البكم ملوك الأرض فذاك من أشراطها، وإذا رأيت البَهم يتطاولون في البنيان فذاك من أشراطها**».

رواه البخاري في تفسير لقمان (١٠/١٣١)، ومسلم في الإيمان عن أبي هريرة.

وتقدم نحوه عن عمر مطولاً في حديث جبريل عليه السلام في الإيمان، فهذه العلامة ظاهرة في الكثيرين من الحفاة العراة رعاء الشاء ففيهم الملوك والزعماء، وفيهم المتنافسون والمتباهون في طول القصور والعمارات، وقد كانوا بالأمس القريب رعاة جهلة صمًّا بُكماً... فصلّى الله وسلّم وبارك على هذا النبي العظيم وعلى آله وصحبه أجمعين.

❑ التاسعة: غبطة أهل القبور وتمني الموت:

هذا أيضاً وقع بكثرة في عصور مختلفة مرت فيها فتن وابتلي الناس ببلايا تمنوا فيها الموت، وقد قدّمنا هذا في الفتن.

* * *

❃ المباهاة والتفاخر في بناء المساجد

[١١٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقومُ الساعةُ حتى يتباهى الناسُ في المساجد**».

رواه أحمد (٣/١٣٤/١٤٥/١٥٢/٢٣٠/٢٨٣) من طرق، وابن حبان (٣٠٧/٣٠٨)، ورواه أبو داود والنسائي في الكبرى (١/٢٥٥)، والدارمي بلفظ: «**من أشراط الساعة...**» إلخ، وهو صحيح.

«التباهي»: التفاخر، وهو واقع منذ القرن الأول أيام بني أمية، وامتد ذلك عصراً فعصراً حتى وقتنا هذا، وما أكثر ذلك في زماننا، ويزيدون في الطين بلّة فيكتبون أسماء بانيها، وذلك يدل على عدم الإخلاص في تأسيسها، والتفاخر في ذلك دائرٌ بين الملوك وذوي الترف والمبذرين إخوان الشياطين من الأغنياء.

* * *

❋ صيرورة بلاد العرب مروجاً

[١١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحداً يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً**».

رواه مسلم في الزكاة (٩٧/٧)، وأحمد (٤١٧/٣٧١/٣٧٠/٢).

«مروجاً»: جمع مَرْج بسكون الراء هو مرعى الدواب.

[١١٦] وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه أنهم خرجوا مع رسول الله ﷺ عام تبوك...، فذكر الحديث. وقد تقدم في السيرة وفيه: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما ههنا قد مُلِيءَ جِنَاناً**».

رواه أحمد (٢٣٨/٢٣٧/٥)، ومسلم في الفضائل (٤١/٤٠/١٥).

وقوله: «جناناً» أي: بساتين وعمراناً.

ما في الحديثين معجزة للنبي ﷺ إضافة إلى ما فيهما من أشراط الساعة وهو أن تصير بلاد العرب عيوناً ومروجاً وأنهاراً وبساتين وأشجاراً بعد أن كانت رمالاً وأراضي قاحلة صحراء لا ماء فيها.

وقد أصبحت كذلك وصدق الواقع ما أخبر به ﷺ من علامات الساعة، فبلاد العرب اليوم ظهرت فيها آبار وعيون ومياه جارية، ونشأ عن ذلك بساتين هنا وهناك ومزارع وجنان. وأصبحت تبوك مدينة ذات بساتين ومياه متدفقة كما تنبأ به نبينا ﷺ، بل أصبحت بلاد الخليج التي كانت بالأمس قواحل ومتخلفة ذات حضارة وبنايات وطرق قد تفوق كثيراً من البلاد المتحضرة المتقدمة.

❋ ❋ ❋

❋ أسعد الناس بالدنيا السقطاء

[١١٧] عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعةُ حتى يكون أسعدَ الناس بالدنيا لكعُ بن لُكَع**».

رواه أحمد (٢٨٩/٥)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٨)، وابن ماجه (٤٠٤٣) بسند صحيح.

وله شاهد عن أنس رواه ابن حبان (١٨٨٥).

«اللكع»: يطلق على معان، والمراد به هنا الساقط اللئيم الذي لا قيمة له ولا اعتبار به.

والحديث من أبهر معجزات النبي ﷺ وعلامات قرب الساعة وحلولها، فالذين يمثلون شؤون الحياة العامة ويسعون في مصالح الأمة هم أرباب الثراء وذوو الغنى والأموال الباهظة، وأكثرهم سقطاء لئام أنذال لا دين لهم ولا قيمة لهم عند الله عزّ وجل.

ولا شك أن الدنيا تشمل المال والرئاسات ومقاعد السلطة والزعامة... وهذه الطبقة هي التي تمثل الدنيا وهي أسعد بها من غيرها. وإذا كانت هي الآخذة بأزمة الحياة انخرم نظام الدين والدنيا وكانت الساعة على الأبواب.

❋ ❋ ❋

❋ ظهور أقوام يأكلون بألسنتهم

[١١٨] عن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يخرجَ قومٌ يأكلون بألسنتهم كما تأكل البقر بألسنتها**».

رواه أحمد (١٨٤/١٧٦/١٧٥/١) من طرق هو بها صحيح.

هؤلاء الأقوام يحتمل أن يكونوا يأكلون بألسنتهم على ظاهر الحديث حقيقة، وهذا الصنف موجود بكثرة في المطاعم الصغيرة التي تقدم للمارّة أكلات خفيفة يتولون أكلها بألسنتهم يلحسونها.

ويحتمل أن يكون ذلك مجازاً كمن يأكل بالتجسس على المرشدين والخطباء والمحاضرين من طرف الدول، ويحتمل أن يكونوا علماء السوء الموظفين مع الظلَمَة أو الكفرَة، ويحتمل أن يكونوا الزعماء الخوَنة أو البرلمانيين وأرباب المجالس البلدية الكذّابين النصّابين، ويحتمل أن يكونوا الأدباء الثرثارين والشعراء الفشّارين... فكل ذلك يحتمله الحديث.

وعلى أيٍّ، فكل من يأكل بلسانه سواء كان حقيقة أو مجازاً فوجوده من أشراط الساعة، وكل ما ذكرناه واقع.

* * *

تضييع الأمانة

[١١٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: بينما النبي ﷺ في مجلس يُحدّث القوم، جاءه أعرابي قال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله ﷺ يحدّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع حتى إذا قضى حديثه، قال: **«أين السائل عن الساعة؟»** قال: ها أنا يا رسول الله، قال: **«إذا ضُيّعت الأمانةُ فانتظر الساعة»** قال: كيف إضاعتها؟ قال: **«إذا وُسِّد الأمرُ إلى غير أهله»**.

رواه أحمد (٣٦١/٢)، والبخاري في العلم (١٥١/١)، وفي الرقاق (١١٦/١٤).

«الأمانة»: كل ما ائتُمن عليه الإنسان، وهي ضد الخيانة. وأعظم الأمانات التكاليف الشرعية بداية من أصول الدين ثم جميع فروعه، وهذه هي الأمانة التي عرضها الله عزّ وجل على السماوات والأرض والجبال فأبَيْن

أن يحملنها. وأشفقن منها، أي: خفنَ من عدم القيام بها، فحملها الإنسان لجهله بعاقبتها وظلمه نفسه بعدم الوفاء بالقيام بها.

قال القرطبي: الأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال وهو قول الجمهور، بل كل ما أوجده الله لنا وفينا فهو أمانة، فشؤون الدين أمانة وشؤون الدنيا من مال وزوجة وأولاد... أمانة، فإذا أضعنا ذلك واستهترنا بها جاءت الساعة.

وقوله: «إذا وسد الأمر...» إلخ، إذا أسند الأمر كما في رواية، والمراد بالأمر هنا كما قال الحافظ جنس الأمور التي تتعلق بالدين كالخلافة، والإمارة، والقضاء، والإفتاء، وغير ذلك.

وقال ابن بطال: معنى أُسْنِدَ الأمرُ إلى غير أهله أن الأئمة قد ائتمنهم الله على عباده، وفرض عليهم النصيحة لهم، فينبغي لهم تولية أهل الدين، فإذا قلدوا غير أهل الدين فقد ضيّعوا الأمانة التي قلّدهم الله تعالى إياها.

وهذه العلامة وهي تضييع الأمانة وإسناد الأمور إلى غير أهلها قد ظهرت منذ العصور الأولى ولكن تمّ تضييعها في وقتنا بالكلية، فقد انقلبت الأحوال وانخرم نظام الحياة وعاد على غير شريعة الله، ولم يبقَ أمر من الأمور إلا وأسند إلى غير من هو أهل له، فالله المستعان على هذه المصيبة وأمثالها...

* * *

❋ المسخ والخسف والقذف

[١٢٠] عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**في هذه الأمة خسْفٌ، ومسْخٌ، وقَذْفٌ**» فقال رجل من المسلمين: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «**إذا ظهرت القِيَانُ، والمعازفُ، وشُرِبَتْ الخمور**».

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٤٢) بسند حسن، وقد تقدم.

وقوله: «القيان» جمع قينة وهي المغنية.

[١٣١] وعن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: **«ليكونن من أمتي أقوامٌ يستحلون الحر، والحرير، والخمر، والمعازف، ولينزلَنَّ أقوامٌ إلى جنب عَلَم يروح عليهم بسارحة ثم يأتيهم لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غداً فيُبَيِّتُهم الله ويضع العَلَم، ويمسخُ آخرين قردةً وخنازير إلى يوم القيامة»**.

وفي رواية: **«يُعزفُ على رؤوسهم بالمعازف والقينات، يخسف الله بهم الأرض»**.

ذكره البخاري معلّقاً في صحيحه، ورواه أبو داود في اللباس وابن ماجه في الفتن، وغيرهم.

والحديث صحيح خلافاً لمن طعن فيه، وقد تقدم في الأدب في بحث الغناء.

[١٣٢] وعن نافع رحمه الله تعالى أن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما جاءه رجل فقال: إن فلاناً يقرأ عليك السلام، فقال: إنه بلغني أنه قد أحدث، فإن كان قد أحدث فلا تقرئه مني السلام، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«في هذه الأمة أو في أمتي خسف، أو مسخ، أو قذف في أهل القَدَر»**.

وفي رواية: **«يكون في أمتي خسفٌ، ومسخٌ، وذلك في المكذبين بالقَدَر»**.

رواه أحمد (٦٢٠٨/٥٦٣٩/٥٨٦٧/٦٢٠٨)، وأبو داود (٤٦١٣)، وابن ماجه (٤٠٦١)، والحاكم (٨٤/١) من طرق وألفاظ بأسانيد صحيحة.

قوله: «أحْدَث» أي: ابتدع بدعة. وقوله: «مسخ» هو تغير من صورة إلى أخرى. وقوله: «خسف» يحتمل خسف الأرض، ويحتمل خسف الوجوه أي: ذهاب نورها. و«قذف»: هو ظاهر في القذف الحالي من

الطائرات والبوارج والمدافع بالصواريخ، وما في هذه الأحاديث جميعها من أشراط الساعة كظهور المغنيات، وضرب المعازف على رؤوس شَرَبَة الخمر والراقصات، واستباحة واستحلال الزنا وما ذكر معه، والتكذيب بالقدر، وغير ذلك.

وأن هؤلاء سيمسخهم الله قردة وخنازير ويخسف الله بهم الأرض ويزلزلهم ويُرْمَوْن بقذائف من النار تحرقهم وتدمرهم عياذاً بالله، وكل ذلك قد حصل في عصرنا وبعضه ممتد من عصور سابقة.

* * *

❁ الكاسيات العاريات

[١٢٣] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكونُ في آخر هذه الأمة رجالٌ يركبون على المياثِر حتى يأتوا أبوابَ المساجد، نساؤهم كاسياتٌ عارياتٌ على رؤوسهن كأسنمة البُخت العجاف، الْعَنوهُنَّ فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمةٌ من الأمم لخدمْنَ نساؤكم نساءهم، كما يَخدمْنَكُم نساءُ الأمم قبلكم**».

رواه أحمد (٢٢٣/٢)، والحاكم (٤٣٦/٤)، وابن حبان (٥٧٥٣)، والطبراني في الصغير (١١٢٥) وصححه الحاكم على شرطهما، لكن عبدالله بن عياش روى له مسلم في الشواهد فقط، ولا ينزل حديثه عن رتبة الحسن، ويؤيد الحديث ما يأتي عقبه.

«المياثر»: جمع ميثرة، هي سروج عظام تكون فروشها من الحرير.

هذا الحديث الشريف منطبق تمام الانطباق على أهل عصرنا الذين يركبون السيارات الفخمة ويأتون للصلاة في المساجد ويصحبون معهم نساءهم المتفرنجات اللابسات الألبسة الفرنجية التي تحدد عوراتهن، ويكشفن أذرعهن وصدورهن، وقد يكشفن أكثر أفخاذهن مع كشف شعور رؤوسهن وقد يصففنها عند الكوافير حتى تصير كأسنمة البخت من الإبل، فيدخل

الرجال المساجد للصلاة زعموا، فتبقى نساؤهم العاريات في تلك السيارات ينتظرنهم.

فهذا الصنف من الرجال مع نسائهم على هذه الحالة، نعيش معه اليوم وهو من أعظم معجزات نبينا ﷺ وعلامات الساعة، وهو يحدثنا بأننا في آخر الأمة، وفي الحديث أن هؤلاء النسوة ملعونات وأننا مأمورون بلعنهن، ولا شك أن رجالهن ملعونون كذلك وهم كنسائهم من أهل النار كالحديث التالي:

[١٢٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«صنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساءٌ كاسيات عاريات، مائلات، مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»**.

رواه أحمد ومسلم، وقد تقدم في المعجزات فهناك شرحه.

والحديث كسابقه، وفيه زيادة ذكر أعوان الظلمة المرتزقة الذين يعتدون على الناس بعصيهم، وقد أخبر ﷺ عنهم بأنهم صنفان من أهل النار لم يكونا ظهرا بعدُ فظهرا في عصرنا معاً، ثم خصص ﷺ أولئك النسوة بالذكر وأنهن لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها مع أن ريحها ليوجد من مسافة خمسمائة عام. وهذا يدل على أنهن كافرات مرتدّات وإن كنّ يزعُمنَ أنهن مسلمات، لأن أكثر هؤلاء من المثقفات الثقافة الفرنجية اللاتي لا يقبلن أحكام الله وما شرعه لعباده فيعترضن على الله ويحكِّمن عقولهن.

* * *

حسر الفرات عن كنز أو جبل من ذهب

[١٢٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى يَحسِرَ الفراتُ عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه،**

فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، فيقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا أنجو».

وفي رواية: **«يوشك الفرات أن يَحْسِرَ عن كنز من ذهب، فمَن حضره فلا يأخذ منه شيئاً»**.

رواه البخاري (١٦/)، ومسلم (١٩/١٨)، وأبو داود (٤٣١٣)، والترمذي آخر صفة الجنة طبع شاكر رقم (٢٥٦٩).

[١٣٦] وعن أُبي بن كعب رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يوشك الفراتُ أن يحسِرَ عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول مَن عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه ليُذْهَبَنّ به كله»، قال: «فيقتتلون عليه فيقتلُ من كل مائة تسعة وتسعون»**.

رواه مسلم في الفتن (١٩/١٨).

«يحسر»: بفتح الياء وكسر السين، أي ينكشف ويذهب ماؤه. و«الفرات» بضم الفاء: نهر عظيم في العراق يأتي من تركيا ويمر بالعراق كدجلة، ويصب في الخليج العربي.

وكشفه عن كنز أو جبل من ذهب إشارة والله أعلم إلى ما ظهر في هذا العصر من آبار ومعادن البترول بالعراق حذاء الفرات وغيره، ويسمُونه الذهب الأسود، وسمّاه النبي ﷺ كنزاً أو جبلاً من ذهب.

فالظاهر أنه المراد لا سيما وأنه ظهر آخر الزمان علامة للساعة، وأخبر ﷺ بأنه سيقع التقاتل لأجله وأنه سيقتل في سبيله تسعة وتسعون في المائة والكل منهم يتمنى النجاة، وهذا واضح بعد أن هاجمت أمريكا وإنجلترا العراق وقتل من العدو والعراقيين الشيء الكثير.

وقد نهى ﷺ من حضره أن لا يأخذ منه شيئاً.

وجاء في رواية: **«يحضره شرار الخلق»**.

والحاضرون له الذين يتولون استخراجه والمقاتلون عليهم هم الأمريكان والإنجليز وهم شر الخلق.

وهذا من أعظم معجزاته ﷺ وباهر علامات الساعة التي أخبر بها.

* * *

سنون خدّاعة

[١٢٧] عن عمرو بن عوف رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن بين يدَي الساعة سنين خدّاعة، يُصدَّقُ فيها الكاذبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادقُ، ويُؤتمنُ فيها الخائنُ، ويُخَوَّنُ فيها الأمين، ويَنْطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ»**، قيل: يا رسول الله وما الرويبضة؟ قال: **«الأمْرؤ التافه يتكلم في أمر العامة»**.

رواه البزار (٣٣٧٣) وسنده حسن، فإن ابن إسحاق صرّح بالتحديث.

وهو صحيح لشواهد له عن أنس.

رواه أحمد (٢٢٠/٣)، وأبو يعلى (٣٧١٥) بسند حسن أيضاً.

وعن أم سلمة رواه الطبراني في الأوسط والكبير (٣١٤/٢٣).

وفي سنده عبدالله بن صالح كاتب الليث مختلف فيه.

وعن أبي هريرة رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٣٦) وسنده ضعيف.

وعلى أيٍّ، فالحديث صحيح لغيره.

«سنين خدّاعة» أي: ينخدع الناس فيها بما يظهر فيها من المغريات وقلب الحقائق.

وما في الحديث بجميع رواياته وطرقه كله موجود، نعيشه كما عاشه من قبلنا حيث انقلبت الموازين والحقائق فأصبح الصادق في الواقع هو الكذاب، والكذاب هو الصادق، والأمين عند الله هو الخائن عند الناس،

والخائن لله ولرسوله ﷺ ولدينه هو الأمين عند أهل عصره، وهكذا كما قدمنا حتى يقال للرجل: «ما أظرفه وما أعقله... وليس في قلبه ذرة من إيمان».

ومن عجيب صدق ما في هذا الحديث على أهل عصرنا هو أنه ظهر مصداق ما فيه، ومن جملة ذلك أن الذين يتولون الكلام على مصالح العامة السقطاء والأنذال الذين لا قيمة لهم عند الله عزّ وجل وهم المعبَّر عنهم بالرويبضة، وهو التافه الساقط.

* * *

البيوت الموشاة وشي المراحيل

[١٢٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعةُ حتى يبني الناسُ بيوتاً يُوَشُّونها وَشْيَ المراحِيل».

رواه البخاري في الأدب المفرد (٧٧٧) بسند صحيح.

«المراحيل»: فسرها بعضهم بأنها الثياب المخططة، وفسرها آخرون بالثياب التي نقش فيها تصاوير الرحال. و«الوشي»: نقش الثوب.

والحديث يشير والله أعلم إلى بنايات خاصة تظهر في الناس تكون من أشراط الساعة وأنها تكون بيوتاً في أشكال غريبة غير معهودة، ومن رأى تفنُّن الناس اليوم في الزخرفة وأنواع الزينة في بناياتهم أدرك سر هذا الحديث وظهر له مطابقته للواقع.

وفي هذا الحديث ذم المبالغة في الزخرفة والإسراف في ذلك لأنه من التبذير الذي نهينا عنه، وليس ذلك من شأن المؤمنين المتقين الذين يريدون الآخرة.

* * *

❁ قتال الترك والأعاجم

[١٢٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً نعالُهم الشعر، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً كأن وجوههم المِجَانُّ المُطْرَقَة»**.

وفي رواية: **«لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا خُوزاً وكِرمان قوماً من الأعاجم، حُمْر الوجوه، فُطْس الأنوف، صغار الأعين، كأن وجوههم المِجَان المطرقة»**.

وفي رواية: **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك قوماً وجوههم كالمجان المطرقة، يلبسون الشعر، ويمشون في الشعر»**.

رواه البخاري في الجهاد في باب قتال الترك (٦/٤٤٥) وفي الأنبياء، ومسلم (١٨/٣٧) وأبو داود (٤٣٠٣/٤٣٠٤)، والترمذي (٢٠٤٥)، وابن ماجه (٤٠٩٦) كلهم في الفتن بألفاظ، ورواه أيضاً النسائي في الكبرى (ج٣/٢٩/٣٠) في الجهاد في غزوة الترك والحبشة.

[١٣٠] وعن عَمرو بن تغلب رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً ينتعلون نِعالَ الشَعَرِ، وإن من أشراط الساعة أن تقاتلوا قوماً عِرَاضَ الوجوه»**.

رواه البخاري (٦/٤٤٤).

«المجان»: جمع مجن بكسر الجيم، من الآلات الحربية القديمة وهو الترس والدرقة. «المطرقة»: بضم الميم وسكون الطاء وفتح الراء، هي التي ركب بعضها فوق بعض لتتقوى، والمراد أن وجوههم بارزة كالمجان المذكورة. وقوله: «خوز» بضم الخاء. و«كرمان»: بكسر الكاف. «فُطْس الأنوف»: جمع أفطس وهو المفترش الأنف. وقوله: «عراض الوجوه» أي: واسعة.

وفي هذين الحديثين علَم من أعلام النبوة وعلامة من علامات قيام الساعة وهو أنه لا تقوم الساعة حتى يتقاتل المسلمون وهؤلاء القوم من

الأتراك والأعاجم، وقد قاتلهم المسلمون أيام الصحابة وفتحوا بلادهم وأصبح أكثرهم مسلمين وخرج منهم أئمة وعلماء في التفسير والحديث والتصوف. . . واللغة والأدب، ثم ارتدّ مَن ارتدّ منهم ثم جاء الأعداء والكفار منهم فهاجموا بلاد الإسلام وقاتلوهم وخربوا ديارهم وفعلوا الأفاعيل التي لم يسمع بمثلها كما تأتي الإشارة إليهم في الحديث الآتي وكما سبق ذكره.

كما غزى الأتراك العثمانيون بلاد العرب وحكموها دهراً من الزمان حتى جاءت الثورة العربية فقام العرب ضد الدولة التركية وكانت قد ضعفت فجاءت الحرب العالمية الأولى فهاجمت جيوش أوروبا العالم الإسلامي واستعمروه وقسموه دويلات وأخذوه من يد الأتراك ثم قام المسمى مصطفى كمال أتاتورك لعنه الله فأعلن الحرب على الإسلام والمسلمين وجعل تركيا دولة علمانية فهي لحد الآن على ذلك، رغم أن فيها مسلمين مضطهدين. وكانت قد فتحت في القرن التاسع الهجري، وستفتح للمرة الثانية قبيل أيام الدجال، كما يأتي إن شاء الله تعالى ذكره.

وهؤلاء الأتراك هم المشار إليهم في الحديث التالي:

[١٣١] عن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يَنزلُ ناس من أمتي بغائط يسمونه البصرة عند نهر يقال له: دجْلة يكون عليه جسر يكثر أهلها، وتكون من أمصار المهاجرين** ـ وفي رواية: **المسلمين** ـ **فإذا كان في آخر الزمان، جاء بنو قَنْطُورَاء عِرَاضُ الوجوه صِغار الأعين حتى ينزلوا على شط النهر، فيتفرق أهلُها ثلاث فرق: فرقة يأخذون أذناب البقر والبرية وهلكوا، وفرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا، وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء».**

رواه أبو داود في الملاحم باب في ذكر البصرة (٤٣٠٦) وسنده حسن أو أعلى، لوجود سعيد بن جمهان، وقد وثقه ابن معين وأبو داود والنسائي وابن حبان، وكفى، فلا اعتبار بعد هذا بقول أبي حاتم فيه: شيخ يكتب حديثه ولا يحتج به.

«بنو قنطوراء»: هم الأتراك وقنطوراء جدتهم، والأتراك أمة واسعة الأطراف من تركيا المعروفة إلى غربي الصين وكان منهم التتار الذين غزوا بلاد المسلمين وخربوها في المائة السادسة وأوائل السابعة.

وهذا الحديث الشريف يشير إلى غزو هذا الجيل المسلمين وتسلُّطهم عليهم وأنهم سيصلون إلى العراق فيغزون المسلمين فيتفرق المسلمون ثلاث فرق: فرقة تفر منهم وتهيم في البادية، وفرقة تهادنهم وتلحق بهم، وفرقة تقاتلهم فيكرمهم الله بالشهادة.

ولخبث هؤلاء القوم وقساوتهم وتوحشهم أمر النبي ﷺ بتركهم وعدم إثارتهم كالحبشة، فقال ﷺ: **«دَعُوا الحبشةَ ما وَدَعُوكُم، واتركوا التُركَ ما تَرَكُوكُم»**.

رواه أبو داود (٤٣٠٢) في الفتن، والنسائي في الكبرى (٤٣٨٥/٢٩/٣) وفي «المجتبى» أيضاً عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وسنده حسن. فلو كان المسلمون تركوا هؤلاء وأولئك لهان الأمر ولأمنوا من خبثهم وشرهم لكنهم غزوهم وفتحوا بلادهم فكان ما كان، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

فالترك الشرقيون هاجموا البلاد الإسلامية وقتلوا من المسلمين عدداً لا يحصيهم إلا الله، فالتتار لما دخلوا بغداد عاثوا فيها فساداً وقتلوا العلماء والنساء والأطفال فضلاً عن الجيش العباسي الذي كان خليفته آنذاك المستعصم الماجن الفاسق الظالم الضعيف مادياً ومعنوياً، وأحصوا في هذه الحادثة الأليمة من القتلى خاصة ببغداد مليون قتيل.

لكن الله عزّ وجل نصر عباده بالجيوش الإسلامية التي اجتمعت بالشام فكسرت قوة التتار وهزمتهم شر هزيمة وانتصر المسلمون عليهم في وقعة ومعركة عين جالوت المشهورة، ثم كان من رحمة الله تعالى أن أسلم كثير من أولئك الأتراك المتوحشين كما هو معروف في التاريخ، والمقصود أن حديث أبي بكرة يشير إلى هؤلاء القوم وغزوهم بلاد المسلمين ومنها العراق.

* * *

❁ ستة أشراط في نسق واحد

[١٣٢] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من أشراط الساعة أن يُسَلِّم الرجلُ لا يُسلِّم إلا للمعرفة، وأن تفشو التجارةُ حتى تُعين المرأةُ زوجَها، وقطعَ الأرحام، وشهادةَ الزور، وكتمانَ شهادة الحق، وأن يجتازَ الرجلُ بالمسجد لا يُصلِّي فيه»**.

رواه أحمد (٤٠٨/٤٠٧/١)، والبزار (٣٤٠٧)، والطبراني في الكبير (٩٤٩٠)، والحاكم (٤٤٦/٤٤٥/٤) وصححه، وسنده صحيح عند أحمد، وقال في المجمع (٣٢٩/٣٢٨/٧) رجال أحمد والبزار رجال الصحيح. وروى أحمد (٤٠٦/٣٨٧/١) بعضه من طريقين آخرين صحيحين.

هذه أشراط ستة وكلها واقعة، ظهر بعضها منذ أزمنة ووقع بعضها وفشت في زماننا، فمنها: أن لا يسلِّم الرجل إلا على من يعرفه وهو خلاف أدب الإسلام الذي يأمر بإفشاء السلام مطلقاً إلا على كافر أو نحوه. ومنها: انتشار التجارة بكثرة حتى تصبح المرأة تاجرة في المتاجر العامة مساعدة لزوجها... وهذه العلامة لم تفشُ إلا في عصرنا، فالمرأة أصبحت اليوم مشاركة للرجل في المتاجر بل الكثيرون يوظفونها جالبة للزبائن بمظهرها المثير... ومنها: قطيعة الأرحام وهذه لم يخلُ منها زمان ولا مكان كالتي بعدها وهي شهادة الزور، وكذا كتمان الشهادة لمستحقها، أما اتخاذ المساجد طرقاً للمارة من غير أن يصلوا فيها فموجود بكثرة في عصرنا. والله المستعان.

❁ ❁ ❁

❁ من أشراط الساعة ظهور النار من الحجاز، وقعر عدن، وحضرموت

[١٣٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقومُ الساعةُ حتى تخرجَ نارٌ من أرض الحجاز، تُضِيءُ أعناقَ الإبلِ بِبُصْرَى»**.

رواه البخاري (١٦/١٩١/١٩٢)، ومسلم (١٨/٣٠) كلاهما في الفتن.

«الحجاز»: معروفة وهي غير تهامة ونجد. و«بصرى»: بضم الباء هي حوران قرب دمشق من بلاد الشام.

ظهور النار علامة للساعة يحدث مرتين: مرة قبيل الساعة بقريب وهي التي تخرج من حضرموت أو قعر عدن تحشر الناس إلى الشام وهي من الأشراط العشر الكبرى وستأتي إن شاء الله تعالى في حديث مسلم وغيره، أما المرة الأخرى وهي من الأشراط الصغرى وهي المذكورة في هذا الحديث التي تخرج من الحجاز، فقد تقدمت وظهرت في المائة السابعة للهجرة كما ذكر العلماء والمؤرخون وإليكم ما ذكره الحافظ في «الفتح» (١٦/١٩١/١٩٢) عن القرطبي، والنووي وغيرهما.

قال: قال القرطبي في «التذكرة»: قد خرجت نار بالحجاز بالمدينة وكان بدؤها زلزلة عظيمة في ليلة الأربعاء بعد العتمة الثالث من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، واستمرت إلى ضحى النهار يوم الجمعة، فسكنت وظهرت النار بقريظة بطرف الحرة ترى في صورة البلد العظيم، عليها سور محيط عليه شراريف، وأبراج، ومآذن، وترى رجال يقودونها، لا تمر على جبل إلا دكَّته وأذابَته، ويخرج من مجموع ذلك مثل النهر أحمر وأزرق له دَوِيٌّ كدَوِيّ الرعد، يأخذ الصخور بين يديه وينتهي إلى محط الركب العراقي، واجتمع من ذلك ردم صار كالجبل العظيم، فانتهت النار إلى قرب المدينة. ومع ذلك فكان يأتي المدينة نسيم بارد، وشوهد لهذه النار غليان كغليان البحر.

وقال لي بعض أصحابنا: رأيتها صاعدة في الهواء من نحو خمسة أيام، وسمعت أنها رؤيت من مكة المكرمة ومن جبال بُصْرى.

وقال النووي: في «شرح مسلم» (١٨/٢٨): وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة وكانت ناراً عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان وأخبرني من حضرها من أهل المدينة.

وقال أبو شامة في «ذيل الروضتين»: وردت في أوائل شعبان سنة أربع وخمسين كتب من المدينة الشريفة فيها شرح أمر عظيم حدث بها، فيه تصديق لما في الصحيحين فذكر هذا الحديث، قال: فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها أنه بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب... ومن ذلك أن في بعض الكتب ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة في شرقي المدينة نار عظيمة، بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض وسال منها وادٍ من نار حتى حاذى جبل أحد. وفي كتاب آخر: انبجست الأرض من الحرة بنار عظيمة يكون قدرها مثل مسجد المدينة، وهي برأي العين من المدينة، وسال منها واد يكون مقداره أربع فراسخ وعرضه أربعة أميال، يجري على وجه الأرض، ويخرج منه مهاد وجبال صغار، وفي كتاب آخر ظهر ضوءها إلى أن رأوها من مكة، قال: ولا أقدر أن أصف عظمها، ولها دوي... ودام أمرها أشهراً ثم خمدت...

فهذه النار التي ظهرت في القرن السابع هي التي جاءت في حديث الباب.

وقوله: «تُضِيءُ أعناقَ الإبل ببصرى» قال ابن التين: يعني من آخرها يبلغ ضوءها إلى الإبل التي تكون ببصرى من أرض الشام... وقد رأيت ما ذكره من شاهدها وأن ضوءها كان يُرى من أماكن شاسعة.

* * *

❁ تَخَبُّطُ الناسِ في اكتساب المال

[١٣٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليَأْتِيَنَّ على الناسِ زمانٌ لا يُبَالي المرءُ بمَ أخذَ المالَ بِحلالٍ أم حَرَامٍ».

رواه البخاري في البيوع (٥/٢٠٠).

من أشراط الساعة التي تقدمت ولا زلنا نعايشها عدم تحري الناس في الكسب وأنهم يكتسبون المال ويحصلون عليه بأي طريق سواء أكان مشروعاً أم ممنوعاً محرّماً، فالحلال عندهم ما حلّ بأيديهم سواء كان مكتسباً من ربا أو من غصب، أو من غش وخديعة واحتيال، أو من تجارة في محرم، أو من راتب يُتَقاضى في مقابل إذاية المسلمين وظلمهم والحكم عليهم بالقوانين الوضعية، أو معاونة الظلَمَة أو الكفرة.

وهذا ما يعيشه الناس اليوم فلا تكاد تجد أحداً يتحرى الاكتساب من الحلال إلا الواحد في المائة، ولذلك عمّ الحرام كلَّ الناس وفسدت المعاملات ولم يبقَ أحد إلا أكل الحرام أو ما فيه شبهة، والحلال الصرف قلّ جداً جداً.

* * *

❋ التحذير من الدجاجلة الكذّابين

[١٣٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكون في آخر الزمان دجّالون كذّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم لا يُضِلُّونكم ولا يَفْتِنونَكم»**، وفي رواية: **«يحدثونكم ببدع من الحديث»**.

رواه أحمد (٢/٣٤٩)، ومسلم في مقدمة صحيحه.

ظهور هؤلاء الدجاجلة الكذبَة الذين يأتون ببدع من الحديث هم تلامذة المستشرقين من أبناء المسلمين الذين درسوا بأوروبا وأمريكا وروسيا وخرجوا علينا بأفكار ونظريات متطرفة هدّامة مخالفة للإسلام، وهم غير المدَّعين للنبوة والرسالة، فأولئك صنف آخر تقدم الكلام عليهم، وهؤلاء كأولئك كلهم من أشراط الساعة، وقد حذّرنا النبي ﷺ من فتنتهم وضلالهم.

* * *

❋ شُرَطَ آخِرِ الزَّمَانِ

[١٣٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوشك إن طالت بك المدةُ أن ترى قوماً في أيديهم مِثلُ أذناب البقر، يغدون في غضب الله ويروحون في سخطه»**.

رواه أحمد (٣٠٨/٢)، ومسلم في صفة جهنم (١٩٠/١٧).

من أشراط الساعة ظهور شرط من أعوان الظلمة والعلمانيين يجلدون الناس ويضربونهم بعصيهم ظلماً وعدواناً يصبحون مغمورين في سخط من الله، ويمسون في غضب منه. وهؤلاء قد وجدوا منذ أيام دولة الأمويين وامتدوا إلى وقتنا هذا، فلم يخلُ من وجودهم عصر من العصور، ولكنهم في عصرنا كثروا واشتدت على الناس قساوتهم، وخاصة على المؤمنين والمتدينين.

❋ ❋ ❋

❋ موت الفجاة

[١٣٧] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من أشراط الساعة موت الفجأة»**.

رواه أبو عمرو الداني في «الفتن» رقم (٣٩٥) عن الشعبي مرسلاً بسند حسن.

ورواه عبدالرزاق في الجنائز من «المصنف» (٥٩٧/٣)، والطبراني في الصغير عن أنس من طريقين، فإذا ضما إلى مرسل الشعبي كان حسناً.

«الفجأة» بفتح الفاء وسكون الجيم وتفتح: هي البغتة، والمراد بها هنا ما يسمونها اليوم بالسكتة القلبية وهي من علامات الساعة، وقد كانت في كل عصر لكنها اليوم تكاثر الموت بها، وهي راحة على المؤمن.

❋ ❋ ❋

❋ انتشار دين الإسلام وظهوره على سائر الأديان

[١٣٨] عن المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله الله هذا الدين بعِزِّ عزيز، أو بذُلِّ ذليل، عِزًّا يُعِز الله به الإسلام، وذُلاًّ يُذِلُّ به الكفر**».

رواه أحمد (٤/٦)، وابن حبان في صحيحه (٩٣/٩٢/١٥)، والحاكم (٤٣٠/٤)، والبيهقي في السنن (١٨١/٩) وغيرهم بسند صحيح، وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

«**هذا الأمر**»: يعني دين الإسلام. «**بيت مدر**» أي: الدور المبنية. و«**وبر**»: هي خيام شعر الإبل.

من أشراط الساعة المستمرة ظهور دين الإسلام وانتشاره في العالم ودخوله الحواضر والبوادي وقد وقع ذلك والحمد لله أيام الصحابة فمن بعدهم بقريب، بحيث لم تمض المائة الأولى للهجرة حتى انتشر في المشارق والمغارب وبقي في انتشار حتى يومنا هذا، فقد دخل اليوم الإسلام أوروبا وأمريكا في غرب الأرض كما دخل آسيا شرقيها وجنوبها وشمالها، ولا يمر يوم أو شهر أو عام إلا ويدخل الإسلام في هذه البلدان المئات والألوف من الناس، وأصبح للإسلام منظمات للداخلين في الإسلام يدعون إليه ويدعمونهُ، فالإسلام ظاهر والحمد لله وإن ضعف أهله مادياً ومعنوياً.

❋ ❋ ❋

❋ من اشراط الساعة فتح القسطنطينية وروما

[١٣٩] عن أبي قبيل قال: كنا عند عبدالله بن عَمْرو رضي الله تعالى عنه وسئل أي المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو روما؟ فدعا عبدالله بصندوق له حِلَقٌ، قال: فأخرج منه كتاباً، قال: فقال عبدالله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتبُ إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تُفتحُ

أولاً أُقسطُنطينيّة أو روما؟ فقال رسول الله ﷺ: **«مدينة هِرَقْل أولاً، يعني: قسطنطينية»**.

رواه أحمد (١٧٦/٢)، والحاكم (٤٢٢/٣) (ج٥٠٨/٤)، وأبو عمرو الداني في «الفتن»، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

«القسطنطينية»: هي إستنبول. و«روما»: عاصمة إيطاليا.

وفتحهما من أشراط الساعة الصغرى والكبرى معاً، أما بالنسبة للصغرى فالقسطنطينية غزاها المسلمون مرات فلم يستطيعوا فتحها إلا في السنة التاسعة للهجرة، فتحها البطل محمد الفاتح العثماني، وظلت دار إسلام قروناً، ثم حكمت بلاد العرب وكانت تمثل الخلافة الإسلامية حتى جاء أتاتورك لعنه الله فجعلها علمانية ملحدة حتى وقتنا هذا، وستفتح مرة أخرى أيام المهدي وسيكون ذلك من الأشراط الكبرى. أما روما ففتحها العثمانيون وبقي نفوذهم على الإيطاليين مدة حتى ضعفوا فطردوا عنها، وسوف تفتح مرة ثانية إن شاء الله تعالى وذلك من الأشراط الكبرى أيضاً.

* * *

❁ صدق رؤيا المؤمن

[١٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا اقترب الزمانُ لم تكذ رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً»**.

رواه البخاري ومسلم وأهل البيت وتقدم في الرؤيا رقم (٧٣١).

إذا تباعد الناس عن زمان النبوة وقربت الساعة عوّض الله عزّ وجل المؤمنين عن الوحي الإلٰهي بالرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له بشرى له ولا تكاد تخالف الواقع ويكون ذلك علامة قرب الساعة.

* * *

❋ تتابع أشراط الساعة

[١٤١] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الآياتُ خَرَزاتٌ منظومَاتٌ في سِلْك، فإن يُقْطَع السلك يتبع بعضها بعضاً»**.

رواه أحمد (٢/٢١٩)، والحاكم (٤/٤٧٣/٤٧٤) من طريقين هو بهما صحيح.

[١٤٢] وله شاهد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يخرج الآيات بعضها على أثر بعض تتابعْن كما تتابعُ الخَرَز في النظام»**.

رواه الطبراني في الأوسط (٤٢٨٣) قال في المجمع (٧/٣٢١) ورجاله رجال الصحيح غير عبدالله بن أحمد بن حنبل وداود الزهراني وكلاهما ثقة.

السلك هنا: الخيط الذي ينظم فيه خرزات الجواهر ونحوها.

والحديثان يدلان على أن أشراط الساعة يتابع بعضها بعضاً في الخروج كلما جاءت آية تتبعها أخرى وهكذا حتى تقوم الساعة، فما من عصر ووقت إلا ويظهر فيهما علامات لم تكن مضت ولا ظهرت.

❋ ❋ ❋

❋ كفر أهل العراق، والشام، ومصر، ومنعهم حقوق اللّه

[١٤٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«منعت العراقُ دِرهمَها وقفِيزَها، ومنعت الشام مُدَّيها ودينارَها، ومنعت مصرُ إرْدَبَها ودينارها، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم، وعدتم من حيث بدأتم»**، شهد على ذلك لحمُ أبي هريرة ودمه.

رواه أحمد (٢/٢٦٢)، ومسلم في الفتن (١٨/٢٠)، وأبو داود في الإمارة (٣٠٣٥).

«قفيزها»: بفتح القاف. «مديها»: بضم الميم وسكون الدال. «إردبها»: بكسر الهمزة وسكون الراء. وهذه كلها مكايل لهذه الأقطار كانوا يكيلون ويكتالون بها الثمار والحبوب.

والحديث فيه معجزة للنبي ﷺ بأن هذه الأقطار ستفتح ويصبح أهلها يؤدون حقوق الله الواجبة عليهم، ثم بعد ممر الزمان سيمتنعون من ذلك، وقد اختلف العلماء في توجيه هذا المنع فذكروا لمعناه ثلاثة أقوال:

الأول: إنهم عندما يسلمون ستسقط عنهم الجزية.

الثاني: معناه أن العجم والروم يستولون على البلاد آخر الزمان فيمنعون حصول ذلك للمسلمين.

الثالث وهو الظاهر: أنهم يرتدون آخر الزمان فيمنعون ما لزمهم من حقوق الله تعالى.

وهذا ما يشير إليه الحديث فإن دول هذه الأقطار أصبحت اليوم بعد إسلامها دهراً من الزمان مرتدة علمانية ملحدة لا تعترف بكثير من شرائع الله عزّ وجل... ثم إنها تحارب من يدعوها إلى تحكيم شرع الله وتضطهد المسلمين الملتزمين وهذا شأن أكثر الدول المتمسلمة اليوم، ويؤيد ما ذكرناه قوله ﷺ آخر الحديث: **«وعدتم من حيث بدأتم»**، ومعناه: عدتم إلى كفركم الأول.

* * *

❋ التقاتل مع اليهود

[١٤٤] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يُقاتلَ المسلمون اليهودَ فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود»**.

وفي رواية: **«تقتلون أنتم ويهود»**.

وفي أخرى: «**تقاتلكم اليهود فتُسَلَّطون عليهم**».

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٢٦)، ومسلم في الفتن (١٨/٤٤/٤٥) بالرواية الأولى والثانية، والثالثة للبخاري في المناقب (٣٥٩٣)، وفي الجهاد (٢٩٢٥)، ومسلم في الفتن (١٨/٤٤).

«الغرقد»: بفتح الغين والقاف بينهما راء ساكنة، نوع من شجر فيه شوك.

والحديث علَم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ ومعجزة عظيمة له صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وزوجه وذريته وصحبه ومحبِّيه.

فإنه لم يكن يتصور منذ عهد قريب أن تكون لليهود قوة، وجمع لشملهم حتى يقاتلوا المسلمين حيث إنهم كانوا قطعاً في الأرض مفرّقين شذر مذر أذلاء لا قيمة لهم بين سائر الدول ولكنهم بعد عشية وضحاها أصبحت لهم دولة وقوة هائلة استطاعوا بها أن يتحدوا كل قوة المتمسلمين.

فقبل خروج الإنجليز من فلسطين سُلِّمَتْ لليهود فاستعمروها باتفاق من فرنسا وإنجلترا وأمريكا... وكوّنوا بها دويلتهم بدعم من أولئك الكفرة الملاعن وقاتلوا المسلمين وأذاقوهم سوء العذاب وأخرجوهم من ديارهم، ولم يزالوا كذلك لحد الساعة عام (١٤٢٧) وذلك أزيد من نصف قرن. فكان ذلك تصديقاً لقول المعصوم الصادق المصدوق ﷺ: «**تقاتلكم اليهود**» «**تقتتلون أنتم ويهود**» وأن وقوع ذلك من أشراط الساعة، وسيأتي وقت ينتصر فيه المسلمون عليهم بإذن الله ويُسَلَّطون عليهم حتى يختبىء اليهودي وراء الحجر والشجر فيُنادى المسلم من قبل الحجر أو الشجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي مختبئاً فتعال فاقتله، وهذا لا بد أن يقع لكنه لم يَحِنْ وقته بعدُ، لأن المسلمين الذين ينتصرون على اليهود ويكرمهم الله بكلام الحجر والشجر ليسوا بالموجودين حالياً لأن الله عزّ وجل علّق نصرهم على عدوهم بنصرهم الله تعالى كما قال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾ وهؤلاء المسلمون الحاليون لم ينصروا الله فينصرهم، فإذا جاء من ينصره فعند ذلك سيهزمون اليهود ويقتلونهم قتلاً ذريعاً ويقطعون دابرهم،

وهذا والله أعلم لا يكون إلا زمان عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام أيام قتل الدجال الذي سيفتن العالم مع اليهود كما سيأتي في الأشراط الكبرى.

أما انتصار المسلمين اليوم على اليهود فمستحيل عادة... لأن اليهود متفوقون عليهم في الأسلحة المتطوِّرة المدمرة وفي التدريب العسكري وفي كل الماديات مع دعمهم من طرف القوة العالمية التي تمثلها أمريكا وحلفاؤها، والمسلمون الذين يحاربونهم ليس لهم شيء من ذلك، أضف إلى ذلك بُعدهم عن دينهم وضعف قوتهم المعنوية التي بها يكون النصر من عند الله ولو مع ضعف القوة المادية.

وعلى أيٍّ، فظهور دولة اليهود واجتماعهم في الشرق الأوسط وقتالهم المسلمين من علامات قرب الساعة الصغرى والكبرى، وأن ذلك ينذر بخروج الدجال وانتهاء دولتهم ومحوهم من الأرض، وكل ما هو آت قريب ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

* * *

كثرة الروم من أشراط الساعة

[١٤٥] عن المستورد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**».

رواه مسلم في الفتن (٢٣/٢٢/٨).

هذه أيضاً آية أخرى ومعجزة للحبيب المصطفى ﷺ وهي تكاثر الروم قبل قيام الساعة، والمراد بالروم هم دول أوروبا الآن مع أمريكا وهم متكاثرون حالياً. وهم في ازدياد، وسيأتي وقت يكونون فيه أكثر من غيرهم، وذلك من الأشراط الصغرى والكبرى.

* * *

❊ التسافد في الطريق

[١٤٦] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تتسافدوا في الطريق تسافد الحمير»**، قلت: إن ذاك لكائن؟ قال: **«نعم ليكونَنَّ»**.

رواه ابن أبي شيبة وابن حبان بالإحسان (١٥/١٧٠) وبالموارد (١٨٨٩)، والبزار (٣٤٠٨) وغيرهم بسند صحيح. وأخرجه الحاكم (٤/٤٥٥/٥٥٦/٤٥٧) من طريقين آخرين عنه موقوفاً وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وسيأتي في الأشراط الكبرى في ذهاب المؤمنين.

[١٤٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمةُ حتى يقومَ الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق، فيكونُ خيارُهم يومئذ من يقول: لو وارَيْتَها وراء هذا الحائط»**.

رواه أبو يعلى (٦١٨٣) بسند صحيح، قال في «المجمع» (٣٣١/٧) ورجاله رجال الصحيح.

قوله: «تتسافدوا» التسافد هو التهارج والوقوع على النساء جهاراً كالحمير.

قال النووي في شرح حديث النواس الآتي: أن يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير.

وما ذكره النبي ﷺ في هذين الحديثين قد ظهرت بوادره في عصرنا هذا وخاصة في بلاد الغرب من دول أوروبا كفرنسا، وألمانيا، وإنجلترا، وأمريكا وغيرها، فإنهم باعتبارهم لا يمنعون الزنا ولا يعترفون بتحريمه، لهم دور وأحياء خاصة بالزنا والزناة، ولمن يتعاطى الزنا من النساء حقوق وقوانين اجتماعية معترَف بها من طرف دولهم، ولذلك فإن تعاطي الزنا وممارسته لا يتحاشون عنه ولا يستحيون منه أمام الناس، وقد ذكر من عاش عندهم من المسلمين أن لهم دوراً وأندية تجمع العراة والعرايا، ويتلبسون بالزنا مجتمعين هذا هنا وآخر هناك... من غير أن يتستروا عن بعضهم

بعضاً، وقد يوجد في الشوارع وفي الحدائق العامة والمنتزهات رجال ملتصقون بالعواهر أو الخليلات يزنون بهن من قيام، وما لنا نذهب بعيداً فهذه المحطات الفضائية التلفزيونية تعرض على شاشاتها من ذلك ما يشاهده كل من استعرضها مما يستحيي منه إبليس، وفي البلاد الإسلامية قريب مما عند الغربيين وهم في طريق ذلك، بل قد شوهد تعاطي الزنا عندنا بالمغرب تحت أشجار البساتين وعند جدرانها أيام الاحتلال الإسباني لطنجة في الأربعينيات.

وكان المستعمرون قد أعلنوا الزنا رسمياً في جميع البلاد الإسلامية التي استعمروها، وكانوا عيّنوا لذلك أحياء خاصة في كل مدينة لا يمنع من ذلك مريدوه، وطبقوا ذلك على المسلمين كما هو موجود في بلادهم، وهذا كله من علامات الساعة، وسيأتي وقت لاحقاً يتسافد فيه النساء والرجال في الطرقات جهاراً أفشى وأكثر مما يوجد عند أوروبا وأمريكا الآن، وسيكون ذلك من الأشراط الكبرى، وسوف نعود لذكر ذلك في حديث النواس وغيره.

* * *

❁ ذهاب العقول

[١٤٨] عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن بين يدَي الساعة الهَرْجَ القتل؛ ما هو قتْل الكفار، ولكن قتل الأمّة بعضها بعضاً، حتى إنّ الرجل يلقاه أخوه فيقتله، يَنْتزعُ عقولُ أهل ذلك الزمان، ويَخلُف لها هباء من الناس يَحسِبُ أكثرهم أنهم على شيء وليسوا على شيء»**.

رواه أحمد (٣٩١/٤/٣٩٢/٤٠٦/٤١٤)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٥٩) من طرق بعضها صحيحة، ولفظ ابن ماجه ورواية لأحمد: فقال بعض المسلمين: يا رسول الله إنا نقتل الآن في العام الواحد من المشركين كذا وكذا، وفي رواية: سبعين ألفاً، فقال رسول الله ﷺ: **«ليس بقتل**

المشركين ولكن يقتل بعضكم بعضاً حتى يقتل الرجل جاره، وابن عمه، وذا قرابته»، فقال بعض القوم: يا رسول الله ومعنا عقولنا ذلك اليوم، فقال رسول الله ﷺ: **«لا، تُنزعُ عقول أكثر ذلك الزمان، ويَخلُف له هباء من الناس لا عقول لهم»**.

قوله: «هباء» بفتحتين هو الذر الذي يبدو صغيراً في كوة شعاع الشمس، ومراده في الحديث يظهر أقوام سقطاء لا عقول لهم.

في الحديث معجزة للنبي ﷺ في إخباره بنزع العقول من الناس بين يدَي الساعة، وأنهم سيصبحون لذلك لا يتحاشون عن سفك دماء بعضهم بعضاً فيقتل الرجل أخاه وابن عمه وقريبه وجاره، لأنه فاقد العقل وبالتالي فاقد الدين، ومَن كان كذلك فلا زاجر يزجره، ولا مانع يمنعه من سفك دماء الأبرياء..

وهذا قد تقدم منذ أزمنة وممتد في جميع العصور حتى عصرنا هذا الذي كثر فيه القتل وذهبت عقول الناس وأصبحوا كالبهائم والمجانين.

هذا ما أردنا ذكره مما صحّ أو حسن من أشراط الساعة الصغرى وما يقاربها إلى عصرنا هذا، وقد ذكرت منها نحواً من ستين علامة أو أكثر، وقد أعرضت عن كثير مما ذكره مَن ألَّف في الأشراط حيث إنهم أدرجوا في ذلك أحاديث موضوعة وواهية وذكروا في ذلك أخباراً وآثاراً ساقطة لا ينبغي للمسلم الاشتغال بها، ومَن رجع إلى «تذكرة» القرطبي، و«الإشاعة» للبرزنجي، وكذا «الإذاعة» للقنوجي، بل و«الموسوعة» لماهر الصوفي، رأى الكثير من هذه الأباطيل والموضوعات.



❁ الأشراط الكبرى

الأشراط الكبرى هي التي إذا جاءت وظهرت قامت القيامة على أثرها وهي ظهور المهدي، وفتح القسطنطينية، وخروج الدجال، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج، وظهور الدخان، وطلوع الشمس من مغربها،

وخروج الدابة، وذهاب الإيمان، ورفع القرآن، وكفر الناس وعبادتهم الأوثان، وهدم الكعبة، وقطع الحج، ووقوع الخسوفات الثلاثة، وقبض أرواح المؤمنين، وخروج النار من قعر عدن تحشر الناس إلى أرض المحشر...

وسنتكلم عليها جميعها على شرطنا بإذن الله وعونه تعالى مرتّبة حسب ما جاءت به الأحاديث النبوية وما سنختاره.

* * *

مبادرة الأشراط الستة بأعمال البِر

[١٤٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«بادروا بالأعمال ستاً: الدجال، والدخان، ودابة الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وأمر العامة، وخويصة أحدكم»**.

رواه أحمد (٢/٣٣٧/٣٧٢/٤٠٧/٥١١)، ومسلم (١٨/٨٧). وابن ماجه (٤٠٥٦) كلاهما في الفتن.

«خويصة أحدكم»: هو الموت.

في الحديث الشريف الإرشاد من حضرة النبي ﷺ إلى المسابقة إلى الإتيان بالأعمال الصالحة والمسارعة إلى الإكثار منها قبل حلول هذه الأشراط الستة وذلك لما لنزولها من الأهوال التي تداهم الناس وتحول بينهم وبين الإتيان بأعمال الخير، وهذه الأشراط ستأتي واحدة واحدة.

* * *

خروج الإمام المهدي عليه السلام

[١٥٠] عن أبي سعيد وجابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«يكونُ في آخر الزمان خليفةٌ يقسمُ المال ولا يَعُدُّه»**.

وفي رواية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خلفائكم خليفةٌ يحثو المال حَثياً لا يعده عدداً**».

رواه أحمد (٣/٣١٧/٣١٨/٣٣٣)، ومسلم في الفتن (١٨/٣٩).

«الحثو والحثي»: هو الحفن باليدين.

وهذا الخليفة المبهم هنا الذي يحثي المال حثياً ولا يعده عدًا هو الخليفة المهدي الذي جاء مبيَّناً في أحاديث أخرى التي جاءت عن النبي ﷺ من طرق متواترة كما نصّ على ذلك جمع من أهل العلم والحديث، منهم الحافظ في «الفتح»، والسخاوي في «شرح ألفية الحديث»، والسيوطي في «الأزهار المتناثرة»، وابن حجر الهيتمي في «الصواعق المحرقة»، والزرقاني في «شرح المواهب»، والشوكاني والقنوجي في كتابين لهما في ذلك.

وأحاديث خروجه الصريحة جاءت عن نحو من ثلاثين صحابياً فيها الصحيح والحسن والضعيف المنجبر كما قال العلماء، وأخرجها الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وأبو يعلى والحاكم وغيرهم من طرق وأسانيد مختلفة المراتب، من أصحها بعد الحديث المتقدم؛ الآتي:

[١٥١] عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو لم يبقَ من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعثَ فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطىء اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قِسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً، لا تذهب أو لا تنقضي الدنيا حتى يملك العرب رجلٌ من أهل بيتي يواطىء اسمُه اسمي**».

رواه أحمد (١/٣٧٧/٤٤٨)، وأبو داود في المهدي (٤٢٨٢)، والترمذي في الفتن (٢٢٦٠) من طرق صحيحة، وحسّنه الترمذي وصححه، وأحد الطريقين عند الترمذي على شرط مسلم.

[١٥٢] وعن علي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لو لم يبقَ من الدهر إلا يومٌ لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً**».

رواه أبو داود (٤٢٨٣) بسند حسن.

[١٥٣] وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«المهدي، من عِترتي، من ولد فاطمة»**.

رواه أبو داود (٤٢٨٤)، وابن ماجه (٤٠٨٦) كلاهما في الفتن بسند حسن صحيح.

[١٥٤] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المهدي مني أجلَى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض قِسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً، يملك سبع سنين»**.

رواه أبو داود (٤٢٨٥) وسنده حسن.

وفي رواية له عند الترمذي (٢٠٦١) وابن ماجه (٤٠٨٣) عن أبي سعيد قال: خشينا أن يكون بعد نبينا حدث، فسألنا نبي الله ﷺ فقال: **«إن في أمتي المهدي يخرج يعيش خمساً أو سبعاً أو تسعاً»**. زيد الشاك قال: قلنا: وما ذاك؟ قال: **«سنين»**، قال: **«فيجيء إليه الرجل فيقول: يا مهدي أعطني أعطني»**، قال: **«فيحثي له في ثوبه ما استطاع أن يحمله»**.

وحسّنه الترمذي وذلك لشواهده.

قوله: «يواطىء اسمه» أي: يوافقه. وقوله: «أجلى الجبهة» أي: عاريها من الشعر. وقوله: «أقنى الأنف» أي: مرتفع وسط قصبة أنفه مع ضيق المنخر.

وفي هذه الأحاديث أمور:

أولاً: اتفق علماء أهل السنة على أنه لا تقوم الساعة حتى يبعث الله خليفة يقال له: المهدي من أهل البيت يحيي الله به ما اندثر من آثار السنّة النبوية، ويميت به ما شاع من ضلالات أهل الباطل وذاع وانتشر، يملأ الأرض عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً يحثو المال حثياً ولا يعده عداً.

واتفقوا على أن الإيمان بخروجه واجب، واعتقاد ظهوره محتم لازم،

حتى ذكروه في جملة العقائد الإسلامية. قال السفاريني في «الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية».

وما أتى في النصِّ من أشراط   فكلُّه حقٌّ بلا شطاط
منها الإمامُ الخاتمُ الفَصِيحُ   مُحمدٌ المهْدِي والمَسيحُ

قال في «شرحه لوائح الأنوار»: قد كثرت الأقوال في المهدي حتى قيل: «لا مهدي إلا عيسى»، والصواب الذي عليه أهل الحق أن المهدي غير عيسى وأنه يخرج قبل نزول عيسى عليه السلام، وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عُدَّ من معتقداتهم... إلخ.

وقال ابن خلدون في «مقدمته»: اعلم أن المشهور بين الكافة من أهل الإسلام على ممر الأعصار، أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين، ويُظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويستولي على الممالك الإسلامية، ويسمى بالمهدي، يكون خروج الدجال وما بعده من أشراط الساعة الثابتة في الصحيح على أثره، وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل معه فيساعده على قتله، ويأتم بالمهدي في صلاته.

ثانياً: دلت هذه الأحاديث على أن اسمه محمد بن عبدالله وأنه من ولد فاطمة بنت سيد العالمين ﷺ، واتفق العلماء على أنه من ذرية الحسن وأنه سيولد آخر الزمان ويُصلحه الله في ليلة، أما ما يذكره الشيعة الإمامية من المهدي المسمى عندهم محمد بن الحسن العسكري الذي غاب في سرداب سامراء وهم ينتظرون خروجه منذ القرن الثالث فهي خرافة من خرافاتهم الكثيرة.

ثالثاً: من صفاته أنه أجلى الجبهة أقنى الأنف، وأنه يعطي الناس المال بالحفنات بدون عد ولا حساب، وذلك لما سيفتح الله عزّ وجل في عصره من خيرات الأرض وبركاتها كأيام عيسى عليهما السلام.

رابعاً: سيكون وقت خروجه عندما تملأ الأرض بالظلم والجور بل

والكفر والإلحاد والعلمانية وهو عصرنا، إذ لا مزيد على ما نعايشه فيملأها قسطاً وعدلاً.

خامساً: في قوله ﷺ: **«يملأ الأرض قسطاً وعدلاً»**، ظاهره يدل على أنه سيملك كل المعمور، وقد قيل ذلك، لكن هذا غير مقطوع به، لما جاء بأنه سيملك بلاد المسلمين فقط، فالله تعالى أعلم.

سادساً: في حديث أبي سعيد أنه سيمكث خليفة راشداً سبع سنين، وفي آخر أيامه يأتي الدجال كما يأتي قريباً.

* * *

❊ أحاديث أخرى تزيد بياناً للإمام المهدي

[١٥٥] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يخرج في آخر أمتي المهدي يُسقيه الله الغيث، وتُخرجُ الأرض نباتها، ويُعطى المال صحاحاً، وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمانياً** ـ يعني حججاً ـ**»**.

رواه الحاكم (٥٥٨/٤) وصححه.

[١٥٦] وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«المهدي منا أهل البيت يُصلحه الله في ليلةٍ»**.

رواه أحمد (٨٤/١)، وابن ماجه (٤٠٨٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٧٧/٣) وفي تاريخ أصبهان (١٧٠/١) من طريقين هو بهما صحيح.

[١٥٧] وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقتتل عند كنزكم ثلاثة، كلهم ابن خليفة، ثم لا يصير إلى واحد منهم، ثم تطلع الرايات السُّودُ من قبل المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يُقتله قومٌ»** ثم ذكر شيئاً لا أحفظه، فقال: **«فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدي»**.

رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٨٤)، والحاكم (٤٦٣/٤)، وكذا أحمد (٢٧٧/٥)، وصححه الحاكم والبوصيري في الزوائد.

وقال ابن كثير في «النهاية»: وهذا إسناد قوي صحيح.

ففي هذه الأحاديث صفات لهذا الإمام ولوقته، ولجهة خروجه. ففيها أن الله عزّ وجل يخرج للناس في أيامه خيرات الأرض وبركاتها، وأنه سيصلحهُ الله في ليلة، وليس كما يقول الرافضة المخذولون. وأن الخلفاء سيقتتلون على كنز ثم يستأثر به واحد منهم، فإذا كان آخر الزمان جاء أقوام من جهة المشرق فتكون بينهم وبين الناس معارك طاحنة ويكون فيها المهدي، فإذا رؤي وجب على الناس مبايعته ولو حبواً ليبايعوه لأنه الإمام المنتظر.

وهذا الكنز الذي سيقع عليه القتال قد يكون كنز الكعبة كما قال جماعة، وقد يكون كنزاً آخر من كنوز الأرض، ومنها البترول الذي يقتتل عليه الناس اليوم فالله أعلم بمراد نبيه ﷺ.

وقال ابن كثير في «النهاية» أيضاً: والمراد بالكنز المذكور في هذا السياق كنز الكعبة يقتتل عنده ليأخذه ثلاثة من أولاد الخلفاء حتى يكون آخر الزمان فيخرج المهدي ويكون ظهوره من بلاد المشرق لا من سرداب سامراء كما يزعمه جهلة الرافضة من أنه موجود فيه الآن وهم ينتظرون خروجه في آخر الزمان، فإن هذا نوع من الهذيان وقسط كبير من الخذلان شديد من الشيطان، إذ لا دليل على ذلك ولا برهان لا من كتاب ولا سنة ولا معقول صحيح ولا استحسان. ثم ذكر حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«تخرج من خراسان رايات سود فلا يردها شيء حتى تنصب بإيلياء»** رواه الترمذي واستغربه.

قال ابن كثير: وهذه الرايات ليست هي التي أقبل بها أبو مسلم الخراساني فاستلب بها دولة بني أمية في سنة ثنتين وثلاثين ومائة، بل رايات سود أُخر تأتي صحبة المهدي وهو محمد بن عبدالله العلوي الفاطمي الحسني رضي الله تعالى عنه يُصلحه الله في ليلة واحدة، أي: يتوب عليه

ويوفقه ويلهمه رشده بعد أن لم يكن كذلك، ويؤيده بناس من أهل المشرق ينصرونه ويقيمون سلطانه ويشيدون أركانه وتكون راياتهم سوداً أيضاً وهو زي عليه الوقار...

وظاهر حديث ثوبان أن هذا الإمام سيأتي من جهة المشرق وأنه سيولد هناك، وجاء في بعض الأحاديث الضعيفة أنه سيولد بالمدينة ويبايع بمكة بين الركن والمقام، ولا يصح شيء في ذلك، بل حديث الرايات نفسه مطعون فيه، وردت بعضُ طرقه وألفاظه في الموضوعات.

والذي يعنينا هو إثبات خروج المهدي ليُصلح عالمنا الموبوء الفاسد، أما ما عدا ذلك مما ذكره مَن ألّف فيه من الصفات وعلامات خروجه وموضع بيعته وولادته... فكل ذلك لا يصح منه شيء، وسيأتي في ذكر عيسى عليه السلام أن المهدي سيؤم به تكرمة لهذه الأمة.

***

آراء متطرفة في المهدي

رغم ما جاء من الأحاديث المتواترة في هذا الإمام وخروجه ورغم أن خروجه ذكروه من المعتقدات، نجد بعض من ينتسب إلى العلم ينكر خروجه حتى إن رشيد رضا وفريد وجدي وغيرهما من السابقين واللاحقين أنكروه وحكموا على أحاديثه بالبطلان، وهذه وصمة في جبينيهما، والذي حملهما على ذلك هو الرد على الرافضة وسد باب دعاة المهدوية وهم كثيرون في الأمة، وهذه الشبهة لا تبرر لهم ردهم للأحاديث الصحيحة.

وفي مقابل هؤلاء من أثبته وتغالى في أخباره وصفاته، وبالرجوع إلى تذكرة القرطبي وغيرها، ترى ما تتعجب منه من الأخبار الباطلة التي لا دليل لها، والله تعالى الموفق والهادي للصواب.

***

❋ المَلحمة الكبرى وفتح القُسْطُنطينية وخروجُ الدجّال

[١٥٨] عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عُمران بيت المقدس خرابُ يَثرب، وخرابُ يَثْرب خروج الملحمة، وخروجُ الملحمة فتح القُسْطُنطينية، وفتحُ القُسْطُنطينية خروج الدجال»**.

رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩٤) بسند حسن.

[١٥٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: فتح القسطنطينية مع قيام الساعة.

رواه الترمذي في الفتن وسنده صحيح وهو مرفوع حكماً.

قال الترمذي: والقسطنطينية هي مدينة الروم تُفتح عند خروج الدجال.

[١٦٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«هل سمعتم بمدينة جانب منها في البر، وجانب منها في البحر؟»**، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: **«لا تقومُ الساعةُ حتى يغزوها سبعون ألفاً من بني إسحاق، فإذا جاؤوها نزلوا فلم يقاتلوا بسلاح، ولم يرموا بسهم، قالوا: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط أحدُ جانبيها الذي في البحر، ثم يقولون الثانية: لا إله إلا الله والله أكبر فيسقط جانبها الآخر، ثم يقولون الثالثة: لا إله إلا الله والله أكبر فيُفَرَّجُ لهم فيدخلونها فيَغْنَمون، فبينما هم يقتسمون المغانم إذ جاءهم الصريخ، فقال: إن الدجال قد خرج، فيتركون كل شيء»**.

رواه مسلم في الفتن (٤٤/٤٣/١٨).

وقوله من بني إسحاق: هذه الكلمة شاذة وهم فيها بعض الرواة بل الصواب من بني إسماعيل.

[١٦١] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعةُ حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ، فإذا تصافُّوا قالت الروم: خلُّوا بيننا وبين الذين سَبَوْا منّا**

نقاتلهم، فيقول المسلمون: لا والله لا نُخَلِّي بينكم وبين إخواننا، فيقاتلونهم فينهزم ثلثٌ لا يتوب الله عليهم أبداً، ويُقتَلُ ثُلُثُهم أفضل الشهداء عند الله تعالى، ويفتتح الثلث لا يُفتَنُون أبداً فيفتتحون القُسْطُنطينية، فبينما هم يَقْتَسِمون الغنائم قد علّقوا سيوفَهم بالزيتون إذ صاح فيهم الشيطان: إن المسيح قد خلفكم في أهليكم، فيخرجون وذلك باطل، فإذا جاؤوا الشام خرج، فبينما هم يُعِدُّون للقتال يُسَوُّون الصفوفَ إذ أقيمت الصلاة، فينزل عيسى ابن مريم فأمّهم فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملحُ في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده فيريهم دمه في حربته».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٢٠/٢١/٢٢).

«الأعماق، أو دابق»: موضعان بالشام قرب حلب.

[١٦٦٢] وعن يُسَيْر بن جابر قال: هاجت ريحٌ حمراءُ بالكوفة فجاء رجل ليس له هِجِّيرى، إلاَّ يا عبدَالله بن مسعود جاءت الساعةُ، قال: فقعد وكان متكئاً، فقال: إن الساعة لا تقومَ حتى يُقسَمَ ميراثٌ، ولا يفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا ونحّاها نحو الشام فقال: عَدُوٌّ يجمعون لأهل الإسلام، ويجمع لهم أهلُ الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال: نعم وتكون عند ذاكم القتال ردَّةٌ شديدة، فيشترط المسلمون شرْطةً للموت لا ترجع إلا غالبةً فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشُّرْطةُ، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة فيقتتلون حتى يُمْسوا فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، فإذا كان يوم الرابع نهد إليهم بقية أهل الإسلام فيجعل الله الدَّبَرَةَ عليهم فيقتلون مقتلةً، إما قال: لا يُرى مِثلُها، وإما قال: لم يُرَ مثلها، حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يُخَلِّفَهم حتى يخر ميتاً، فيتعاد بنو الأب كانوا مائة فلا يجدونه بقي منهم إلا الرجل الواحد فبأي غنيمة يُفرح، أو أي ميراث يُقسم؟ فبينما هم كذلك إذ سمعوا بأس هو أكبر من ذلك فجاءهم الصريخ إن الدجال قد خلفهم في ذراريهم، فيرفضون ما في أيديهم ويقبلون فيبعثون عشرةَ فوارس

طليعةً. قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أسماءهم وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ**».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٢٣/٢٤/٢٥).

قوله: «شرطة للموت» هو بضم الشين وسكون الراء، الشرطة: طائفة من الجيش تقدم للقتال. «فيفيء» أي: يرجع. «الدبرة» بفتحات، أي: الدائرة والهزيمة. وقوله: «نهد» بفتح النون والهاء، أي: نهض وتقدم.

في هذه الأحاديث تنبؤات ومعجزات للنبي ﷺ وبيان أشراط الساعة الكبرىٰ وما يقاربها ويتضح بيانها في الآتي:

أولاً: عمران بيت المقدس وقد ظهرت بوادر ذلك باحتلال اليهود إياه ومحاولاتهم جعله عاصمة لهم، وهذا سيعقبه خراب المدينة المنورة التي كانت تسمى في الجاهلية يثرب، فالله تعالى أعلم كيف يكون خرابها، على أنها قد خربت آخر أيام العثمانيين ولم يبقَ فيها ساكن إلا الجيش التركي.

ثانياً: إذا خربت المدينة جاءت الحرب العظمى، والملحمة الكبرى، وهي المذكورة في حديثَي أبي هريرة، وستكون موطئة لفتح القسطنطينية التي هي إستانبول، هذه الحرب الضروس ستكون بين المسلمين والروم الذين هم أوروبا وأمريكا، وتركيا من جملتهم فهم معهم في سوقهم وسياستهم. . .

ثالثاً: فتح إستانبول سيكون بعد معارك طاحنة وقتال شديد سيستشهد فيه عدد كبير من المسلمين وستدوم المعارك أياماً ينهزم فيها المسلمون غير ما مرة، ثم يكون النصر لهم والدائرة على الكفار.

رابعاً: في هذه الملحمة العظمى ستجتمع لها جيوش عرمرمة من الجانبين ويكون الكفار من الأتراك وحلفائهم هم البادئون والمهاجمون لديار الإسلام فيأتيهم المسلمون من كل جهة حتى من المدينة النبوية، فيجتمعون بالشام، وبه ستكون بداية المعارك ثم تنتهي بنصر الجيوش الإسلامية ويدخلون تركيا ويفتحون إستانبول. وانظر ما سبق تحت عنوان الفتوحات الإسلامية.

خامساً: وقع إشكال للأقدمين في فتح إستانبول قبل قيام الساعة مع فتحها في القرن التاسع وانتشار الإسلام فيها ولم يكونوا يعلمون أن دولة تركيا ستصبح مرتدة علمانية تحارب الإسلام والمسلمين كبقية أكثر الدول التي تحكم ديار المسلمين وشعوبها اليوم.

سادساً: في حديث أبي هريرة الأول أن المسلمين سيفتحون إستانبول بالتكبير وليس بالقتال، بينما ظاهر حديثه الثاني مع حديث ابن مسعود أن فتحها سيكون بعد قتال ومعارك، فالله تعالى أعلم بمراد نبيه ﷺ بذلك، وما قدّره الله مما سيقع.

سابعاً: هذه الأحاديث صريحة في أن خروج الدجال لعنه الله سيكون عقب فتح إستانبول مباشرة، وذلك ظاهر في أنه سيقع آخر أيام المهدي، وأن هذه الحرب العظمى والفتح سيكونان على يد أصحابه، والله تعالى أعلم.

هذا ما ظهر لنا من الأحاديث، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً.

* * *

❋ اخبار خروج الدجال وما جاء فيه
الإنذار بخروجه

[٦٦٣] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «**إني لأنذركُمُوه وما من نبي إلا أنذر قومه، لقد أنذر نوحٌ قومه، ولكني سأقول لكم قولاً لم يقُله نبي لقومه، تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور**».

رواه أحمد (٢/١٤٩)، والبخاري في الأنبياء وفي الفتن وفي التوحيد (١٦/٢٠٦)، ومسلم (١٨/٥٥) في الفتن، وأبو داود (٤٧٥٧) في السنة، والترمذي في الفتن (٢٠٦٤) بتهذيبي.

«الدجال»: مأخوذ من الدجل وهو التغطية، وسمي الكذاب دجالاً لأنه

يغطي الحق بباطله وكذبه ويموه على الناس. وقد اختلف في سبب تسميته دجالاً على عشرة أقوال كما قال القرطبي في «التذكرة» فانظر ذلك.

وخروج الدجال من الأشراط الكبرى بالاتفاق، وفتنته عظيمة كما يأتي. ولخطره على المؤمنين حذّر منه كل الأنبياء أممهم وخوّفوهم من عظيم فتنته، وقد ثبت عن النبي ﷺ: «**إنكم ستفتنون في قبوركم مثل أو قريباً من فتنة الدجال**»، وهذا شيء عظيم، فإن فتنة القبر أفظع ما ينتظر ومع ذلك ففتنة الدجال أعظم منها.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في «الإكمال»: هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة لمذهب أهل الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى من إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره ونهريه، واتباع كنوز الأرض له، وأمره السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، فيقع كل ذلك بقدرة الله تعالى ومشيئته، ثم يُعجزه الله تعالى بعد ذلك فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره، ويبطل أمره ويقتله عيسى ـ صلّى الله عليه وعلى نبينا وآله وصحبه وسلّم، ويثبّت الله الذين آمنوا.

قال: هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظّار خلافاً لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة...

قال: وإنما يدّعي الإلهية وهو في نفس دعواه مُكَذِّبٌ لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه، ونقص صورته، وعجزه عن إزالة العور الذي في عينيه، وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه، ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقة رغبة في سد الرمق أو تقية وخوفاً من أذاه، لأن فتنته عظيمة جداً تدهش العقول، وتحيّر الألباب، مع سرعة مروره في الأمر، فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص، فيصدقه من صدقه في هذه الحالة، ولهذا حذّرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين من فتنته، ونبّهوا على

نقصه ودلائل إبطاله. وأما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون لما معه لما ذكرناه من الدلائل المكذِّبة له مع ما سبق لهم من العلم بحاله، ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه: ما ازددت فيك إلا بصيرة...

ثم إن الكلام على الدجال يرتكز على الآتي:

متى يخرج؟ ومن أين يخرج؟ وهل هو موجود أم سيولد؟ وما صفته؟ وما الذي يدّعيه؟ وكيف تكون فتنته؟ ومن سيؤيده وينصره أول؟ وما هي عاقبته؟

❑ أولاً: وقت خروج الدجال:

أما وقت خروجه فقدّمنا آنفاً، أنه سيخرج بعد المقتلة العظمى وفتح القسطنطينية.

❑ ثانياً: من أين يخرج الدجال:

أما موضع خروجه فيوضحه لنا الحديث التالي:

[١٦٤] عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «**الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها: خراسان...**».

رواه أحمد (١/٤/٧)، والترمذي (٢٠٦٦) بتهذيبي، وابن ماجه (٤٥٢٢) كلاهما في الفتن، والحاكم (٤/٥٢٧/٥٢٨) وسنده صحيح.

فالحديث الشريف نصّ في أن الدجال سيخرج من المشرق، أي: مشرق المدينة، ويأتي حديث أبي هريرة: «**يأتي المسيح من قبل المشرق**» وذكر هنا أنه سيخرج من خراسان. وخراسان مناطق واسعة في إيران، وتجاور الشام والعراق، وسيأتي في حديث النواس الطويل: أنه يخرج ما بين الشام والعراق، وبالضبط سيخرج من جزيرة مهجورة هنالك يوجد الدجال بها لم يصل إليها أحد لحد الساعة، كما رأيناها في الخريطة، ويأتي في ذلك حديث تميم الداري إن شاء الله تعالى وهو الآتي عقبه:

❑ ثالثاً: هل الدجال موجود:

أما هل هو موجود أم سيولد بعد؟ فحديث تميم الداري يوضح لنا ذلك وأنه كان أيام النبوة موجوداً مسلسلاً في جزيرة.

[١٦٥] فعن فاطمة بنت قيس رضي الله تعالى عنها أنها كانت تحدّث أنها لما انقضت عدتها من موت زوجها وهي في بيت ابن أم مكتوم رضي الله تعالى عنه سمعت نداء المنادي، منادي رسول الله ﷺ ينادي: «الصلاة جامعة»، فخرجتُ إلى المسجد فصلّيتُ مع رسول الله ﷺ فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاتَهُ جلس على المنبر وهو يضحك فقال: «لِيَلْزَمْ كل إنسان مُصَلاَّه»، ثم قال: «أتدرون لِمَ جمعتُكُم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «إني والله ما جمعتكم لرغبة، ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم وحدثني حديثاً وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لَخْم، وجُذام. . . فلعب بهم الموج شهراً في البحر، ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس فجلسوا في أقْرُب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابةٌ أهلب، كثير الشعر، لا يدرون ما قُبُله من دبُره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجسَّاسةُ، قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدَّير فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال: لما سمّتْ لنا رجلاً فَرِقْنا منها أن تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدَّير فإذا فيه أعظمُ إنسان رأيناه قط خَلْقاً، وأشدُّه وِثاقاً، مجموعةٌ يداه إلى عُنُقه ما بين ركبتَيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتُم على خبري فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغْتلم فلعب بنا الموجُ شهراً ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه فجلسنا في أقربها فدخلنا الجزيرة فلقينا دابة أهلبُ كثير الشعر لا يُدْرى ما قُبُله من دُبره من كثرة الشعر، فقلنا: ويلكِ ما أنتِ؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدَّير فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال:

أخبروني عن نخل بَيسان، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: عن نخلها هل يُثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر، قال: أخبروني عن بُحَيرة الطَّبَرِية، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماءٌ؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زُغَر؟ قالوا: هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتَلَه العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنعَ بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك، قلنا: نعم، قال: أما إن ذلك خيرٌ لهم أن يطيعوه وإني مخبركم عني إني أنا المسيح وإني أوشك أن يؤذنَ لي في الخروج فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرّمتان عليّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخلَ واحدةً أو واحداً منهما استقبلني مَلَكٌ بيده السيف صَلتاً يصدني عنها، وإن على كل نَقْبٍ منها ملائكة يحرسونها، قالت: قال رسول الله ﷺ وطعن بمِخْصَرتِه في المنبر: هذه طَيبةُ، هذه طَيبةُ، هذه طَيبةُ» يعني: المدينة، «ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟» فقال الناس: نعم «فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق، ما هو...» وأومأ بيده إلى المشرق، قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ.

رواه مسلم في الفتن (١٨/٨٠/٨٣)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢٥/٤٣٢٦/٤٣٢٧)، والترمذي في الفتن (٢٠٨١) بتهذيبي، وهو عند أحمد أيضاً (٣٧٣/٦/٣٧٤/٤١٢/٤١٣/٤١٧/٤١٨) من طرق.

قوله: «أرفأوا» أي: التجأوا. «أقرُب السفينة»: بضم الراء جمع قارب وهي مركب صغير يكون بجنب السفينة. قوله: «دابة أهلب» أي: شعره غليظ. وقوله: «إلى خبركم بالأشواق» أي: شديد الأشواق إلى خبركم. قوله: «فرقنا منها» أي: خفنا. قوله: «حين اغتلم» أي: هاج وجاوز حد المعتاد. قوله: «عين زغر» بضم الزاي وفتح الغين، بلدة شرقي الشام.

«طيبة»: هي المدينة النبوية. «بيده السيف صلتاً»: بفتح الصاد وضمها، أي: مسلولاً. وقوله: «ما هو من قبل المشرق» ما صلة زائدة وليست بنافية، والمراد إثبات أنه في جهات المشرق.

فالحديث نص في أن الدجال كان أيام النبوة موجوداً مغلولةً يداه إلى عنقه مقيّدة رِجلاه بالسلاسل، وأنه لا زال هنالك في جزيرة من جزر خراسان حتى يخرج في وقته الذي حدّد له ويطوف الدنيا غير مكة والمدينة.

غير أننا لا ندري متى وأين ولد ومَن أوثقه هنالك، وهو يدل على أنه من المُعَمَّرين، وهو أيضاً نص في أنه موجود في المشرق، والظاهر أنه في جزيرة تحد بالبحر العربي الخليجي، وقد قدْمنا ذلك سابقاً.

وفي الحديث رواية الأكابر عن الأصاغر حيث سمع النبي ﷺ حديث الجساسة هذا من تميم الداري، ورواه عنه وأخبر به الصحابة وصدقه بما أوحى الله تعالى إليه قبل ذلك.

أما باقي أبحاث الحديث فتأتي لاحقاً إن شاء الله تعالى.

❑ رابعاً: صفة الدجال:

أما صفة الدجال فهو بالاتفاق رجل من بني آدم عظيم الخلقة شاب شعره جعد قطط، عينه اليمنى عوراء طافية كالعنبة وعلى عينه اليسرى ظَفَرَةٌ غليظة، مكتوب بين عينيه كافر (ك ف ر) يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، ويدل لما ذكرناه الآتي:

[٦٦٦] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«رأيتني الليلة عند الكعبة فرأيت رجلاً آدم كأحسن ما أنت راء من آدم الرجال، له لِمَّةٌ كأحسن ما أنت راء من اللِّمَم قد رجّلها فهي تقطر ماء، متكئاً على رِجلين أو على عواتق رِجلين، يطوف بالبيت فسألتُ مَن هذا؟ فقالوا: هذا المسيح ابن مريم، قال: ثم إذا أنا برجل جعد قَطَط، أعور العين اليمنى، كأن عينَه عنبةٌ طافيةٌ فسألتُ مَن هذا؟ قالوا: هذا المسيح الدجال»**.

رواه البخاري في الفتن (٢١١/١٦) وفي التعبير وغيرهما، ومسلم في الإيمان (٢٣٣/٢).

وقوله: «عنبة طافية» وردت طافية بالياء، أي: بارزة ناتئة كبروز العنبة، وهذه الرواية هي التي صححها الجمهور، ووردت بالهمزة، ومعناها ذهب ضوءها وطست. وقوله: «جعد قطط» بفتح الطاء وكسرها، ومعناه: أن شعره كشعر السودان شديد الجعودة.

[١٦٧] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: ذكر الدجال عند النبي ﷺ فقال: **«إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور»** وأشار بيده إلى عينه **«وإن المسيح الدجال أعورُ عين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»**.

رواه البخاري في الأنبياء، ومسلم في الفتن (٥٩/١٨) والترمذي (٢٠٦٩).

[١٦٨] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه ك ف ر»**.

رواه البخاري (٢١٤/١٦)، ومسلم (٥٩/١٨) كلاهما في الفتن والترمذي كذلك (٢٠٧٣).

[١٦٩] وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الدجال ممسوح العين عليها ظَفَرةٌ غليظةٌ، مكتوب بين عينيه كافرٌ يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب»**.

رواه مسلم في الفتن (٩١/١٨) ويأتي مطولاً. وفي رواية له: **«أعور العين اليسرى»**.

قوله: «عليها ظفرة» بفتحات: هي جُلَيْدَة تغشى العين.

ففي هذه الأحاديث بيان لصفات المسيح الدجال.

ففيها أنه رجل وأنه شاب كما يأتي في حديث النواس، وأنه أعور

العين اليمنى بارزة كالعنبة واليسرى عليها جليدة قد غشتها، وأن له شعراً جَعْداً قَططاً كشعر السودان وأنه مكتوب بين عينيه ك ف ر يقرؤها كل مؤمن سواء كان كاتباً أم أميًا.

وقد تقدم في حديث الجساسة: أنه عظيم الخلقة شديدها، وفي قوله ﷺ: **«إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور»**، إشارة إلى أن الله تعالى كامل له بصرٌ لا كأبصارنا، والدجال ناقص معيب فليس برب فهو كذاب في دعواه.

❑ خامساً: من ينصر الدجال ويؤيده أول أمره:

إن الذين ينصرون الدجال أول أمره، هم اليهود والعجم من الأتراك.

[١٧٠] فعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يَتْبعُ الدجالَ من يهودِ أصبهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة»**.

رواه أحمد ومسلم في الفتن (١٨/٨٥/٨٦).

«أصبهان»: بالباء والفاء، هي الآن من إيران.

[١٧١] وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: **«الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها: خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجانُّ المُطرَقَةُ»**.

رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم بسند صحيح، وتقدم رقم (١٥٩) مختصراً.

«المجان»: جمع مجنة وهو الترس والدرقة. و«المطرقة»: بضم الميم وسكون الطاء ثم راء مفتوحة، هي التي جعل عليها طبقة فوق طبقة لتقوى على رد الرماح والسيوف.

فالحديثان يدلان بظاهرهما على أن أول من يتبع الدجال يهود إيران الذين يسكنون بأصبهان الإيرانية، والعجم من الأتراك المجاورين لإيران الذين ذكرت صفتهم في الحديث.

فهؤلاء هم أول من يؤيده لأنه سيخرج من جهتهم ثم بعد تنتشر دعوته حتى تعم المعمورة.

وحديث أنس يدل على أن أصبهان الإيرانية سيسكنها اليهود في القريب العاجل إن لم يكونوا بها الآن.

* * *

تطواف الدجال بالأرض وفتنته وكيف يكون أمره ثم عاقبته

إن الدجال الأعور الكذاب إذا خرج كوّن جيوشاً عرمرمة من أتباعه ثم يدّعي الربوبية فيسخّر الله تعالى له ما يريد من الكائنات فيطوف الأرض يفتن الناس معه جنة ونار فيمكث في الأرض أربعين يوماً، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وباقي الأيام كأيامنا، وأخيراً يأتي المدينة النبوية فيمنع من دخولها ثم يقصد الشام فيستقر مع اليهود بفلسطين فينزل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فيذهب إليه فيقتله بباب مدينة لُدّ الفلسطينية.

ويدل لهذه الفذلكة الآتي من الأحاديث مع تحليلها.

[١٧٢] عن حذيفة وعقبة بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال في الدجال: **«يخرجُ وإن معه ماءً وناراً، فأما الذي يراه الناس ماء فنار تُحرِق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماءٌ باردٌ عَذْب، فمَن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه النار، فإنه ماء عذب طيّب»**، وفي رواية قال: **«لأنا أعلم بما مع الدجال منه، معه نهران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض، والآخر رأي العين نار تأجَّجُ فإما أدرَكَنَّ أحدٌ فليأتِ النهر الذي يراه ناراً، وليغمض ثم ليطأطىء رأسه فليشرب منه فإنه ماء بارد»**.

رواه البخاري (١٦/٢١٣/٢١٤)، ومسلم (١٨/٦١/٦٢)، وأبو داود (٤٣١) كلهم في الفتن.

[١٧٣] وعن المغيرة بن شعبة قال: ما سأل أحدٌ رسول الله ﷺ عن

الدجال أكثرَ مما سألتُه وإنه قال لي: «ما يضرك منه» قلت: إنهم يقولون: إن معه جبالَ خبزٍ ولحم ونهرَ ماءٍ، قال: «هو أهون على الله من ذلك».

رواه البخاري (٢٠٥/١٦)، ومسلم (١٨) كلاهما في الفتن أيضاً.

[١٧٤] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يخرجُ الدجالُ فيتوجه قِبَلَه رجل من المؤمنين فيلقاه المَسَالِحُ مسالح الدجال فيقولون له: أين تعمد؟ فيقول: أعمِد إلى هذا الذي خرج، قال: فيقولون له: أوَما تؤمن؟ فيقول: ما بربنا خفاء، فيقولون: اقتلوه، فيقول بعضهم لبعض: أليس قد نهاكم ربكم أن تقتلوا أحداً دونه؟ قال: فينطلقون به إلى الدجال، فإذا رآه المؤمن قال: يا أيها الناس هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ، فقال: فيأمر الدجال به فيشبج، فيقول: خذوه فشبُجُوه، فيُوسع ظهره وبطنه ضرباً، قال: فيقول: أوَما تؤمن بي؟ قال: فيقول: أنت المسيح الكذاب، قال: فيؤمر به فيُوشرُ بالميشار من مفرِقه حتى يُفَرَّقَ بين رِجلَيه، قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين ثم يقول له: قم، فيستوي قائماً، ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددتُ فيك إلا بصيرةً، قال: ثم يقول: يا أيها الناس إنه لا يَفعلُ بعدي بأحد من الناس، قال: فيأخذه الدجال ليذْبَحَهُ فيجعل ما بين رقبته إلى تَرْقُوَتِه نُحَاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً، قال: فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس إنما قذفه إلى النار، وإنما أُلقي في الجنة»**، فقال رسول الله ﷺ: **«هذا أعظمُ الناس شهادة عند رب العالمين»**.

رواه مسلم في الفتن (٧٣/٧٢/١٨).

قوله: «المسالح» يعني حاملي السلاح. وقوله: «فيشبج» أي: يُمَدُّ. وقوله «فشبجوه» أي: مدُّوه للجلد، وفي رواية: «فشجوه» من الشج وهو الجرح في الرأس، والصحيح الأول. وقوله: «فيوشر بالميشار» أي: ينشر بالمنشار نصفين. وقوله: «مفرقه» بكسر الراء أي: وسطه. وقوله: «ترقوته» بفتح التاء وضم القاف هي العظم الذي بين ثغر النحر والعاتق.

وعنه في رواية: **«يأتي الدجال وهو مُحَرَّمٌ عليه أن يدخل نقاب المدينة**

فينزلُ بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل وهو خير الناس أو من خيار الناس فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلتُ هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرةً مني اليوم، فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه».

قال أبو إسحاق راوي صحيح مسلم: يقال: إن هذا الرجل هو الخضر عليه السلام.

رواه البخاري (١٦/٢١٧/٢١٨) ومسلم (١٨/٧١/٧٢) كلاهما في الفتن.

[١٧٥] وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة، ليس له من نقابها نَقْبٌ إلا عليه الملائكة صافِّين يحرسونها، ثم ترجُف المدينة ثلاثَ رجَفَاتٍ فيُخرِجُ الله كلَّ كافر ومنافق...**» وفي رواية: «**فيأتي سِبْخَةَ الجُرُف فيَضْرِبُ رِواقَه فيخرج إليه كل منافق ومنافقة**».

رواه البخاري آخر الحج (٤/٦٧)، ومسلم في الفتن (١٨/٨٥)، والترمذي (٢٠٧٠) مختصراً، وفيه: «**فلا يدخلها الطاعون ولا الدجال**».

[١٧٦] وعن أبي بكرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخلُ المدينة رُعْبُ المسيح الدجال، لها يومئذ سبعةُ أبواب على كل باب ملكان**».

رواه البخاري آخر الحج (٤/٦٧) وفي الفتن (١٦/٢٠٧).

[١٧٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**على أنقاب المدينة ملائكةٌ لا يدخلها الطاعون ولا الدجال**».

رواه البخاري أيضاً (٤/٦٧).

قوله: «نقب» بفتح النون، أي: مدخل وطريق، وأصل النقب الطريق بين الجبلين، وقوله: «تَرجُفُ» أي: تتحرك تحركاً شديداً.

[١٧٨] وعن مِحْجَن بن الأدرع أن رسول الله ﷺ خطب الناس فقال: «يوم الخلاص وما يوم الخلاص» ثلاثاً، فقيل له: وما يوم الخلاص؟ قال: «يجيء الدجال فيصعدُ أُحُداً فيتطلع فينظر إلى المدينة فيقول لأصحابه: ألا ترون إلى هذا القصر الأبيض، هذا مسجد أحمد، ثم يأتي المدينة فيجد بكل نَقْبٍ من نِقابها ملكاً مُصْلِتاً سيفَه فيأتي بسبخة الجرف فيضرب رِواقه، ثم ترجُفُ المدينة ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة، ولا فاسق ولا فاسقة، إلا خرج إليه فتخلُص المدينة فذلك يوم الخلاص».

رواه أحمد (٣٣٨/٤)، والحاكم (٥٤٣/٤) وصححه على شرط مسلم، وسنده صحيح عندهما رجاله رجال الصحيح كما قال في المجمع (٣٠٨/٣).

[١٧٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يأتي المسيح إذا جاء دُبُرَ أُحُد صرفت الملائكة وجهه قبل الشام وهنالك يهلك».

رواه الترمذي في الفتن (٢٠٧١) بسند صحيح على شرط مسلم.

[١٨٠] وعن مجمع بن حارثة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَقتلُ ابنُ مريم الدجالَ بباب لُدّ».

رواه أحمد (٤٢٠/٣)، والترمذي (٢٠٧٢) وصححه، يعني لشواهده.

[١٨١] وعن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: ذكرَ رسول الله ﷺ الدجّالَ ذات غداةٍ فخفض فيه ورفع حتى ظننّاهُ في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداةً فخفضت فيها ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غيرُ الدجال أخوفُني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُه دونكم، وإن يخرج ولستُ فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قططٌ، عينه طافئة، كأني أُشَبِّهُه بعبد العزى بن قَطَن، فمَن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق، فعاث يميناً، وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا»، قلنا: يا رسول الله

وما لَبْثُه في الأرض؟ قال: «**أربعون يوماً، يومٌ كسنةٍ، ويومٌ كشهرٍ، ويومٌ كجُمُعةٍ**، وسائر **أيامه كأيامكم**»، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أيكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا، اقدروا له قَدْره**»، قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كالغيثِ استدْبَرتْه الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمرُ السماءَ فتُمْطِرُ والأرضَ فتنبتُ، فتروح عليهم سارحتُهم أطول ما كانت ذُرًا، وأسبغَه ضُرُوعاً، وأمدَّه خواصرَ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مُمْحِلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخَرِبة فيقول لها: أخرِجي كنوزكِ فتَتبعُه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جَزْلَتَين رَمْية الغَرَض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلَّلُ وجهُه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مَهْرُودَتَينِ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسَه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمَانٌ كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجدُ ريحَ نفَسِه إلا مات ونفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبُه حتى يُدركه بباب لُدٍّ فيقتله ثم يأتي عيسى ابن مريم قومٌ قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة...**».

رواه أحمد (١٨١/٤-١٨٢)، ومسلم (٦٣/١٨-٧٠)، وابن ماجه (٤٠٧٥) ثلاثتهم في الفتن.

قوله: «خلة» بفتح الخاء، أي: طريقاً بينهما. وقوله: «فعاث» أي: أكثر الفساد. وقوله: «سارحتهم» أي: ماشيتهم. وقوله: «وأسبغَه» أي: أطوله لكثرة اللبن. و«أمده خواصر»: يعني امتلاء بطنها من الشبع. وقوله: «كيعاسب النحل»: أي ذكور النحل أو جماعته: وقوله: «جزلتين» بفتح الجيم وكسرها، أي: قطعتين. وقوله: «رمية الغرض» يعني يجعل بين القطعتين من الفعل مقدار رمية الغرض يتحقق الناظرون أنه قطع نصفين. وقوله: «مهرودتين» بالدال عند الأكثر، أي: لابس ثوبين مصبوغين. وقوله: «جمان اللؤلؤ» الجمان بضم الجيم وتخفيف الميم، هي حبات من الفضة تُصنع على هيئة اللؤلؤ، ومعناه أنه ينحدر منه الماء على هذه الهيئة من

الصفاء. وقوله: «لُدّ» هو بضم اللام وتشديد الدال، مدينة بفلسطين تحت احتلال اليهود عليهم لعائن الله المتوالية.

في جملة هذه الأحاديث التسعة شرح لفتنة الدجال وطوافه الأرض وما سيفعله وما سيؤول إليه أمره، ويتضح ذلك في الآتي:

❑ أولاً: موضع خروج الدجال:

سيخرج من بلدة بين الشام والعراق، وهي خراسان كما تقدم.

❑ ثانياً: فتنة الدجال قلّ مثيلها:

[١٨٢] جاء في صحيح مسلم عن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»** وفي سنن ابن ماجه (٤٠٧٧) في حديث طويل لأبي أمامة رضي الله تعالى عنه في شأن الدجال قال: خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدَّثَنَاه عن الدجال وحذَّرَنَاه فكان من قوله أن قال: **«إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم أعظم من فتنة الدجال، وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذّر أمته الدجال...»**، مع ضعف فيه.

وقد قدّمنا الحديث الصحيح: **«إنكم ستفتنون في قبوركم مثل أو قريباً من فتنة الدجال»**، ولا شك أن فتنة القبر أعظم وأفظع ما ينتظر الناس ويتخوّفون... ولعظيم هذه الفتنة كان النبي ﷺ يستعيذ منها في صلاته ويأمر بذلك حتى قال: **«إذا فرغ أحدكم من التشهُّد الأخير فليتعوّذ بالله من أربع: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال»** رواه مسلم وغيره.

وجاء في الصحيحين من جملة دعواته: **«اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم...»** وفيه: **«ومن شر فتنة المسيح الدجال»**.

❑ ثالثاً: أنواع فتنته:

فمن فتنته أنه يتظاهر بأن معه جنة وناراً ونهرين، نارٌ محرقةٌ وماءٌ باردٌ

عذب طيب وجبال خبز ولحم، فيدعو الناس إلى الإيمان به على أنه رب، فمَن آمن به أدخله جنته ومن كفر به أدخله ناره، وقد أرشدنا نبينا ﷺ بأن مَن أدركه فليكفر به وليطأطىء رأسه ويدخل ناره، وليشرب من نهره الذي يراه ناراً فسيجده ماءً بارداً طيباً وسيكون عليه برداً وسلاماً ويكون جنته، أما مَن آمن به وأدخله جنته فإنه سيجدها ناراً تتأجج وتشتعل.

ومن فتنته، أنه يأتي القوم فيدعوهم إليه فيستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت وتروح عليهم مواشيهم أسبغ ضروعاً وأكثر لبناً وأعظم خواصر شبعاً، ثم يأتي آخرين فيدعوهم فلا يستجيبون له ويردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ليس بأيديهم شيء يموتون جوعاً وعطشاً.

ومن فتنته، أنه يمر بالخَرِبَة فيأمرها قائلاً: أخْرِجي كنوزكِ فيتبعه كنوزُها كجماعة النحل.

ومن فتنته أنه يؤتى برجل ممتلىء شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه قطعتين ثم يدعوه فيَحْيَا ويقوم متهللاً وجهه يضحك.

ومن فتنته أن جيوشه سيلقون رجلاً مؤمناً لا يقول بدعوة الدجال فيأتونه به فيأمر به ويُمَدُّ ثم يُجْلَدُ فيقول له: أوَمَا تؤمن بي؟ فيجيبه: أنت المسيح الكذاب، فيأمر به فيُنشَرُ بالمِنْشار حتى يصير قطعتين فيمشي الدجال بينهما ثم يقول له: قم فيستوي قائماً، ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيجيبه بقوله: ما ازددتُ فيك إلا بصيرة، ثم يأخذه ليذبحه فيجعل الله تعالى ما بين رقبته وعنقه نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً، فيأخذ بيديه ورجليه فيقذفه في ناره فيظن الناس أنه ألقاه في النار، وإنما ألقي في الجنة.

قال النبي ﷺ: «**هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين**».

ومن فتنته، أنه يأتي الأعرابي فيقول له: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه فيقولان: يا بني اتبعه فإنه ربك.

رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٧٧).

❏ رابعاً: أيامُ الدجال ولَبْثُه في الأرض:

إذا خرج الدجال طاف جميع الأرض إلا مكة والمدينة، ويمكث يدعو إلى نفسه ويفتن الناس واليهود ومن آمن به يدعمونه ويساعدونه ويبقى مدة أربعين يوماً، لكن هذه الأيام يختلف بعضها عن أيامنا. فيوم منها كسنة، ويوم كشهر، ويوم كأسبوع، وباقي أيامه كأيامنا، فإذا جمعناها وجدناها سنة وشهرين وأربعة عشر يوماً.

وفي قوله ﷺ لما سئل: فذلك اليوم الذي كسنة، هل تكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: **«لا، اقْدُرُوا له قَدْرَه»** فيه دليل على أن تلك الأيام الأولى هي مغايرة للأيام العادية، ولذلك فإن أوقات الصلاة تقدر لها حسب اجتهاد أهل العلم.

قال العلماء: ومعنى **«اقدروا له قدره»** أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلُّوا الظهر، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلُّوا العصر، وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلُّوا المغرب، وكذا العشاء والصبح، ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب، وهكذا حتى ينقضي ذلك اليوم الذي فيه سنة وقد وقع فيه صلوات سنة فرائض كلها مؤداة في أوقاتها وهكذا في الشهر والأسبوع...

وبهذا احتج بعض العلماء على أهل المناطق الجنوبية والشمالية الذين تدوم عليهم الشمس أو الليل شهوراً ونحوها، فيقدرون لصلواتهم بالأوقات العادية، والله تعالى أعلم.

❏ خامساً: كيف يكون إسراعه في الأرض:

لا شك أن الدجال لعنه الله إذا خرج سيستخدم هذه المخترعات الموجودة من سيارات وقطارات وبواخر وطائرات وجميع ما هو موجود من الآلات الحربية المدمرة... فبواسطة هذه المركوبات وعلى الأخص الطائرات، سيطوف كل المعمور في المدة المذكورة، وقد أشار نبينا

الحبيب ﷺ إلى صفة سرعته في سيره بقوله بعد أن قيل له: وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كالغيث استدبرته الريح**»، فهذا وصف دقيق لسرعته فإن هذا وصف الطائرة في الجو وعند نزولها، فإنها تكون مثل الغيث أو السحاب استدبرته الريح وذلك لشدة سرعتها، فهذا كالنص في أنه سيستخدم الطائرات في طوافه الأرض.

❑ سادساً: مكة والمدينة محفوظتان من الدجال:

من عناية الله عزّ وجل ولطفه أن جعل الحرمين الشريفين محفوظين من الدجال، فلا يصيبهما رعبه ولا له قدرة على دخولهما ولا فتنة المؤمنين من سكانهما، بل عليهما ملائكة مكلفون من قبل الله يحرسونهما مهما توجه إليهما طردوه وصرفوه عنهما، وأنه سيأتي من قبل الشام حتى ينزل بضواحي المدينة فيصعد إلى موضع مرتفع ينظر منه إلى المدينة فيقول: هذه مدينة ذلك الرجل وينظر إلى بياض بناء مسجد نبينا الشريف ﷺ فيقول: هذا قصر أحمد الأبيض فتتحرك المدينة وترجف ثلاث رجفات، فيخرج إليه منها كل من كان بها من الكفار والكافرات، والمنافقين والمنافقات فيؤمنون به ويلتحقون بأصحابه، ويخرج من المدينة عندئذ رجل هو خير أهل الأرض فيواجهه ويكذبه فيأخذه ويقتله ثم يحييه ثم يريد قتله فلا يسلط عليه فيخزيه الله تعالى، ثم ينهزم راجعاً إلى الشام فيلتحق بفلسطين فينزل بمدينة لد فيبعث الله عزّ وجل المسيح عيسى ابن مريم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فينزل على المنارة البيضاء بدمشق ويذهب إليه فيقتله ويقتل اليهود، وبذلك ستنتهي فتنة الدجال ودولة اليهود، وسنعود إن شاء الله لاحقاً قريباً إلى نزول عيسى وقتال اليهود...

❑ سابعاً: في قوله ﷺ: «لها يومئذ سبعة أبواب على كل باب ملكان»:

في هذا إشارة إلى أن المدينة عند خروج الدجال سيكون لها سبعة مداخل، يعني: الطرقات التي تدخل إليها، ومن رأى المدينة اليوم وما

حصل فيها من التغيرات وتعبيد الطرقات وكثرة مداخلها تحقق ما أخبر به ﷺ.

وفي قوله: «**على كل باب ملكان**»، وفي رواية: «**على كل نَقب من أنقابها ملكٌ مصلتاً سيفه**»، هذه مزية عظيمة وفضيلة رائقة للمدينة وأهلها فكفاها وأهلها فخراً أن يكونوا تحت حراسة الملائكة من الطاعون وفتنة الدجال.

❑ ثامناً: ما يحفظ من فتنة الدجال:

بما أن فتنة الدجال عظيمة جداً تدهش العقول، وتحير الألباب بما سيعطيه الله عزّ وجل من تسخير الكون والخوارق التي تسحر الضعفاء والرعاع، فلا ينجو منها إلا من عصمه الله تعالى منه أو كان مؤمناً ساكناً في أحد الحرمين كما تقدم، أو كان يقرأ في حياته أوائل سورة الكهف كما قدّمنا في التفسير، أو قرأها عند رؤيته كما في حديث النواس الأخير.

* * *

❃ خلاصة فتنة الدجال

[**١٨٣**] شاء الله عزّ وجل أن يوجد شخص يكون خروجه علامة من أشراط الساعة الكبرى يسمى المسيح الدجال، وهو رجل شاب عظيم الخلقة أعور العين اليمنى بارزة كأنها عنبة طافية، وعلى عينه اليسرى جُلَيْدةٌ تُغَشّيهَا، وله شعر جعد قطط كشعر السودان مكتوب بين عينيه (ك ف ر) كافر، يقرؤها كاتب وغير كاتب، وسيكون من المعمرين، وكان موجوداً أيام النبوة فما قبلها فلا يدرى متى ولد، ولذا جاء التحذير منه عن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو الآن مغلول مسلسل في جزيرة من جزر خراسان، فإذا حان وقته خرج من جهة ما بين العراق والشام، فأول من يستجيب له ويتبعه سبعون ألف يهودي من يهود أصبهان الإيرانية وأقوام من أعاجم الأتراك، ثم ينتشر في الأرض فيطوفها في أربعين يوماً يدعو الناس إلى نفسه على أنه رب فيفتن الناس بما سيُظهره الله على يديه بحيث يأمر السماء

فتمطر، ويأمر الأرض فتنبت، ويعطى جنة وناراً ونهرين، نهراً من ماء بارد طيب، ونهراً من نار متأججة، ويقتل ويحيي، ومَن شاء وسع عليه رزقه، ومَن شاق ضيّق عليه.

فمَن آمن به واتبعه أدخله جنته، ومَن كفر به أدخله ناره. وقد أخبرنا رسولنا ﷺ بأن جنته نار، وناره جنة، ولذلك كان على المؤمن أن يقع في ناره فسيجدها باردة طيبة.

وهكذا سيفتن العالم بسحره وتمويهاته التي سخرها الله له تعالى بإذنه امتحاناً للناس، وسيطأ كل البقاع في تلك المدة التي قدّرها الله تعالى له إلا مكة والمدينة فإنهما محروستان بالملائكة فلا يدخلهما ولا يصيب أهلهما المؤمنين فتنته، ويأتي المدينة فتطرده الملائكة فيتوجه إلى الشام حيث يقتله المسيح عيسى عليه السلام بباب لُدٍّ من فلسطين، وبذلك ينتهي أمره لعنه الله وحفظنا والمؤمنين من فتنته، آمين.

* * *

من أخبار ابن صياد

عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن عمر انطلق مع النبي ﷺ في رهط قبل ابن صياد، حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أُطُم بني مغالة، وقد قارب ابن صياد الحُلُم، فلم يشعر حتى ضرب النبي ﷺ بيده، ثم قال لابن صياد: **«تشهد أني رسول الله»**، فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهدُ أنك رسول الأميين، فقال ابن صياد للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ فرفصه وقال: آمنت بالله وبرسله، فقال له: **«ما ترى؟»** قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب، فقال النبي ﷺ: **«خُلِّط عليك الأمرُ»**، ثم قال له النبي ﷺ: **«إني خبأتُ لك خبيئاً»**، فقال ابن صياد: هو الدخ، فقال: **«اخسَأ فلن تَعْدُوَ قدْرَك»** فقال عمر رضي الله تعالى عنه: دعني يا رسول الله أضربْ عُنُقَه، فقال النبي ﷺ: **«إن يَكُنْهُ فلن تُسلَّطَ عليه، وإن لم يَكُنْه فلا خير لك في قتله»**.

رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٤) وفي الجهاد (٣٠٥٥) وفي الأدب (٦١٧٣) وفي القدر (٦٦١٨)، ومسلم (٥٧/٥٦/٥٣/١٨)، والترمذي (٢٠٧٥) كلاهما في الفتن.

قوله: «فرفصه» ورد بالصاد، ومعناه: ضربه برجله، وورد بالضاد وهو وهم كما قال عياض. وقوله: «اخسأ» أي: أمكث حقيراً.

[١٨٤] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: لقي رسول الله ﷺ ابن صياد في بعض طرق المدينة فاحتبسه وهو غلام يهودي وله ذؤابة ومعه أبو بكر وعمر فذكر نحو ما تقدم وفيه قوله ﷺ: **«ما ترى؟»** قال: أرى عرشاً فوق الماء، قال النبي ﷺ: **«يرى عرش إبليس فوق البحر»**، قال: **«ما ترى؟»** قال: أرى صادقاً وكاذبَيْن، أو صادقين وكاذباً قال النبي ﷺ: **«لبس عليه...»**.

رواه مسلم (٥٠/٤٩/١٨)، والترمذي (٢٠٧٦) كلاهما في الفتن.

[١٨٥] وعنه قال: صحبني ابن صياد إما حجاجاً وإما معتمرين، فانطلق الناس وتركت أنا وهو، فلما خلصت به اقشعررت منه واستوحشت منه مما يقول الناس فيه، فلما نزلت قلت له: ضع متاعك حيث تلك الشجرة، قال: ففعل، قال: فرُفِعتْ لنا غنمٌ، فانطلق فجاء بِعُسٍّ، فقال: اشرب أبا سعيد، فقلت: إن الحر شديد واللبن حار، ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده، أو قال: آخذ عن يده، فقال: أبا سعيد، لقد هممتُ أن آخذ حبلاً فأُعَلِّقَه بشجرة ثم أختنق مما يقول لي الناس، يا أبا سعيد من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار، ألستَ من أعلم الناس بحديث رسول الله ﷺ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: **«هو كافر»** وأنا مسلم أوَليس قد قال رسول الله ﷺ: **«هو عقيم لا يولد له»** وقد تركت ولدي بالمدينة، أوَليس قد قال رسول الله ﷺ: **«لا يدخل المدينة ولا مكة»** وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة؟، قال أبو سعيد الخدري: حتى كِدْتُ أن أعذرَه، ثم قال: أما والله إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن؟ قال: قلت له: تبًّا لك سائر اليوم.

رواه مسلم (٥٢/٥١/١٨)، والترمذي (٢٠٧٤) كلاهما في الفتن.

قوله: «خلَصْتُ» أي: انفردتُ. وقوله: «اقْشَعْرَرْتُ» أي: أخذتني رعدة. وقوله: «تبًّا لك» أي: هلاكاً لك يومك أجمع.

ابن صياد هذا الذي تحدثت عنه هذه الأحاديث كان يهودياً له رِئيٌ من الجن يأتيه بالأخبار، وكان به شَبَهٌ بالدجال، فأتاه النبي ﷺ في جمع من أصحابه يستثبت أمره وكان لا يزال غلاماً فسأله: **«هل تؤمن بي بأني رسول الله؟»** فأجابه إنك رسول الأميين، ثم قال هو الآخر للنبي ﷺ: أتشهد أني رسول الله؟ ثم سأله النبي ﷺ عن شأنه وما يأتيه وما يراه، فصرّح له بأنه مرة يأتيه صادق ومرة كاذبان أو العكس، وأنه يرى عرشاً فوق الماء، فتيقن رسول الله ﷺ بأنه كذاب من جملة السحرة والدجاجلة، وأنه خلط عليه الأمر وأنه يشاهد عرش إبليس على البحر، ولشبهه بالدجال كان كثير من الصحابة يظنون أنه الدجال الموعود حتى استأذن عمرَ رسول الله ﷺ في قتله فأخبره بأنه إن يكن الدجال حقيقة فلن يسلط على قتله لأن الذي يقتله هو المسيح ابن مريم عليه السلام، وإن لم يكنه فلا خير له في قتله لأنه كان من جملة اليهود الذين عاهدهم النبي ﷺ، يضاف إلى ذلك أنه كان لا يزال غلاماً دون احتلام، ومن كان كذلك فلا يجوز قتله، وبعد ذلك تحقق الصحابة أنه غير الدجال الموعود به لِمَا ذكر لأبي سعيد، حيث إنه تزوج ووُلِدَ له وكان من أهل المدينة، ثم إنه آمن وزار مكة ودخلها معتمراً أو حاجًا، وكل ذلك ينافي صفة الدجال، والله أعلم بخاتمة أمره فإنه كما يبدو من حديث أبي سعيد معه رغم أنه آمن وحجّ فقد كان لا يزال يحدّث عما تلقيه إليه الشياطين، حيث إنه أخبر أبا سعيد في طريق مكة أنه على علم بالدجال وأبويه وولادته وموضعه. وهذا لا يكون إلا عن طريق الوحي أو من الشياطين، والله تعالى أعلم.

وإنما ذكرنا ابن صياد هنا تبعاً لمن أورده من المحدثين وغيرهم مع الدجال.

* * *

❋ نزول عيسى وقتله الدجال وخروج ياجوج وماجوج وما يتبع ذلك

سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام كان خاتم أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله تعالى إليهم فانقسموا فيه ما بين مؤمن به وكافر طاعن فيه، نظراً لكونه ولد بدون تلقيح الرجال وأنه لا أب له، ثم حاربوه وأرادوا قتله فرفعه الله تعالى إليه فهو في السماء الثانية حياً وسينزل قبيل الساعة ليقتل الدجال ويحارب اليهود ويبيدهم من الأرض ويقضي على جميع الملل الكفرية ولا يبقى إلا دين الإسلام وبه سيحكم.

وكل هذا، لا خلاف فيه بين المسلمين، ومن قال غيره فهو كافر لا حظ له في الإسلام، وقد فصّل القرآن أخباره من أوله إلى نهايته، وبيّن من تغالى فيه من النصارى ومن عاداه من اليهود وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه.

وكلامنا هنا عنه يشتمل على النقاط الآتية: نزوله، وصلاته خلف المهدي، وقتله الدجال، وقتاله اليهود مع المؤمنين، ووضعه الجزية، وقتله الخنزير، وكسره الصليب، وخروج يأجوج ومأجوج في أيامه، ونزول البركة والخير في حياته، وحكمه بشريعة الإسلام، وقضاؤه على جميع الملل، والأديان الكفرية، وأنه ستجمع له الصلاة، ومدة بقائه وحكمه.

❋ ❋ ❋

❋ نزول المسيح ابن مريم عند المنارة البيضاء بدمشق

[١٨٦] عن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة... فذكر الحديث بطوله، فقال: **«فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفَّيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منه جُمَان اللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريحَ نَفَسه**

إلا مات، ونفَسه ينتهي حيث ينتهي طرفُه فيطلبه حتى يُدركَه بباب لُدّ فيقتله».

رواه مسلم، وتقدم قبل، مطولاً.

[١٨٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده ليوشِكَنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً** - وفي رواية: **حكماً مقسطاً وإماماً عدلاً** - **فيكسر الصَّليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها»**، ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾، وفي رواية: **«ولتتركن القلاص فلا يُسْعَى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد»**، وفي رواية: **«وتجمع له الصلاة... وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر»**.

رواه أحمد (٥٣٨/٢)، والبخاري في أحاديث الأنبياء (٣٠٢/٧/٣٠٣)، ومسلم في الإيمان (١٨٩/٢/١٩٠/١٩٣)، والترمذي (٢٠٦٢)، وابن ماجه (٤٠٧٨) كلاهما في الفتن، والرواية الثانية عند مسلم، والثالثة لأحمد بسند صحيح.

قوله: «حَكَماً» بفتحتين، أي: حاكماً. وقوله: «فيكسر الصليب» معناه: يقضي على النصرانية ويبيد أهلها من الأرض لأن الصليب شعار لهم. «ويقتل الخنزير»: لأن اقتناءه لا يجوز نظراً لتحريم أكله. «ويضع الجزية»: يعني يرفعها ولا يقبل إلا الإسلام. وقوله: «وتجمع له الصلاة» معناه: لا تصلي صلاة إلا صلاة أهل الإسلام.

[١٨٨] وعنه رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»**.

رواه البخاري في الأنبياء (٣٠٤/٧)، ومسلم في الإيمان (١٩٣/٢).

[١٨٩] وعن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت

النبي ﷺ يقول: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**، قال: **فينزل عيسى ابن مريم صلّى الله عليه وعلى نبينا وآله وسلّم فيقول أميرهم: تعال صلِّ لنا، فيقول: لا إن بعضكم على بعض أمراء تكرمةَ الله هذه الأمة**».

رواه مسلم في الإيمان (٢/١٩٣/١٩٤).

[**١٩٠**] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى أن النبي ﷺ قال: «**الأنبياء إخوةٌ لِعَلاَّتٍ، أمهاتُهم شتّى، ودينهم واحدٌ، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين مُمَصَّرَتَين، كأنّ رأسه يَقْطُر، وإن لم يُصبه بلَلٌ، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدُقُّ الصليب، ويقتلُ الخنزير، ويضعُ الجزية، ويُهْلِكُ الله في زمانه المِلَلَ كلَّها إلا الإسلام، ويُهلك الله المسيحَ الدجال، وتقع الأَمَنَةُ في الأرض حتى ترتع الأسودُ مع الإبل، والنِّمارُ مع البقر، والذئابُ مع الغنم، ويلعبُ الصبيانُ بالحيّات لا تضُرُّهم، فيمكث في الأرض أربعين سنةً، ثم يُتوفَّى فيُصلي عليه المسلمون**».

رواه أحمد (٢/٤٠٦/٤٣٧)، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢٤)، وابن حبان (٦٨١٤/٦٨٢١) مع الإحسان، والحاكم (٢/٥٩٥) وسنده صحيح على شرط مسلم.

قوله: «إخوة لعلات» بفتح العين وتشديد اللام، هم الذين أمهاتهم متعددات وأبوهم واحد، كما يقال للإخوة الأشقاء: أولاد الأعيان، وأراد بإخوة لعلات... إلخ، أن دين الأنبياء وإيمانهم واحد لكن شرائعهم مختلفة: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

[**١٩١**] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لقيت ليلة أُسري بي إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام**، قال: **فتذاكروا أمر الساعة فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال: لا علم لي بها، فردُّوا أمرهم إلى موسى فقال: لا علم لي به، فردُّوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجبْتُها فلا يعلم بها أحد إلا الله**.

وفيما عهد إليّ ربي عزّ وجل أن الدجال خارج ومعي قضيبان فإذا رآني ذاب كما يذوب الرصاص، قال: فيهلكه الله إذا رآني حتى إن الشجر والحجر ليقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعال فاقتله، قال: فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أكلوه ولا يمرون على ماء إلا شربوه، قال: ثم يرجع الناس إليّ فيشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم، ويُنزل الله المطر فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر، ففيما عهد إليّ ربي عزّ وجل أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المُتِم التي لا يدري أهلُها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً».

رواه أحمد (٣٧٥/١)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٨١)، والحاكم (٥٤٦/٥٤٥/٤٨٩/٤٨٨/٤) وسنده صحيح، وصححه الحاكم والذهبي والبوصيري في «الزوائد».

وقوله: «تجوى الأرض» أي: تُنتِنُ.

[١٩٢] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«تقاتلكم اليهود فتظهرون عليهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودي ورائي تعالَ فاقتله»، وفي رواية: «فتُسَلَّطون عليهم».**

رواه أحمد (١٢٢/٢) والبخاري في صفة النبي ﷺ من المناقب رقم (٣٥٩٣) وفي الجهاد (٢٩٢٥)، ومسلم (٤٤/١٨)، والترمذي في الفتن (٢٠٦٥).

[١٩٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعالَ فاقتله إلا الغَرْقَد فإنه من شجر اليهود».**

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٢٦)، ومسلم في الفتن (٤٥/٤٤/١٨) واللفظ له.

«الغرقد»: بفتح الغين والقاف بينهما راء ساكنة، نوع من شجر فيه شوك معروف ببلاد بيت المقدس.

[١٩٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ يأجوج ومأجوج يحفرون كلَّ يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غداً، فيعيده الله أشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء الله تعالى، واستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم في حصونهم فيرمون سهامهم إلى السماء فترجع عليها الدم الذي اجْفَظَّ فيقولون: قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله تعالى نغفاً في أقفائهم فيقتلهم بها».**

قال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده إن دواب الأرض لَتَسْمَنُ وتَشْكر شَكراً من لحومهم».**

رواه أحمد (٥١١/٥١٠/٢)، والترمذي في التفسير، والحاكم (٤٨٨/٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٨٠) وصححه البوصيري والحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

قوله: «الدم الذي اجفظ» أي: ترجع السهام ممتلئة دماً. وقوله: «نغفاً» بفتحتين، أي: دوداً. وقوله: «فتشكر» بفتح الكاف، أي: تسمن وتمتلىء شحماً، يقال: شكرت الناقة، بكسر الكاف وتشكر شكراً بفتحهما إذا سمنت وامتلأ ضرعها لبناً.

[١٩٥] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«تفتح يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ فيعمون الأرض وينحاز منهم المسلمون حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم حتى إنهم ليمرون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه شيئاً، فيمر آخرهم على أثرهم فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرة ماء، ويظهرون على**

الأرض، فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، ولَنُنَازِلَنَّ أهلَ السماء، حتى إن أحدَهم ليهُزَّ حَربتَه إلى السماء فترجع مُخَضَّبَةً بالدم، فيقولون: قد قتلنا أهل السماء، فبينما هم كذلك إذ بعث الله تعالى دواباً كنغف الجراد، فتأخذ بأعناقهم، فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضاً، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حساً فيقولون: مَن رجلٌ يشري نفسه وينظر ما فعلوا؟ فينزل منهم رجل قد وطّن نفسه على أن يقتلوه فيجدهم موتى فيناديهم: ألا أبشروا فقد هلك عدوكم، فيخرج الناس ويخلون سبيل مواشيهم فما يكون لهم رعيٌ إلا لحومُهم فتشكَرُ عليها كأحسن ما شَكِرت من نبات أصابته قط».

رواه ابن ماجه في الفتن (٤٠٧٩)، وابن حبان (٢٤٥/١٥)، وأبو يعلى (١٣٥١) وكذا أحمد (٧٧/٣)، والحاكم (٤٨٩/٤) وصححه على شرط مسلم، وكذا صححه البوصيري وجوّده ابن كثير.

قوله: «حدب» بفتحتين، هو ما ارتفع وغلظ من الأرض. «يَنسِلون» بكسر السين: أي يسرعون.

[١٩٦] وعن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها قالت: استيقظ النبي ﷺ وهو يقول: **«لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتِحَ اليومَ من رَدْم يأجوج ومأجوج»** وحلق بيده عشرة، قالت: قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: **«نعم إذا كثر الخبث»**.

رواه البخاري ومسلم عن أم حبيبة عن زينب بنت جحش، وقد تقدم في الفتن رقم (١٥).

[١٩٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذا»** وعقد تسعين.

رواه البخاري (٢٢٦/١٦) ومسلم (٤/١٨) كلاهما في الفتن.

[١٩٨] وعن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في ذكره الدجال ونزول عيسى قال: **«فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى**

إلى عيسى إني قد أخرجتُ عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحَرِّزْ عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أولهم ببُحَيرةَ طبرِية فيشربون ما فيها، ويمر آخر فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماءٌ، ويُحصَرُ نبيُّ الله عيسى وأصحابه حتى يكونَ رأسُ الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فَرْسى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمُهُم ونَتْنُهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مَدَرٍ ولا وبَر فيغسل الأرض حتىٰ يتركها كالزَّلَفة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتَك ورُدِّي بركتك فيومئذ تأكل العصابة من الرُّمَّانة، ويستظلون بقِحْفِها ويُبارَكُ في الرِّسْل حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبائل من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذَ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة».

رواه مسلم وغيره كما تقدم.

قوله: «الزلفة» بفتحات وغيرها، أي: المرآة في صفائها. و«العصابة»: الجماعة. و«اللقحة»: بكسر اللام وفتحها: هي القريبة العهد بالولادة. و«الفئام» هي الجماعة الكثيرة. وقوله: «قِحفها» بكسر القاف، هو مقعر قشرها. وقوله: «يتهارجون» أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس جماعاً جماعياً فيكونون كالحمير لا يستحيون ولا يبالون لذلك.

اشتملت هذه الأحاديث الشريفة على أمور: نزول عيسى عليه السلام، وصلاته خلف الخليفة الإسلامي، وقتاله الدجال واليهود، وخروج يأجوج ومأجوج، ونزول البركة في الأرض والخير والأمن بعد ذلك، ثم موت عيسى عليه السلام بعد أن يمكث أربعين سنة ويحج ويعتمر.

❑ أولاً: نزول عيسى من السماء وقتاله الدجال واليهود:

أجمع الأئمة والعلماء من لدن الصحابة حتى وقتنا الحاضر على أن المسيح ابن مريم عليه السلام رُفع إلى السماء ثم سينزل إلى الأرض آخر الزمان للقضاء على الكفر والفساد وتحكيم شرع الله الذي جاء به نبينا ﷺ، لا خلاف في هذا بين المسلمين وذلك لثلاثة أدلة:

الدليل الأول: القرآن الكريم.

الثاني: السنّة المطهرة.

الثالث: إجماع مَن يعتد به من أهل العلم.

أما القرآن ففي أربع آيات:

الأولى: قوله تعالى في البشارة به عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

الثانية: قوله عزّ وجل في تذكيره عيسى بنعمته عليه وعلى والدته: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

قال المفسرون: تَكَلُّمُه في حالة الكهولة سيكون بعد نزوله لأنه رُفع وهو شاب ابن ثلاثين سنة، فغاب مئات السنين ثم ينزل ويعيش، إلى أن يصل إلى الكهولة ويكلم الناس بما فيهم الأمة المحمدية وأهل الكتاب.

الثالثة: قوله عزّ وجل: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾.

معناه: ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى عليه السلام بعد نزوله آخر الزمان قبل أن يموت، حاكماً بهذه الشريعة المحمدية داعياً إليها، ولا يبقى يهودي ولا نصراني إذ ذاك إلا آمن به أنه عبد الله ورسوله، فالضميران في (به وفي موته) عائدان على عيسى عليه السلام.

وبهذا فسره أبو هريرة وابن عباس وقتادة وابن زيد والحسن وغيرهم،

وهذا التفسير هو المتعين الذي لا يصح غيره لأنه الوارد في الصحيحين من تفسير أبي هريرة، وهو الموافق للأحاديث المتواترة، أما ادعاء عَوْد الضميرين على الكتابي فضعيف.

الآية الرابعة: قول الله عزّ وجل في الكلام على عيسى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾.

ومعناه: أن عيسى لعلم للساعة بنزوله فلا تشكن بها، وهذا على قراءة كسر العين، وبذلك قال المفسرون من الصحابة فمَن بعدهم. انظر ابن جرير والرازي وأبا حيان وابن كثير وغيرهم.

[١٩٩] وجاء فيه حديث عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: **«نزول عيسى ابن مريم من قبل يوم القيامة»**.

رواه ابن حبان في صحيحه (٦١٨٧) (ج١٥/٢٢٨) بسند حسن صحيح، وهو أيضاً في المسند (٣١٨/٣١٧/١) من طريق عاصم بن بهدلة.

وأما على قراءة: **﴿لَعَلَمٌ للساعة﴾** بفتح العين، فمعناه أن خروج عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة آية وعلامة للساعة، وهكذا ورد عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وأبي مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى، ومعناهما واحد.

أما الدليل الثاني وهو السنّة المطهرة فأحاديث نزوله عليه السلام متواترة مقطوع بها جاءت عن جماعة من الصحابة يفوقون الخمسة والعشرين وأحاديثهم في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها من كتب السنّة المشرفة، وقد نصّ على تواترها جمع كبير من أهل الحديث وذكروها في كتب الأحاديث المتواترة.

وقد ذكرنا بعض عيونها هنا.

الدليل الثالث: الإجماع، فقد أجمع أهل السنّة والجماعة على أن نزول عيسى آخر الزمان حق يجب الإيمان به، وذكروا ذلك في كتب العقائد.

وفيما ذكرنا من الأحاديث أن نزوله ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام سيكون بالمنارة البيضاء شرقي دمشق، وهذه المنارة موجودة لحد الآن وقد زرناها وصعدنا إليها، وقد تحدث عنها النووي وابن كثير وغيرهما، وكانت موجودة في وقتيهما، وإذا نزل عرفه المؤمنون بصفته التي وصفه بها رسولنا ﷺ وأنه مربوع يميل إلى الحمرة والبياض يقطر وجهه ويسيل منه كاللؤلؤ وأنه ينزل عند صلاة الصبح فيصلي خلف إمام لنا يقال: إنه المهدي، ثم يستعد ومعه المؤمنون فيقصد الدجال، وسيكون مع اليهود في مدينة لُدّ من فلسطين فيقتله على باب المدينة، وجاء في الحديث أنه إذا رأى عيسى عليه السلام ذاب كذوبان الرصاص، وهنالك سيقاتل المسلمون مع المسيح عليه السلام اليهود الذين سيكونون مع الدجال مقتلة عظيمة يكون فيها النصر المبين للمسلمين وينهزم اليهود شر هزيمة ولا يبقى حجر ولا شجر إلا نطق وقال: يا مسلم تعال هذا يهودي ورائي فاقتله إلا شجر الغرقد فإنه شجر لا ينطق.

[٢٠٠] بل جاء في حديث أبي أمامة الطويل عند ابن ماجه (٤٠٧٧) ما نصه: فيدركه عند باب اللُدّ الشرقي فيقتله فيهزم الله اليهود، فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا الغرقد فإنها من شجرهم لا تنطق، إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي فتعال اقتله.

وهذا هو وقت انتصار المسلمين على اليهود وإبادتهم وذلك أيام عيسى عليه السلام، حيث سيكرمهم الله عزّ وجل بكلام الحجر والشجر، لأنهم عندئذ سيكونون النخبة الصالحة التي تمثل الأمة المحمدية يجتمعون عند عيسى من جميع أقطار الأرض.

أما مسلمو عصرنا فهم أقل بل أسقط من أن ينتصروا على اليهود وتكلمهم الجمادات، لأنهم ليسوا بأهل لذلك، فهم لا يملكون ما عند اليهود من الأسلحة المتطورة والمدمرة، كما أنهم ليس لهم من الدين والقوة المعنوية الروحية ما يمكنهم من هزم اليهود وظهور الكرامات لهم مثل نطق الجمادات.

❑ ثانياً: خروج ياجوج وماجوج:

يأجوج ومأجوج جنس من بني آدم يقال: إنهم من سلالة يافث ولد نوح عليه السلام، وكانوا من المفسدين في الأرض، فبنى ذو القرنين السد بينهم وبين سائر الناس.

وقد جاء ذكرهم في القرآن الكريم في موضعين:

أولاً: في قصة ذي القرنين عليه السلام حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ...﴾.

ثانياً: في الكلام على خروجهم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ...﴾ إلخ.

فذكر عزّ وجل أن ذا القرنين لما بلغ مشرق الشمس اتبع طريقاً بين المشرق والمغرب لجهة الشمال حتى بلغ بين الجبلين العظيمين وجد من ورائهما قوماً لا يفهمون أي لغة فقالوا له بواسطة ترجمان: إن ههنا قوماً يفسدون في الأرض يقتلوننا ويأكلون أموالنا... فهل لك أن تجعل بيننا وبينهم فاصلاً وسداً، ونعطيك في مقابل ذلك خراجاً، فقال لهم: لا حاجة لي في خراجكم فما أعطاني الله تعالى من الملك والمال والتمكين خير مما تبذلونه إلي من الخراج، لكن ساعدوني بقوة من صنّاع وعمال وآلات فأجعل بينكم وبينهم حاجزاً حصيناً، فآتوني قطع الحديد، ففعلوا، فبنى لهم سدًّا عظيماً بالحديد حتى سدّ ما بين الجبلين، وهما المراد بالصدفين، وجعل البناء مساوياً لهما في السمك، فحينئذ أوقد النار في الحديد المبني

حتى أصبح كالنار في الحرارة قال: آتوني نحاساً مذاباً أُفرغه عليه ليلتصق ويتماسك مع الحديد فصار قطعة واحدة صلداً، فلما جاء يأجوج ومأجوج أرادوا أن يعلُوه وينقبُوه فلم يستطيعوا لذلك سبيلاً لعلوه وصلابته وملاسته.

ثم لما فرغ من ذلك قال لهم: هذا الذي بيّنته لكم رحمة عظيمة من ربي. فإذا جاء وعد الله وهو وقت خروجهم أو يوم القيامة جعله تعالى مدكوكاً مُسَوًّى بالأرض فيخرجون على العباد ينسلون ويهرعون من كل حدب وموضع مرتفع... فيعيثون في الأرض فساداً.

فهذا القرآن الكريم نصّ في وجود يأجوج ومأجوج وأنهم وراء السد وأنهم سيدكونه آخر الزمان ويخرجون.

وبذلك جاءت الأحاديث التي ذكرناها في شأنهم وهي تدل على أمور:

أولاً: أنهم منذ بنى ذو القرنين السد دونهم وهم يلمسونه ويحفرونه، وكان أيام النبوة قد حفروا منه قطعة مثل الحلقة.

ثانياً: عندما يأتي وعد الله بخروجهم، وذلك عند قرب قيام الساعة يقولون: غداً إن شاء الله نحفره، فإذا أصبحوا من الغد خرقوه وجعلوه دكًا مسوًّى بالأرض.

ثالثاً: وقت خروجهم سيكون أوائل أيام عيسى عليه السلام بعد فراغه من قتل الدجال واليهود، وذلك أن الله تعالى سيوحي إليه بأني أخرجت عباداً لي لا قدرة لأحد على قتالهم فيأمره تعالى بأن يلجأوا إلى الطور ويعتصموا فيه منهم.

رابعاً: أنهم إذا خرجوا عاثوا في الأرض فساداً قتلاً للأنفس وأخذاً للأموال وشرباً للمياه ويكونون كالوحوش المتوحشة، ثم يصلون إلى الشام ويُضَيِّقُ على المسلمين ومعهم المسيح ابن مريم حتى لا يجدوا ما يسدون به رمقهم، فآنذاك يرغبون إلى الله عزّ وجل، فيدعون عليهم فيبعث الله تعالى إليهم ما يهلكهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة وتنتن بهم الأرض

فيدعو الله عزّ وجل عيسى وأصحابه فيرسل الله على تلك الجثث القذرة من ينقلها إلى ما شاء الله، ثم يرسل الله عزّ وجل مطراً غزيراً فيطهّر منهم الأرض حتى تصير في الصفاء كالمرآة، وبذلك ينتهي أمر يأجوج ومأجوج بإذن الله وقدرته.

❑ ثالثاً: مَن هم ياجوج وماجوج وأين هم الآن:

اختلف العلماء من المفسرين والمؤرخين من أي جنس يأجوج ومأجوج بعد اتفاقهم بأنهم من بني آدم، فقال بعضهم: هم الصينيون والمغول، وقال آخرون: إنهم الروس، وقال فريق ثالث: إنهم جنس كثير لا نعلمهم، فهم كالجن يعيشون معنا ولا نراهم، وهذا القول من أبطل الباطل.

وظاهر القرآن يدل على أنهم قوم متوحشون يعيشون في وسط شمال آسيا وغربها، ولذلك قال جمهور المفسرين المتقدمين إن لم يكونوا كلهم: إن السد الذي بناه ذو القرنين وجعله بين الصدفين والجبلين العظيمين يوجد بنواحي أرمينية وأذربيجان وذلك شمال غرب آسيا بجوار تركيا، وقالوا: إن الترك جنس منهم بقوا خارج السد، وذكر بعض المفسرين المعاصرين أنه شد رحله في طائرة إلى تلك النواحي فشاهد سداً هنالك شامخاً بين جبلين عظيمين طولاً وعرضاً.

بينما رجح جوهري طنطاوي في «تفسير الجواهر» وتبعه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وغيرهما من المعاصرين أن هذا السد جاء بين الصين وبلاد المغول. قال ابن عاشور: وقد وجد السد هنالك ولم تزل آثاره إلى اليوم شاهده الجغرافيون والسائحون... لكن هؤلاء أبعدوا النجعة فقالوا: إن يأجوج ومأجوج حفروا السد وخرجوا برئاسة جنكيز خان في المائة السابعة للهجرة وهم التتار الذين شتتوا شمل المسلمين وأفسدوا في الأرض وقتلوا ملايين المسلمين وقضوا على الخلافة العباسية فجعلوا يأجوج ومأجوج قد انتهى أمرهم، وقال بعضهم: إنهم سيخرجون مرتين، مرة تقدمت أيام العباسيين في القرن السابع، والمرة الثانية ستكون أيام عيسى، وكل ذلك

باطل بل لهم خرجة واحدة أيام عيسى وهو ظاهر القرآن ومقتضى الأحاديث النبوية المتقدمة، إنما الذي يحيّر ويُشكل كثيراً على أهل العلم: هو أن ما جاء في صفات يأجوج ومأجوج لا ينطبق على تلك الدول التي قيل: إنها بها يأجوج ومأجوج وأن بيننا وبينهم سداً، لأنهم يعيشون معنا ونتبادل فيما بيننا المصالح التجارية والسياسية وغيرهما وعندنا سفراؤهم كما عندهم سفراء العالم؟! فالله تعالى أعلم بمراده تعالى ومراد نبيه ﷺ.

* * *

ماذا ينجز عيسى في أيامه وماذا يكون بعد قتل الدجال واليهود وياجوج وماجوج

علمنا من الأحاديث التي أوردناها في نزول عيسى وما يتبع ذلك أنه ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ سيقتل الدجال ويقضي على اليهود ويبيد النصرانية من الأرض ويكسر صليبهم الذي كان شعاراً لدينهم ويدعو الناس كلهم إلى عبادة الله تعالى ويقضي على جميع الملل ولا يبقى إلا دين الإسلام ويقتل الخنزير، لأنه محرّم اقتناؤه وأكله، ويضع الجزية فلا يقبلها من أحد بل لا يقبل إلا الإسلام أو القتل، ثم بعد تطهير الأرض من المفسدين: الدجال واليهود والنصارى وجميع أهل الملل وختاماً بيأجوج ومأجوج، يأمر الله عزّ وجل الأرض فتُنبت ثمرتها وخيرها، وتؤتي بركتها حتى تأكل الجماعة الكبيرة من رمانة واحدة ويستظلون بقشرتها من الشمس وذلك لكبرها فتكفيهم، وحتى إن الناقة أو البقرة أو الشاة تكفي كل واحدة الجماعة غذاء فلا يحتاجون إلى غيرها.

ويقع الأمن والأمان، حتى إن السباع والنمار والذئاب تخالط الإبل والبقر والغنم فلا تؤذيها ولا تقربها، وحتى إن الطفل يلعب بالأفاعي والحيّات فلا تضره.

* * *

❋ نهاية سيدنا عيسى عليه السلام

مما سبق، عرفنا أن سيدنا عيسى سيمكث حكَماً عدلاً أربعين سنة[1]، ويتزوج ويولد له ويحج ويعتمر وأخيراً يموت ويصلي عليه المسلمون، ولم يأتِ في السنّة ما يبين محل موته ودفنه. وما ورد من أنه سيموت بمدينة الرسول ﷺ ويدفن معه لا يصح شيء من ذلك، وإن ذكره جمع من الأعلام فإن ذلك لا مستند له يصح عن النبي ﷺ.

* * *

❋ ما بعد سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام

عندما ينقضي عصر عيسى عليه السلام الذي لم يتقدم له مثيلٌ في تاريخ الإسلام منذ عصر النبوة من انتشار العدالة والأمن والأمان والعيش الرغيد وصلاح المجتمع الإسلامي، سرعان ما تنقلب الأوضاع، وتتبدل الأحوال، ويظهر الفتور في الناس، ويطل المفسدون بقرونهم، فعند ذلك تباغتهم آيتان عظيمتان وعلامتان فظيعتان من أشراط الساعة الكبرى تزلزلان القلوب وتخلعان الألباب، تلكما هما طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس فأيتهما خرجت كانت الأخرى في أثرها.

* * *

❋ طلوع الشمس من مغربها
وخروج الدابة

[٢٠١] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعدُ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن

(١) وما جاء في صحيح مسلم: أنه سيبقى سبع سنين فإنه مؤول لمعارضته حديث مكثه أربعين سنة وهو صحيح على شرط مسلم.

أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى فأيتهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً».

رواه مسلم في الفتن (٧٨/٧٧/١٨).

فهذا الحديث الشريف نصّ في أن خروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها متقارب، غير أن قوله: **«إن أول الآيات خروجاً...»** إلخ، مؤول كما قال العلماء بالآيات التي ليست مألوفة، ذلك أن طلوع الشمس من مغربها يكون على خلاف عادتها المألوفة فتكون أول الآيات السماوية، كما أن خروج دابة على شكل غير مألوف تخاطب الناس وتَسِمُهم بالإيمان والكفر أمر خارج عن مجاري العادات فهي أول آية كونية أرضية، ووجهوا الحديث بهذا لأن الإجماع على أن خروج الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج قبل الطلوع والدابة.

* * *

❊ طلوع الشمس من مغربها وانغلاق باب التوبة

[٢٠٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، وذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً».**

رواه البخاري في التفسير ومسلم في الإيمان (٢٩٤/٢)، وأبو داود في الملاحم (٤٣١٢)، والنسائي في الكبرى (٣٤٤/٦)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٨).

[٢٠٣] وعنه عن النبي ﷺ قال: **«ثلاث إذا خرجن لم ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل: الدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها».**

رواه أحمد (٤٤٥/٢)، ومسلم في الإيمان (١٩٥/٢)، والترمذي في التفسير (٢٨٧٤).

[٢٠٤] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ في المسجد عند غروب الشمس فقال: **«أبا ذر أتدري أين تذهب هذه الشمس؟»** قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«تذهب تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها، فيقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها فذلك قوله عز وجل:** ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾».

رواه البخاري في التفسير وفي مواضع، ومسلم في الإيمان وأبو داود في الحروب، والترمذي في الفتن (٢٠١٦) وفي التفسير، والنسائي في الكبرى، وتقدم مع غيره في التفسير.

طلوع الشمس من مغربها ثابت بالقرآن والسنة والإجماع.

فالقرآن في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا﴾، فالآية هنا هي طلوع الشمس من مغربها باتفاق المفسرين.

وأما السنة ففيما ذكرناه وغيره مما لم نذكره وهو كثير، وأما الإجماع فلا يوجد مَن يخالف ذلك من علماء الإسلام.

وهذه الأحاديث المذكورة تدل على أمور:

أولاً: أن الشمس المسخرة بأمر الله تعالى من يوم خلق السماوات والأرض تطلع كل يوم وتغرب كل مساء على سائر الكرة الأرضية لم ينخرم نظامها يوماً ما، فهي دائمة السير إذا غربت على قوم طلعت على آخرين، وكما أن سيرها في فلكها مستمر كذلك سجودها لله تعالى دائم تحت العرش، وكلما سجدت استأذنت الله عزّ وجل في الطلوع. وهذا السجود لا نعلمه، فحسبنا الإيمان بما قاله رسولنا ﷺ، وإن كان لذلك وجه ذكرته فيما سلف في التفسير.

ثانياً: إنه سيأتي وقت ما تستأذن الشمس ربها في الطلوع فلا يؤذن لها، ويقال لها: ارجعي واطلعي من حيث غربت، فترجع وتطلع من جهة غروبها، ثم ترجع إلى سيرها المعتاد ويكون ذلك علامة على غلق باب التوبة، وأن الله عزّ وجل لا يقبل بعد ذلك توبة كافر ولا فاسق.

ثالثاً: يدل قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى﴾ على أن الشمس جارية وسابحة في فلكها وهذا هو معتقد المسلمين، فمن قال بالفكرة التي تقول بأنها واقفة والأرض تدور حولها كان زائغاً خارجاً عن طريق أهل السنة والحق.

* * *

❁ خروج الدابة

[٢٠٥] عن حذيفة بن أَسِيد الغفاري رضي الله تعالى عنه قال: أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات: طلوع الشمس من مغربها، والدخان، والدابة، وخروج يأجوج ومأجوج، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام، والدجال، وثلاثة خسوف: خسف بالمغرب، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا**».

رواه مسلم (٢٩٠١)، وأبو داود (٤٣١١)، والترمذي (٢٠١٣)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٤)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٤١)، وتقدم لنا حديث مسلم: «**بادروا بالأعمال ستاً**» فذكر منها الدابة. انظر ما سبق رقم (١٤٤).

في هذا الحديث الشريف ذكر عشر آيات من الأشراط الكبرى تقدم أربعة منها وبقي ستة:

منها: خروج الدابة وقد ذكر الله عزّ وجل خروجها في القرآن الكريم، وأن الناس إذا انحرفوا عن الطريق وخرجوا عن الجادة وكفروا وفجروا وعمّ الفساد أكثرهم غضب الله تعالى عليهم وأوجب لهم العذاب، وأخرج لهم دابة تخاطبهم وتناديهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب العذاب أو غضب الله عليهم. وقوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ هو دال على أن الناس وقتها يكونون قد كفروا بآيات الله، وهذه الدابة لا ندري حجمها ولا صفتها رغم ما جاء من صفات لها عن جماعة من السلف لكنه لم يصح شيء من ذلك يعتد به.

مع العلم بأن هذه الدابة لا بد أن تكون مخالفة لدوابنا المألوفة.

* * *

مهمة الدابة عند خروجها

ذكروا في صفة هذه الدابة أنه لا يفوتها هارب ولا يلحقها طالب وأنها تَسِمُ المؤمن والكافر، تَخْطِمُ أنفَ الكافر بالعصا، وتجلو وجه المؤمن بالخاتم.

[٢٠٦] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تخرجُ دابةُ الأرض ومعها عصا موسى، وخاتمُ سليمان، فتخطِمُ أنفَ الكافر بالعصا، وتجلو وجهَ المؤمن بالخاتم، حتى إن أهل الخِوان الواحد ليجتمعون فيقول هذا: يا مؤمن، ويقول هذا: يا كافر»**.

رواه أحمد (٢/٢٩٥)، والطيالسي بالمنحة (٢٧٨٩)، والترمذي في التفسير، وابن ماجه (٤٠٦٦)، والحاكم (٤/٤٨٥) وحسنه الترمذي، وفي سنده ابن جدعان حسن له جماعة والشيخ أحمد شاكر يصحح له كما في هذا الحديث.

فالحديث يدل على أن الدابة ستجعل لكل من المؤمن والكافر علامة يعرف بها حتى إن الجماعة يجتمعون على الطعام فيعرف المؤمن منهم من الكافر بالعلامة التي وسم بها. هذا نهاية ما ينبغي أن نذكره في هذه الآية، والله تعالى أعلم.

* * *

❋ الدخان

اختلف علماء السلف وتبعهم الخلف رحمهم الله تعالى في المراد بقوله تعالى الموعود بارتقابه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ...﴾ إلخ.

فذهب فريق منهم إلى أن هذا الدخان الموعود به قد مضى أيام النبوة عندما استعصى كفار قريش على النبي ﷺ فدعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد فأنزل الله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾.

وهذا رواه البخاري في مواضع من التفسير عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وهو في حكم المرفوع. وانظر ما سبق في تفسير الروم.

فهذا يدل على أن الدخان المذكور قد مضى وانتهى أمره، ومَن قرأ الآية الكريمة وقرأ ما قبلها وما بعدها علم أنها نزلت في كفار قريش كما بيّن ذلك ابن جرير.

وذهب فريق آخر إلى أن خروج الدخان من أشراط الساعة الكبرى بدليل حديث حذيفة بن أسيد المتقدم: «**لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات**» فذكر منها الدخان وهو في الصحيح، وأيّدوا هذا بحديثين آخرين مرفوعين وردا بذلك، وهما:

[٢٠٧] فعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول الآيات: الدجال، ونزول عيسى ابن مريم، ونار تخرج من قعر عدن أبين، تسوق الناس إلى الحشر، تقيل معهم إذا قالوا، والدخان**»، قال حذيفة: يا رسول الله وما الدخان؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية: «﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١١﴾، **يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أما المؤمن فيصيبه منه كهيئة الزكام، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج من منخرَيه وأذنيه ودبره**».

أخرجه ابن جرير في التفسير (١١٤/٢٥) ورجاله رجال الصحيحين غير عصام بن رواد العسقلاني، ففيه لين، ووالده كان قد اختلط لكنهما لم يأتيا بما ينكر ولم يتهما بكذب.

ومعنى الحديث في الجملة صحيح.

[٢٠٨] وعن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن ربكم أنذركم ثلاثاً: الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة، ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مَسْمَع منه، والثانية: الدابة، والثالثة: الدجال»**.

رواه ابن جرير (١١٤/٢٥) وزاد السيوطي في «الدر المنثور» الطبراني وقال: بسند جيد، ويؤيده أيضاً آثار عن السلف.

[٢٠٩] فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: يهيج الدخان بالناس، فأما المؤمن فيأخذه كهيئة الزكمة، وأما الكافر فينفخه حتى يخرج من كل مسمع منه.

رواه عبد بن حميد وابن جرير (١١٣/٢٥) هكذا موقوفاً، ورواه ابن أبي حاتم (٣٢٨٧/١٠) مرفوعاً، وسنده ضعيف أيضاً.

[٢١٠] وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: إن الدخان لم يمضِ بعد، يأخذ المؤمن كهيئة الزكام، وينفخ الكافر حتى ينفذ.

رواه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن أبي حاتم (٣٢٨٨/١٠) كما في الدر.

[٢١١] وعن ابن أبي مليكة قال: دخلت على ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال: لم أنَمْ هذه الليلة فقلت: لمَ؟ قال: طلع الكوكب ذو الذنَب فخشيت أن يطرق الدخان.

رواه عبد بن حميد وابن جرير (١١٣/٢)، وابن المنذر، والحاكم، قال السيوطي: بسند صحيح. وفي الباب غير ذلك.

وبناءً على هذا التعارض اختلفوا في هذا الدخان هل تقدم أم لا؟

أما شيخ المفسرين ابن جرير فرجح ما جاء في صحيح البخاري عن ابن مسعود وأن ذلك كان أيام النبوة، وأيّد ذلك بسياق الآية، ومع ذلك فلم ينكر أن يكون وقع ذلك لكفار قريش ثم يقع مرة أخرى بقوم آخرين، قال: لأن الأخبار عن رسول الله ﷺ قد تظاهرت بأن ذلك كائن...

وإلى هذا مال كثير من العلماء جمعاً بين الأحاديث منهم النووي رحمه الله تعالى، فقد قال في «شرح مسلم» (٢٧/١٨) على حديث: «**لن تقوم الساعة حتى ترون قبلها عشر آيات**» فذكر الدخان... إلخ:

هذا الحديث يؤيد قول من قال: إن الدخان دخان يأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمن منه كهيئة الزكام، وأنه لم يأتِ بعد، وإنما يكون قريباً من قيام الساعة، وقد سبق في كتاب بدء الخلق قول من قال هذا، وإنكار ابن مسعود عليه وأنه قال: إنما هو عبارة عما نال قريشاً من القحط، حتى كانوا يرون بينهم وبين السماء كهيئة الدخان، وقد وافق ابن مسعود جماعة، وقال بالقول الآخر حذيفة وابن عمر والحسن، ورواه حذيفة عن النبي ﷺ وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً. قال: ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار. والله تعالى أعلم.

* * *



الخسوفات الثلاثة

الخسف عبارة عن غيبوبة سطح الأرض داخلها بجبالها وصخورها وبناياتها وأنهارها، وهو من أنواع العذاب الذي يبعثه الله ويبعثه على عباده عندما يسرفون في الكفر به ومجاهرته بالمحادّة له.

وقد وقعت خسوفات وزلازل كثيرة عبر التاريخ، بل لا تكاد تمر سنة لم يقع فيها زلزال وخسف في ناحية من نواحي المعمورة، وقد شاهدنا في عصرنا خسوفات هائلة عندنا بالمغرب، وبإيران، وبأفغانستان وغيرها.

أما الخسوفات الثلاثة الكبرى الواردة في الحديث السابق عن حذيفة بن أسيد فلم تأتِ بعدُ لأنها خسوفات تخالف كل خسف سبق، فستكون هائلة عظيمة لم يسمع بمثلها لأنها من الأشراط الكبرى التي تخالف المألوفات وما يعهده الناس. ومواقع هذه الخسوفات ثلاثة مواضع، أحدها: بالمشرق، وثانيها: بالمغرب، والمراد مشرق المدينة ومغربها، وثالثها: بجزيرة العرب.

أما جزيرة العرب فمعروفة، فهي ما بين البحر العربي شرقاً، والبحر الأحمر غرباً، وما بين البحر المحيط الهندي جنوباً، ودجلة والفرات بالعراق شمالاً، فبهذه المناطق سيقع أحد الخسوفات الهائلة التي تزلزل القلوب وتقلعها من أماكنها.

أما ما يقع بالمشرق والمغرب فلا ندري أي قطر يقع فيه ذلك، فقد يحصل في إيران، أو باكستان، أو أفغانستان، أو في الهند، أو في الصين، أو في غيرها من الدول الآسيوية الشرقية سواء فيها جنوبها وشمالها.

وقد يقع في الجهات الغربية بداية من الشام فمصر فالمغرب العربي فأمريكا..

ولا شك أن هذه الخسوفات ستكون عقاباً لأهل ذلك الزمان وانتقاماً منهم لما سيكونون متصفين به من الانحلال والميوعة واتباع الأهواء والشهوات المحرّمة، ولا ندري فلعل ذلك يكون لأهل زماننا، فإنهم قد بلغوا النهاية في التواطؤ على محاربة الله تعالى وارتكاب الفواحش والاستهتار بأوامر الله وتكاليفه، واتفاقهم على عدم تحكيم شرع الله عزّ وجل، فهل ينتظرون من الله عزّ وجل إلا عذابه وعقابه. نسأل الله السلامة والعافية.

* * *

هدم الكعبة على يد الحبشة

[٣١٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُخَرِّبُ الكعبةَ ذُو السُّوَيْقَتَيْنِ مِنَ الحبشةِ»**.

رواه البخاري في الحج (٢٠٧/٤)، ومسلم في الفتن (٢٥/١٨).

«السويقتين»: تثنية سويقة، مصغر الساق، وقيل له ذلك: لأن في سيقان الحبشة دقة، فلذا صغرها.

[٣١٣] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ: **«كأني أنظر إليه أسود أفحج ينقضها حجراً حجراً»** يعني الكعبة.

رواه أحمد (٢٢٨/١)، والبخاري في الحج (٢٠٦/٤).

«أفحج»: يعني أن به عوجاً في المفاصل أو نحو ذلك.

[٣١٤] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها، ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أُصَيْلِع، أُفَيْدع، يضرب عليها بِمِسْحَاتِه ومِعْوَلِه»**.

رواه أحمد (٢٢٠/٢) قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي.

«أُصَيْلِع»: تصغير أصلع وهو الذي انحسر الشعر عن مقدم رأسه. وقوله: **«أفيدع»** بضم الهمزة مصغراً أيضاً وهو الذي زالت مفاصله عن أماكنها.

إن حرم الله تعالى المكي من يوم أن خلقه الله عزّ وجل جعله حرماً آمناً لا يسفك فيه دم، ولا يصطاد صيده، ولا يقطع شجره، ولا يختلى خلاه، فهو ذو أمن وأمان، وزاده الله حرمة بعد أن بنى به بيته الذي جعله الله قبلة للناس وقياماً لدينهم يحجُّونه ويطوفون به ويزورونه على امتداد من زمن الخليل إلى أن جاء خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، ولم يزل محترماً مقدّساً محمياً من الله لا يؤمه جبار ظالم إلا أهلكه الله وقصمه، وحسبنا ما قصّه الله تعالى علينا من خبر أصحاب الفيل وكيف أهلكهم الله وأباد خضراءهم عندما أرادوا تخريبه.

وقد قدّمنا حديث: **«يغزو جيش هذا البيت فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم...»** إلخ.

لكن الله عزّ وجل سيمكن في آخر الزمان قوماً من الحبشة فيخربونه وذلك لما حصل وسيحصل من أهله من استحلال حرمته عبر تاريخ الأمة، وقد غزاه المسلمون وانتهكوا حرمته مراراً، من أشهر ذلك غزو أهل الشام له أيام يزيد بن معاوية وقتالهم ابن الزبير داخل الحرم، ثم غزي بعد ذلك في وقائع كثيرة، من أعظمها وقعة الشيعة القرامطة بعد القرن الثالث فقتلوا من المسلمين في المطاف من لا يحصى كثرة، ثم غزي بعد ذلك مراراً، حتى في عصرنا هذا، وأصبح الحرم منتهكة حرمته على يد أهله، فإذا فعلوا ذلك سلّط الله عليهم من يهدم لهم البيت ويخربه فلا يعمر بعده. وقد جاء في الحديث ما يشير إلى هذا السبب.

[٢١٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يُبايَعُ لرجل ما بين الركن والمقام، ولن يستحل البيت إلا أهلُه، فإذا استحلُّوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تأتي الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه»**.

رواه أحمد (٢/٢٩١/٣١٢/٣٢٨/٣٥١) من طرق بسند صحيح.

فهذا الحديث يبين أن أهل الحرم وهم سكانه وحجاجه وزواره من المسلمين إذا انتهكوا حرمته واستحلُّوا ما حرّم الله تعالى فيه أهلكهم الله تعالى كما هو واقعنا، ثم بعد ذلك تأتي الحبشة فيغزونه ويخربونه ثم لا يبنى بعد ذلك ولا يعمر حتى تقوم الساعة. ولا شك أن هذا سيكون في الفترة ما بين الأشراط المتقدمة وبين قيام الساعة عندما يذهب الدين وأهله ولا يبقى إلا البقية القليلة من المؤمنين.

والأحاديث المذكورة ظاهرة في أن الحبشة سيغزون مكة المكرمة ومعهم رئيسهم وقائدهم الدقيق الساقين أعوجهما، ولا ندري كيف يغزو الحبشة الحرمين والحبشة الآن مفرّقة إلى دويلتين صغيرتين ضعيفتين متحاربتين، فالله تعالى أعلم بغيبه، فلعل الحرم الشريف سيلي أمره قوم طغاة لا قوة عندهم تكفي لحمايتهم، فتهاجمهم الحبشة بعد أن تتقوى وتتحد فيسلطهم الله على من ظلم وطغى في حرم الله وينتصرون ويخربون البيت ويأخذون ما عنده من كنوز.

وظاهر الحديث الأخير أن البيت لا يقام بناؤه بعد ذلك، وذلك لا يمنع من الحج إليه والطواف بمكانه، فإن المؤمنين لا ينقطعون حتى تأتي الريح الطيبة التي تقبض أرواحهم ويرفع القرآن وتأتي النار من قعر عدن.

* * *

❊ القحطاني وجهجاه

[٢١٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»**.

رواه البخاري (١٦/١٩٠)، ومسلم (١٨/٣٦) كلاهما في الفتن.

[٢١٧] وعنه عن النبي ﷺ قال: **«لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل يقال له: الجهجاه»**، وفي رواية: **«حتى يملك رجل من الموالي يقال له: الجهجاه»**.

رواه مسلم في الفتن (١٨/٣٦).

اختلفوا في القحطاني والجهجاه، فذكر بعضهم أنهما واحد، وقالوا: إنه ذو السويقتين المتقدم. وذكر هذا ابن كثير وغيره.

وقال آخرون: إنهما شخصان، فالقحطاني يماني، سيلي الأمر بعد تخريب الحبشة الكعبة فيهلكهم. أفاد هذا الحافظ في الفتح.

وأما الجهجاه فتضاربوا في أمره أيضاً. وعلى أيٍّ فخروج هذين الشخصين من أشراط الساعة الكبرى فيما بين عيسى والساعة، فالله تعالى أعلم.

* * *

❊ ذهاب الإيمان وبقاء الأشرار ورفع القرآن ثم عبادة الأصنام

[٢١٨] تواتر عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين**

على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة، وفي رواية: **«حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»**.

رواه الشيخان وغيرهم عن جماعة من الصحابة بألفاظ.

فالحديث نصّ في أنه لا بد أن تبقى طائفة من المؤمنين قائمين بأمر الله ودينه حتى يأتي أمر الله. وفسروا أمر الله بالريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين وهي المراد بالساعة، لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق وهم الكفار.

وقد تقدم في حديث النواس الذي أخرجه مسلم أن النبي ﷺ قال: **«فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»** فهذه الريح ستكون حتماً آخر الأشراط حيث لا يبقى في الأرض إلا أشرار الناس.

[٢١٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضَتْه»**.

رواه مسلم في الإيمان (١٣٢/٢) باب في الريح التي تكون قرب القيامة تقبض من في قلبه شيء من الإيمان.

[٢٢٠] وجاء في حديث عبدالله بن عمرو الطويل في شأن الدجال ونزول عيسى وغير ذلك ما نصه: إنما قلت: إنكم سترون بعد قليل أمراً عظيماً: يُحرَّقُ البيتُ، ويكون، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: **«يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعين، لا أدري أربعين يوماً، أو أربعين شهراً، أو أربعين عاماً، فيبعث الله عيسى ابن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيُهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه»**.

قال: سمعتها من رسول الله ﷺ قال: «**فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: فما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان وهم في ذلك دارٌ رزقهم، حسن عيشهم...**».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٧٥/٧٦).

وقوله: «كَبِدِ جبل» أي: وسطه. وقوله: «في خفة الطير وأحلام السباع» معناه: يكون الناس وقته في سرعتهم إلى الشر والفساد كطيران الطير، وفي عدوانهم وظلم بعضهم بعضاً في صفة السباع العادية الضارية.

[٢٣١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلَيَاتُ نساء دوس على ذي الخلصة، وذو الخَلَصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية**»، وفي رواية: «**حول ذي الخلصة**».

رواه أحمد (٢/١٧١) والبخاري (١٦/١٨٨) ومسلم (١٨/٣٢) كلاهما في الفتن.

«الخلصة»: بفتحات.

[٢٣٢] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يذهب الليلُ والنهارُ حتى تُعبدَ اللاتُ والعُزَّى**»، فقلت: يا رسول الله إن كنتُ لأظنُّ حين أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إن ذلك تاماً، قال: «**إنه سيكون من ذلك ما شاء الله، ثم يبعث الله ريحاً طيبة فتوَفَّى كل من في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم**».

رواه مسلم في الفتن (١٨/٣٣).

[٢٣٣] وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَدْرُسُ الإسلام كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوبِ، حتى لا يُدرَى ما صيام، ولا**

صلاة، ولا نُسُك، ولا صدقةٌ، ولَيُسْرى على كتاب الله عزّ وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آيةٌ وتبقى طوائف من الناس، الشيخ الكبير، والعجوز، يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها» فقال له صلة: ما تغني عنهم لا إله إلا الله؟ وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة، فأعرض عنه حذيفة ثم ردّها عليه ثلاثاً، كل ذلك يعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة فقال: يا صلة تنجيهم من النار ثلاثاً.

رواه ابن ماجه (٤٠٤٩) والحاكم (٥٤٥/٤٧٣/٤) كلاهما في الفتن.

وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي وكذا صححه البوصيري في الزوائد.

قوله: «يدرس» بفتح الياء وضم الراء، يقال: درس الرسم دروساً إذا عفا وهلك. ودرس الثوب درساً إذا صار عتيقاً. وقوله: «وشي الثوب» أي: نقشه.

ومعناه: سيذهب الإسلام حتى لا يبقى له أثر.

إذا ظهرت الأشراط الكبرى الهائلة كالدجال، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، والدابة، ومات عيسى عليه السلام تتابعت الأحداث الخطيرة التي تنذر بحلول الساعة، ويبدو ذلك جلياً في هذه الأحاديث التي أوردناها، فإنها دالّة على أن الحالة ستتغير بسرعة وتنقلب الأوضاع ويتغرب الإيمان فيبعث الله عزّ وجل ريحاً طيبة باردة تأتي من جهة اليمن أو الشام فتقبض روح كل مؤمن ولو كان ضعيف الإيمان ويسرى على القرآن فيرفع، ولا يبقى له في الأرض أثر لأنه لم يبقَ له أهل يؤمنون به ويعملون بما فيه، فعند ذلك يستجيبون لمطالب الشيطان فيرجعون لعبادة الأصنام ودين آبائهم الجاهليين الأقدمين حتى لا يكادون يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، ولا يدرون صلاة ولا صدقة ولا صياماً ولا حجًا إلا ما ورثوه وسمعوه من آبائهم أنهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله.

ويصيرون همجاً يتسافدون، ويجامع رجالهم نساءهم جماعاً جماعياً في

الطرقات كالحمير لا يستحيون ولا يبالون بأحد، وعلى هؤلاء وأمثالهم تقوم الساعة كما في الحديثين التاليين:

[٢٢٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله»**، وفي رواية: **«لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله»**.

رواه أحمد (١٠٧/٣)، ومسلم في الإيمان (١٧٨/١٧٧/٢)، والترمذي في الفتن (٢٠٣٧) وابن حبان (١٩١١) والحاكم (١٩٤/٤).

[٢٢٥] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس»**.

رواه أحمد (٤٣٥/١)، ومسلم آخر الفتن (٨٨/١٨).

ففي الحديثين، أن الساعة لا تقوم حتى لا يبقى في الأرض أحد يعتقد الله أو يلهج بذكره، وإنما تقوم على أشرار الناس وهم الكفار كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾ غير أن أهل الكتاب سينقرضون أيضاً لأن فيهم من يقول الله...

* * *

خروج النار من قعر عدن أو حضرموت تحشر الناس إلى المحشر

[٢٢٦] عن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«ستخرُجُ نارٌ من حضرمَوْت، أو من بحرِ حضرمَوْت قبل يوم القيامة تحشُرُ الناس»**، قالوا: يا رسول الله فما تأمرنا؟ فقال: **«عليكم بالشام»** وفي رواية: **«ستخرج عليكم نارٌ في آخر الزمان»**.

رواه أحمد (١١٩/٩٩/٦٩/٥٣/٨/٢)، والترمذي في الفتن (٢٠٤٧)،

وأبو يعلى (٥/٨١)، وابن حبان بالإحسان (٢٩٤/١٦) بسند صحيح على شرط الصحيحين عند الترمذي، وحسّنه الترمذي وصححه.

[٢٣٧] وتقدم حديث حذيفة بن أَسِيد وفيه: **«ونارٌ تخرجُ من قعرِ عَدَنٍ تسوقُ ـ أو ـ تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا، وتقيل معهم حيث قالوا»**، وفي رواية: **«وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطردُ الناس إلى محشرهم»**.

رواه مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم، وتقدم رقم (٢٠١) هنا.

[٢٣٨] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن عبدالله بن سلام بلغه مقدمُ النبي ﷺ المدينة فأتاه يسأله عن أشياء... فقال له: ما أول أشراط الساعة؟ فقال له النبي ﷺ: **«أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب»**.

رواه البخاري في أحاديث الأنبياء وفي الهجرة النبوية (٢٧٤/٨) مطولاً، وقد تقدم في الهجرة النبوية من قسم السيرة رقم (١٤٦).

[٢٣٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يُحشرُ الناسُ على ثلاث طرائق: راغبين، وراهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، وتَحْشُرُ بقيتَهم النارُ تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتسير معهم حيث أمسوا»**.

رواه البخاري آخر الرقائق (١٦٧/١٦٦/١٤)، ومسلم في كتاب الجنة (١٩٤/١٧).

«طرائِق» أي: فِرَقاً. قوله: «راغبين وراهبين» أي: منهم طامعون في رحمة الله راجون الله عزّ وجل، ومنهم خائفون عقاب الله.

وهذه النار المذكورة في هذه الأحاديث التي ستخرج من اليمن وبالضبط من بحر حضرموت أو من قعر عدن أي: من عمقه، هي غير النار المتقدمة التي تخرج من الحجاز، فإن هذه تقدمت في القرن السابع كما أسلفنا سابقاً، أما هذه المذكورة هنا فهي نار أخرى ستكون آخر الزمان وآخر

الأشراط قبل القيامة، وأنها ستخرج من اليمن من قعر عدن، وقد اكتشف الباحثون أن في بحر عدن براكين نارية، فمن الجائز أن تتفجر تلك البراكين وتخرج منها تلك النار التي تحدّث عنها النبي ﷺ فتعم الجهة الشرقية ثم ترحل الناس وتطردهم إلى المحشر وهو بلاد الشام تقيل وتصبح وتمسي معهم والناس في ذلك سائرون معها يبيتون ويظلون معها ويكون معهم أبعرة يتعاقبونها، فمنها ما يتعاقبها اثنان، ومنها ثلاثة إلى العشرة، بمعنى أنهم يتناوبون ركوبها وقد تكون تلك الأبعرة إشارة إلى السيارات.

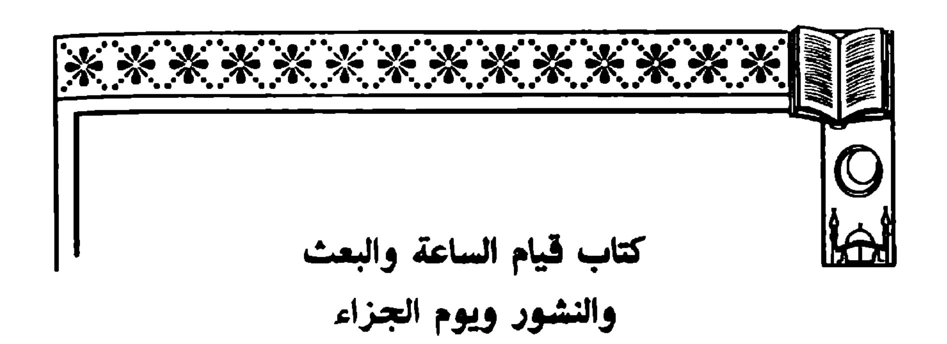
وما ذكرنا من أن هذا الحشر سيكون في الدنيا قبل القيامة هو الذي ذكره المحققون، فنقل الحافظ عن الخطابي أنه قال: هذا الحشر يكون قبل قيام الساعة تحشر الناس أحياءً إلى الشام، وأما الحشر من القبور إلى الموقف فهو على خلاف هذه الصورة من الركوب على الإبل والتعاقب عليها، وإنما هو على ما ورد في حديث ابن عباس في الباب: «**حفاة عراة مشاة...**» وصوّب القاضي عياض ما ذهب إليه الخطابي، وكذا رجحه الطيبي، كما ذكر ذلك الحافظ وأقرّه.

وخروج هذه النار هي آخر الأشراط وبعدها ينفخ في الصور وتقوم الساعة، أعاذنا الله من أهوالها ووقانا جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن.

هذا ما أمكن ذكره من الفتن والأشراط، وفي ذلك كفاية، والحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلِّ اللّهمّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه، كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون. في كتابي الفتن وأشراط الساعة، من الأحاديث الصحيحة الزائدة على الصحيحين نحو من ثمانين حديثاً.

ويليه كتاب قيام الساعة
والبعث والنشور ويوم الجزاء





كتاب قيام الساعة والبعث
والنشور ويوم الجزاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى وعلى آل نبينا وصحابته أهل الصدق والوفا.

وبعد، فهذا هو القسم الأخير لبداية الوصول بلب صحيح الأمهات والأصول، نختمه بأهوال الساعة والقيامة وما يتعلق بذلك.

* * *

قيام الساعة

قد قدّمنا في أول الأشراط أن الساعة إذا أُطلقت في الإسلام، فالمراد بها فناء هذا العالم واضمحلاله بسمائه وأرضه وما فيهما من عوالم وكائنات.

* * *

لا تقوم الساعة وعلى الأرض مؤمن

[٣٣٠] عن النواس بن سمعان رضي الله تعالى عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة... فذكر الحديث وفيه: «فبينما هم

كذلك إذ بعث الله **ريحاً طيبة فتأخذهم** - يعني المؤمنين - **تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر، فعليهم تقوم الساعة**».

رواه مسلم في الفتن في ذكر الدجال (٦٣/١٨) وتقدم مطولاً في الأشراط.

قوله: «**يتهارجون فيها تهارج الحمر**» قال النووي رحمه الله تعالى: أي: يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير، ولا يكترثون لذلك، أقول: وهذا موجود اليوم في أوروبا وأمريكا وغيرهما كما هو معروف.

[٢٣١] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حديث طويل في شأن الدجال وغيره: «**ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى على وجه الأرض أحدٌ في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته، حتى لو كان أحدهم دخل في كبد جبل لدخلت عليه حتى تقبضه**»، قال: سمعتها من رسول الله ﷺ، قال: «**فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع، ولا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيقولون: ما تأمرنا؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان، وهم في ذلك دارٌّ أرزاقهم، حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور**».

رواه مسلم في الفتن (٧٦/٧٥/١٨)، وانظر ما سبق في الأشراط (٢٢١/٢٢٠/٢١٨/٢١٦/٢١٥).

هذه الريح المذكورة التي تقبض أرواح المؤمنين ستكون بعد ذهاب عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وهدم الكعبة، ورفع القرآن، ورجوع الناس إلى عبادة الأصنام، ودين أجدادهم القدامى، ولا يبقى بعد ذلك مؤمن على وجه الأرض يقول الله...

وهذا من لطف الله بالمؤمنين حيث يقبض أرواحهم حتى لا يشاهدوا أهوال قيام الساعة وشدائدها فلا تقوم إلا على الأشرار الذين لا خير فيهم.

* * *

❁ النفخ في الصور

[٢٣٢] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«وكيف أنعَمُ وصاحبُ القَرْنِ قد التقمَ القَرْنَ واستمعَ الإذنَ متى يؤمَرُ بالنفخ فينفُخ»**، فكأن ذلك ثَقُل على أصحاب النبي ﷺ فقال لهم: **«قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا»**.

رواه أحمد (٧/٣)، والحاكم (٥٩٩)، والترمذي في أبواب القيامة (٢٢٥٢) وفي التفسير (٣٠٢٨) بتهذيبي، وحسّنه، وابن حبان بالموارد (٢٥٦٩)، وهو صحيح لشواهده، منها عن أبي هريرة رواه الحاكم (٥٥٩/٤) بسند صحيح على شرط مسلم، ومنها عن زيد بن أرقم رواه الطبراني.

قوله: «كيف أنعم» بفتح الهمزة والعين، أي: كيف يطيب لي عيش وصاحب القرن قد استعد للنفخ.

[٢٣٣] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: ما الصور؟ قال: **«قَرْنٌ يُنفَخُ فيه»**.

رواه أحمد (١٩٢/٢٦٢/٢)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٢)، والترمذي في القيامة (٢٢٥١) وفي التفسير (٣٢٩)، والدارمي (٢٨٠١)، وابن حبان (٢٥٧٠)، والحاكم (٤٣٦/٢) (ج٤/٥٦٠) وحسّنه وصححه الترمذي وكذا الحاكم، وهو كما قالا.

«الصور»: هو قَرْنٌ كما فسره النبي ﷺ ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وهو الناقور المذكور في آية: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ قال مجاهد: الصور كهيئة البوق ذكره البخاري، ولا ندري كيف صفته ولا مما هو؟ فحسبنا الإيمان به. والنفخ فيه يكون إيذاناً بقيام الساعة.

والنفخ في الصور يكون غير ما مرة، فهناك نفخة الفزع، ونفخة الصعق ـ أي: موت كل الخلائق إلا ما استثني ـ ونفخة القيام لرب العالمين. وقيل: هما نفختان: نفخة الفزع وهي نفخة الصعق والموت، ونفخة القيامة، وبهذا قال الجمهور مستدلين بالآتي:

[٢٣٤] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«يوم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى لِيتاً، ورفع لِيتاً، فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله»**، قال: **«فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله»**، أو قال: **«مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون...»**.

رواه مسلم في الفتن (٢٩٤٠) (ج١٨/٨٦).

«ليتاً» بكسر اللام، جانب العنق: و«أصغى» أي: أمال. وقوله: «يلوط حوض» أي: يُصلحه ويطينه. وقوله: «الطل» أي: كمني الرجال.

[٢٣٥] وعن أوس بن أوس الثقفي رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من أفضل أيامكم الجمعة فيه الصعقة وفيه النفخة...»**.

رواه أحمد (٨/٤)، وأبو داود (١٠٤٧)، وابن ماجه (١٠٨٥)، والنسائي (٣/٧٥) وغيرهم بسند صحيح.

[٢٣٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما بين النفختين أربعون»**، قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً، قال: أبيت، قالوا: أربعون سنة، قال: أبيتُ، **«ثم يُنزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عَجْبُ الذَّنَبِ ومنه يركب الخلق يوم القيامة»**.

رواه البخاري في تفسير سورتَيْ الزمر (١٠/١٧٢) والنبأ (٣١٧)، ومسلم في الفتن (١٨/٩١).

قوله: «أبيت» أي: امتنعت من بيان ذلك، ولم يأتِ من وجه يصح بيان عدد ما بين النفختين إلا هذا مجملاً. وقوله: «عجب الذنب» بسكون الجيم وفتح الذال والنون، هو عظيم لطيف في أصل الصلب.

فهذه الأحاديث هي مستند الجمهور في أن النفخ يكون مرتين: نفخة الصعق ـ أي: الموت ـ وعندها يكون الفزع، ثم نفخة القيامة والبعث.

وذهب جماعة منهم ابن العربي وابن تيمية ورجحه ابن كثير واختاره إلى أنها ثلاث نفخات: نفخة الفزع، ونفخة الصعق، ونفخة القيامة والنشور.

وعلى أيٍّ، فأول شيء يطرق أهل الدنيا بعد وقوع أشراط الساعة وآخرها نار براكين عدن التي تحشر الناس إلى الشام أرض المحشر: نفخة الفزع ينفخها إسرافيل عليه السلام الذي استعدّ لها منذ أزمنة فلا يبقى أحد من أهل الأرض والسماء إلا فزع وأمال الناس أعناقهم ورفعوها يستمعون إلى ذلك الأمر الهائل الذي أزعجهم وشغلهم عما كانوا فيه من رغد العيش وحياتهم الصاخبة. ثم تأتي نفخة الصعق وموت كل الخلائق ثم يعقب ذلك نفخة البعث والقيام لرب العالمين.

وقد ذكر الله عزّ وجل النفخ في الصور بجميع مشاهده في القرآن الكريم، فقد ذُكِرَ في الأنعام، والمؤمنين، والنمل، والزمر، وق، ويس، والمدثر، وص، والنازعات، وغيرها.

قال تعالى في النمل: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

وقال في الزمر: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وقال في يس: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

وقال في ص: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

وقال في المدثر: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾.

وقال في الأنعام: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ...﴾ الآية.

وقال في النازعات: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾.

وقال فيها أيضاً: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾.

قال ابن عباس: الراجفة: النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الثانية.

ذكره البخاري ووصله ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال في ق: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

وقال في المؤمنين: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

وقال في الكهف: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا...﴾ الآية.

وقال في طه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾﴾ الآية.

وقال في النبأ: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ الآية.

وقال في الحاقة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ الآية.

فهذه الآيات قد استوعبت جميع النفخات أو النفختين، فآيات النمل والزمر اشتملت على النفخات الثلاث، أو النفختين، وليس ذلك نصاً فيهما. أما آيات يّس ففيها نفخة الصعق ونفخة القيام لله رب العالمين. وهكذا آية النازعات الثانية وآية الحاقة جاءت في الفناء وقيام الساعة.

وباقي الآيات هي ظاهرة في النفخة الأخيرة، نفخة البعث والنشور.

هذا ما يتعلق بالنفخ في الصور في جميع مراحله. يبقى السؤال المطروح في حديث أبي هريرة: «ما بين النفختين أربعون» بعدما عرفنا أن الأربعين مجملة، فما هما النفختان؟ الظاهر أنهما نفخة الصعق ونفخة البعث، وبينهما تُبَدَّل الأرض والسماوات على ما قيل، ويأخذ الله عزّ وجل

السماوات والأرضين ويقول: **أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ أين ملوك الأرض؟ لمن الملك اليوم؟ فلا يجيبه أحد، فيقول: لله الواحد القهار.**

والظاهر أن هذا سيكون بعد البعث.

* * *

❋ فناء الدنيا وقيام الساعة

[٢٣٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ولتقومن الساعة وقد نشرَ الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومَنّ الساعةُ وقد انصرف الرجلُ بلبن لِقْحَتِهِ فلا يَطعمُه، ولتقومَنّ الساعةُ وهو يلوطُ حوضَه فلا يَسقي منه، ولتقومنّ الساعةُ وقد رفع أُكْلَته إلى فيه فلا يَطعَمُها»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٤٣/١٤٤) وأصله في الصحيحين وغيرهما.

«لقحته»: بكسر اللام وسكون القاف ثم حاء مهملة، هي ذات اللبن من النوق. «يلوط حوضه» أي: يُصلحه بجمع حجارة ومدر فيصيِّرها كالحوض.

وتقدم حديث ابن عمرو وفيه: **«فأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله فيصعق ويصعق الناس...»** أي: يموتون.

رواه مسلم.

[٢٣٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«تَتْرُكُون المدينةَ على خيرِ ما كانت لا يغشاها إلا العوافي** - يريد عوافي السباع والطير - **وآخرُ مَن يُحشرُ راعيان من مُزَيْنةَ يريدان المدينة ينعِقان بغنمهما فيجدانها وحشاً، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرّا على وجوههما»**.

رواه أحمد (٢/٢٣٤)، والبخاري (٥/٤٦١/٤٦٢)، ومسلم (٥/١٥٩/١٦٠) كلاهما في الحج في فضل المدينة.

«لا يغشاها»: أي لا يأتيها. وقوله: «خرّا على وجوههما» أي: سقطا ميتين.

الحديث الأول: يدل على أن الساعة تأتي الناس بغتة وهم غافلون في أسواقهم ومشاغلهم وأكلهم وشربهم، فتباغتهم من غير شعور، وهكذا جاء في القرآن الكريم كقوله تعالى في الأنعام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا...﴾ الآية، وقوله في الأعراف: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً...﴾ الآية، وقوله في الأنبياء: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾، وقال في يوسف: ﴿أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾، وقوله في الحج: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾، وقوله في الزخرف: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾، وقوله في سورة محمد: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

فهكذا تقوم الساعة والناس غافلون فتفاجئهم وتحيّرهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ليتوبوا ويعتذروا، وعند ذلك ينادون صارخين: يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ولا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون.

أما الحديث الثاني: فيدل على أن المدينة المنورة ستكون من آخر ما يصعق أهلها فيأتيها بعض الرعاة فيجدونها خالية لا يأتيها إلا الوحوش والطير ثم يصعقون فيكونون آخر من يحشر ويموت بالصعقة، وقد جاء في حديث: **«آخرُ قريةٍ من قرى الإسلام خراباً المدينة»**.

رواه الترمذي آخر الجامع وابن حبان بالموارد (١٠٤١)، وهو صحيح على شرط ابن خزيمة وابن حبان، وضعفه الجمهور لما قيل في جنادة.

وعلى أيٍّ: فالحديث مؤيد ضمنياً لحديث أبي هريرة، والله تعالى أعلم.

وما قررناه هو معنى ما قال النووي رحمه الله تعالى في شرح مسلم حيث قال: وأما معنى الحديث فالظاهر المختار أن هذا الترك للمدينة يكون في آخر الزمان عند قيام الساعة، وتوضحه قصة الراعيين من مزينة فإنهما يخرّان على وجوههما حين تدركهما الساعة، وهما آخر من يُحشر.

* * *

❋ مشاهد قيام الساعة

[٢٣٩] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن سرّه أن ينظرَ إلى يوم القيامة كأنه رأيُ عينٍ فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾»**.

رواه أحمد والترمذي والحاكم، وسنده صحيح، وتقدم في التفسير.

إن القيامة متصلة بالساعة، ولذلك جاءت هذه السور بصفات قيام الساعة ويوم القيامة معاً، وعلى ذلك تدل الآيات الآتية وغيرها.

والساعة ليست مرتبطة بالإنسان فقط بل تعم جميع الكائنات كالسماوات وما فيها من مجرّات، ومذنّبات، ونيازك، وشموس، وأقمار، وكواكب، كما تشمل الأرض والجبال والأنهار والبحار والوحوش والحيوان والهوام والإنس والجن وكل ما عليها وفيها. فالسماء تنفطر وتنشق وتصير قطعاً، والكواكب تنتثر ويذهب ضياؤها وتتصادم مع بعضها بعضاً، وهكذا كل ما كان في السماء من مجرّات ومذنّبات... الجميع يتلاشى وينقلب إلى أمر هائل لا يُتصور.

أما الأرض فتتزلزل تزلزلاً عنيفاً وتضطرب اضطراباً شديداً بحيث ينهدم كل ما كان عليها من بناء شامخ، وطود راسخ، وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون، وتتفتت جبالها الشوامخ وتنسف نسفاً وتصير كالهباء المنبث

وتطير في الهواء كالعهن المنفوش وتنقلب كثيباً مهيلاً فتحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب. أما البحار فتشتعل ناراً وتتصل بما في بطون الأرض من معادن وبراكين فيصير الجميع ناراً متأججة وجحيماً وسعيراً.

وفي هذا المشهد الهائل العنيف المخيف جاءت الآيات الكثيرات في القرآن الكريم تصف الساعة وصفاً دقيقاً، وإلى القارىء بعض ذلك:

قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾.

«كُوِّرت» أي: لُفَّت ومُحِي ضوءها. «انكدرت» أي: تناثرت وتساقطت. «سُيِّرت» أي: حُركت من أماكنها ونُسفت نسفاً وصارت في الهواء كالهباء. «وإذا العشار عُطِّلت» أي: النوق والإبل تُركت بلا راع ولا طالب. «وإذا الوحوش حُشرت» أي: جُمعت من آجامها وأوكارها ذاهلة من شدة الفزع والهول. «وإذا البحار سُجِّرت» أي: تأججت ناراً وصارت نيراناً تضطرم وتلتهب بما كان فيها من براكين وأخاديد ووديان.

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾...﴾ إلخ.

«انفطرت» أي: انشقت. «انتثرت» أي: تساقطت وزالت عن بروجها وأماكنها. «وإذا البحار فُجِّرت» أي: فُتح بعضها إلى بعض فاختلط عذبها بمالحها وأصبحت بحراً واحداً يشتعل ناراً.

وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾﴾.

«انشقت» أي: انصدعت لهول الساعة مؤذِنة بخراب الكون. «وأذنت لربها وحُقَّت» أي: استمعت لأمر ربها وانقادت لحكمه، وحقّ لها أن تسمع وتطيع. «وإذا الأرض مُدَّت» أي: زادت اتساعاً بزوال جبالها وآكامها وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال. «وألقت ما فيها وتخلّت»

أي: رمت ما في جوفها من الكنوز والمعادن والموتى وتخلّت عنهم. «وأذنت لربها» أي: استمعت لأمر ربها وأطاعت.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾.

«طُمِست»: أي مُحيت وذهب نورها وضياؤها. «فُرجت» أي: شُقّت وتصدّعت وانفطرت. «نُسِفت» أي: أُزيلت عن أماكنها وتطايرت وتناثرت حتى أصبحت هباءً تذروه الرياح.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩...﴾ إلخ.

أي: تتحرك وتضطرب اضطراباً شديداً من هول ذلك اليوم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾.

«إن زلزلة الساعة»: الزلزلة شدة الحركة والإزعاج الهائل، والجمهور على أن هذه الزلزلة عند قيام الساعة. وقوله: «تذهل كل مرضعة» أي: تغفل عن رضيعها وتشتغل عنه بما نزل من الهول.

فلشدة الهول العظيم والإزعاج المتناهي طاشت عقول الناس فتترك المرضعة رضيعها وتغفل عنه، وتلقي الحامل جنينها بغير تمام لما دهاها من الرعب والخوف، وترى الناس يترنحون ترنُّح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع وليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون.

قال بعض فضلاء المفسرين عند سورة الحج: ابتدأت السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف ترتجف له القلوب وتطير لهوله العقول، ذلكم هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدَي الساعة ويزيد في الهول على خيال الإنسان لأنه لا يدكُّ الدورَ والقصورَ فحسب، بل يصل هوله إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن، والحوامل المُسقطات حملهن، والناس الذين

يترنحون كأنهم سكارى من الخمر وما بهم شيء من السكر والشراب، ولكنه الموقف المرهوب الذي تتزلزل له القلوب.

وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ الآية.

وهذه السورة أيضاً تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون عند الساعة حيث يندك كل صرح شامخ، وينهار كل جبل راسخ، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة التي لا عهد للناس بها ما يندهش لها كل إنسان فتضطرب الأرض اضطراباً شديداً، وتهتز بمن عليها اهتزازاً يقطع القلوب، ويفزع الألباب، وتخرج ما فيها من الأموات، وتلقي ما في بطنها من الكنوز الثمينة، فلا أحد يعرج عليها ولا يلتفت إليها بل يقول الإنسان: ما شأن الأرض تزلزلت هذه الزلزلة العظيمة ولفظت ما في بطنها؟ يقول ذلك دهشة وتعجباً من ذلك المشهد الفظيع، فيومئذ ـ أي: في ذلك اليوم العصيب ـ تتحدث الأرض وتخبر بما عمل عليها وتشهد على كل إنسان بما صنع من خير أو شر.

وقد جاء في السنّة ما يوضح هذا المشهد الهائل:

[٢٤٠] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قَتَلْتُ، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعتُ رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قُطعتْ يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»**.

رواه مسلم في الزكاة (٧/٩٨).

«أفلاذ» جمع فلذ: هي القطعة من اللحم. و«الأسطوان» بضم الهمزة، جمع أسطوانة وهي السارية.

فالحديث الشريف جاء تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ فإذا قاءت الأرض ما فيها ولفظت كنوزها وخاصة الذهب

والفضة، وتذكّر المجرمون ما فعلوه بسببهما واعترفوا بما حملهم على ما صنعوا وهو الذهب والفضة، تركوهما وانصرفوا لأنه لم تَبْقَ لهم حاجة بهما.

[٢٤١] وعن أبي هريرة أيضاً قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ فقال: «أتدرون ما أخبارها؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإن أخبارها أن تشهد على كل عبدٍ أو أمَةٍ بما عمل على ظهرها تقول: عمل يوم كذا وكذا كذا وكذا، فهذه أخبارها».**

رواه أحمد (٢/٣٧٤)، والترمذي في التفسير (٣١٣٥)، وفي القيامة (٢٢٤٩)، وابن حبان (٢٥٨٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢٠)، والحاكم (٢/٢٥١/٥٣٢) وحسّنه الترمذي وصححه، وكذا صححه الحاكم، وله شاهد عن ربيعة الجرشي ذكره في مجمع الزوائد (١/٢٢٤١) برواية الطبراني.

أما الجبال الشوامخ والراسيات الشم فجاء في شأنها واضمحلالها ما تقشعر له الجلود وتتقطع لسماعه الأكباد.

قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۝١٠٧﴾.

«ينسفها» أي: يفتتها الله تعالى ويزيلها عن أماكنها ويصيِّرها كالرمل فيطيِّرها في الهواء. «قاعاً صفصفاً» أي: أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء، وليس فيها انخفاض ولا أمْتٌ، أي: ارتفاع.

وقال: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾.

قوله «تحسبها جامدة» أي: تظنها ثابتة في أماكنها واقفة وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب.

قال العلماء: إن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد ظنّ الناظر إليها أنها واقفة.

وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝٦﴾ الآية.

«رُجَّت» أي: زلزلت الأرض زلزالاً عنيفاً واضطربت اضطراباً شديداً حتى ينهدم كل ما عليها من بناء وينكسر كل ما فيها من جبال وحصون. «وبُسَّت الجبال» أي: فُتِّتَتْ تفتيتاً فصارت هباءً أي غباراً متفرقاً متطايراً في الهواء.

وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾.

أي: ونُسفت الجبال حتى أصبح يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء، كما يُخَيَّل للعطشان في السراب يظنه ماءً وليس بماء.

وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

«العهن»: الصوف، أي: تصير الجبال كالصوف المنتشر المتطاير المندوف قد تفرقت أجزاؤه وتطايرت في الجو.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾.

أي: نسيِّرها كما نسيِّر السحاب فنجعلها هباءً منثوراً. «وترى الأرض بارزة» أي: ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا بنيان ولا شجر، قد هُدم بنيانها وقُلعت جبالها.

وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾.

أي: تُنسف وتُقلع فتكون هباءً متطايراً.

فهذه بعض مشاهد قيام الساعة وهو قل من كثر.

* * *

❋ خلاصة ما جاء في قيام الساعة

إن قيام الساعة شغلَ أُمماً وأجيالاً عبر العصور فخافوها وأكثروا السؤال عنها، وفي القرآن الكريم عدة أسئلة وأجوبة عنها كما قدّمنا في الأشراط، وقد أخفى الله عزّ وجل وقت قيامها بالضبط عن الناس رحمة ولطفاً بهم،

ولم يطلع عليها أحداً من خلقه إلا من شاء. غير أنه سبحانه ذكر لنا على لسان نبيه ﷺ آيات لها وأشراطاً لنكون مستعدين لها، وكانت تلك الأشراط علامة على قيامها كما قدّمنا ذلك مفصّلاً مرتّباً، ثم إذا جاء أوانها داهمت الناس فجأة وهم في أسواقهم، ومزارعهم، ومجامعهم، وعلى موائد طعامهم غافلون، ولا تقوم إلا على شرار خلق الله تعالى، فينقلب هذا الكون انقلاباً هائلاً بسمائه وما فيها من شمس وقمر ونجوم ومجرّات، فتتفطر وتشقق، وتتناثر كواكبها وتزول عن بروجها ومنازلها ويذهب ضياؤها، وتبدّل الأرض غير الأرض والسماوات، ويهتز الكون هزًّا عنيفاً، وتنسف الجبال نسفاً، وتصير هباءً منبثاً، تتطاير في الهواء، وتتفجر البحار وتتصل بالأنهار وينابيع الأرض، ويضطرم الجميع ناراً متأججة بما فيها من براكين وأخاديد ومعادن نارية، ويحدث في هذا الكون من الأهوال والأحداث الجسام ما لم يتقدم للناس به عهد، وتنقلب زينة الدنيا وبهجتها ونضارتها وزهرتها وما كان عليها من نضرة ونعيم وقصور ونواطح السماء إلى فناء وتفتُّت، وتصير السماء وما كان فيها من زينة وجمال وضياء بكواكبها ومجرّاتها... إلى انشقاق وانفطار وتناثر... فالساعة شيء هائل، ولذا قال تعالى فيها: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، وهكذا جاء في حديث أبي هريرة عنه ﷺ: «**بادروا بالأعمال سبعاً...**»، وفيه: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

رواه الترمذي والحاكم في الفتن، وصححه الحاكم والذهبي.

ويصحب هذا الهول الفظيع نفخة الصعق فيموت كل من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله كالملائكة والشهداء، ونحوهم.

* * *

نفخة الصعق والقيامة والبعث

[٢٤٢] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**ثم يُنفَخُ في الصور فلا يسمعه أحدٌ إلا أصغى ليتاً ورفع ليتاً، فأول من يسمعُه رجلٌ يلوط حوضَ إبله، قال: فيصعق ويصعق**

الناسُ، ثم يُرسل الله، أو قال: يُنزل الله **مطراً كأنه الطَّلُّ، أو الظلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ الناسِ، ثم يُنفَخُ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون».**

رواه مسلم وغيره.

[٢٤٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يصعق الناس حين يصعقون فأكون أول من قام، فإذا موسى آخذ بالعرش، فما أدري أكان فيمن صعق أم لا».**

وفي رواية: **«فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان موسى فيمن صعق فأفاق قبلي، أو كان ممن استثنى الله عزّ وجل».**

وفي أخرى: **«فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله**، قال: **ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بُعث، أو في أول من بُعث، فإذا موسى عليه السلام آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أو بُعث قبلي».**

رواه البخاري في الرقائق (١٥٨/١٥٧/١٤) وفي الأنبياء، ومسلم في الفضائل (١٣٠/١٥).

[٢٤٤] وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل ابن آدم يأكله التراب، إلا عجب الذنب منه خلق ومنه يركب».**

رواه مسلم وتقدم مطولاً وفيه: **«ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس شيء من الإنسان إلا يبلى، إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»** وهو في الصحيحين كما تقدم.

دلّت هذه الأحاديث على أمور عظام تتعلق بالساعة والقيامة.

فمنها: إثبات صعق الناس وموتهم بالنفخة الأولى أو الثانية على ما سلف، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ، فالكل سيموت إلا ما استثني وهم الشهداء والأنبياء والملائكة...

ومنها: أن الله تعالى بعد الصعق سيرسل مطراً من السماء على الأرض مثل مني الرجال فينبت الناس كما ينبت البقل فيقومون لرب العالمين. قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

ومنها: أن كل شيء يفنى من الإنسان إلا قطعة منه لطيفة مثل العدسة يقال لها: عجب الذنب، منه يركب الإنسان بإذن الله تعالى وقدرته.

ومنها: أن هناك فترة بين نفخة الصعق ونفخة القيامة، ولا ندري مدى زمانها هل أربعون ساعة أم يوماً أم سنة، وفي هذه المدة سيأخذ الله الأرض والسماوات فتكون الأرض قبضته والسماوات مطويات بيمينه كما يأتي إن شاء الله تعالى عقبه.

ومنها: إثبات البعث والقيام من القبور، وأن أول من يبعث نبينا ﷺ لحديث أبي هريرة المذكور ولحديث مسلم: «**أنا أول مَن تنشق عنه الأرض**».

[٢٤٥] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**يطوي الله عزّ وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون؟**».

رواه البخاري في التوحيد (١٧/١٦٧)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٣١) وغيرهما.

[٢٤٦] ونحوه عن ابن مسعود وفيه: ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

رواه البخاري ومسلم.

[٢٤٧] وعن أبي هريرة رواه مسلم وفيه: «**ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض**».

[٢٤٨] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها سألت رسول الله ﷺ

عن قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ قالت: قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**على جسر جهنم**».

رواه الترمذي والنسائي في الكبرى والحاكم وصححه الترمذي والحاكم وتقدم في التفسير.

[**٢٤٩**] وعنها قالت: أنا أولُ الناس، سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «**على الصراط**»، وفي رواية: «**على متن جهنم**».

رواه أحمد (٦/١٣٤)، ومسلم في البعث والنشور (١٧/١٣٤)، والترمذي في التفسير، وابن ماجه في الزهد (٤٢٧٩).

[**٢٥٠**] وعن ثوبان رضي الله تعالى عنه مولى رسول الله ﷺ قال: كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حَبْرٌ من أحبار اليهود فقال: السلام عليك يا محمد، فذكر الحديث وفيه: جئتُ أسألك، فقال له رسول الله ﷺ: «**سل**» فقال: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «**في الظُّلْمَةِ دون الجسر**».

رواه مسلم في الطهارة مطولاً (٣/٢٢٦/٢٢٨).

قال النووي: المراد به ـ يعني في الظلمة دون الجسر ـ الصراطُ.

الأحاديث الأولى، تدل على أن الله عزّ وجل سيطوي السماوات والأرضين بيديه وينادي قائلاً: «**أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون أين ملوك الأرض؟ فلا يجيبه أحد**»، وفي ذلك بيان لعظمته وتفرُّده بالملك الكامل الذاتي، وأن كل ملك جبار ومتكبر كانت ملكيته مجازية ومستعارة وإن زعم وظهر له أنه يملك ويصول ويجول، ففي ذلك اليوم العظيم تضمحل كل الادعاءات ويبقى المُلك لله الواحد القهار سبحانه وتعالى عما يشركون.

أما الأحاديث الأخيرة، فتدل على أن الله عزّ وجل سيبدل الأرض غير

الأرض والسماوات، كما نطق بذلك القرآن الكريم ولا أصدق منه قيلاً، كما تدل على أن الناس سيكونون وقتئذ على الصراط... وهذا وإن كان ظاهره مشكلاً فالواجب الإيمان بذلك وتفويض أمره إلى الله تعالى لأنه عالِم الغيب، والقيامة لها مشاهد لا يمكن لنا ضبط ترتيب أحداثها.

[٢٥١] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُحشَرُ الناسُ يوم القيامة على أرضٍ بيضاءَ عفراءَ كقُرْصَةِ النَّقِيِّ ليس فيها علم لأحد»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٦٣)، ومسلم في البعث والنشور (١٧/١٣٤).

قوله: «عفراء» بيضاء تميل إلى حمرة. قوله: «النقي» بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء، هو الدقيق الحُوَّاري الجيد. وقوله: «ليس فيها علم لأحد» أي: ليس به علامة سكنى أو بناء أو زراعة أو غرس.

والحديث يدل على أن الله عزّ وجل حينما يبدل الأرض يجعلها أرضاً نقية جيدة بيضاء ليس فيها أثر، قد فني كل ما كان عليها وانقلبت أرضاً أخرى منها يقوم الناس وعليها يُجْمَعون ويقفون ويُحاسَبون.

[٢٥٢] وعن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ قال: تبدل الأرض أرضاً كأنها فضة لم يُسفك فيها دمٌ حرامٌ، ولم يعمل عليها خطيئةٌ.

عزاه الحافظ في «الفتح» لعبدالرزاق وابن جرير وعبد بن حميد وقال: رجاله رجال الصحيح.

وذكر مثله عن أبي أيوب وأنس وغيرهما مرفوعاً وموقوفاً.

وعلى أيٍّ، فعلى هذه الأرض المذكورة سيُحشر الناس عند قيامهم من قبورهم.

* * *

❁ البعث والحشر في القرآن الكريم

لقد أفاض الله تعالى الكلام في القرآن على القيامة والبعث والحشر، وذكر في ذلك من الآيات في العديد من السوَر ما فيه العبرة لمن يعتبر والذكرى لمن يتذكر.

أما القيامة وأهوالها ومشاهدها فذكر لها من الأسماء المخيفة الهائلة ما ينيف على الثمانين اسماً، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾، سميت بذلك لأن الأمور تحق فيها، وكقوله تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾، وسميت قارعة لأنها تقرع القلوب بأهوالها، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ . . .﴾ إلخ، وسميت بذلك لأنها تعم الناس وتغشاهم بأفزاعها، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥﴾ إلخ، وسميت بذلك لأنها تصخ الآذان وتصمها بأهوالها، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾ إلخ، والطامة هي الداهية، وقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ إلخ، وجاء من أسمائها: يوم لا مرد له من الله، ويوم تشخص فيه الأبصار، ويوم لا ينفع الظالمين معذرتهم، ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون، ويوم لا ينفع مال ولا بنون، ويوم الفزع الأكبر، ويوم التناد، ويوم الوعيد، ويوم الحسرة، ويوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم الفصل، ويوم المآب، ويوم تبلى فيه السرائر، ويوم الخروج، ويوم عسير على الكافرين، ويوم عبوس قمطرير، ويوم يأتي لا تكلم نفس إلا بإذنه، ويوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها، إلى غير ذلك من الأسماء التي جاءت في ذلك اليوم العظيم، بداية من نفخة القيامة إلى دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، وأما بخصوص البعث والحشر والكلام على مطلق الآخرة، فالقرآن مليء بالكلام على ذلك، لأن كل ما ذكر من مقتضيات الإيمان وأحد أركان العقيدة وكلياتها الست التي اتفقت الرسل

صلوات الله وسلامه عليهم على الدعوة إليها وإلى الإيمان بها، وأنه لا حظ للإنسان في الإيمان إذا كفر بذلك وإن صلّى وصام وحج...

ورغم أن ما ذكر مما اتفقت عليه كل الشرائع ونزلت به الكتب الإلهية فإن أكثر الأمم كفرت بذلك وجادلت الرسل فيه وأنكرت الإيمان به بل وسفهت عقول القائلين به والداعين إليه.

وقد ذكر القرآن الكريم آيات عدة عن المشركين في إنكارهم البعث والحياة بعد الموت واستبعادهم ذلك ومجادلتهم النبي ﷺ في شأنه فلننظر الآيات التالية:

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل: ٣٨].

فلم يكتفوا بمجرد الكفران بالبعث حتى أكدوا ذلك بقسمهم عليه.

قال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾ إلخ [التغابن: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨].

«الرميم»: ما بلي من العظام.

فاستغرب هذا الشقي إحياء العظام بعد أن بلِيَت وأصبحت فراتاً، وهو يعلم أنه خلق من نطفة بعد أن لم يكن فكيف يستغرب خلقه مرة أخرى، فلو فكر لعلم علم يقين أن الذي خلقه من العدم ولم يكن شيئاً هو قادر على إنشائه مرة أخرى بالأولى.

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾﴾ [مريم: ٦٦].

فاستنكر هذا اللعين الخروج من قبره حياً ولم يقبله عقله السخيف فردّ الله تعالى عليه استبعاده واستنكاره فقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

«الزُّفات»: الفُتات.

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمنون: ٨١، ٨٢].

وقال في الصافات: ﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٥، ١٦].

وقال في الواقعة: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الواقعة: ٤٦، ٤٧].

فهؤلاء اتفقت كلمتهم على استنكار الحياة بعد الموت وكفرانهم بذلك.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام: ٢٩].

فهؤلاء من الدهريين الذين قال الله تعالى عنهم في آية أخرى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فأخبروا عن أنفسهم بأنهم ليست لهم حياة أخرى غير هذه الحياة وأنه ما يهلكهم إلا مرور الحياة وطول الزمان وليس بعد الموت حياة أخرى.

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

والآيات في الموضوع لا تنحصر.

أما الآيات الدالة على البعث والنشور والخروج من الأجداث والقبور فإليكموها:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

ومعناه أنه إذا نفخ في الصور النفخة الأخيرة بعد نفخة الصعق إذا الناس يقومون من مراقدهم ينظرون ماذا يؤمَرون.

وقال تعالى: ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ

﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: ١٨ ـ ٢٢].

«داخرون» أي: صاغرون. «زجرة» أي: صيحة واحدة ينفخ فيها إسرافيل لقيام الناس، وقوله «احشروا...» إلخ. أي: اجمعوا الظالمين وأشباههم وأمثالهم، وفي هذا المشهد يقول منكرو البعث: يا ويلنا ويا هلاكنا هذا يوم الجزاء والدِّين الذي كنا نكذب به.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦ ـ ٨].

يقول عز وجل: **«اذكر يا رسولي يوم ينادي إسرافيل الخلق إلى القيامة وأهوالها، وهو شيء منكر فظيع لم يُرَ مثله، فيستنكره الناس ويستعظمونه، فيقومون من قبورهم وأجداثهم خاشعة أبصارهم أذلاء خاضعين كأنهم في كثرتهم، ويموج بعضهم في بعض حيارى فزعين جراد منتشر».**

«مهطعين» أي: مسرعين مادّي رؤوسهم مقبلين إلى صوت إسرافيل الداعي، ففي ذلك المشهد يقول الكافرون: هذا يوم شديد صعب.

وقال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول عزّ وجل: **«استمع يا نبيي النداء والصوت حين ينادي إسرافيل عليه السلام بالحشر والنشور من موضع قريب يصل صوته إلى كل الخلائق».**

قال المفسرون: يقول: أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة، إن الله يأمركم أن تجتمعوا لفصل القضاء، يوم تسمعون تلك الصيحة، صيحة البعث والحشر، التي تأتي بالحق ذلك هو يوم خروج الناس من القبور، إننا نحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا وإلينا المصير والمرجع للجزاء في الآخرة، وذلك يوم تنشق عنهم الأرض

فيخرجون من قبورهم مسرعين إلى موقف الحساب ذلك بعث وجمع سهل هين علينا لا يحتاج إلى عناء.

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي: سهل ليس فيه مشقة ولا صعوبة ولا شيء مما يتصف به الخلق.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ الآية.

هذا اللعين الذي ضرب لله مثلاً هو العاص بن وائل لعنه الله، كما في الحديث التالي:

[٢٥٣] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتّه بيده ثم قال لرسول الله ﷺ: أيحيي الله تعالى هذا بعدما أرى؟ فقال رسول الله ﷺ: **«نعم يميتك الله ثم يحييك، ثم يدخلك جهنم»**، قال: ونزلت الآيات من آخر يّس.

رواه ابن جرير (٣١/٣٠/٢٣)، وابن أبي حاتم (٣٢٠٢/١٠)، والحاكم (٤٢٩/٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي غير أن ابن جرير لم يذكر ابن عباس.

[٢٥٤] وعن بسر بن جحاش أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال: **«قال الله تعالى: ابن آدم أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سوّيتُك وعدّلتُك مشيتَ بين بُرْدَيكَ وللأرض منك وئيدٌ فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغتْ التراقي قلتَ: أتصدّقُ وأنّى أوانُ الصدقة»**.

رواه أحمد (٢١٠/٤)، وابن ماجه في الوصايا (٢٧٠٧) بسند حسن على مذهب ابن رجب وابن كثير والعراقي.

فذلك الكافر استبعد إعادة الله تعالى للأجساد والعظام الرميمة ونسي خلقه، وأن الله خلقه من العدم من سلالة من طين ثم من ماء مهين ضعيف أفلا استدل على البعث والإعادة بذلك حتى يعلم ما هو أعظم مما أنكره وجحده، ولهذا قال عزّ وجل: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ فهو تعالى يعلم العظام في سائر الأقطار وأرجاء الأرض أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت كما في الحديث التالي:

[٢٥٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قال رجلٌ لم يعمل حسنةً قطُّ لأهله إذا متُّ فحَرِّقوه ثم أُذْروا نصفه في البَر ونصفه في البحر... فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم فأمر الله البر فجمع ما فيه وأمر البحر فجمع ما فيه»**، وفي رواية ثم قال له: **«كن فإذا هو رجل قائم فقال له: ما حملك على ما صنعتَ؟ قال: مخافتك، فغفر الله له»**.

رواه البخاري في الأنبياء وفي الرقاق، ومسلم في التوبة، وقد ذكرت طرقه وألفاظه في العبر.

فالحديث دال على أن الله عزّ وجل سيجمع المخلوقات حيثما كانوا ولو تفرقت أجزاؤهم شذر مذر، سواء كانوا في البر أم في البحر أم في الجو أم في عالم آخر، فهو قادر على جمعهم وإعادتهم كما كانوا.

[٢٥٦] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«قال الله تعالى: كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إيايَ فزعم أني لا أقدر أن أُعيده كما كان»**، وفي رواية قوله: **«لن يعيدني كما بدأني، وليس أولُ خلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الله الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفؤاً أحد»**.

رواه البخاري في التفسير (٢٣٤/٩)، والنسائي في الجنائز من الصغرى، وفي النعوت من الكبرى (٣٩٥/٤).

قوله: «شتمني» سمى نسبة الولد إليه تعالى شتماً لأن فيه تنقيصاً لله

عزّ وجل، فإن الولد يستلزم والدة، وهي تستلزم ناكحاً، وكل ذلك محال في جنب الله، فمن نسب ذلك إليه فقد شتمه.

وفي الحديث رد على كل كافر بالبعث والنشر وأن من أنكر ذلك فقد كذّب الله الذي يخلق الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه.

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

«الأجداث»: القبور. «ينسلون» أي: يسرعون. «مرقدنا» أي: قبورنا، فأخبر تعالى بأنه إذا نفخ إسرافيل عليه السلام نفخة البعث خرج الناس من قبورهم سراعاً ونادوا يا هلاكنا مَن الذي أخرجنا من قبورنا التي كنا فيها؟ فتقول لهم الملائكة: هذا الذي وعدكم الله به من البعث بعد الموت وصدق رسله فيما أخبروا به عن الله. وما هي إلا صيحة واحدة يصيح بها إسرافيل عليه السلام فإذا جميع المخلوقات عند الله تعالى في موقف الحساب.

وقال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: اترك هؤلاء الكفار الخاسرين يخوضوا في أباطلهم ويلعبوا كالصبيان في دنياهم حتى يأتيهم ذلك اليوم الرهيب العصيب يوم يخرجون من القبور إلى أرض المحشر مسرعين كأنهم يسعون ويستبقون إلى أصنامهم التي نصبوها ليعبدوها في الدنيا. «خاشعة» أي: منكسرة أبصارهم إلى الأرض خجلاً من الله تغشاهم ذلة وهوان ذلك هو اليوم الذي وعدوا به في الدنيا فأنكروه وكانوا يهزؤون.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

قل يا نبيي لهؤلاء المنكرين البعث إن الخلائق جميعاً السابقين منهم واللاحقين سيجمعون ويحشرون ليوم الحساب الذي حدده الله تعالى ووقّته

بحيث لا يتقدم ولا يتأخر كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

جاء هذا رداً على الكفار في قولهم: إنهم ما لبثوا غير ساعة، فردّ عليهم أهل العلم والإيمان بقولهم: لقد لبثتم في كتاب الله... إلخ.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

فهو تعالى الخالق الرازق المميت المحيي بعد الموت، ولا يستطيع أحد فعل ذلك أبداً ولو أوتي من القوة والعلم والفهم ما أوتي فكيف بالجمادات والأصنام التي يعبدها الحمقى والجهلة الضالون.

وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

معناه: ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة لقدرة الله تعالى إلا كنسبة خلق نفس واحدة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾.

جاءت الآية رداً على الكفار حيث قال تعالى عنهم: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾، فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنهم سيُبعثون، ويؤكد لهم ذلك بالقَسَم.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

معناه أن السماوات والأرضين قائمان بأمره تعالى وتسخيره، فإذا

جاءت القيامة بُدّلت الأرض غيرَ الأرض والسماوات، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمرها ودعائه إياهم.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

بعد أن ذكر تعالى أطوار خلق الإنسان عقبها بأن نهايته الموت ثم البعث.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

أخبر تعالى أنه بعد أن خلقنا من الأرض كالنبات، سيعيدنا فيها ثم يخرجنا ويبعثنا للحشر والجزاء.

ومثلها قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ...﴾ الآية.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى آيته في الرياح والسحاب ونزول المطر وحياة الأرض به بعد موتها، أمر عزّ وجل بالنظر في آثار هذه الرحمة وهي حياة الأرض وإنباتها من كل زوج بهيج ولفت الأنظار إلى الاستدلال بذلك على حياة الموتى وبعثهم.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

«في ريب» أي: في شك. «هامدة» أي: ميتة.

في هذه الآيات دليلان ظاهران على وقوع البعث لمن يعتبر.

الدليل الأول: خلق الإنسان على عدة أطوار: نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، وقد يتكون الجنين كاملاً أو غير كامل، فتارة يسقط وقد تمّ تخطيطه وتصويره، وتارة يسقط ناقصاً ومرة يقره في الرحم حتى يتم أجله فيخرج طفلاً ضعيفاً في جميع أعضائه ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً حتى يتكامل ويصل إلى عنفوان الشباب، ثم من الناس من يأتيه أجله في شبابه وقواه، ومنهم من يعيش حتى يصير إلى العمر الأرذل وهو الخرف وضعف الجسم حتى لا يكاد يعلم شيئاً.

فمن خلق الإنسان على هذه الأطوار وجعله في هذه الحياة موقع تجلياته وتصرفاته وأفراد جنسه بلايينُ البلايين... أفلا يقدر على إنشائه مرة ثانية بعد تفرُّق أجزائه؟ بلى وربي.

الدليل الثاني: موت الأرض وانقلابها قاحلة ليس فيها نبات، ثم عندما ينزل عليها المطر تهتز وتربو وتنبت الأعشاب والزروع من كل زوج جميل، ففاعل ذلك هو الله الحق الذي يحيي الموتى ويبعث مَن في القبور.

وعن أبي رزين العقيلي أنه قال: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى وما آية ذلك في خلقه؟ قال: **«أما مررت بوادي أهلك محلاً؟»**، قال: بلى، قال: **«ثم مررت به يهتز خَضِراً؟»**، قال: بلى، قال: **«فكذلك يحيي الله الموتى وذلك آيته في خلقه»**.

رواه أحمد (١١/٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٣١)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٠) بسند حسن.

وفي رواية لأحمد (١١/٤) قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ فقال: **«أمررتَ بأرض من أرضك مجدبة ثم مررت بها مخصبة؟»**، قال: نعم، قال: **«كذلك النشور»**.

قوله: «محلاً» أي: قاحلاً يابساً لا نبات به، وهو معنى مجدبة.

في الحديث بيان ومثل للحياة بعد الموت والخروج من القبور.

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

«طلع نضيد» أي: طلع منضود منظّم بعضه فوق بعض، والطلع هو الموز، والنخل الباسقات هي الطوال.

فكما أحيى البلدة الميتة بالماء المبارك وأخرج منها الجنان والزروع والثمار والفواكه كذلك يكون خروج الناس من قبورهم بعد موتهم لأن الكل تحت قهر الله وسيطرته وملكه، فهذا مثال للبعث بعد الموت كسابقه.

وقال تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وهذا مثال آخر للبعث بعد الفناء، فكما أن الله عزّ وجل يُخرج النبات من الحَب، والحَب من النبات، والبيض من الدجاج، والدجاج من البيض، والإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان، والمؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، كذلك يحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم.

ومثل هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

«فأنشرنا» أي: أحيينا.

أما آيات الحشر والجمع فنقتصر منها على الآتي:

قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾﴾ الآية.

«بارزة» أي: ظاهرة، ليس فيها جبل ولا بناء ولا مكان يواري أحداً، بل الخلق كلهم محشورون مجموعون في موقف واحد ضاحون لله عزّ وجل لا تخفى عليه خافية منهم.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾﴾ إلخ.

يعني أنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث يجمع الله المجرمين والكافرين زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال يتسارون فيما بينهم يقول بعضهم لبعض: ما لبثتم في الدنيا إلا أياماً قلائل.

وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾.

أقسم الباري تعالى بنفسه المقدسة على أنه لا بد أن يحشر الكفار وشياطينهم الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ثم يحضرهم حول جهنم جثياً، أي: باركين على رُكَبهم لشدة الهول.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ الآية.

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: واذكر فيما نقصُّه عليك وتذكرهم به يوم نجمعهم جميعاً الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويعوذون بهم ويطيعونهم ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

يعني أنه تعالى يجمعهم جميعاً بإنسهم وجنِّهم، وكافرهم ومؤمنهم، ثم يخاطب المشركين: الزموا أنتم ومعبوداتكم مكاناً معيناً امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، ثم يزيل ويفرق بين الكفار ومعبوداتهم، وانقطع ما كان بينهم من التواصل وتبرأت الأصنام من عابديها.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: واذكر يوم نجمع هؤلاء المشركين لموقف الحساب كأنهم لم يمكثوا في قبورهم إلا قدر ساعة من نهار، قالوا ذلك لما شاهدوه من أهوال يوم القيامة وطوله، ولما لم ينتفعوا بأعمارهم في الدنيا استقلوها.

وقوله: «يتعارفون بينهم» يعني بعد خروجهم وحشرهم يعرف بعضهم بعضاً ثم تنقطع بينهم العلاقات والأسباب.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ . . .﴾ إلخ.

يقول عزّ وجل عندما يجمع المشركين وما عبدوه من دون الله للمعبودين: أأنتم دعوتم هؤلاء لعبادتكم وأضللتموهم أم هم ضلوا من عند أنفسهم، فيجيبونه قائلين: ما كان ينبغي لنا أن نجعل من غيرك ولياً فنحن ما دعوناهم ولا أمرناهم بعبادتنا. والظاهر أن هؤلاء المعبودين الذين تبرؤوا من المشركين هم الملائكة أو عيسى وعزير. . . ممن عُبدوا من دون الله، ومثل هذه الآية آية سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ إلخ، وهذه الآية بينت أن المعبودين الذين تبرؤوا من المشركين هم الملائكة، وهكذا جاء في آيات أُخر تبرؤ عيسى من عابديه.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فإليه الرجوع والحشر للحساب.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ الآية.

«المعيشة الضنكة»: هي التي لا طمأنينة معها ولا انشراح صدر بل يكون صاحبها صدره حرجاً ضيقاً لضلاله وإن تنعّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء وسكن حيث شاء فإن قلبه لا ينشرح ولا يزال في قلق وحيرة، وهذا مشاهد حتى فيمن يدعي الإيمان وهو مصر على الفواحش غارق في الدنيا.

والآية الكريمة، تدل على أن من أعرض عن القرآن ونسي الإيمان

والعمل به عاقبه الله تعالى في الدنيا بالمعيشة الضنكة وبعثه يوم القيامة وجمعه للحشر أعمى البصر، وأن الله عزّ وجل سيجعله في النار كالمنسي جزاء على نِسْيانه آيات الله تعالى في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ . . .﴾ الآية.

الآية الكريمة، دلّت على أن أهل الضلال من الكفرة والمشركين سيحشرهم الله تعالى على وجوههم عمياً لا يبصرون، بكماً لا ينطقون، صمًّا لا يسمعون، جزاء على ما كانوا عليه في الدنيا عمياً بكماً صمًّا عن الحق، فجوزوا في محشرهم بذلك جزاءً وفاقاً.

وقد جاءت أحاديث عن النبي ﷺ تكشف عن صفات الناس عند الخروج والحشر.

[٢٥٧] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: **«يا أيُّها الناسُ إنكم محشورون إلى الله تعالى حُفاةً عُراةً غُرْلاً، ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾، ألا وإنّ أول الخلائق يُكْسَى يومَ القيامة إبراهيمُ عليه السلام»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٧٣/١٧٢/١٤) وفي مواضع من التفسير، ومسلم في الجنة (١٩٤/١٩٣/١٧)، والترمذي في التفسير (٣١١٥) وفي القيامة، والنسائي في الكبرى (٥٠٧/٦).

«محشورون» أي: مجموعون من قبوركم إلى الموقف. وقوله: **«غرلاً»** جمع أغرل، والغرلة الجلدة التي تكون على حشفة الذكر فتقطع في الختان.

[٢٥٨] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يحشر الناس حفاةً عُراةً غُرْلاً»**، قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: **«الأمر أشد من أن يُهِمَّهُم ذلك»** وفي رواية: **«الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٧٦) وفي التفسير، ومسلم في الجنة في بيان الحشر (١٧/١٩٢/١٩٣).

الحديثان يدلان على أن الناس سيخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف كما خلقوا لا شيء معهم ولا يُفقَدُ من أجسامهم شيءٌ حتى الغُرْلة ترجع إليهم فهم كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾، وكما قال في آية ثانية: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ومن هول الموقف أن الناس كلهم عراة بنسائهم ورجالهم ولا يعرج أحد على أحد، فما نزل بهم أعظم وأدهى من أن يلتفت بعضهم إلى عورة بعض، فلكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه.

وقوله: «وإن أول الخلائق يكسى إبراهيم» في هذا خصيصة لخليل الرحمٰن حيث إنه سيكسى قبل الناس وهو يدل على أن الناس سيكسون بعد ذلك.

[٢٥٩] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم؟ قال: «**إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ أن يمشيهم على وجوههم**».

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٧١) وفي التفسير، ومسلم في صفة جهنم رقم (٢٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦/٤٢٠).

في هذا الحديث بيان حشر الكافرين وأنهم لا يساقون إلى الموقف كالعادة ماشين على أقدامهم بل يمشون ويسحبون على وجوههم إهانة لهم وزيادة في التنكيل بهم وتعذيبهم، والحديث موافق لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الآية، وقوله عزّ وجل: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا...﴾ الآية.

وهذا وإن استبعدته عقولنا الضيقة وخالف عاداتنا المتعارفة، فإن الله قادر على كل شيء وإن أمور الآخرة على خلاف حياتنا هذه، فالواجب الإيمان بما جاء به الوحي والتسليم.

والمقصود أن البعث والنشور والحشر من مقتضيات الإيمان وأسه وكلياته الست الواردة في الأحاديث التالية:

[٣٦٠] ففي حديث جبريل عليه السلام الذي يرويه سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ في السؤال عن الإيمان قال: **«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**.

رواه أحمد والطيالسي ومسلم والترمذي والنسائي وأبو داود، وتقدم في الإيمان من الجزء الأول كالآتي:

[٣٦١] وعن أبي هريرة نحوه وفيه: **«أن تؤمن بالله وملائكته، وكتابه ولقائه ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر»**.

رواه البخاري ومسلم كلاهما في الإيمان.

[٣٦٢] وعن الإمام علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني محمد رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر»**.

رواه أحمد والطيالسي والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي وتقدم أيضاً.

فقوله: «وأن تؤمن بالبعث بعد الموت». وقوله: «ولقائه» وتؤمن بالبعث الآخر، واليوم الآخر.

فجعل الإيمان بلقاء الله وبالبعث وباليوم الآخر من شروط الإيمان، وأنه لا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بذلك.

وهذا مما لا نزاع فيه بين أهل الأديان الإلٰهية.

وقد جعل الله عزّ وجل الإيمان بالآخرة من الصفات الخاصة بالمؤمنين والمحسنين والمتقين، فقال تعالى في سورة النمل: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

وقال في سورة لقمان: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

وقال في أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

فالآيات الثلاث كلها ختمت بالإيمان بالآخرة، (وبالآخرة هم يوقنون)، وجعل تعالى كل من اتصف بتلك الصفات من أهل الهداية والفلاح.

والآخرة تشمل كل ما يقع بعد نفخة الصعق من البعث والقيامة والحساب والمرور على الصراط والجنة والنار...

* * *

مشاهد موقف يوم القيامة

[٣٦٣] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه تلا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

عن النبي ﷺ قال: **«يقوم أحدُهم في رشحه إلى أنصاف أذُنَيه»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٨٤) وفي التفسير، ومسلم في الجنة (١٩٦/١٩٥/١٧) والترمذي (٢٢٤٢) كلاهما في صفة القيامة، والنسائي في الكبرى (٦/٥٠٩) وابن ماجه (٤٤٧٨).

«الرشح»: هو العرق.

[٣٦٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب في الأرض عرقهم سبعين ذراعاً، وإنه يُلجِمُهُمْ حتى يبلغ آذانهم»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٨٥)، ومسلم في صفة القيامة من الجنة (١٧/١٩٦).

[٣٦٥] وعن المقداد بن الأسود رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كَقِيد ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبَيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيه، ومنهم من يُلْجِمُه العَرَقُ إلجاماً**»، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه، وفي رواية: «**فتصهرهم الشمس فيكونونَ في العَرَق كقدْر أعمالهم**».

رواه مسلم (١٧/١٩٦)، والترمذي (٢٢٤١) كلاهما في صفة القيامة.

قوله: «حقويه» بفتح الحاء: هو موضع شد الإزار من وسط الإنسان. قوله: «يلجمه» أي: يبلغ إلى آذانهم وأفواههم. وقوله: «فتصهرهم الشمس» أي: تُذيبهم فيعرقون. وقوله: «تُدْنى الشمس» أي: تقرب. وقوله: «قِيد ميل» بكسر القاف، أي: قدر ميل، والميل إما مسافة الأرض أو الميل الذي يكتحل به العين، فالله تعالى أعلم.

هذا المشهد المذكور في هذه الأحاديث عقب خروج الناس من القبور، وقبل الشفاعة العظمى التي سيحظى بها نبينا ﷺ فيكون الناس في ذلك الموقف تحت حرارة الشمس التي ستقرب منهم مقدار ميل فيكونون في ذلك حسب أعمالهم وإيمانهم فيذابون ويعرقون بما لم يروه في حياتهم الطويلة في الدنيا، ولذلك فمن الناس من يصل عرقه إلى عقبه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم إلى نصفه، ومنهم من يلجمه إلى فمه وأذنيه، وهذا سيكون لعامة الناس وأشدهم في ذلك الكفار ثم أصحاب الكبائر من المؤمنين، أما الأفراد من الأنبياء والشهداء والصالحين ومن ورد فيهم التظليل يوم لا ظل إلا ظله فلا يصيبهم هذا الهول وهذا العذاب الفظيع الذي يتمنى الناس معه الذهاب ولو إلى النار.

[٣٦٦] وقد روى البيهقي في البعث بسند حسن عن ابن عمرو بن

العاص قال: يشتد كرب ذلك اليوم حتى يلجم الكافر العرق، قيل له: فأين المؤمنون؟ قال: على الكراسي من ذهب، ويظلل عليهم الغمام.

ذكره الحافظ في «الفتح» وله حكم الرفع.

[٣٦٧] كما أخرج عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: «**الشمس فوق رؤوس الناس يوم القيامة وأعمالهم تظلهم**» وقوّى سنده الحافظ أيضاً، وهذا أيضاً له حكم الرفع لأن ذلك لا دخل للرأي فيه.

***

✻ تشقق السماء بالغمام وتنزل الملائكة ومجيء الرب والملائكة صفاً صفاً

[٣٦٨] قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يجمع الله الخلق يوم القيامة في صعيد واحد، الجن والإنس، والبهائم والسباع والطير وجميع الخلق، فتنشق السماء الدنيا فينزل أهلها، وهم أكثر من الجن والإنس ومن جميع الخلائق، فيحيطون بالجن والإنس وبجميع الخلق، ثم تنشق السماء الثانية فينزل أهلُها وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم والجن والإنس وجميع الخلق، ثم تنشق السماء الثالثة فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وبجميع الخلق، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف، حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلُها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السماوات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السماوات وبالجن والإنس وجميع الخلق كلهم، وينزل ربنا عزّ وجل في ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السماوات السبع والإنس وجميع الخلق لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم زَجَلٌ بالتسبيح والتهليل والتقديس للّه عزّ وجل ما بين أَخْمَص

قدم أحدهم إلى كعبه مسيرة خمسمائة عام، وما بين كعبه إلى ركبته مسيرة خمسمائة عام وما بين ركبته إلى حجزته مسيرة خمسمائة عام، وما بين حجزته إلى ترقُوَته مسيرة خمسمائة عام، وما بين ترقوته إلى موضع القرط مسيرة خمسمائة عام، وما فوق ذلك مسيرة خمسمائة عام، وجهنم مجنبته».

رواه ابن جرير (١٩/٦/٧)، وابن أبي حاتم (٨/٢٦٨٢) وابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي الدنيا في الأهوال كما عزاه الجلال السيوطي في الدر المنثور والأثر له حكم الرفع، وهو وإن كان فيه ضعف فهو منجبر في الجملة بالقرآن الكريم.

فقد ذكر الله تعالى تشقُّق السماء بالغمام وتنزُّل الملائكة ومجيء الرب سبحانه وتعالى والملائكة صفاً صفاً.

فقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

قال المفسرون: واذكر ذلك اليوم الرهيب يوم تتشقق السماء وتتفطر عن الغمام الذي يُسَوِّد الجوّ ويُظِلُّهُ، ويُغِمُّ القلوبَ مَرْآهُ لكثرته وشدة ظلمته، ونُزِّلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر الملك في ذلك اليوم للّه الواحد القهّار الذي تخضع له الملوك، وتذل له الجبابرة والطغاة.

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾.

قال ابن كثير: يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ...﴾ إلخ، يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزى كل عامل بعمله.

وقال الشيخ الصابوني: أي ما ينتظرون شيئاً إلا أن يأتيهم الله يوم القيامة لفصل القضاء بين الخلائق حيث تنشق السماء وينزل الجبار عزّ وجل في ظلل من الغمام وحملة العرش والملائكة الذين لا يعلم كثرتهم إلا الله...

[٣٦٩] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً، شاخصةً أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي**».

أورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/٣٤٠) برواية الطبراني من طرق أحدها رجالها رجال الصحيح غير أبي خالد الدالاني وهو ثقة، وحسّنه الذهبي في «العلو».

وجاء هذا القدر في حديث الصور المشهور من حديث أبي هريرة.

وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

قال ابن كثير: وذلك كائن يوم القيامة.

وقال ابن جرير: المراد أن يأتيهم ربك في موقف القيامة للفصل بين خلقه.

وقال تعالى: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ أي: ارتدعوا أيها الغافلون فإن أمامكم أهوالاً عظيمة في ذلك اليوم العصيب حيث تزلزل الأرض وينهدم كل ما عليها وتقوم القيامة ويجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء.

قال ابن كثير: وذلك بعدما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم ﷺ فيجيء الرب تبارك وتعالى والملائكة يجيئون بين يديه صفوفاً صفوفاً.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ. . .﴾ إلخ.

أي: في ذلك اليوم الرهيب يقف جبريل والملائكة مصطفين خاشعين لا يتكلم أحد منهم إلا من أذن الله له بالكلام. . .

فعلمنا من هذه الآيات ومن حديثَي ابن عباس وابن مسعود رضي الله

تعالى عنهم، أن الخلائق إذا حشروا ووقفوا على أرض المحشر، وهي أرض غير هذه الأرض كما قدّمنا، عندئذ تشقق السماء بالغمام وتتنزل ملائكة السماوات السبع وهم عدد خيالي لا يحصيهم إلا الله عزّ وجل، فيحيطون بالإنس والجن وكل الخلق صفاً صفاً وهم أيضاً الملايين بل والبلايين قائمين خاشعين خائفين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، ثم يأتيهم الرب تعالى ويجيء للفصل بينهم مجيئاً لا نعلم حقيقته ولا كيفيته، والآخرة على خلاف الدنيا والله عزّ وجل ليس كمثله شيء.

* * *

شدة يوم القيامة وطوله على الكافرين وخفته على المؤمنين

[٢٧٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جبهته، وجنبه، وظهره، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار...»**.

رواه أحمد (٢٦٢/٢)، ومسلم في الزكاة (٦٨/٦٧/٧)، وأبو داود (١٦٥٨) وغيرهم، وقد تقدم في الزكاة مطولاً.

[٢٧١] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قيل: يا رسول الله ﴿يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ ما أطول هذا اليوم؟ فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده إنه يخفف على المؤمن، حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا»**.

رواه أحمد (٧٥/٣)، وابن حبان «بالإحسان» (٧٣٣٤)، وابن جرير (٧٢/٢٩)، وأبو يعلى (١٣٩٠)، وأورده النور في «المجمع» (٣٣٧/١٠) برواية أحمد وأبي يعلى، وقال: إسناده حسن على ضعف راويه.

في سنده ابن لهيعة ودراج عن أبي الهيثم وحالهما معروف فهو حسن على رأي جماعة من أهل الحديث، ويؤيده ما في الباب.

[٢٧٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«يقوم الناس لرب العالمين مقدار نصف يوم من خمسين ألف سنة، يُهوِّنُ الله ذلك على المؤمنين كتدلِّي الشمس للغروب إلى أن تغرب»**.

رواه ابن حبان (٧٣٣٣)، وأبو يعلى (٦٠٢٥)، وعزاه إليه النور في المجمع (٣٣٧/١٠) وقال رجاله رجال الصحيح غير إسماعيل بن عبدالله بن خالد وهو ثقة.

فهذه الأحاديث تدل على أمور ثلاثة:

أولاً: تدل على أن يوم القيامة سيكون طوله خمسين ألف سنة كما في الآية الكريمة، وكما جاء في هذه الأحاديث، وكما رواه ابن أبي حاتم (١٨٩٨٩) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾، قال: يوم القيامة، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح، وكذا قال عكرمة، والضحاك، وابن زيد.

ثانياً: سيختص طوله بالكافرين والمنافقين والعتاة على الله عزّ وجل والمصرين على تعاطي الفواحش ومزاولة كبار الذنوب، فسيقاسون من العذاب والأهوال والشدة وأنواع الذل والهوان والخزي والنكال مسبقاً في الموقف ما يتمنون معه الذهاب إلى النار. وتلكم هي أدهى وأمر.

ثالثاً: تهوين ذلك اليوم الطويل على المؤمنين الصالحين الذين لقوا الله طيبين مطهرين حتى يكون عليهم مقدار زمن أداء صلاة مكتوبة، أو نحو ذلك من قصر الوقت، وهذا من لطف الله تعالى ورحمته بعباده المؤمنين.

غير أننا لا ندري كيف يكون هذا التهوين، فيحتمل أن يلقى عليهم سنة أو نحوها حتى لا يحسوا بمرور السنين كما وقع في الدنيا لأصحاب الكهف والذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فقد مرت على

هؤلاء سنون طوال ولم يشعروا بها ويحتمل غير ذلك مما لا نعلمه وشؤون الله تعالى لا يقاس عليها.

فالمهم هو أن يوم القيامة عسير على الكافرين طويل شديد، يسير على المؤمنين هين قصير...

* * *

الشفاعة العظمى والمقام المحمود

[٢٧٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أُتيَ رسول الله ﷺ بلحم فرُفِعَ إليه الذراعُ وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يسْمِعُهم الداعي، ويَنْفُذُهم البصرُ، وتدنو الشمس فيبلُغُ الناسَ من الغم والكرْبِ ما لا يُطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه، ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم عليه السلام: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثلَه، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عزّ وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب**

قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنتُ كذبتُ ثلاث كَذَبَاتٍ، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضّلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أومَرْ بقتلها، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبياً، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ، فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي عزّ وجل، ثم يفتح الله عليَّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تُعطَه، واشفع تُشَفَّع، فأرفعُ رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخِل من أمتك مَن لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وَهَجَر، أو: كما بين مكة وبُصْرى».

رواه أحمد (٢/٤٣٥)، والبخاري في التفسير (١٠/١٠/١١)، ومسلم في الإيمان (٣/٦٥/٧٠)، والترمذي في الزهد (٢٢٥٥)، والنسائي في الكبرى (٦/٣٧٨) وغيرهم.

قوله: «نهس» أي: أخذ بأطراف أسنانه، «صعيد واحد»: هو الأرض الواسعة التي سيُحشر الناس عليها. «يُسْمعهم الداعي»: معناه أن الجميع يسمعون من دعاهم أو ناداهم لأنه ليس هنالك جبل ولا بناء يحول بينه وبينهم. وقوله: «ينفذهم» أي: يبلغهم بصر الناظر ويجاوزهم. وقوله:

«المصراعين» تثنية مصراع وهو جانب الباب. و«هجر»: كانت مدينة في البحرين قاعدة بلادهم.

[٢٧٤] وعن أنس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يطول على الناس يوم القيامة فيقول بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى آدم أبي البشر، فيشفع لنا إلى ربنا عزّ وجل فليقض بيننا**»، فذكر مثل ما سبق «**وفي كلٍ يقولون: اشفع لنا إلى ربك فليقضِ بيننا**»، وفي رواية: «**فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا هذا**».

رواه البخاري في التوحيد (٢٥٧/٢٥٢/١٧)، ومسلم في الإيمان (٦٤/٦١/٥٣/٣)، وأحمد (٢٤٧/٣).

وقوله: «**فليقضِ بيننا**» معناه: اشفع لنا إلى ربك ليريحنا من عذاب الموقف، وليفصل بيننا إما إلى الجنة وإما إلى النار.

[٢٧٥] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًى كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع حتى تنتهي الشفاعة إلى النبي ﷺ فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود.

رواه البخاري (١٤/١٠)، والنسائي (٣٨٨/٦) كلاهما في التفسير وحكمه الرفع.

وقوله: «**جُثًى**» أي: جاثمين على رُكَبهم، جمع جاث.

[٢٧٦] وعن كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُبْعَثُ الناسُ يوم القيامة فأكونُ أنا وأمّتي على تَلٍّ ويكسوني ربي حُلةً خضراء، ثم يؤذنُ لي فأقول ما شاء الله أن أقول، فذاك المقامُ المحمودُ**».

رواه أحمد (٣٥٦/٣)، وابن حبان بالإحسان (٦٤٤٥)، وابن أبي حاتم (٢٣٤٢/٧)، والحاكم (٣٦٣/٢) بسند صحيح.

وصححه الحاكم على شرطهما ووافقه الذهبي.

«التل»: بفتح التاء، **قطعة** من الأرض مرتفعة.

[٢٧٧] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن، فبينما هم كذلك، استغاثوا بآدم ثم بموسى، ثم بمحمد ﷺ، فيشفع ليقضى بين الخلق، فيمشي حتى يأخذ بحلقة الباب فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً يحمده أهل الجمع كلهم»**.

رواه البخاري في الزكاة باب من سأل الناس تكثُّراً (٨٢/٨١/٤).

والأحاديث بهذه الشفاعة وأنها المقام المحمود متواترة وردت عن جم غفير من الصحابة ومخرجة في الصحاح، والمسانيد، والسنن، وغيرها.

قوله: «أهل الجمع» هم أهل المحشر، لأنه يوم يجمع فيه الناس كلهم.

وجملة هذه الأحاديث تدل على أن الله عزّ وجل سيجمع الأولين والآخرين كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾، ويكون ذلك في صعيد واحد على أرض أخرى بيضاء نقية، واسعة المدى لا تتصور العقول عرضها وطولها واتساعها يسمع الناس عليها داعيهم وينفذهم بصر ناظريهم ليس بينها وبينهم جبل ولا بناء... وتدنو منهم الشمس مقدار ميل فيذوبون عرقاً حتى يلجمهم إلجاماً فيقفون جاثين على ركبهم، ويطول عليهم ذلك اليوم مقدار خمسين ألف سنة، ويبلغ الناس من الغم، والكرب، والأهوال ما لا يطيقون ولا يحتملون، وينزل بهم من الشدة والعذاب ما لم يتقدم له مثيل في حياتهم الأولى فيتمنون الخروج مما نزل بهم ولو إلى النار، فعند ذلك يفزعون إلى من يشفع لهم من ذلك الهول فيلتجئون إلى سادات البشرية وهم رسل الله وخاصته صلوات الله وسلامه عليهم فيستغيثون بهم ويسألونهم الشفاعة إلى الله عزّ وجل في إنقاذهم مما نزل بهم، وإراحتهم من هول ذلك الموقف، ويقضي بينهم ويذهب بهم إلى ما يشاء ولو إلى النار. فيبدأون بالاستغاثة

بأبي البشرية سيدنا آدم عليه السلام، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذرون إليهم ويقولون: نفسي، نفسي، نفسي، ويذكرون ما صدر منهم في حياتهم الأولى مما عدُّوه مخالفة للّه عزّ وجل، ويذكرون لهم بأن الله عزّ وجل قد غضب غضباً ما غضب مثله قبله ولن يغضب بعده مثله قط، ثم يحيل بعضهم على بعض من أكابر أولي العزم حتى يصلوا إلى عيسى فيقول: اذهبوا إلى شاب غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اذهبوا إلى محمد، فيأتونه فيقول: أنا لها أنا لها، فيسجد للّه عزّ وجل ويحمده بمحامد ويثني عليه بما سيفتح به عليه فينادي: يا محمد ارفع رأسك، سل تُعطَه، اشفع تُشَفَّع، فيشفِّعُهُ الله عزّ وجل في خلقه، فيذهب بهم من هول الموقف إلى الحساب والقصاص.

وهذا هو المقام المحمود الذي نطق به القرآن في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، والذي يحمده فيه الأولون والآخرون بل حتى الأنبياء يشاركون الناس في سؤاله ﷺ الشفاعة.

[٢٧٨] ففي حديث لأنس رضي الله تعالى عنه في الشفاعة عنه ﷺ: «**إني لقائم أنتظر أمتي تَعْبُر على الصراط، إذ جاءني عيسى عليه السلام فقال: هذه الأنبياءُ قد جاءتْك يا محمد يشتكون** أو قال: **يجتمعون إليك، ويدعون الله عزّ وجل أن يُفرِّقَ جميعُ الأمم إلى حيث يشاء الله لِغَمِّ ما هم فيه، والخلق مُلْجَمُون في العرق**».

رواه أحمد (١٧٨/٣) بسند صحيح على شرط مسلم.

وفي قولهم: «ليقضى بين الناس»، وقولهم: «ويريحنا من مكاننا هذا»، وقولهم: «فيشفع ليقضى بين الخلق»، وقوله: «فليقضِ بيننا»، وقولهم: «أن يفرق بين جميع الأمم» كل ذلك يدل على أن هذه الشفاعة هي خاصة بإراحة الناس من هول الموقف والذهاب بهم للفصل بينهم، وهذا مما لا ينبغي أن يختلف فيه، ولذلك اتفق جميع الفرق على هذه الشفاعة العظمى حتى الخوارج والمعتزلة الذين أنكروا الشفاعات الأخرى اعترفوا بهذه، والله تعالى أعلم.

وقوله ﷺ: «**يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تلّ**».

و«التل»: القطعة من الأرض تكون مرتفعة على من حولها.

فيه دليل على أن الأمة المحمدية وخاصة أهل الصلاح منهم سيكونون مع النبي ﷺ على قطعة خاصة من أرض المحشر مرتفعة لا يصيبها ما يصيب الناس من الأهوال.

وقد جاء في السنة التنصيص على حفظ أنواع من الناس من حر شمس الموقف وأنهم سيكونون تحت ظل الله عزّ وجل، كالسبعة المذكورين في حديث أبي هريرة عند الشيخين وهم: شاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلّق بالمساجد، ورجلان تحاباً بالله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، وإمام عادل.

ومنهم المتحابون في الله، ومَن أنظر معسراً أو وضع عنه، وأهل الصدقة، وغير هؤلاء ممن سبقت لهم من الله السعادة.

* * *

❋ حوض نبينا ﷺ

[٢٧٩] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال النبي ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر وزواياه سواء، ماؤه أبيض من اللّبَن، وريحُه أطيبُ من المسِك، وكيزانُه كنجوم السماء، مَن شرب منه لم يظمأ أبداً**».

رواه البخاري في الرقاق (٢٦٩/٢٦٦/١٤)، ومسلم في الفضائل (٥٥/١٥)، وابن حبان بالإحسان (٦٤٥٣).

قوله: «وزواياه سواء» معناه: طوله وعرضه سواء. وقوله: «وكيزانه» في رواية: «**أباريق**» وفي أخرى: «**آنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها**». وقوله: «لم يظمأ» أي: لم يصبه عطش.

[٢٨٠] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إني فَرَطُكُم على الحوض مَن مرّ عليّ شرب، ومَن شرب لم يظمأ أبداً، ليَردَنّ عليّ أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم»**.

وفي رواية عن أبي سعيد: **«فأقول: إنهم مني، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحقاً سُحقاً لمن غيَّر بعدي»**.

رواهما البخاري في الرقاق (١٤/٢٧١)، ومسلم في الفضائل (١٥/٥٣/٥٤).

«سُحقاً» أي: بُعداً لكم.

[٢٨١] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله ما آنية الحوض؟ قال: **«والذي نفسُ محمدٍ بيده لآنيتُه أكثر من عددِ نجومِ السماء وكواكبها، ألا في الليلة المُظلمة المُصْحِية، آنية الجنة، مَن شربَ منها لم يظمأ، آخر ما عليه يشْخُبُ فيه ميزابان من الجنة، مَن شرب منه لم يظمأ، عرضه مثل طوله ما بين عُمَان إلى أيلَة، ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل»**.

رواه مسلم (١٥/٦١/٦٢)، والترمذي في القيامة (٢٢٦٦).

قوله: **«يشخب»** بفتح الياء وضم الخاء وفتحها، أي: يصب. و**«عمان»** بضم العين وتخفيف الميم، إمارة معروفة بسلطنة عمان: و**«أيلة»**: مدينة بفلسطين على البحر.

وأحاديث الحوض جاءت من طرق متواترة وهو غير الكوثر المنصوص عليه في القرآن، فإن هذا في الجنة، أما الحوض فهو قبل الصراط في الموقف على الصحيح، فإن الناس سيصيبهم عطش شديد في ذلك اليوم وهم في المحشر فيرد المؤمنون أحواض أنبيائهم ليطفئوا ما أصابهم من الظمأ فإنه قد جاء: **«إن لكل نبي حوضاً»**.

[٢٨٢] فعن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ لكُلّ نبيّ حوضاً، وإنهم يتباهون أيُّهم أكثرُ واردةً، وإني أرجو أن أكونَ أكثرَهم واردةً»**.

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٦٤).

وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإن له شاهداً عن أبي سعيد رواه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٣٦٩/٣٦٣/١) وآخر عن ابن عباس رواه ابن أبي الدنيا، وذكر الحافظ أنه جاء مرسلاً بسند صحيح، فالحديث حسن.

قوله: «يتباهون» أي: يتفاخرون أيهم يشرب من أمته أكثر، وأن نبينا ﷺ سيكون أكثرهم واردة لأن أمته أكثرُ الأمم.

والمقصود أن لنبينا ﷺ حوضاً ترده أمته عِطاشاً فمَن شرب منه لا يظمأ بعده أبداً وسيُطردُ عنه أقوام بدّلوا وغيّروا وارتدُّوا، وفيهم من كان يعرفهم ﷺ فتطردهم الملائكة فيقول: إنهم من أصحابي، فيقال له: إنك لا تعلم ما فعلوا بعدك، لم يزالوا مرتدين على أعقابهم وهؤلاء المطرودون عن الحوض المرتدون هم المنافقون وضعفاء الإيمان من أهل القبائل العربية الذين أرتدوا بعد النبي ﷺ وتبع أكثرُهم مُسيلمةَ الكذاب، أما الصحابة المخلصون من المهاجرين والأنصار فلم يرتد منهم أحد بحمد الله باتفاق العلماء من أهل السنة والجماعة، وسيأتي بقية كلام عند ذكر الكوثر.

* * *

❁ العرضُ على اللّه تعالى
العَرْضُ العام

[٢٨٣] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُعرَضُ الناسُ يوم القيامة ثلاثَ عَرَضاتٍ، فأما عَرْضَتَان فجدالٌ ومعاذير، وأما الثالثة فعندها تطيرُ الصُحُف في الأيدي، فآخِذٌ بيمينه، وآخِذٌ بشماله»**.

رواه أحمد (٤١٤/٤)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٧٧) ورجاله ثقات مع انقطاعه، ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٥) بسند حسن مع اختلاف في سماع الحسن من أبي هريرة، وقد صحّ سماعه منه في عدة

أحاديث وله شاهد عن ابن مسعود موقوفاً رواه البيهقي. قال الحافظ: بسند حسن.

والمراد بالعرض على الله تعالى وقوف جميع الخلائق بين يديه بإنسهم وجنّهم كافرهم ومؤمنهم ذكرهم وأنثاهم كبيرهم وصغيرهم ووحشهم وهوامهم وأنعامهم وطيورهم، وذلك لفصل القضاء وحسابهم أمماً أمماً، وجماعاتٍ جماعات، وأفراداً أفراداً كلهم خاشعون خاضعون لا يملكون لأنفسهم حيلة، ولا يستطيعون نفاقاً ولا كذباً ولا غشاً ولا غدراً ولا خيانةً ولا هرباً ولا مواراة ولا استخفاء، ولا يقدرون على نوم ولا راحة، ولا يفتُر عن الكافرين والخاسرين الذلُّ والهوانُ والعذابُ والنكال، تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم بما كانوا يعملون ويتمنون أن يكونوا أنعاماً ووحوشاً حتى يصيروا تراباً كما تصير الوحوش والطير تراباً بأمر الله تعالى.

تأتي الأمم بين يدَي العزيز القهّار وما كانت تعبد حفاة عراة، كل أمة تجثو بين يدَي الله تعالى تنتظر فصل القضاء ومحاسبة الله عزّ وجل إياها.

قال تعالى في سورة الجاثية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَـٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٦ ـ ٢٩].

فكل أمة تأتي عند العرض جاثية على رُكَبِها، حتى أمة خير الرسل أمة حبيبنا محمد ﷺ، ثم يؤمِّنُها الله عزّ وجل من الفزع، والكل يُدعَى إلى كتاب حسناته وسيئاته، ويقال لهم: هذا كتابنا الذي كتبه عليكم الحفظة ينطق بالحق فإننا كنا نكتب ما كنتم تعملون فاليوم تجزون ما قدّمت أيديكم.

وفي هذا المشهد كل إنسان ينشغل بنفسه عن غيره، الجميعُ خائفٌ لا يعلم مصيرَه ولا إلى أين يذهب به ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾، ﴿لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

وفي الحديث الذي افتتحنا به العرض على الله تعالى بيان أن العرض عليه عزّ وجل سيكون ثلاث مرات؛ في العرضة الأولى يجادل الإنسان ويدافع عن نفسه فيها بحق وباطل، وصدق وكذب، كما فصّله الله عزّ وجل في غير ما آية، وكما يأتي بعض ذلك لاحقاً.

أما في العرضة الثانية، فيعترف كل إنسان بما قدّمت يداه ويعتذر ويستعتب، وهيهات هيهات فأنّى له قبول اعتذاره.

أما في العرضة الثالثة، فعندها يكون الفصل وظهور النتيجة فيأخذ كل واحد كتابه، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله.

ويكون الناس يومئذ ثلاث فرق: سابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، كما ذكرهم الله عزّ وجل في سورة الواقعة مع مآلهم...

فقال عزّ من قائل: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝٧ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝٩ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝١٢﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ...﴾ إلخ.

وذكرهم في غير ما آية صنفين: أهل اليمين وأهل الشمال.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٢١ ...﴾ الآية ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ۝٢٩﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ الآية.

وقوله: «وراء ظهره» قال المفسرون: أي: بشماله من وراء ظهره تثنى يده إلى ورائه ويُعطى كتابه بها كذلك. وقوله: «يدعو ثبوراً» أي: خساراً وهلاكاً.

ويأتي مزيد لهذا لاحقاً إن شاء الله تعالى.

***

❊ عرض الأمم على النار حيث سيؤتى بها إلى الموقف

[٢٨٤] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُؤتى بجهَنَّم يومئذٍ لها سبعون ألفَ زمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف ملك يجرُونها»**.

رواه مسلم في الجنة (١٧٩/١٧)، والترمذي في صفة جهنم (٢٣٩٠) بتهذيبي.

ففي الحديث أنه يؤتى بجهنم إلى الموقف يقودها هذا العدد الهائل من ملائكة الله تعالى العظام لتُرهِب الكفار والطغاة والعُتاة على الله وتُزعِبهم وتزعجهم ويعذَّبُون برؤيتها عذاباً نفسياً مُسَبَّقاً.

فتتغيظ وتزفر على الكافرين وتشهق وهي تفور بأصوات مرعبة.

كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾ أي: سمعوا لها صوتاً كصوت المتغيظ كما يسمعون لها صوتاً شديداً كصوت الزافر وذلك حَنقاً عليهم.

وقال تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ أي: تشهق لهم شهوق البغلة إلى الشعير وتكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله وجحد آياته وكذب رسله.

وعندئذ تصبح القلوب لدى الحناجر، ولولا أن الله عزّ وجل قضى في سابق علمه أن لا موت إلا الموتة الأولى لخرجت روح كل من رأى ذلك المشهد، وفي عرض الأمم على النار في ذلك الموقف الرهيب حينما يؤتى بها مع ملائكة الرحمٰن وتسعر وتقترب.

يقول الله عزّ وجل: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ الآية.

ويقول في عرض الكفار على النار وهي تتغيظ وتزفر: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: عندما يعرض الكفار على النار وهم في الموقف، يقال لهم: لقد أمضيتم ما تمتعتم به في الدنيا فلبستم فاخر الثياب، وارتديتم أجمل الملابس، وأكلتم أنواع المآكل، وشربتم لذائذ الأشربة، ونكحتم الفتيات الحسان، وتمتعتم بجمالهن ورقصهن وأغانيهن، وركبتم فاره المراكب، وتوسعتم في أنواع السيارات، وملكتم الطائرات والقطارات وبواخر السياحة الهائلات، وصنعتم الآلات الحربية المدمرات، وتطاولتم على أولياء الله من المؤمنين واستضعفتموهم وقاتلتموهم ودمّرتم بلادهم واستعمرتموهم.

فاليوم وقد وقفتم بين يدَي الله الحكم العدل وعرضتم على النار، تجزون عذاب الهون بسبب استكباركم على الله وعلى رسله وبسبب فسقكم وكفركم.

ويقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ فيقال لهم: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّۗ﴾.

قوله: «خاشعين من الذل» أي: الذي أصابهم بما أسلفوا من

عصيان الله. وقوله: «من طرف خفي» يعني أنهم ينظرون إلى النار مسارقة خوفاً منها.

وفي هذا المشهد وقد أحضرت النار للموقف يخرج منها عنق يتكلم كما في الحديث التالي:

[٢٨٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يخرُجُ عُنُقٌ من النار يومَ القيامة له عَينانِ تُبصِران، وأُذُنانِ تسمعان، ولسانٌ ينطقُ، ويقول: إني وُكِّلْتُ بثلاثة: بمن دعا مع الله إلهاً آخر، وبكلّ جبّار عنيد، وبالمُصَوِّرين».**

رواه أحمد (٣٣٦/٢)، والترمذي في أول صفة جهنم (٢٣٩١) وحسّنه وصححه وسنده صحيح.

«عنق»: بضمتين مثل صورة العنق حقيقة بدليل ذكر الأذنين واللسان. وقوله: «وكلت» أي: وكلني الله تعالى وأسند إليّ أن أُدخل هؤلاء النار. وقوله: «جبار عنيد» أي: المتمرد العاتي الجائر الباغي. وقوله: «وبالمصورين» قال بعض العلماء: يعني الذين ينحتون التماثيل، وقيل: كل التصوير حتى الأرقام.

وفي هذا الحديث مشهد آخر من مشاهد الموقف وهو خروج صورة من النار مثل العنق لها عينان وأذنان ولسان ينادي على أهل المحشر بأن الله تعالى أسند إليّ أن آخذ ثلاثة أصناف من الناس فأُدخلهم النار، وهم كل من اتخذ مع الله إلهاً آخر وأشرك معه، وبكل جبار ظالم متمرد على الله باغٍ، وبكل من كان يتعاطى التصوير لأنّ في ذلك مضاهاة الله عزّ وجل في خلقه.

وفي هذا المشهد فضيحة أي فضيحة، حيث سيؤخذ هؤلاء الأصناف على مرأى من أهل الموقف، والكل يشاهد ويسمع وقد دهمهم الرعب وارتعدت فرائصهم، نسأل الله العفو واللطف، آمين.

* * *

❋ بداية العرض على الله تعالى
عرض آدم عليه السلام

[٢٨٦] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعث النار، قال: يا رب وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها ويشيب الوليد وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، فشقّ ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم**»، قال النبي ﷺ: «**من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين، ومنكم واحدٌ ثم أنتم في الناس كالشعرة السوداء في جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة**»، فكبّرنا، ثم قال: «**ثلث أهل الجنة**»، فكبّرنا، ثم قال: «**شطر أهل الجنة**» فكبّرنا.

رواه البخاري في التفسير (١٠/٥٧) وفي الرقاق (١٤/١٧٩)، ومسلم آخر الإيمان (٣/٩٧/٩٨) وغيرهما.

[٢٨٧] وعن عمران بن الحصين رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ لما أُنزلت عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ وهو في سفر، قال: «**أتدرون أي يوم ذلك؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذلك يوم يقول الله تعالى لآدم عليه السلام: ابعث بعث النار**» فذكر مثل ما سبق، ثم قال: فأنشأ المسلمون يبكون، فقال ﷺ: «**قاربوا وسدِّدوا فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية**»، قال: «**فيؤخذ العدد من الجاهلية فإن تمت وإلا كملت من المنافقين**» فذكر الحديث كسابقه. وفي رواية: «**فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج ومَن هلك من بني آدم وبني إبليس**» قال: فأسرى عنهم.

رواه أحمد (٤/٤٣٥)، والترمذي (٢٩٦٤)، والنسائي في الكبرى

(٦/٤١٠)، والحاكم (١/٣٨) و(٢/٢٢٣/٣٨٥) و(٤/٥٦٧) وحسّنه الترمذي وصححه وكذا صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

وفي الباب بنحو ما سبق عن ابن مسعود عند أحمد (١/٣٨٨) وعن ابن عباس رواه الحاكم (٤/٥٦٨) وصححه، والبزار بسند صحيح. وعن أنس رواه ابن حبان (١٧٥٢) والحاكم (١/٢٩) و(٤/٥٦٦) وصححه.

فهذا المشهد الفظيع سيكون في عرصات يوم القيامة بعد القيام من القبور كما اختاره ابن جرير وغيره.

وهو هول عظيم، وفزع وبلبال شديد حيث إن الله عزّ وجل سينادي نبيه آدم أبا البشرية عليه السلام ويأمره أن يبعث ويخرج من ذريته بعث النار، وقد اجتمع أولهم وآخرهم وسابقهم ولاحقهم ولم يغادر الله منهم أحداً وعرضوا عليه صفاً، ويقال لهم: لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة، فيخرج منهم من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين للنار وواحداً للجنة، وعندما سمع أصحاب رسول الله ﷺ هذا النبأ العظيم والخبر الهائل تمعّرت وجوههم وشقّ ذلك عليهم وجعلوا يبكون، طمأنهم فبشّرهم بأن الواحد سيكون من المؤمنين والعدد الباقي سيكون من يأجوج ومأجوج وأهل الجاهلية والمنافقين وبني إبليس، فعند ذلك استبشروا وسُرِّي عنهم وازدادوا فرحاً وبشارة حيثما أخبرهم بأنهم سيحتلون من الجنة نصف أهلها فحمدوا الله تعالى وكبّروه.

وما ذكر هنا هو أحد مشاهد يوم القيامة الكثيرة ولا ندري هل سيكون ذلك فور البعث والوقوف في أرض المحشر أم سيكون بعد تنزُّل الملائكة والروح ومجيء الرب عزّ وجل؟

* * *

عرض الرسل على الله وسؤالهم عن التبليغ وشهادتهم على أممهم ثم شهادة الرسول وأمته على الجميع

[٢٨٨] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُدْعَى نوحٌ يوم القيامة فيقول: لبيْك وسَعْدَيْك يا ربّ،**

فيقول: هل بلّغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلّغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾».

وفي رواية: قال ﷺ: «يجيء النبيُّ يوم القيامة ومعه الرجلُ، والنبيُّ ومعه الرجلان، وأكثر من ذلك، فيُدعى قومُه فيقال لهم: هل بلغكم هذا؟ فيقولون: لا، فيقال له: هل بلّغت قومَك؟ فيقول: نعم، فيقال له: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيُدعى محمدٌ وأمته فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمكم؟ فيقولون: جاءنا نبينا ﷺ فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا فصدّقناه، فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا - أي: خياراً عدولاً - لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾».

رواه أحمد (٣/٣٢/٥٨)، والبخاري في التفسير (٩/٢٣٨/٢٣٩) وفي بدء الخلق، وفي الاعتصام، والترمذي (٢٧٧٢)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٩٢) كلاهما في التفسير.

بعد عرض أبي البشرية سيدنا آدم عليه السلام على الله عزّ وجل وأمره إياه ببعث أهل النار من بنيه الذين تناسلوا منه حتى امتلأت الدنيا بالملايين والبلايين منهم، وها هم الآن جميعهم فوق أرض المحشر ينتظرون فصل القضاء، بعد ذلك تعرض عليه عزّ وجل باقي الرسل صلوات الله وسلامه عليهم مع أممهم فيسألهم سؤالاً جماعياً على مرأى ومسمع من أقوامهم وجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم وليس السؤال خاصاً بنوح.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

وقال عزّ وجل: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

فالله عزّ وجل سيسأل كل الرسل عن تبليغ رسالاته ويسأل جميع الأمم عما أجابوا به رسله، فإذا أنكرت الأمم تبليغهم رسلهم أحضر الله الأمة

المحمدية ونبيها ليشهدوا لهم، لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادة هذه الأمة وفضلها على كل أمة سواها كما أن كل الخلائق بأنبيائهم وأممهم معترفون بسيادة نبيها صاحب المقام المحمود ﷺ في ذلك اليوم فيشهدون للأنبياء بالتبليغ إقامة للحجة على أقوامهم، ثم يشهد على هذه الأمة نبيها سيدنا محمد ﷺ وأنه بلغهم فأجابوه، ولذا كان يقول في حجة الوداع: **«أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟»**، قالوا كلهم: نشهد يا رسول الله أنك بلّغت الرسالة وأدّيتَ ونصحتَ، فقال ﷺ: **«اللهم هل بلّغت اللهم فاشهد»**.

وقد ذكر الله عزّ وجل هذه الشهادة في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، وقال في آية ثانية: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾، وقال في آية ثالثة: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وقال عزّ من قائل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فكل أمة سيكون لها شهيد يشهد عليها وهو رسولها الذي أرسل إليها.

* * *

الاختصام بين الأمم والجماعات يوم القيامة

[٢٨٩] عن الزبير بن العوام رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾، قال الزبير رضي الله تعالى عنه: أي رسول الله أيُكَرَّرُ علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواطر الذنوب؟ فقال ﷺ: **«نعم ليُكَرَّرَنَّ عليكم حتى يؤدّى إلى كلّ ذي حقّ حقّه»**، قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

رواه أحمد (١/١٦٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٢٤) بتهذيبي،

والحاكم (٢/٤٣٥)، وقال الترمذي: حسن صحيح، وصححه الحاكم أيضاً ووافقه الذهبي.

هذا مشهد آخر من مشاهد موقف يوم القيامة ذلكم هو اختصام الأمم والجماعات والقبائل والأحزاب والدول والشعوب.

فكم من دولة هاجمت دولة أخرى ضعيفة فكانت فريستها، وكم من أمة خاضت حروباً طاحنة ظالمة راح ضحيتها آلاف وملايين القتلى والجرحى، وكم من جماعة قاتلت جماعة أخرى لأجل مصالح الحزب فسفكت دماء لا تحصى أكثرها من النساء والأطفال والضعاف الأبرياء، وكم من فرقة كفرت وبدعت وضلّلت فرقاً أخرى غيرها.

وهذه الملل الموجودة في كل العصور والأجيال تضلل بعضها بعضاً وكل حزب بما لديهم فرحون.

فكل هؤلاء سيحاسبون جماعات وأمماً على ما تخاصموا عليه، وسيختصمون بين يدَي الله في موقف الحساب وتقضي بينهم المحكمة الإلٰهية العادلة، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

قال تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

وفي أخرى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

ومن مشاهد الموقف بين يدَي الله يوم القيامة اختصام الضالين مع بعضهم بعضاً، فالأتباع والضعفاء من المشركين والمنحرفين يتهمون أسيادهم ورؤساءهم بإضلالهم وإكفارهم فيتبرأ بعضهم من بعض وتنقطع بينهم أسباب الكفر والضلال والتحابب، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ

﴿صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ. . .﴾ الآية.

فهذا مشهدٌ من تخاصُم القادة والأتباع الكل يرجع القول بعضهم إلى بعض ويتبرأ مما ينسب إليه بل يتبرأ السادة المتبوعون من أتباعهم عندما يشاهدون العذاب، ويود الأتباع أن لو كانت لهم رجعة إلى الدنيا فيتبرؤون هم الآخرون من ساداتهم أيضاً، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ۝ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

وتبرؤ القادة والسادة هنا من الأتباع يشمل حتى المؤمنين أتباع علمائهم وأئمتهم في اجتهاداتهم المخالفة للحق إذا أصرُّوا على تقليدهم مع تبيُّن خطإهم.

* * *

❋ بداية الحساب
أهم ما يُسأل عنه العبد

[٢٩٠] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»**.

رواه أحمد (٢/٥/٥٤/٥٥)، والبخاري في العتق (١٠٧/٧) وفي النكاح وفي مواضع، ومسلم (٢/٢١٣)، والترمذي (١٥٦٤) كلاهما في الجهاد.

قوله: «راعٍ» الراعي هو الحافظ المؤتمن. و«الرعية»: كل من يشمله حفظ الراعي.

والحديث يدل على أن كل من استرعاه الله شيئاً في الدنيا وأُسند إليه حفظ شيء ما، كان مسؤولاً عنه أمام الله تعالى يوم القيامة.

فهؤلاء الأربعة المنصوص عليهم كلهم رعاة لرعاياهم، فالإمام الذي أُسندت إليه الإمارة العامة هو حافظ لها وساهرٌ على جلب مصالحها ودفع مفاسدها فهو مسؤول عن ذلك أحفظ أمانته لهم أم ضيّعها، والرجل راع في زوجته وبنيه هل عدل فيهم وهل أحسن في تربية أولاده وحملهم مع أمهم على طاعة الله تعالى واتباع شريعته، أم أهملهم وضيّعهم وتركهم.

والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن تصرفاتها فيه وفي عرضها وفي شؤون بيتها.

والخادم راع كذلك في مال سيده ومخدومه هل حفظه وأصلحه أم ضيّعه وخان فيه، فلكل هؤلاء مسؤولية سيُسألون عنها في موقف القيامة، وهؤلاء الأربعة لا مفهوم لعددهم.

[٢٩١] فقد قال ﷺ: «**إن اللّهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عما استرعاه، حَفِظَ أم ضيّع حتى يُسألَ الرجلُ عن أهل بيته**».

رواه النسائي في عِشرة النساء من الكبرى (٣٧٤/٥)، والترمذي في الجهاد بعد رقم (١٥٦٤)، وابن حبان في صحيحه (٣٤٤/١٠) بسند صحيح على شرطهما عنده وهو من حديث أنس، فالمسؤولية ستكون في كل شيء وخاصة عن الشؤون العامة كالتعليم، وزعامة الأمة، وقيادتها، ودعوتها، والإشراف على وسائل الإعلام من الصحفيين، والمذيعين وغيرهم.

[٢٩٢] وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالى: ألم أجعل لك سَمْعاً، وبصراً، ومالاً، وولداً، وسخَّرتُ لك الأنعام، والحرث، وتركتُك**

ترأسُ وتَربَعُ، أفكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ قال: فيقول العبد: لا، فيقول الله تعالى له: اليوم أنساك كما نسيتَني».

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٤٨) وحسّنه وصححه.

[٢٩٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في حديث يأتي في شهادة الجوارح وفيه: «**فيَلقى العبدُ ربَّه فيقول: أي فُل ألم أُكرِمك، وأُسَوِّدك، وأزَوِّجك، وأسَخِّر لك الخيل، والإبل، وأذَرْكَ ترأس، وتربَع...**» الحديث.

رواه مسلم في الزهد (١٠٤/١٠٣/١٨) مطولاً، ويأتي.

هذه نعم وآلاء أنعم الله بها على الإنسان تفضلاً منه، وأمره أن يشكره عليها بعبادته والقيام بتكاليفه وسوف يسأله عنها، وقد ذكر لنا نبينا ﷺ هنا منها نحو عشر نِعَم، كل واحدة منها لا يستطيع الإنسان شكر واحدة منها ولو عُمِّر عُمُر نوح صائماً قائماً... وهي:

السمع والبصر والقلب، وما أعظمها من نعم، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

فسَيُسْأل العبد عن هذه الجوارح الثلاثة يوم القيامة لأنها أولاً: نِعَمٌ عظيمةٌ من الله عزّ وجل على العبد، ولأنها ثانياً: طريق الإيمان والعمل الصالح، والكفر والانزلاق، فالأُذن تسمع القرآن والعلم والأذان والذكر وكل ما يؤدي إلى الجنة، وتسمع الفواحش والخنا والكفر والكلام الساقط والأغاني الماجنة وجميع ما يوصل إلى النار.

والبصر ينظر إلى آيات الله في أرضه وسمائه وكواكبه وجباله وبحاره وأشجاره وأنهاره وقد يطلقه صاحبه في المحرمات ويكرر النظر به حتى يدخله مداخل الفتن.

أما القلب، فبه يعرف الله وهو مصدر الإيمان والتفكر في ملكوت السماوات والأرض، وهو الذي يفكر في الخير والشر ويهم بفعل الخيرات

والسيئات، وهو الذي إن صلح صلح سائر الجسد وإن فسد فسد سائر الجسد.

فيأتي السؤال يوم القيامة كالآتي: لماذا أصغيت إلى ما لا يحل لك سماعه فسمعت الكذب، والغيبة، والنميمة، وتجسست على الناس، ولماذا كنت تستمع إلى الأغاني الماجنة وتتلذذ بسماع كلام الفتيات...

ولماذا كنت تطلق بصرك فيما لا يحل لك من محاسن النساء الجميلات والنظر إلى العورات؟

ولماذا كنت تعزم على فعل السيئات وتعلق قلبك بحب ما لا يحل لك شرعاً من النساء الحسان، ولماذا كنت تكره ما يحبه الله، وتحب ما يبغضه الله؟

ثم يأتي السؤال عن المال من أين اكتسبته وأين أنفقته كما يأتي، وعن نعمة التزوج وما جعل تعالى في ذلك من الآيات والمنافع والمصالح، ثم نعمة السيادة بين الناس والرئاسة والزعامة، ثم تسخير المركوبات المتنوعة الفارهة وما أعطاه تعالى من الحراثة والزراعة التي بها قوام بنيته والمدد الذي به حياته، ثم ما كان يختص به الرئيس من ربع الغنيمة أو كما جاء في الإسلام من الصفى الذي يأخذه الإمام نيابة عن الرسول ﷺ.

فهذه النِعَم العظيمة كلها سيُسأل عنها الإنسان مؤمناً كان أم كافراً، هل قام بحقوقها وشكرها أم تمتع بها ثم كفر بشكر الله تعالى عليها؟

[٢٩٤] وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل عن عُمُره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل به، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»**.

رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٧)، وأبو نعيم في الحلية (٣٣٢/١٠) وحسّنه الترمذي وصححه، وله شاهد عن ابن مسعود رواه الترمذي وآخر عن معاذ رواه البزار والطبراني بسند صحيح.

هذه أمور خمسة مضت على الإنسان في حياته الأولى، وهذه هي التكاليف، إذ أن أكثر السؤال سيكون يوم القيامة من الله عزّ وجل عن العمر والشباب والعلم والمال والجسد. فلا يتقدم المرء يوم المحشر إلى مكان آخر أو مرحلة أخرى من مشاهد يوم القيامة حتى يسأل عن هذه الأشياء التي مرت به قبل.

فسيُسأل عن العمر أين قضاه وخاصة أيام الشباب فإنها مرحلة القوة، فأفضل الأعمال وأعلاها ما كانت في هذه الفترة التي هي مظنة الزلقات، والهفوات، ووقت الطيش واتباع الهوى والشهوات، وكان من قطعها في عبادة الله من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وهذا بخلاف ما إذا ضعف الإنسان وجاءت مرحلة الشيخوخة والهرم، فإن الطاعة في هذا الوقت وإن كانت عظيمة لكنها لا تصل لاستقامة أيام القوة وعنفوان الشباب.

وقد قدّمنا في الزهد حديث: **«اغتنم خمساً قبل خمس»**، فذكر منها: **«شبابك قبل هرمك»**.

أما العلم، فمسؤوليته عظيمة لأن صاحبه وارث النبي ﷺ، ودرجته عند الله فوق درجات سائر المؤمنين إذا عمل بمقتضى علمه، فإذا أمر ونهى غيره ونسي نفسه كان عند الله ممقوتاً وكان من أشد الناس عذاباً يوم القيامة وكان سؤاله شديداً عليه عند الله تعالى.

أما المال فإنه خطير وخطير، إذ أكثر الناس هَلْكى بسببه لأنهم لا يتورعون عن اكتسابه من المكاسب المحرّمة فهذا غاصب، وذاك مرابي، وثالث غاش مخادع، ورابع راشٍ ومرتشي، وخامس لص سارق، وسادس يجمعه من رواتب الدولة المجموع من المظالم المتنوعة، وهكذا، ثم لا يكتفون بجمعه من هذه المكاسب السافلة بل يزيدون في الطين بلة فيصرفونه في أنواع المحرمات والمشتهيات المحظورة والنزوات. . . والمصارف المحرمة، وكل ذلك سيُسأل عنه الإنسان بين يدَي الله تعالى في موقف القيامة.

فيا سعادة وبشرى مَن أطاع الله في ذلك، ويا خسارة ويا هلاك من اتبع هواه.

[٢٩٥] وعن الزبير رضي الله تعالى عنه لما نزلت: ﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

قال الزبير: يا رسول الله وأيُّ نعيم نُسألُ عنه وإنما هما الأسودان التمر والماء، قال: **«أما إنه سيكون»**.

رواه أحمد رقم (١٤٠٥)، والترمذي في التفسير (٣١٣٨)، وابن ماجه في الزهد (٤١٥٨) وهو حسن صحيح.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه بنحوه وفيه: **«وإنما هما الأسودان والعدوُّ حاضرٌ، وسيوفنا على عواتقنا»**، قال: **«إن ذلك سيكون»**.

رواه الترمذي في التفسير (٣١٣٩) بسند حسن.

[٢٩٦] وعنه أيضاً قال: قال النبي ﷺ: **«هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظِلٌّ باردٌ، ورُطَبٌ طيّبٌ، وماءٌ باردٌ»**.

رواه مسلم في الأشربة (١٣/٢١٠/٢١٤) مطولاً، وأبو داود في الأدب (٥١٢٨)، والترمذي في الزهد (٢١٨٨) وفي الاستئذان، والنسائي في الكبرى (٦/٥٢١)، وابن ماجه (٣٧٤٥) وهو مختصر من قصة ابن الهيثم مع رسول الله ﷺ وهو في الشمائل للترمذي مطولاً في باب ما جاء في عيش رسول الله ﷺ.

[٢٩٧] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ أول ما يُسأل عنه يوم القيامة ـ يعني العبدَ ـ من النعيم أن يُقالَ: ألم نُصِحَّ لك جِسْمَكَ، ونُرْوِكَ من الماء البارد»**.

رواه الترمذي في التفسير (٣١٤٠)، وابن حبان بالموارد (٢٥٨٥)، والحاكم (٤/١٣٨) بسند صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

هذه الأحاديث المذكورة كلها تدل على أن الإنسان سيُسْأَلُ عن كل ما تمتع به من نعيم في هذه الحياة بداية من الظل الوارف والماء البارد والتمر الحلو الطيب وصحة الجسم، فضلاً عما هنالك من جلائل النعم وسوابغها ظاهرها وباطنها التي يتنعم ويتمتع بها ويستغلها طوال حياته ليل نهار، وقد سخرها الله لنا وأمَدّنا بها وأسبغها علينا كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾.

وقال عزّ وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إلى غير ذلك مما جمعته وشرحته في دلائل التوحيد.

فقد أنعم علينا بنِعَم لا نستطيع حصرها ولا إحصاءها فضلاً عن القيام بشكرها كنِعَم السماوات والأرضين والشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والبحار والأنهار والرياح والسُحُب والأمطار، ونعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ونعمة البعثات الإلٰهية ونعمة الإيمان والإسلام ونعمة الهداية إلى الاستقامة ونعمة الزوجات ونعمة الأولاد ونعمة الآباء والأمهات ونعمة الإخوان والأخوات ونعمة الأصدقاء والأحبة، إلى غير ذلك مما يحيط بنا ويتعاقب علينا، فهذه النعم وأضعاف أضعافها سنُسأل عنها، إما سؤال امتنان وإكرام وإظهار لإسباغ نعمه تعالى على عباده المؤمنين الصالحين، وإما سؤال توبيخ وتقريع بالنسبة للكافرين وعصاة الموحدين. نعم هنالك أشياء وحالات لا يُسأل عنها الإنسان كحالته قبل التكليف أو أيام الهرم والخلل في العقل وحالة النوم والنسيان والخطأ والسهو وحديث النفس والعزم على المعصية، ولا هو مسؤول عما يقع بين الناس من الخصام والحروب والفتن ولا ما يصدر في الكون من زلازل وسيول ولا عن إساءة الآخرين سواء كانوا أقارب أم أباعد، فأمثال هذه الأشياء لا يُسأل عنها الإنسان.

* * *

❁ القصاص وأداء الحقوق وهو أول الحساب

[٢٩٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لتُؤدُّنَّ الحقوقَ إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**.

رواه أحمد (٢/٤١١/٢٣٥)، ومسلم في البر (١٦/١٣٦)، والترمذي (٢٢٤٠).

قوله: «يُقاد» أي: يُعْطى لها القوَد والقصاص. قوله: «الجلحاء» بفتح الجيم وسكون اللام هي الجماء التي لا قرن لها.

والحديث يدل على أن البهائم هي الأخرى ستحشر يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ والقصاص من القرناء للجماء ليس هو من قصاص التكليف، إذ لا تكليف على الحيوان بل هو قصاص مقابلة وإظهار للعدل الإلهي وإعطاء كل ذي حق حقه.

[٢٩٩] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ يوماً: **«أتدرون ما المُفلس؟»** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: **«إن المفلس مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناتُه قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطُرِحت عليه ثم يُطرح في النار»**.

رواه مسلم (١٦/١٣٥/١٣٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٨).

«المفلس»: بضم الميم وسكون الفاء. «فيقتص» أي: يأخذ منه حقه على وجه القصاص.

المفلس في الدنيا هو الذي أحاطت به الديون وجاءه الغرماء وليس له مال يقضي به ما عليه.

أما المفلس في الآخرة وهو المفلس حقيقة، هو من أحاطت به خطاياه

وحقوق العباد فيأتي يوم القيامة بجبال من الحسنات من جميع أنواع كبار القربات كالصلاة والصيام والزكاة... ولكنه يأتي معها بأضعافها سيئات وكبائر وفواحش من حقوق الناس كسفك دم، وأخذ مال بغير حق، وقذف الآخرين، وشتم غيره أو ضربه أو تضليله وتبديعه والنَيْل من عرضه فيحكم الله عزّ وجل حكمه العدل فيعطى كل ذي حق حقه من حسناته فإن نفدت حسناته طرحت عليه سيئات أهل الحقوق ثم ألقي في النار عياذاً بالله.

فهذا هو المفلس يوم القيامة الذي يجب عليه في الدنيا أن لا يتسبب في إفلاسه.

[٣٠٠] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن كانت عنده مظلمة لأخيه من عِرضه أو شيء منه فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهمٌ، إن كان له عملٌ صالحٌ، أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمِلَ عليه»**.

وفي رواية: **«رحم الله عبداً كانت لأخيه عنده مظلمة»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٨١) وفي المظالم (٦/٢٦)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٩).

«مظلمة»: بكسر اللام وفتحها، ما أخذه الظالم أو تعرض له. «من عرضه»: بكسر العين محل المدح والذم من الإنسان. وقوله: «فاستحله» أي: طلب منه أن يجعله في حِلٍّ من ذلك.

وفي الحديث عظم جرم المظالم من دماء وأموال وأعراض... وأنه يجب على المؤمن أن يستحل أصحاب الحقوق في الدنيا إذا أمكن له فإن تعذر عليه الأمر فليُكثر من الدعاء معهم والاستغفار لهم والتصدُّق عليهم قبل أن يأتي يوم ليس فيه دينار ولا درهم، وإنما هي الحسنات فيضطر أن يؤدي ما عليه من حسنات أعماله الصالحة إن كانت له، ثم يصبح صفر اليدين فيُطرح في النار.

[٣٠١] وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: جاء رجل فقعد بين

يدَي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي مملوكَيْن يَكْذِبونني ويخونونني ويعصونَنِي، وأشتُمُهم، وأضربهم، فكيف أنا معهم؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إذا كان يومُ القيامة يُحسَبُ ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتُصّ لهم منك الفضل»**، فتنحّى الرجل فجعل يهتف ويبكي فقال له رسول الله ﷺ: **«أما تقرأ قول الله تعالى:** ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾**»**، فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم أُشهِدُك أنهم كلهم أحرار.

رواه أحمد (٦/٢٨٠)، والترمذي في التفسير (٢٩٦٠) بتهذيبي، وسنده صحيح.

في الحديث خطورة المظالم وأنه لا بد وأن يقتص من كل من سبقت منه مظلمة شخص ما حتى ولو كان ذلك مما يملكه المرء كالعبيد والبهائم والحيوانات، فأحرى الأزواج والأولاد والإخوة والأخوات والآباء والأمهات... فالله عزّ وجل سيقيم الموازين العادلة التي توزن فيها الأعمال يوم القيامة فلا يُنْقَصُ مُحسنٌ من إحسانه ولا يُزاد على المسيء ما ارتكب من سيئاته، بل لو كان عملُ الإنسان مقدار زنة حبة خردل أو أقل من خير أو شر أُتي به وأُحضر للميزان كما في الآية الكريمة، ثم يقضي بين عباده ويقتص من بعضهم بعضاً ويبقى بعد ذلك عفو الله ورحمته.

* * *

❊ تكليم اللّه تعالى عباده كفاحاً بلا ترجمان

[٣٠٢] عن عدي بن حاتم رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«ما منكم من أحدٍ إلا سيُكلِّمه الله يوم القيامة ليس بينه وبينه ترجمان، ثم ينظر أيمن منه فلا يرى شيئاً، إلا شيئاً قدّمه، ثم ينظر أشأم منه فلا يرى**

شيئاً إلا شيئاً قدّمه، ثم ينظر تلقاء وجهه، وفي رواية: «**ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار**»، قال رسول الله ﷺ: «**مَن استطاع منكم أن يقي وجهه النار ولو بشِقِّ تمرةٍ فليفعل**».

رواه الطيالسي (٢٨١٥)، والبخاري في الزكاة وفي الرقاق (١٩٦/١٤)، ومسلم في الزكاة (١٠١/٧)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٣٥).

قوله: «ترجمان» بفتح التاء وضمها هو الناقل معنى الكلام من لغة إلى لغة. وقوله: «يقي وجهه» أي: يحفظ نفسه من النار. «ولو بشق» أي: نصف تمرة.

في الحديث بيان أن الله عزّ وجل سيكلم عباده فرداً فرداً بلا واسطة يترجم عنه، وأنه لا بد من الوقوف بين يديه تعالى من كل أحد، وليتصوّر الإنسان هذا المشهد الهائل وكيف يتحمل المثول بين يدَي الكبير المتعال، ولذلك يصير يلتفت يميناً وشمالاً وأمامه لفظاعة الموقف ورهبته، وفيه أنه لا ينفع الإنسان وقتئذ إلا ما قدّم من عمل صالح، كما أن فيه بيان أن الصدقة ولو بأقل شيء تحفظ صاحبها من النار.

* * *

❁ ما يكتب على العبد من حسنات وسيئات

[٣٠٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ فيما يروى عن ربه عزّ وجل قال: «**إن الله عزّ وجل كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك، فمَن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنةً كاملةً، فإن همّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة، ومَن همّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة**».

رواه البخاري في الرقاق (١١٢/١٠٦/١٤).

[٣٠٤] ورواه مسلم في الإيمان (١٤٨/١٤٧/٢)، والترمذي رقم

(٢٨٧٥)، والنسائي في الكبرى (٣٤٤/٦/٣٤٥) كلاهما في التفسير من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: إذا همّ عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن همّ بسيئة فلا تكتبوها فإن عملها فاكتبوها بمثلها فإن تركها،** وربما قال: **فإن لم يعمل فاكتبوها له حسنة**، ثم قرأ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا . . .﴾» الآية.

[٣٠٥] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله سيُخَلِّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر ثم يقول: أتُنكر من هذا شيئاً، أظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب ، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب**».

رواه الترمذي في الإيمان (٢٤٥٥)، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠)، وابن حبان (٢٥٢٤)، والحاكم (٦/١) وسنده صحيح، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي. ويأتي مطولاً.

«سيخلص»: بضم الياء وكسر اللام المشددة، أي: يميز ويختار، «سجلاً»: هو بكسر السين والجيم هو الكتاب الكبير.

في هذه الأحاديث بيان أن الله عزّ وجل يحصي على عباده كل ما يعملونه من خير وشر في صحف خاصة حتى يجتمع لبعض عباده من الذنوب عشرات السجلات.

وهذا الموضوع تتعلق به أمور:

أولاً: إن هناك ملائكة خاصين يسمون الحفظة، لكل إنسان ملكان منهم، أحدهما: عن اليمين يكتب الحسنات، والثاني: عن الشمال يكتب السيئات لا يفارقانه أبداً إلا في حالات خاصة. وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ

إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

«حبل الوريد»: عرق في العنق. وقوله: «رقيب» أي: من يراقبه. وقوله: «عتيد» أي: مُعَدٌّ حاضر مُهيَّأ للعرض. وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

فما في هذه الآيات نص في أن معنا حافظين كاتبين مراقبين لأعمالنا فيكتبان علينا الشاذة والفاذة، ثم يرفعان ما كتبا في الصحيفة كل يوم للّه عزّ وجل وهو أعلم بذلك.

[٣٠٦] كما قال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ: **«ما من حافظين يرفعان إلى الله عزّ وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى: قد غفرت لعبدي ما بين طرفَي الصحيفة»**.

رواه البزار رقم (٣٢٥٢) وسنده حسن إن شاء الله تعالى، فإن رجاله رجال الصحيح غير تمام بن نجيح فمختلف فيه. وانظر مجمع الزوائد (٢٠٨/١٠).

فهؤلاء الكتَبَة الكرام لا يفارقون أصحابهم إلا في حالات ثلاث كما في الحديث التالي:

[٣٠٧] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى ينهاكم عن التعرّي، فاسْتَحْيوا من ملائكة الله الذين معكم الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند ثلاث حالات: الغائط، والجنابة، والغسل. فإذا اغتسل أحدُكم بالعراء فليستتر بثوبه، أو بجرم حائط، أو بغيره»**.

رواه البزار أيضاً ورجاله رجال الصحيح.

وأعمال العباد رغم أن الملائكة الكرام مكلّفون بكتابتها في صحف يومياً فهي تعرض على الله كل يوم الاثنين والخميس زيادة على عرضها عليه كل يوم.

ثانياً: إذا كان يوم العرض في موقف القيامة جاء كل إنسان وفي عنقه كتاب أعماله التي أُحصيت عليه كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

فيجمع للإنسان عمله كله من خير أو شر في كتاب، فإذا كان يوم الحشر أخرج له منشوراً، أي: مفتوحاً، فيأخذه إما بيمينه أو بشماله كما يأتي، ويقال له: اقرأ كتابك، فيقرأ كل امرىء ما في كتابه مما عمله من أول عمره التكليفي إلى منتهى حياته.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: يا ابن آدم بُسِطتْ لك صحيفتُك، ووُكِّل بك ملكان كريمان، أحدهما: عن يمينك، والآخر: عن يسارك، فأما الذي عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذي عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل ما شئت، أقلِل أو أكثِر، حتى إذا متَّ طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة تلقاه منشوراً.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا من حسن كلام الحسن رحمه الله تعالى.

وعند ذلك يقال لهم: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾، أي: كانت ملائكتنا تكتب بأمرنا ما كنتم تعملون، وفي هذا المشهد يقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾، أي: عندما يوضع كتاب أعمالهم بجليلها وحقيرها بفتيلها وقطميرها ترى المجرمين الكافرين والمنافقين والمتهتكين خائفين مما قرؤوه من أعمالهم السيئة، وينادون يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرّطنا في أعمارنا، ما شأن هذا الكتاب لا يدع شاذة ولا فاذة إلا أحصاها وضبطها وحفظها، ووجدوا ما عملوا من كفر وفواحش وجرائم حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً فيزيد عليه أو ينقص من عمله، وكل ما تقدم

من التقريع والتوبيخ والتشديد في شأن كتاب الأعمال إنما هو في الكفار والمجرمين المسرفين المتمردين على الله، أما المؤمنون فسيجدون كتبهم ملأى بالحسنات فارغة من السيئات قد غفرت لهم بما قدّموا من أعمال صالحة كثيرة وعظيمة، ويكون علامةُ ذلك لهم أخْذَهم صحائفهم بأيمانهم كما يأتي.

ثالثاً: في وجود الملائكة معنا حاضرين ليل نهار يكتبون ما نعمل ولا نراهم ولا نشعر بوجودهم، هو من آيات الله العظمى ودليل قاطع على أن في هذا الوجود خلائق وعوالم يعيشون معنا لا نراهم ولا نعرف أشخاصهم وحقائقهم، ومنهم عالم الملائكة والجن، ولذا كان من كليات الإيمان الإيمان بالغيب الذي من جملته الملائكة والجن... فمن أنكر وجود الملائكة والجن كان كافراً لتكذيبه القرآن وما جاء به رسول الله ﷺ.

* * *

أول من يحاسب من الأمم، أمة خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ وشرف وعظم

[٣٠٨] عن أبي هريرة وحذيفة رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«نحن الآخِرون من أهل الدنيا، والأوّلون يوم القيامة المَقْضِي لهم قبل الخلائق»**.

رواه مسلم في كتاب الجمعة (١٤٤/٦).

[٣٠٩] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«نحن آخرُ الأمم، وأولُ من يُحاسَب، يقال: أين الأمة الأمّيّة ونبيُّها؟ فنحن الآخرون الأولون»**.

رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٩٠) بسند صحيح.

قوله: «آخر الأمم» يعني في الدنيا، فقد مرّت قبلنا تسع وستون أمة، فنحن خاتمة السبعين، كما جاء في حديث الترمذي وغيره، ونحن أفضل

الأمم وأكرمها على الله. راجع التفسير عند قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ من سورة آل عمران.

فالحديثان يدلان على فضل هذه الأمة وشرفها حيث إن الله عزّ وجل سينادي في المحشر على رؤوس الخلائق: **«أين الأمة الأمّية - يعني المحمدية - ونبيها ورسولها ﷺ»** فتتقدم وتحاسب قبل كل الأمم إكراماً لها ولطفاً ورحمة بها لمقام وفضل نبيها ﷺ.

فالأمة المحمدية لها أولويات فهي أول من تحشر، وأول من تحاسب، وأول من تمر على الصراط، وأول من تدخل الجنة كما يأتي.

* * *

❋ اول الناس قضاء وحساباً المراؤون المنافقون

[٣١٠] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه: رجلٌ استُشْهِدَ، فأُتي به فعرَّفه نِعَمَه فعرَفَها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشْهِدت، فقال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء فقد قيل، ثم أمر به فسُحِبَ على وجهه حتى أُلقِي في النار.**

ورجل تعلّم العلم وعلّمه، وقرأ القرآن فأُتي به فعرّفه نِعَمَه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلّمتُ العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلّمتَ العلم ليقال: عالِم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر فسُحِب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجلٌ وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأُتي به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفَقَ فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه ثم أُلقي في النار».

رواه أحمد ومسلم والنسائي، وقد تقدم لنا في الزهد والرقائق رقم (١٧٧).

فهذه الأصناف الثلاثة أول من يُوقَف بين يدَي الله ويُقضى عليهم، وهم أصناف من المرائين المنافقين الذين يظهرون للناس الأعمال الصالحة العظيمة ويبطنون النفاق والشرك والعمل لغير الله عزّ وجل، ويا خسارة من فضحه الله تعالى على مرأى ومسمع من الخلائق أجمعين.

* * *

أول ما يقضى بين العباد في حقوقهم في الدماء

[٣١١] عن عبدالله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يُقضَى بين العباد في الدماء».

رواه الطيالسي (١٤٦٢)، والبخاري (٢٠٦/١٥)، ومسلم (١٦٧/١٦٦/١١)، والترمذي (١٢٦٦)، والنسائي في «المجتبى» (٧٧/٧).

قوله: «في الدماء» أي: إراقتها وسفكها.

إن سفك دماء الأبرياء والقتل العمد من أكبر الكبائر وأعظم الذنوب عند الله تعالى وهو ثالث الجرائم والفواحش الكبرى، فأولها وأكبرها الشرك والكفر بالله تعالى، ثم ترك الصلاة، ثم يليها قتل النفس العمد.

ولعظمه كان أول ما يقضى فيه من حقوق العباد.

ولهذا جاء من التشديدات في ذلك ما تقشعر منه الجلود، فمن ذلك الحديث التالي:

[٣١٢] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجيءُ المقتولُ بالقاتل يوم القيامة ناصيتُه ورأسُه بيده، وأوداجُه تَشْخبُ دماً، فيقول: يا رب سَلْ هذا فيما قتلني؟ حتى يُدنيه من العرش»**.

رواه الترمذي في التفسير (٢٨٣٣)، والنسائي في تحريم الدم، وابن ماجه في الديات (٢٦٢١) بسند صحيح وأصله في الصحيحين.

قوله: «تشخب» بفتح التاء وضم الخاء، أي: تسيل.

* * *

❋ أول ما يحاسب به العباد من حقوق اللّه الصلاة

[٣١٣] وعن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أول ما يُحاسَبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله صلاتُه، فإن صلحَتْ فقد أفلح وأنجح، وإن فسدَتْ فقد خاب وخسِر، فإن انتقص من فريضته شيئاً قال الرب تبارك وتعالى: انظروا هل لعبدي من تطوُّع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك**».

رواه الترمذي (٣٧٠)، وأبو داود (٨٦٤/٨٦٥)، والنسائي (١/١٨٧)، وابن ماجه (١٤٢٥)، والحاكم (١/٢٦٣) كلهم في الصلاة، وهو صحيح لشواهده منها عن رجل.

رواه أحمد (٤/٦٥/٧٢/٣٧٧)، والحاكم (١/٦٣) بنحوه بسند صحيح.

[٣١٤] وعن تميم الداري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ بنحوه وفيه: «**ثم الزكاة مثل ذلك، ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك**».

رواه أحمد (٤/١٠٣)، وأبو داود (٨٦٦) بسند حسن، والحاكم، وصححه على شرط مسلم.

فهذه الأحاديث تدل على أن أولَ ما يسأل عنه العباد ويحاسبون عليه من حقوق الله الفرعية العملية الصلاة المكتوبة، فإن كانت تامة صالحة كان صاحبها ناجحاً مفلحاً، وإن كانت ناقصة أُتِمَّت له مما كان له من التطوع، ثم تأتي باقي الأعمال على هذا النمط من صيام، وزكاة، وحج... وبهذا

يعرف عظم الصلاة، والدماء، فتقديمهما في الحساب دون باقي الحقوق والتكاليف الشرعية يدل على أن لهما شأناً عظيماً عند الله تعالى.

* * *

❁ أحوال عصاة المؤمنين عند الحساب

[٣١٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسّحر، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»**.

رواه البخاري في الحدود وفي الوصايا وفي الطب، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في الوصايا، والنسائي في الوصايا أيضاً وتقدم.

[٣١٦] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأة المترجِّلة المتشبِّهة بالرجال، والدَّيُّوث»**.

رواه أحمد (٦٩/١٢٨/١٣٤/٢)، والنسائي في الكبرى (٢٣٤٣) وفي المجتبى، وابن حبان (٥٦) وهو حسن صحيح.

[٣١٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذّاب، وعائل مستكبر»**.

رواه مسلم (١١٥/٢) في الإيمان وتقدم في الأدب.

عرض الناس على الله عزّ وجل يوم القيامة وحسابهم ليس حالة واحدة وليسوا متساوين، فإن فيهم التقي الصالح، وفيهم المقتصد، وفيهم المؤمن الظالم لنفسه، وفيهم الكافر المتمرد على الله المُعْرِض عن آياته، ولكل صنف موقفه وحسابه.

أما الكافر فلا كلام عليه فأمره أعظم وأدهى مما يتكلم فيه.

وأما عصاة المؤمنين الذين ماتوا وعرضوا على الله وهم مصرُّون على كبائر الذنوب وترك فرائض الله عزّ وجل، فهؤلاء سيشدد عليهم ويحاسَبون حساباً عسيراً.

وأصناف هؤلاء كُثُرٌ جداً وما أوردنا من أحاديث نموذج منهم، فهنالك التاركون للتكاليف الشرعية من صلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وهنالك عصاة متمردون متهتكون كمتعاطي الربا وآكليه ومدمني الخمر والتجارة فيه، والعاقّين لوالديهم، والديّاثين الذين يقرُّون السوء على أهليهم، والنساء المتشبهات بالرجال والعكس، والمتبرجات من النساء، والمتكبرين، والغادرين، والنمّامين، والغاصبين، والشيوخ الزناة، والسحرَة والعرّافين، وآكلي مال اليتيم، ورامي المحصنات بالزنا، إلى غير ذلك من أهل الكبائر الذين جاءتهم مناياهم وهم غافلون مصرُّون على مجاهرة الله عزّ وجل بما فيه غضبه وسخطه، فهؤلاء سيحاسبون الحساب الشديد ويناقشون النقاش الدقيق ثم يكون مآلهم النار، إلا من رحم الله تعالى.

* * *

❁ حال الأتقياء عند العرض على الله تعالى وحسابهم

[٣١٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال: «**تقوى الله وحُسْنُ الخُلُق**».

رواه الترمذي في البر والصلة (**١٨٤٨**)، وابن حبان (**١٩٢٣**) وحسّنه الترمذي وصححه.

تقوى الله: هي ملاك الأمور ورأس مال المسلم وأهل التقوى هم السعداء الفائزون. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

والمتقون على درجات شتى وليسوا على درجة واحدة... وهم ممن يحاسبون حساباً يسيراً أو فيهم من لا يحاسب.

وهم في أمن وأمان يوم القيامة ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

[٣١٩] وعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله تعالى: وعزّتي وجلالي لا أجمع لعبدي أمنين، ولا خوفين، إن هو أمِنَنِي في الدنيا أخَفتُه يوم أجمعُ فيه عبادي، وإن خافني في الدنيا أمَّنته يومَ أجمعُ فيه عبادي»**.

رواه أبو نعيم في الحلية (٩٨/٦) بسند ضعيف جداً، ورواه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٧) عن الحسن البصري مرسلاً بسند صحيح، ووصله البزار وغيره عن أبي هريرة بسند حسن.

فمن خاف الله تعالى في الدنيا كان من الآمنين في الآخرة.

فأسعد الناس يوم القيامة في الحساب والعرض على الله تعالى المتقون حسب درجاتهم، ومنهم السبعة المظلّلون، والمتحابُّون في الله عزّ وجل، وعمّار المساجد، والمشاؤون إليها وخاصة في الظُّلَم، والمتوكلون على الله تعالى، وأهل الصبر على البلاء، وأهل القرآن العاملون به، وأهل الصدقات، والمجاهدون في سبيل الله، والشهداء بجميع أنواعهم، ومكثرو الذكر والصلاة على رسول الله ﷺ، والتائبون والمستغفرون وخاصة بالأسحار، والعلماء العاملون الربانيون، ومُنظِرُو المعسرين والمتجاوزون عنهم، والساعون في قضاء حوائج المسلمين والمصالح العامة، والمثابرون على قيام الليل، والكاظمون الغيظ، والعافون عن الناس، والدعاة إلى الله تعالى، إلى غير ذلك من أصناف الأتقياء.

وبالجملة فكل من لقي الله تعالى تائباً نقياً من الذنوب فهو ممن لا يحاسَب أو يحاسَب حساباً يسيراً.

* * *

❋ أصناف يدخلون الجنة بغير حساب

[٣٢٠] فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«عُرضتْ عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرَّهط، والنبي ومعه الرجلُ والرجلان، والنبي وليس معه أحدٌ، إذ رُفع لي سوادٌ عظيم فقلت: هذه أمتي، فقيل: هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفُقِ، فإذا سوادٌ عظيم، ثم قيل لي: انظر إلى هذا الجانب الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمّتُك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»**، ثم نهض النبيُّ ﷺ فدخل فخاض القوم في ذلك فقالوا: مَن هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ، وقال بعضهم: لعلهم الذين وُلِدوا في الإسلام ولم يُشركوا بالله شيئاً قط، وذكروا أشياء، فخرج النبي ﷺ فقال: **«ما هذا الذي كنتم تخوضون فيه؟»** فأخبروه بمقالتهم، فقال: **«هم الذين لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيّرون، وعلى ربهم يتوكلون»**، فقام عُكّاشةُ بن مِحْصن الأسدي فقال: أنا منهم يا رسول الله؟ فقال: **«أنت منهم»**، وفي رواية فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: **«أنت منهم»** ثم قام رجل آخر فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: **«سبقك بها عُكّاشة»**.

رواه أحمد (١/٢٧١)، والبخاري في الرقائق (١٤/١٩٨/٢٠٤)، ومسلم في الإيمان (٣/٩٣/٩٤).

[٣٢١] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ليدخلن الجنةَ من أمتي سبعون ألفاً ـ أو سبعُمائة ـ متماسكون آخذٌ بعضُهم بعضاً لا يدخل أولُهم حتى يدخلَ آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»**.

[٣٢٢] وعن عمران بن الحصين رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب»**، ثم ذكرهم.

[٣٢٣] وعن أبي هريرة نحوه.

رواهما مسلم في الإيمان (٣/٨٨/٩٠/٩٢).

[٣٢٤] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**وعدني ربي أن يُدخِل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعين ألفاً، وثلاث حَثَيات من حَثَيات ربي**».

رواه أحمد (٥/٣٥٠)، والترمذي (٢٢٥٨)، وابن ماجه (٤٢٨٦) كلاهما في الزهد وسنده صحيح.

في هذه الأحاديث أن الله تعالى اختصّ الأمة المحمدية بأن يدخل منها الجنة سبعين ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً أو سبعمائة ألف وأنهم سيدخلونها قبل كل أحد بلا حساب، ولا عتاب ولا عذاب، وهذه خصيصة لهذه الأمة ليست لأحد غيرها، وهؤلاء العشرات أو المئات الألوف امتازوا بالتنزُّه عن الرقية والاكتواء والتطيُّر مع التوكل على الله تعالى، وسيدخل الجنة مع هذا العدد الهائل بلا حساب أقوام لا يحصون كثرة، فيهم الصحابة من المهاجرين والأنصار، وفيهم أمم جاؤوا بعدهم من العلماء الربانيين، والقراء والمفسرين والمحدثين والأئمة والفقهاء والشهداء والمجاهدين وكثير من كبار العباد والزهّاد عبر العصور، الكل سيدخل الجنة مع الأولين بلا حساب إن شاء الله تعالى، يَقْدُمُهم نبيهم وحبيبهم وقائدهم رسول الإسلام سيدنا محمد بن عبدالله الهاشمي ﷺ، فيُسَاقونَ معه ﷺ إلى الجنة زُمَراً زُمَراً وجوههم في الإشراق والنضارة كالقمر ليلة البدر. اللهم اجعلنا منهم ومعهم.

* * *

❋ مشهد الحساب اليسير والعسير

[٣٢٥] عن سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس أحدٌ يُحاسَبُ يوم القيامة إلا هَلَك**»، فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العَرْضُ، وليس أحدٌ يُناقَشُ الحسابَ يوم القيامة إلا عُذِّب**»، وفي رواية: «**إلا هلك**»، وفي رواية: «**مَن نوقش الحسابَ عُذِّب**».

رواه البخاري في العلم وفي التفسير وفي الرقاق (١٤/١٩١/١٩٣)، ومسلم في الجنة باب إثبات الحساب (١٧/٢٠٨)، وأبو داود في الجنائز (٣٠٩٣)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٤٦) وغيرهم.

«نوقش الحساب»: المناقشة في الحساب هو الاستقصاء والتدقيق في المحاسبة، والمطالبة بالجليل والحقير، وترك المسامحة.

وقوله: «ذلك العرض» أي: تعرض أعمال المؤمنين على الله تعالى حتى يعرف العبدُ مِنَّةَ الله عليه في سِتْرِها عليه في الدنيا وفي عَفْوه عنها في الآخرة كما يأتي. وقوله: «مَن نوقش هلك أو عُذِّب» قال عياض: له معنيان: أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ، والثاني: أنه مفضٍ إلى العذاب بالنار، ويؤيد قوله: **«هلك»** مكان **«عُذِّب»**.

قال النووي رحمه الله تعالى: وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب على العباد، فمَن استقصى عليه ولم يُسامَح هلك ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما عدا الشرك لمن يشاء.

والحديث يدل على وقوع الحساب يوم القيامة، وهو أمر لا مرد له من الله، فيحاسب جميع عباده الذين سيفوقون المليارات بل البلايين في أسرع وقت مما لا تتخيله عقولنا.

وفي القرآن الكريم عدة آيات تخبر بالحساب وسرعة الله تعالى فيه.

كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾.

وقوله جلّ ذكره: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقوله عزّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

إلى غير ذلك من الآيات على وقوع الحساب من الله لعباده وإنه سيقع سريعاً.

وفي مشهد الحساب سيكون الناس أصنافاً أربعة:

أحدهم: مَن كانت له حسنات وسيئات ورجحت حسناته على سيئاته، فهذا قد يلام ويعاتب ولكنه لا يعذب.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾، فالآيتان تشملان أيضاً من كانت له حسنات وسيئات.

ثانيهم: مَن استوت حسناتهم وسيئاتهم فهؤلاء سيُحاسبون ويُعاتبون على ما قدّموا ثم يُعاقبون بحبسهم على سور الأعراف مدة بلا عذاب ثم يدخلون الجنة إن شاء الله، وفيهم جاء قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ...﴾ الآيات.

ثالثهم: الذين رجحت سيئاتهم على حسناتهم أوَلم تكن لهم حسنات غير الإيمان، فهؤلاء ممن سيُحاسبون الحساب العسير كلٌ بحسب أعماله السيئة وستخف موازينهم، وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم...﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾.

رابعهم: من لا سيآت لهم فهؤلاء هم المقربون من أنبياء الله ورسله ومن كانوا على قدرهم وساروا على آثارهم ممن يدخلون الجنة بلا عتاب ولا حساب إن شاء الله تعالى.

وسيأتي عند الميزان مَن يؤتى كتابه بيمينه أو بشماله.

* * *

عرض ذنوب العبد عليه ثم العفو عنه

[٣٣٦] عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما في حديث النجوى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُدنَى المؤمنُ من ربه حتى يضعَ عليه كنفه فيُقَرِّرُه بذنوبه: تعرف ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أعرف ربي، ـ مرتين ـ،

فيقول: سترتُها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم، ثم تُطوى صحيفةُ حسناته، وأما الآخرون أو الكفار أو المنافقون فيُنادى بهم على رؤوس الخلائق: ﴿هَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾».

رواه البخاري في تفسير سورة هود (٤٢٤/٩) وفي المظالم وفي مواضع، ومسلم في التوبة (٨٧/١٧)، والنسائي في الكبرى (٣٦٤/٦)، وابن ماجه (١٨٣).

«النجوى»: كلام السر بحيث يُسمِعُ الإنسانُ نفسَه، والمراد بها هنا مناجاة الله تعالى عبادَه المؤمنين يوم القيامة. وقوله: «كَنَفَه» بفتحات، أي: ستره وعفوه.

والحديث تتجلى فيه رحمة الله تعالى بعبده المؤمن يوم القيامة حيث سيضع عليه ستره ويناجيه ويقرّبه إليه ثم يقرره بما سلف له من ذنوبه ويعرضها عليه حتى إذا عرفها واعترف بها وظنّ أنه هالك عفا عنه تعالى وغفرها له فضلاً منه ورحمة به، بينما الكافر والمنافق وأشباههما من الطغاة والظلَمة والمتمردين على الله سيُعرضون عليه تعالى ويقول الأشهاد من الملائكة والأنبياء: هؤلاء المفترون الذين كذبوا على الله في زعمهم أن له شريكاً معه، فيقال لهم: ألا لعنة الله ـ وخزيه ـ على الظالمين الأفاكين.

[٣٢٧] وعن أبي ذر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعلمُ آخرَ أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخرَ أهل النار خروجاً منها: رجلٌ يؤتى به يوم القيامة فيُقال: اعرضوا عليه صِغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فيُعرضُ عليه صغارُها، فيقال له: عملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملتَ يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن يُنكر وهو مُشفق من كبار ذنوبه أن تُعرَض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: ربِّ قد عملتُ أشياء لا أراها هاهنا»** قال: فلقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه.

رواه مسلم آخر الإيمان (٤٧/٣) والترمذي في صفة جهنم (٢٤/٥) وحسّنه وصححه.

هذا مشهد آخر من مشاهد عفو الله بعد عرض الذنوب الصغار على عبده ثم تبديلها حسنات مع إخفاء كبيرها عنه.

وفي الحديث بيان ما جبل عليه الإنسان من التحايل ولو مع رب العالمين.

* * *

معاتبة الله تعالى عبده على تقصيره في الدنيا

[٣٢٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله عزّ وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعُده؟ أما علمت أنك لو عُدتَه لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعَمْتُكَ فلم تُطْعِمْني، قال: يا رب وكيف أُطْعِمُك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تُطعمه؟ أما علمتَ أنك لو أطعمتَه لوجدتَ ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتُك فلم تسْقِني، قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيتَه وجدتَ ذلك عندي»**.

رواه مسلم في البر والصلة باب عيادة المريض (١٦/١٢٥/١٢٦).

قوله: «لوجدتني عنده» قال العلماء: أي: لوجدت ثوابه كما في الجملتين الأخيرتين: **«لو أطعمته لوجدت ذلك عندي» «لو سقيته وجدت ذلك عندي»**، فإن معنى ذلك لوجدت ثواب ذلك عندي يوم الحساب.

وفي الحديث معاتبة الله تعالى عبده يوم القيامة على تقصيره في الدنيا وتكاسله وإعراضه عن التقرُّب إلى الله تعالى بأنواع القربات النافلة منها والواجبات، وخاصة ما هو مذكور في هذا الحديث مما عوتب العبد عليه من عيادة المريض، وإطعام ذي الحاجة، وسقي العطشان، فإن هذه الأشياء لها شأن في الإسلام وأجر عظيم لمن فعلها.

* * *

شهادة الجوارح على الإنسان يوم القيامة

[٣٢٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «**هل تدرون ممّ أضحك؟**»، قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**من مخاطبة العبد ربّه، يقول: يا رب ألم تُجِرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فإني لا أجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيُختَمُ على فيه فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتَنطِق بأعماله، قال: ثم يُخلّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعداً لَكُنّ وسُحقاً فعنكُن كنتُ أناضل**».

رواه مسلم في الزهد (١٠٤/١٧/١٠٥)، والنسائي في الكبرى (٥٠٨/٦).

قوله: «لأركانه» أي: جوارحه. وقوله: «أناضل» أي: أدافع وأجادل. وقوله: «سُحقاً» هو معنى بُعداً.

والحديث يدل على أن الله عزّ وجل سيُنطق جوارح الإنسان الكافر فتشهد على ما عمل في الدنيا، وبهذا نطق القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ. . .﴾ إلخ، وقوله عزّ وجل: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَـٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ . . .﴾ إلخ.

فهذه الآيات مع الحديث صريحة في تكلُّم الجوارح يوم القيامة وشهادتها على الإنسان بكل ما عمل.

ونطقها ليس بغريب ولا بعجيب من قدرة الله تعالى، فإن الله الذي خلقها وأنطق الإنسان وعلّمه البيان هو الذي أنطق تلك الأعضاء والجلود إقامة للحجة على أصحابها.

فالعجب من ملاحدة العصر وغيرهم الذين ينكرون مثل هذا ويهزؤون

أي: لا يضر بعضكم بعضاً ولا تتضايقون وتتنازعون في رؤيتهما كذلك ترون الله تعالى. وقوله: «الظهيرة» هي شدة الحر وقت الظهر. وقوله: «أي فل» هو منقوص من فلان وليس مرخماً. وقوله: «أُسَوِّدْك» أي: جعلتك سيداً في قومك. وقوله: «تربع» أي: تأخذ ربع الغنيمة كما كانت عادة الجاهلية. وقوله: «ههنا إذاً» أي: قف ههنا حتى تشهد عليك جوارحك حيث كذبت وادعيت ما لم تكن تُخْلِصُ فيه لله تعالى.

وفي الحديث فوائد وأهمها أربعة:

أولاً: فيه إثبات النظر إلى الله عزّ وجل في عرصات القيامة، ولا خلاف في ذلك بين أهل السنّة، ولذلك أدلة كثيرة يأتي بعضها في موضعها.

ثانياً: فيه مكالمة الله تعالى الكافرين والمنافقين وتذكيره تعالى إياهم بما أنعم عليهم في الدنيا من التكريم، والتسوية، والتزويج، والترئيس، وما منحهم من أنواع المركوبات وما متعهم به مما لا يستطيعون إنكاره.

ورغم ما أغدق عليهم من آلاء جلائل، وأسبغ عليهم من نِعَم ظاهرة وباطنة كفروا به وبرسله وبلقائه، ولذلك فإنه سيصليهم دار عذابه ويدعهم فيها كالمنسيين ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

ثالثاً: فيه كسابقه شهادة الجلود والعظام على الكافر والمنافق قطعاً لأعذارهما وإقامة للحجة عليهما عياذاً بالله من ذلك.

رابعاً: الحديث يدل على ثبوت حساب الكفار والمشركين والمنافقين كالمؤمنين.

* * *

✽ حساب الكفار والمشركين

[٣٣٩] وقد اختلف العلماء من المفسرين وغيرهم في حساب الكفار، فذهب بعضهم إلى أنهم لا يُحاسبون لأنهم ليست لديهم حسنات يعتدون بها فليس لهم إلا الكفر وكبار الذنوب، واستدل هؤلاء بالآتي:

ويسخرون ممن يؤمن بذلك ويعتقده. وها هم أولاء يشاهدون في الدنيا تكلُّم الجمادات بداية من الراديو، فالتلفاز، فالمسجلة، وغير ذلك مما أصبح عادياً في حياة الناس.

ومثل حديث الباب ما في الحديث التالي:

* * *

❊ مكالمة اللّه الكفار يوم الحشر وتذكيره إياهم وتقريرهم بما انعم عليهم في الدنيا من آلاء

[٣٣٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: **«هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس في سحابة؟» قالوا: لا، فقال: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس في سحابة؟» قالوا: لا، قال: «فوالذي نفسي بيده لا تُضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما فيلقى العبدُ ربَّه فيقول: أي فُلْ، ألم أُكرمك، وأُسَوِّدك، وأزوِّجك، وأسخِّر لك الخيل، والإبل، وأذرك ترأس، وتربع؟ فيقول: بلى يا رب، فيقول: أظننتَ أنك مُلاقِي؟ فيقول: لا، فيقول: فإني أنساك كما نسيتني، ثم يلقى الثاني فيقول: أي فُل ألم أكرمك، فذكر مثله، ثم يلقى الثالث، فذكر مثله، فيقول: أي رب آمنت بك، وبكتابك، وبرسولك، وصلّيت، وصمت، وتصدّقت، ويثني بخير ما استطاع، فيقول: ههنا إذن، ثم يقول: الآن نبعث شاهداً عليك فيتفكر في نفسه مَن ذا الذي يشهد عليه؟ فيختم على فيه، ويقال لفخذه انطقي، فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه وذلك المنافق، ذلك الذي يسخط الله تعالى عليه»**.

رواه مسلم في الزهد (١٨/١٠٣/١٠٤)، ورواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٤٨) مختصراً عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما وحسّنه وصححه.

قوله: «تضارون» بضم التاء وتخفيف الراء من الضير. وتشديدها،

قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ أي: لا يعتدون بما عملوا من خير في الدنيا.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾.

فالآيتان وأمثالهما، تشير إلى أنه تعالى لا يحاسبهم على أعمالهم التي قدّموها، فهي بمثابة من يرى السراب في الأرض المستوية يظنه العطشان ماء فإذا جاءه لم يجد شيئاً مما كان يظنه، فالكفار لا يحتاج إلى حسابهم بل بعد عرضهم على الله تعالى يؤمر بهم إلى النار.

وذهب الجمهور وهو الصحيح أنهم سيُحاسبون على ما قدّموا من الكفر والذنوب وعلى ترك الإيمان وشرائع الدين كما جاءت بذلك نصوص الشرع كحديث الباب والحديث السابق قبله في شهادة الجوارح فإن سياقيهما جاءا في الكفار والمنافقين وكذلك الآيات الآتية:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

وقوله تعالى في اليهود والنصارى: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى في النصارى: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

فالآيات تدل على أن هناك نداءً من الله وسؤالاً وجواباً وتقريراً على جميع أعمالهم مع الحكم عليهم وهذا هو الحساب، والآيات الدالة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم.

أما استشكال قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

وقوله جلّ علاه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وادعاء معارضتهما لآيات السؤال، فأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة أربعة:

أولاً: أنهم لا يسألون سؤال شفاء وراحة وإنما يسألون سؤال توبيخ وتقريع لَمَ عملتم كذا وكذا.

ثانياً: أنهم لا يسألون سؤال استفهام بل يسألون سؤال تقرير لأن الله تعالى حفظها عليهم وكتبتْها ملائكتُه الكرام.

ثالثاً: أنهم يسألون في موطن ولا يسألون في موطن آخر لأن للقيامة مواطن ومشاهد مختلفة، ففي موطن لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ثم يؤذن لهم في الكلام فيتكلمون فيقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل. فإذا أذن لهم في الكلام تكلموا واختصموا.

قال تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

رابعاً: معنى عدم السؤال سؤال التعرف ليتميز المؤمنون من الكافرين لأن ذلك لا داعي له لأن المؤمنين سيكونون معروفين بنضارة الوجوه، والكفار معروفين بسود الوجوه وزرق العيون. والله تعالى أعلم.

* * *

الميزان ووزن الأعمال

[٣٣٢] عن سلمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يوضعُ الميزانُ يوم القيامة فلو وُزِنَ فيه السماواتُ والأرضُ لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزِنُ هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئتُ من خلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك، ويوضع الصراط مثل حد**

الموسى فتقول الملائكة: مَن تُجيزُ على هذا؟ فيقول: من شئتُ من خلقي، **فيقولون: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك».**

رواه الحاكم في كتاب الأهوال (٥٨٦/٤) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

والمسيب بن زهير وإن كان مجهول الحال فإن له طريقاً آخر رواه الآجري في الشريعة رقم (٣٨٢) بسند صحيح وهو وإن رواه موقوفاً فإنه مرفوع حكماً.

[٣٣٣] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه كان دقيق الساقين فجعلت الريح تلقيه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «**ممّ تضحكون؟**» قالوا: يا نبي الله من دقة ساقَيْه، قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لهُما أثقل في الميزان من أُحُدٍ**».

رواه أحمد في المسند (٢١/٢٠/١) وسنده جيد قوي كما قال ابن كثير، بل سنده صحيح.

[٣٣٤] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله سَيُخَلِّصُ رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر الله تعالى عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجِلٍ مدَّ البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبَتي الحافظون؟ قال: لا يا رب، فيقول: ألك عذر أو حسنة؟ فيبهت الرجل فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: أحضروه، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل شيء مع اسم الله تعالى**».

رواه أحمد (٢١٣/٢)، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم وغيرهم بسند صحيح، وانظر ما سبق رقم (٣٠٥).

[٣٢٥] وعنه في رواية: قال رسول الله ﷺ: **«توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة فيوضع ما أحصى عليه فيتمايل به الميزان،** قال: **فيبعث إلى النار،** قال: **فإذا أدبر صاح صائح من عند الرحمٰن تبارك وتعالى يقول: لا تعجلوا لا تعجلوا فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها: لا إلٰه إلا الله، فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان».**

رواه أحمد (٢/٢٢١).

دلت هذه الأحاديث على أمور:

أولاً: ثبوت الميزان يوم القيامة وأنه ميزان حقيقي توزن فيه الحسنات والسيئات، وبهذا قال أهل السنة. ويدل لوجوده آيات من القرآن كهذه:

قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ الآية.

قال العلماء: الذي عليه أئمة السلف والخلف أنه ميزان واحد وإنما جمع في هذه الآيات باعتبار تعدد الأعمال الموزونة به.

ثانياً: فيها دليل على أن للميزان كفَّتين: كفة للحسنات، وكفة للسيئات، لقوله في حديث سلمان: **«فتوضع الموازين فلو وزن فيه السماوات. . .»** إلخ، وقوله في حديث ابن مسعود: **«لهما أثقل في الميزان من جبل أُحد»** وقوله في حديث ابن عمرو في حديث البطاقة: **«فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة»**، وقوله في حديثه الثاني: **«حتى يميل الميزان. . . فيوضع في كفة».**

فهذه كلها تدل على أن للميزان كفَّتين: كفة توضع فيها الحسنات والأخرى السيئات، وتأتي أحاديث أخرى قريباً تدل على ذلك أيضاً.

ثالثاً: اختلف العلماء ما الذي يوزن، هل الأعمال والأقوال أم الصحف أم أصحابها؟ وظواهر النصوص الشرعية أن الوزن سيكون للجميع كما يتضح من الآتي:

[٣٣٦] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«كلمتان حبيبتان إلى الرحمٰن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»**.

رواه البخاري آخر الصحيح (٣٢٧/٣٢٦/١٧) وفي الدعوات وغيرهما، ومسلم في الذكر (١٩/١٧)، والترمذي في الأدعية، والنسائي، وابن ماجه.

فهذا يدل على أن الأقوال والأعمال هي التي توزن لقوله: **«ثقيلتان في الميزان»**.

وتقدم في حديث ابن مسعود قوله ﷺ في ساقَيْ ابن مسعود: **«والذي نفسي بيدي لهما أثقل في الميزان من أُحد»**، فهو دال على أن الأجسام توزن.

قال البخاري في صحيحه: **«ونضع الموازين القسط ليوم القيامة»**: إن أعمال بني آدم وأقوالهم توزن.

وتقدم في الدعوات حديث أبي مالك الأشعري: **«والحمد للّه تملأ الميزان»**.

رواه مسلم مطولاً، فهذا يدل أيضاً على أن الأعمال والأقوال هي التي توزن.

[٣٣٧] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة»** وقال: **«اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»**.

رواه البخاري في التفسير.

فهذا يدل على أن أصحاب الأعمال هم الذين يوزنون، كما تقدم في

حديث ابن مسعود وحديث عبدالله بن عمرو المتقدم في البطاقة، يدل على أن الصحف هي التي توزن، كما أن حديثه الآخر يدل على أن صاحب الأعمال هو الذي يوزن مع أعماله لقوله: **«فتوضع مع الرجل في كفة حتى يميل به الميزان»**.

والذي صححه العلماء ورجحوه هو أن الصحف هي التي توزن بما فيها من حسنات وسيئات.

رابعاً: هنالك أعمال وأقوال يثقل بها الميزان نقتصر منها على الآتي:

[٣٣٨] فعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حسنٍ، فإن الله ليُبْغِضُ الفاحشَ البذيء»**.

رواه الترمذي في البر والصلة (١٨٤٦)، وأبو داود (٤٧٩٩)، وابن حبان (١٩٢٠/١٩٢١)، وحسّنه الترمذي وصححه.

[٣٣٩] وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **« ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حُسْنِ الخُلُق، وإن صاحبَ حُسْنِ الخُلُق لَيَبْلُغُ به درجة صاحب الصوم والصلاة»**.

رواه الترمذي (١٨٤٧) بسند حسن، والبزار بسند جيد.

[٣٤٠] وعن مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ ما أثقلهُنَّ في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحانَ الله، والحمدُ للّه، والولد الصالح يتوفى فيحتَسِبُه والدُه»**، وقال: **«بَخٍ بَخٍ لخمس، مَن لقي الله مستيقناً بهن دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة، والنار، وبالبعث بعد الموت والحساب»**.

رواه أحمد (٤٤٣/٣) بسند صحيح رجاله رجال الصحيح كما في المجمع (٨٨/١٠).

فهذان الحديثان يدلان على أنه يوجد في أنواع القربات ما هو ثقيل في

الميزان يوم القيامة، ومن ذلك الخلق الحسن ومعاملة الناس بالجميل ولين الجانب والرفق والحلم والعفو وتحمُّل الأذى.

كما أن ذكر الله عزّ وجل من التهليل، والتحميد، والتسبيح، والتكبير من أثقل شيء في الميزان لأن اسم الله لا يُثقله شيء.

وإذا كان مطلق ذكر الله أثقل شيء في الميزان، فلا شك أن قراءة القرآن وخاصة مع التدبُّر سيكون أثقل شيء في ميزان صاحبه.

خامساً: إن الأعمال والأقوال التي صدرت من الإنسان في الدنيا وهي أعراض ومعاني ستأتي يوم القيامة مجسَّمة كما يشاء الله تعالى القادر على ما يريد.

[٣٤١] فقد قدّمنا في الدعوات حديث: «**اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ـ أو غيايتان ـ أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما...**» الحديث وهو في صحيح مسلم.

[٣٤٢] وفي الحديث الآخر عنه ﷺ: «**يُؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدُمُهم سورة البقرة وآل عمران...**» الحديث.

رواه مسلم في فضائل القرآن من كتاب الصلاة.

وهكذا جاء في أعمال أخرى جاءت بها عدة أحاديث نبوية.

وتُجَسُّمُ الأعراض والمعاني يوم القيامة لا ينكره إلا ملحد أو ضعيف الإيمان أو فيلسوف مادي أو جاهل بالإسلام.

سادساً: طبقات الناس في وزن الأعمال ثلاثة: متقون، ومخلطون، وكافرون:

الطبقة الأولى: المتقون والذين جاءتهم مناياهم ولا كبائر لهم،

فهؤلاء توضع حسناتهم في الكفة النيِّرة ويثقل ميزانهم وترتفع كفة السيئات.

الطبقة الثانية: الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فماتوا ولهم حسنات وسيئات كبائر وصغائر تُوُفُّوا عنها ولم يتوبوا ولم تغفر لهم، فهؤلاء توزن سيئاتهم وحسناتهم، فإن رجحت حسناتهم ولو بحسنة واحدة دخلوا الجنة، وإن رجحت سيئاتهم على حسناتهم ولو بسيئة دخلوا النار إلا أن يعفو الله عزّ وجل.

وإن تساويا كان من أصحاب الأعراف فيوقف على سور بين الجنة والنار مدة ثم يعفو الله تعالى عنه فيُدخله الجنة كما جاء مفصَّلاً في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ الآيات. وقد ذكرتهم مع من سبق في رسالتي: (مع السابقين إلى الجنة بلا عتاب ولا عقاب) فانظره تستفد.

الطبقة الثالثة: الكفار على اختلاف كفرهم فهؤلاء ليس لهم إلا الكفر والذنوب فيوضع ذلك في كفة السيئات المظلمة فتثقل ولا تقبل منهم أي حسنة، بل تبقى كفة الحسنات فارغة ثم يُسحبون على وجوههم في النار فيُعذَّبون على كفرهم وعلى ذنوبهم كلٌّ بحسبه.

سابعاً: اختلف العلماء رحمهم الله في وقت استلام الصحف أو تطايرها حتى يستلم كل امرىء صحيفته إما بيمينه أو شماله أو وراء ظهره، وهل هما كتابان لكل إنسان أم هو كتاب واحد؟ والظاهر أنه كتاب واحد وهو الذي يكون عند بداية العرض على الله تعالى فيكون لكل إنسان كتاب في عنقه قد أحصي فيه كل ما عمله في الدنيا من خير أو شر، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

ويقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

ففي هذا الكتاب سيجد المرء كل ما قدّمت يداه ويقرأ فيه كل ما عمل من حسنة وسيئة كبيرها وصغيرها، وفي هذا المشهد يُحاسِبُ كل إنسان نفسه ويتعجب المجرمون مما في كتبهم حيث لم يدع لهم كبيرة ولا صغيرة إلا أُحصيت عليهم ووجدوا ما عملوا حاضراً بين أيديهم، ولا يظلم ربك أحداً.

فإذا عُرضوا على الله تعالى العرضة الأخيرة ووُزنت أعمالهم تطير الصحف في الأيدي، فمنهم من يأخذها بيمينه ومنهم من يأخذها بشماله، ويكون ذلك علامة على السعادة والشقاوة، وبعد هذا يقع الحساب.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

فأخبر تعالى بأن الحساب سيكون بعد أخذ كل إنسان كتابه الذي وزنت فيه أعماله، فمَن أخذه بيمينه طار فرحاً لأنه يعلم أن الله سيحاسبه حساباً يسيراً، أي: سهلاً ليناً، وهو العرض كما قدّمنا، فيقول كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾...﴾ الآية، وأما من أخذه بشماله فسيُحاسَب حساباً عسيراً شديداً فيُناقَشُ في الفذة والشاذة، ثم ينادي بالثبور ويقول كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾...﴾ الآية.

هذا ما اخترناه بأن أخذ الصحف الدالة على السعادة أو الشقاوة سيكون بعد الميزان وقبل الحساب لظاهر الآية الأولى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾...﴾ إلخ.

والله أعلم بالحقيقة فإن مشاهد يوم القيامة من عالم الغيب ومن الأمور التي هي فوق مستوى عقولنا فلا نقطع بما ذكرنا ولا بما قال غيرنا.

* * *

[٣٤٣] عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: ذكرت النار فبكيتُ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يُبكيكِ؟**» قلت: ذكرت النار فبكيتُ، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: «**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخفُّ ميزانُه أم يثقل؟ وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه، أم في شماله، أم من وراء ظهره؟ وعند الصراط إذا وُضع بين ظهرَيْ جهنم حتى يجوز**».

رواه أبو داود في السنة رقم (٤٧٥٥)، ورواه أحمد (٦/١١٠) بسياق آخر، ويأتي لنا في الصراط.

والحديث وإن كان في سنده ابن لهيعة وأمره معروف فإنه يحسن للحديث التالي في الجملة.

[٣٤٤] فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: «**أنا فاعل إن شاء الله تعالى**»، قلت: فأين أطلبك؟ قال: «**أول ما تطلبني على الصراط**»، قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟ قال: «**فاطلبني عند الميزان**»، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «**فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطىء هذه الثلاث المواطن**».

رواه أحمد (٣/١٧٨)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٥٤) بسند صحيح، ويأتي الكلام على فقه هذا الحديث في الشفاعة.

إن خطر الميزان والحساب عظيم وعظيم، إذ عندهما تظهر نتيجة حال الإنسان فتوزن جميع أعماله وأقواله وزناً دقيقاً عادلاً ولا يُترك له قول ولا عمل إلا وزن له، ويشاهد كل ذلك بنفسه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾.

فإن ثقلت موازينه فاز وسعد وتلقى كتابه بيمينه وحوسب حساباً يسيراً،

وإن خفّت موازينه أوتي كتابه بشماله أو وراء ظهره، وكان من الخائبين الخاسرين وسيُحاسب الحساب الشديد.

قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

وقال جلّ علاه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾...﴾.

* * *

الصراط والمرور عليه

[٣٤٥] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذن: لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار، حتى إذا لم يبقَ إلا مَن كان يعبد الله من بَرٍّ وفاجر وغير أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزيراً ابن الله، فيقال: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة، ولا ولد فماذا تبغون؟ قالوا: عطشنا يا ربنا فاسقنا، فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار.**

ثم يدعى النصارى فيقال لهم: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال لهم: كذبتم، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد، فيقال لهم: ما تبغون؟ فيقولون: عطشنا يا ربنا فاسقنا، قال: فيشار إليهم ألا تردون؟ فيُحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبقَ إلا مَن كان يعبد الله تعالى من بَرٍّ وفاجر، أتاهم رب العالمين سبحانه وتعالى في أدنى صورة من التي رأوه فيها، قال: فماذا تنظرون؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد، قالوا: يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا

أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً - مرتين أو ثلاثاً - حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب، فيقول: هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، فيكشف عن ساق، فلا يبقى من كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود، ولا يبقى مَن كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله تعالى ظهره طبقة واحدة، كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه، ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيه أول مرة فقال: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا.

ثم يُضرب الجسر على جهنم، وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلّم سلّم، قيل: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: دَحْضٌ، مَزِلَّةٌ، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك، تكون بنجد، فيها شُوَيْكةٌ يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، وكالبَرْق، وكالريح، وكالطير، وكأجاويد الخيل، والركاب، فناجٍ مُسلَّم، ومَخْدوشٌ مُرسَلٌ، ومكدوسٌ في نار جهنم».

رواه أحمد (١٧/١٦/٣)، والبخاري في التفسير (٢٩٠/١٠/٣١٨/٩) وفي مواضع، ومسلم في الإيمان (٢٥/٣) زاد مسلم في آخره: قال أبو سعيد: بلغني «أن الجسر أدق من الشعرة وأحَد من السيف».

[٣٤٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه نحوه وفيه: «يُحشرُ الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبع، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تعالى فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا فيدعوهم، ويُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: نعم، قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى، تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم يخردل ثم ينجو...» الحديث.

والطواغيت فيتساقط جميعهم في النار العباد والمعبودات ولا يبقى إلا المؤمنون وبقايا اليهود والنصارى والمنافقون من هذه الأمة، فيسألهم الله تعالى عما كانوا يعبدوّن فيجيب اليهود بأنهم كانوا يعبدون عزير ابن الله، ويجيب النصارى أنهم كانوا يعبدون المسيح ابن الله، فيكذبهم الله تعالى وينزّه نفسه عن الصاحبة والولد، ثم يتساقط جميعهم في النار.

فلا يبقى إلا المؤمنون الصادقون والمنافقون فيأذن الله لهم بالسجود له تعالى فيسجد المؤمنون، وتجعل ظهور المنافقين طبقة واحدة كلما أرادوا السجود سقطوا على أقفيتهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

[٣٤٩] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعة، فيذهب ليسجُدَ فيعود ظهره طبقاً واحداً**».

رواه البخاري، ومسلم مطولاً وتقدم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وقوله ﷺ هنا: «**يكشف ربنا عن ساقه**»، هو من آيات وأحاديث الصفات يجب أن نؤمن بذلك ولا نعطل مع تنزيه الله عن الجارحة ونفوض معنى ذلك وحقيقته إلى الله.

ومن العلماء مَن أوّل ذلك بالأمر العظيم الشديد الهول، وذكروا لذلك أدلة من كلام العرب.

ثم بعد الأمر بالسجود يعطى كل إنسان مؤمنهم ومنافقهم نوراً، فيمرون على الصراط فينطفىء نور المنافقين ويتساقطون في النار وينجو المؤمنون حسب أعمالهم ودرجاتهم.

خامساً: يقول الله تعالى عن النور الذي يعطاه المؤمن، في وصف رائع لحال المؤمنين الممنوحين والمنافقين المحرومين: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا

ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

قال المفسرون: تغشى الناس ظلمة شديدة يوم القيامة فيعطي الله المؤمنين نوراً على قدر أعمالهم ويمشون به على الصراط، ويعطي المنافقون أيضاً نوراً، فبينما هم يمشون إذ بعث الله ريحاً وظلمة، فأطفأت نور المنافقين فإذا سبقهم المؤمنون بقوا في الظلمة وقالوا للمؤمنين: انظرونا نقتبس من نوركم، قيل: ارجعوا وراءكم، أي يقول لهم المؤمنون أو الملائكة: ارجعوا وراءكم من حيث جئتم فاطلبوا النور وليس لكم الاقتباس من نورنا فيرجعون فلا يجدون شيئاً، فيرجعون إليهم فيضرب بينهم وبين المؤمنين بسور وهو حائط بين الجنة والنار له باب باطنه لجهة الجنة فيه الرحمة، وباب ظاهره لجهة النار فيه العذاب، فإذا حيل بينهم وبين المؤمنين نادوهم: ألسنا كنا في الدنيا معكم نصلي ونصوم ونحج ونزكي مثلكم؟ فيجيبهم المؤمنون: بلى قد كنتم كذلك ولكنكم كنتم تخدعوننا وتخدعون الله تعالى ولم تكونوا مؤمنين حقاً فخدعتكم الأباطل وغرّكم الشيطان حتى جاءكم أجلكم المحتوم، فاليوم لا تؤخذ منكم فدية ولا تنفعكم شفاعة الشافعين فمصيركم ومثواكم النار وبئس القرار.

وهكذا قالوا في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، إن ذلك سيكون عند الصراط عند انطفاء نور المنافقين فيتمم تعالى للمؤمنين النور فيمرون به على الصراط، ويؤيد هذا ما يلي:

[٣٥٠] فعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«بَشِّر المشّائين في الظُّلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»**.

رواه ابن ماجه (٧٨٠/٧٨١)، والحاكم (٢١٢/١) وصححه على شرط

الشيخين، والحديث صحيح بل قال السيوطي متواتر، ومن شواهده الثابتة ما رواه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٠١) بتهذيبي عن بريدة بسند حسن، وما رواه الطيالسي (٦٠٦) عن أبي سعيد الخدري بسند صحيح.

فالمكثرون الترداد إلى المساجد لأداء صلواتهم ولا سيما في الليالي المظلمة سيحظون بالنور الكامل يوم القيامة وبالأخص عندما ينطفىء نور المنافقين.

[٣٥٩] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «**يجمع الله الناس يوم القيامة**، قال: **فينادي منادٍ: أيها الناس...**» فذكر الحديث بنحو ما تقدم سابقاً وفيه: «**ثم يؤمرون فيرفعون رؤوسهم فيعطون نورهم على قدر أعمالهم**، قال: **فمنهم مَن يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم مَن يعطى نوره فوق ذلك، ومنهم مَن يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم مَن يعطى دون ذلك بيمينه حتى يكون آخر ذلك مَن يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويَطْفئ مرة، فإذا أضاء قدَّمَ قدمَه وإذا طفئ قام فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف دَحْض مزلة، فيقال: انجوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الرجل، ويَرْمُل رملاً، فيمُرُّون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه**، قال: **يجرُّ يداً، ويُعلِّق يداً، ويجرُّ رِجلاً، ويُعلِّق رِجلاً، وتضرب جوانبَه النار**، قال: **فيخلُصوا فإذا خَلَصُوا قالوا: الحمد لله الذي نجّانا منك بعد الذي أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعطِ أحداً**».

رواه الحاكم في التفسير (٣٧٦/٢) مختصراً، وفي الأصول (٥٨٩/٤/٥٩٢) مطولاً، وصححه، وأبو خالد الدالاني، وإن تكلموا فيه فقد تابعه زيد بن أبي أنيسة كما عند الطبراني في الكبير، وزيد ثقة، فالحديث صحيح وله شواهد في الصحيح.

سادساً: في الأحاديث السابقة أن الله عزّ وجل سيأتي الناس مؤمنهم وكافرهم فيكلمهم وينظرون إليه تعالى ويقع بينه وبينهم ما سبق.

وكل ذلك سيقع على الحقيقة على ما أراد سبحانه وتعالى من غير شبهه للحوادث، فنحن نؤمن بكل ما نطق به كتاب الله تعالى وجاء به رسول الله ﷺ، ولا نقول في جانب الله تعالى كيف ولا نشبهه بخلقه، أو نرد ما جاء عنه أو نؤوله بما لا دليل عليه مقبولاً.

سابعاً: اختلف العلماء في الورود الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

والصحيح أنه المرور على الصراط فلا يبقى أحد من خلق الله تعالى سواء فيهم الأنبياء والرسل وأممهم من مؤمن وكافر إلا سيمر على الصراط وهو مضروب على متن جهنم، ثم ينجي الله تعالى المتقين من الأنبياء والمؤمنين مع أممهم، ويذر الكافرين وأصحاب الكبائر في جهنم جثياً، أي: جاثين على ركبهم فيها.

وقد جاءت السنة مبيِّنة لذلك.

[٣٥٢] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا يموتُ لأحدٍ من المسلمين ثلاثةٌ من الولد فتمسَّه النار»**، وفي رواية: **«فيلج النار إلا تَحِلَّة القسم»**.

رواه البخاري، ومسلم وغيرهما في الجنائز وقد تقدم.

قوله: «تحلة القسم» أي: ما ينحل به القسم واليمين وهو قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، ومعنى الحديث أن من مات له ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث لا يدخل النار ولا تصيبه لكنه سيدخلها مجتازاً فوق الصراط بقدر ما يحل قسم الله تعالى الذي أقسم في الآية به، لأنها مصرحة بورود كل أحد عليها ثم ينجي المتقين منها ويترك الظالمين فيها من الكفار والمنافقين والعصاة أصحاب الكبائر.

[٣٥٣] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَرِدُ الناسُ النارَ ثم يَصْدرون عنها بأعمالهم، فأولهم كلَمْحِ البَرْق، ثم**

كالريح، ثم كحُضر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم شدّ الرجُل، ثم كمَشيه».

رواه أحمد (٤١٢٨/٤١٤١)، والترمذي (٢٩٥٦)، والحاكم (٢/٢٧٥) مرفوعاً وموقوفاً، وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

فقوله: «يرد الناس» أي: بمرورهم على الصراط. وقوله: «ثم يصدرون» أي: ينصرفون عنها.

فظاهر الحديث دال على أن الناس يردون النار فوق الصراط، وهو المراد بالورود في الآية لقوله: «**فأولهم كلمح البرق...**» إلخ.

[٣٥٤] وعن أم مُبَشّر رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله تعالى عنها: «**لا يدخلُ النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحدٌ من الذين بايعوا تحتها**»، قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، قالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ قال النبي ﷺ: «**فقد قال الله تعالى**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾».

رواه مسلم وغيره، وتقدم في التفسير.

فالحديث نصّ في أن أهل بيعة الرضوان لا يدخلون النار، وإنما سيمرون على الصراط فوقها وينجيهم الله منها كباقي المتقين ويترك فيها الظالمين.



خاتمة لما سبق

لقد رأينا ومرت علينا زلزلة الساعة واضمحلال هذه الكائنات وذهابها شَذَرَ مَذَرَ، وقيام الناس لرب العالمين، وأهوال الموقف وحشر الخلائق، والمثول بين يدَي الملك الجبار، وعرض العباد عليه وحسابهم ووزن أعمالهم، وظهور النتائج الأولية عند تطاير الصحف، فآخذ بيمينه، وآخذ بشماله، ثم انتهى بنا المطاف إلى الورود على النار بالمرور على الصراط،

وهذه خاتمة النتائج، فإما إلى الجنة، وإما إلى النار، فماذا يكون بعد ذلك؟ بعد هذا سيؤذَن للشفعاء أن يشفعوا فيمن سقط في النار من عصاة المؤمنين وإخراجهم منها.

* * *

❊ شفاعة الشافعين وأولهم سيد الكائنات سيدنا محمد ﷺ

[٣٥٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوتَه، وإني اختبأتُ دعْوَتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله تعالى مَن مات من أُمّتي لا يُشرك بالله شيئاً».**

رواه أحمد (٢/٢٧٥/٣٥٦/٣٨١/٤٢٦/٤٣٠/٤٨٦)، والبخاري في التوحيد وفي الدعوات (١٣/٣٤٠/٣٤٢)، ومسلم في الإيمان (٣/٧٤) وغيرهم، وهذا الحديث وارد عن جماعة قد يبلغون التواتر وقد أوردتهم مخرّجة أحاديثهم في كتاب الشفاعة يسّر الله تهيئته ونشره.

وقوله: «اختبأتُ» أي: ادَّخَرْتُ.

[٣٥٦] وعن أبي موسى ومعاذ بن جبل رضي الله تعالى عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: **«إن ربي خيَّرني بين أن يُدخل نصف أمتي الجنة، أو شفاعة، فاخترتُ لهم الشفاعة، وعلمتُ أنها أوسع لهم، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً».**

رواه أحمد (٤/٤٠٤/٤١٥) وابن ماجه (٤٣١١) بسند صحيح وله شاهد عن عوف بن مالك، رواه الترمذي في صفة القيامة (٢٢٦٢)، وابن ماجة ٤٣١٧) بسند صحيح أيضاً.

[٣٥٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».**

رواه أحمد (٢١٣/٣)، وأبو داود في السنة (٤٧٣٩)، والترمذي في صفة القيامة (٢٢٥٦)، وابن حبان (٢٥٩٦)، والحاكم (٦٩/١) وحسّنه الترمذي وصححه، وهو عنده على شرط مسلم وله شواهد أخرى.

[٣٥٨] وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يخرجُ قومٌ من النار بشفاعة محمد ﷺ، فيدخلون الجنة يُسَمَّوْن الجهنميين»**.

رواه البخاري في الرقائق (٢٣٦/١٤).

[٣٥٩] وعن جابر رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«يخرج من النار بالشفاعة كأنهم الثَّعارير»**.

رواه البخاري في الرقاق (٢٢١/١٤)، ومسلم في الإيمان (٥١/٥٠/٣).

«الثَّعَارِيرُ»: قثَّاءٌ صغار.

[٣٦٠] وعن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«أُريتُ ما تَلْقَى أُمّتي من بعدي وسفك بعضهم دماء بعض، وكان ذلك سابقاً من الله تعالى كما سبق في الأمم قبلهم، فسألته أن يُوَلِّيني شفاعةً فيهم يوم القيامة ففعل»**.

رواه أحمد (٤٢٨/٤٢٧/٦) بسند صحيح.

[٣٦١] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أما أهل النار الذين هم أهلها فهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم، أو قال: بخطاياهم، فأماتهم إماتةً، حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبُثُّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبَّة تكون في حَميل السيل»**.

رواه مسلم في الإيمان (٣٧/٣) مطولاً.

«ضبائر» أي: جماعات متفرقة.

[٣٦٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَجمعُ الله الناس يوم القيامة» فذكر حديث الشفاعة الطويل كما تقدم عن أبي هريرة وأبي سعيد وفيه: «فيقال: يا محمد ارفع رأسك قل تُسْمع، سَلْ تُعْطَه، اشفَعْ تُشَفَّع، فأرفعُ رأسي فأحمده بتحميده يعلمنيه ربي ثم أشفع فيحدد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد قل تسمع، سل تعطه، اشفع تُشفَّع، فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميدٍ يعلمنيه، ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة، قال فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود»، قال ﷺ: «فيخرج من النار من قال: لا إلٰه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: لا إلٰه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن بَرّة، ثم يخرج من النار من قال: لا إلٰه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن ذَرَّة».

رواه البخاري في الرقاق، ومسلم في الإيمان (٦٤/٢٣/٣).

[٣٦٣] وفي رواية له عن النبي ﷺ: «فشُفِّعتُ في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً، فما زلت أتردد إلى ربي فلا أقوم منه مقاماً إلا شُفِّعتُ حتى أعطاني الله من ذلك أن قال: يا محمد أدخِل من أمتك من خلق الله تعالى من شهد أن لا إلٰه إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك».

رواه أحمد (١٧٨/٣) بسند صحيح على شرط مسلم.

وتقدم حديث أبي سعيد الطويل في إتيان الله تعالى عباده وأمره إياهم بأن تتبع كل أمة ما كانت تعبد وفي أخرى: «ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة».

قال: «حتى إذا خلص المؤمنون من النار، فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحد بأشدَّ مناشدة للّه في استقصاء الحق من المؤمنين للّه يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويُصلُّون

ويحُجُّون، فيقال لهم: أخرِجوا مَن عرفتم، فتُحَرَّمُ صُوَرُهم على النار، فيُخرِجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربنا ما بقي فيها أحدٌ ممن أمرتَنا به، فيقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرِجوه، فيُخرِجون خَلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذَرْ فيها أحداً ممن أمرتنا، ثم يقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرِجوه، فيُخرجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً، ثم يقول: ارجعوا فمَن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً» وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾، «فيقول الله عزَّ وجل: شفعت الملائكةُ، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيقبضُ قبضةً من النار فيُخرِج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حُمَماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له: نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحِبَّةُ في حميل السيل، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عملٍ عملوه، ولا خير قدّموه، ثم يقول: ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من العالمين، فيقول لكم: عندي أفضل من هذا، فيقولون: يا ربنا أيُّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً».

رواه مسلم في الإيمان (٣/٣٠/٣٣)، والبخاري في الرقاق، وتقدم طرف منه فانظر رقم (١١٤).

وقوله: «حتى إذا خَلَص المؤمنون» أي: نجوا من الوقوع عن الصراط في النار. وقوله «مناشدة الله في استقصاء» معناه أن المؤمنين الناجين يشفعون في إخوانهم الذين وقعوا في النار ويبالغون في طلب ذلك من الله عزّ وجل.

وهكذا جاء أيضاً في حديث جابر في ذلك وفيه: «وعلى جسر جهنم

كلاليبُ وحسَكٌ تأخذ من شاء الله، ثم يطفأ نور المنافقين ثم ينجو المؤمنون، قال: **ثم تحل الشفاعة ويشفعون حتى يخرج من النار من قال: لا إلٰه إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة...»** رواه مسلم.

وقوله: «ثم تحل الشفاعة» أي: تقع الشفاعة ويؤذن فيها.

في جملة هذه الأحاديث فوائد وفضائل وخصائص هامة نجملها في الآتي:

أولاً: دلت على ثبوت شفاعة نبينا ﷺ لأمته في إخراجهم من النار، ويجب أن يعرف بأن الأحاديث بذلك متواترة كأحاديث شفاعته في الموقف لإراحة الناس منه وأن ذلك هو المقام المحمود.

وهذه الشفاعة ـ أعني العظمى ـ لا خلاف فيها بين طوائف المسلمين، وإنما أنكر المعتزلة والخوارج الشفاعة لإخراج العصاة وهم مخطئون في ذلك ضالُّون مخالفون لقواطع الشرع وإجماع أهل السنة.

قال النووي في «شرح مسلم» على قوله: باب إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار: قال القاضي عياض: مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ وأمثالهما، وبخبر الصادق ﷺ، وقد جاءت الأخبار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين، وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها... إلخ.

وقال أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى في «المحلى»: مسألة: وأن شفاعة رسول الله ﷺ في أهل الكبائر من أمته حق، فيخرجون من النار ويدخلون الجنة، ثم ذكر أدلة ذلك. وقد ذكرت نصوصاً أخرى للعلماء في كتابي (الشفاعة).

ثانياً: دلت على أن هذه الشفاعة لأصحاب الكبائر الذين ماتوا على

لا إلٰه إلا الله ولم يشركوا بالله تعالى شيئاً الشرك الأكبر وهم مصرُّون على ذنوبهم لم يتوبوا منها.

ثالثاً: فيها أنه ﷺ سيُخرج من النار كل من قال: لا إلٰه إلا الله صادقاً وكان في قلبه وزن شعيرة أو بَرّة أو ذَرّة من خير، وأن الله عزّ وجل سيحد له حدًّا فيُخرجهم من النار، ثم يحد له حدًّا فيخرجهم من النار ثلاث مرات أو أربعاً، فيُخرج أقواماً ما عملوا خيراً إلا لا إله إلا الله حتى يقول ﷺ: **«ما بقي أحدٌ في الناس من أمتي إلا من وجب عليه الخلود وهم الكفار والمنافقون»**.

رابعاً: وفي حديث أم حبيبة رضي الله تعالى عنها دليل على أن شفاعته ﷺ ستشمل حتى أصحاب أكبر الكبائر من سفّاكي الدماء وأصحاب حقوق العباد فأحرى الكبائر الأخرى الخاصة بحقوق الله عزّ وجل.

خامساً: حديث أبي سعيد رضي الله تعالى عنه دال على أن الله عزّ وجل سيتفضل على مذنبي هذه الأمة الذين أوبقتهم خطاياهم فدخلوا النار بأنه تعالى سيميتهم فيها حتى لا يحسوا بها إلا عند الدخول أو الخروج فيخرجون منها بشفاعته ﷺ بعد أن صاروا فحماً.

سادساً: تتجلى رحمة نبينا ﷺ بأمته وشفقته عليها في حديث أبي هريرة، وحديثَي أبي موسى ومعاذ حيث آثر ﷺ أمته عليه وقدّمها على نفسه كما في الحديث الأول حيث أخّر لهم دعوته استجابة وادخرها لهم شفاعة عندما يكونون أحوج إلى شيء ما ينجون به من عذاب الله.

وخُيِّر ﷺ بين أن يُدخل الله تعالى نصف أمته الجنة بدون سابقة عذاب وبين الشفاعة، فاختار ﷺ الشفاعة لأنها أعم وأشمل، لأن المذنبين أكثر من نصف الأمة بكثير وهذا من عظيم رحمته ورأفته بأمته ﷺ، ولهذا عندما جاءته الخلائق يستغيثون به في إراحتهم من الموقف وسجد للّه تعالى وناداه ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع أول ما قال: يا رب أمتي... إلخ.

سابعاً: في حديث جابر السابق، بيان أن الشفاعة سيأذن الله بها عندما

يطفأ نور المنافقين عند الصراط ويقعون في جهنم كما يسقط فيها أهل الكبائر من المؤمنين وينجو المؤمنون الذين لا عذاب عليهم، فعند ذلك تبدأ الشفاعات ويكون النبي ﷺ هو أول من يشفع كما في الحديث التالي:

[٣٦٤] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مُشَفَّع»**.

رواه مسلم في الفضائل (٣٧/١٥).

فهذه من أولياته ﷺ كما أنه أول من تحاسب أمته، وأول من يمر بأمته على الصراط، وأول من يدخل الجنة بأمته أيضاً.

ثامناً: حديث أبي سعيد الطويل المتقدم، يدل على أن للملائكة والرسل والمؤمنين شفاعات لإخراج المذنبين من النار.

فعندما ينجو المؤمنون من الوقوع في النار من الصراط ويرون إخوانهم سقطوا في جهنم وقد كانوا في الدنيا يشاركونهم في أداء العبادات، حينئذ يبالغون في مناشدة الله تعالى أن يشفعهم فيهم فيتفضل الله تعالى عليهم برحمته فيأمرهم أن يخرجوا من النار من عرفوا حتى يخرجوا كل من عرفوا فيه خيراً، حتى يخرجوا كل من كان في قلبه وزن ذرة من خير.

تاسعاً: بعد شفاعة الشافعين يقول الله عزّ وجل: **«شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً** ـ أي: فحماً ـ **فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة»** إلى آخر ما تقدم، وتأتي بقية ذلك في النار والجنة إن شاء الله تعالى.

ثم إن للنبي ﷺ شفاعات كثيرة عامة وخاصة، كشفاعته في إدخال أقوام الجنة بغير حساب، وشفاعته في رفع درجات أقوام في الجنة، وشفاعته في أقوام قد أمر بهم إلى النار، وشفاعته لمن مات بالمدينة، وشفاعته لمن حكى ألفاظ الأذان وصلّى عليه ﷺ وسأل له الوسيلة وقال:

رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وشفاعته لآل بيته وأقاربه، وشفاعته لمكثري الصلاة عليه ﷺ، وشفاعته لسكان المدينة الصابرين على شدتها ولأوائها، وشفاعته لمن زار قبره، وشفاعته لأنس بن مالك، وشفاعته لحمزة الأسلمي، وشفاعته لغلام من أسلم، وشفاعته لتخفيف العذاب عن عمه أبي طالب، وشفاعته لأمته ﷺ في البرزخ بعد عرض أعمال أمته عليه.

وقد بيّنت هذه الشفاعات مع أدلتها في رسالة خاصة هيأ الله تعالى نشرها. كما ذكرت هناك شفاعات أخرى كشفاعة القرآن والصيام والصلاة والصدقة والشهداء وحمَلة القرآن، إلى غير ذلك.

* * *

كتاب الجنة والنار

وجوب الإيمان بهما وانهما مخلوقتان

[٣٦٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما خلق الله تعالى الجنة والنار، أرسل جبريل عليه السلام إلى الجنة فقال: انظر إليها وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، فجاء فنظر إليها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعزّتك لا يسمعُ بها أحد إلا دخلها، فأمر بها فحُجِبَتْ بالمكاره، قال: ارجع إليها فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فرجع إليها وإذا هي قد حجبت بالمكاره، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيتُ أن لا يدخلها أحد، قال: اذهب إلى النار فانظر إليها وما أعددت لأهلها فيها، فنظر إليها فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحُفَّت بالشهوات فقال: ارجع إليها، فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها».**

رواه أحمد وأبو داود، والترمذي وغيرهم، وحسّنه الترمذي وصححه، وتقدم في الزهد.

«حجبت»: هو معنى. «حفت» أي: أحيطت. وقوله: «يركب بعضها» أي: يعلو بعضها بعضاً لشدة اندلاعها.

[٣٦٦] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«اشتكت النار إلى ربّها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنَفَسَين، نفَسٍ في الشتاء، ونفَسٍ في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»**.

رواه البخاري في بدء الخلق (١٤٢/٧) وفي أوقات الصلاة (١٥٨/٢)، ومسلم في الإبراد بصلاة الظهر (١١٩/٥) وغيرهما.

قوله: «اشتكت» هو على ظاهره والله تعالى جعل في النار إدراكاً وتمييزاً فتكلمت مع الله عزّ وجل واشتكت إليه. و«الزمهرير»: هو البرد القارس الشديد.

[٣٦٧] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان اليوم الحار فأبرِدوا بالصلاة فإن شدة الحِر من فَيح جهنم»**.

رواه البخاري في استقبال القبلة وأوقات الصلاة (١٥٨/٢)، ومسلم في المساجد (١١٧/٥/١١٨) وله شواهد كثيرة، بل هو متواتر. و«فيح جهنم»: غليانها وسطوع حرها.

ففي هذه الأحاديث دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان، موجودتان، مهيئتان لأصحابهما، والأدلة على ذلك كثيرة كتاباً وسنّة وإجماعاً.

قال الله تعالى في النار: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾، وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ الآية، وقال: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، وقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾، وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾، في آيٍ أُخر.

وقال في الجنة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ الآية.

وقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ في آيات كثيرة سيأتي

بعضها في صفة الجنة، وسيأتي حديث: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت...**» إلخ. فقوله تعالى في هذه الآيات: أُعدّت للمتقين، أُعدّت للكافرين، هو نص في أن كلا من الجنة والنار موجودتان مهيأتان لأصحابهما، وكذا ما ذكر في الأحاديث من خلقهما ونظر جبريل إليهما وإلى ما أعدّ فيهما، وشكاية النار إلى ربها بأنها خالية لا تجد ما تتقد به قد أكل بعضها بعضاً، وأن الحر والزمهرير اللذين نجدهما في هذه الحياة إنهما من نفس جهنم وسطوع غليانها وكل ذلك يدل على الخلق...

وبخلق الجنة والنار قال كل السلف من الصحابة فمن بعدهم من الخلف، وأجمع على ذلك أهل السنة والجماعة وضلّلوا من أنكر ذلك من المعتزلة وذكروا ذلك في جملة العقائد الإسلامية.

قال الإمام ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله تعالى في عقيدته المشهورة في «الرسالة»: وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدّها دار خلود لأوليائه، وخلق النار فأعدّها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله... إلخ.

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في عقيدته التي اتفق على صحتها جمهور أهل المذهب الأربعة: والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبداً، ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق وخلق لهما أهلاً.

ونصوص العلماء في هذا كثيرة في كتب العقائد، وكتب التفسير، وشرّاح الحديث...



❋ سعة جهنم وعظمها

[٣٦٨] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤتى بالنار يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**».

رواه مسلم والترمذي، وانظر ما سبق في عرض النار على أهل الموقف.

الحديث يدل على عظمة جهنم وسعتها وكبرها وهولها، وأن طولها وعرضها لا يتصوران، ولا يعلم عظمها إلا الله خالقها عزّ وجل.

فوجود هذا العدد الهائل من الملائكة المكلفين بجرها إلى الموقف ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمان سبعون ألف ملك، هو كاف في الدلالة على هولها وعظمها واتساعها وترامي أطرافها.

وقد عرفنا أن في الملائكة من بين أخمص قدميه إلى أعلى رأسه مسيرة ألفَيْ عام كما تقدم في حديث نزول الملائكة للموقف، وفيهم من بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة كما في حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «**أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله تعالى حملَة العرش ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة**».

رواه أبو داود في السنة.

وقد رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام وله سبعمائة جناح، وكل جناح لا يعلم قدره إلا الله تعالى.

فإذا كان هذا العدد من الملائكة الذين يجرون جهنم وهم بهذه العظمة، فكيف يا ترى نتصور قدر هذا الخلق المخيف المزعج الذي أعدّه الله عزّ وجل للكافرين والمنافقين والطغاة والمجرمين، إن هذا لشيء هائل، وستأتي أحاديث تدل لذلك أيضاً لاحقاً، ومما يدل على عظمها التالي:

* * *

❁ قعر جهنم

[٣٦٩] عن عُتْبةَ بن غزوانَ رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الصخرةَ العظيمةَ لَتُلْقى من شفير جهنم، فتهوي فيها سبعين عاماً ما تُفضي إلى قرارها**»، قال: وكان عمر رضي الله تعالى عنه يقول: أكثِروا ذكرَ النار فإن حرّها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد.

رواه الترمذي في صفة جهنم (٣٣٩٢) بهذا السياق وهو في صحيح مسلم بنحوه في كتاب الزهد.

وعنده في الإيمان رقم (١٩٥) بلفظ: **«إن قعر جهنم لسبعون خريفاً»**، لكنه من كلام أبي هريرة.

«شفير»: الشفير ناحية الشيء، والمراد هنا طرف أعلى جهنم. و«القَعْرُ»: الأسفل.

[٣٧٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لو أن حجراً مثلَ سبعِ خَلِفات أُلقِيَ من شفير جهنم هوى فيها سبعين خريفاً، لا يبلغ قعرها»**.

رواه الحاكم في الأهوال (٦٠٦/٤) بنحوه، وصححه، وقال الذهبي: سنده صالح.

«خلفات»: جمع خَليفة وهي الناقة الحامل.

[٣٧١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجْبَةً فقال: **«أتدرون ما هذا؟»** قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار الآن حين انتهى»**.

رواه مسلم في شدة حر نار جهنم (١٧٩/١٧).

قوله: «وجبة» بفتح الواو وسكون الجيم: صوت السقطة ووقْعُ الشيء. و«الخريف»: هو السنة.

دلّت هذه الأحاديث كسابقتها على سعة جهنم وطولها وعرضها وأن كبرها لا يتصور.

فالصخرة العظيمة أو صخرة مثل سبع خلفات أو أي حجر يلقى من شفير جهنم لا يصل إلى قعرها وأسفلها إلا بعد مضي سبعين سنة وقد لا يصل. إن هذا لشيء هائل جداً جداً بل سيأتي ما هو أعجب في اتساع جهنم من هذا، حيث إن ناب الكافر أو ضرسه مثل أُحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث، ومجلسه في النار ما بين مكة والمدينة، هذا كافر واحد يحتاج

إلى ما يسع جسمه هذا، فكيف وجهنم ستسع من أهلها المليارات بل بلايين البلايين، فكيف مع هذا نتصور سعة هذه الدار المخيفة؟!

* * *

❋ حر نار جهنم يعادل من نارنا تسعة وستين جزءاً

[٣٧٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ناركم جزءٌ من سبعين جزءاً من نار جهنم»**، وفي رواية: **«ناركم التي يوقد ابن آدم»**، قيل: يا رسول الله إن كانت لكافيةٌ، قال: **«فُضِّلَتْ عليهن بتسعة وستين جزءاً، كلهن مثل حَرِّها»**.

رواه البخاري في بدء الخلق (١٤٣/٧)، ومسلم في كتاب الجنة (١٧٩/١٧)، والترمذي في صفة جهنم (٢٤٠٨).

وقوله: «إن كانت لكافية» معناه أن نار الدنيا كانت كافية في تعذيب الكفار والعصاة.

وهذا هول فظيع ونبأ خطير إن نارنا التي نعايشها ونستخدمها في مرافقنا لا يستطيع أحدنا مسها بل ولا الاقتراب منها إذا اندلعت وهي تحرق وتنضج كل ما يلقى إليها بل تأكل الأخضر واليابس، وإذا اندلعت في محلة أو غابة حضر لإطفائها مئات أو الألوف من رجال الإطفاء مجهزين بالآلات الحديثة فيجدُّون في إخمادها فلا يتمكَّنون من إطفائها إلا بعد أيام أو شهور، وقد يقاسون أنواع الشدائد وقد يموت بها عدد غير يسير ويحترق آخرون ويعانون آلاماً من أثر حريقها، وهذا وهي جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم فلنتصور حر نار جهنم وحريقها والتعذيب بها وتذكر الحديث السابق: **«فإن شدة الحر من فَيح جهنم»**، فما يصيبنا مما نُسَمِّيه شدة الحر أيام الصيف هو مجرد أثر غليان جهنم وسطوعها يأتينا بواسطة الشمس التي تبعد عنا بملايين الأميال ولِهَوْل حرِّ نار جهنم ذكَّرنا الله تعالى بها في كتابه الكريم.

كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ بل لا مناسبة بين حر الدنيا وحر جهنم.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

«لظى»: اسم من أسماء جهنم أو طبقة منها. وقوله: «نزّاعة للشوى» أي: قلاعة للأطراف أو جلد الرأس وذلك لشدة حرها.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾ الآية.

«الحطمة»: هي نار الله المسعرة لا تخمد أبداً، فليست كنار الدنيا وهي التي يصل ألم حريقها إلى الأفئدة، والألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه فهم كحال من يموت ولكنهم أنّى لهم به.

وقال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾، ومعناه: سأُدخِل الكافر جهنم لا تبقي شيئاً ألقي إليها ولا تدعه حتى تحرقه، لوّاحة ومغيرة للبشرات مسوّدة للجلود.

* * *

❊ في جهنم سلاسل وأغلال وأصفاد

[٣٧٣] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لو أن رصاصةً مثل هذه - وأشار إلى مثل الجمجمة - أُرسلت من السماء إلى الأرض، وهي مسيرةُ خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أُرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها**».

رواه أحمد (١٩٧/٢) والترمذي في صفة جهنم، وحسّنه وصححه.

«رصاصة»: بفتح الراء، قطعة من الرصاص. «الجمجمة»: بضم الجيمين وسكون الميم الأولى مع ضمّات باقي الحروف، هي عظام الرأس، وتُطلق على القدح من خشب.

هذه مسافة السلسلة التي يربط بها الكافر والمجرم وكل من يأخذ كتابه بشماله فيقال في شأنه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ . . .﴾ الآية، ويأتي شرحها في الحديث عن عذاب أهل النار فيكون طول السلسلة على ما يؤخذ من الحديث مسافة عشرات الألوف سنة أُعِدّت لتعذيب من استحقوا دخول جهنم، ويضاف إلى السلاسل الأغلال التي تغل بها الأيدي مع الأعناق وهكذا الأصفاد وهي القيود التي تربط بها الأرجل كما يأتي.

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِي الْحَمِيمِ﴾ الآية.

وقال جلّ ثناءه: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۝٤٩﴾ الآية.

* * *

صفة المقمعة التي يضرب بها أهل النار

[٣٧٤] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لو أن مَقْمعاً من حديد جهنم وُضع في الأرض، فاجتمع له الثقلان، ما أقلُّوه من الأرض»**.

وفي رواية: **«لو ضُرِبَ الجبل بمَقمع من حديد جهنم لتفتَّت، كما يُضرب به أهلُ النار فصار رماداً، ولو أن دَلْواً من غسّاقٍ يُهراق في الدنيا لأنتَنَ أهل الدنيا»**.

رواه أحمد (٨٣/٢٩/٣)، وأبو يعلى (٥٧٨/١)، والحاكم في الأهوال (٦٠١/٤) وصححه ووافقه الذهبي مع أن فيه ابن لهيعة وأبا الهيثم وفيهما ضعف.

«مقمع»: بفتح الميمين، المطرقة أو السياط المُعَد لضرب الكفار. «الثقلان»: هما للإنس والجن. «ما أقلوه» أي: ما رفعوه من الأرض وذلك لعظمه وثقله.

والحديث يخبر بأمر هائل مخيف، إن المطرقة التي لا يستطيع كل أهل الأرض من الإنس والجن رفعها من الأرض كيف تتصور وكيف لو ضُرب بها الكافر وهي تفتت الجبال الشم الشوامخ... وهذا يزيدنا معرفة بعظم جهنم، ويأتي مزيد عندما نذكر آيات العذاب كقوله تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ٢١﴾.

* * *

ظلمة النار وشدة سوادها

[٣٧٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أَتَرَوْنَهَا حَمراءَ كناركم هذه؟ لهي أسودُ من القَارِ.

والقار: الزفت.

رواه مالك في صفة جهنم من الموطأ (١٩٣٧) وسنده صحيح، وله حكم الرفع.

[٣٧٦] ويؤيده حديثه الآخر قال: قال رسول الله ﷺ: **«أوقد على النار ألف سنة حتى احمرّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودّت فهي سوداء مظلمة»**.

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٤١٠)، وابن ماجه (٤٣٢٠)، ولا يضر وجود شريك القاضي في سنده فإن القرآن دال على سواد جهنم وظلمتها.

كما قال تعالى في أهلها: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ...﴾ إلخ.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

ثم قال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم...﴾ إلخ.

وما جاءهم الاسوداد كقطع الليل المظلم إلا من أثر عذاب النار التي هي أشد سواداً من القار، بحيث مجرد رؤيتها تُرعب وتُزلزل القلوب.

* * *

❋ وقود النار الناس والحجارة

[٣٧٧] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾، قال: «هي حجارة» من كبريت، خلقها الله عنده كيف شاء أو كما شاء.

رواه الحاكم (٤٩٤/٢) موقوفاً وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

«وقود»: بفتح الواو، ما تتقد به النار وتشتعل به.

فوقود النار وحطبها الذي تتأجج وتشتعل به هما جُثَثُ بني آدم وحجارة الكبريت كما قال هنا ابن مسعود، وكما ورد عن أبي جعفر الباقر ومجاهد وغيرهما من رجال السلف الذين فسّروا الآية بذلك، وقالوا: إن ريح تلك الحجارة أنتنُ وأخبثُ من الجيفة.

وإنما كانت حجارة الكبريت هي بالذات حطب جهنم ووقودها لأنها كما قال العلماء امتازت بخمسة أنواع من العذاب: سرعةُ الإيقاد، ونتنُ الرائحة، وكثرةُ الدخان، وشدةُ الالتصاق بالأبدان، وقوة حرّها إذا أُحْمِيَتْ.

ثم هذا لا ينفي أن توقد النار أيضاً بالأصنام كما قال تعالى للكفار: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾﴾ الآية.

«حَصَبُ جهنم»: أي حطبها، ويأتي مزيد لهذا في عذاب أهل النار.

* * *

❋ حيّات جهنم وعقاربها

[٣٧٨] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن آتاه الله مالاً فلم يؤدِّ زكاته، مُثِّل له مالُه شجاعاً أقرع له زبيبتان يُطَوّقُه يوم القيامة، يأخذ بلِهزِمَتَيْهِ** - يعني شدقيه - **يقول: أنا مالكُ أنا كنزك**، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ...﴾» الآية.

رواه أحمد والبخاري في التفسير وغيرهما كما تقدم في التفسير.

وعن ابن مسعود نحوه، رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه بسند صحيح.

وقوله: «شجاعاً أقرع» هو الذكر من الأفاعي الخبيث الكثير السم. وقوله: «بلِهزمتيه» بكسر الزاي واللام، أي: شدقيه ولحييه. وقوله: «يطوقه» معناه يلتوي ذلك الثعبان على عنقه فيكون كالطوق عليه.

وفي الحديث دليل على وجود الثعابين والأفاعي في جهنم، إما عوارض يخلقها الله عزّ وجل من أعمال سيئة، كما في هذا الحديث حيث إن مال الإنسان الذي منع منه حق الله يتمثل ثعباناً، وإما مخلوقة فيها أصالة كالآتي:

[٣٧٩] وعن عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن في النار حيّاتٍ كأمثال أعناق البُخت تَلسعُ إحداهن اللسعة فيجد حرّها سبعين خريفاً، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حُمُوّتها أربعين سنة»**.

رواه أحمد (١٩١/٤)، وابن حبان (٥١٢/١٦)، والحاكم (٥٩٣/٤) وصححه ووافقه الذهبي.

«البخت»: بضم الباء، نوع من الإبل عظام. «تلسع» أي: تلدغ وتعض. «البغال الموكفة»: أي التي ألقيت عليها البرذعة.

[٣٨٠] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾، قال: زيدوا عقارب أنيابها كالنخل الطوال.

رواه الحاكم (٥٩٣/٤) موقوفاً، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وانظر المجمع (٤٨/٧) ففيما ذكر بيان أن من جملة ما أعدّ الله تعالى في جهنم لأهلها حيّات وعقارب عظاماً ضخاماً مملوءات سمًّا فتسلط على أهل جهنم فتلدغهم فيجدون أثر ألم ذلك السم وحره سبعين عاماً...

* * *

أودية جهنم وجبالها

[٣٨١] عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعوّذوا بالله من جُبِّ الحزن أو وادي الحزن**»، قيل: يا رسول الله وما جُبُّ الحزن أو وادي الحزن؟ قال: «**وادٍ في جهنم تتعوّذ منه جهنم كلَّ يوم سبعين مرة أعدّه الله تعالى للقراء المرائين**».

رواه البيهقي، قال المنذري رحمه الله تعالى: بإسناد حسن.

وللحديث شواهد عن أبي هريرة وابن عباس وغيرهما.

[٣٨٢] وعن ابن سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرها**».

رواه أحمد (٧٥/٣)، والترمذي في تفسير الأنبياء (٢٩٦١)، وابن حبان (٥٠٨/١٦)، والحاكم (٥٠٧/٤/٥٩٦)، وكذا أبو يعلى (١٣٨٣) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

والحديث وإن كان فيه درام عن أبي الهيثم وروايته عنه متكلم فيها فإن لمعناه شواهد.

[٣٨٣] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة**»، فذكر منهم مدمن الخمر، قال: «**ومن مات يُدمن**

الخمر سقاه الله جلّ وعلا من نهر الغوطة»، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: **«نهر يجري من فُروج المومسات يؤذي أهل النار ريحُ فروجهن»**.

رواه أحمد (٣٩٩/٤)، وابن حبان (١٦٦/١٢)، والحاكم (١٤٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي، وسنده حسن.

«المومسات»: جمع مومسة وهي الزانية.

[٣٨٤] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: **«إن على الله عزّ وجل عهداً لمن يشربُ المُسكر أن يسقِيَه من طينة الخَبَال»**، قالوا: يا رسول الله وما طينة الخبال؟ قال: **«عَرَقُ أهل النار أو عصارةُ أهل النار»**.

رواه مسلم في الأشربة (١٧١/١٣)، ورواه الترمذي في الأشربة (١٧٠٩)، والدارمي (٢٠٩٧)، وابن ماجه (٣٣٧٧) والحاكم (١٤٦/٤) وصححه ووافقه الذهبي وهو عندهم عن ابن عمر مطولاً وفيه: فإن عاد في الرابعة لم يقبل الله له صلاة أربعين صباحاً، فإن تاب لم يتب الله عليه وسقاه من نهر الخبال، قيل: يا أبا عبدالرحمٰن: وما نهر الخبال؟ قال: نَهرٌ من صديد أهل النار.

فهذه جملة أودية أُعِدَّت في جهنم للكفار، وعصاة الموحدين، من ذلك جب الحزن أو وادي الحزن الذي بلغ من فظاعته أن جهنم مع عظمها تتعوذ بالله منه كل يوم سبعين مرة.

ومنها: الويل الذي يهوي فيه الكافر أربعين سنة لا يصل إلى أسفله.

ومنها: نهر الغوطة المُعَد لمدمني الخمر وهو نهر يجري بما يخرج من فروج الزواني من عصارة النار، وما ذلك إلا القَيْح والصديد والدم والنتن وكل ما يؤذي أهل النار من ريح فروج أولئك العواهر والزواني اللائي كنّ في الدنيا يهتكن ستر الله ويتاجرن بأبضاعهن...

ومنها: نهر الخَبال وعصارة أهل النار وعرقهم الذي يعذب فيه المدمن ومن شاء الله تعالى.

[٢٨٥] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«والصَّعود جَبَلٌ في النار يتصعَّد فيه سبعين خريفاً يهوي منه كذلك أبداً»**.

رواه أحمد والترمذي وأبو يعلى والحاكم وصححه.

هذا الصعود هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾، فهو جبل في جهنم يكلف الكافر أن يصعده، فإذا وضع يده عليه ذابت، فإذا رفعها عادت، وإذا وضع رِجله عليه ذابت، فإذا رفعها عادت، يصعد سبعين خريفاً ثم يهوي مثلها كذلك.

ويأتي مزيد لهذا عند تحدثنا على عذاب عصاة الموحدين.

* * *

✲ شرر نار جهنم ودخانها

[٢٨٦] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾، قال: أما إني لست أقول كالشجرة، ولكن كالحصون والمدائن.

رواه البيهقي في البعث بإسناد لا بأس به. قاله المنذري.

[٢٨٧] وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«لو أن غرباً من جهنم جعل في وسط الأرض لآذى نتن ريحه وشدة حره ما بين المشرق والمغرب، ولو أن شرارة من شرر جهنم بالمشرق لوجد حرها من في المغرب»**.

رواه الطبراني في الأوسط (٣٦٩٣).

«الشرر»: جمع شرارة، وهي ما يتطاير من النار.

قال الله تعالى في صفة جهنم ونارها، وقد أمر سكانها أن ينطلقوا إلى عذابها: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

قال المفسرون: اذهبوا فاستظلوا بدخان كثيف من دخان جهنم يتفرع منه ثلاث شعب وذلك أن لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان صار له ثلاث شعب من شدته وقوته بحيث يكون أحمر وأصفر وأخضر وليس فيه ظل ولا يغني من لهب النار شيئاً، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾، ليس فيه برد ظلال الدنيا ولا يفيد في رد حر نار جهنم كما قال أيضاً في آية أخرى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، وستأتي لاحقاً مع أخواتها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾... إلخ.

أي: أن هذه النار يتطاير منها شرر متفرق كل شرارة من شراراتها التي ترمى وتقذف بها كأنها القصر العظيم والحصن الهائل، كأن ذلك الشرر المتطاير منها الإبلُ الصُّفْر في لونها وكثرتها وسرعة حركتها.

وإذا كانت الشرارة كالقصر أو الحصن العظيم والجمال الصفر الضخمة فكيف تكون حال تلك النار الملتهبة، أجارنا الله تعالى منها بفضله ورحمته.

* * *

سور النار وحائطها

[٣٨٨] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «السُرَادِقِ النار أربعةُ جُدُرٍ، كِثَفُ كل جدار مسيرة أربعين سنة».

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٤٠٢)، والحاكم (٦٠١/٤) وصححه.

«سرادق النار»: هو حائطها العظيم المضروب عليها من جميع جهاتها، وهو عظيم وعظيم بحيث له أربعة جُدُر غلظ كل جدار منها مسيرة أربعين سنة، فأنّى للكافر أن يخرج منها وفيها رقباء وخزَنة من الملائكة غلاظ شداد كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، وقيل لهم: ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.

وفي هذا السرادق يقول تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ﴾ . . . إلخ، وستأتي.

فالسرادق محيط بجهنم إحاطة السوار بالمعصم.

* * *

❊ أبواب جهنم

[٣٨٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا جاء رمضانُ فُتِحَتْ أبوابُ الجنة، وغُلِّقَت أبوابُ النار»**.

رواه البخاري في بدء الخلق (١٤٧/٧) وفي الصيام، ومسلم فيه (١٨٧/٧)، ورواه الترمذي (٦٠٣)، والنسائي (١٠٤/٤/١٠٥)، وابن ماجه (١٦٤٢) وغيرهم بلفظ: **«إذا كانت أول ليلة من شهر رمضان صُفِّدتْ الشياطينُ ومردةُ الجن، وغُلِّقتْ أبوابُ النيران فلم يُفتَح منها بابٌ، وفُتِحتْ أبوابُ الجنة فلم يُغلَقْ منها باب. . .»** إلخ.

فهذا الحديث يدل على أن لكلٍّ من النار والجنة أبواباً تفتح وتغلق، وقد جاء ذلك في أحاديث تقدمت في غضون الكتاب.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٣ لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ۝٤٤ . . .﴾، فالآية صريحة كالحديث بأن لجهنم أبواباً لكل باب أقوام يدخلون النار منه حسب أعمالهم.

ومع هذا فقد اختلف المفسرون في المراد بهذه الأبواب، فورد عن الإمام علي عليه السلام أنها أطباق بعضها فوق بعض. وذكر ابن كثير عن عكرمة أنها أطباق. وعن ابن جريج: سبعة أبواب: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. وقال قتادة: لها سبعة أبواب هي والله منازلهم. . . وهذه كلها آثار ليس فيها شيء وارد عن النبي ﷺ فلنقف مع ظاهر القرآن والأحاديث النبوية.

فإن قوله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقوله: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ...﴾ الآية، كلاهما صريح في الأبواب حقيقة وأن الكفار سيدخلون النار منها كلٌ بحسبه.

[٣٩٠] ومما يستأنس به هنا ما رواه ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«لجهنم سبعةُ أبواب: بابٌ منها لمن سلّ السيف على أمتي - أو قال - على أمة محمد ﷺ»**.

رواه الترمذي في التفسير (٢٩٢١)، وأحمد (٩٤/٢) وسنده صحيح.

فإن الحديث دال على أن لجهنم سبعة أبواب حقيقة كما نطق به القرآن، وأن باباً منها خاص بمقاتلي المسلمين بلا حق فهو طريقهم إلى النار.

* * *

❁ أهل النار وأنواع عذابهم

[٣٩١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تحاجَّتْ الجنةُ والنارُ، فقالت النار: أوثِرتُ بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس، وسقَطُهم، وغَرثهم؟»**، وفي رواية: **- وعجزهم - فقال الله عزّ وجل للجنة: أنتِ رحمتي أرحم بكِ من أشاء من عبادي، وقال للنار: أنتِ عذابي أُعذّب بكِ من أشاء من عبادي، ولكل واحدةٍ منهما ملؤها»**.

رواه البخاري في التفسير (٢١٩/١٠)، ومسلم في صفة الجنة (١٨٢/١٧)، والترمذي في احتجاج الجنة والنار (٢٣٧٨).

«تحاجت» أي: تخاصمت. وقوله: «وسقطهم» بفتح السين والقاف، أي: الضعفاء والمحتقرون منهم. وقوله: «وغَرثهم» بفتح الغين وثاء مثلثة، أي: أهل الفاقة والحاجة، وفي رواية «وغرتهم»: بكسر الغين مع التاء

المثناة، ومعناه: البله الغافلون الذين ليس لهم حذق في أمور الدنيا.

الحديث دلّ على أن أهل النار هم المتكبرون المتجبرون وهؤلاء بطبيعة الحال لا يكونون إلا كفاراً أو طغاة ظلمَة معتدين، ومَن نحا نحوهم من المسرفين.

[٣٩٢] وعن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بأهل النار؟ كلُّ عُتُلٍّ جوَّاظ زَنيم مُستكبر»**.

رواه مسلم في صفة جهنم (١٨٧/١٧)، والبخاري في التفسير (٢٨٩/١٠).

«العتل»: بضم العين والتاء، هو الجافي الشديد الخصومة بالباطل الفَظُّ الغليظ. و«الجواظ»: هو الجموحُ المنوع أو الكثير اللحم القصير البطين المختال في مشيه. و«الزنيم»: هو الدَّعِيُّ في النَّسَبِ المُلْصَق بالقوم. و«المستكبر»: هو صاحب الكبر الذي يبطر الحق ولا يقبله ويحتقر الناس.

وهذه الصفات لا تنطبق إلا على الكافرين والمنافقين والعتاة من الظالمين والمتجبرين والمعتدين والفاسقين المسرفين.

وهؤلاء هم سكان النار وأصحاب الجحيم على اختلاف أصنافهم وأجناسهم وصفاتهم، وستأتي آيات القرآن التي ذكرتهم وذكرت صفاتهم وعذابهم.

* * *

❊ عظم جثث أهل النار وأطرافهم

[٣٩٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«ما بين مَنكِبَيْ الكافر مسيرةُ ثلاثةِ أيام للراكب المُسرع»**.

رواه البخاري في الرقاق (٢١٤/٢١٣/١٤)، ومسلم في صفة جهنم (١٨٦/١٧).

[٣٩٤] وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ضِرْسُ الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغِلظُ جلده مسيرة ثلاث»**، وفي رواية: **«إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً، وإن ضرسه مثلُ أحد، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة»**، وفي رواية: **«ومقعده من النار مسيرة ثلاث مثل الرَّبَذَة»**.

رواه مسلم بالرواية الأولى (١٨٦/١٧)، والترمذي بالثانية والثالثة (٢٣٩٧/٢٣٩٤) كلاهما في صفة جهنم، ورواه ابن حبان (١٦١٦)، والحاكم (٥٩٥/٤) برواية الترمذي، وحسّنه الترمذي وصححه كما صححه الحاكم والذهبي.

[٣٩٥] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: **«يعظم أهل النار في النار حتى إن بين شحمة أُذُن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أحد»**.

رواه أحمد (٢٦/٢) بسند حسن أو صحيح.

فهذه الأحاديث تدل على أن الله عزّ وجل سيضخم أجساد الكفار ويجعلها عظيمة في النار ليكون ذلك أبلغ في إيلامهم وتعذيبهم، وكلما احترقت جلودهم بدلها الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب.

كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ فيضخمون ويعظمون لتمتلىء منهم النار مع اتساعها وليذوقوا العذاب.

وما جاء في هذه الاختلافات من اختلاف في العظم والعدد هو بحسب اختلاف عذابهم، فالصفات كلها حق، فإن عذاب الكفار بل وسائر أهل النار ليسوا فيه سواء بل هم متفاوتون في ذلك، فليس عذاب المنافقين كالكافرين، وليس عذاب فرعون والنمروذ وقارون وهامان وأبي جهل وأبي لهب وغيرهم من الفراعنة والجبابرة كعذاب المقوقس، وهرقل، وغيرهم ممن يسالم المسلمين أو يعينهم ويمدهم بالأسلحة مثلاً ولا يحاربهم.

فمن أهل النار مَن لا يعذَّب إلا على كفره وتركه فروع الشريعة،

ومنهم من يعذَّب على كثرة إجرامه وعداوته المسلمين وقتالهم مضافاً إلى كفره، ومنهم ومنهم، فيكون تضخيم أجسادهم وتعذيبهم حسب ما كانوا عليه في الدنيا.

ومما يدل على تفاوتهم في العذاب الآتي:

* * *

❊ تفاوت أهل جهنم في العذاب

[٣٩٦] عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ قال: **«منهم من تأخذه النار إلى كعبَيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتَيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِه، ومنهم من تأخذه النار إلى تَرْقُوَته»**.

رواه مسلم في جهنم (١٧/١٨٠).

«حجزته»: بضم الحاء وسكون الجيم، معقد السروال. وقوله: «ترقوته» بفتح التاء وضم القاف، هو العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق.

فهذا الحديث نصّ في أن أهل النار متفاوتون في العذاب، فالله تعالى حكم عدل، ففي المعذبين من يكونون أشد أهل النار عذاباً وأفظهم عقاباً، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ وقال: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

قال المفسرون: ليس في القرآن الكريم آية أشد على أهل النار من هذه الآية.

وفيهم من يهون ويخفف عليهم العذاب كما يدل عليه الآتي:

* * *

❁ أهون أهل النار عذاباً

[٣٩٧] عن النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرَجُلٌ توضعُ في أخمص قدمَيه جمرةٌ يغلي منها دماغه»**.

وفي رواية: **«إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشِراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المِرجل، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً»**.

رواه البخاري في الرقاق (٢٢٣/١٤)، ومسلم في الإيمان (٨٥/٣/٨٦) بالرواية الأولى والثانية لمسلم ونحوه عنده من رواية أبي سعيد الخدري.

«المرجل»: بكسر الميم وفتح الجيم هي القدر.

[٣٩٨] وعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ ذُكر عنده عمُّه أبو طالب فقال: **«لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبَيه يغلي منه دماغه»**.

رواه البخاري في الرقاق (٢٢٤/١٤)، ومسلم في الإيمان (٨٥/٣).

[٣٩٩] وعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: قلت: يا رسول الله إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل نفعه ذلك؟ قال: **«نعم، وجدته في غمرات من النار فأخرجتُه إلى ضَحْضَاح، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»**.

رواه مسلم (٨٤/٣).

قوله: «في غمرات» بفتحات، جمع غمرة أي: معظم النار. وقوله: «ضحضاح» بضادَيْن بينهما حاء، هو من قَلَّ ورَقَّ من الماء على وجه الأرض بحيث يصل إلى الكعبَيْن. و«الدَّرَكُ»: بفتحتين، أقصى أسفلها. وقوله: «يحوطك» أي: يحفظك ويصونك.

فهذه الأحاديث كلها تدل على أن أهل النار متفاوتون في العذاب،

ففيهم أعلا وأشد وأشق، وفيهم أدنى وأهون... وأدناهم بالنسبة لمن مات كافراً أبو طالب شفع له النبي ﷺ خصيصة له فخفف الله عنه العذاب لما أسداه إليه ﷺ من خير ونصر ودفاع، وكم كنا نود أن ينطق بالشهادتين لكن الله عزّ وجل أرحم وأعلم به منا، أما عذاب عصاة المؤمنين فيختلف أيضاً، وستأتي الإشارة إلى ذلك لاحقاً.

* * *

طعام أهل النار وشرابهم

[٤٠٠] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، فقال: «**لو أنّ قطرةً من الزَّقُّوم قطرَتْ في الدنيا لأفسدتْ على أهل الدنيا معايشَهم، فكيف بمن يكونُ طعامهم**».

رواه أحمد (٣٣٨/١)، والترمذي في صفة شراب أهل النار (٢٤٠٤) وحسّنه وصححه، والنسائي في الكبرى (٣١٣/٦)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، وابن حبان بالموارد (٢٦١١)، والحاكم (٢٩٤/٢/٤٥١) وصححه على شرطهما، ووافقه الذهبي.

«الزقوم»: كالتَّنُّور، شجرةٌ خبيثة كريهة الطعم والرائحة.

[٤٠١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الحميمَ لَيُصَبُّ على رؤوسهم فينفُذُ حتى يخْلُص إلى جوفه فيسلُتَ ما في جوفه حتى يمرُق من قدمَيه، وهو الصَّهَرُ ثم يعاد كما كان**».

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٣٩٩) وسنده صحيح، ولذا صححه الترمذي لأن رواية أبي السمح هنا ليست عن أبي الهيثم.

«الحميم»: هو الماء البالغ نهاية الغليان والحرارة. قوله: «فينفذ» أي: يدخل. «حتى يَخلُص» بضم اللام، أي: يصل. «فيسلت» أي: يمسح ويقطع. «يمرق» أي: يخرج. «الصهر»: بفتحتين، إشارة إلى قوله تعالى:

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ﴾ أي: يُذاب بالحميم ما في أجوافهم كما فصّله الحديث.

فهذا طعام أهل النار وهذا شرابهم، فطعامهم الزقوم، وهو شجر خبيث منتن، والضريع وهو شجر الشِّبْرق له شوك من شر الطعام وأبشعه، والغسلين وهو شر الطعام، وقيل: هو صديد أهل النار، والغساق وهو ما اجتمع من صديد أهل النار وجروحهم ودموعهم وعرقهم، لا يستطاع أكله لشدة برودته، ولا يقدر على مواجهته لعظم نتنه.

فإذا عطشوا واستغاثوا سُقوا من الماء الحميم الذي انتهى حره وغليانه، فيصب على رؤوسهم فيدخل في أجوافهم فيقطع أمعاءهم ويسلت ويذيب ما في بطونهم حتى يخرج من أقدامهم. وأحياناً يُسقَوْن من ماء صديد يتجرعه الكافر ولا يكاد يسيغه.

[٤٠٢] فعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ الآية، قال: «**يقرب إلى فيه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره**»، قال الله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

رواه الترمذي (٢٤٠٠)، وأحمد (٥/٢٦٥)، والحاكم (٢/٣٥١/٣٦٨/٣٦٩) وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

وقوله: «يتجرعه» أي: يتكلف بلعه لحرارته ومرارته. «ولا يكاد يسيغه» أي: يبتلعه لكراهته ونتنه. و«المُهْل»: هو ماء حار كدَرْدِي الزيت أو كالمُذاب من المعادن، ويؤيده الحديث التالي:

[٤٠٣] فعن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**كالمهل**»، قال: «**كعكر الزيت إذا قرب إليه سقطت فروة وجهه**».

رواه الترمذي (٢٤٠١) فهو شاهد لما ذكرنا.

ودرد الزيت أو عكره: هو دَنَسُه ووسَخُه. وفروة وجهه أو رأسه: هي جلدته.

[٤٠٤] وقد جاء في حديث شارب الخمر عن أسماء بنت يزيد رضي الله تعالى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن شرب الخمر لم يرضَ الله تعالى عنه أربعين ليلة، فإن مات مات كافراً، فإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال»** قيل: يا رسول الله وما طينة الخبال؟ قال: **«صديد أهل النار»**.

رواه أحمد (٦/٤٦٠) بإسناد حسن، وتقدم حديث جابر وابن عمر بنحو ذلك، كما تقدم حديث أبي موسى في شرب المدمن من نهر الغوطة، وهو نهر يجري بما يخرج من فروج الزواني من قيح وصديد ونتن.

[٤٠٥] وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُلقَى على أهل النار الجوعُ فيَعْدِلُ ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيُغاثون بطعام من ضريع، لا يُسْمِنُ ولا يُغني من جوع، فيستغيثون فيُغاثون بطعام ذي غُصّة فيذكرون أنهم يُجيزون الغُصَصَ في الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب فيُدفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شوَت وجوههم، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم، فيقولون: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾، قال: فيقولون: أُدعوا مالكاً، فيقولون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾، قال: فيجيبهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾»**.

قال الأعمش: نُبِّئْتُ أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألفا عام. قال: فيقولون: ادعوا ربكم، فلا أحد خير من ربكم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ قال: فيجيبهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

قال: فعند ذلك يئسوا من كل خير، وعند ذلك يأخذون في الزفير، والحسرة، والويل.

رواه الترمذي في صفة جهنم (٢٤٠٥) بتهذيبي بسند حسن لاختلاف في شهر، وصححوا أنه موقوف. ولا يخفى أن حكمه الرفع لأنه لا يقال من قبل الرأي.

وله شاهد عن عبدالله بن عمرو بنحوه رواه البغوي في شرح السنة (٤٤٢٠) وفي آخره: **«وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم»**، فشبّه أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق... ورجال سنده ثقات.

في هذا الحديث أهوالٌ وأنواعٌ من عذاب الكفار، فهم مع ما سيكونون فيه من الحريق والعذاب الأليم سيعذبهم الله تعالى بالجوع فيطلبون الطعام، فيُعْطَوْن الضريعَ الخبيثَ المُنتنَ ثم يستغيثون ثانياً فيُردَفون بطعام آخر أخبث من الأول وأشد عذاباً وألماً، فيقف في حلاقمهم فيستغيثون بالشراب ليُجيزوا غُصَصهم فيغاثون بالماء الحار المتناهي الغليان يدفع إليهم بكلاليب الحديد النارية، فإذا دنت من وجوههم أحرقتها، فإذا شربوها قطعت ما في بطونهم، وأذابتها فينادون خزنة جهنم فلا يجدون عنهم خيراً، ثم ينادون خازن النار أن ادعوا الله أن يميتنا ويريحنا فيجيبهم أنكم ماكثون دائمون في النار فلا خلاص لكم منها، ثم يتوجهون إلى الله يدعونه ويستعتبونه ويعترفون له بما كانوا عليه في الدنيا من الضلال، ويسألونه الخروج من النار والرجعة إلى الدنيا وأنهم إن عادوا لما كانوا عليه هم ظالمون فيجيبهم الله عزّ وجل مؤيساً لهم: امكثوا فيها خاسئين أذلاء ملعونين مطرودين... ولا تعودوا تكلموني في شأنكم.

***

❁ لباس أهل النار

[٤٠٦] عن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربعٌ في أمّتي من أمْرِ الجاهلية لا يتركونَهُن الفَخرُ بالأحساب، والطعنُ في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على**

الميت، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِربال من قطران، ودِرْعٌ من جَرَب».

رواه أحمد (٥/٣٤٢/٣٤٣) ومسلم في الجنائز (٦/٢٣٥).

«سربال»: بكسر السين هو مطلق اللباس. و«الدرع»: هو القميص. و«القطران»: معروف، وكانت العرب تطلي به الإبل.

ففي الحديث دليل على أن أهل النار ستكون لهم ثياب يرتدونها زيادة في عذابهم وتختار لهم من قطران لأنه ألصق شيء بالنار.

وفي القرآن الكريم: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ...﴾ إلخ.

وقال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي: فصلت لهم مقطعات من نار يلبسونها وباقي معاني الحديث تقدمت في الأخلاق.

* * *

تتويج أهل جهنم بتيجان من نار

[٤٠٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ...﴾ فذكر الحديث.

وفيه: **«وأما الكافر فيسْوَدُّ وجهه، ويُمَدُّ له في جسمه ستون ذراعاً في صورة آدم، ويلبسُ تاجاً من نار فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شر هذا، اللهمّ لا تأتنا بهذا، فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزِه، فيقول: أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثلَ هذا».**

رواه الترمذي في التفسير (٢٩٣٤) وحسّنه وصححه ابن حبان.

فهذا لون آخر من عذاب أهل جهنم وهو تتويجهم بتيجان النار تضعيفاً لعذابهم وزيادة في آلامهم وإحراقهم كما يتوج أهل الجنة بتيجان الذهب واللؤلؤ...

* * *

«تَلْفَحُ وجوههم النار وهم فيها كالحون»

[٤٠٨] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال: «**تشويه النار فتقلَّصُ شَفَتُه العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفَتُه السفلى حتى تضرب سُرَّتَه**».

رواه أحمد (٨٨/٣)، والترمذي (٢٩٧٠)، والحاكم (٣٩٥/٢) وصححاه.

«كالحون»: جمع كالح وهو العبوس الذي انكشفت شفته عن أسنانه. وقوله: «فتَقَلَّصُ شفته» أي: تنزوي وترتفع إلى الأعلى.

هكذا سيكون حال أهل النار في جهنم فهم لشدة عذابهم وتوالي حزنهم وعبوسهم ستنزوي شفاههم العليا وتجتمع عن الأسنان حتى تصل إلى أوسط رؤوسهم بينما شفاههم السفلى ستنحدر وتسترخي وتنكشف عما أسفل من الأسنان حتى تصل هي الأخرى أسفل بطونهم وتبقى أسنانه مكشوفة تسعر فيها النار عياذاً بالله من حالهم.

* * *

بكاء أهل النار وما ينشأ عن ذلك

[٤٠٩] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل النار لَيَبْكون حتى لو أُجْرِيَتْ السُّفُنُ في دموعهم لجرت، وإنهم ليبكون الدم**». يعني: مكان الدمع.

رواه الحاكم في الأهوال (٦٠٥/٤) وصححه ووافقه الذهبي وله شاهد عن أنس رواه ابن ماجه في الزهد (٤٣٢٤) بنحوه، وفيه يزيد الرقاشي والعمدة على حديث أبي موسى.

هذا بكاء أهل النار فهم سيبكون في جميع مراحل أنواع عذابهم ومشاهدهم حتى تنقطع دموعهم ثم يعقب ذلك بكاؤهم الدم، ولكثرة ما

يسيل من دموعهم تتكون أودية أو بحار بحيث لو أجريت فيها السفن والمراكب البحرية لجرت فيها، وما ذلك إلا لما يلاقونه ويقاسونه من أنواع العذاب الذي لا نتصور شدته وفظاعته.

* * *

❁ صناديق أهل النار المقفلة عليهم والمعذَّبون فيها

[٤١٠] عن سوَيْد بن غفلة رضي الله تعالى عنه قال: **إذا أراد الله أن يُنسي أهلَ النار جُعل للرجل منهم صندوق على قدره من نار، لا ينبض منه عِرْقٌ إلا فيه مسمارٌ من نار، ثم تُضْرمُ فيه النار، ثم يُقفل بقُفْلٍ من نار، ثم يُجعل ذلك الصندوق في صندوق من نار، ثم يُضرم بينهما نار، ثم يُقفل بقُفل من نار، ثم يُجعل ذلك الصندوق في صندوق من نار، ثم يُضرم بينهما نارٌ ثم يقفل، ثم يُلقى أو يُطرح في النار فذلك قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾، وذلك قوله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، قال: فما يرى أن في النار أحداً غيره.**

رواه البيهقي بإسناد حسن موقوفاً، قاله المنذري... لكن له حكم الرفع لأن أحوال الآخرة لا تُدرَك بالنظر.

هذا مشهد آخر من مشاهد عذاب أهل النار، ذلك أن الله عزّ وجل يأمر بمن شاء منهم أن يُسجن في صندوق من نار على قدر جثته لا يتحرك منه عرق في ذلك الصندوق إلا فيه مسمار من نار مضروب فيه يُعذّب به، ثم تُضرم النار في ذلك الصندوق وهو فيه، ثم يُقفل عليه بقفل من نار، ثم يُلقى في صندوق ثان، ثم ثالث مع إقفال الجميع وإضرام النيران فيها، ثم في النهاية يلقى ويُطرح في وسط جهنم وهو داخل تلك الصناديق المقفلة عليه والمضرمة بالنار، وهو لا يدري ما خارج تلك الصناديق فيظن أنه وحده يعذّب. قال تعالى: ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

* * *

❊ أودية القَيْح تجري بين أُذن الكافر وعاتقه

[٤١١] عن مجاهد رحمه الله تعالى قال: قال لي ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أتدري ما سَعَةُ جهنم؟ قلت: لا أدري، قال: أجل والله لا تدري، إن بين شحمة أُذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً، يجري فيها أودية القَيْح والدم، قلت: أنهار، قال: لا بل أودية.

رواه البغوي في «شرح السنة» (٢٥١/١٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٨٣/٨) مطولاً بسند صحيح، وهذا مشهد آخر من عذاب أهل النار، ذلك أنه سيعذب أحدهم حتى تسيل منه أودية من القَيْح والدم تجري بين أُذنه وعاتقه.

وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدل على أنه لا يتصور ما يعذب به الكفار من أنواع العذاب، كما يدل على عظم جثث أهل النار وسعة جهنم في طولها وعرضها كما تقدم.

* * *

❊ طلب الكفار الفداء

[٤١٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنتَ تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقول: أردتُ منك أهونَ من هذا وأنت في صُلْب آدم أن لا تُشرك بي شيئاً فأبيتَ إلا أن تُشركَ بي»**.

رواه البخاري في الأنبياء وفي الرقاق باب صفة الجنة (٢١٦/١٤) وفي باب من نوقش الحساب عُذِّب (١٩٥/١٤)، ومسلم في صفة المنافقين (١٤٧/١٧)، وفي رواية: **«أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفتدي به؟»** دلّ الحديث على أن الكفار عندما يلقون في النار ويذوقون عذابها ولو كانوا من أهونهم عذاباً أنهم يتمنون افتداء أنفسهم مما هم فيه من العذاب بملء الأرض ذهباً ولكن هيهات، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، ومعناه: أنه لو كان لهم جميع ذلك وأمكنهم الافتداء لافتدوا، ولكنه فات الأوان فلا افتداء ولا تخفيف عنهم ولا خروج. وتأتي بقية ومزيد في آيات النار وأهلها.

* * *

❋ نسيان الكافر كل نعيم مرّ عليه في الدنيا بغمسة واحدة في نار جهنم

[٤١٣] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يؤتى بأنعَم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبغُ في النار صبغةً، ثم يقال: يا ابنَ آدم هل رأيت خيراً قط، هل مرّ بك نعيمٌ قط، فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيُصْبَغُ صبغةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مرّ بك شدةً قط؟ فيقول: لا والله يا رب ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»**.

رواه مسلم في طلب الكافر الفداء (١٤٩/١٧).

قوله: «فيصبغ صبغة» أي: يغمس غمسة. قوله: «هل رأيت بؤساً» البؤس هو الشدة كالفقر ونحوه.

انظر أيها المسكين إلى مآل الكافر وإلى ما يحصل له بمجرد غمسة واحدة يغمسها في النار ثم يخرج امتحاناً له فينسى بذلك كل ما سبق له من نعيم ورغد العيش وترفيه في الدنيا، وهذا يكون في أنعم أهل الدنيا كأكابر الملوك الأغنياء والطغاة المتجبرين من الكفار وغيرهم، إنه عذاب وهول فوق مستوى عقولنا وفوق تصوراتنا.

وبالعكس ساكنو الجنة يؤتى بأضيقهم حياة في الدنيا وأشدهم بؤساً وفاقة فيغمس غمسة واحدة في نعيمها فينسى بذلك كل ما مرّ عليه من ضيق وشدة... فالحمد لله على أن جعلنا مسلمين ومن أمة سيد العالمين ﷺ.

* * *

ملءُ جهنم وطلبها المزيد

[٤١٤] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع ربُّ العزة قدمَه فيها فتقول: قط قط، وعزّتك، وينزوي بعضها إلى بعض، ولا يزال في الجنة فضل حتى يُنشيء الله خلقاً فيسكنه فضول الجنة»**.

رواه البخاري في الأيمان والنذور وفي مواضع، ومسلم في الجنة، باب النار يدخلها الجبارون (١٧/١٨٣/١٨٤).

قوله: «قط قط» أي: حسبي. وقوله: «حتى يضع رب العزة قدمه فيها».

«القدم» بفتح القاف والدال المعروف عندنا بالجارحة محال في حق الله سبحانه فهو من المتشابه وأحاديث الصفات، ولذا كان مذهب السلف فيه وفي أمثاله مما يوهم التشبيه بالخلق إمراره كما جاء من غير تفسير ولا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ونؤمن بذلك على ما أراد الله تعالى، ونعتقد أن لها معنى يليق بها نفوض حقيقتها إلى الله تعالى. قوله: «وينزوي بعضها إلى بعض» أي: يجتمع.

والحديث يدل على أن جهنم ستتكلم يوم القيامة وتطلب المزيد من وقودها وأنها رغم ما دخلها من ملايين وبلايين البلايين من الكفار وسكانها سيبقى فيها المتسع للتعذيب فتنادي حقيقة هل من مزيد بعد أن يقال لها: هل امتلأت، فلا تزال تنادي كذلك والله عزّ وجل يمدها بأقوام وأقوام فلا تمتلىء حتى يضع رب العزة قدمه فيها على ما أراد فتقول: حسبي قد اكتفيت.

وهذا الحديث الشريف يوافق قوله عزّ وجل: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ الآية. أي: هل بقي شيء تزيدني.

وهذا الحديث يدل على أن جهنم ستمتلىء بأصحابها الذين استحقوها بأعمالهم وما جنوا على أنفسهم في الدنيا، وستوقد وتمتلىء بجميع أجناس بني آدم وأهل الملل الكفرية وإبليس وبنيه وجنوده، وسيحضر فيها ويعذب

بجميع أنواع عذابها جبابرة الأمم وطغاتهم وظلمَتهم ومنافقوهم وأساطين الكفر ورؤساء أهل الضلال الذين طالما أشركوا مع الله غيره وعبدوا الأوثان والأصنام والحجارة والنار والأشجار والشمس والقمر وردوا دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وكذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به وحاربوا المؤمنين وعادوهم واحتقروهم وتغلّبوا على ضعفائهم بقوتهم الساحقة واستعمروا بلادهم وسفكوا دماء الأبرياء منهم شيوخاً ونساءً وأطفالاً.

فها هم أولاء الآن داخل جهنم هي مأواهم ومقرهم ومهدهم لا يفتر عنهم فيها عذابها وما هم منها بمخرجين خالدين فيه مخلّدين أبد الآبدين.

وستأتي بقية بتفصيل في آيات القرآن الواردة في جهنم وأصحابها قريباً.

* * *

النساء من أكثر سكان النار

[٤١٥] عن أسامة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«قمتُ على باب الجنة فكان عامةُ من دخلها المساكين، وأصحاب الجَدِّ محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أُمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»**.

رواه البخاري (٢٠٩/١٤) ومسلم (٥٣/١٧) كلاهما في الرقاق.

«عامة» أي: أكثر، وقوله: «وأصحاب الجد» بفتح الجيم، أي: الغنى.

[٤١٦] وعن عمران بن حصين رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»**.

رواه البخاري في الرقاق (٢٠٩/٢٠٨/١٤) ومسلم في الرقاق أيضاً (٥٣/١٧) بلفظ **«إن أقل ساكني الجنة النساء»**.

[٤١٧] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما مثل لفظ عمران رواه مسلم (٥٣/١٧) ورواه البخاري أيضاً في العلم بلفظ: «**أُريتُ النارَ فرأيت أكثرَ أهلها النساء**».

[٤١٨] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المُصلَّى ثم انصرف فوعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال: «**أيها الناس تصدّقوا**»، فمرّ على النساء فقال: «**يا معشر النساء تصدّقن، فإني رأيتُكُنّ أكثرَ أهل النار**»، فقلنَ: وبمَ يا رسول الله؟ قال: «**تُكثِرْنَ اللعنَ وتكفرن العشير، ما رأيتُ من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُب الرجل الحازم من إحداكن**».

الحديث تقدم، رواه البخاري في الزكاة (٦٨/٥) وفي الحيض (٤٢١/١) مطولاً.

في هذه الأحاديث دليل على أن النساء أكثر أهل النار بكفارهم ومؤمنهم، غير أن نساء الكفار أكثر بكثير من نساء أهل التوحيد ونستفيد من هذه الأحاديث أن النساء أكثر من الرجال، وعلى هذا تدل الإحصائيات العالمية حالياً، فإن نساء العالم أكثر من ضعفَيْ الرجال، وسيأتي وقت يكثر فيه بأضعاف أضعاف ما هو موجود اليوم فقد تنبأ النبي ﷺ بأن من أشراط الساعة أن يقل الرجال ويكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيّمٌ واحد من الرجال، وتلك فتنة عارمة سيبتلي بها الرجال، فإنه ليس هنالك فتنة أضر على الرجال من النساء كما في الحديث الصحيح. وهذه إحدى موجبات دخولهن النار، فإن النبي ﷺ ذكر من أسباب ذلك كثرة لعنهن ـ يعني عند خصامهن وغضبهن ومع أطفالهن ـ وكفرهن الأزواج وإنكارهن إحسانهم إليهن ومقابلة النكران بالكفران ثم تعرضهن لفتنة الرجال ولو كانوا حازمين، فهذه هي موجبات كونهن أكثر أهل النار مضافة إلى ما جُبلن عليه ورُكّب فيهن من اتباع الهوى والإغراق في ذلك وحبهن الدنيا وشهواتها المحرّمة ويُبعدهن عن العمل للآخرة. وها نحن أولاء نشاهد ما صارت إليه المرأة حالياً من التفسُّخ والتميُّع والانحلال والتحرُّر من جميع التكاليف

الشرعية... هذا وهنّ يدّعين الإسلام فكيف بالنساء الكافرات اللائي كنّ السبب في فتنة نساء المسلمين.

فلقد صدق رسول الله ﷺ فيما حدّث به عنهن فإنه ما أخبر إلا بما أوحاه الله إليه الذي لا تخفى عليه خافية والذي يعلم ما سيؤول إليه كل الخلائق في الآخرة.

نعم، سيكون أكثر أهل النار النساء وأقلهن من سكان الجنة، لكنه يأتي هنا سؤال وهو هل سيخلّدن في النار إذا كنّ أكثر أهلها؟

والجواب: يدخلنها ويضاعفن سكانها من الرجال أضعافاً مضاعفة في البداية، ثم بعد تنفيذ وعيد الله تعالى فيهن يخرج منها المؤمنات بشفاعة الشافعين ويدخلن الجنة فيكُنَّ الأقليات من نساء الدنيا ويبقى نساء الكفار والمشركين في النار وهنّ كثُر وأضعاف أضعاف رجالهن.

* * *

❁ تعذيب أهل الكبائر من الموحدين

إن النار في الأصل خُلقت للكافرين والكافرات، والمشركين والمشركات، والمنافقين والمنافقات. قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وقال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ...﴾ الآية.

فهؤلاء هم أهلها وأصحابها وسكانها والخالدون فيها والمعذّبون بجميع أنواع العذاب في دركاتها لا تلحقهم شفاعة الشافعين، ولا تصيبهم رحمة أرحم الراحمين.

غير أنه هنالك من ينتسب إلى الإسلام وفتن في دينه ففسق عن أمر ربه إما عقدياً كأهل البدع الضالة الوارد فيهم أنهم في النار، وإما عملياً

كاتباع الأهواء والشهوات المحرمة الذين ماتوا مصرّين على كبائر الفواحش والآثام، فهؤلاء جاءت نصوص الشريعة القطعية في الجملة بدخولهم النار وتعذيبهم فيها مع الكفار سكانها ثم بعد تنفيذ وعيد الله تعالى فيهم يخرجون منها بشفاعة الشافعين وبرحمة الله عزّ وجل، ثم يلحقون بإخوانهم في الجنة وسيُعذَّبون كلٌ بحسب ما اقترف من الجرائم والفواحش، وقد جاءت أصناف من الناس نصّ الشارع على تعذيبهم ودخولهم النار وهم كالآتي:

* * *

أصناف من أهل الكبائر الموحدين الذين سيُنفَّذ فيهم وعيد الله تعالى

فمنهم قاتل النفس العمد بلا حق سواء كان المقتول كبيراً أم صغيراً ذكراً أم أنثى، ومنهم المنتحر قاتل نفسه، ومنهم المرابي الذي يعامل بالربا والفائدة، وهؤلاء الثلاثة سيكون عذابهم عظيماً، بل لم تأتِ في أصحاب الكبائر من أهل القبلة من قيل فيه مخلّداً في النار إلا هؤلاء، ومنهم الزناة والزواني، ومنهم التارك للصلاة النائم عنها، ومنهم شارب الخمر المدمن، ومنهم المتكبرون، ومنهم المصورون وخاصة النحّاتين وتصوير من فيه روح، ومنهم ذوو العقوق المسيئون لوالديهم، ومنهم الظلَمَة وأعوانهم، ومنهم الذين يعذبون الناس في الدنيا، ومنهم الخطباء الذين يقولون ما لا يفعلون، ومنهم المراؤون، ومنهم الأكّالون أموال الناس بالباطل؛ ومنهم النساء الكاسيات العاريات الملعونات، ومنهم المكاسون الذين يتولون أخذ العشور من أموال المسلمين، ومنهم القضاة الجائرون، ومنهم مانعو الزكاة، ومنهم كتَمَة العلم الشرعي المحتاج إليه، ومنهم الذين يتكلمون في أعراض الناس ويغتابونهم، ومنهم النمّامون الذين ينقلون الكلام ويفسدون بين المسلمين، ومنهم الكذّابون على رسول الله ﷺ، ومنهم الآكلون والشاربون في أواني الذهب والفضة، ومنهم الذين لا يتنزهون عن البول، ومنهم مسبلو ملابسهم اختيالاً، ومنهم المتسولون بلا ضرورة ولا حاجة، ومنهم آكلو مال اليتيم، ومنهم النائحون

على الأموات، ومنهم غصبَة أرض المسلمين، ومنهم المفلس، ومنهم المُضِرُّ في الوصية، ومنهم قاذفو المحصنين والمحصنات بالزنا ونحوه، ومنهم الطاعنون في المسلمين بما يشينهم، ومنهم الدَّيَّاثون الذين يقرون السوء والفواحش في أهليهم، ومنهم الغالُّون من الغنيمة، ومنهم الحالفون اليمين الغموس للتوصل بها إلى أكل أموال الناس، ومنهم أهل الحرابة وقطع الطريق وإرهاب المؤمنين، ومنهم في العقائد والنِحَل كالروافض الذين يكفرون الصحابة ويسبونهم وخاصة الخلفاء الثلاثة رضي الله تعالى عنهم، والخوارج الذين يكفرون أصحاب الكبائر، والذين يقولون بخلود العصاة في جهنم، والقدرية الذين ينكرون أن يكون الله قدّر الخير والشر، والنواصب الذين يعادون آل البيت النبوي ويضمرون لهم البغضاء، ومنهم المشبهة والمجسمة الذين يشبهون الله بخلقه، إلى آخر الجريدة وهي طويلة.

فكل ما ذكرناه من أهل هذه الذنوب والكبائر سيدخلون جهنم عند مرورهم على الصراط ويُعذَّبون بأنواع عذاب الله عزّ وجل حتى يصيروا حُمَماً وفحماً، وفي هؤلاء من يعذَّبون العذاب الأليم، ففيهم من يعذَّب بالثعابين في أعناقهم وفي بطونهم، وفيهم من يتردّى من جبال جهنم، وفيهم من يتحسّى السم، وفيهم من تكون له أظافير من نحاس نارية يخمش بها وجهه، وفيهم من يكون يأكل الجيفة، وفيهم من يُجْمَعُون نساءً ورجالاً عرايا وعراة داخل تنور من نار كالزناة والزواني، وفيهم من يطوق ما غصبه من الأرض إلى سبع أرضين، وفيهم من يشربون نار جهنم، وفيهم من يدور في النار كما يدور الحمار بالرحا فتحرق مصارينه فتجمع عليه أهل النار فيقولون: يا فلان ألستَ الذي كنتَ تأمرنا وتنهانا؟ فيقول: بلى كنت آمركم ولا آتيه، وأنهاكم وآتيه، هذا عذاب العالِم الفاجر، وفيهم من يضخم جسمه ويعظم حتى يكون أحد زوايا جهنم كما جاء في حديث رواه ابن ماجه بسند صحيح (٣٤٩٠).

غير أن هؤلاء وإن عُذِّبوا حسب درجاتهم وذنوبهم وأنهم سيمكثون في جهنم المئين وألوف السنين وما لا يعلمه إلا الله عزّ وجل، فإنهم لا يخلدون فيها ولا يدومون في عذابها بل سيخرجون منها بشفاعة الشفعاء وبفضل لا إله إلا الله ورحمة أكرم الأكرمين.

[٤١٩] فعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«يخرج قومٌ من النار بعدما مسّهم منها سَفْعٌ، فيدخلون الجنة، فيُسَمّيهم أهل الجنة الجهنميين»**.

رواه البخاري في الرقائق (١٤/٢٢٢).

«سفع»: بفتح ثم سكون، أي: سواد فيه صفرة.

[٤٢٠] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ ضمن حديث طويل تقدم بعضه: **«حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول: لا إلٰه إلا الله فيعرفونهم في النار يعرفونهم بأثر السجود، تأكل النار من ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار وقد امْتُحِشُوا فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون منه كما تنبت الحِبَّةُ في حميل السيل»**.

رواه مسلم في الإيمان (٣/٢٢/٢٣).

قوله: «امتحشوا» أي: احترقوا، وقد تقدم في الشفاعة ضمن أحاديث أن الله عزّ وجل سيُخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار أو نصف دينار أو مثقال ذرة من إيمان، وسيُخرج أقواماً لم يعملوا خيراً قط ـ يعني مع الإيمان ـ.

فكل من مات مصرًا على كبيرة من كبائر ما ذكرنا سيصيبه عقابها وجزاؤها في جهنم إلاّ أن يعفو الله عنه، وكل من أصابه عذاب الله فسوف يخرج منه ويكون مآله الجنة حتى لا يبقى في النار إلا الكفار والشياطين. وآخر من يخرج منها وآخر من يدخل الجنة الرجل الآتي ذكره:

* * *

آخر من يخرج من النار وآخر من يدخل الجنة

[٤٢١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر**

أهل النار دخولاً الجنة مقبلاً بوجهه قِبَل النار، فيقول: يا رب اصْرِفْ وجهي عن النار قد قشبني ريحها وأحرقني ذكاؤها، فيقول: هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك؟ فيقول: لا وعزتك، فيعطي الله ما يشاء من عهد وميثاق، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: يا رب قدّمني عند باب الجنة، فيقول الله له: أليس قد أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسأل غير الذي كنت سألت؟ فيقول: يا رب لا أكونن أشقى خلقك، فيقول: فما عسيت إن أُعطيتَ ذلك أن لا تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسأل غير ذلك، فيعطي ربه ما شاء من عهد وميثاق، فيقدمه إلى باب الجنة، فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها وما فيها من النضرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، فيقول: يا رب أدخلني الجنة، فيقول الله تعالى: ويحك يا ابن آدم ما أغدرك، أليس قد أعطيت العهود والمواثيق أن لا تسأل غير الذي أُعطيتَ؟ فيقول: يا رب لا تجعلني أشقى خلقك، فيضحك الله عزّ وجل منه، ثم يأذن له في دخول الجنة فيقول: تمنَّ، فيتمنى، حتى إذا انقضت أمنيته قال الله عزّ وجل: من كذا وكذا اقبل، يُذكِّره ربُّه حتى إذا انتهت به الأماني قال الله تعالى: لك ذلك ومثله معه».

وفي رواية عن أبي سعيد الخدري: «ذلك لك وعشرة أمثاله».

رواه البخاري في مواضع، ومسلم في الإيمان (٢٥/٢٣/٣) وللحديث ألفاظ.

قوله: «قد قشبني ريحها» أي: سمَّني وأهلكني. وقوله: «وأحرقني ذكاؤها» أي: لهبها وشدة وهجها.

[٤٣٢] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً، رجل يخرج من النار كَبْواً، فيقول الله تعالى: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيّل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى،

فيقول: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: تَسْخَرُ بي أو تضحك مني وأنت الملك»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه، وكان يقال: ذلك أدنى أهل الجنة منزلة. وفي رواية: **«فيذهب فيدخل الجنة فيجد الناس قد أخذوا المنازل فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم، فيقول له: تمنَّ، فيتمنى، فيقال له: لك الذي تمنيت وعشرة أضعاف الدنيا...»** إلخ.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢٣٩/٢٤٠) ومسلم في الإيمان (٣/٣٩/٤١).

وقوله: «كبوة» أي: ينكب على وجهه.

[٤٢٣] وعن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبي ﷺ قال: **«سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذَاتِهم، فيقال له: أترضى أن يكون لك مثلُ مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله... فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسُك، ولذّت عينك»**. الحديث يأتي تمامه في الجنة.

رواه مسلم في الإيمان (٣/٤٥/٤٦).

فهذه الأحاديث تدل كسابقتها في الشفاعة على أن النار لا يبقى فيها أحد من الموحدين، وإن لقوا الله بكل الكبائر والفواحش والآثام، وأن جميعهم سيخرجون منها جماعة جماعة، وآخر من يبقى في جهنم مع الكفار ذوي الخلود والعذاب الشديد الرجل المذكور في هذه الأحاديث وأنه آخر من يدخل الجنة أيضاً بعد أن يذوق آلام العذاب والعقاب الشديد أحقاباً من السنين لا يدري عددها إلا الله عزّ وجل.

فيتفضل الله عزّ وجل عليه ويرحمه ويرضى عنه ويعطيه من المُلك في الجنة مثل عشرة أمثال الدنيا مضافاً إلى ما سيتمناه ويذكره به ربه حتى تنقطع

به الأماني ثم لا يبقى بعد هذا إلا إعدام الموت ونداء أهل الجنة وأهل النار بالخلود كما في الحديث التالي:

***

❊ خلود أهل الجنة والنار وذبح الموت

[٤٢٤] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبشٌ أملح، فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيُذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود، فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»**، قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ وأشار بيده إلى الدنيا.

وفي رواية: **«إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يُجاء بالموت...»** إلخ، وفي رواية: **«فيُضْجَع فيُذبح، فلولا أن الله قضى لأهل الجنة الحياة والبقاء لماتوا فرحاً، ولولا أن الله قضى لأهل النار الحياة فيها والبقاء لماتوا ترحاً»**.

رواه البخاري في تفسير سورة مريم (٤٣/١٠)، ومسلم في الجنة (١٨٥/١٨٤/١٧)، والترمذي في التفسير (٢٩٥٢) بتهذيبي، والنسائي في الكبرى (٣٩٣/٦) وغيرهم.

وقوله: «كبش أملح» الأملح: هو ما كان فيه بياض وسواد. وقوله: «فيشرئبون» بسكون الشين المعجمة وفتح الراء ثم همزة مكسورة ثم باء ثقيلة مضمومة، ومعناه يمدُّون أعناقهم ينظرون. وقوله: «لماتوا ترحاً» بفتحات، أي: حزناً.

[٤٢٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يجمع الله الناس يوم القيامة في صعيد واحد...» فذكر الحديث، وفيه: **«فإذا أدخل اللّهُ أهلَ الجنة الجنةَ، وأهل النار النار، أُتي بالموت مُلبَّباً، فيوقف على السور الذي بين أهل الجنة وأهل النار، ثم يقال: يا أهل الجنة، فيطلعون خائفين، ثم يقال: يا أهل النار، فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة فيقال لأهل الجنة ولأهل النار: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: هؤلاء وهؤلاء قد عرفناه هو الموت الذي وُكِّل بنا، فيُضجَعُ فيُذبح ذبحاً على السور، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت»**.

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٧٤) وحسّنه وصححه، وابن ماجه (٤٣٢٧)، وابن حبان (٢٦١٤) مختصراً.

وروى البخاري منه: **«يقال لأهل الجنة: يا أهل الجنة خلود لا موت، ولأهل النار: يا أهل النار خلود لا موت»**.

الرقائق (١٤/٢٠٧).

[٤٣٦] وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا صار أهل الجنة إلى الجنة، وأهل النار إلى النار، جيء بالموت حتى يُجعل بين الجنة والنار ثم يُذبح، ثم يُنادي منادٍ: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٢٠٩)، ومسلم في الجنة (١٧/١٨٦).

دلّت هذه الأحاديث على أمور:

أولاً: خروج جميع عصاة الموحدين من النار ودخولهم الجنة.

ثانياً: لا يبقى في جهنم إلا أهلها الذين حقّ عليهم العذاب من جميع الإنس والجن الذين كفروا بالله وبما جاءت به رُسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

ثالثاً: فيها أن الموت سيمثل كبشاً فينادي منادٍ من قِبَل الله تعالى أهل

الجنة وأهل النار فيمدُّون أعناقهم يستمعون وينظرون فينادون: هل تعرفون هذا الكبش؟ فيقولون: نعم هو الموت، فيُضجع ويُذبح...».

وفي ذلك دليل على أن الأعراض والمعاني قد يقلبها الله أجساماً وجواهر، ذلك أن قدرة الله تعالى صالحة لكل شيء وإن خالف ذلك عقولنا الضيقة خلافاً لمن أنكر هذه الأحاديث أو ردها بتآويل تعسفية، فإن شؤون الآخرة خلاف أمور الدنيا وفوق مستوى عقولنا البشرية الحديثة.

رابعاً: بذبح الموت يزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم كما يزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم، حيث يتيقن كل من أهل الدارين أن لا موت عندهم، فلولا أن الموت ذبح وقضى عليه لمات أهل الجنة فرحاً، ولمات أهل النار حزناً وترحاً.

خامساً: في قوله: «**خلود لا موت**» دليل على أن كلاً من الجنة والنار وسكانهما خالدون لا يفنون ولا يبيدون. وبهذا جاءت نصوص القرآن والسنة النبوية، وأجمع عليه علماء الإسلام وأهل السنة.

فالقرآن ملآن بمثل قوله تعالى في سكان النار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وفي سكان الجنة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. وسيأتي ذلك مفصَّلاً قريباً إن شاء الله تعالى.

قال القرطبي رحمه الله تعالى: وفي هذه الأحاديث التصريح بأن خلود أهل النار فيها لا إلى غاية أمد، وإقامتهم فيها على الدوام بلا موت ولا حياة نافعة، ولا راحة، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾، قال: فمَن زعم أنهم يخرجون منها وأنها تبقى خالية أو أنها تفنى وتزول فهو خارج عن مقتضى ما جاء به الرسول ﷺ وأجمع عليه أهل السنة.

وقد نقل الحافظ في «الفتح» عن بعضهم مذاهب ساقطة زائفة في شأن النار ومآلها هي أقل وأسقط من أن يلتفت إليها ويشتغل بها.

* * *

❊ النار وسكانها في القرآن الكريم

لخطورة عذاب جهنم وعظيم أهوالها وأليم نيرانها حذّر الله عزّ وجل عباده منها، وأكثر تعالى في القرآن الكريم من ذكرها وذكر صفاتها وصفات أصحابها وما أعدّ لهم فيها من أنواع العذاب والسلاسل والأغلال والأصفاد والسجون وأودية النيران وما يأكلون ويتغذّون به من الزقوم والضريع، وما يشربونه من الحميم والغسلين والغساق، وما يسيل منهم من القيح والصديد، إلى غير ذلك مما تتقطع أكباد الخائفين من عباد الله لسماعه.

فما من سورة من سور القرآن الكريم إلا وفيها ذكر للنار وأهلها، كل ذلك جعله الله عزّ وجل ترهيباً وتخويفاً لعباده الذين أغوتهم الشياطين وأبعدتهم عن فطرتهم التي فطرهم الله تعالى عليها لعلهم يتذكرون ويتعظون، فيحملهم ذلك على الإيمان بالله وبما جاءت به رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم.

وإتماماً للفائدة والذكرى نورد ما جاء في القرآن من آيات في النار وأهلها، ولكثرتها سنأتي بها مرتّبة على السوَر القرآنية مع شرح ما يستحق الشرح منها بما قاله المفسرون رحمهم الله تعالى.

فليصبر معنا القارىء فلعله يتذكر أو يخشى، والذكرى تنفع المؤمنين، فنقول: وبالله نستعين.

❊ ❊ ❊

❊ من سورة البقرة

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾.

هاتان الآيتان جاءتا في أقوام خاصّين من الكفار، فإنذارهم وتركه

سواء، فقد سبق في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون بالله وبما جاء به رسول الله ﷺ، فقد طبع الله تعالى على قلوبهم فلا ينفذ إليها نور، وجعل على أسماعهم وأبصارهم أغطية فلا يسمعون الحق فيتبعونه ولا يرونه فيهتدون به، ولذا كان مآلهم ما ذكره تعالى بقوله: ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة في جهنم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هائل لا ينقطع بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

جاءت هذه الآية وما قبلها وما بعدها في المنافقين الذين كانوا يبطنون الكفر ويتظاهرون بالإيمان، وهم أخطر أهل الملل الكفرية على المسلمين.

فهم مرضى القلوب بالشك والنفاق فزادهم الله رجساً فوق رجسهم وضلالاً على ضلالهم ولهم يوم القيامة من جهنم عذاب أليم... إلخ، أي: مؤلم أشد الألم بسبب كذبهم في دعوى الإيمان وتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بالله وبرسوله وبدين الله عزّ وجل.

وقال عزّ وجل: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

فهذه الآية وأمثالها من الآتي تدل على أن حطب جهنم ووقودها الذي تتقد به هم الناس من أهل الملل الكفرية، وإبليس وجنوده وحجارة الكبريت والأصنام المنحوتة من الحجارة أيضاً، فبهذا تضرم نار جهنم وتوقد عياذاً بالله منها ومن أهلها.

وقوله تعالى هنا: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

نص في أن النار موجودة مهيئة لأهلها تنتظرهم بأهوالها وسلاسلها وأغلالها وسجونها وأوديتها وجبالها وحيّاتها وعقاربها وأنواع عذابها، فهي شر ما ينتظره من كفر بالله وجحد آياته وكذب رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: الذين جحدوا آيات الله وكذّبوا رسل الله وما جاؤوا به من الدين والهدى هم أهل النار وسكانها الخالدون الماكثون فيها أبداً بلا انقطاع ولا نهاية.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

معناه: خافوا ذلك اليوم الرهيب الذي لا تقضي فيه نفس عن أخرى شيئاً من الحقوق، ولا تقبل فيه شفاعة في نفس كافرة بالله أبداً، ولا يقبل منها فداءٌ عن نفسها، ولا لهم ناصر يمنعهم وينجيهم من عذاب الله.

وقال جلّ علاه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾.

جاءت هاته الآية رداً على اليهود في زعمهم أنهم لا تمسهم النار إلا أياماً معدودة، فقال الله تعالى: بلى ستمسكم النار وتخلّدون فيها كما يخلّد كل كافر أحاطت به ذنوبه وغمرته من جميع جوانبه وسدت عليه مسالك النجاة، كما صدر منكم معشر اليهود فأنتم وأولئك هم سكان النار وأصحابها الدائمون فيها.

وقال تعالى: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾.

جاءت الآية الكريمة تنكر على اليهود وتوبخهم على إيمانهم وعملهم ببعض التوراة وتركهم البعض الآخر وجعل ذلك منهم كفراً.

وأخبر تعالى بأن جزاء من يفرق بين الكتاب فيتلاعب بأحكامه فيعمل بما يوافق هواه ومصلحته ويترك ما لا يوافقه هو الذل والهوان والمقت من الله عزّ وجل، في الدنيا، وأما الآخرة فهو صائرٌ إلى عذاب أشد عذاب خالد لا ينقضي ولا يفتر عنه لمحة واحدة.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

معناه: لو رأى الظالمون من الكفرَة والفجرَة والطغاة والمعتدين عندما يشاهدون العذاب الذي أعدّ لهم بأن القدرة كلها للّه وحده وأن عذابه تعالى شديد أليم لا يطاق، فعندما يرون ذلك سيعاينون شيئاً لا يوصف من الهول والفظاعة وذلك عندما يتبرأ المتبوعون المُضِلُّون من أتباعهم الضالِّين المقلّدين ويشاهدون العذاب وتتقطع بينهم الأسباب والروابط والمودات، ويتمنى الأتباع المقلدة أن لو كانت لهم رجعة إلى الدنيا ليتبرؤوا من أولئك الرؤساء المضلِّين، وهكذا.

كما أراهم الله أشد عذابه في ذلك اليوم العصيب كذلك يريهم أعمالهم السيئة ندامات وحسرات تتردد في صدورهم. وليس لهم سبيل إلى الخروج من النار بل هم في عذاب سرمدي وشقاء أبدي.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

جاءت الآية الكريمة عقب حكم القصاص في القتلى حيث أخبر تعالى بأن من قتل نفساً بغير حق فعفا أهل القتيل عن الجاني فعلى أولياء المقتول أن يأخذوا الدية من القاتل ويطالبونه بها بالمعروف من غير عنف ولا إرهاق، وعلى القاتل أداؤها بلا مطل ولا نقص. فمَن اعتدى على القاتل بعد قبول الدية كما يفعل أهل العصبيات ممن لا يخاف الله فله في الآخرة عذاب وعقاب أليم في جهنم.

والآية جاءت في عصاة الموحدين وأنهم بسبب ذنوبهم سيشاركون الكفار في العذاب الأليم أعاذنا الله تعالى والمؤمنين من ذلك.

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

جاءت الآية الكريمة إثرَ حُكم هَذي التمتع في الحج والصيام لمن لم يجد الهدى، فقال عقب ذلك: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ...﴾ إلخ، أي: خافوا الله تعالى بامتثال ما أمركم به، واجتناب ما نهاكم عنه وخاصة في شؤون مناسك الحج. وتيقّنوا أن عقاب الله تعالى شديد لمن خالف حدوده.

وقال جلّ جلاله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾.

جاء هنا دور المرابين الذين يتعاطون الربا ويتعاملون به أخذاً وعطاءً ويمتصون أموال الناس ويأكلونها بالباطل.

ولذلك جاء النص القرآني الإلهي يتحدث عنهم وعن مصيرهم، فأخبر تعالى بأنهم سيقومون يوم القيامة من قبورهم مثل المصروع من الجنون يتعثر ويقع ولا يستطيع أن يمشي مستوياً فيكونون كالمصروعين، تلك علامتهم يعرفون بها في الموقف فضيحة لهم وهتكاً لأستارهم وذلك التخبُّط والتعثُّر بسبب استحلالهم ما حرّم الله تعالى حيث سووا بين الربا والبيع، فردّ الله تعالى عليهم بأنه عزّ وجل أحلّ البيع لما فيه من التبادل والمنافع من الجانبين وحرّم الربا لما فيه من الضرر العائد على الفرد والمجتمع، وأخبر عزّ وجل أن من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى عن التعامل به فله ما مضى قبل التحريم وأمره موكول إلى الله، لكن من عاد إلى تعاطيه واستحله بعد أن حرّمه الله عزّ وجل كان من المخلّدين في نار جهنم، بل جاء بعد هذه الآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: فأيقنوا بحرب الله ورسوله لكم، وقد قدّمنا الكلام في الربا وما فيه في البيوع فارجع إليه.

* * *

❁ ومن سورة آل عمران

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾.

فمَن جحد وحدانية الله وكذّب بآياته الكونية والتنزيلية وكذب رسل الله كان له في الآخرة عذاب عظيم ألمه لا تتصور شدته، والله عزّ وجل عزيز لا يغلب ولا يقهر منتقم ممن عصاه.

وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾.

ومعناه: أن الكفار بالله وبآياته وبرسله لن تفيدهم أموالهم ولا أولادهم ولن تدفع عنهم من عذاب الله وأليم عقابه شيئاً، وهم حطب جهنم الذي تُسْجَرُ وتوقد به النار. فحال هؤلاء الكفار وعادتهم كعادة آل فرعون ومن قبلهم من الأمم الكافرة حيث كذبوا بآيات الله تعالى الدالة على رسالات رسله فأهلك الله جميعهم بسبب كفرهم ومعاصيهم والله شديد العقاب، أي: أليم العذاب شديد البطش.

وقال جلّ شأنه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾.

أي: قل يا رسولي لهؤلاء اليهود ولجميع الكفار ستهزمون في الدنيا على أيدي أهل الإيمان وتجمعون يوم القيامة وتساقون إلى جهنم وبئس المهاد والفراش الذي تمهدونه نار جهنم.

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة في شأن اليهود الذين كذبوا ما جاء به

رسول الله ﷺ وما أنزل عليه وعلى من قبله كعيسى مثلاً، وكانوا يقتلون الأنبياء والعلماء الآمرين بالمعروف فأولئك لهم البشارة بالعذاب الموجع المهين لأنهم جمعوا بين جرائم ثلاث: الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الدعاة إلى الله تعالى، وكل جريمة منها كافية في استوجابهم العذاب الأليم.

وقال جلّ علاه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

جاءت الآية في شأن عيسى عليه السلام وأن الكافرين به وبملّته وبما جاء به فسيعذبه الله تعالى العذاب الشديد في الدنيا بالقتل والأسر والسبي، وفي الآخرة بنار جهنم ولا يجدون لهم ناصراً يمنعهم منها.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

جاءت هاته الآيات في اليهود والنصارى حيث كانوا قد رأوا في كتبهم صفة نبينا ﷺ وشهدوا أنه حق، فلما بعث من العرب حسدوه فكفروا بعد إيمانهم وعلمهم ومعرفتهم، فكان جزاؤهم على ذلك اللعنة والطرد من الله تعالى وملائكته والخلق أجمعين ماكثين في النار أبد الآبدين لا يخفف أو يُفتّر عنهم العذاب ولا هم يمهلون.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

معناه: أن كل من مات على كفره فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهباً، بل ليس لهم إلا العذاب المؤلم الموجع وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ويجيرهم من أليم عقابه.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

جاء هذا الخطاب الإلهي موجهاً إلى هذه الأمة المشرفة يحذرهم من التفرُّق والاختلاف وينهاهم عن التشبُّه في ذلك باليهود والنصارى الذين تفرقوا واختلفوا في الدين بعدما جاءتهم الآيات الواضحات، وبسبب ذلك سيكون لهم عذاب شديد يوم القيامة، وذلك عندما تبيض وجوه المؤمنين بالإيمان وطاعة الله ورسوله ﷺ، وتسود وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي الكثيرة المتوالية، وسيقال لهم في ذلك الوقت الرهيب توبيخاً لهم: أكفرتم بعدما وضّحت لكم الآيات وظهرت لكم دلائل الحق فذوقوا العذاب الشديد بسبب كفركم وإصراركم عليه حتى الموت.

وقال عزّ وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

هذا نهي من الله تعالى للمؤمنين عن تعاطي الربا كما كان عليه الجاهلية وكما هو جار عند الناس اليوم وأمرهم بالتحفُّظ بامتثال أمره ونهيه من النار التي خلقت مهيأة ومعدة للكافرين، ثم ختم الآيات بالأمر بطاعته تعالى وطاعة رسوله ﷺ ليكونوا من الأبرار الذين تشملهم رحمة الله.

وقال عزّ من قائل: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾.

ومعناه: لا يستوي من آمن بالله واتبع رضوانه ومن كفر بالله وعصاه وباء بسخطه وخسر دنياه وأخراه وكان مصيره ومرجعه جهنم وبئست النار مستقراً له. هم درجات متفاوتون في المنازل عند الله تعالى، فلمن اتبع رضوان الله الكرامة والدرجات العلى، ولمن باء بسخط من الله المهانة والذل والخزي والعذاب الأليم في دركات النار.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟

ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ...﴾ إلخ. تسلية للنبي ﷺ، أي: لا تحزن ولا تتألم للمنافقين الذين يبادرون نحو الكفر بما يبدو من أقوالهم وأفعالهم ولا تبالِ بما يظهر منهم من آثار الكيْد والمكر للإسلام والمسلمين، فإنهم بكفرهم لن يضروا الله وإنما يرجع ذلك إليهم، فالله تعالى يشاء بحكمته ومشيئته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ولهم عذاب عظيم فوق الحرمان من ثواب الله. ومَن استبدل الكفر بالإيمان لن يضروا الله بكفرهم بل وبال ذلك راجع عليهم بالعذاب المؤلم. ولا يظنن أولئك الكافرون أن إمهالنا لهم وإطالنا لأعمارهم خير لهم، بل نفعل ذلك بهم ليزدادوا ويكتسبوا ذنوباً وجرائم فتتضاعف آثامهم ولهم في الآخرة عذاب يهينهم.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾.

جاءت الآية الكريمة تهدد البخلاء الذين يمنعون زكاة أموالهم ويظنون أن ما أعطاهم الله من ثراء هو خير لهم وإن منعوا حق الله منه، بل ذلك شر وأي شر لهم، فسيجعل يوم القيامة طوقاً في أعناقهم يعذّبون به حيث سيمثل له ماله ثعباناً عظيماً فيأخذ بشدقَيْه ويلتوي على عنقه يعذبه ويقول له: أنا مالك أنا كنزك.

وقال جلّ جلاله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾.

جاءت الآيتان في اليهود الملاعن حيث زعموا أن الله فقير وهم أغنياء فستكتب عليهم هذه المقالة الشنيعة وما فعله أسلافهم من قتلهم الأنبياء

ويكون مآلهم العذاب الحريق الذي لا يوصف ألمه، ويقال لهم: ذوقوا ذلك بسبب ما كسبت أيديكم من الكفر وأنواع الآثام والجرائم، ولست بظالم لكم فإني قد حرّمت الظلم على نفسي.

* * *

❋ ومن سورة النساء

قال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴿١٠﴾﴾.

جاءت هذه الآية الكريمة خاتمة الكلام على اليتامى وأموالهم فأخبر تعالى بأن آكلي أموال اليتامى إنما هم في الحقيقة يأكلون النار التي تتأجج في بطونهم يوم القيامة، ولا بد وأن يدخلوا ناراً هائلة مستعرة وهي نار السعير.

والآية الكريمة كغيرها كثير تدل على أن عصاة الموحدين سيشاركون الكفار في أنواع عذابهم عياذاً بالله من ذلك.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة عقب الكلام على أحكام المواريث والوصية، فأخبر تعالى أن من عصى أمر الله وأمر رسوله ﷺ، وتجاوز ما حدّه تعالى من الأحكام والحلال والحرام سيُدخله ناراً مخلّداً فيها لا يخرج منها أبداً، وهذا بديهي فيمن كفر بذلك ومات عليه، أما من مات موحّداً فلا يخلّد في النار.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٨﴾﴾.

جاءت الآية تنفي عدم قبول توبة العاصي المصر على سيئاته حتى إذا فاجأه الموت وعاين مقامه، قال: إني تائب، وهكذا الحال في الذي يموت كافراً فأولئك أعدّ الله لهم عذاباً موجعاً ذاك لإصراره وعدم توبته من ذنوبه، وهذا لكفره وموته عليه بدون إسلام.

أما الذي تقبل توبته فهو الذي يأتي الذنب سفهاً وجهالة مقدّراً قبح المعصية ثم ندم وأناب وتاب سريعاً قبل موته.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ﴾.

في الآية الكريمة النهي عن الانتحار وقتل الإنسان نفسه، وأن من يفعل ذلك معتدياً ظالماً نفسه لا سهواً ولا خطأً ولا مكرَهاً فسوف يُدخله الله عزّ وجل ناراً عظيمة يحترق فيها.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾.

جاءت هذه الآية الكريمة في اليهود حيث كانوا متصفين بالبخل، ثم يضيفون إلى ذلك نهيهم الصحابة عن الإنفاق ويزيدون فيخفون ما عندهم من المال ويكتمون نعت النبي ﷺ الموجود عندهم في التوراة، فهؤلاء قد أعدّ الله لهم عذاباً ذا إهانة وخزي وإذلال وهو عذاب جهنم وبئس القرار.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾.

هذا ما أعدّه الله عزّ وجل للكفرة والمجرمين الذين كفروا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به رسل الله وقاوموا دعوتهم فسيُدخلهم سبحانه وتعالى ناراً عظيمة هائلة كلما انشوت جلودهم واحترقت احتراقاً تاماً بحيث تصير فحماً بدّلهم جلوداً غيرها ليدوم لهم ألم العذاب.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: تنضجهم النار في اليوم سبعين ألف مرة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فعادوا كما كانوا. وقد تقدم في

عظم جثث أهل النار، أن أحدهم يعظم حتى إن ما بين شحمة أُذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل جبل أُحد، ومجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة.

فتضخيم أجسامهم على هذا النحو ليذوقوا شدة الحريق وعظيم آلام العذاب، ويقال: إن هذه الآية من أشد آيات القرآن على الكفار.

وقال عزّ وجل: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

هذا وعيد شديد لمن سفك دم امرىء مؤمن متعمداً لقتله فجزاؤه عظيم وخاصة من استحلّ قتله فإنه سيخلّد في النار ويناله السخط الشديد من الله والطرد من رحمة الله والعذاب الشديد في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾.

في الآية وعيد عظيم لمن أقام في دار الكفر بحيث لا يتمكن من إقامة شعائر دينه، ولم يهاجر إلى بلد إسلامي حيث يستطيع مزاولة أعمال دينه بكل حرية.

فمَن أقام بين الكفار كذلك ستقبض الملائكة روحه وهو ظالم وسيوبَّخ على ما فعل ويُحاسب ثم يكون مصيره جهنم وعذابها وبئست المرجع والمقر.

وقال جلّ علاه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

معناه: أن من خالف أمر رسول الله ﷺ فيما جاء به عن الله بعدما ظهر له الحق بالآيات والمعجزات، ثم سلك طريقاً غير طريق أهل الإيمان ونهج غير منهاجهم سيتركه الله تعالى مع اختياره الفاسد ويُدخله جهنم عقوبة له وساءت جهنم مرجعاً ومأوى له.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة خاتمة الكلام على المنافقين وصفاتهم فبيّنت مآلهم ومصيرهم وهو أنهم سيكونون في الطبقة التي في قعر جهنم والدرك الأسفل من النار، وهي أعظم طبقات النار عذاباً.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أسماء طبقات النار فقالوا: هي: جهنم، ثم لظى، ثم الحُطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

وهي كما ترى كلها واردة في القرآن الكريم.

ومنهم من جعل هذه الأسماء أبواباً لجهنم.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾.

الآيتان جاءتا في اليهود والنصارى الملاعين، فهم كفار بنص القرآن وإن ادّعوا أنهم ليسوا كذلك وجاء كفرهم بإيمانهم ببعض الرسل وكفرهم بآخرين، فاليهود آمنوا بأنبيائهم وبالتوراة وكفروا بعيسى وبالإنجيل وبنبينا وما جاء به، والنصارى آمنوا بالإنجيل وعيسى وكفروا بنبينا محمد ﷺ، فجعل تعالى إيمانهم بالبعض والكفر بالبعض كفراً بالجميع والكفر بالرسل كفر بالله عزّ وجل، وكلهم قد هيّأ الله تعالى لهم عذاباً شديداً مصحوباً بالإهانة والخلود في نار جهنم.

وقال جلّ علاه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾.

لا زال الكلام على اليهود الخبثاء، فأخبر تعالى عنهم هنا أنه حرّم عليهم أنواع الطيبات وقد كانت مباحة لهم وذلك بسبب ما ارتكبوه من الجرائم وكبار الذنوب كالظلم والاعتداء، ومنعهم كثيراً من الناس عن

الدخول في دين الله الحق، وتعاطيهم الربا، وأكلهم أموال الناس بغير حق كالرشوة والغش والخداع وغير ذلك.

وقد أعدّ الله تعالى لمن كفر منهم ومات عليه العذاب الأليم الموجع...

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

وأيضاً فاليهود الذين جمعوا بين الكفر السافر وظلم أنفسهم بكثرة المعاصي والذنوب العظام لن يعفو الله عنهم ولن يدلهم إلا إلى الطريق الموصلة إلى جهنم جزاء لهم على ما أسلفوه من الكفر والظلم وهم في جهنم خالدون فيها أبد الآبدين.

***

❁ ومن سورة المائدة

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

في الآية الكريمة أمر من الله تعالى لعباده بمكارم الأخلاق والتعاون عليها، والنهي عن مساوىء الأخلاق والمشاركة فيها. وهذا شيء متفق عليه بين جميع الملل وذوي العقول السليمة.

وفي الآية الكريمة قاعدتان عظيمتان من قواعد الدين يدخل تحتها كثير من جزئيات الدين فمَن أهملهما ولم يعمل بمقتضاهما عاقبه الله تعالى بعذابه في نار جهنم، ولذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

فمَن كفر بالله وكذّب بآياته التشريعية والكونية وتمرّد على الله وعلى رسله وعلى دينه كان صاحب الجحيم وعذابه، الخالد فيه.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣﴾.

هذه الآية تُعرف بآية الحرابة، نزلت في قوم قتلوا وأفسدوا وكفروا فحكم الله فيهم بحكمه العدل بما ذكر وكان ذلك لهم في الدنيا ذل وفضيحة، ولهم في الآخرة عذاب النار الذي لا يطاق، فكل من فعل فعلهم وسلك سبيلهم كان حكمه ما ذكر في الآية، وتفصيل ذلك في كتب الأحكام.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٣٦ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٣٧﴾.

ومعناه: لو فرض أن لكل كافر يوم القيامة جميع ما في الأرض من أموال وخيرات وأضعاف أضعافه معه، وأراد أن يفتدي به نفسه من عذاب الله ما قبله الله تعالى منه بل له عذاب مؤلم موجع، فالكفار قد يحاولون الخروج من النار ولكنهم ليسوا بخارجين منها بل لهم عذاب دائم لا ينقطع ولا يفتر عنهم فيه أبداً.

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

جاءت الآية الكريمة مشيرة إلى ما سلف من الكلام على اليهود وصفاتهم القذرة، فأخبر تعالى عنهم بأنه تعالى لا يريد تطهير قلوبهم من رجس الكفر وخبث الضلالة، وذلك لقبح صنيعهم وسوء اختيارهم، ولكنه عزّ وجل جعل لهم في الدنيا خزياً وذلاً وفضيحة، ولهم في الآخرة الخلود في نار عظيمة شديدة وهي نار جهنم.

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

جاءت الآية الكريمة تتحدث عن المسيحيين الذين غلوا في عيسى عليه السلام، فمنهم من قال فيه: ابن الله، ومنهم من قال: الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة، وكل ذلك ضلال وشرك في الألوهية، ولذلك جاءت الآية تسجل على كل مشرك أن الجنة حرام عليه وأن مصيره ومقره نار جهنم التي لا يجد فيها ناصراً ولا مجيراً.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾.

فالذين جحدوا وحدانية الله وأشركوا معه غيره وضمُّوا إلى ذلك إنكار آيات الله التي جاء بها رسول الإسلام ﷺ، فهم أهل الجحيم وسكان نار جهنم وأصحابها الذين لا ينفكون عنها أبداً.

* * *

❊ ومن سورة الأنعام

قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

جاءت الآيات الكريمات تتحدث عن المشركين فأخبر عنهم سبحانه بمآلهم ومصيرهم في الآخرة وما يصدر منهم، فعندما يوقفون على النار ويعرضون عليها يتمنون الرجعة للدنيا ليؤمنوا بالله وبآياته لكن الله عزّ وجل العليم بالظواهر والبواطن والأوائل والأواخر أخبر عنهم بأنهم كاذبون فيما ادّعوا بل لو ردهم وهو محال لعادوا لما كانوا عليه، فلذلك ليس لهم عند عرضهم على الله واعترافهم بالحق إلا عذاب جهنم وحريقها بسبب كفرهم وإنكارهم البعث.

وقال جلّ علاه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة تأمر النبي ﷺ بترك أولئك الكفرة المتمردين الذين أنكروا ما جاء به وجعلوا الدين الحق الذي كان ينبغي لهم أن يحترموه ويعظّموه لعباً ولهواً باستهزائهم به وخدعتهم هذه الحياة الزائفة، وذكر بالقرآن عموم الناس مخافة أن تُسْلَمَ نفس للهلاك بسبب سوء عملها ولا يكون لها يوم القيامة ناصر ولا شفيع وأن تعط تلك النفس كل فدية تفتدي بها نفسها لا يقبل منها أولئك الكفرة الفجرة هم الذين أبْسِلُوا وأُسْلِمُوا لعذاب الله بسبب ما كسبوا من أعمالهم القبيحة وعقائدهم الشنيعة فلهؤلاء الضالين شراب من ماء بلغ النهاية في الغليان يتجرجر في بطونهم وتتقطع به أمعاؤهم، ولهم مع ذلك عذاب بنار موجعة تشتعل في أبدانهم أبد الآبدين.

وقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾.

جاءت الآية تبين مصير أولئك الكفرة العتاة المستكبرين الماكرين المتقدمين من كفار قريش وأنهم سينالهم يوم القيامة هوانٌ وذلٌّ جراء طلبهم العز والرياسة والكرامة في الدنيا، مضافاً إلى العذاب الشديد في نار جهنم الذي سيصحبهم بلا انقطاع ولا فتور.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

يخبر تعالى بأنه سيجمع ليوم القيامة الثقلين من الإنس والجن فينادي الجن موبخاً لهم: إنكم استكثرتم من إضلال الناس وإغوائهم فيقول أصحابهم من الإنس: إننا وإياهم قد استمتعنا ببعضنا وبلغنا إلى الموت والقبور ووافينا الحساب، فيقال لهم: النار موضع إقامتكم ومقام سكنكم

دائمين فيها إلا إذا شاء الله أن يبدلكم إلى عذاب آخر كالزمهرير والبرد.

وقال عزّ شأنه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ﴾.

يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ممن كذب بآيات الله وجحدها وأعرض عنها وصرف الناس عن الإيمان بها فسنجازي هؤلاء الظلمة الكفرة الفجرة الذين جمعوا بين التكذيب والصد بالعقاب والعذاب الأليم بسبب إعراضهم وصرفهم الناس عن آيات الله تعالى ودينه.

* * *

ومن سورة الأعراف

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

الكلام هنا مع إبليس اللعين الذي أقسم لله عزّ وجل بأنه سيغوي بني آدم وأنه سيأتيهم من جهاتهم الأربع، فقال الله عزّ وجل له: **«أخرج من الجنة معيباً مطروداً من رحمتي، ولأملأن جهنم منك وممن تبع طريقك من بنيك وبني آدم، فأنت ومن تبعك هم أهلها وسكانها وأصحابها فطيبوا نفساً بذلك»**.

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

فمَن كذّب بآيات الله واستكبر عن الإيمان به وبما جاءت به الرسل فأولئك هم أهل النار الدائمون فيها.

وقال جلّ جلاله: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ إلى قوله: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

هذا خطاب من الله عزّ وجل للمكذبين بآياته يقول لهم يوم القيامة:

ادخلوا نار جهنم أنتم ومن تقدم من أمم أمثالكم من الإنس والجن، فيدخلون جهنم، وكلما دخلت أمة لعنت أختها، ثم تدعو الأخيرة على الأولى بتضعيف العذاب عليها فيجابون لكل منكم ضعف، فيقول القادة للأتباع على وجه التشفّي: فذوقوا العذاب الأليم بسبب إجرامكم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

معناه: أن المكذبين بآيات الله وكتبه ورسله المستكبرين لا تفتح لهم أبواب السماء كما تفتح للمؤمنين ولا يدخلون الجنة حتى يدخل الجمل مع ضخامته في ثقب الإبرة وذلك مستحيل، فهكذا يجزي الله أهل الإجرام من الكفرة والطغاة لهم يوم القيامة في جهنم فراش من نار، ومن فوقهم أغطية من نار كذلك، فكذلك يجزي الله كل ظالم تعدّى حدود الله تعالى.

وقال عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ...﴾ الآية.

معناه: أنه تعالى خلق لجهنم وسكناها كثيراً من بني الجن وبني الإنس، فهم سكانها وأهلها قد سبق بذلك علم الله وقدره. وقال تعالى وقد أخذ قبضتين من خلقه: **«هؤلاء للجنة ولا أبالي، وهؤلاء للنار ولا أبالي»**.

* * *

❋ ومن سورة الأنفال

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

سياق الكلام جاء في أهل بدر وما نزل بالكفار من التقتيل والانهزام والأسر.

فالإشارة بقوله: ذلك ـ أي العذاب الذي نزل بهم ببدر ـ كان بسبب مخالفتهم وعصيانهم لله ولرسوله ﷺ، فليذوقوا ذلك ووراءهم في الآخرة عذابٌ أدهى وأمَر وهو عذاب النار.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة بعد نهي المؤمنين عن التولي يوم الزحف، وأخبر تعالى بأن من تولى وانهزم بلا ضرورة ولا حاجة، فقد رجع بغضب من الله، وأنه سيكون مقره ومسكنه الذي يأوي إليه هو نار جهنم، وبئس المرجع والمآل.

وهذا وعيد شديد للمنهزمين أمام مقاتلي الكفار. وقد عدّ ذلك من الموبقات.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

معناه: أن الذين كفروا وماتوا عليه سيُحشرون ويُجمعون إلى جهنم، وأن الله عزّ وجل سيميز بين الطيبين وهم المؤمنون، وبين الخبثاء وهم الكفار، وسيجعل هؤلاء كالركام متراكماً بعضهم فوق بعض لشدة الازدحام ويقذف بهم في نار جهنم؛ أولئك الذين خسروا أنفسهم وأموالهم فأصبحوا لا دنيا ولا آخرة.

* * *

ومن سورة التوبة

قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

الإشارة في الآية إلى المشركين وأن أعمالهم باطلة لا تُقبل منهم ومآلهم نار الخلد لا يخرجون منها ولا هم يموتون.

وقال عزّ وجل: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

هذا مآل مانعي الزكاة وهو أن ينقلب مال صاحبه صفائح من نار فيعذّب بها بحيث يكوى بها جنبه وظهره وجبينه ويقال له ولكل مانع زكاته: هذا ما كنتم تكنزون من الأموال فذوقوا عذابه.

وإذا كان هذا مآل مانعي الزكاة وهم موحدون فما بالك بمن هو جاحد كافر؟

وقال عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

جاءت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يؤذون رسول الله ﷺ كقولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي يصدق بكل خبرٍ سمعه، وإذاية رسول الله ﷺ بأي نوع كانت؛ كفر بلا نزاع، وصاحب ذلك ملعون بلعنة الله كما يأتي، ومآله العذاب الأليم في نار جهنم.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾.

لا زال الكلام عن المنافقين، يقول تعالى: ألم يعلم هؤلاء المنافقون الخبثاء، أنه من يعادي الله، ويخالف الله ورسوله، فقد حق عليه دخول جهنم وخلوده في عذابها.

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

ومعناه أنه تعالى وعد المنافقين والكفار بذكورهم وإناثهم دخول نار جهنم ماكثين فيها، وهي كافيتهم في العذاب، إذ ليس هناك عذاب يعادلها، وعذابهم فيها مقيم دائم لا ينقطع.

وقال جلّ علاه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

هذا أمر من الله عزّ وجل لنبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين بالسيف للأولين وباللسان للآخرين، كما أمره تعالى أن يشدد عليهم بالقتال والإرعاب مع ما ينتظرهم من عذاب جهنم وبئس المصير.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

هذا نوع آخر من المنافقين كانوا يعيبون المتطوعين في الصدقات من المؤمنين ويهزؤون منهم فسيجازيهم الله تعالى على سخريتهم، وقد أعدّ لهم عذاباً موجعاً وهو عذاب الآخرة المقيم.

وقال جلّ علاه: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾.

تخلّف أقوام من المنافقين عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى غزوة تبوك مع ادعائهم الإيمان لكن بعضهم جاء يعتذر والبعض الآخر لم يخرجوا ولم يعتذروا وسيصيب جميعهم عذاب موجع وهو عذاب نار جهنم.

وقال تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٌۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

عندما رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك جاءه المنافقون المتخلفون يعتذرون إليه بالأعذار الكاذبة ويحلفون له على ذلك ليصفح عنهم، فأمره تعالى أن يُعرض عنهم ويكل أمرهم إليه تعالى، فإنهم قوم أقذار خبثاء البواطن فمأواهم ومصيرهم نار جهنم فهي مسكنهم ومثواهم.

وقال جلّ جلاله: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ ولمن كان معه من أصحابه: ممن حولكم بالمدينة منافقون من سكان البادية، ومن سكان المدينة منافقون آخرون،

لجُوا في النفاق واستمروا عليه لا تعلمهم يا نبيي لمهارتهم في تصرفاتهم في النفاق، ولكننا نحن نعلمهم وسنخبرك عن أحوالهم وصفاتهم وسنعذبهم مرتين في الدنيا وفي القبر، ثم في الآخرة يردُّون إلى عذاب عظيم وهو عذاب النار الذي أعدّه الله للكفرة والفجار.

* * *

✽ ومن سورة يونس

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

فالكفار لا شراب لهم يوم القيامة إلا الماء الحميم الذي بلغ النهاية في الغليان، مضافاً إلى ما يصحبهم ويعايشهم في جهنم من العذاب الذي لا نهاية لألمه ووجعه.

وقال جلّ شأنه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾.

معناه: أن الكفار الذين ينكرون الحياة بعد الموت ولا يتوقعون لقاء الله تعالى ثم هم قانعون بهذه الحياة فآثروا خسيسها على نفيس الآخرة وسكنوا إليها وفرحوا بها وهم في غفلة تامة عن آيات الله المنبثّة في هذا الكون الدالّة على الله تعالى، أولئك الموصوفون بما ذكر مأواهم ومقرهم ومثواهم نار جهنم بسبب ما أتوه من الكفر والإجرام.

وقال عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

إن الكفار الذين كسبوا كفرهم سيجازيهم الله تعالى يوم القيامة على ذلك جزاءً وفاقاً وستغشاهم ذلة وهوان وليس لهم أحدٌ يومئذ يمنعهم من عقاب الله، وسيكونون كأنما أُلبست وجوههم من فرط سواد حريق النار قطعاً من ظلام الليل، فأولئك هم أهل نار جهنم وسكانها الدائمون فيها.

وقال عزّ من قائل: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

عندما يعاين الكفار عذاب الله تعالى يؤمنون فيقال لهم: الآن تؤمنون وقد كنتم قبل ذلك تهزؤون وتسخرون، فالآن ذوقوا العذاب الخالد فما تجزون إلا بما كنتم تأتونه من إصراركم على الكفر والجحود وأنواع الإجرام.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

معناه: لو فرض أن لكل نفس ظالمة بكفرها وإجرامها ما في الدنيا جميعاً من خزائنها وأموالها ومنافعها قاطبة لدفعته فدية لها من عذاب الله يوم القيامة عندما يشاهدون العذاب وآلامه ويتحسّرون ويندمون ويُخفون ذلك.

وقال سبحانه: ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

إن الكذّابين على الله بنسبة الشريك لله والكفر به تعالى لا يفوزون أبداً فلهم متاع ضئيل في الدنيا يتمتعون به أياماً معدودات، ثم يكون معادهم ورجوعهم إلى الله فيذيقهم العذاب الشديد الموجع في نار جهنم بسبب كفرهم.

* * *

ومن سورة هود

قال عزّ من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾.

معنى الآيتين الكريمتين: من كان همه الدنيا ونضارتها والتمتع بها فقط لأنه لا يؤمن بالآخرة ولا يعمل لها، يوفِ الله إليه أجر عمله الصالح في

الدنيا، فيُصِحُّ جسمه ويعطيه الأمن ويُغدق عليه النِعَمَ وينصره على عدوه ولا ينقص شيئاً من أجر عمله، لكن هؤلاء الذين ليس لهم هدف إلا الدنيا ليس لهم في الدار الآخرة إلا عذاب النار الخالد، وبطل ما كانوا يعملونه من صدقة وصلة وإحسان.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ إلى قوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُۚ﴾.

أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله ونسب إليه ما لم يأتِ به كتاب، فأولئك سيُعرضون على الله تعالى يوم القيامة وتشهد عليهم الخلائق ويُشَهَّرون بهم فضيحة لهم، فهم مطرودون من رحمة الله لأنهم جمعوا بين الكذب على الله والكفر بالآخرة وصد الناس عن سبيل الله، فهؤلاء سيضاعف لهم العذاب لجمعهم بين أنواع من الإجرام فلا ناصر لهم يومئذ ولا مانع يمنعهم من عذاب الله الخالد.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾.

معناه: ليس أمر فرعون وما كان يدعو إليه بسديد، فليس فيه رشد ولا هدى وإنما هو جهل وسفاهة وضلال، وبما أنه كان إمام الفراعنة والطغاة العتاة وغرّته نفسه حتى ادّعى الربوبية والألوهية، فإنه سيكون يوم القيامة أمام قومه يقدُمهم إلى النار فأدخلهم إياها فبئس المدخل المدخول جهنم. وألحقهم الله فوق العذاب الطرد في الدنيا والآخرة فبئس العون المعان والعطاء المعطى لهم وهي اللعنة في الدارين.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾.

معناه: إن الذين سبقت لهم من الله الشقاوة فهم مستقرون في نار

جهنم وعذابها، لهم فيها زفير ـ وهو إخراج النَّفَس بشدة ـ وشهيق ـ وهو رد النَّفَس أيضاً بشدة ـ.

قال قتادة: صوت الكافر في النار صوت الحمار أوله زفير وآخره شهيق.

وهم في جهنم دائمون ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله من إخراج عصاة الموحدين فإنهم لا يخلَّدون في النار.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: لا تميلوا إلى ولاة الظلمة من الكفرة وغيرهم من الفسقة الفجرة فتصاحبونهم أو تزورونهم وتترددون إليهم مع عدم الإنكار عليهم فتصيبكم النار في الدنيا بالقطيعة عن الله وفي الآخرة بعذاب جهنم، وإذا كان الركون إلى الظلَمة يوجب النار فكيف بمَن هو ظالم؟ نعوذ بالله من حال أهل النار.

وقال جلّ علاه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: تمّ أمر الله ومضى قضاؤه أنه تعالى سيملأ جهنم من أتباع إبليس وجنده من الإنس والجن فهم سكانها وأصحابها الذين خلقوا لها وخلقت لهم.

* * *

ومن سورة الرعد

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝﴾.

معناه: وإن تعجب أيها الإنسان فليس شيء هناك أعجب من إنكار

الكفار البعث بعد الموت، فأولئك هم الجاحدون المعجِزون قدرة الله تعالى، وأولئك سيُغَلُّون يوم القيامة بالسلاسل في أعناقهم مربوطة مع أيديهم، وأولئك هم أهل النار الماكثون فيها لا يموتون ولا يخرجون منها.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

معناه: إن الذين لم يجيبوا ربهم إلى الإيمان به وأصرُّوا على كفرهم حتى الموت لو كان لهم يوم القيامة جميع ما في الدنيا من الأموال... ومثله معه لبذلوا كل ذلك فداء لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله، أولئك لهم الحساب السيىء العسير ويكون مآلهم ومصيرهم جهنم وعذابها وبئست الفراش هي لهم.

وقال تعالى: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۝ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ۝٣٤﴾.

إن الشيطان اللعين زين للذين كفروا ضلالهم واتخاذهم مع الله الشركاء وصدهم عن طريق الله فلهم عذاب مؤلم في الدنيا بمحن الحياة، ولعذاب الدار الآخرة في نار جهنم أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا وليس لهم من عذاب الله من مانع يحميهم منه.

* * *

❋ ومن سورة إبراهيم

وقال عزّ وجل: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ۝١٧﴾.

أي: خسر وهلك كل متجبر معاند للحق، وأمامه جهنم يُعذَّب فيها

حتى إذا عطش واستغاث سُقي من صديد وقَيح ودم ما يسيل من أهل النار يبتلعه مرة بعد أخرى لمرارته ولا يكاد يستسيغه لقبحه ونتنه وحرارته، وتأتيه أسباب الموت، وأنى له الموت ومن بين يديه عذاب أغلظ من سابقه كما قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: ألا تعجب أيها السامع إلى أولئك الفجرة الذين غيّروا نعمة الله تعالى، فبدل أن يشكروا الله بالإيمان به وطاعة رسوله ﷺ كفروا وتمرّدوا فأنزلوا قومهم دار الهلاك والخسارة بكفرهم وطغيانهم وهي جهنم يدخلونها ويذوقون سعيرها وبئست المستقر هي لهم.

ذكر المفسرون أن المراد بهؤلاء هم كفار قريش من سكان الحرم أسكنهم الله حرمه الآمن وجعل عيشهم رغداً وبعث فيهم خير البشر ﷺ فأصرُّوا على كفرهم وجعلوا للّه شركاء مماثلين عبدوهم كعبادة الله فقيل لهم: استمتعوا بنعيم الدنيا الزائل فإن مصيركم ومرجعكم إلى عذاب جهنم وحريقها.

وقال جلّ علاه: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾.

إذا قامت القيامة وخرج الخلائق جميعهم وعرضوا على الله فعندئذ تشاهد الكفرة الفجرة وأهل الإجرام مشدودين مع شياطينهم بالأصفاد في أرجلهم والأغلال في أعناقهم مع أيديهم وتكون ملابسهم التي يرتدونها من جنس القطران الذي يسرع إليه اشتعال النار وتعلو النار وجوههم وتحرقها ذلك ليجزي الله تعالى كل نفس ما كسبت في الدنيا.

***

✿ ومن سورة الحِجْر

قال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾.

عندما يعاين الكفار النار وعذابها وسعادة المؤمنين وفرحتهم يتمنون أن لو كانوا في الدنيا مسلمين ليفوزوا بما أعدّ الله تعالى للمؤمنين، ولكن هيهات هيهات.

فليَتْرُكوا الآن يأكلون ويتمتعون بنعيم الدنيا وليلتهون بالآمال الباطلة فسوف يعلمون ماذا يحل بهم وإلى ماذا يكون مصيرهم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة تتحدث عن قصة إبليس وقَسَمه لله تعالى على أنه سيغوي جميع الناس ويضلهم عن الطريق، فأخبر تعالى بأن جهنم هي موعد إبليس وأتباعه من بنيه وبني آدم وأنه جعل لها سبعة أبواب، لكل جماعة من أتباع إبليس باب معيّن معلوم يدخلونها منه.

❋ ❋ ❋

✿ ومن سورة النحل

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الآيات تتحدث عن المشركين المستكبرين الذين ردُّوا دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأنكروا ما جاؤوا به واستهزؤوا بهم وسخروا منهم، وكان منهم كفار قريش، فإذا كان يوم القيامة وشاهدوا الأهوال استسلموا وكذبوا على الله بأنهم لم يكونوا مشركين.

وقال أهل العلم الربانيون: إن الذل والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله وبرسله ويقال لهم ادخلوا مذمومين مطرودين نار جهنم دائمين فيها فبئست جهنم مقراً ومسكناً للمتكبرين عن طاعة الله وطاعة رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

يقول تعالى عندما يشاهد الكفَرة الفجَرة: العذابَ المُعدَّ لهم ويذوقونه لا يفتر عنهم لمحة ولا هم يؤخرون ويمهلون إلى وقت ما بل عذابهم مستمر دائم.

وقال جلّ علاه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

معناه: أن الذين كفروا وجحدوا الحق وعاندوا وضموا إلى ذلك منع الناس عن اتباع الحق سيضاعف لهم العذاب لجمعهم بين الكفر وإضلال الناس وإفسادهم في الأرض بنشر الكفر والإجرام.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾.

جاءت الآيات الكريمات بوعيد مآل المرتد الذي آمن وعرف الحق ثم كفر بعد ذلك منشرحاً صدره للكفر، وآثر الدنيا على الآخرة فهذا وأمثاله عليهم غضب من الله وعذاب عظيم وهو عذاب حريق النار وأهوالها.

نعم من كفر مُكْرهاً غير منشرح له وقلبه مملوءاً إيماناً فهذا لا حرج عليه بل هو مثاب ومآله الجنان وحسن المآب، كما حصل لعمار بن ياسر رضي الله تعالى عنهما حيث نطق بكلمة الكفر تحت التعذيب، ففيه نزلت الآية.

وقال تعالى جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

الآية تتحدث عن الذين يكذبون على الله بنسبة التحليل والتحريم إليه، فهؤلاء لا يظفرون بمطاليبهم فهم يتمتعون في الدنيا أياماً فانية، ثم يكون مآلهم الخسران والعذاب الموجع وهو نار جهنم وأهوالها.

* * *

ومن سورة الإسراء

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾.

الآية جاءت عقب الكلام على إفساد اليهود المرة بعد المرة، ثم ختم ذلك بهذه الآية الكريمة التي توعدهم بأن الله جعل لهم جهنم محبساً وسجناً لا يستطيعون الانفلات منها أبد الآبدين جزاء إفسادهم وكثرة إجرامهم.

وقال جلّ علاه: ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

معناه: إن الذين ينكرون الحياة بعد الموت ولا يعتقدون البعث والحساب والجنة والنار قد أعدّ الله تعالى لهم عذاباً مؤلماً وهو نار جهنم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

يقول تعالى: من كان هدفه في هذه الحياة هو التمتع بنعيم الدنيا وزينتها وليس له هَم في الآخرة، سأعجل له فيها ما أريد ثم أجعل له جهنم يدخلها يوم القيامة مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله تعالى.

وقال جلّ علاه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

لا تشرك بالله أيها الإنسان مع الله إلهاً غيره من وثن أو بشر أو شجر... تعبده مع الله وتعطيه وتنسب إليه ما ينسب للّه فيكون مآلك الإلقاء في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك الله والخلق وتكون مطروداً من رحمة الله تعالى.

وقال عزّ من قائل: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا﴾.

لما أقسم الشيطان لعنه الله لربه: لئن أنظرتني إلى يوم القيامة لأَحْتَنِكَنَّ وأستأصلن ذرية آدم بالإغواء والإضلال... إلا قليلاً. قال الله تعالى له: اذهب فقد أنظرتك وابذل جهدك فيهم، فمَن أطاعك منهم واتبع طريقك من بني آدم فإن جزاءك وجزاءهم نار جهنم جزاءً كاملاً.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

يقول تعالى: سنحشر يوم القيامة الكفار فتسحبهم الزبانية من أرجلهم ويُجرُّون على وجوههم حتى يلقوا في جهنم فهي مأواهم ومصيرهم، كلما سكن لهبها وخمدت نارها زدناهم ناراً ملتهبة ووهجاً وجمراً.

وهذه الآية أيضاً من أشدها على الكفار.

* * *

ومن سورة الكهف

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

يقول عزّ وجل: إنا هيّأنا للظالمين من الكفار والطغاة والمتجبرين ناراً شديدة الحريق واللهب قد أحاط بها وبأهلها سورها العظيم كإحاطة السوار بمعصم اليد، لا يقدرون الانفلات منها فيعذّبون فيها العذاب الأليم، فإذا عطشوا استغاثوا فيُغاثون بالماء الحار مثل دردي الزيت وعكره قد بلغ النهاية في الغليان فيشوي به وجوههم فإذا قرب منها سقطت جلدتها فبئس شرابهم ذلك وبئست جهنم منزلاً ومقيلاً يسكنونه.

وقال عز وجل: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾.

معناه: أن الكفار وأهل الإجرام عندما يعاينون النار وهي تتغيظ عليهم حنقاً يتيقنون أنهم داخلوها ولم يجدوا عنها معدلاً لأنها محيطة بهم من كل جانب فلا يستطيعون الهرب منها.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾﴾.

معناه: عندما ينفخ في الصور نفخة القيامة وحشر الناس جميعهم أبرز الله تعالى النار وعرضها على الكافرين وأظهرها لهم بأهوالها إرهاباً لهم وتعذيباً نفسياً وتأتي آية: ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

الإشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَزْنًا﴾.

فجزاء جميعهم؛ نار جهنم بسبب كفرهم وسخريتهم بآيات الله ورسله عليهم الصلاة والسلام.

* * *

ومن سورة مريم

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

معناه: أنذر الخلائق وخوّفهم يوم يتحسر المسيئون إذ لم يحسنوا، والمقصرون إذ لم يجتهدوا عندما يقضي الله أمر الثقلين فريق في الجنة وفريق في السعير.

وقال جلّ ذكره: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾.

معناه: جاء من بعد أولئك الأصفياء من الأنبياء والصالحين أقوام سوء تركوا الصلوات وأضاعوها، وسلكوا طريق الشهوات فسيلقون يوم القيامة جزاءهم غياً، وهو واد من أودية جهنم، نعوذ بالله من النار وأهلها.

وقال عز ذكره: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

يقسم تعالى لنبيه ﷺ بأنه عزّ وجل سيجمع الكفرة الفجرة مع الشياطين الذين أَغْوَوْهُم فيُحْشَرُ كل كافر مسلسلاً مع شيطانه، ثم يُحضر تعالى أولئك المجرمين المفترين حول جهنم قعوداً على الركب من شدة الهول والفزع، ثم يأخذ تعالى من كل فرقة وجماعة ارتبطت بملة من منهم كان أعصى لله وأشد تمرداً فيُقذفون في جهنم، فيُقذف ويلقى فيها الأعتى فالأعتى، وهو تعالى أعلم بمن هو أحق بدخول النار والاصطلاء بحرّها وحريقها ومَن يستحق تضعيف العذاب فيبدأ بهم، وما من أحد من الإنس والجن إلا وسيرد النار فيمر عليها المؤمنون بواسطة الصراط ويدخلون الجنة، ويلقى الكفار فيها يؤخذون بالنواصي والأقدام ثم يُقذفون فيها، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾﴾.

جاءت الآية رداً للّعين العاص بن وائل ورداً على مقالته السابقة وهي قوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فأخبر تعالى بأنه سيكتب عليه ما يقول ويُدخله نار جهنم ويزيده عذاباً فوق عذاب ويطيله عليه ويضاعفه أضعافاً كثيرة ويمُدُّه عليه.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

معناه: سيُساق المجرمون من الكفرة والمتمردين إلى جهنم كما تساق البهائم مُشاةً عِطاشاً، شبّههم بالإبل العطاش التي تساق إلى موردها.

* * *

❁ ومن سورة طه

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾.

معناه: إن كل من يلقى ربه كافراً فاجراً كثير الإجرام فله جهنم مأوى له لا يموت فيها فيستريح وينقضي عذابه ولا يحيى حياة طيبة هنيئة.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾.

الإشارة إلى ما مضى من ذكر المعرض عن ذكر الله وحشره أعمى وأن الله تعالى سينساه في جهنم، فقال خاتماً لما سبق، ومثل ذلك الجزاء نجزي من أسرف في الكفر والطغيان ولم يؤمن بآيات الله وما جاء به رسل الله عليهم الصلاة والسلام، ولعذاب الآخرة في نار جهنم أعظم وأفظع وأدوم.

❁ ❁ ❁

❁ ومن سورة الأنبياء

وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

معنى الآيات: إنكم يا معشر المشركين وما عبدتم من دون الله من إنس وجن وحجر وشجر ووثن جميعكم حطب جهنم ووقودها التي تشتعل به، كلكم داخلوها مع الأصنام ولو كانت تلك الأصنام آلهة حقيقة ما دخلوا جهنم، فالكل فيها دائمون العابدون والمعبودون لهؤلاء الكفرة داخل النار زفير ـ وهو صوت النفَس الخارج من قلب المغموم ـ كأنين المحزون والمكلوم، وهم في جهنم لا يسمعون شيئاً لأنهم يُحشرون إليها صمًا بكماً عمياً.

❁ ❁ ❁

❋ ومن سورة الحج

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين كفروا بالله وبما جاءت به رسل الله عليهم السلام ستُخاط وتسوَّى لهم ملابس من نار ويُصب على رؤوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ويُذاب به ما في أحشائهم مع الجلود، وسيأتي: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾، ولهم مع ذلك مطارق من الحديد يضربون بها وكلما حاولوا الخروج من النار ردُّوا إلى أماكنهم بواسطة المقامع التي بأيدي الزبانية ويقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي كنتم تكذبون به.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْاْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

معناه: الذين كذبوا بآياتنا وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين أولئك هم سكان النار أهل السعير وأصحابها الذين لا يفارقونها بحال.

وقال جل جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: الذين جحدوا بآياتنا وكذبوا رسلنا لهم يوم القيامة، العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم.

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة المؤمنين

قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

أي: من زادت سيئاته على حسناته، فأولئك هم الأشقياء الذين خسروا

سعادتهم بتدنيسها بالكفر والجرائم، فهم في جهنم وعذابها كالحون، عابسون، مشوهو الوجوه.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: قد بدت أسنانهم، وتقلصت شفاههم كالرأس المُشَيَّط.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

معناه: إن الكفار داخل جهنم حينما يحيط بهم عذابها، ويذوقون حريقها، ينادون الله تعالى: يا ربنا، إن الشقاوة غلبت علينا، وأننا كنا ضالين عن الطريق، فأخرجنا منها، وردنا إلى الدنيا، فإن رجعنا إلى ما كنا فيه من الكفر والمعاصي، فإننا ظالمون، فأجابهم الله عز وجل مؤيساً إياهم: انزجروا وذلوا في النار ولا تعودوا تكلموني في رفع العذاب والخروج من جهنم.

* * *

ومن سورة النور

قال عز علاه: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

جاء هذا الوعيد في المنافق اللعين ابن سلول الذي كان أشاع أمر الإفك والبهتان الذي رموا به السيدة الطاهرة سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، حبيبة رسول الله ﷺ، فهو الذي قد تولى معظمه وأذاعه في الناس، فله يوم القيامة عذاب شديد يناسبه في نار جهنم.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

معناه: إن الفجرة والفسقة والمنافقين الذين يريدون أن ينتشر الفعل القبيح كإشاعة الزنا وغيره، بالقذف في المؤمنين الأطهار لهم عقاب في

الدنيا بالحد إن أقيمت عليهم الحجة، وفي الآخرة بعذاب جهنم وهي أدهى وأدوم.

وقال جل علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ إلخ.

الآية جاءت في قصة الإفك ورمي السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها بالفاحشة، وهي عامة في قذف كل مؤمنة تقية القلب عفيفة عن الزنا طاهرة الذيل، فالقذف من كبائر الذنوب في مطلق المؤمنين والمؤمنات، أما بالنسبة لقذف زوجات النبي ﷺ فأمره أعظم وأفظع، ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة تسجل على أولئك القاذفين اللعنة والطرد والإبعاد من رحمة الله في الدنيا والآخرة مع ما ادخر لهم من العذاب الهائل الذي لا يكاد يوصف وذلك سيكون في ذلك اليوم الرهيب يوم تشهد عليهم جوارحهم وجلودهم بما كانوا يكسبون، نعوذ بالله من النار وأهلها.

* * *

ومن سورة الفرقان

وقال جلّ علاه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

يخبر تعالى عن المشركين المنكرين للحياة بعد الموت والكافرين بقيام الساعة وما يتبعها من حشر وحساب وجنات ونار وأنه تعالى قد أعدّ وهيأ لمن كذب بذلك ناراً شديدة تُسَعَّر عليهم وتتّقد إذا رأتهم جهنم من مسافة بعيدة سمعوا صوت لهيبها وغليانها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ وسمعوا لها صوتاً كصوت الحمار ـ وهو الزفير ـ.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن الرجل ليُجَرُّ إلى النار فتشهق إليه شهوق البغلة إلى الشعير وتزفر زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خاف. وإذا أُلقوا في مكان ضيق من جهنم مُصَفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل هنالك يدعون على أنفسهم بالويل والهلاك فيقال لهم: لا تدعوا بذلك على أنفسكم مرة واحدة ولكن ادعوا مرات ومرات، فلا خلاص لكم من عذاب الله وما أنتم فيه.

وقال جلّ من قائل: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الكفار الذين كانوا ولا يزالون يسخرون بآيات الله ويهزؤون بالدعاة إليه عزّ وجل سيُحشرون ويُساقون إلى نار جهنم مسحوبين على وجوههم وأولئك هم شر منزلاً ومصيراً وأضل طريقاً وديناً.

وقال جلّ علاه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾.

معناه: إن من ادعى مع الله إلهاً آخر وعبده من دون الله وأسرف في الإجرام فسفك الدماء وأتى الفواحش سيجد في الآخرة النكال والعقوبة بحيث يتضاعف عقابه ويغلظ عليه بسبب شركه وكثرة إجرامه ويخلَّد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً أبد الآبدين، إلا مَن أناب وآمن فأولئك سوف يغفر الله لهم.

* * *

❋ ومن سورة الشعراء

وقال جلّ ذكره: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

ومعناه: إن الله تعالى سيُظهر النار للمجرمين الضالّين إرهاباً لهم

فيشاهدونها عياناً ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً لهم: أين شركاؤكم فهل يستطيعون إنقاذكم أو يدفعون العذاب عن أنفسهم؟ فرُموا وطُرح بعضهم على بعض منكبّين على وجوههم الأصنام وعائدوها وأتباع إبليس قاطبة من الإنس والجن.

* * *

❋ ومن سورة النمل

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

معناه: إن المنكرين للبعث وما في الآخرة حسَّنَّا لهم أعمالهم السيئة وخلقنا في قلوبهم العلم بما فيها من المنافع واللذات، فهم في ضلال أعمالهم حيارى يترددون فلا يميزون بين الحسَن والقبيح، فأولئك لهم العذاب السيىء وهم في الدار الآخرة خاسرون لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٠﴾.

أي: من جاء يوم القيامة مشركاً كافراً أو موحّداً ليس له إلا السيئات كُبَّ على وجهه في جهنم منكوساً، ويقال له توبيخاً: لا تُجزى إلا بما كنتَ تعمل في الدنيا من السيئات.

* * *

❋ ومن سورة القصص

قال تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ۝٤٢﴾.

جاءت الآية الكريمة تخبر عن فرعون وقومه الطغاة وما حصل لهم من

الانتقام في الدنيا، وأنه تعالى جعلهم في هذه الحياة قادة وزعماء في الكفر يدعون إلى الطريق الموصِل إلى النار ويقتدي بهم أهل الضلال، وجعل تعالى اللعنة تلحقهم في الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين، أما في الآخرة فجعلهم من المُبْعَدين المطرودين من رحمة الله عزّ وجل.

* * *

ومن سورة العنكبوت

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: الذين كفروا بالقرآن والبعث وما بعده من الحساب والجزاء فسييأسون من رحمة الله عند مشاهدتهم العذاب يوم القيامة وأولئك لهم عذاب موجع مؤلم وهو عذاب نار جهنم.

وقال تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

جاءت الآية في قصة خليل الرحمٰن سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام حيث أخبر قومه بأنهم يوم القيامة سيلعن بعضهم بعضاً وتنقلب صداقتهم عداوة ويتبرأ القادة من الاتباع ويكون مآلهم ومقرهم نار جهنم وليس لهم مانع يمنعهم منها ولا ناصر ينصرهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

معناه: كيف يستعجل هؤلاء المشركون نزول العذاب، والحال أن جهنم محيطة يوم القيامة بكل كافر لا مفر لهم منها، وذلك يوم يجللهم الله تعالى بالعذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ومن جميع جهاتهم ويقول الله عزّ وجل لهم: ذوقوا جزاء ما كنتم تأتونه في الدنيا من الإجرام وسيىء الأعمال.

* * *

❃ ومن سورة الروم

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

معناه: الذين كفروا بالله وأشركوا معه غيره وكذّبوا بكتب الله وشرائعه وأنكروا البعث بعد الموت ولقاء الله لمحاسبتهم وجزائهم، فأولئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام.

❃ ❃ ❃

❃ ومن سورة لقمان

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

معناه: من الناس من يشتري ما يُلْهي عن طاعة الله ويصد عن سبيله مما لا خير فيه ولا فائدة، وهو مع ذلك يتخذ آيات الله سخرية واستهزاء فهؤلاء لهم عذاب شديد وهوان وذلة، وإذا قرئت عليه آيات القرآن الكريم أعرض وولّى متكبراً كأن في أذنيه ثقلاً فأنذره يا نبيي بعذاب مؤلم مفرط في الشدة والإيلام.

قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: إنها نزلت في الغناء.

جاء ذلك عنه بسند صحيح.

وقال جلّ علاه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

معناه: إننا سنبقي هؤلاء المشركين في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ثم نُلجئهم في الأخرى إلى عذاب شديد فظيع شاق على النفوس وهو نار جهنم وأهوالها.

❃ ❃ ❃

❁ ومن سورة السجدة

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول تعالى: وجب وثبت قولي بعذاب المجرمين وأنني سأملأ جهنم بالكفار والعصاة والمتمردين من الجن والإنس، وسيقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ: فذوقوا بسبب نسيانكم الدار الآخرة وانهماككم في الشهوات. هذا العذاب المخزي الموجع.إنا نتركم اليوم في العذاب بسبب كفركم وتكذيبكم فذوقوا العذاب الدائم الخالد في جهنم.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول تعالى: وأما أولئك الذين خرجوا عن طاعة الله بكفرهم وتمرُّدهم فملجؤهم ومصيرهم نار جهنم كلما حاولوا الانفلات منها عندما تحرقهم وتصيّرهم فحماً، أعادهم فيها الزبانية وضربوهم بمقامع الحديد، وتقول لهم خزنة جهنم تقريعاً لهم: ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزؤون منه.

* * *

❁ ومن سورة الأحزاب

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾.

معناه: إن الكفار والمشركين الذين يؤذون الله بنسبة الشريك إليه والولد والزوجة، ويؤذون رسوله بتكذيبه في رسالته والطعن في دعوته والاستهزاء بما يدعو إليه وبما جاء به، هؤلاء طردهم الله في الدنيا والآخرة

من رحمته وأحلّ عليهم سخطه وغضبه وهيّأ لهم في جهنم عذاباً شديداً بالغ الغاية في الإهانة والتحقير.

وقال جلّ ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الله طرد الكافرين من رحمته فلا مطمع لهم فيها وهيّأ لهم في جهنم ناراً مسعرة شديدة الاندلاع مقيمين فيها لا يجدون لهم من ينقذهم منها، وذلك يوم تتقلب وجوههم من جهة إلى جهة في النار كاللحم الذي يشوى بالنار، وعند ذلك يندمون ويقولون تحسُّراً: يا ليتنا كنا أطعنا الله فآمنا به وحده وأطعنا الرسول فصدقناه واتبعناه فيما جاء به.

* * *

❁ ومن سورة سبأ

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

معناه: الذين بذلوا جهدهم وجدُّوا لإبطال القرآن الكريم مغالبين رسولنا يظنون أنهم يُعجزونه بشبهاتهم حول رسالته والقرآن الكريم، فهؤلاء المجرمون لهم عذاب من أسوأ أنواعه شديد الإيلام.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

معناه: عندما يرى الكفار العذاب يوم القيامة ويتحسّرون ندامة سيجعل الله تعالى السلاسل والأغلال في رقابهم زيادة على تعذيبهم ولا يجزون إلا بما عملوه من كفر وإجرام.

وقال جل علاه: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

فيوم القيامة يقال للكافرين الذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله والإشراك به: ذوقوا عذاب النار الكبرى وحريقها التي طالما كذّبتم بها وأنكرتموها.

* * *

✻ ومن سورة فاطر

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

يحذّرنا الله عزّ وجل من الشيطان ومخادعته، وأخبر بأنه عدوٌّ لدود لنا وأنه يجب علينا الحذر منه، فغرضه من بني آدم أن يقذفهم في نار جهنم المستعرة التي تشوي الوجوه والجلود لا غرض له إلا هذا، فدأبه الدعاء إلى طرق جهنم بوساوسه ليل نهار لا يفتر عن ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

أي: إن الذين يمكرون المكرات السيئات وهو الشرك بالله، وصد الناس عن سبيل الله، وإرادة قريش الشر برسول الله ﷺ، لهؤلاء في جهنم عذابٌ شديد لا يتصور شدة وجعه وألمه ومكر أولئك المجرمين واحتيالهم هالك باطل.

* * *

✻ ومن سورة يس

قال جلّ من قائل: ﴿هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

هذا خطاب من الله تعالى للكفار الذين عبدوا الشيطان فأطاعوه فيما دعاهم إليه وزيّنه لهم من عبادة غير الله، فيقول تعالى لهم وهم على شفير جهنم: هذه جهنم التي أوعدكم بها الرسل وكذبتم بها ادخلوها اليوم وذوقوا حرارتها وحريقها وأنواع عذابها فاليوم ستفتضحون حيث سيُخْتَم على أفواهكم وتشهد عليكم جوارحكم وجلودكم بما اكتسبتم من كفر وإجرام.

***

ومن سورة الصافات

وقال جلّ ذكره: ﴿وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

عندما يقوم الناس لرب العالمين نادى المجرمون: يا ويلنا وهلاكنا هذا يوم الجزاء والحساب، فتقول لهم الملائكة: هذا يوم الفصل بين الخلائق الذي كنتم تنكرونه، فيقول الله لملائكته: اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين واجمعوا معهم أصنامهم ومعبوداتهم، فعرّفوهم طريق الجحيم ووجّهوهم إليها ثم احبسوهم عند الصراط ليسألوا هنالك عن جميع ما قدّموه من كفر وفجور... ثم يقال لهم على سبيل التقريع مع التهكُّم: ما شأنكم لا ينصر بعضكم بعضاً

ثم تابع الله تعالى الكلام على هؤلاء إلى أن قال: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وقال جلّ علاه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ

ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

يقول جلّ علاه: مَن الأفضل هل ما أعددتُ لعبادي المؤمنين من النعيم والإكرام والقصور والفواكه وفرش الحرير والتمتُّع بالحور العين وما إلى ذلك من أنواع الكرامة أم من يكون في نار جهنم يطعم شجرة الزقوم التي جعلناها فتنة وابتلاء لأهل الضلال، إن هذه الشجرة تنبت في قعر جهنم ثمرها في القبح والمنظر كأنه رؤوس الشياطين فهؤلاء الكفار لشدة جوعهم سيضطرون إلى الأكل منها حتى تمتلىء منها بطونهم، ثم إنهم بعدما يغلبهم العطش سيمزجونها لهم بماء الحميم الذي بلغ النهاية في الغليان، ثم يُرَدُّون إلى الجحيم التي هي مصيرهم.

قال بعض المفسرين: الزقوم والحميم نُزُلٌ يُقدَّمُ إليهم قبل دخول النار.

***

ومن سورة ص

وقال تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفرة الطغاة بأن لهم يوم القيامة شر مرجع وأقبح منقلب، وهو جهنم يدخلونها ويذوقون سعيرها وبئست الفراش جهنم لهم، هذا هو العذاب الموجع فليذوقوه وهو حميم وماء حار وغساق وهو ما يسيل من جلود أهل النار من الدم والصديد، ولهم عذاب آخر من مثل ما ذكر كالزقوم والزمهرير والسموم، ثم تقول الملائكة للطغاة إذا دخلوا النار هذا فوج وجمع كثيف قد اقتحم معكم النار لا أهلاً ولا مرحباً بهم إنهم داخلو النار وذائقو ما فيها من عذاب وسعير.

وقال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

بعدما أقسم إبليس اللعين بأنه سيغوي بني آدم أجمعين إلا عباد الله المخلصين. أجابه الله تعالى بقوله: أقسم بالحق، ولا أقول إلا الحق، لأملأن جهنم منك وممن أجابك وسلك طريقك وتبع نهجك من بني آدم أجمعين.

* * *

❁ ومن سورة الزمر

وقال جلّ علاه: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾.

يخبر تعالى بأن الخاسرين هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم حيث صاروا إلى نار مؤبدة يصلون سعيرها يوم القيامة، فهؤلاء هم الخاسرون كل الخسران، لهم في جهنم ظلل من النار من فوقهم وظلل من تحتهم، بمعنى أن النار ستغشاهم من جميع جوانبهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾، بمعنى: أنه يقص تعالى ذلك لينزجر عباده عن المحارم والمآثم.

وقال جلّ علاه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

إذا دخل الكفار جهنم صُفّدت أيديهم وغُلّت مع أعناقهم، فإذا واجهتهم النار اتقوها بوجوههم، وقيل لهم: ذوقوا جزاء ما كنتم تكتسبون من الكفر والإجرام.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

يخبر عزّ وجل عن الكفار عندما يعاينون العذاب بأنه لو فرض أن لهم من المُلك ما في هذه الدنيا وأضعاف أضعافه لقدّموه فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد، ولكنه لا يقبل منهم شيء مما يتمنونه فقد فات الأوان.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

يخبر تعالى عن المشركين الذين كذبوا على الله فنسبوا إليه الشريك والولد والزوجة، ستكون وجوههم مظلمة سوداء، ثم قال: أليس في جهنم مقام ومأوى للكفار المستكبرين عن الإيمان وعن طاعة الله ورسوله ﷺ؟ بلى إن لهم مأوى في دار الجحيم.

وقال جلّ جلاله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

يخبر تعالى عن الكفار وأهل الشقاوة بأنهم سيُساقون إلى جهنم جماعة جماعة، حتى إذا قاربوها فتحت أبوابها في وجوههم إرعاباً لهم وقال لهم خزنة جهنم: ما لكم أتيتم جهنم ألم يأتكم رسل الله يقرؤون عليكم آيات الله ويخوّفونكم هذا اليوم؟ قالوا: بلى ولكننا خالفناهم وكذبناهم لما سبق لنا من الشقاوة، فقيل لهم ادخلوا جهنم ماكثين فيها بلا انقطاع ولا زوال فبئس المثوى مأوى أهل الاستكبار جهنم.

* * *

ومن سورة غافر

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

يعني أن الكفار ستناديهم الملائكة يوم القيامة نداء توبيخ وتقريع: إن بغض الله الشديد لكم في الدنيا أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم حين كنتم تُدْعَون من طَرَف الرسل والدعاة إلى الإيمان وطاعة الله ورسله عليهم الصلاة والسلام فتكفرون كبراً وعتواً، فقال الكفار حينما عاينوا العذاب والأهوال: يا ربنا أمتَّنا مرتين وأحييتنا مرتين فاعترفنا بما جنيناه من الذنوب فهل هناك طريق إلى الخروج من النار والرجوع إلى الدنيا لنعمل بطاعتك؟... إلى آخر ما سيقال لهم.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

يقول جلّ شأنه: ونزل بفرعون وجنوده أسوأ العذاب وهو الغرق في البحر في الدنيا والحريق في الآخرة، فهم الآن يُعذَّبون في القبور والبرزخ ويُعرضون على النار صباحاً ومساءً، ويوم القيامة يقال للملائكة: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم التي هي أشد من عذاب الدنيا.

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

عندما ييأس الكفار من نصر بعضهم بعضاً وأنهم لا يستطيعون جلب نفع ولا دفع عذاب عنهم يلجأون إلى خزنة جهنم وزبانيتها قائلين: ادعوا الله أن يخفف عنا من العذاب ولو مقدار يوم واحد، فتجيبهم الملائكة تقريعاً وتوبيخاً لهم: ألم تأتكم الرسل بالمعجزات الظاهرات؟ قالوا: بلى قد جاؤونا ولكننا كذبناهم وكفرنا بهم، فتقول لهم زبانية جهنم: فادعوا الله أنتم فإنا لا نجترىء على ذلك، ومع ذلك فلا أثر لدعائكم وما هو إلا في خسار وتبار.

وقال عزّ وجل: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

يعني: فسوف يعلم أولئك المجادلون في آيات الله الذين كذبوا بالكتب

وبما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام حين يدخلون النار وتُربَطُ أيديهم إلى أعناقهم بالأغلال والسلاسل يُسحبون بذلك في الماء الحار، ثم يوقدون ويحرقون في النار، ثم يقال لهم: أين شركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم دون الله تعالى فنادوهم لينقذوكم مما أنتم فيه، فيجيبون: إنهم غابوا عنا... ثم يقال لهم: ادخلوا من أبواب جهنم السبعة المقسومة لكم ماكثين فيها فبئست جهنم مقراً وسكناً للمستكبرين عن آيات الله تعالى.

* * *

ومن سورة فصلت

قال عزّ وجل: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾.

يقول تعالى: إن المشركين الذين جمعوا بين الكفر بالآخرة وما فيها ومنعوا زكاة أموالهم، لهم الهلاك والدمار يوم القيامة فسيُعذَّبون على كفرهم وعدم إيمانهم ويزادون فيعذبون على فروع الشريعة كمنعهم الزكاة وتركهم الصلاة والصيام والحج، وغير ذلك من التكاليف الشرعية.

وقال تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

معناه: وجبت على المشركين كلمة العذاب وهو القضاء المحتم بشقائهم في جملة أمم من الأشقياء المجرمين قد مضت من قبلهم ممن فعلوا كفعلهم من الجن والإنس إنهم كانوا من الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٢٨﴾.

يقول تعالى: فوالله لنذيقن هؤلاء الكفار المستهزئين بالقرآن عذاباً شديداً لا يخف ولا ينقطع وسنجازيهم بشر أعمالهم أسوأ وأقبح الجزاء،

ذلك العذاب الشديد الأقبح هو نار جهنم جزاء المجرمين، لهم فيها دار الإقامة والأبد؛ جزاء لهم على كفرهم بالقرآن واستهزائهم بآيات الله.

وقال جلّ علاه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

يقسم تعالى على أنه ليُعلمن الكافرين بحقيقة أعمالهم وليبصرنهم بإجرامهم وليعذبنهم أشد العذاب وأغلظه وهو الخلود في نار جهنم.

* * *

ومن سورة الشورى

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: إن أولئك الجاحدين الذين يخاصمون في دين الله ليصدوا الناس عن الإيمان بعدما استجاب الناس له، حجتهم باطلة لا ثبوت لها عند الله وعليهم غضب عظيم من الله في الدنيا وعذاب شديد لا يطاق في جهنم.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾.

يقول تعالى: إن الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان، لهم عذاب موجع.

ترى أيها الإنسان الكافرين يوم القيامة خائفين خوفاً شديداً من جزاء سيئات ما ارتكبوا في الدنيا، والجزاء عليها نازل بهم سواء أخافوا أم لم يخافوا.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

معناه: إنما العقوبة والمؤاخذة على المعتدين الذين يظلمون الناس بعدوانهم ويتكبرون في الأرض تجبُّراً وفساداً بالمعاصي والاعتداء على الناس في النفوس والأموال، أولئك الظالمون الباغون لهم عذاب مؤلم موجع بسبب ظلمهم وبغيهم.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

يقول تعالى: وترى أيها الإنسان الكافرين حينما شاهدوا عذاب جهنم يطلبون الرجعة إلى الدنيا لما يشاهدون من الأهوال فيقولون: هل هناك طريق لعودتنا إلى الدنيا؟ وتراهم يُعرضون على النار صاغرين أذلاء يسارقون النظر إليها خوفاً وفزعاً منها، ويقول المؤمنون في الجنة عندما عاينوا ما حلّ بالكفار: إن الخسران في الحقيقة هو ما صار إليه هؤلاء فإنهم خسروا أنفسهم وأهليهم ألا إنهم في عذاب دائم لا ينقطع.

* * *

ومن سورة الزخرف

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

معناه: إن الكفار الراسخين في الإجرام هم في العذاب الشديد في نار جهنم دائمون لا يخفّف عنهم العذاب لحظة وهم في ذلك العذاب يائسون من كل خير.

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

يقول تعالى: عندما ييأسون من عدم رفع العذاب عنهم أو تخفيفه يلجأون إلى مالك خازن النار: ليمتنا الله تعالى حتى نستريح من العذاب.

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فيجيبهم بعد ألف سنة: إنكم ماكثون، أي: مقيمون في العذاب أبداً لا خلاص لكم منه بموت ولا بغيره.

***

❋ ومن سورة الدخان

قال جلّ جلاله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ۝٤٤ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٦ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾.

يخبر تعالى بأن طعام الكافر الكثير الإثم هو شجرة الزقوم الخبيثة التي تنبت في أصل الجحيم لا طعام له غيرها، وهي في فظاعتها إذا أكلها تغلي في بطنه كالنحاس المذاب الذي بلغ النهاية في الحرارة مثل غليان الحميم وهو الماء الحار، ويقال للزبانية: خذوا هذا الفاجر اللئيم فسوقوه وجرُّوه بعنف وشدة إلى وسط الجحيم والنار المتأججة، ثم زيدوه فصبُّوا فوق رأسه من عذاب ذلك الحميم الذي تناهى في الحرارة ويقال له على سبيل التهكُّم والإهانة والاستهزاء: ذُق هذا العذاب فإنك أنت المُعَزَّر المُكَرَّم، إن هذا العذاب هو ما كنتم تشكون به في الدنيا.

***

❋ ومن سورة الجاثية

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾.

يقول عزّ وجل: هلاك ودمار لكل كذّاب مبالغ في اقتراف الآثام يسمع

آيات القرآن الكريم تُقرأ عليه ثم يدوم على كفره وضلاله مستكبراً عن الإيمان كأنه لم يسمعها فبشّره وأنذره بعذاب مؤلم موجع، وإذا بلغه شيء من آياتنا سخر واستهزأ بها فأولئك الكذّابون المستهزؤون لهم عذاب شديد مع الذل والإهانة، وأمامهم جهنم تنتظرهم ولا ينفعهم ما ملكوا من ثروة وولد ولا ما جعلوا من دون الله من أصنام وأوثان ولهم عذاب فظيع شديد دائم لا يُتصور.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى للمشركين الذين كانوا لا يؤمنون بالساعة ولا يعتقدون الآخرة: اليوم وقد جئتمونا ننساكم في عذاب جهنم مثل ما نسيتم لقاء هذا اليوم فمقركم نار جهنم وليس لكم اليوم ناصر، وذلك بسبب أنكم جعلتم آياتي هزءاً أو سخرية وخدعتكم الدنيا بنضارتها وبهجتها، فاليوم وقد دخلتم سقر لا تخرجون منها أبداً ولا يطلب منكم أن ترضوا الله بالتوبة وطاعته فقد فات الوقت.

* * *

ومن سورة الأحقاف

وقال عزّ وجل: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول: وذكّر الناس يا نبيي بما يقع عندما يُكشف الغطاء عن نار جهنم ويُعرض الكفار عليها فيشاهدون أهوالها فيقال لهم: لقد أذهبتم لذائذ الدنيا وتمتعتم بها ولا حظ لكم من ذلك هنا، فاليوم تنالون عذاب الذل والهوان بسبب استكباركم عن الإيمان وفسقكم وارتكابكم الفجور والآثام.

وقال جلّ علاه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

يقول تعالى: واذكر يا رسولي لهؤلاء الطغاة الأهوال والشدائد التي يرونها في الآخرة وذكِّرهم بما يحصل لهم عندما يُعرضون على النار، ويقال لهم: أليس هذا العذاب الذي تذوقونه حقاً؟ فيقولون: بلى وعزة ربنا، فيقال لهم: فذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم.

* * *

❋ ومن سورة محمد

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾.

معناه: إن الكفار مثلهم كمثل الأنعام يأكلون ويشربون ويتمتعون بهذه الحياة ثم تكون نار جهنم مأوى ومقراً لهم.

وقال جلّ شأنه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

التشبيه راجع للآية السابقة في مشارب أهل الجنة، وجاء الاستفهام للإنكار.

ومعناه: لا يستوي من هو في ذلك النعيم ولذيذ الشراب مع من هو مخلَّد في جحيم جهنم وسقوا مكان تلك الأشربة اللذيذة ماءً حاراً شديد الغليان فقطّع أحشاءهم.

* * *

❋ من سورة الفتح

قال جلّ علاه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

يخبر تعالى بأنه سيُعذّب أهل النفاق والشرك بذكورهم وإناثهم وأنه غضب عليهم ولعنهم جميعاً وهيأ لهم نار جهنم وبئست مصيرهم ومقرهم.

وقال جلّ علاه: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

معناه: إن من كفر بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام فقد أعدّ لهم تعالى ناراً شديدة مستعرة.

* * *

ومن سورة ق

قال تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

يخبر تعالى عما يقول للملكين السائق والشهيد يوم القيامة: اقذفا في جهنم كل كافر معاند مبالغ في منع كل حق واجب عليه في ماله ظالم غاشم شاك في الدين الذي أشرك بالله ولم يؤمن بوحدانيته فاقذفاه في وسط نار الجحيم.

وقال جلّ ذكره: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

اذكر ذلك اليوم الرهيب يوم يقول الله عزّ وجل: هل امتلأت؟ وتقول: هل هناك من زيادة؟ وقد تقدم حديث: **«لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة قدمه فيها فتقول: قط قط»** وهو في الصحيح.

* * *

ومن سورة الطور

قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أخبر تعالى بأن عذابه للكافرين واقع وحاصل لا محالة. وذلك بعد فناء الدنيا وقيام الناس لرب العالمين، فهلاك ودمار للمكذبين الخائضين اللاعبين يوم يُدفعون إلى نار جهنم دفعاً بعنف وشدة.

***

ومن سورة القمر

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

معناه: إن الكفار وأهل الإجرام في تخبُّط في الدنيا وفي نيران مسعرة في الآخرة عندما تجرهم الزبانية على وجوههم إذلالاً لهم ويلقون في جهنم ويقال لهم: ذوقوا عذاب جهنم أيها المجرمون.

***

ومن سورة الرحمٰن

قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾.

معناه: إن الكفار وأهل الإجرام يُعرفون يوم القيامة بعلاماتهم، وهي زرقة العيون وسواد الوجوه والكآبة والعبوس، فتأخذ الملائكة بشعور مقدم رؤوسهم وأرجلهم ويقذفونهم في النار، ويقال لهم: هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً وهم يترددون بين نار جهنم وبين ماء حار يطوفون مرة بين النار ومرة بين الحميم وهو الماء الغليان.

***

❁ ومن سورة الواقعة

قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

ذكر عزّ وجل هنا حالة الأشقياء أصحاب الشمال وأنهم سيكونون في وسط جهنم يعذبون بأنواع من العذاب كالسموم وهي ريح النار الحارة التي تهب عليهم، والحميم وهو الماء المغلي والظل من دخان جهنم أسود لا برد فيه ولا حسن المنظر يسر به، واستوجبوا ذلك لإقبالهم في الدنيا على الشهوات والمستلذات وإصرارهم على الذنب العظيم وهو الشرك بالله والكفر به وإنكارهم البعث والحياة بعد الموت.

وسيطعمهم الله عزّ وجل من شجرة الزقوم فيملأون منها بطونهم ويشربون عليها من الحميم شرب الإبل العطاش... فهذا نزلهم وضيافتهم يوم القيامة.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

معناه: إن من كان من المكذبين بالله وبما جاءت به رسل الله وكان ضالاً عن الطريق فضيافته يوم القيامة هو ماء الحميم ودخول جهنم وذوقان حرها وحريقها.

❊ ❊ ❊

❁ ومن سورة الحديد

قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

جاءت الآية خاتمة الحديث عن المنافقين ومشاهدهم يوم القيامة، فأخبر تعالى عنهم بأنهم لا يقبل منهم ولا من الكفار بدل ولا عوض بل مقرهم ومنزلهم نار جهنم فهي مولاهم وسندهم وبئس المرجع نار جهنم.

* * *

ومن سورة المجادلة

قال جلّ علاه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

يتحدث تعالى هنا عن المنافقين الذين كانوا يوالون اليهود المغضوب عليهم، فهؤلاء المنافقون ليسوا من المسلمين ولا من اليهود وقد هيّأ الله لهم عذاباً شديداً لا يطاق، إنهم جعلوا أيمانهم لكم وقاية لأنفسهم من القتل فمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، فلهم بذلك عذاب مهين ذو إهانة ولا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم في الآخرة شيئاً، بل هم أصحاب النار خالدين وماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً.

* * *

ومن سورة الحشر

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

جاء الكلام هنا على يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ من ديارهم بضواحي المدينة، فأخبر تعالى عنهم بأن لهم مع عذاب الدنيا عذاب جهنم المؤبّد، ذلك بأنهم خالفوا الله ورسوله، ومن يفعل ذلك فعذاب الله شديد وعقابه أليم.

✻ ومن سورة التغابن

قال جلّ علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

أي: الذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا ما جاءت به الرسل من الكتب والشرائع، أولئك هم أهل النار وسكان جهنم ماكثين فيها أبداً وبئست المقر هي.

✻ ✻ ✻

✻ ومن سورة التحريم

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾.

يأمر الله عزّ وجل المؤمنين أن يحفظوا أنفسهم وأولادهم وأزواجهم وذويهم بالإيمان بالله وطاعة الله ورسوله من نار جهنم التي حطبها حجارة الكبريت والأصنام والناس والجن، وقد كلف بها ملائكة لله تعالى عظام الأجسام غلاظ ليست فيهم رحمة لا يخالفون أمر الله ولا يعصونه أبداً.

وقال جلّ ذكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾.

يأمر تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار وذلك بقتالهم وجهاد المنافقين بالحجة والبرهان، وأن يشدد عليهم في الخطاب، وأخبر تعالى بأن مستقرهم في الآخرة هي نار جهنم وبئست مستقراً ومصيراً لهم.

✻ ✻ ✻

❁ ومن سورة تبارك

قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١٠ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝١١﴾.

يخبر تعالى عن مصير من كفر به وأن مآلهم عذاب جهنم المسعرة وبئست المرجع كلما قذفوا في وسطها كما يطرح الحطب في النار سمعوا لجهنم صوتاً منكراً فظيعاً كصوت الحمار تشهق لهم كما يشهق الحمار وهي تغلي بهم من شدة الغضب تكاد تتقطع وينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على أعداء الله ورسوله ﷺ، كلما طرح فيها جماعة من الكفرة سألتهم الزبانية: ما حالكم ألم يجئكم رسل ينذرونكم؟ قالوا: بلى ولكننا كذبناهم ورددنا دعوتهم ولو كنا نسمع سماع قبول أو نعقل ونفكر ما كنا هنا في سعير جهنم... فبُعداً وهلاكاً لهم.

❁ ❁ ❁

❁ ومن سورة الحاقة

قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۝٣٧﴾.

يتحدث الله عزّ وجل هنا عن الشقي الذي تناول كتابه بشماله حيث سيقول: يا ليت الموتة الأولى كانت القاطعة لحياتي فلم ينفعني مالي ولا سلطاني وجاهي وعند ذلك يقول الله عزّ وجل لزبانية جهنم: خذوا هذا المجرم فشدُّوه بالأغلال ثم أدخلوه النار العظيمة المتأججة ثم أدخلوه في

سلسلة حديدية طولها سبعون ذراعاً فتدخل من دبره وتخرج من حلقه، لأن هذا المجرم لم يكن يعتقد وحدانية الله وعظمته ولا يحث نفسه ولا غيره على إطعام المسكين، فليس له في الآخرة صديق ولا قريب يدفع عنه العذاب، كما أنه ليس له طعام إلا صديد أهل النار الذي يسيل من جراحاتهم لا يأكله إلا الآثمون المجرمون المصرون على الكفر والفواحش حتى جاءهم الموت.

***

✽ ومن سورة المعارج

قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ۝١٤ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨﴾.

يخبر تعالى بأن الكافر والشقي يوم القيامة يتمنى أن لو يفدي نفسه من عذاب الله بأعز من كان عليه في الدنيا من ابن وزوجة وأخ وعشيرته التي كانت تضمه إليها وبجميع من في الأرض من البشر... ثم ينجو من عذاب الله، ولكن كلا، لينزجر هذا المجرم! بل أمامه جهنم تتلظى نيرانها وتلتهب نزّاعة لجلدة الرأس بشدة حرها تنادي جهنم وتهتف بمن كذب بالله وأعرض عن الإيمان، وتدعو من جمع الأموال واكتنزه في الخزائن والبنوك.

***

✽ ومن سورة المزمل

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾.

يقول عزّ وجل: إن عندنا للمكذبين الكافرين في الآخرة قيوداً عظيمة وناراً مستعرة وطعاماً كريهاً غير سائغ يعترض في الحلقوم وهو الزقوم

والضريع وعذاباً مؤلماً وجيعاً زيادة على النكال والأغلال، ويكون ذلك بعد قيام الساعة والعرض على الله.

* * *

❁ ومن سورة المدثر

قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

جاءت الآيات كسابقتها تتحدث عن اللعين الأثيم الشقي الوليد بن المغيرة الذي أطلق على النبي ﷺ لقب الساحر، وقال: إن ما يقوله سحر يؤثر وليس بكلام الله، فأخبر تعالى بمآله وأنه سيُرهقه صعوداً، أي: سيلجئه إلى عذاب صعب شاق أو يكلف أن يصعدَ صخرة ملساء في جهنم وأنه سيصليه ويدخله جهنم يتلظى حرها لا تبقي على شيء مرت عليه إلا أهلكته، ولا تترك أحداً من الفجار الكفرة إلا أحرقتهم وإنها تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسيرة بعيدة لتُرعبهم وتعذبهم نفسياً، وعليها من ملائكة الله الزبانية تسعة عشر ملكاً يقومون بتعذيب أصحابها غلاظ شداد لا رحمة فيهم كل واحد منهم لا يعلم عظمة جسده من الطول والعرض وما له من القوة والبطش إلا الله تعالى خالقهم.

* * *

❁ ومن سورة الإنسان

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾.

أي: إننا بقدرتنا هيّأنا للمجرمين وأهل الملل الكفرية قيوداً من سلاسل تُشَد بها أرجلهم وأغلالاً من حديد نارية تُغل بها أيديهم مع أعناقهم، وسعيراً أي: ناراً موقدة مُستعرة يُحرقون بها.

* * *

ومن سورة المرسلات

قال جلّ ذكره: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: هلاك عظيم وخسارة كبيرة في ذلك اليوم الرهيب لأولئك المكذبين الكافرين الضالين، وقد كرر تعالى هذه الآية عشر مرات ترغيباً وترهيباً، وفي كل مرة منها جاءت معها أخبار عن أحوال الآخرة وغيرها، فتبارك الله الملك الحق، فما أعظم هذا القرآن وما أفصحه وأبلغه.

وقال تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

يقول تعالى يوم القيامة للكفار المجرمين: انطلقوا إلى عذاب جهنم الذي كنتم به في الدنيا تكذبون انطلقوا فاستظلوا بدخان كثيف من دخان جهنم يتفرع منه ثلاث شعب لا يظل من استظل به ولا يقيه حر النار ولا يدفع عنه ألسنتها المندلعة من كل جانب، إن جهنم تقذف بشرر عظيم من النار، كل شرارة كالقصر العظيم كأنها في لونها وسرعة حركتها جمالاتٌ صفر.

* * *

ومن سورة النبأ

وقال عزّ وجل: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

يقول جلّ ذكره عن يوم القيامة: عندما ينفخ في الصور ويأتي الخلائق للحشر أفواجاً وتفتح السماء وتسير الجبال عن أماكنها وتصبح كالسراب فتكون عندئذ جهنم تنتظر أهلها وتترقبهم، كما يترصد الرجل عدوه ويترقبه

فهي للطغاة المجرمين مرجع ومأوى ماكثين فيها دهوراً متتابعة لا نهاية لها كلما مضى حقب جاء عقبه حقب آخر، لا يذوقون فيها برودة ولا شراباً يسكن عطشهم إلا ماءً حاراً بالغ الغاية في الغليان وصديداً يسيل من جلود أهل النار عاقبهم الله تعالى جزاءً موافقاً لأعمالهم السيئة، إنهم لم يكونوا في الدنيا يتوقعون الحساب والجزاء وكانوا يكذبون بآيات الله تعالى وكل ما فعلوه من جرائم وآثام ضبطناه في كتاب، ثم يقال لهم: فذوقوا عذاب الحريق فلا تزدادون إلا عذاباً فوق العذاب.

وهذه الآية أيضاً من الآيات التي هي أشد آية في القرآن على الكفار.

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

يقول تعالى لكفار قريش: إنّا خوّفناكم وحذّرناكم عذاباً قريباً وقوعه وهو عذاب الآخرة عندما يرى الإنسان ما قدّم من خير وشر ويتمنى الكافر أن لو كان تراباً لم يخلق ولم يكلف حتى لا يُحاسَب ولا يُعذَّب.

* * *

✲ ومن سورة النازعات

وقال جلّ علاه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

يقول عزّ علاه: فإذا أتت الداهية العظمى وهي قيام الساعة، عندما يتذكر المرء ما عمله من خير أو شر وأظهرت جهنم للكافرين فيعاينونها، فمن كان ممن طغى وجاوز الحد في الإجرام والعصيان وفضّل حياة الدنيا الفانية على الآخرة وانهمك في الشهوات والمستلذات المحرّمة فإن جهنم المتأججة هي منزله ومسكنه ومقره.

* * *

❋ ومن سورة الانفطار

وقال جلّ ذكره: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: إن الكفرة الفجرة الذين عصوا ربهم وكذبوا رسله لفي نار محرقة وعذاب دائم في دار الجحيم يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء، وما أولئك الفجرة بغائبين عن جهنم بل هم دائمون فيها وذلك سيكون عندما يستطيع أحد أن ينفع أحداً بشيء والأمر يومئذ كله لله لا ينازعه فيه أحد.

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة المطففين

قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

يتحدث تعالى عن المطففين في الكيل والميزان وعن الفجار .والمكذبين بيوم الدين المستهزئين بآيات الله، وأن الله عزّ وجل سيجمع لهم بين عقابين وعذابين، دخول جهنم وذواق حرها وعذابها والحرمان من رؤية الله تعالى، كما يراه المؤمنون في جنات عدن.

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة البروج

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

يقول جلّ علاه: إن الذين عذّبوا المؤمنين والمؤمنات وأحرقوهم بالنار ليفتنوهم عن دينهم، ثم لم يرجعوا عن كفرهم حتى ماتوا على ذلك فلهم

عذاب جهنم يحرقون به كما حرقوا المؤمنين، فيا ويل ويا خزي من يعذّب المسلمين بالنار أو غيرها، فيا خسارته في الآخرة.

* * *

ومن سورة الأعلى

قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

يقول جلّ علاه: سيتعظ بالموعظة من يخشى الله عزّ وجل ويُعرض عنها ويرفضها ولا يقبلها الكافر المبالغ في الشقاوة الذي يدخل النار العظيمة الفظيعة التي لا أكبر ولا أعظم ولا أوجع منها، وهي نار جهنم.

* * *

ومن سورة الغاشية

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾.

معناه: هل جاءك يا رسولي خبر الداهية العظيمة التي تغشى الناس وتعمهم بشدائدها وهي القيامة، يوم يكون فيها وجوه الكفار ذليلة خاضعة دائبة العمل فيما يشقيها في النار من مقاساة أنواع العذاب، تدخل ناراً مسعرة شديدة تسقى من عين متناهية الحرارة لا طعام لها إلا الضريع الذي هو شر الطعام وأخبثه لا يفيد قوة ولا سمناً في البدن ولا يدفع الجوع عن آكله.

* * *

ومن سورة الفجر

قال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ

ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ ﴿٢٦﴾﴾.

يقول تعالى عندما تُدَكُّ الأرض دكًا لقيام الساعة، وجاء الله لفصل القضاء ونزل ملائكة السماوات وجيء بجهنم للموقف لتُعرض على الكفار عندئذ يتذكر الإنسان عمله ويندم ويتحسر على ما فرّط، ومن أين تنفعه الذكرى وقد فات الأوان فيقول نادماً متحسراً: يا ليتني قدّمت من الإيمان والأعمال الصالحة لحياتي هذه، ففي ذلك اليوم ليس شيء أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ولا يقيد أحد بالسلاسل والأغلال مثل تقييد الله للكافر المجرم الفاجر.

* * *

❋ ومن سورة البلد

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين كفروا بالقرآن وبما جاء به رسول الله ﷺ مع أهل الشمال والشقاء الأبدي، عليهم نار جهنم مطبقة ومغلقة لا يدخل فيه روح ولا ريحان.

* * *

❋ ومن سورة الليل

قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

معناه: فحذرتكم أيها المشركون المجرمون ناراً تتوقد وتتوهج من شدة حرارتها لا يدخلها للخلود فيها ويذوق سعيرها إلا الكافر الشقي الذي كذّب الرسل وأعرض عن الإيمان.

* * *

❁ ومن سورة البينة

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٦﴾.

هذه الآية الكريمة من أصرح الآيات في كفر اليهود والنصارى كالوثنيين، لأنهم وإن آمنوا بمن قبلنا من الأنبياء، فإنهم كفروا برسالة نبينا وما جاء به ﷺ، وقد أخبر تعالى عنهم بأنهم مع المشركين في عذاب نار جهنم ماكثين دائمين فيها، وزاد: أنهم شر خلق الله تعالى.

❁ ❁ ❁

❁ ومن سورة القارعة

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

يقول عزّ وجل: إن من نقصت حسناته عن سيئاته أو لم يكن له حسنات يعتد بها كان مسكنه يوم القيامة ومصيره الهاوية يهوي في قعرها، فهي أمه ومفزعه، وهي نار حامية شديدة الحرارة لا تتصور حرارتها.

❁ ❁ ❁

❁ ومن سورة الهمزة

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

يقول تعالى: عذاب شديد وهلاك ودمار لكل من يعيب الناس

ويغتابهم ويطعن في أعراضهم أو يلمزهم بعينه أو حاجبه، الذي جمع مالاً كثيراً وحافظ على عدده، يظن أن ماله سيتركه في الدنيا مخلَّداً، كلا ليرتدع عن هذا الظن الخاطىء، فوالله ليطرحن في نار جهنم تلك النار التي تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب، فهي نار الله المسعرة المشتعلة التي يبلغ ألمها إلى القلوب فتطلع على الأفئدة فتحرقها، إنها على الكفار مطبقة مغلقة وهم موثوقون في سلاسل وأغلالٍ تشد بها أيديهم وأرجلهم على أعمدة ممدودة من نار.

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى، وبمحبتك لرسولك ومحبته لك ﷺ، وبإيماننا بك ومحبتنا لك ولرسولك ولأنبيائك ورسلك وجميع أوليائك وأصفيائك من السابقين واللاحقين، أن تجيرنا ووالدينا وأبناءنا وأجدادنا ومشايخنا وأحبتنا. . . من النار وأهوالها وعذابها ورؤيتها ورؤية أهلها آمين، إنك سميع قريب مجيب الدعاء. وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وزوجه أبد الآبدين.

والحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات.





دار الأفراح والنعيم

الحمد لله على نعمه وإحسانه والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه.

وبعد، فقد تحدثنا سابقاً عن أهوال القيامة ومشاهد المحشر والحساب والميزان ومرور العباد على الصراط وسقوط الكفار ومن شاء الله تعالى من عصاة الموحدين في جهنم، وتقصينا أخبار النار وسلاسلها وأغلالها وأوديتها وثعابينها وعقاربها وأهوالها وسعيرها وعذابها الذي لا يطاق وصفات أهلها وما سيلقون من أنواع العذاب إلى آخر ما سبق مفصّلاً.

والآن جاء دور دار الأفراح دار المأوى والنعيم والخلد والفردوس، تلكم الدار التي طالما اشتاقت إليها أفئدة المحبين والتي كان يتنافس في الحصول عليها والتأهُب لها المؤمنون المخلصون، والتي أعدّها الله تعالى وهيّأها لعباده الصالحين، فلنتابع المسيرة في بيانها وبيان سكانها وما هيىء لهم فيها من متّع ونعيم.

* * *

❋ صفات الجنة فوق مستوى العقول

[٤٢٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذُنٌ**

سمعت، ولا خطر على قلب بشر، دُخراً من بَلْهَ ما أطلعكم الله عليه، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾».

رواه أحمد (٤٦٦/٢)، والبخاري في بدء الخلق (١٣١/٧)، وفي التفسير (١٣٥/١٣٤/١٠) وفي التوحيد، ومسلم في الجنة (١٦٧/١٦٦/١٧)، والترمذي في تفسيرَيْ السجدة (٢٩٩٠) والواقعة (٣٠٧٥) بتهذيبي.

قوله: «دخراً» ورد بالمعجمة والمهملة، أي: مخبوءاً ومدخراً لكم. وقوله: «بَلْه» بفتح الباء وسكون اللام، اسم فعل بمعنى: دع واترك، أي: دع عنك ما أطلعكم الله تعالى عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم، وعلى رواية: «مِن بله» تكون بمعنى الاستفهام، أي: كيف ومن أين اطلاعكم على هذا القدر الذي تقصر عقول البشر عن الإحاطة به.

ولهذا الحديث سبب وهو ما يأتي في سؤال موسى عليه السلام ربه عن أدنى وأعلى أهل الجنة منزلة وفيه: «**فأعلاهم منزلة قال: أولئك الذين غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم ترَ عين، ولم تسمع أُذن، ولم يخطر على قلب بشر**»، قال: ومصداقه من كتاب الله عزّ وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

رواه مسلم في الإيمان (٤٦/٤٤/٣)، والترمذي في التفسير (٢٩٩١) ويأتي.

والحديثان يدلان على ثلاثة أمور:

أولاً: ثبوت الجنة وإعدادها بقصورها، وأنهارها، وأشجارها، ونسائها، وحللها، وطعامها، وشرابها، وفواكهها، فهي مهيَّأة معدّة للمتقين تنتظر سكانها ليحظوا بما فيها من نعيم ومتَع.

ثانياً: إن الله تعالى جعلها خالصة لعباده الصالحين وهم كل من آمن به وبما جاءت به رسل الله على اختلاف منازلهم ودرجاتهم إيماناً وعملاً وحالاً.

ثالثاً: إنه عزّ وجل أعدّ لهم في هذه الدار من أنواع المتَع والنعيم أكلاً وشرباً ولباساً ومنكحاً ومنظراً ومسمعاً ومركباً وفرحاً وكل ما يُشتهى ويُلَذ ما هو خارج عن مستوى العقول البشرية وآذانهم وأبصارهم، فلا يمكن أن ترى عين، أو تسمع أُذن قط، أو يخطر على قلب بشر أصلاً ما أعدّه الله تعالى لهم من أنواع النعيم الذي سيحظون به، فكل ما يذكر في الكتاب والسنّة من صفات الجنة وأهلها إنما هي أشياء تقريبية كأمثلة، أما الحقائق فلا يعلمها إلا الله عزّ وجل المتفضل بذلك على عباده الصالحين، وستمر بك أشياء من ذلك قد تحيلها العقول الضيقة.

* * *

❁ صفة خلق الجنة وبنائها

[٤٢٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قلنا: يا رسول الله حدِّثنا عن الجنة ما بناؤها؟ قال: «**لَبِنةٌ من ذهب، ولَبِنَةٌ من فضة، ومِلاطُها المسكِ الأذفَرُ، وحَصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، مَن يدخلها ينعَم فلا يبأس، ويَخلُدُ لا يموت، لا تَبلى ثيابه، ولا يَفنى شبابه**».

رواه أحمد (٣٦٢/٢)، والبزار (٣٥٠٩)، والطبراني في الأوسط (٢٥٥٣) مختصراً وسنده صحيح.

وقوله: «من يدخلها ينعم...» إلخ، رواه مسلم وغيره ويأتي.

ورواه أحمد (٣٠٥/٢)، والترمذي في الجنة (٢٣٤٣)، وابن حبان (٧٣٨٧) مطولاً، وقد توسع محقق ابن حبان في تخريجه فلينظر.

[٤٢٩] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**جنّتانِ من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**».

رواه البخاري في تفسير الرحمٰن (٢٤٨/١٠) وفي بدء الخلق، ومسلم

في الإيمان رقم (١٨٠)، والترمذي في صفة الجنة (٢٣٤٥)، ويأتي في بحث النظر إلى وجه الله الكريم في الخاتمة.

[٤٣٠] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن تُربة الجنة فقال: **«دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مِسْكٌ خالصٌ»**.

وفي رواية: قال رسول الله ﷺ لابن صائد: **«ما تُربةُ الجنة؟»** قال: دَرمكةٌ بيضاءُ مِسْكٌ يا أبا القاسم، قال: **«صدَقْتَ»**.

رواه مسلم في أخبار ابن صياد من الفتن (١٨/٥٢).

[٤٣١] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ في اليهود: **«إني سائلهم عن تربة الجنة وهي درمكة بيضاء»**، فسألهم فقالوا: هي خبزة يا أبا القاسم، فقال رسول الله ﷺ: **«الخبز من الدرمكة»**.

رواه الترمذي في تفسير المدثر (٣١١٠) بسند حسن على رأي الذهبي.

[٤٣٢] وعن أنس رضي الله تعالى عنه في حديث الإسراء قال ﷺ: **«ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى وغشيها ألوان لا أدري ما هي، ثم أُدخلتُ الجنة فإذا فيها جنابذُ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك»**.

رواه البخاري في أول الصلاة (٢/٨/٩) وفي أحاديث الأنبياء، ومسلم في الإيمان، وأحمد (٥/١٤٤).

بيان ألفاظ هذه الأحاديث:

قوله في حديث أبي هريرة: «ملاطها» بكسر الميم، أي: ترابها. و«الأذفر»: الشديد الرائحة، وقوله: «ولا يَبْأس» أي: لا يصيبه بؤس وفقر وحاجة.

وقوله في حديثَيْ أبي سعيد وجابر: «دَرمكةٌ» هو الدقيق الخالص أو التراب الناعم.

وقوله في حديث أنس: «جنابذ» هي القباب والخيام.

لنتصور القصور والبنايات الشاهقة التي لا حدود لها، والغرف الفارهة التي تُعد بالبلايين، المكونة من الذهب والفضة مع أوانيها وأجهزتها، وأثاثها، الكل ذهب وفضة، وسندس وإستبرق، وترابها الزعفران والمسك الأذفر الذي لا أطيب منه في بياض وصفاء كالدقيق الخالص، وحصاها اللؤلؤ والياقوت، وخيامها وقبابها من اللؤلؤ. فلنتصور هذه الدار، ولنتخيلها في أدمغتنا كيف تكون، لا والله لا تتصورها عقولنا ولا نستطيع تخيلها، وإنما نكتفي بما تسعه عقولنا، وكفى، فليطب المؤمنون نفساً بسكناهم هذه الدار ولتقر أعينهم بذلك وليواصلوا مسيرتهم في العمل والتأهُّب لها.

وقوله ﷺ في حديث أبي موسى: «**جنتان وما فيهما من ذهب...**» إلخ، جاء في رواية له مرفوعاً: «**جنتان من ذهب للمقرَّبين، ومن دونهما جنتان من وَرِقٍ لأصحاب اليمين**».

رواه ابن جرير وابن أبي حاتم ورجاله ثقات، وتأتي بقية لهذا في موضع له.

***

❋ خيام الجنة، وقصورها، وغرفها

[٤٣٣] عن أبي موسى رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوَّفة طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً**».

وفي رواية: «**عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهلٌ ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن**».

رواه أحمد (٤/٤١١/٤١٩)، والبخاري في بدء الخلق (١٣١/٧)، وفي التفسير (٢٤٨/١٠)، ومسلم (١٧٦/١٧٥/١٧)، والترمذي (٢٣٤٦) كلاهما في الجنة، والدارمي (٢٨٣٦)، وابن حبان في صحيحه (٤٠٧/١٦).

قوله: «لَخَيمة» أي: لقَصْر، وعبّر بالخيمة على عادة العرب في التعبير

بذلك عن القصر. وقوله: «في كل زاوية» أي: في كل جهة منها أهلٌ، يعني الحور العين.

فهذا مثال واحد وصفة لقصر من قصور أولياء الله تعالى المعدّة لهم، فالقصر مكوّن من لؤلؤة واحدة، وتصوّر قدر هذه اللؤلؤة ثم طول هذا القصر أو عرضه ستون ميلاً، أعني مقدار مسافة ما يمشيه الراكب على دابة أكثر من يوم من أيام الدنيا، وقد هُيِّئَت في كل جهة من جهاتها فُرُش مزخرفة عليها نساء غاية في الحُسن والجمال... يتمتع بهن ولي الله كيف شاء، وكم له من هذه القصور وزينتها ونسائها.

[٤٣٤] وعن أبي مالك الأشعري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن في الجنة غُرَفاً يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدّها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلّى بالليل والناسُ نيام»**.

رواه أحمد (٣٤٣/٥)، وابن حبان (٣٦٢/٢)، والبهيقي في السنن (٣٠٠/٤) وغيرهم بسند حسن صحيح، وللحديث شواهد منها عن الإمام علي رضي الله تعالى عنه، رواه أحمد (١٥٦/١)، والترمذي في البر والصلة وفي صفة الجنة (٢٣٤٤).

هذه صفات بعض قصور الجنة وهي غرف طباق فوق طباق وأنها شفافة مثل القوارير ولها شبه بما يتمتع به أهل الدنيا اليوم، ولكن شتان ما بين الجنة والدنيا وهي بهذه الصفة المذكورة سيحظى بها أصناف خاصون من المؤمنين وهم الذين يواسون الضعفاء ويساعدون المحتاجين ويقدمون الوجبات لضيوفهم وزوارهم، والذين يُشيعون تحية الإسلام بين المسلمين ويظهرونها على المعارف وغيرهم، والذين يقومون في الليالي المظلمة يتهجدون خاشعين راغبين راهبين باكين مستغفرين والناس غافلون نائمون، وحق لهم أن تخص لهم هذه الغرف العاليات المزخرفات، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل هذه الغرف حيث قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

* * *

❊ كسب القصور والغرف في الجنة

[٤٣٥] عن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«مَن صلّى في اليوم والليلة اثنتَيْ عشرة ركعةً تطوُّعاً، بنى الله له بيتاً في الجنة»**.

رواه أحمد ومسلم وغيرهما، وقد تقدم في الصلاة.

[٤٣٦] وعن عثمان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة»**.

رواه الشيخان، وتقدم أيضاً في المساجد.

[٤٣٧] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاةٍ لبيضها، بنى الله له بيتاً في الجنة»**.

رواه أحمد (٢٤١/١) بسند صحيح.

«مِفْحص قطاة» أي: مقدار عُشِّها.

فهذه بعض الأعمال الصالحة التي تبنى بها البيوت والغرف في الجنة، وكم يبنى للمؤمن من غرف إذا كان ملتزماً بهذه الأعمال وغيرها طوال حياته، إنه شيء لا حدود له فضلاً من الله عزّ وجل.

❊ ❊ ❊

❊ بحار وأنهار الجنة

[٤٣٨] عن معاوية القُشَيري رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«في الجنة بحرٌ للماء، وبحر لِلَّبن، وبحرٌ للعسل، وبحرٌ للخمر، ثم تشَقَّقُ الأنهارُ منها بعدُ»**.

رواه أحمد (٥/٥)، والترمذي في صفة الجنة (٢٣٤٨)، والدارمي

(٢٨٣٩)، وابن حبان (١٦/٤٢٤) وحسّنه الترمذي وصححه، وهو كما قال.

[٤٣٩] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنهار الجنة تخرج من تحت تلال أو من تحت جبال مِسْك»**.

رواه ابن حبان (١٦/٤٢٣)، بسند حسن وله شاهد عن ابن مسعود رواه ابن أبي شيبة وغيره.

قوله: «تلال» بكسر التاء، جمع تل بفتحها وضمها وهي القطعة المرتفعة من الأرض عمن حولها.

الحديث الأول: يدل على أن في الجنة بحاراً للماء واللبن والعسل والخمر، ثم تتفجر منها الأنهار من تحت جبال المسك كما في الحديث الثاني، وكل من تلك البحار والأنهار تتفجر من جنة الفردوس كما يأتي في درجات الجنة إن شاء الله تعالى.

ولكل واحد من أهل الجنة له أربعة أنهار مما ذكر تمر عليه في ملكه، يشرب منها أيّما وقتٍ شاء. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذكر هذه الأنهار فقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾، وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر هذه الأنهار بكثرة وأنها تجري تحت قصور الجنة كمثل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾، وقوله عزّ وجل: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، وقوله جلّ علاه: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾ في عشرات من الآيات يأتي بعضها.

وهذا غاية ما يكون من المناظر الجميلة والمتعة الطيبة والفرح والسرور والطمأنينة وانشراح الصدور، إذ القلوب مجبولة على حب المياه الجارية والتنزُّه في الحدائق والنظر إلى الخضرة، وهذه من المتَع والنعيم الذي أعدّه الله تعالى لأوليائه في دار الأفراح.

* * *

❁ أنهار في الدنيا من الجنة

[٤٤٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«سَيْحَانُ، وجَيْحَانُ، والفُراتُ، والنِّيلُ، كُلٌّ من أنهار الجنة»**.

رواه أحمد (٢/٢٨٩/٤٤٠)، ومسلم في كتاب الجنة (١٧/١٧٩).

ورواه أحمد (٢/٢٦١)، والحميدي (١١٦٣)، وأبو يعلى (٥/٣٥٦) بلفظ: **«أربعةُ أنهار فُجِّرت من الجنة: الفراتُ، والنيلُ ـ نيل مصر ـ، والسَّيحان، والجيجان»**.

[٤٤١] وعن مالك بن صعصعة رضي الله تعالى عنه في حديث الإسراء: **«ثم رُفِعتْ إليّ سدرةُ المنتهى في السماء السابعة فإذا نَبِقها مثلُ قلال هَجَر، وورقها مثل آذان الفِيَلَة، يخرج من ساقها نهران ظاهران، ونهران باطنان، فقلت: يا جبريل ما هذا؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»**.

رواه أحمد (٣/٦٤)، والبخاري في المناقب (٨/٢٠٠/٢١٦) وفي بدء الخلق، ومسلم في الإيمان.

قوله: «سَيْحان وجَيْحان» بفتح أولهما وسكون ثانيهما، هما نهران عظيمان ببلاد الأرمن عند المَصِّيصة، وطَرَسوس. وأما سيحون وجيحون بكسر أولهما وضم الحاء، فهما نهران آخران وراء خراسان.

أما الفرات، فهو نهر عظيم أيضاً ينحدر من جبال تركيا ويمر شمال سوريا ويشق العراق ثم يصب في الخليج العربي. أما النيل فهو أيضاً من الأنهار العظيمة الواسعة يتكون من جبال الحبشة ويمر على الخرطوم ثم مصر، ويشق القاهرة ثم يصب في البحر الأبيض، ويقال: إن طوله ألف كيلو.

وظاهر ما في الباب يدل على أن هذه الأنهار أصلها من الجنة حقيقة، وهذا الذي صححه النووي رحمه الله تعالى فقال في «شرح مسلم»....:

والثاني وهو الأصح أنها على ظاهرها، وأن لها مادة من الجنة، والجنة مخلوقة موجودة اليوم عند أهل السنة...

* * *

من أنهار الجنة الكوثر الذي أُعطيَه نبينا ﷺ

[٤٤٢] فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما عُرِجَ بالنبي ﷺ إلى السماء قال: **«أتيتُ على نهر حافتاه قِبابُ اللؤلؤ مُجوَّف فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»**، وفي رواية: **«بينا أنا أسير في الجنة إذ عُرِض لي نهرٌ حافَتاه قِبابُ اللؤلؤ المُجَوَّف فقال الملكُ الذي معه: أتدري ما هذا؟ هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، وضرب بيده إلى أرضه فأخرج من طينه المسك»**.

رواه أحمد (٢٨٩/١٩١/١٦٤/٣) وفي مواضع، والبخاري (٣٦٢/١٠) والترمذي (٣١٤١) كلاهما في التفسير، ورواه أيضاً البخاري في الرقاق (٢٧٠/١٤)، وأبو داود في السنة (٤٧٤٨)، والنسائي في الكبرى (٥٢٣/٦).

[٤٤٣] وعنه قال: بَيْنَا رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه مُتبسِّماً فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: **«لقد أنزلت عليَّ آنفاً سورةٌ، فقرأ: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾»**.

قال: **«أتدرون ما الكوثر؟»** فقلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«فإنه نهر وعدَنيه ربي عز وجل عليه خير كثير، هو حوض ترِد عليه أمتي يوم القيامة، آنيتُه عدد نجوم السماء، فيُختَلَجُ العبدُ منهم فأقول: ربِّ إنه من أمتي، فيقول: ما تدري ما أحدثَ بعدك»**.

رواه أحمد (٢٣٦/١٠٢/٣)، ومسلم (١١٢/٤)، وأبو داود (٧٨٤) كلاهما في الصلاة.

[٤٤٤] وعن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الكوثر نهرٌ في الجنة حافَتاه من ذهب، ومَجراه على الدُّرِّ والياقوت، تُربته أطيبُ من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج»**.

رواه أحمد (٥٣٥٥/٥٩١٣)، والترمذي في التفسير (٣١٤٢) وحسّنه وصححه.

قوله: «حافَتاه» أي: شاطآه وجانباه. وقوله: «أغفى» أي: نام نومة خفيفة. وقوله: «فيختلج» أي: يُنتزع ويُقتطع، وانظر ما سبق في الحوض وغيره.

فالكوثر نهر من أنهار الجنة العظيمة خصّ الله تعالى به نبيه ﷺ وهو أصل الحوض الذي هيىء له ولأمته قبل الصراط، وجاءت الأحاديث بهما معاً متواترة ينيف رواتهما على الخمسين وهي في الصحيحين والسنن والمسانيد وغيرها من كتب السنّة المشرفة. والإيمان بهما معاً من العقائد الإسلامية، لا حرمنا الله تعالى ووالدينا ومشايخنا وأحبّتنا وجميع المؤمنين من الشرب منهما، آمين.

* * *

❋ أشجار الجنة وأفنانُها وثمارُها

[٤٤٥] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عام لا يقطعها، واقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾»**.

رواه أحمد (٤١٨/٢/٤٥٢/٤٨٢)، والبخاري في التفسير (٢٥١/١٠)، ومسلم في الجنة (١٦٧/١٧)، والترمذي في التفسير (٣٠٧٥) وفي صفة الجنة (٢٣٤١)، والنسائي في الكبرى (٤٧٩/٦).

ومثله عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه رواه البخاري في الرقاق ومسلم في الجنة.

[٤٤٦] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المُضَمَّر السريع مائة عام وما يقطعها**».

رواه البخاري في الرقاق (**٢١٥/١٤**)، **ومسلم** في الجنة (**١٦٨/١٧**)، والترمذي في الجنة (**٢٣٤٠**).

قوله: «في ظلها» أي: ما يستر أغصانها. و«الجواد»: الفرس. و«المضمر» بضم الميم الأولى وفتح الضاد والميم المشددة، هو الذي ضمر بأن عولج بإقلال العلف والمرعى تدريجياً ليُسْرِعَ في جَرْيه.

هذه صفة شجرة واحدة من بلايين أشجار الجنة، ولعظمة هذه الشجرة وطولها وكبرها لا يقطع ما تحت أغصانها الراكب المسرع في مدة مائة عام، وهذا شيء مدهش محيّر لا نتصوره، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾، وهذا الظل لا نعرفه، فإن الظل المتعارف عندنا إنما ينشأ عن سير الشمس، ولا نور في الجنة لشمس ولا لقمر، وإنما هو ظل ينشئه الله تعالى من أنوار لا ندركها ولا عهد لنا بها لأنها من عالم الغيب.

وهذه الشجرة المتحدث عنها قد تكون شجرة سدرة المنتهى، ويؤيد هذا الحديث التالي وما بعده.

[٤٤٧] فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ وذكر سدرة المنتهى، قال: «**يسير الراكب في ظل الفَنَن منها مائة سنة، أو يستظلُّ بظِلها مائة راكب، فيها فَراشُ الذهب كأن ثمرها القِلال**».

رواه الترمذي في صفة الجنة، وحسّنه وصححه (**٢٣٥٨**).

«الفنن» بفتحتين: الغصن، «فراش»: جمع فراشة، هي التي تتهافت على النار. و«القلال» بكسر القاف: جمع قلة بضمها.

ففي الحديث بيان لتلك الشجرة التي لا يقطعها الراكب المسرع في مائة عام وهي سدرة المنتهى وقد تكون غيرها، فالله أعلم.

وقوله هنا: «كأن ثمرها القلال» هذا هو الوارد في حديث الصحيحين في شأن الإسراء، حيث قال ﷺ: «**ثم رُفعتُ إلى سدرة المنتهى فإذا نَبِقُها مثلُ قِلال هَجَر**» أي: ثمرها مقدار قِلال هجر في الكبر.

وقد يكون شجر السدر عاماً في الجنة ينتج الثمار فاكهة لأهلها ويدل له:

[٤٤٨] حديث سليم بن عامر رضي الله تعالى عنه قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لَيَنْفَعُنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله ذكر الله عزّ وجل في الجنة شجرةً مؤذيةً وما كنت أرى أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، فقال رسول الله ﷺ: «**وما هي؟**» قال: السِّدْرُ، فإن له شوكاً مؤذياً، قال رسول الله ﷺ: «**أليس الله يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨﴾، خضدَ الله شوكَه فجعل مكان كل شوكة ثمرةً فإنها لتنبت ثمراً تفتق الثمرةُ منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام، ما فيها لونٌ يشبه الآخر**».

عزاه المنذري في «الترغيب» لابن أبي الدنيا، وحسّنه. وانظر «تفسير» ابن كثير (٧/٥٣٠).

وقوله: «مخضود» أي: مقطوع الشوك.

❋ ❋ ❋

❋ شجر الطلح

[٤٤٩] فعن عقبة بن عامر السلمي رضي الله تعالى عنه قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم أكثر شوكاً منها ـ يعني الطلح ـ فقال رسول الله ﷺ: «**يُجعلُ مكان كلِّ شوكةٍ منها خُصوَةُ التَّيس المَلبود ـ يعني الخصي ـ منها سبعون لوناً من الطعام، لا يشبه لونٌ آخرَ**».

رواه الطبراني في «الكبير» (١٧/١٣٠)، ونعيم بن حماد في «زوائد

زهد ابن المبارك» (٢٦٣)، وأبو نعيم في الحلية (١٠٣/٦) وسنده صحيح.

«الطلح»: شجر ذو شوك كثيف يكون ببادية الحجاز وقد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾. وقوله: «منضود» أي: متراكم. وقوله: «التيس الملبود» أي: الكثير اللحم حتى تلبد.

فكل من شجرتَيْ السدر والطلح موجودتان في الجنة قد جعل مكان كل شوكة منهما ثمرة كل ثمرة تفتق عن اثنين وسبعين أو نحوها لوناً من الطعام لا يشبه بعضه بعضاً في المذاق.

* * *

❁ شجرة طوبى

[٤٥٠] عن عتبة بن عبدٍ السلمي رضي الله تعالى عنه قال: قام أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: **«ما فاكهة الجنة؟»**، قال: **«فيها شجرة تُدْعى طوبى»**، فقال: أي شجرنا تُشْبِه؟ قال: **«ليس تشبه شجراً من شجر أرضك، ولكن أتيت الشام؟»** قال: لا يا رسول الله، قال: **«وإنها شجرةٌ بالشام تُدْعى الجُمَيْزَة تشتدُّ على ساقٍ ثم يُنشرُ أعلاها»**، قال: ما عِظَم أصْلِها؟ قال: **«لو ارتحلتَ جذعةً من إبل أهلك ما أحطت بأصلها حتى تكسِر تَرْقُوتَاها هرماً»** ويأتي بقيته.

رواه أحمد (١٨٤/١٨٣/٤)، وابن حبان (٤٣٠/١٦) حديث صحيح لشواهده.

قوله: «ترقوتاها» تثنية ترقوة بفتح التاء وضم القاف، ولكل إنسان وبهيمة ترقوتان وهما العظمان المشرفان بين ثغرة النحر والعاتق.

فهذا الحديث يدل على أن في الجنة شجرة عظيمة تسمى شجرة طوبى، لا يحاط بأصلها لعظمها.

وجاء فيها حديث آخر لا بأس به في الشواهد.

[٤٥١] فعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ **أن رجلاً** قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك، قال ﷺ: «**طوبى لِمَن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني**»، قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «**شجرةٌ في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها**».

رواه أحمد (٧١/٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٣/٢) وفيه أبو السمح عن أبي الهيثم وابن لهيعة، وأمرهما معروف، وأصل الحديث صحيح.

* * *

شجرة الخلد

[٤٥٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة، هي شجرة الخُلْد**».

رواه أحمد (٤٥٥/٢)، والطيالسي (٣٣٢) وسنده حسن على رأي جماعة، وأصله في الصحيحين.

فالحديث فيه ذكر شجرة الخلد التي مَن أكل منها خلد ودام مكثه، ويقال: إنها الشجرة التي أغوى إبليس آدم عليه السلام وزوجه حتى أكلا منها كما قال تعالى حكاية عنه: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾.

والمقصود أن في الجنة أنواعاً من الأشجار الوارفة التي هي متع رائعة لأولياء الله.

* * *

❁ أصول أشجار الجنة من الذهب

[٤٥٣] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما في الجنة شجرة، إلا وساقاها من ذَهَبٍ»**.

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٤٢)، وابن حبان (١٦/٤٢٥) وهو حسن لشواهده، من أقواها عن سلمان رضي الله تعالى عنه رواه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في الحلية وغيرهما، وفيه: **«أصولها اللؤلؤ والذهب، وأعلاها الثمار»**.

❁ ❁ ❁

❁ أعمال وأقوال يغرس بها الأشجار في الجنة

[٤٥٤] عن جابر رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«مَن قال سبحان الله العظيم وبحمده، غُرِستْ له نخلةٌ في الجنة»**.

رواه الترمذي في الدعوات (٣٢٣٨)، والنسائي في الكبرى (٦/٢٠٧)، والحاكم (١/٥٠٢) وصححه ووافقه الذهبي، وكذا صححه الترمذي.

[٤٥٥] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله ﷺ مرّ به وهو يغرِسُ غَرْساً فقال: **«يا أبا هريرة ما الذي تغرس؟»** قلت: غِراساً لي، قال: **«ألا أدُلُّك على غراسٍ خير لك من هذا؟»** قال: بلى يا رسول الله، قال: **«قل سبحان الله، والحمدُ للّه، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر، يُغرسُ لك بكل واحدة شجرةٌ في الجنة»**.

رواه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٧) وحسّنه البوصيري في «الزوائد».

[٤٥٦] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقيت إبراهيم عليه السلام ليلة أُسري بي فقال: يا محمد أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذْبةُ الماء، وأنها قيعان، وأن غِراسها سبحان الله، والحمد للّه، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر»**.

رواه الترمذي في الدعوات (٣٢٣٦) وحسّنه، وله شواهد تقوّيه.

قوله: «**قيعان**» بكسر القاف، جمع قاع وهي الأرض المستوية.

فهذه الأحاديث تدل على أن هنالك في الجنة أشجاراً من نخيل وغيره، تغرس وتنشأ من جديد بذكر الله تعالى من تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير، وذلك يدل على أن لهذه الأذكار مزيد فضل، وحق لها ذلك، لأن فيها ذكر تنزيه الله وحمده وتوحيده وتكبيره، وكل واحدة منها لها مكانتها العظيمة عند الله عزّ وجل.

* * *

خيل الجنة

[٤٥٧] عن عبدالرحمٰن بن ساعدة رضي الله تعالى عنه قال: كنت أحب الخيل فقلت: يا رسول الله هل في الجنة خيل؟ قال: «**إن أدخلك الله الجنة يا عبدَالرحمٰن، كان لك فيها فَرَسٌ من ياقوت له جناحان يطير بك حيث شئت**».

عزاه كل من المنذري والهيثمي إلى الطبراني وقالا رجاله ثقات.

[٤٥٨] وعن بريدة رضي الله تعالى عنه، أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل في الجنة من خيل؟ قال: «**إن أدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تحمل فيها على فرس من ياقوتة حمراء، تطير في الجنة حيث شئت إلا فعلت**»، قال: وسأله رجل آخر فقال: يا رسول الله هل في الجنة من إبل؟ قال: فلم يقل له ما قال لصاحبه، فقال: «**إن يُدخلك الله الجنة يكن لك فيها ما اشتهت نفسُك، ولذّت عينُك**».

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٦٠) من طريقين مرسلاً وموصولاً، وسند المرسل صحيح.

في الحديثين بيان أن الجنة فيها كل ما يشتهيه المؤمن ويتمناه ويطلبه،

وكل ما أنعم الله تعالى به علينا في هذه الدار ومتّعنا به وسخّره لنا، ففي الجنة ما يشبهه مما لا نتصوره، ومن ذلك المركوبات فسيعطي الله لعباده الصالحين مركوبات تسير على أرض الجنة حيث أرادوا وأخرى تطير بهم في أجوائها يتنزهون عليها حيث شاؤوا، وقد تكون هذه المراكب خيلاً أو غيرها مما هيّأه الله تعالى لهم.

* * *

نوق الجنة

[٤٥٩] عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجلٌ بناقةٍ مخطومةٍ فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ: «**لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة، كلها مخطومة**».

رواه أحمد (١٢١/٤) و(٢٧٤/٥)، ومسلم في الإمارة (٣٨/١٣).

قوله: «مخطومة» أي: لها خطام وزمام.

والحديث ظاهر في أن الجنة سيكون فيها نوق وإبل، وأن من أنفق منها في سبيل الله في الدنيا سيعطيه الله تعالى مثل ما أنفق مضاعفاً إلى سبعمائة أو إلى حيث شاء الله تعالى، وتكون تلك النوق متعة له.

* * *

مزارع الجنة

[٤٦٠] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ كان يوماً يحدّث وعنده رجل من أهل البادية: **أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربَّه في الزَّرع فقال له: «أوَلستَ فيما شئتَ؟» قال: بلى، ولكني أحب أن أزرع، فأسرعَ وبذرَ فبادر الطرف نباته، واستواؤه، واستحصاده، وتكويره، أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: «دونك يا ابن آدم فإنه لا يُشْبِعُك شيءٌ»**.

رواه البخاري في المزارعة (٢٣٤٨) وفي التوحيد (٧٥١٩).

هذا من كمال متَع أهل الجنة ومستلذاتهم، فكل نفس وهواها، فمن هوي شيئاً في الجنة واشتهاه أحضره الله تعالى له، لأنه وعد بذلك ووعده حق فقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾، فهذا الرجل وإن متّعه الله تعالى بما لا حدود له من النعيم اشتهى الزراعة التي كانت الغالب عليه في الدنيا وألذ شيء لديه فأنجزها الله له في لمحة.

***

❁ طير الجنة

[٤٦٩] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ طيرَ الجنة كأمثال البُخت ترعى في شجر الجنة»**، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن هذه لطيرٌ ناعمة، فقال ﷺ: **«أكَلَتُها أنعَمُ منها»** قالها ثلاثاً، **«وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها»**.

رواه أحمد (٣/٢٢١) قال في «المجمع» (١٨٧٣٣): رجاله رجال الصحيح غير سيار بن حاتم وهو ثقة.

ورواه الترمذي في الجنة (٢٣٥٩) في صفة الكوثر:

قال ﷺ: **«فيه طير أعناقُها كأعناق الجُزُر»**، قال عمر رضي الله تعالى عنه: إن هذه لناعمة، فقال رسول الله ﷺ: **«أكَلَتُها أنعم منها»** وسنده صحيح على شرط مسلم.

وقوله: «البخت» بضم الباء وسكون الخاء، نوع من الإبل ضخام، والجزر بضم الجيم والزاي، جمع جزور بفتح الجيم وهو الجمل.

ففي الحديث بروايتيه بيان صفة طير الجنة الذي يأكل منه أولياء الله تعالى والتي قال فيها الله عزّ وجل: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

***

❊ عدد الجنان وأسماؤها

[٤٦٢] عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: أُصيب حارثةُ - يعني ابن سراقة - يوم بدر، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله قد عرفتَ منزلةَ حارثة مني، فإن يكُ في الجنة أصْبِرُ وأحتَسِبُ، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنعُ؟ فقال: **«ويحكِ أوَهَبِلْتِ أوَجنَّةٌ واحدة هي؟ إنها جِنانٌ كثيرة، وإنه لفي جنة الفردوس»**.

رواه البخاري في المغازي (٣٠٦/٨) وفي الرقاق (٢٣٧/٢٣٦/٢١٣/١٤).

قوله: «أوَهَبِلْتِ» معناه: أثكِلْتِ.

[٤٦٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«فإذا سألْتُم الله فاسألوه الفِرْدوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة»**.

رواه البخاري في أوائل فضائل الجهاد (٣٥٣/٣٥٢/٦).

الحديثان يدلان على أن الجنان متعددة وليست جنة واحدة، ولذلك رغب ﷺ في سؤال الفردوس وأخبر بأنه أوسط الجنة وأعلاها وأفضلها، فعلم أن هنالك جناناً أخرى، وقد ورد في القرآن ذكر جملة منها وهي:

أولاً: جنة الفردوس كما في الحديثين وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثانياً: جنة عَدْنٍ. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾... إلخ.

وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

ثالثاً: جنة الخُلْد. قال الله تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ...﴾ الآية.

رابعاً: جنة المأوى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾.

وجاء في حديث سمرة الطويل في رؤياه ﷺ وفيه: «**وأدخلاني داراً هي أحسنُ وأفضلُ، لم أرَ قط أحسن منها**»، قال: «**أما هذه الدار، فدار الشهداء**».

رواه البخاري في مواضع، وقد تقدم في التعبير مبسوطاً ومخرَّجاً ومشروحاً.

فعلمنا من هذا الحديث أن هذه جنة أخرى أُعِدَّت للشهداء هي أفضل من جميع الجنان لقوله عليه السلام: «**هي أحسن وأفضل، لم أرَ قط أحسن منها**».

❋ ❋ ❋

❋ أبواب الجنان وأسماؤها

[٤٦٤] عن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما منكم من أحدٍ يتوضأ فيبلغ** ـ أو: **فيُسبغُ الوضوء** ـ **ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً** رسول الله، **إلا فُتِّحَتْ له أبوابُ الجنة الثمانيةُ يدخلُ من أيِّها شاء**».

رواه مسلم وغيره، وتقدم في الطهارة.

ففي الحديث بيان أن للجنة ثمانية أبواب يدخل منها من أراد الله عزّ وجل دخوله منها من المؤمنين، وقد يدخل البعض من جميعها كما في الآتي:

[٤٦٥] فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خيرٌ، فمَن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومَن كان من أهل الجهاد**

دعي من باب الجهاد، ومَن كان من أهل الصيام دعي من باب الرَّيَّان، ومَن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة». فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها؟ قال: **«نعم، وأرجو أن تكون منهم»**.

رواه البخاري في الصيام (١٨٩٧) وفي الجهاد (٢٨٤١) وفي بدء الخلق (٣٢١٦) وفي الفضائل (٣٦٦٦)، ومسلم في الزكاة (١١٧/١١٦/١١٥/٧).

[٤٦٦] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن في الجنة باباً يقال له: الريّان يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون فيدخلون منه فإذا دخل آخرهم أُغلق فلم يدخل منه أحد»**.

رواه البخاري ومسلم كلاهما في الصيام، وتقدم فيه.

«الريان»: بتشديد الراء والياء المفتوحتين، مأخوذ من الري.

فالحديثان يدلان على أن في الجنة أبواباً لها أسامي خاصة بمن يدخلها، وأن كل من كان عملٌ ما أغلب عليه في الدنيا دخل الجنة من باب عمله، فمن كان الصلاةُ أغلبُ عليه دخل من باب الصلاة، وهكذا باقي الأبواب.

وفي حديث أبي هريرة فضل عظيم للصدِّيق رضي الله تعالى عنه حيث إنه سيدعى من جميع تلك الأبواب.

وهذه الأبواب جميعها ستُفتح لأهلها قبل أن يأتوها، فإذا جاؤوها تلقتهم الملائكة وسلّمت عليهم وأمرتهم بالدخول.

كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَـٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

* * *

❋ مسافة ما بين مصراعي باب من أبواب الجنة

[٤٦٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: أُتيَ رسول الله ﷺ يوماً بلحم فذكر حديث الشفاعة الطويل المتقدم وفيه: «**فأقول: يا رب أمّتي أمّتي، فيقال: يا محمد أدخِل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن، والذي نفس محمد بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبُصرَى**».

روياه كما تقدم.

«المِصْراع» بكسر الميم: أحد جانبي الباب. «هجر»: من مدن البحرين بينها وبين مكة المكرمة ستون ومائة وألف كيلومترات (١١٦٠). و«بُصرى» بضم الباء: مدينة مشهورة في التاريخ قريبة من دمشق بينها وبين مكة مائتان وألف كيلو (١٢٠٠).

هذا شيء مدهش باب واحد من أبواب الجنة مسافة ما بين جانبَيْه ألف ومائة وستون كيلو، إنه لأمر عظيم يدل على عظمة الجنة وكثرة داخليها، ومع اتساع هذه الأبواب يأتي عليها وقت تكون مكتظة من كثرة الازدحام.

فيا ربنا ويا إلهنا ويا حبيبنا، لا تحرمنا من دخولها مع السابقين بفضلك ورحمتك.

❋ ❋ ❋

❋ من أوائل من يدخل الجنة رسول اللّه وأمته

[٤٦٨] عن أنس رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: مَن أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمرت ألا أفتح لأحد قبلك**».

رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

«فأستفتح» أي: أطلب الفتح.

فالحديث يدل على أن الجنة ستكون أبوابها مغلقة حتى يأتي النبي ﷺ قبل كل أحد فيطلب فتحها، فيقال له: إنا قد أُمرنا أن لا نفتحها لأحد قبلك.

[٤٦٩] وفي حديث أنس آخر قال: قال ﷺ: **«أنا أكثر الأنبياء تَبَعاً يوم القيامة، وأنا أول مَن يقرع باب الجنة»**.

رواه مسلم في الإيمان (٧٣/٣).

[٤٧٠] وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: **«أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأُقَعْقِعُهَا»**.

رواه الدارمي (٥١).

ورواه أحمد (٢٨١/١/٢٨٣/٢٩٥/٢٩٦) عن ابن عباس بلفظ: **«ثم آتي باب الجنة فآخُذُ بحلقة باب الجنة فأقرع الباب»**.

قوله: «فأقعقعها» أي: أحركها وأقرعها.

ففي هذه الأحاديث خصيصة له ﷺ بكونه أول من يقرع باب الجنة وأول من يدخلها.

* * *

صفات أول من يدخل الجنة

[٤٧١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أولَ زُمرةٍ يدخلون الجنةَ على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشدِّ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماء إضاءةً، لا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، ولا يتفلون، أمشاطُهم الذهب، ورشْحُهم المِسك، ومجامرهم الألوّة، وأزواجُهم الحور العين، أخلاقهم على خَلْقِ رجل واحد على صورة أبيهم آدم عليه السلام ستون ذراعاً في السماء»**، وفي رواية: **«ولكل واحدٍ منهم زوجتان يُرَى مُخُّ ساقها من وراء اللحم من الحُسن لا اختلاف بينهم،**

ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبِّحون الله تعالى بكرةً وعشياً».

رواه البخاري في بدء الخلق (٧/١٣٢/١٣٤)، ومسلم في الجنة (١٧/١٧٣)، والترمذي فيها أيضاً (٢٣٥٤).

ومثله باختصار عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه.

رواه الترمذي (٢٣٥٢).

«زمرة»: بضم الزاي، أي: جماعة. «كوكب دُرِّي» أي: مضيء. و«رشحهم» أي: عرقهم. و«مجامرهم» أي: بخورهم. «الألُوَّة»: وهو العود. «الحور العين» الحور: جمع حوراء وهي الشابة الحسناء البيضاء، والعين: العيون السود مع كبرهن وسعتهن، وذلك أجمل ما يكون في المرأة.

الحديث دلّ على بيان صفات الجماعة التي تدخل الجنة أولاً فأولاً، فذكر أن الجماعة الأولى صورهم في الإضاءة كالقمر عند اكتمال قرصته، والذين يأتون عقبهم وجوههم كأشد نجم في السماء إضاءة.

ثم ذكر ﷺ جملة من المُتَع والنعيم الذي خصّهم الله تعالى به مع سائر من دخل الجنة وهو أربعة عشر نوعاً كلها غاية في المتعة والتنعُّم، فهم منزَّهون عن القذارة فلا بول ولا غائط ولا مخاط ولا بزاق، قد هيئت لهم أمشاط من الذهب يرجلون بها شعور رؤوسهم، وجعل ما يترشح من عرق أجسامهم مسكاً وبخورهم العود الطيب الذي لم يشم أطيب منه، أما نساؤهم فالفتيات الجميلات الحسان كأنهن في البياض والصفاء الياقوت والمرجان، بلغن في الصفاء، يُرى مخ أسوقهن من وراء اللحم من الحُسن، لكل رجل منهم زوجتان وما شاء، قلوبهم كقلب رجل واحد فلا حقد ولا بغض ولا نزاع، صورة جميعهم على صورة أبيهم آدم عليه السلام في الطول ستون ذراعاً، وسنهم بذكَرِهم وأنثاهم ثلاث وثلاثون سنة، يُجري الله تعالى على ألسنتهم مع أنفاسهم تسبيحه تعالى بكرةً وعشياً.

فهذه الصفات يستوي فيها كل أهل الجنة كما يأتي لاحقاً.

❊ من السابقين إلى الجنة: السبعون ألفاً الذين لا حساب عليهم

[٤٧٢] عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**لَيَدْخُلَنَّ من أمتي سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألف، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر**» وفي رواية: «**متماسكون آخذ بعضهم ببعض حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة**».

رواه البخاري في بدء الخلق (١٣٥/١٣٤/٧) وفي الرقاق (٢١٥/٢٠٦/١٤)، ومسلم في الإيمان.

[٤٧٣] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يدخل الجنة من أمتي زُمرةٌ هم سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر. . .**» الحديث.

رواه البخاري في الرقاق (٢٠٦/٢٠٥/١٤).

[٤٧٤] وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وعدني ربي أن يُدخل الجنةَ من أمتي سبعين ألفاً بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألفٍ سبعون ألفاً، وثلاثُ حثَياتٍ من حثَيات ربِّي**».

رواه أحمد (٣٥٠/٥)، والترمذي في الزهد (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٢٨٦) بسند صحيح.

«حَثَيَات»: بفتحات، جمع حثية، بفتح الحاء، الغَرفة باليد وهي هنا بالنسبة للّه عزّ وجل يجب الإيمان بها وعدم الخوض فيها مع اعتقادنا الجازم أن الله منزّه عن الجارحة.

[٤٧٥] وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال النبي ﷺ: «**عُرِضتْ عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط. . .**» فذكر الحديث. وفيه: «**هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**»، ثم قال: «**هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيّرون وعلى ربهم يتوكلون**» الحديث تقدم مراراً وهو في الصحيحين.

وتبين من إيراد هذه الأحاديث أن هؤلاء السبعين ألفاً ومن معهم هم المذكورون في حديث أبي هريرة الذي صدّرنا به أول من يدخل الجنة لأن النبي ﷺ ذكر صفة وجوه هؤلاء في الإضاءة بما وصف أولئك.

وهذا الصنف من الناس هم المذكورون في قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ الآية، وتأتي.

وهذا لا يعني أنه لا يوجد من هم أفضل منهم، فإن للّه عزّ وجل رجالاً كثيراً ونساءً اصطفاهم لنفسه ليسوا بأنبياء ولا من هؤلاء السبعين ألفاً.

* * *

درجات الجنة ومنازلها وتفاضل الناس فيها

[٤٧٦] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال النبي ﷺ: «**مَن آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله تعالى أن يُدخله الجنة جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها**»، فقالوا: يا رسول الله أفلا نُبشّر الناس؟ قال: «**إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمٰن، ومنه تفجر أنهار الجنة**».

رواه أحمد (٢/٣٣٥/٣٣٩)، والبخاري في الجهاد (٢٧٩٠) وفي التوحيد (٧٤٢٣)، والترمذي في الجنة (٢٣٤٧)، وابن حبان (١٠/٤٧١/٤٧٢).

ونحوه عن معاذ بن جبل، رواه أحمد (٥/٢٤٠/٢٤١/٣٣٢)، والترمذي (٢٣٤٨).

وعن عبادة بن الصامت، رواه أحمد (٥/٣١٦/٣٢١)، والترمذي (٢٣٤٩)، والحاكم (١/٨٠) وصححه ووافقه الذهبي.

«مائة درجة» قال العلماء: إن هذا العدد المراد به الكثرة لا الحصر لأن درجات الجنة أكثر من ذلك، والدرجة هي: المرتبة العالية. و«الفردوس»: هو البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين من مياه وأشجار ومناظر جميلة ومشموم طيب وأزهار وفواكه من كل ما يشتهى، فجنة الفردوس جمع فيها كل ما في سائر الجنان وهي أوسطهن وأعلاهن.

وفي قوله ﷺ: «ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض» يدل على أمر عظيم وخير كبير أعدّه الله تعالى لأصحاب هذه الدرجات، إذ ما بين السماء والأرض مسافة خمسمائة عام، وقد جاء في حديث رواه الترمذي بسند فيه ضعف: «لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسِعَتْهُم».

[٤٧٧] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراؤون أهل الغُرَف من فوقهم كما تتراؤون الكوكب الدُّرّي الغابر في الأُفق من المشرق والمغرب لتفاضُل ما بينهم»، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين».

رواه البخاري في بدء الخلق (١٣٧/٧) وفي الرقاق، ومسلم في صفة الجنة (١٦٩/١٧) ومثله عن سهل بن سعد رواه البخاري في الرقائق (٦٥٥٥)، ومسلم في الجنة (١٦٨/١٧).

قوله: «الكوكب الدُّرّي» بضم الدال وكسر الراء المشددتين، هو النجم الشديد الإضاءة. و«الغابر» معناه: الذاهب.

[٤٧٨] وعن أبي سعيد أيضاً عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الدرجات العلى يراهم من هو أسفل منهم كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم وأنْعَمَا».

رواه أحمد (٢٧/٣/٥٠/٩٣/٩٨) والترمذي في الفضائل (٣٤٣١) وأبو داود (٣٩٨٧) وابن ماجه في المقدمة (٩٦).

والحديث حسن صحيح لشواهده.

وقوله: «أنعما» بسكون النون وفتح العين، أي: صارا إلى النعيم.

والحديثان يدلان على أن أهل الجنة متفاضلون في المنازل والدرجات العلى، وأن منهم من يرفع فوق غيره في منازل وغرف عالية تُرى لبُعْدِها مثلَ ما يُرى الكوكب العالي البعيد الذاهب في الأفق من المشرق إلى المغرب، وأن أهل تلك الدرجات والمنازل العالية فيهم رجال مؤمنون آمنوا بالله وصدقوا رسله وليسوا بأنبياء، ولا شك أن هؤلاء أقوام بلغوا الذروة العليا في الإيمان والصلاح كأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وأمثالهما من الصحابة المهاجرين والأنصار ومَن كان على شاكلتهم في الإيمان والتقوى والورع والزهد وخشية الله تعالى ومحبته ومحبة رسوله ﷺ.

* * *

❋ أعلى منازل الجنة منزلة نبينا ﷺ

[٤٧٩] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا، فمَن سأل لي الوسيلة حلّت له الشفاعة»**.

رواه مسلم في الأذان (٤/٨٥).

«الوسيلة»: درجة ومنزلة في الجنة. «حلّت له الشفاعة» أي: وجبت فضلاً من الله، فأعلى منزلة في الجنة هي الوسيلة وهو مقام رسول الله ﷺ الذي هيأه الله تعالى له لا يبلغه أحد من خلقه ولا يكون فيه معه أحد إلا زوجاته الطاهرات ومن شاء الله تعالى ممن لا نعلمه.

* * *

❋ من أعلى منازل الجنة: الشهداء

[٤٨٠] عن نعيم بن همار رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أفضلُ الشهداء الذين يقاتلون في الصف الأول، فلا يلفتون وجوههم حتى يُقتَلوا، أولئك يتلبَّطون في الغُرَف العلى من الجنة، يضحك إليهم ربُّك، فإذا ضحك ربُّك إلى عبدٍ في موطن فلا حساب عليه**».

رواه أحمد (٥/٢٨٧) بسند صحيح.

قوله: «يتلبَّطون» بفتحات مع تشديد الباء، أي يمشون في غرف الجنان فالشهداء ممن سيحظون بالمنازل العالية، وقد تقدم حديث أبي هريرة بأن الله تعالى أعدّ لهم مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض.

❋ ❋ ❋

❋ حملة القرآن ممن لهم المنازل العالية

[٤٨١] عن عبدالله بن عمرو رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارقَ ورتّل كما كنتَ ترتّل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**».

رواه أبو داود والترمذي وغيرهما بسند صحيح، وقد تقدم في فضائل القرآن.

فالحديث نصّ في أن حملة القرآن ستكون منازلهم على عدد آي القرآن، وعددها على المشهور ٦٢٣٦، فانظر إلى هذا الفضل العظيم الذي سيحظى به حملَة القرآن الربانيون الملتزمون بتعاليمه لا الفسقة الفاجرون فإنهم سيُحاسَبون الحساب العسير.

ولا شك أن هنالك أقواماً وأصنافاً من عباد الله الصالحين سيكونون في الدرجات العلى لا ندريهم بالذات، فيهم الصحابة والتابعون وأئمة الدين وأهل التفسير والمحدثون والعباد والزهّاد علماء وعوام نساء ورجال، وستأتي صفات سكان أهل الجنة إن شاء الله تعالى.

❁ أدنى أهل الجنة وأعلاهم منزلة

[٤٨٢] عن المغيرة بن شعبة يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال: «سأل موسى ربَّه: ما أدنى أهل الجنة منزلةً؟ قال: هو رجل يجيء بعدما أُدخل أهلُ الجنةِ الجنةَ، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أي رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلْكِ مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول: لك ذلك ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيت رب، فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسُك ولذَّت عينُك، فيقول: رضيت رب».

«قال: ربِّ فأعلاهم منزلةً؟ قال: أولئك الذين أردت، غرستُ كرامتَهم بيدي وختمتُ عليها، فلم ترَ عين، ولم تسمع أُذنٌ، ولم يخطر على قلب بشر» قال: ومصداقه في كتاب الله عزَّ وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

رواه مسلم في الإيمان (٤٦/٤٤/٣)، والترمذي في التفسير (٢٩٩١).

فالحديث بيَّن ما لأقل أهل الجنة وما لأعلاهم منزلة، فأدناهم ولا دنيء في الجنة من سيُعطى مثل ما كان يملك أحد ملوك الدنيا وأضعافه إلى أربعة أضعاف وعشرة أمثال كل ذلك، فإذا كان هذا أدناهم فكيف بأعلاهم، فإن منزلتهم لا تتصورها العقول أصلاً إذ عندهم ما لا عين رأته، ولا أذن سمعته، ولا خطر على قلب بشر، ولذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أي: لا يعلم أحد ما أعدّ الله تعالى لهم وأخفى عن أبصارهم ما ستقر به أعينهم عندما يعاينون ذلك.

❁ ❁ ❁

❁ من صفات أهل الجنة

[٤٨٣] عن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخلُ أهلُ الجنة جُرداً مُرداً كأنهم مُكَحَّلون، أبناءُ ثلاثِ وثلاثين».

رواه أحمد (٥/٢٤٣)، والترمذي في الجنة (٢٣٦٢) والحديث حسن صحيح.

[٤٨٤] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أهلُ الجنة جُرْدٌ مُرْدٌ كَحْلَى، لا يفنى شبابُهم، ولا تَبْلى ثيابُهم»**.

رواه الترمذي في الجنة (٣٣٥٩)، والدارمي (٢٨٢٩) بسند حسن.

«جُرْدٌ»: بضم الجيم وسكون الراء، جمع أجرد، الذي لا شعر له على جسده. «مُرْدٌ» جمع أمرد: الغلام الذي لا لحية له. «كحلى» بفتح الكاف: جمع أكحل، أي: في أجفان عيونهم سواد خلقة كأنهم مكحلون.

في الحديثين بعض صفات من يدخل الجنة وهي هنا خمس صفات:

أولاً: تكون أجسادهم مجرّدة من الشعر، فلا شعر في وجوههم، ولا في عاناتهم، ولا في آباطهم.

ثانياً: كالغلمان مرد بدون لحى أو شوارب.

ثالثاً: أجفانهم مكحلة خلقة مضافاً ذلك إلى عيونهم الواسعة السود الجميلة.

رابعاً: شبابهم دائم، وهم كما تقدم أبناء ثلاث وثلاثين سنة فلا يكبرون ولا يطرأ عليهم هرم.

خامساً: ثيابهم جدد دائماً فلا تخلق ولا تتسخ ولا تتمزق.

[٤٨٥] وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: **«لو أن ما يُقِلُّ ظُفُرٌ مما في الجنة بدا لتزخرفَتْ له ما بين خوافقِ السماوات والأرض، ولو أن رجلاً من أهل الجنة اطلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس، كما تطمسُ الشمس ضوء النجوم»**.

رواه أحمد (١٤٤٩)، والترمذي في الجنة (٢٣٥٥) بسند صحيح.

«يُقِلُّ»: بضم الياء، أي يحمل. و**«ظفر»** بضمتين ويسكن الثاني، أي: بقدر ما يستقل بحمله الظفر. وقوله: **«خوافق»** جمع خافقة، وهي الجوانب التي تهب منها الرياح.

هذه بعض صفات الجنة وسكانها، فلو فرض أن ظهر للدنيا مقدار ما يحمله ظفر من أرض الجنة لتزين وبهج له ما بين جوانب السماوات والأرض، ولو اطلع رجل واحد من سكان الجنة وظهرت أساوره للدنيا لأضاءت جميع أطرافها وأرجائها وغاب ضوء الشمس ولم يبقَ له أثر كما تغيب ضوء النجوم بظهور ضوء الشمس.

إنها لصفات ممتعة تنبىء بنعيم عظيم لا يُتصور.

* * *

أول ما يُقَدَّمُ قِرَى لأهل الجنة عند دخولهم

[٤٨٦] عن ثوبان رضي الله تعالى عنه أن يهودياً سأل رسول الله ﷺ قال: فما تُحفتُهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «**زيادةُ كبدِ الحوت**»، قال: فما غِذاؤهم على إثرها؟ قال: «**يُنحر لهم ثورُ الجنة الذي يأكل من أطرافها**»، قال: فما شرابُهم عليه؟ قال: «**من عين تُسمّى سلسبيلاً**» قال: صدَقْتَ.

رواه مسلم.

[٤٨٧] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**تكون الأرض يوم القيامة خُبزةً واحدةً يكْفؤها الجبار بيده، كما يكفؤ أحدكم خُبزتَه في السفر نُزُلاً لأهل الجنة**»، قال: فأتى رجلٌ من اليهود فقال: بارك الرحمٰن عليك أبا القاسم ألا أُخبرك بنزُل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: «**بلى**» قال: تكون الأرض خبزة واحدة كما قال رسول الله ﷺ، قال: فنظر إلينا رسول الله ﷺ ثم ضحك حتى بدت نواجذه، قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: «**بلى**» قال: إدامهم بالام ونون، قالوا: وما هذا؟ قال: ثورٌ ونونٌ يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفاً.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/١٦٢)، ومسلم في أوائل صفة القيامة (١٧/١٣٥) وجاء نحو ذلك في حديث عبدالله بن سلام في سؤاله النبي ﷺ عند مقدمه المدينة كما في الصحيح وقد تقدم.

قوله: «تحفتهم» معناه: نُزُلهم الذي يقدم إليهم أول ما يدخلون.
وقوله: «بالامٌ» هو الثور. و«النون»: هو الحوت. وقوله: «يكفؤها» وفي رواية يتكفؤها، أي: يميلها من يد إلى يد لتجتمع.

في الحديثين بيان ما يقدم الله عزّ وجل لأهل الجنة إثر دخولهم نزلاً وقرى لهم، وهو أنه سيطعمهم أولاً زائدة كبد الحوت وهو النون، ثم يُنحر لهم ثورٌ من ثيران الجنة فيكون لهم غذاء.

وقوله: «تكون الأرض خبزة... نزلاً لأهل الجنة» هذا مما يجب الإيمان به وكفى، لأنه لا يعقل عندنا أن تكون الأرض طعاماً لأهل الجنة لكن الله على كل شيء قدير وفعال لما يشاء.

وفي الحديثين بيان ما عند الله تعالى من مخلوقات عظام مدهشة هائلة، فزائدة كبدَي الحوت والثور اللتين يأكل منهما أهل الجنة وهم يعدون ببلايين البلايين كم قدرهما ووزنهما حتى يكفيا أهل الجنة. وهذا في زيادة الكبدين، فكيف يكون الكبدان؟ ثم كيف تكون عظمة الثور والحوت وكبدهما وأين كانا؟ وكم لله تعالى منهما، هذا أمر عظيم لا يتصور.

* * *

❋ نساء أهل الجنة من الحور وغيرهن

[٤٨٨] عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن المرأة من نساء أهل الجنة ليُرى بياضُ ساقيها من وراء سبعين حُلَّة حتى يُرى مُخُّها، وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾، فأما الياقوت فإنه حجرٌ لو أدخلتَ فيه سِلْكاً ثم استصفَيْتَه لأورِيتَه من ورائه**».

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٥١)، وابن حبان (٢٦٣٢) ورجاله رجال الصحيح، وفيه عطاء بن السائب لكنه حسن صحيح للآتي ولأحاديث أخرى.

[٤٨٩] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ

قال: **«أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والثانية على لون أحسن كوكب دُرّي في السماء، لكلّ رجلٍ منهم زوجتان على كل زوجة سبعون حُلّة يبدو مُخّ ساقِها من ورائها»**.

رواه أحمد (١٦/٣)، والترمذي (٢٣٥٢) وحسّنه وصححه، وتقدم مطولاً عن أبي هريرة.

[٤٩٠] وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ولو أن امرأةً من نساء أهل الجنة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولَنصيفها** ـ يعني الخمار ـ **خيرٌ من الدنيا وما فيها»**.

رواه البخاري في الرقاق (٣٧/١٤).

نساء أهل الجنة اللاتي هيئن للمؤمنين لا يمكن تصور حسنهن وجمالهن وبياض أجسامهن وصفائهن وسواد أعينهن وكثرة حللهن الفارهة وطيب ريحهن إلى غير ما هنالك، وقد ذكرهن القرآن الكريم وفصّل أمرهن تفصيلاً كما يأتي ذلك إن شاء الله تعالى، ويكفي فيهن قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ يعني: في الصفاء، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ في البياض. وقوله: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾، أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه، وكما قال في آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ ويكفينا هنا في وصفهن قوله ﷺ في الواحدة منهن: **«إن عليها لسبعين حلة»**، يعني: من ملابس الحرير سندسه وإستبرقه، وأن بياض سوقها ومخه ليُرى من وراء ذلك، وذلك لصفائها وشفوف تلك الحلل التي لا ندرك كنهها، وأن الواحدة منهن لو اطلعت إلى هذه الدنيا لأشرقت المشارق والمغارب ولعبق ريحها الطيب ما بين السماء والأرض، وأن خمارها الذي تضعه على رأسها أفضل وأشرف من كل ما في الدنيا من متاع...

فأي خير أفضل من هذا وأي جمال أحسن من هذا، إن القلم واللسان ليعجزان عن التعبير عن صفات الجنة وأهلها ونسائها، وقد جمع الله تعالى كل ما نعجز عن التعبير عنه مما أعدّ للمؤمنين في قوله عزّ وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ وقوله في الحديث

القدسي السابق: «**أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

***

ما يعطاه المؤمن من قوة الجماع في الجنة

[٤٩١] عن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «**يُعطى المؤمنُ في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع**»، قيل: يا رسول الله أوَيطيق ذلك؟ قال: «**يُعطى قوةَ مائة**».

رواه الترمذي في الجنة (٢٣٥٣) وصححه، وله شاهد بنحوه عن زيد بن أرقم رواه أحمد والدارمي (٢٨٢٨) بسند صحيح، ورواه من طريق الترمذي والدارمي (٢٨٢٨) ابن حبان (٣٦٣٥) بالموارد.

[٤٩٢] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قيل له: أنطأ في الجنة؟ قال: «**نعم والذي نفسي بيده دَحماً، دَحماً، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكراً**».

رواه ابن حبان (٤١٥/١٦) بسند حسن، وفي الباب أحاديث.

قوله: «دحماً دحماً» معناه: الجماع بدفع وإزعاج وقوة.

هذا من تمام تمتع المؤمن في الجنة بتلذذه بنسائه فجماعه متتابع لا إعياء فيه ولا كسل ولا ضعف، فهو يطوف على نسائه العديدات أي وقت شاء ليس منهن امرأة إلا وهي بكر عذراء كلما واقعها عادت بكراً ولها قُبُلٌ شهي، وله ذكَر لا ينثني كما جاء في حديث، وهن مطهرات فلا وسخ ولا قذر ولا رطوبة كرطوبة نساء الدنيا ولا أثر للبول ولا مني ولا مذي فليس إلا اللذة اللذيذة الفائقة.

وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ ويأتي شرحها في قسم القرآن.

***

❋ عدد ما يُعطاه المؤمن من الحور

جاء في أحاديث، أن المؤمن سيعطى ثنتين وسبعين زوجة مما ينشيء الله واثنتين من نساء الدنيا كما جاء في حديث الصور وغيره، وجاء في الشهيد أنه يعطى سبعين حوراء، إلى غير ذلك، وتقدم أن المؤمن يعطى خيمة من لؤلؤ طولها ستون ميلاً في كل زاوية منها أهل يطوف عليهم لا يرى بعضهم بعضاً.

وكل ذلك يدل على أن المؤمن سيكون له العشرات من الحور والنساء، وذلك يدل على أن النساء في الجنة أكثر من الرجال بكثير ويكون قوله ﷺ: «**إن النساء أقل ساكني الجنة**» قبل أن يخرج النساء الموحدات من النار التي هي الأخرى أكثرها النساء بما فيهن الكافرات والموحدات، فإذا خرجن المؤمنات العاصيات بشفاعة الشافعين بقي في النار الكافرات ويكنّ أيضاً أكثر من رجال جهنم.

فلا تعارض بين هذا وبين حديثَيْ: «**اطلعت على النار فرأيت أكثر أهلها النساء**»، و«**إن أقل ساكني الجنة النساء**» لما عرفت.

❋ ❋ ❋

❋ غناء الحور العين

[٤٩٣] عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة لمجتمعاً للحور العين، يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائقُ مثلَها يَقُلْنَ نحن الخالداتُ فلا نَبيدُ، ونحن الناعماتُ فلا نبأس، ونحن الراضياتُ فلا نسخط، طوبى لمن كان لنا وكُنَّ له**».

رواه الترمذي في صفة الجنة (٢٣٨٣) وهو وإن كان سنده ضعيفاً فإنه يتأيد بالآتي:

[٤٩٤] فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن أزواج أهل الجنة ليُغَنِّين أزواجَهُنَّ بأحسن أصوات سمعها أحدٌ قط، إن مما يُغَنِّين به: نحن الخيِّرات الحِسان، أزواجُ قوم كرام، ينظرون بقُرَّة أعيان، وإن مما يُغَنِّين به: نحن الخالدات فلا تَمُتْنَهْ، نحن الآمِناتُ فلا تَخَفْنه، نحن المُقيماتُ فلا نَظعَنَّه».

رواه الطبراني في الأوسط (٤٩١٤) والصغير (١/٢٥٩/٢٦٠) بسند صحيح.

قوله: «الخالدات» أي: الدائمات. «فلا نبيد»: فلا نفنى ولا ننقطع. «فلا نبأس» أي: لا تصيبنا حاجة ولا فقر.

الحديثان يدلان على أن الحور العين سيغنين لأزواجهن وذلك من أعظم المتع التي ينتظرها المؤمن، فإنه كان قد نزّه سمعه عن أغاني المومسات والعواهر في الدنيا رغم ما كنّ عليه من أصوات حسان تسحر العقول وتأخذ الألباب، فإذا أدخله الله الجنة فسوف يعوضه بالطرب والأغاني بواسطة الحور العين مما لم يسمع بمثله.

* * *

❁ سوق الجنة

[٤٩٥] عن أنسٍ رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنةِ لسوقاً يأتونها كلَّ جمعة فتهُبُّ ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حُسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حُسناً وجمالاً فتقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً».**

رواه مسلم في صفة الجنة (١٧/١٧٠).

هذا من تمام متَع أهل الجنة ونعيمهم حيث سيجعل الله عزّ وجل لهم مجتمعاً في مقدار كل جمعة، كالسوق يجتمع فيه الأحبة والأقارب والأصحاب ويتذاكرون أيام الدنيا وتهب عليهم ريح من جهة الشمال فتحثو

في وجوههم وثيابهم روائح وعطورات طيبة ونعيم فيرجعون إلى زوجاتهم وقد ترقوا في الحسن والجمال وازدادوا على ما كانوا عليه، وهكذا يجدون نساءهم قد ازددن أيضاً حُسناً وجمالاً، فيا سبحان الله ما أكرم ربنا وما ألطفه بعباده.

***

❊ من مشتهيات أهل الجنة الولد

[٤٩٦] عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حَمْلُه، ووضعه، وشبابه، كما يشتهي في ساعة**».

رواه أحمد (٨٠/٩/٣)، والترمذي في صفة الجنة (٢٣٨٢)، وابن ماجه (٤٣٣٨)، والدارمي (٢٨٣٧)، وابن حبان (٤١٧/١٦) وسنده صحيح على شرط مسلم.

الجنة لا بول فيها ولا مذي، ولا ودي، ولا مني، ولا قذر الفروج والأرحام ولا ولادة كالعادة لأن النساء مطهَّرات، لكن الله يتفضل على عبده المؤمن في الجنة بما يشتهي فإذا هوى الولد واشتهاه أعطاه الله إياه وأوجده له حالاً بدون عناء حمل أو طلق... بل يكون حمله ووضعه وقوته كما يشتهي ويريد في ساعة واحدة على ما يريد الله تعالى مما لا نعرفه ونتصوره.

***

❊ المقارنة بين نعيم الدنيا وبين نعيم الآخرة

[٤٩٧] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَقَابُ قَوْسٍ في الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب**».

رواه البخاري في الجهاد (٢٧٩٣) وفي بدء الخلق (٣٢٥٣)، ومسلم وغيرهما.

[٤٩٨] وعن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها»**.

رواه البخاري في الجهاد (٢٨٩٢) مطولاً، وفي بدء الخلق (٣٢٥٠) مختصراً، ومسلم في الجهاد (١٣/٣٦/٣٧).

وقوله: «قاب قوس» أي: مقدار قوس.

[٤٩٩] وعن المستورد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«والله ما الدنيا في الآخرة إلا مِثلُ ما يَجعلُ أحدُكم إصبعه هذه** ـ وأشار يحيى بالسبابة ـ **في اليم، فلينظر بمَ يرجع»**.

رواه مسلم في جهنم (١٩٢/١٧).

«اليم»: هو البحر.

لا مناسبة بين الدنيا ومتاعها وبين الجنة ونعيمها إلا كما بين اللؤلؤ والبعر، فالدنيا متاعها قليل وهي آيلة إلى الفناء ثم أيامها كلها فتن ومحن وبلايا ونكبات، بينما الجنة متاعها عظيم ونعيمها وفير وحياتها دائمة، ويكفي في قلة الدنيا بالنسبة للجنة أن مقدار القوس أو موضع السوط في الجنة خير وأفضل من الدنيا كلها وما فيها، وما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يعلق بالإصبع إذا وضع في البحر، فالبحر هو الآخرة وما، يعلق في الإصبع من بلل ماء البحر هو الدنيا.

واقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

وقوله جلّ علاه: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾.

وقوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾.

* * *

❀ من صفات أهل الجنة

[٥٠٠] عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«يأكلُ أهلُ الجنة فيها، ويشربون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذلك جُشاءٌ كرشح المسك، يُلهَمون التسبيح والحمد كما تُلهَمون النَّفَس»**.

رواه مسلم في الجنة (١٧٤/١٧).

فمن صفات أهل الجنة أن الله جعلهم مطهَّرين من جميع أقذار الدنيا وأوساخها فلا بول ولا غائط ولا مخاط، فهم في أكل وشرب ولذة ونعيم وما يأكلونه ويشربونه يتفصد منهم رشحاً كالمسك في طيب الرائحة، وهم مع ذلك يسبِّحون الله تعالى ويحمدونه مع كل نفَس من أنفاسهم إلهاماً من الله عزّ وجل وليس تكليفاً.

[٥٠١] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«خلق الله عزّ وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم»**.

رواه مسلم في الجنة (١٧٨/١٧).

قوله: «على صورته» أي: صورة آدم، وليس الضمير عائداً على الله كما قيل، فكل من دخل الجنة يدخلها على صورة آدم وطوله عليه السلام.

[٥٠٢] وعن أبي هريرة أيضاً عن النبي ﷺ قال: **«يدخلُ الجنةَ أقوامٌ أفئدتهم مثلُ أفئدةِ الطير»**.

رواه مسلم في الجنة (١٧٧/١٧٦/١٧).

معنى هذا الحديث أن هنالك من المؤمنين من يدخل الجنة وقلوبهم رقيقة ضعيفة شديدة الخوف من الله والهيبة والفزع، فهم من القوم الذين كان

قد غلب عليهم الخوف على الرجاء، وشبّههم ﷺ بالطير وأفئدتها لأن الطير أكثر الحيوان رقة، ولذلك تجدها خائفة فزعة من أدنى شيء.

* * *

الأمة المحمدية أكثر الأمم دخولاً الجنة

[٥٠٣] عن أبي سعيد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«وإني لأرجو أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة»** فكبّرنا، ثم قال: **«ثُلُثَ أهلِ الجنة»** فكبّرنا، ثم قال: **«شطر أهل الجنة»** فكبّرنا.

رواه البخاري ومسلم، وتقدم مطولاً في بداية العرض على الله تعالى.

[٥٠٤] وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في قُبّةٍ نحواً من أربعين، فقال لنا رسول الله ﷺ: **«أترْضون أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة؟»** قالوا: نعم، قال: **«أتَرْضون أن تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة؟»** قالوا: نعم، قال: **«أتَرْضون أن تكونوا شطرَ أهل الجنة؟»** قال: **«إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا تدخلها إلا نَفسٌ مُسلمةٌ ما أنتم في الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»**.

رواه أحمد (٤٣٧/٣٨٦/١)، والبخاري في الرقاق (١٧٨/١٧٧/١٤)، ومسلم آخر الإيمان (٩٥/٣)، والترمذي في الجنة (٢٣٦٤).

في الحديثين بيان أن الأمة المحمدية ستحتل من الجنة نصف سكانها وباقيهم من سائر الأمم الأخرى، وفي ذلك بشارة عظيمة ومزية رائعة لهذه الأمة، ولذلك فرح الصحابة بذلك ورفعوا أصواتهم بالتكبير، بل قد جاء أنهم ثلثا أهل الجنة، وحضرني في هذا حديثان وهما:

[٥٠٥] عن بُرَيدة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أهلُ الجنة عشرون ومائةُ صَفٌ، ثمانونَ منها من هذه الأمة، وأربعون من سائر الأمم»**.

رواه الترمذي في الجنة (٢٣٦٣)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٩)، والدارمي (٢٨٣٨)، وابن حبان بالموارد (٢٦٣٩)، والحاكم (٨٢/١) وصححه، والذهبي وله شواهد ثلاث أشرتُ إليها في تهذيب الجامع.

[٥٠٦] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝١٤﴾ شقّ ذلك على الصحابة فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ۝٤٠﴾ فقال النبي ﷺ: **«إني لأرجو أن تكونوا رُبُعَ أهل الجنة، بل ثُلُثَ أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة وتُقاسمونهم في النصف الثاني»**.

رواه أحمد (٣٩١/٢) وضَعّفه، ينجبر بما قبله وما بعده فيحسن.

وفي رواية: **«أنتم ربع أهل الجنة، أنتم ثلث أهل الجنة، أنتم نصف أهل الجنة، أنتم ثلثا أهل الجنة»**.

رواه عبدالله بن أحمد في زوائد المسند.

فهذا يدل على أن الله عزّ وجل زاده ﷺ فوق النصف، وهو الثلثان، لأن ثمانين صفاً من مائة وعشرين صفاً هو الثلثان. وهذا من عظيم عناية الله عزّ وجل برسوله الكريم سيدنا محمد ﷺ وذلك داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾.

* * *

أغلب سكان الجنة الضعفاء

[٥٠٧] عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كلُّ ضعيفٍ متضعّف، لو أقسمَ على الله لأبرّه»**.

رواه مسلم في جهنم (١٨٧/١٨٦/١٧).

قوله: «متضعف» بفتح العين وكسرها والمشهور الفتح، ومعناه: الذي

يستضعفه الناس ويحتقرونه، وعلى الكسر معناه: ضعيف في نفسه متواضع متذلل خامل.

قال النووي: والمراد أن أغلب أهل الجنة هؤلاء.

[٥٠٨] وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«رُبّ أشعثَ مدفوعٍ بالأبوابِ، لو أقسمَ على الله لأبرَّه»**.

رواه مسلم (١٨٧/١٧).

«الأشعث»: هو البعيد العهد بالغسل والتسريح. وقوله: «مدفوع بالأبواب» معناه: أنه لا يؤذن له في الدخول بل يُمنع ويُطرد لحقارته عند الناس وهو عند الله بمكان بحيث لو حلف على الله عزّ وجل في إيجاد شيء أو دفعه لأجابه ولأبرّه ولما حنثه لما له عنده تعالى من المنزلة، وكثير من هذا الصنف سيكونون من سكان الجنة، وقد قدّمنا في حديث تخاصم الجنة والنار، أن الجنة قالت: **«ما لي لا يدخلني إلا ضعفَة الناس وسقطهم...»** إلخ.

* * *

❋ إرث المؤمن منزل الكافر في الجنة

[٥٠٩] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما منكم من أحدٍ إلا له منزلان: منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النار، فإذا مات فدخل النار، ورث أهلُ الجنة منزلَه»**، فذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠﴾.

رواه ابن ماجه (٤٣٤١) وهو آخر حديث فيه، قال في الزوائد: هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين وهو كما قال.

في الحديث تفضُّل الله تعالى على عباده المؤمنين، حيث سيورثهم منازل الكفار في الجنة التي حرموا أنفسهم منها، وذلك من تمام إكرام الله تعالى للمؤمنين.

* * *

❁ مَن هم أهل الجنة

سكان الجنة أصناف: مقرّبون، وأبرار، ومن كانت له حسنات وسيئات وكانت حسناته أكثر أو استوت حسناته وسيئاته.

فهؤلاء كلهم من أهل الجنة بشرط الإيمان.

أما المقرّبون والأبرار، فإنهم سادات أهل الجنة وأصحاب الدرجات العلى الذين لقوا الله مطهرين طيبين مغفوراً لهم لا ذنب لهم، فيهم الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأصحابهم الصادقون وخاصة صحابة رسول الله ﷺ من آل بيته وزوجاته الأطهار والطاهرات والمهاجرين والأنصار، وفيهم سادات التابعين وأئمة الدين المشهورون والقراء والعلماء الربانيون والمفسرون والمحدثون والعباد والزهّاد، وفيهم أولياء الله بجميع طبقاتهم، وفيهم النساء والرجال...

وقد ذكر الله تعالى هؤلاء في كثير من سوَر القرآن ستأتي مفصَّلة، ومنها الآتي:

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

وقال: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾.

وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الآية.

وأما الباقون ممن لهم حسنات وسيئات فمَن كانت حسناتهم أكثر كانوا ناجين بلا سابقة عذاب، وقد يُحاسبون حساباً يسيراً وقد يُلامون ويُعاتبون فترجح حسناتهم ويأخذون كتبهم بأيمانهم.

قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٧﴾﴾.

وأما من كانت سيئاته أكثر، كان هالكاً وسيُحاسب الحساب العسير ويُعذَّب إذا شاء الله، ثم يكون مآله الجنة كما قدّمنا سابقاً.

يبقى من استوت حسناته وسيئاته فهذا من أهل الأعراف، وهم كما قدّمنا سيُحبسون بين الجنة والنار على سور مدة، ثم يدخلون الجنة **فهؤلاء** هم أصناف سكان الجنة أولهم وآخرهم الناجون منهم والمعذّبون، وكلهم سيرضى الله عنهم ويتجلى لهم فينظرون إليه ويخلدون في نعيم الجنان بلا نهاية.

* * *

دخول الجنة بمحض رحمة اللّه عزّ وجل

[٥١٠] عن مولاتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، عن النبي ﷺ قال: **«سدِّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يدخل أحداً الجنةَ عملُه»**، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا إلا أن يتغمّدني اللّهُ بمغفرةٍ ورحمةٍ»**، وفي رواية: **«واعلموا أن لا يُدْخِلَ أحدكم عمله الجنة»**.

رواه البخاري في الرقاق (١٤/٧٩/٨٠)، ومسلم في صفة القيامة (١٧/١٦١).

[٥١١] ومثله عن أبي هريرة عندهما بلفظ في رواية: **«واعلموا أنه لن ينجوَ أحدٌ منكم بعمله»**، وفي رواية: **«ليسَ أحدٌ يُنَجِّيه عملُه»**.

[٥١٢] وعن جابر رضي الله تعالى عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«لا يُدْخِلُ أحداً منكم عملُه الجنةَ، ولا يُجيرُهُ من النار ولا أنا، إلاّ برحمةٍ من الله»**.

رواه مسلم (١٧/١٦١).

قوله: «سَدِّدُوا» من السَّداد: بفتح السين، أي: الزموا الصواب والوسط. وقوله: «وقاربوا» أي: إن لم تطيقوا الأخذ بالأكمل فاطلبوا المقاربة إلى ذلك بلا غلو ولا تقصير.

ودلّت هذه الأحاديث على أن الأعمال الصالحة التي يكسبها المؤمن لا

تُدخله الجنة ولا تُنجّيه وتُجيرُه من النار بنفسها حتى ولو كان رسول الله ﷺ.

قال النووي رحمه الله تعالى في «شرح مسلم»: وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة فلا يعارضُ هذه الأحاديث، بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخله بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث ويصح أنه دخل بالأعمال أي: بسببها وهي من الرحمة. وأقول: يصح أن يقال باختصار: «**لن يدخلَ أحدٌ الجنةَ بعمله**» إذا اعتمد عليه ورأى أنه يستحق دخولها بدون ملاحظة رحمة الله تعالى وفضله.

وقوله: «يتغمّدني برحمته» أي: يُلْبِسُنِيها. فليس هنالك إلا فضل الله ورحمته، فإكرامه إيانا وإنعامه علينا وإدخاله إيانا الجنة، كل ذلك فضل منه تعالى لا يجب عليه شيء من ذلك ولو عذبنا مع طاعتنا له لما كان ذلك ظلماً منه، بل هو عدلٌ منه سبحانه كما أنه لو نعَّم الكافر وأدخله الجنة كان له ذلك فلا يُسأل عما يفعل، لكنه تعالى وعد المؤمنين الجنة وأوعد الكافرين النار وهو لا يُخلف وعده، فالمؤمنون سيدخلهم دار نعيمه برحمته، والكافرون والمنافقون سيعذبهم مخلَّدين في النار عدلاً منه.

هذا هو مذهب أهل الحق والسنة والجماعة.

* * *

✻ خلود أهل الجنة في نعيم عند مليك مقتدر

[٥١٣] عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ينادي منادٍ: إن لكم أن تصِحُّوا فلا تَسقَموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تَشِبُّوا فلا تهرَموا أبداً، وإن لكم أن**

تَنعَموا فلا تَبتَئِسُوا أبداً» فذلك قوله عزّ وجل: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

رواه أحمد (٣١٩/٢) (ح٣٨/٣)، ومسلم (١٧٥/١٧)، والترمذي (٣٠٣١) بسند صحيح على شرط مسلم، ولا عبرة بما ذكره رحمه الله تعالى من إيقاف بعضهم إياه ولم يرفعوه.

ينادي منادٍ ـ يعني من قِبَل الله تعالى ـ. «لا تسقموا»: أي لا يعتريكم سقم. «تشبوا»: أي تدوموا على قواكم فلا يصيبكم كبَر. «ولا تبتئسوا»: أي لا ينالكم بؤس وشدة وفقر.

الحديث يدل على بشارة عظيمة لأهل الجنة، حيث إنهم سيخلّدون فيها منعمين مكرمين فلا مرض فيها ولا موت ولا هرم ولا فقر ولا شدة ولا شيء ينغص عليهم نعيمهم وحياتهم الأبدية، فهم في نعيم خالد كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ...﴾ الآية، وستأتي.

* * *

❁ رؤية المؤمنين ربهم في الجنة وإحلاله عليهم رضوانه

[٥١٤] عن صُهَيب رضي الله تعالى عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند ربكم موعداً يريد أن ينجزكموه»، قالوا: ألم يبيض وجوهنا، ويُثقّل موازيننا، ويُدخلنا الجنة، ويُجرنا من النار؟ قال: «فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إليه، ولا أقرّ لأعينهم».

رواه أحمد (٣٣٢/٤) و(١٥/٦)، ومسلم في الإيمان (١٧/٣)، وأبو عوانة في صحيحه (٤١١)، والترمذي في الجنة (٢٣٢٩) وفي التفسير (٢٩٠٥)، والنسائي في الكبرى (٣٦١/٦/٣٦٢)، وابن ماجه في المقدمة (١٨٧).

قوله: «فيُكشَفُ الحجابُ» أي: عن أهل الجنة.

والحديث صريح في تفسير الزيادة في الآية بأنها النظر إلى الله عزّ وجل.

[٥١٥] وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم، إلا رداء الكبرياءِ على وجهه في جنةِ عدْن»**.

رواه البخاري ومسلم والترمذي، وتقدم كاملاً.

[٥١٦] وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: **«يقول الله عزّ وجل لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبّيك ربنا وسعدَيك، والخير في يدَيك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ربنا ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تُعطِه أحداً من خلقك، فيقول: أفلا أُعطيكم أفضل من ذلك؟** قال: **فيقولون: ربنا فأيُّ شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»**.

رواه أحمد (٨٨/٣)، والبخاري في الرقاق (٢١٢/١٤) وفي التوحيد، ومسلم في الجنة (ج١٦٨/١٧)، والترمذي في الجنة (٢٣٧٢).

أُحِلُّ: بضم الهمزة.

جاءت الأحاديث بالنظر إلى الله الكريم متواترة، فقد رواها عن النبي ﷺ أكثر من خمس وعشرين صحابياً وهي في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها، واتفق على مدلولها السلف الصالح والأئمة والعلماء من أهل السنّة والجماعة، وأنكر ذلك المعتزلة والشيعة الروافض وأهل الضلالة.

والقرآن الكريم صريح في ذلك كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، فالحسنى هي الجنة والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم كما فسّرها بذلك النبي ﷺ.

وقال المفسرون في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾، إن المزيد هو النظر إلى وجه الله المقدس.

وقال العلماء في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ فإذا حجب الكفار عنه تعالى، فالمؤمنون لا يحجبون، وهو الذي صرحت به الأحاديث.

فالله عزّ وجل عندما يُتِم نعمته على عباده المؤمنين بإدخالهم الجنة سيناديهم بأنه سيُحِلُّ عليهم رضوانه ويُنزله بهم فلا يكون منه بعده سَخَطُ أبداً، وذلك يكون بكشف الحجاب والنظر إليه عزّ وجل، فلا يكون شيء أحب إليهم وأقر لأعينهم وألذ عندهم من النظر إليه سبحانه وتعالى، كيف لا وهو المحبوب الحبيب الذي طالما اشتاق إليه المؤمنون والمحبُّون.

ولا شك أن الناس سيتفاوتون في النظر إليه فقد يوجد من ينظر إليه متى شاء. وقد جاء في حديث لابن عمر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه، وأزواجه، ونعيمه، وخدمه، وسرره، مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على الله تعالى من ينظر إلى وجهه غدوة وعَشية**، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾».

رواه أحمد (٥٣١٧)، والترمذي في الجنة، والحاكم (٥١٠/٥٠٩/٢) وهو وإن كان في سنده ضعف فإنه يستأنس به هنا. وقد ذكروا في ترجمة الإمام أحمد رحمه الله تعالى أنه رؤي في المنام فقيل له: ما صنع الله بك؟ فقال: غفر لي، وقال لي: ضُرِبْتَ في، فهذا وجهي فانظر إليه فقد أبحتك النظر إليه.

وفي ترجمة عبدالوهاب الورّاق أحد الزهّاد رحمه الله تعالى، أنه رؤي في المنام فسئل عن حاله فقال: علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه سبحانه...

وذكروا في ترجمة معروف الكرخي الزاهد المشهور رحمه الله تعالى أنه رؤي جالساً في سرادق العرش قد شخص بصره ينظر إلى الله عزّ وجل لا يطرق، فقيل لرضوان: مَن هذا؟ فقال: هذا معروف الكرخي عبد الله عزّ وجل حباً له فأباحه النظر إليه عزّ وجل.

ذكرت هذه الرؤى وختمت بها هذه الأحاديث الواردة في الجنة تيمُّناً ورجاء أن يختم الله تعالى علينا بالسعادة الكاملة، وأن يمنَّ علينا بالنظر إلى وجهه الكريم المقدّس في جملة عباده المقرّبين والصالحين من أنبيائه ورسله والصفوة من خلقه إنه جواد كريم.

* * *

القرآن الكريم والجنة وأهلها وما سيحظون فيها من نعيم

الحمد للّه والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وزوجه ومن والاه واهتدى بهداه.

وبعد، فقد تحدّث القرآن الكريم بإسهاب عن الجنة وأهلها وما أعدّ لهم فيها من نعيم وما سيلقونه من حفاوة وتكريم ورضوان، وذكر تعالى أشياء عدة من متعهم ونعيمهم، مما لم يأتِ ذكره في السنّة النبوية أو جاء فيها بلا تفصيل.

فقد جاء فيه من صفات أهل الجنة ما يزيد على السبعين صفة، وجاء في دخولهم الجنة بدون سابقة عذاب أكثر من خمسين آية تفيد الإيمان بالعمل الصالح، وجاء فيه من صفات الجنة وأهلها ونعيمهم الشيء الكثير الذي لم يأتِ أكثره في السنة، كذكر جريان الأنهار من تحت أشجار الجنة وقصورها، فقد ذكر في القرآن في أكثر من ثلاثين مرة، وكخلود الجنة وأهلها ونعيمهم فقد جاء أيضاً ما يقارب الأربعين مرة، وذكر تعالى ألبسة أهل الجنة الحريرية الخضراء ولباسهم الأساورة من ذهب وفضة ولؤلؤ واتكاءهم على الأرائك والسرر متقابلين، وتنوُّع مآكلهم من لحوم وفواكه وثمار مما يتخيرون ويشتهون، وطواف الغلمان والولدان عليهم بالصحاف والأكواب بالمآكل والمشارب فهم مكرمون في شغل فاكهون هم وأزواجهم من الحور العين اللاتي وصفن باللؤلؤ المكنون والياقوت والمرجان واللاتي

لم يطمثهن قبلهم إنس ولا جان قاصرات الطرف في قصورهن وهن مع أزواجهن يجلسن أحياناً متنزهين في ظل ظليل. لهم عيون هيئت لهم، منها التسنيم، والسلسبيل، يشربون منها الرحيق المختوم لا يصيبهم منه لغو ولا إثم وجوههم ناضرة ضاحكة مستبشرة ناظرة إلى ربها، إلى غير ذلك مما فصّلته آيات القرآن كما ستراه.

وبما أن أكثر سوَر القرآن تحدثت عن ذلك بأساليب مختلفة وصفات متنوعة، ارتأيت أن أُفرد ذكر ذلك على حدة كما فعلت ذلك في النار وأهلها ليكون أشوق وألذ...

ويلاحظ أن ما جاء في جهنم وأهلها في القرآن الكريم من الترهيب أكثر بكثير مما جاء في الجنة وأهلها من الترغيب، ولا شك أن لذلك سراً يعلمه الله تعالى ويدركه أهل البصائر والراسخون في العلم بما أعطاهم الله من نور.

وبالله أستعين وعليه أتوكل فهو حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وزوجه أبد الآبدين.

* * *

من سورة البقرة

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾.

هذه خصال أهل التقوى الذين جعلهم الله عزّ وجل مهتدين سعداء فائزين من أهل الجنة.

فذكر لهم خمس صفات وهي أهم أصول الدين وشرائعه، وهي: الإيمان بالغيب، ويشمل: الإيمان بالله، وملائكته، وما وراء هذا العالم

المادي المشاهد من المغيبات، ثم الإيمان بالكتب الإلهية ويتضمن الإيمان بالرسل صلوات الله وسلامه عليهم وبسائر الأنبياء، ثم الإيمان باليوم الآخر، ويشمل الإيمان بالحشر والحساب والمرور على الصراط... والجنة والنار، ثم إقامة الصلاة، والإنفاق من مال الله عزّ وجل وهي الزكاة.

فهذه الخصال من أهم خصال المتقين أهل الجنة، ولذلك مدحهم في الختام بأنهم على هدى ونور من ربهم، وأنهم المفلحون الفائزون السعداء.

وقال عزّ وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

يأمر الله عزّ وجل نبيه ﷺ أن يبشر المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بأن لهم في الآخرة حدائق وبساتين ذات أشجار وقصور تجري من تحت قصورها ومساكنها أنهار الجنان وذلك أجمل ما يراه الناظر، وأنهم كلما أُعطوا عطاءً ورزقوا رزقاً من ثمار الجنة وفواكهها، قالوا: هذا مثل الطعام الذي قدم إلينا من قبل هذه المرة وأتوا به متشابهاً في الشكل والمنظر، فاللون واحد والطعم مختلف، ولهم في الجنة التي أُدخلوها زوجات من الحور العين اللاتي تحار العيون في جمالهن وصفائهن وبياضهن وهن مطهرات من أقذار الدنيا كالبول والغائط والحيض والنفاس والبصاق والمخاط وكل الرطوبات والأدناس، كما ستأتي آيات أخرى في وصفهن، وهم مع هذا النعيم دائمون لا يموتون ولا يفنون أبداً.

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

يقول تعالى: إن المؤمنين الذين صدقوا إيمانهم بالإتيان بالأعمال الصالحة وهي الفرائض التي كلّفهم الله بها هم أهل الجنة الذين جعلهم الله من سكانها دائمين فيها. فمَن آمن وضمّ إلى ذلك التحلي بكل فرض ونافلة والتخلي عن كل فاحشة وذنب ومات على ذلك، كان من السابقين إلى الجنة فضلاً من الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾.

يخبر تعالى بأن من أنفق في مرضاة الله تعالى وأوجه الخير في كل الأوقات من ليل أو نهار في السر والعلن كان لهم أجر وثواب عند الله تعالى وهو الجنة ونعيمها ولا خوف عليهم يوم يخاف الناس في موقف القيامة. . . ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا بل يصبحون في أمن وأمان وفرح وسرور.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾.

أي: الذين صدقوا بالله وبما جاء به رسول الله ﷺ وحققوا إيمانهم بالإتيان بالأعمال الصالحة وحافظوا على صلواتهم وأدُّوا زكاة أموالهم كان لهم الأجر العظيم عند ربهم وليس ذلك إلا الجنة وسيكونون في أمان من عذاب الله وأهوال يوم القيامة فلا يخافون ولا يحزنون.

* * *

❁ ومن سورة آل عمران

قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾.

يقول تعالى: قل يا نبيي لمن انخدع بالدنيا وغفل عن الآخرة: أأخبركم بخير ممّا زُيّن للناس من زهرة الدنيا ونعيمها ومشتهياتها الزائلة. . . للمتقين يوم القيامة جنات فسيحات تجري من خلال جوانبها وبين قصورها وأشجارها وأرجائها الأنهار من عسل ولبن وخمر وماء، ماكثين فيها أبد الآبدين، ولهم فيها نساء وفتيات يأخذن بالألباب ويبهرنها لحسنهن وصفائهن

وبيضهن مطهرات من كل خبث وقذر ودنس ووسخ، ولهم مع ذلك رضوان من الله عزّ وجل الذي لا سخط بعده أبداً، ثم ذكر تعالى بعض صفات هؤلاء المتقين.

فأخبر عنهم بأنهم يقولون: يا ربنا إننا آمنا بك وبكتبك وبرسلك فاغفر لنا بفضلك ما فرط لنا من ذنوبنا ونجّنا من عذاب نارك، ثم بيّن تعالى أنهم صابرون على البأساء والضراء، وجميع البلايا والآفات وعلى الطاعات، وعن إتيان المناهي والمنكرات وأنهم صادقون في إيمانهم مطيعون للّه في الشدة والرخاء وأنهم يبذلون أموالهم في أوجه الخير وأنهم يتحرَّون وقت السحر فيقومون وقته ويستغفرون الله عزّ وجل.

وقال جلّ علاه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾.

يأمر تعالى عباده بالمبادرة إلى ما يوجب لهم المغفرة منه بالإكثار من الطاعة وامتثال أوامره تعالى وإلى ما يوجب دخول جنة واسعة مترامية الأطراف عرضها كعرض السماوات السبع والأرضين لو مُدّت وأُلصق بعضها ببعض، هذا عرضها فكيف يكون يا ترى طولها وقد هيئت لأهل التقوى الذين اتصفوا بالإنفاق في اليسر والعسر والشدة والرخاء والذين يمسكون غيظهم عند غضبهم فلا ينتقمون، والذين يعفون عمن أساء إليهم والله يحب المتصفين بهذه الأوصاف الجليلة النبيلة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

جاءت الآيتان هنا تتحدثان عن المذنبين التائبين وجزائهم عند الله تعالى يوم القيامة، فأخبر تعالى بأن من صدرت منه معصية عظيمة الجرم كالزنا مثلاً، أو دون ذلك كالنظرة واللمسة، كما قال ابن عباس رضي الله تعالى

عنهما، ثم تذكر عظمة الله ووعيده فأقلع وتاب وتيقن أنه لا يغفر الذنوب إلا الله ولم يُقِم على الذنب وهو عالمٌ بقبحه، فمَن اتصف بذلك كان جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من ذنوبهم كبيرة كانت أم صغيرة، ولهم مع ذلك جنات تجري خلال أشجارها وقصورها الأنهار المتنوعة عسلاً ولبناً وخمراً وماءً ماكثين فيها أبداً، ونعمت الجنة جزاء لمن أطاع الله تعالى.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾.

يخبر تعالى عباده بأن من أُبعد عن النار وكان من أهل اليمين وحظي بدخول الجنة، كان من الفائزين السعداء الذين جنّبوا جميع أهوال يوم القيامة ونالوا كل خير ونعيم، فما أجمل هذه الآية الكريمة وما أعظم ما تحمل من بشارة جعلنا الله تعالى من أهلها بمنّه ورحمته وفضله.

وقال عزّ وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ...﴾ الآية. الآيات جاءت في فضل الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى وأن الله عزّ وجل تفضّل عليهم بحياتهم بعد قتلهم وحفظ أجسامهم من البلى وأنهم يرزقون وينعمون ويأكلون من ثمار الجنة كما أخبر النبي ﷺ بأن أرواحهم في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظل العرش، وأنهم فرحون بما هم فيه من النعمة ويستبشرون بإخوانهم المجاهدين بما سيكونون عليه بعد موتهم إن استشهدوا، فهؤلاء الشهداء لا خوف عليهم في الآخرة ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم من الدنيا والأهل والأولاد وفضل الجهاد والمجاهدين تقدم في الجهاد.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

جاءت الآية عقب تحذير الله تعالى عباده من الاغترار بتنقل الكفار وتغلبهم في البلاد طلباً لكسب الأموال والجاه والرتب والاستعلاء على

الغير، فإنهم يتنعمون بذلك قليلاً ثم يزول ذلك النعيم ويكون مصيرهم إلى النار، أما المتقون من المؤمنين فلهم النعيم المقيم في جنات النعيم دائمين فيها أبداً ضيافة وكرامة من عند الله وما عنده تعالى من الجزاء والكرامة للأخيار الأبرار خير ممن يتقلب فيه الأشرار الفجار من المتاع القليل الزائل.

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾.

الآيات جاءت من تتمة الكلام على أولي الألباب الذين ينظرون إلى هذا الكون بطريق التفكر والاستدلال فيكون لهم ما فيه آيات ودلائل على الله عزّ وجل، ثم ذكر لهم تعالى بعض صفاتهم كذكرهم له في كل أحوالهم وتفكرهم في خلق العالمين العلوي والسفلي واعترافهم بأنه تعالى ما أوجد ذلك عبثاً ثم نزهوه عن ذلك وسألوه أن يحفظهم من عذاب النار لأن من أدخله إياها كان ذليلاً مهاناً، ثم بعد ذلك نادوا ربهم بأنهم سمعوا داعياً يدعو إلى الإيمان وهو رسولنا الكريم ﷺ فآمنوا به واتبعوه، ثم والوا دعواتهم فسألوا الله عزّ وجل أن يغفر لهم ذنوبهم كبيرها وصغيرها وأن يُلحقهم بالصالحين وأن يؤتيهم ما وعدهم به على ألسنة رسل الله عليهم السلام وهي الجنة، وأن لا يفضحهم يوم القيامة كما سيفضح الكفار. فاستجاب الله دعواتهم وقال لهم: إني لا أُبطل عمل عامل خيراً ذكراً كان العامل أم أنثى فإنكم بعضكم من بعض، فالأنثى من الذكر والذكر من الأنثى، فكما أنتم مشتركون في الأصل فكذلك أنتم مشتركون في الشرائع والأجر والإكرام في الجنان.

ثم بيّن تعالى فضل المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وتحمّلوا الأذى من أجل دين الله تعالى وجاهدوا في سبيل الله واستشهدوا فسيَمْحُوَنَّ

ذنوبهم ويدخلهم جنات النعيم جزاء من عنده تعالى، والله عزّ وجل عنده حسن الجزاء، وهي الجنة.

* * *

❊ ومن سورة النساء

قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

جاءت الآية خاتمة لأحكام المواريث فأخبر تعالى أن ما تقدم من أحكام الفرائض هي شرائع الله عزّ وجل التي حدّها لعباده ليعملوا بمقتضاها ولا يعتدوها أو ينكروها أو يعترضوا على مُشَرّعها كما هو حال كثير من الناس اليوم، وأخبر تعالى أن من أطاع أمر الله فيما حكم وأمر رسول الله ﷺ فيما بيّن واستسلم وانقاد لأحكام الشارع الحكيم يُدخله جنات النعيم التي تجري من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ماكثين فيها أبداً وذلك هو الفلاح والسعادة العظمى.

وقال جلّ علاه: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن تتركوا أيها المؤمنون كبائر الذنوب والفواحش التي نهيتكم عنها، نغفر لكم صغائر ما أتيتم منها ونتفضل عليكم بأن ندخلكم الجنة التي هي دار الكرامة والنعيم وهو المدخل الكريم ونعم المدخل هي.

والآية الكريمة نص في أن الصغائر تغفر باجتناب الكبائر، وهذا الذي نطقت به السنّة النبوية في عدة أحاديث، وهو فضل عظيم تفضّل الله تعالى به على عباده المؤمنين فإن الإنسان وإن حاول التنصُّل من السقطات لا يقدر على ذلك، فتكرّم سبحانه على عباده بغفرانها طالما تركت الكبائر خوفاً من الله وتعظيماً لحدوده.

وقال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

بعد أن أخبر تعال بمآل الأشقياء أعقبه بمآل وعاقبة السعداء وأنه سيُدخلهم فضلاً منه جنات تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها وأرجائها بلا أخاديد، تجري لهم حيثما شاؤوا وأينما أرادوا مقيمين فيها بلا موت ولا نهاية ولهم فيها زوجهات مطهّرات من كل قذر فلا بول ولا مذي ولا مني ولا حيض ولا نفاس ولا رطوبة ولا رائحة الآباط الكريهة ولا بصاق ولا مخاط، بل هن حسان جميلات فاتنات طيبات مثل اللؤلؤ والمرجان في البياض والصفاء، واسعات العيون مع شدة سوادها، وسيُدخلهم ظلاً دائماً لا تنسخه الشمس لا حر فيه ولا برد.

وقال جلّ علاه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

يخبر تعالى بأن من يمتثل ما أمر الله به ورسوله، ويجتنب ما نهى الله عنه ورسوله، فإنه سبحانه وتعالى سيُسكنه دار كرامته في دار الخلد مع المقربين والأبرار أصحاب المنازل والدرجات العالية، وهم الأنبياء الأطهار والصدّيقون الأبرار، وهم أفاضل أصحاب الأنبياء والشهداء وباقي عباد الله الصالحين، ونعمت رفقة هؤلاء وصحبتهم ذلك الفضل من الله، أي: ما أعطيه أولئك المطيعون من الأجر العظيم، ورفقة أولئك المقربين الأخيار إنما هو بمحض فضل الله تعالى، وكفى به تعالى عليماً بمن يستحق الفضل والإحسان.

وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾.

جاءت الآيتان الكريمتان في المفاضلة بين المجاهدين والقاعدين وبيّنت أنهما لا يستويان في الفضل والأجر، وأن المجاهدين بالمال والنفس فضّلهم الله على القاعدين بلا عذر أجراً عظيماً وثواباً وافراً وهو قوله: ﴿دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ﴾، وهي منازل بعضها أعلى من بعض مع المغفرة والرحمة، وقد قدّمنا حديث: «**إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله تعالى للمجاهدين في سبيل الله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض**».

وقوله تعالى: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ يحتمل أن يراد به كلاً من المجاهدين والقاعدين من أهل الأعذار، ويحتمل أن يراد به كل القاعدين ممن لا يجب عليه الجهاد، وأن الجميع لهم الجنة الخارجون بجهادهم والقاعدون بإيمانهم وأعمالهم الصالحة ونيتهم الصادقة.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾.

إن المؤمنين الصالحين سيبوئهم الله دار النعيم التي تجري من تحت أشجارها وبيوتها الأنهار مخلَّدين فيها بلا نهاية وذلك وعد منه تعالى لا شك فيه لأنه لا أحد أصدق قولاً منه تعالى فإنه إذا وعد وفى.

وقال عزّ وجل: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤﴾.

يعني: مَن كان مؤمناً وعمل الأعمال الصالحة المأمور بها والمرغّب فيها سواء كان ذكراً أم أنثى لاستواء الجميع في الديانة والشرائع، فأولئك يُدخلهم الله تعالى الجنة فضلاً منه ولا يُنقصهم شيئاً من أعمالهم ولو كان شيئاً حقيراً مثل النقرة التي تكون في نواة التمرة.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾.

جاء هذا الاستثناء من المنافقين الذين سيكون مآلهم الدرك الأسفل من

النار، فمَن تاب وآمن منهم وأصلحوا أعمالهم وتمسكوا بكتاب الله ودينه وأخلصوا عقائدهم وأعمالهم للّه تعالى ولم يبتغوا بها غيره عزّ وجل، فأولئك سيكونون في زمرة المؤمنين يوم القيامة وسوف يعطي الله المؤمنين الأجر الكبير وهو الجنة ونعيمها.

ويلاحظ أنه تعالى لم يقيد هنا المؤمنين بالصلاح، بل أطلق ليفيد أن كل المؤمنين سيدخلون الجنة، إما مع السابقين كأهل الإيمان والصلاح، وإما مع اللاحقين الذين سينفذ فيهم وعيد الله، ثم يلحقون بإخوانهم بشفاعة الشافعين ورحمة الله تعالى.

* * *

ومن سورة المائدة

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

جاءت الآية في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع بني إسرائيل حيث كان بعث بأمر من الله اثني عشر نقيباً للتجسس على الكنعانيين، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام ما ذكره الله هنا، فقال لهم: اذهبوا فإني معكم أنصركم وأعينكم لئن أدّيتم ما فرضت عليكم من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصدقتم برسلي وعظمتموهم ونصرتموهم وأنفقتم في سبيلي وابتغاء مرضاتي لأمحون عنكم ذنوبكم وأدخلنكم جناتي التي تجري الأنهار من تحت غرفها وأشجارها، فهذا وعد من الله تعالى لبني إسرائيل، لكنهم لم يقوموا بذلك ولم يمتثلوا ما أمر الله عزّ وجل به فباؤوا بخزي منه وغضب.

وقال جلّ علاه: ﴿فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

جاءت الآية تتحدث عن جماعة من النصارى الذين وفدوا على النبي ﷺ

قيل: من الحبشة، وقيل: من غيرهم، فلما سمعوا القرآن خشعوا وبكوا واعترفوا بحقيّته فآمنوا من حينهم، فأخبر تعالى بأنه سيجازيهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يحولون عنها ولا يزولون، وذلك الأجر والثواب هو جزاء مَن أحسن عمله وأصلح نيته.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾.

جاءت الآية تتحدث عما سيقع يوم القيامة لسيدنا عيسى عليه السلام مع الله عزّ وجل حيث سيناديه على رؤوس الخلائق توبيخاً للنصارى وتبكيتاً لهم فيقول له: يا عيسى أأنت دعوت الناس لعبادتك والاعتقاد بألوهيتك وألوهية أمك؟ فيجيبه - أي: عيسى عليه السلام - منزهاً له: ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله، فلو كنتُ قلتُه فقد علمتَه لأنك تعلم حقيقة ذاتي وما انطوت عليه فما قلت لهم إلا ما أمرتني به من عبادتك وحدك، ثم ختم قوله لله تعالى: إن تعذبهم فأنت مالكهم وهم عبيدك، وإن تغفر لمن تاب منهم فإنك أنت الغالب على أمره. بعد ذلك يقول الله عزّ وجل: هذا يوم القيامة اليوم الذي ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم لأنه يوم الجزاء، فلأولئك الصادقين اليوم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ماكثين فيها لا يخرجون منها أبداً ونالوا مع ذلك رضوان الله لصدقهم ورضوا عن الله فيما أعطاهم، وذلك هو الظفر والفوز الكبير بجنات النعيم.

***

ومن سورة الأعراف

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

في الآية الكريمة أن المؤمنين الصالحين هم أهل الجنة الماكثون فيها بدون نهاية، وأن الله عزّ وجل سينزع ما كان في قلوبهم من بغض وحقد ويطهر صدورهم من كل ذلك ويبدلها بالمحبة والتعاطف، وأنهم عند دخولهم الجنة ورؤيتهم ما فيها مما يبهر عقولهم من متع ونعيم يحمدون الله تعالى على ما وفقهم لما وصلوا به إلى تلك السعادة ويحلفون بأن رسل الله قد جاؤوا بالحق عن الله تعالى، ثم تناديهم الملائكة أن هذه الدار هي الجنة التي ورّثكم الله إياها بسبب إيمانكم وأعمالكم الصالحة في الدنيا.

* * *

ومن سورة الأنفال

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الكاملون، وقد ذكر تعالى لهم هنا خمس صفات، ثلاث من صفات القلوب وهي: الوجل والخوف عند ذكر الله عزّ وجل، وزيادة الإيمان عند تلاوة آيات وسماعها، والاعتماد على الله في كل شيء.

وصفتان من أعمال الجوارح، وهما: إقامة الصلاة بأن تؤدّى في أوقاتها مع توفُّر شروطها وفرائضها وسنّتها، وأداء الزكاة من المال الحلال لأربابها ومستحقيها، فهؤلاء هم المؤمنون حقيقة لأنهم ما تحققوا بهذه الصفات حتى كانوا متحققين بغيرها من شعب الدين تحلياً وتخلياً، وقد هيّأ الله تعالى لهم منازل رفيعة في الجنة مع تقدم محو ما فرط منهم من ذنوبهم ثم رزق دائم مستمر مقرون بالإكرام والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾.

جاءت الآية الكريمة تشيد بفضل المهاجرين والأنصار، فالذين هاجروا ديارهم وأوطانهم وجاهدوا في سبيل الله هم المهاجرون وأصحاب السبق إلى الإسلام، والذين آووا من هاجر إليهم وآثروهم على أنفسهم ونصروا النبي ﷺ هم الأنصار سكان المدينة من الأوس والخزرج، وكلا الصنفين مؤمنون كاملون، لهم من الله مغفرة لذنوبهم ورزق كريم وهو الجنة ونعيمها، وهؤلاء يعتبرون الرعيل الأول في الفضل والتقوى والصلاح والدرجات العلى في الآخرة لا يلحقهم لاحق ولا يسبقهم سابق، جعلنا الله تعالى ممن يكون معهم بمحبتنا لهم.

* * *

❋ ومن سورة التوبة

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

الآية الكريمة تتحدث عن الصحابة الأبرار الذين طهّروا أنفسهم من دنس الشرك بالإيمان وطهّروا أبدانهم بالهجرة من الأوطان وبذلوا أموالهم وأنفسهم للجهاد في سبيل الله، فهؤلاء أعظم أجراً وأرفع ذكراً من سُقاة الحج وعُمّار المسجد الحرام مع بقائهم على شركهم، وأولئك هم المختصون بالفوز العظيم في جنات النعيم يبشرهم المولى جلّ علاه برحمة عظيمة ورضوان كبير من رب عظيم وجنات عالية لهم فيها نعيم دائم لا زوال له فهم ماكثون فيها إلى ما لا نهاية، والله عنده لهم ثواب عظيم تعجز العقول عن وصفه.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

هذا وعد من الله تعالى لأهل الإيمان، ووعدُه حقٌّ، بإدخالهم الجنان التي تجري الأنهار من تحت أشجارها لابثين فيها أبداً لا يزول عنهم نعيمها ولا يبيد، ولهم فيها منازل يطيب فيها العيش في جنات الخلد والإقامة ثم رضوان الله تعالى وهو أكبر من كل ذلك، فذلك هو الظفر العظيم الذي لا سعادة بعده.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾.

جاءت الآيتان بعد التحدث عن المنافقين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف عن الجهاد، وهم النساء والمرضى العجزة الذين تخلّفوا في البيوت.

فأخبر تعالى بأن المؤمنين بالضد من ذلك حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والقرب إليه، فإن تخلف أولئك ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم، وهم الرسول الكريم عليه السلام ومن آمن معه من صحابته الأوفياء فلهم من الله منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة، وأولئك هم الفائزون بالمطلوب أعدّ الله لهم على إيمانهم وجهادهم بساتين وحدائق تجري من تحت قصورها الأنهار لابثين فيها أبداً، ذلك هو الظفر العظيم الذي لا فوز وراءه.

وقال جلّ علاه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

في الصحابة سابقون ولاحقون، فالسابقون هم الذين أسلموا ونصروا وجهدوا في أول الإسلام قبل فتح مكة المكرمة وكان منهم المهاجرون والأنصار.

واللاحقون من أسلم يوم الفتح فما بعده، وكل هؤلاء ومن جاء بعدهم ممن اتبع طريقهم وسار على نهجهم مرضي عنهم من قِبَل الله لإيمانهم وطاعتهم لله تعالى راضون عن الله لما أجزل لهم من الثواب وأعدّ

لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار مقيمين فيها من غير انتهاء، وذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

يخبر تعالى بأنه اشترى أموال المؤمنين وأنفُسهم بالجنة، وهو تمثيل رائع، فقد مثّل تعالى جزاء المؤمنين بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله، صورة عقد فيه بيع وشراء، ولذلك قال تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ...﴾ إلخ، أي: يجاهدون لإعلاء كلمة الله فيقتلون أعداء الله ويُقتلون شهداء وعدهم الله تعالى بذلك وعداً قاطعاً ووعداً مثبتاً في الكتب المقدسة الثلاثة: التوراة والإنجيل والقرآن ولا أحد أوفى من الله، فهو لا يخلف الميعاد، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟﴾ أي: أبشروا بذلك البيع الرابح، وذلك هو الفوز والظفر العظيم والسعادة الكبرى.

وقال جلّ ذكره: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

فهذه تسع صفات استحق بها أهلها الجنة بفضل الله تعالى، فهم رجّاعون إلى الله تعالى من معصيته إلى طاعته مثابرون على عبادته تعالى والقيام بأداء حقوقه يحمدونه في السراء والضراء، مداومون على الصيام أو السياحة للجهاد في سبيل الله راكعون للّه ساجدون وما أعظمها من قربة، آمرون بالمعروف ناصحون لخلق الله ناهون عما حرّم الله ساعون في إصلاح المجتمع وهم مع ذلك حافظون لما حدّه الله عزّ وجل فلا يتعدون حدوده بانتهاك ما حرّم وترك ما أوجب.

فهؤلاء كلهم من أهل الجنة ولذا ختم الآية بقوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أخبرهم بما يسرُّهم مما سيؤلون إليه من نعيم الجنان.

***

❁ ومن سورة يونس

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾.

معناه: أخبر المؤمنين بما يسرُّهم ويظهر أثره على بشرتهم من أن لهم عند الله سابقة ومنزلة رفيعة بما قدّموا من صالح الأعمال.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

معناه: إن المؤمنين الصالحين يدلهم الله عزّ وجل على طريق الجنة بسبب إيمانهم أو يزيدهم قوة في إيمانهم، وسيحظون بالجنان التي تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ويكون دعاؤهم فيها التسبيح والتحميد وتحية بعضهم بعضاً سلام عليكم، وآخر ما يدعون به أن يقولوا: الحمد لله رب العالمين.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: للمؤمنين الذين أحسنوا بالأعمال الصالحة مضافة إلى إيمانهم الحسنى وهي الجنة ويزيدهم الله عزّ وجل عليها النظر إلى وجهه الكريم كما جاء مبيناً في حديث مسلم وقد تقدم، ولا يغشى وجوههم غبار ولا سواد كما يعتري الكفار، كما أنه لا تصيبهم ذلة ولا هوان، فأولئك هم سكان الجنة هم فيها دائمون فلا انقراض لنعيمها ولا زوال ولا نهاية.

وقال عزّ من قائل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: انتبهوا أيها الناس فاعلموا أن أحباب الله وأولياءه لا خوف عليهم في الآخرة من عذاب الله ولا هم يحزنون على ما فاتهم في الدنيا، وهؤلاء

الأولياء هم الذين صدقوا الله ورسوله وكانوا متحققين بتقوى ربهم بامتثال أوامره واجتناب نواهيه فلهم البشرى، وما يسرهم في الدنيا بالرؤى الصالحة يرونها أو تُرى لهم كما جاء في صحيح مسلم، وكذا عند احتضارهم يبشرون برضوان الله ورحمته وفي الآخرة بجنان النعيم والفوز العظيم ولا إخلاف لوعد الله تعالى، ذلك هو الظفر بالمقصود والفوز الذي لا فوز بعده.

* * *

ومن سورة هود

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إن الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والعمل الصالح والإخبات وهو الخشوع والانقطاع لعبادة الله والاطمئنان إلى وعده تعالى، فأولئك هم أهل الجنة المنعَّمون فيها لا يخرجون منها أبداً.

وقال جلّ شأنه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾.

يقول تعالى: إن أهل السعادة الذين سبقت لهم من الله العناية هم في الجنة دائمين فيها دوام سماوات وأرض الآخرة، فهي دائمة مخلوقة للأبد عطاء غير مقطوع عنهم بل هو ممتد إلى ما لا نهاية.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ وقد شاء لهم الخلود والدوام.

* * *

ومن سورة الرعد

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤)﴾.

فهذه أوصاف تسع، وصف بها ذوي العقول من ساكني الجنة فهم أتقياء صالحون أوفياء للعهود لا ينقضون ويفسخون المواثيق، ويصلون ما أمر الله تعالى بوصله من الأرحام وغيرهم، ويخشون الله عزّ وجل، ويخافون سوء حسابهم، ويصبرون على عبادة الله تعالى، وعلى ما ينزل بهم من الآفات والبلايا، وعن المعاصي طلب رضاء الله عزّ وجل، يضاف إلى ذلك محافظتهم على الصلاة وإيتاء الزكاة، ويدفعون السيئة بالحسنة، فلا يقابلون من أساء إليهم بالسيئة فهؤلاء لهم سعادة الآخرة، وأن الله تعالى سيتفضل عليهم ويُدخلهم دار نعيمه ويزيدهم تفضلاً منه إلحاق مَن كان مؤمناً من آبائهم وأبنائهم وأزواجهم بهم إكراماً لهم وزيادة في سرورهم وقرّة أعينهم. فيا لها من كرامة، ويا له من فرح وسرور أكرمنا الله تعالى بذلك بفضله، آمين.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ (٢٩)﴾.

﴿طُوبَىٰ﴾ قيل: هي الجنة، وقيل: شجرة فيها، وقيل: فرح وقرة عين.

وقوله: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾: له مرجع حسن وهو الجنة.

وقال جلّ علاه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾.

أي: صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله تعالى بها عباده المتقين أنها تجري من تحت قصورها وغرفها الأنهار، ثمرها دائم لا ينقطع، وظلها كذلك لا تنسخه الشمس، لأنه لا شمس هنالك ولا قمر، فتلك الجنة هي عاقبةُ المتقين ومآلهم.

* * *

✻ ومن سورة إبراهيم

قال تعالى: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وأدخل الله المؤمنين الصالحين جناته التي تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها دائمين فيها بإذن الله تعالى تُحييهم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام.

✻ ✻ ✻

✻ ومن سورة الحِجْر

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

معناه: إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الغنّاء والعيون المتفجرة بالماء والسلسبيل والخمر واللبن والعسل، ويقال لهم: ادخلوا الجنة سالمين من كل الآفات، وأزال الله تعالى ما كان في قلوبهم من حقد وبغضاء وشحناء أخوة متحابين على سرر متقابلين وجهاً لوجه لا يصيبهم فيها إعياء ولا تعب ولا يُخرَجون منها ولا يُطرَدون، نعيمهم خالد وبقاؤهم دائم.

✻ ✻ ✻

✻ ومن سورة النحل

قال جل جلاله: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أخبر تعالى بأنه كان إذا سُئل المؤمنون ماذا أنزل الله؟ قالوا: أنزل خيراً؛ أنزل القرآن والهدى، ثم أخبر تعالى بأنه سيتفضل على المحسنين الأتقياء بجزائهم في الدنيا ثم في الدار الأخرى التي هي خير ولنعم الدار داراً للأتقياء لهم فيها بساتين يتمتعون فيها بما يشاؤون، ومثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين الذين تقبض الملائكة أرواحهم وهم طيبون قد تطهّروا من دنس الشرك والفواحش فتسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة، ويقولون لهم: ادخلوا الجنة فهنيئاً لكم بما قدّمتم في الدنيا من صالح الأعمال.

***

❋ ومن سورة سبحان

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى في بيان مزايا القرآن الكريم وأنه يهدي لأقوم طريق وأوضح السبل ولما هو أعدل وأصوب ويبشر المؤمنين الذين يعملون بمقتضاه بالأجر العظيم وهو جنات النعيم ولا أعظم منها جزاءً.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾، ثم قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

معناه: أن من أراد الآخرة وما فيها من النعيم المقيم وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات وهو مؤمن صادق الإيمان، فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص والعمل الصالح والإيمان كان عملهم مقبولاً

عند الله مثاباً عليه، وللآخرة أعظم درجات من دار الدنيا لأن في الجنة ما لا يوصف من النعيم مما هو خارج عن مستوى عقولنا.

* * *

✻ ومن سورة الكهف

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.

يخبر تعالى عن مقاصد هذا الكتاب العظيم وهو أنه أنزله الله على نبيه ﷺ ليخوف به الكافرين من عذاب شديد من عنده تعالى ويبشر المؤمنين الصالحين أن لهم الجنة وما فيها من النعيم الخالد دائمين فيه أبد الآبدين.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

هذا أول موضع ذكر الله تعالى فيه ما سيعطيه لأهل الجنة من أساور الذهب واللباس الأخضر من نوعَيْ الحرير السندس وهو الرقيق منه والإستبرق وهو غليظه، وأنهم سيكونون متكئين على الأرائك وهي الأسرّة المُكَلَّلة بالدر والياقوت المزيّنة بالثياب والستور وعليها الحجال.

ونعم هذا الجزاء، جزاء المتقين وحَسُنَتْ الجنة منزلاً ومقيلاً لهم.

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾.

معناه: إن الذين آمنوا وعملوا بما يرضيه من القربات، لهم أعلى

الدرجات في الجنة، وهي جنة الفردوس، فهي منزل ومستقر لهم ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحوُّلاً.

وهذا الموضع أيضاً، هو أول ما ذكر فيه الفردوس، وقد تقدم بيانه في قسم السنة.

* * *

❋ ومن سورة مريم

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾.

جاء الاستثناء من الخَلْفِ السيىء الذي جاء بعد المُنعَمِ عليهم، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا.

فمَن رجع إلى الله تعالى منهم وعمل عملاً صالحاً فأولئك سيحظون بدخول الجنة ولا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً، وهي جنات إقامة التي وعدهم بها ربهم فآمنوا بها غيبياً، إن وعده تعالى بذلك آت وحاصل لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام لكنهم يسمعون تسليم الملائكة عليهم، ولهم في الجنة ما يشتهون من أنواع المطاعم والمشارب بكرة وعشياً بدون كدٍّ ولا تنغُّص ولا انقطاع، هذه الجنة التي وُصفت هي التي نورثها لعبادنا المتقين.

وقال جلّ علاه: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾﴾.

معناه متعلق بما سبق، وهو: فلا تعجل في طلب هلاك الكفار فإنه لم يبقَ لهم في الدنيا إلا أيام وأنفاس نعدها لهم عداً، ثم يصيرون إلى عذاب شديد، وذلك سيكون يوم نحشر المتقين إلى ربهم مُعزَّزين مكرَّمين راكبين على النوق، كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم.

* * *

❋ ومن سورة طه

قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

يقول تعالى: ومَن يلقى الله مؤمناً موحداً وقد أتى بالمأمورات وترك المنهيات فأولئك المؤمنون العاملون الصالحون لهم المنازل الرفيعة عند الله وهي جنات إقامة ذات الدرجات العاليات والمساكن الطيبات تجري من تحت غرفها وسررها أنهار الجنة ماكثين فيها دوماً لا يخرجون منها وذلك ثواب مَن تطهّر من دنس الكفر والمعاصي.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

أي: من قدّم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان فلا يخاف يوم القيامة ظلماً بزيادة على سيئاته ولا بخساً ونقصاً لحسناته، بل سيجازيه الله الجزاء الأوفى والرضا الكامل.

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة الأنبياء

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين سبقت لهم السعادة منا هم عن النار مبعَدون لا يصلون حرها ولا يذوقون عذابها وهم في الجنة دائمون لهم، فيها ما تشتهيه أنفسهم لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث لأنهم في مأمن من ذلك وتستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة تهنئهم قائلين: هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور.

❊ ومن سورة الحج

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: إن الله يُدخل المؤمنين الصالحين دار نعيمه التي تجري الأنهار تحت أشجارها وغرفها.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

إن الله عزّ وجل سيتكرم على المؤمنين الصالحين بإدخالهم جنته التي تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها ويزينهم بأساور من الذهب واللؤلؤ ويُلبسهم فيها ملابس من حرير، وأرشدوا في الجنة إلى الكلام الطيب إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب، وهدوا إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين.

❊ ❊ ❊

❊ ومن سورة المؤمنون

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾.

ذكر تعالى هنا سبع صفات للمؤمنين ورثة الفردوس الخالدين فيها، وهي: خشوعهم في صلاتهم، وإعراضهم عن لغو الكلام إذا سمعوه أو

مرُوا عليه، وأداؤهم زكاة أموالهم، وحفظهم لفروجهم من الزنا واللواط والتكشف، ومراعاتهم للأمانات والعقود، ومحافظتهم على صلواتهم في أوقاتها بشروطها وأركانها.

فمَن اتصف بهذه الصفات كان من ورّاث الفردوس وعداً من الله، والله لا يُخلف الميعاد.

وقال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ۝٦١﴾.

إن الأتقياء السعداء أهل الجنة مع اتصافهم بالأخلاق الكريمة ومثابرتهم على الأعمال الصالحة لا يعجبون بأعمالهم ولا يرقى ذلك في نفوسهم ويأمنون من عذاب الله وغضبه، بل هم مع ذلك يخشون الله عزّ وجل ويشفقون من عذابه وتوجل قلوبهم أن لا يتقبل منهم ما عملوه، فهم مع طاعتهم وصلاحهم يسيئون الظن بأعمالهم خوفاً من عدم قبولها فهم يسابقون في الطاعات لينالوا أعلى الدرجات وهم الجديرون بها.

[٥١٧] وقد تقدم لنا حديث سيدتنا عائشة رضي الله تعالى عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون، وفي رواية: أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «**لا يا بنتَ الصِّدِّيق، ولكنهم الذين يصومون ويُصلُّون ويتصدّقون وهم يخافون أن لا تُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون**».

رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءةً وأمناً. وفي قوله ﷺ: «**يصومون، ويصلُّون، ويتصدّقون**» إشارة إلى أن هذه الطاعات من أفضل القربات وأجلّها وأعلاها.

***

❁ ومن سورة النُور

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

وهؤلاء أقوام آخرون من أهل الجنة والسعادة وهم عمّار بيوت الله والمساجد التي هي أشرف البقاع، فهم يسبّحون الله تعالى له فيها صباحاً ومساءً ولا يشغلهم عن ذكر الله تعالى وأداء الصلاة في أوقاتها بالمساجد وأداء الزكاة شيء من مشاغل الحياة لا تجارة ولا صناعة ولا غيرهما، لأنهم يخافون يوم الحساب ذلك اليوم الذي تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم، وسيجزيهم الله عزّ وجل بأحسن الجزاء وهو الجنة ويتفضل عليهم بالزيادة مما لا تسعه العقول ويعطي من يشاء من خلقه عطاءً واسعاً لا حدود له.

* * *

❁ ومن سورة الفرقان

قال جلّ ثناؤه: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

جاءت الآيتان بعد ذكر حال الأشقياء الكفرة.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول الله تعالى: يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجه عبوس وتغيُّظ وزفير ويلقون في أماكنها الضيقة مقرّنين لا يستطيعون حراكاً ولا فكاكاً مما هم فيه، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده.

كانت لهم ثواباً ومرجعاً، لهم فيها ما يريدون ويشتهون من النعيم ماكثين فيها أبداً سرمداً، وهذا الجزاء كان وعداً على الله، وهو حقيق بأن يُسأل ويُطلب.

وقال تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾.

لما بيّن تعالى حال الكفار وأنهم في خسران وخيبة، ذكر أهل الجنة بأنهم في غاية السرور والحبور، فهم خير من الكفار مستقراً ومأوى وأحسن منهم مكاناً للتمتع وقت القيلولة والاستراحة نصف النهار، فالمؤمنون في الفردوس والنعيم المقيم، والكفار الفجّار في دركات الجحيم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

جاءت هذه الآيات بأجمع ما جاء في حلية الصالحين المتقين السعداء سكان الجنان، فإنه عزّ وجل ذكر لهم ههنا أربع عشرة خصلة ما بين صفات ثبوتية وبين صفات سلبية وهي:

مشيهم مشية المتواضعين أهل السمت والمروءة، وعدم مقابلتهم الجاهل السفيه بسفاهته، وقيامهم بالليل للتهجد لله وتعالى، وسؤالهم الله

عزّ وجل صرف النار عنهم، ووسطيتهم في الإنفاق من غير تبذير ولا تقتير، وإفرادهم الله عزّ وجل بالعبودية وبعدهم عن الكفر والشرك به تعالى، وتنزههم عن إراقة دماء الأبرياء، وبُعدهم عن ارتكاب فاحشة الزنا، وتوبتهم ورجوعهم إلى الله تعالى عند تلوثهم بالذنوب والآثام، وحمايتهم أنفسهم عن شهادة الزور أياً كان هذا الزور، وإذا مروا باللغو والباطل مروا عليه مر الكرام لا يتدنسون بسماعه ولا برؤيته، وإذا ذكروا بآيات الله تعالى تذكروا ووجلوا وليسوا كعبدة الهوى يخرُون عليها صماً وعمياناً، وسؤالهم الله عزّ وجل الأزواج الصالحات والأولاد المهتدين لتقر بذلك أعينهم، وسؤالهم الله تعالى أن يكونوا أئمة للمتقين. فهذه صفات تتعلق بجميع تصرفاتهم وسلوكاتهم سواء مع الله تعالى أم مع أنفسهم أم مع عباد الله تعالى فهم في ذلك المثل الأعلى.

فهؤلاء سيجزون وينالون الدرجات العالية ويتلقون بالتحية والسلام من الملائكة الكرام، مقيمين في ذلك النعيم فلا موت ولا خروج فما أحسنها مقراً وما أطيبها منزلاً.

***

❋ ومن سورة القصص

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

يقول عزّ وجل: إن الدار الآخرة وهي الجنان ونعيمها نجعلها للمتقين المتواضعين الذين لا يريدون في هذه الحياة التكبُّر على عباد الله والطغيان في الأرض والفساد، فالعاقبة المحمودة إنما هي للذين يتقون الله ويخشونه ويتواضعون له تعالى ولعباده المؤمنين.

***

✲ ومن سورة العنكبوت

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ﴾.

معناه: من كان يعترف بالآخرة وعمل لها ورجا ثواب الله، فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله عزّ وجل حتى يلقى الله فيجازيه، فإن لقاء الله قريب، وكل ما هو آت قريب.

قال العلماء: إن هذه الآية هي أرجى آية للمحبين وتسلية لهم، وفيها وعدٌ لهم بالخير في دار النعيم.

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

أي: والذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لنمحُوَنَّ عنهم سيئاتهم التي سلفت منهم ولنجزينهم بأحسن أعمالهم الصالحة.

وفي الآية الكريمة ككثير من أخواتها دليل على أن المؤمن الصالح لا يخلو من سيئات سيكفرها الله تعالى عنه بفضله وبكرمه، والظاهر أن هذه السيئات هي من قبيل الصغائر وقد تكون كبائر.

وقال عزّ وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: إن الذين جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل لننزلنهم أعالي الجنة ومنازل وغرفاً رفيعة تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها ماكثين فيها أبداً ونعمت تلك المساكن العالية أجراً لهم، ثم ذكر لهم صفتين هامتين، وهما: أنهم الذين صبروا وتحمّلوا مشاق الحياة وطاعة الله ورسوله والأذى في سبيل الله وأنهم يعتمدون على الله في جميع شؤونهم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

معناه: أن هذه الحياة ما هي إلا غرور وخداع ولعب ينقضي سريعاً

كما يلعب الصبيان وأشباههم ثم يتفرقون، وأن الآخرة وجنانها لهي الدار الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص لو كان عند الناس علم بذلك لم يؤثروا دار الفناء على دار البقاء.

* * *

❋ ومن سورة الروم

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥﴾.

معناه: أن المؤمنين المتقين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح هم في رياض الجنة يُسرُّون ويُنعَّمون فضلاً من الله تعالى عليهم.

* * *

❋ ومن سورة لقمان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

أي: إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم على إيمانهم واستقامتهم جنات الخلد ينعَّمون فيها بأنواع الملاذ من المآكل والمشارب والملابس والنساء والحور العين وبسائر ما أكرمهم الله به مما هو خارج عن مستوى عقولنا، ومع ذا يبقون فيها لا يخرجون منها أبداً وهو وعد من الله حق لا محالة والله لا يُخلف وعده.

* * *

❋ ومن سورة السجدة

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا

رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

هذه من صفات أهل الجنة وهي أنهم يتنحون عن الفرش ويتباعدون عن مواضع النوم يدعون الله عزّ وجل في تهجدهم وصلاتهم بالليل والناس نيام خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته وثوابه، ومما منحهم الله تعالى من الأرزاق ينفقون في وجوه الخير والإحسان فهؤلاء لا يعلم أحد من الخلق مقدار ما سيعطيهم الله في الآخرة من النعيم مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر، فذلك النعيم لا يتصوره أحد.

* * *

ومن سورة الأحزاب

قال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾.

فهذه عشر صفات ذكرها الله عزّ وجل لحلية أهل الجنة وسكانها بذكورهم وإناثهم، فهم مع تصديقهم بالله وبرسوله وبما جاء به منقادون لأحكام الله طائعون له فيما أمر ونهى، مخلصون في إيمانهم وأعمالهم صابرون يحبسون أنفسهم على طاعة الله تعالى وعن ارتكاب الذنوب والآثام وعلى البلايا والمِحَن، فلا يتسخطون ولا يتضجرون مما نزل بهم، خاضعين للّه تعالى متذللين لجلاله وعظمته، منفقين أموالهم في أبواب الخير، مكثرين من الصيام حافظين لفروجهم من الفواحش، ذاكرين الله كثيراً في كل أحوالهم وشؤونهم.

فهؤلاء الجامعون لهذه الصفات سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً قد هيأ الله لهم الأجر العظيم وهو الجنة ومُتَعها ونعيمها مع محو ذنوبهم التي كانت سبقت لهم في الدنيا وماتوا عليها.

وقال جلّ علاه: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۝٤٤﴾.

إن الله عزّ وجل واسع الرحمة بالمؤمنين حيث يقبل القليل من أعمالهم ويعفو عن الكثير من ذنوبهم، وذلك لإخلاصهم في إيمانهم، فتحية هؤلاء عندما يلقون ربهم السلام والإكرام في الجنة، وقد هيأ لهم أجراً كريماً، والمراد بالأجر الكريم هو الجنة وما فيها من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر وملاذ بالحور العين وغير ذلك مما لا يخطر على بال.

***

❋ ومن سورة فاطر

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ۝٢٩ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٠﴾.

ومن أهل الجنة والسعادة: التالون كتاب الله الذين يقيمون الصلاة ويؤدون زكاة أموالهم في السر والعلن، فهؤلاء يأمُلون من الله تجارة رابحة في الآخرة لن تكسد ولن تهلك وسيجازيهم على ما قدّموا بأجور وافية ويزيدهم على ذلك النظر إلى وجه الكريم فضلاً منه ورحمة، إنه تعالى مبالغ في الغفران لأهل القرآن شاكراً لطاعتهم. وهذه الآية الكريمة أطلق عليها بعض السلف آية القراء. وحق لهم ذلك جعلنا الله تعالى منهم، آمين.

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾.

ذكر تعالى هنا بعض فضائل الأمة الخيرية التي اصطفاها على الأمم وأنه أورثهم هذا الكتاب العظيم إمام الكتب الإلهية وخاتمها وهو القرآن الكريم، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام: قسم يتلو القرآن ولا يعمل به فهو مقصر ظالم لنفسه، وقسم مقتصد متوسط في فعل الخيرات ويعمل بالقرآن في أغلب أحواله وقد يقصر في بعض الفترات، وقسم سبّاق في العمل قد أحرز قصب السبق في فعل الطاعات وترك المنهيات.

قال المفسرون: إن هذه الأصناف في الأمة المحمدية، فالظالم لنفسه العاصي، والسابق التقي، والمقتصد بينهما، وجميعهم يدخلون الجنة، فذلك الإرث والاصطفاء لهم هو الفضل العظيم من الله تعالى.

ثم أخبر تعالى ما أعدّ الله لهم جميعاً فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا...﴾ إلخ، أي: جنات إقامة ينعمون فيها بأنواع النعيم يزينون فيها بأساور من ذهب مرصّعة باللؤلؤ وجميع ما يلبسونه من الحرير وسيقولون عندما يدخلون الجنة: إن ربنا واسع المغفرة للمذنبين شكور لطاعة المطيعين، الذي أنزلنا الجنة وجعلها مقراً وسكناً لنا لا نتحول عنها أبداً لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة كما لا يصيبنا فيها إعياء ولا فتور.

* * *

❋ ومن سورة يٓس

قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

تحدّث الله تعالى هنا على حبيب النجار الذي آمن بالرسل وأشهر إيمانه ونصح قومه فقتلوه فأدخله الله الجنة لشهادته، فتمنى أن يعرف قومه بماذا غفر الله له وجعله من المكرمين المنعمين الآن في الجنة.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ

﴿وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

إن أهل الجنة في يوم الجزاء سيكونون مشغولين بما هم فيه من اللذات والنعيم يتفكهون ويتلذذون بالحور العين وبالأكل والشرب وسماع الأغاني والأوتار.

قال ابن عباس: ﴿فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ شغلوا بافتضاض الأبكار وسماع الأوتار، هم وزوجاتهم في ظلال الجنان الوارفة حيث لا شمس ولا زمهرير، متكئون على الأسرّة المزيّنة بالثياب والستور، لهم فيها ما يشتهون من الفواكه، ولهم فيها ما يطلبون، ولهم سلام كريم من ربهم الرحيم.

* * *

ومن سورة الصافات

قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

الاستثناء جاء من كلام سابق في عذاب الكفار وهو استثناء منقطع، ومعناه: لكن عباد الله الموحدين الذين أخلصهم الله لنفسه لا يعذبون ولا يناقشون الحساب، بل لهم رزق معلوم في الجنة صباحاً ومساءً، وهو فواكه متنوعة من جميع ما يشتهون مع التعزيز والتكريم يكونون على أسِرَّة ينظر بعضهم إلى بعض يطوف عليهم خدم أهل الجنة وغلمان كأنهم لؤلؤ مكنون بكأس من خمر من نهر جار من عيون الجنة وتلك الخمر بيضاء ناصعة يلتذ بها من شربها ليس فيها ما يغتال العقول ولا هم يسكرون بها فهي منزَّهة عن صداع الرأس، ووجع البطن، وذهاب العقل، بل طعمها طيب كلونها.

وعندهم مع ذلك ألذُّ اللذائذ الجسدية، وهو التمتُّع بالحور العين

اللاتي قد قصرن أعينهن على النظر إلى أزواجهن، واسعات العيون مع الحُسن والجمال كأنهن في البياض والصفاء اللؤلؤ المكنون في أصدافه أو البيض الذي لا تبتذله الأيدي ولا العيون.

قال المفسرون: ذكر الله تعالى في هذه الآيات أموراً من نعيم أهل الجنة، أولاً: الرزق وهو ما تتلذذ به الأجسام، وثانياً: الإكرام وهو ما تتلذذ به النفوس، وثالثاً: المحل وهو الجنة، رابعاً: لذة التآنس والاجتماع، خامساً: الشراب الذي يُدار عليهم بالكؤوس، سادساً: ألذ اللذائذ الجسدية وأبلغها وهي التمتُّع والتآنس بالحور العين.

***

✽ ومن سورة ص

قال تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

معناه: إن لكل متّقٍ لَحُسْن مرجع وهو جنات إقامة في دار النعيم قد فتحت لهم أبوابها قبل مجيئهم إكراماً لهم متكئين فيها على السُرر الوثيرة يطلبون ألوان الفواكه وألوان الشراب وعندهم الحور العين اللواتي لا ينظرن إلى غير أزواجهن أتراب على سِنٍّ واحدة ويقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وُعِدتم به في الدنيا، إن هذا النعيم عطاؤنا لأهل الجنة لا زوال له ولا انقطاع فهو دائم أبد الآبدين.

***

✽ ومن سورة الزمر

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾.

معناه: إن الذين رجعوا إلى طاعة الله وعبادته وتباعدوا عن عبادة

الأوثان والطاغوت الذي هو الشيطان الحامل على عبادة غير الله، فلهؤلاء البشرى السارّة من الله عزّ وجل بالفوز العظيم وهو دخول الجنان والتمتع فيها بما تشتهيه نفوسهم.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لكن المؤمنون الأتقياء لهم في الجنة درجات عالية وقصور شاهقة بعضها فوق بعض تجري من تحت قصورها وأشجارها أنهار الجنة، هذا وعد من الله تعالى وعده عباده وهو لا يتخلف لأن الله لا يُخلف وعده.

وقال جلّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

يقول تعالى: إن الذين جاؤوا بالصدق وهم الأنبياء والذين صدقوا به وهم المؤمنون أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام، أولئك هم أهل التقوى والصلاح الذين يستحقون كل إحسان وإكرام، لهم كل ما يشتهون في الجنة من القصور والحور، ذلك الذي يناله هو ثواب كل محسن وهؤلاء الذين صدقوا الأنبياء سيغفر الله لهم ما قدّموا من سيئات فلا يعاقبهم عليها ويثيبهم على إيمانهم وطاعتهم بحساب الأحسن الذي عملوه فضلاً من الله عزّ وجل وكرماً.

وقال جلّ علاه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

يقول تعالى: سوف ينجي الله من النار وأهوال يوم القيامة المتقين بسبب فوزهم بمطلوبهم وهو الجنة دار الأبرار لا ينالهم هلع ولا جزع ولا يصيبهم خوف ولا حزن.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا

جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

يقول تعالى مبيِّناً حالة المتقين يوم القيامة: إنهم يساقون إلى الجنة جماعات جماعات حتى إذا وصلوها وقد فتحت أبوابها لهم قبل مجيئهم تكريماً لهم، وقال لهم حراسها: سلام عليكم أيها الأبرار قد طهرتم من دنس الشرك وقاذورات الفواحش فادخلوا الجنة ماكثين فيها، وقالوا عند دخولهم واستقرارهم فيها الحمد لله الذي حقق لنا ما وعدنا به وملكنا أرض الجنة نتصرف فيها تصرف المالك في مُلكه وننزل فيها حيث نشاء، فنعم أجر العاملين الجنة.

* * *

❁ ومن سورة غافر

قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

يقول عزّ وجل: مَن عمل في الدنيا عملاً صالحاً وهو مؤمن سواء كان ذكراً أم أنثى لأنهما متساويان في الديانة والشرائع، فأولئك يدخلون الجنة ويعطون فيها بغير تقدير.

* * *

❁ ومن سورة فصلت

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾.

يقول تعالى: إن المؤمنين الذين صدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة لهم الثواب والجزاء غير مقطوع وهو الجنة فهم فيها خالدون دائمون.

وقال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

بيّن تعالى في هاتين الآيتين حالة السعداء الأتقياء الأبرار عند موتهم فما بعده، فأخبر عزّ وجل أن من آمن به تعالى واعتقد ربوبيته واستقام على طاعته وثبت على ذلك حتى الموت، فإن الملائكة تتنزل عليهم عند الموت قائلين لهم: لا تخافوا مما تقدمون عليه من الأهوال ولا تحزنوا على ما خلفتم في الدنيا من أهل ومال، وأبشروا بجنة الخلد التي وعدكم الله تعالى بها على ألسنة رسله، فنحن أعوانكم وأنصاركم في الدنيا والآخرة ولكم في الجنة ما تشتهيه أنفسكم وتقر بها أعينكم من أنواع اللذائذ والشهوات ولكم فيها ما تطلبون ضيافة وكرامة من رب واسع المغفرة عظيم الرحمة لعباده المتقين.

* * *

✿ ومن سورة الشورى

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ﴾.

يقول تعالى: إن المؤمنين الصالحين كائنون يوم القيامة في روضات الجنات يتمتعون في أطيب بقاعها وفي أعلى منازلها لهم ما يريدون ويشتهون من لذائذ الأطعمة والأشربة والحور العين... فذلك الجزاء هو الفوز الأكبر ذلك الإكرام هو الذي يبشر الله به عباده المتقين ليتعجلوا السرور ويزدادوا شوقاً إلى لقائه.

* * *

❁ ومن سورة الزخرف

قال جلّ علاه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الأصدقاء والأحباب ينقلبون أعداء بعضهم لبعض إلا الأتقياء الذين تصاحبوا في الدنيا للّه عزّ وجل فيقول الله تعالى لهم: يا عبادي لا تخافون اليوم ولا تحزنون، ذلك لأنهم آمنوا بالله وبما جاءت به رسل الله واستسلموا لحكم الله وطاعته، ويقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم ونساؤكم المؤمنات تُنَعَّمون فيها وتُسَرُّون، يطاف عليهم بأوان من الذهب عليها طعامهم، وأقداح من ذهب كذلك فيها شرابهم، وفي الجنة لهم ما تشتهيه نفوسهم وتسر به الأعين وهم فيها دائمون ويقال لهم تكريماً لهم: وتلك الجنة هي التي أُعطيتموها إرثاً بسبب أعمالكم الصالحة لكم فيها من أنواع الفواكه والثمار الشيء الكثير منها تأكلون تفكهاً وتلذذاً.

❁ ❁ ❁

❁ ومن سورة الدخان

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين اتقوا الله في الدنيا، هم في الآخرة في موضع إقامة آمنين فيه من كل هول ومنغص، في حدائق مزهرة وعيون

جارية يلبسون من الحرير رقيقه وغليظه، كذلك أكرمهم الله وزوّجهم بحور عين نساء في غاية الحسن والجمال والطهارة، والحوراء: هي البيضاء، والعيناء: العظيمة العين، يطلبون فيها من الخدم والغلمان إحضار جميع أنواع الفواكه وهم فيها آمنون من التخم والأمراض والتعب والنصب.

* * *

❁ ومن سورة الجاثية

قال جلّ ثناؤه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

يقول تعالى: فأما المؤمنون الصالحون فيُدخلهم الله في رحمته وهي الجنة، وسميت رحمة، لأنها مكان تنزل رحمة الله تعالى ذلك الإكرام بإدخالهم دار رحمته هو الفوز المبين الظاهر الذي لا فوز وراءه.

* * *

❁ ومن سورة الأحقاف

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

يقول جلّ ثناؤه: إن الذين جمعوا بين الإيمان والاستقامة على طاعة الله وطاعة رسوله لا يلحقهم مكروه ولا هول يخافونه ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم في الدنيا، أولئك هم أهل الجنة المنعمون فيها خالدين ماكثين في رحابها أبد الآبدين، أُكرِموا بذلك جزاء ما عملوه في الدنيا وما قدّموه من إيمان واستقامة.

وقال جلّ علاه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى

ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

يتحدث هنا تعالى عن الولد البار، وأنه إذا بلغ نهاية قوة الشباب وهي أربعون سنة تاب إلى الله، وقال: ربِّ ألهمني شكر نعمتك التي أنعمتَ بها علي وعلى والدَيَّ حيث ربياني صغيراً، ووفقني لكي أعمل عملاً صالحاً يرضيك عني، واجعل ذريتي صالحة، إني يا رب تبت إليك من جميع الذنوب، وأنا متمسك بالإسلام.

أولئك الموصوفون بما ذكر سيتقبل الله منهم ما عملوا من طاعة ويجازيهم عليها أحسن الجزاء ويتجاوز ويعفو عما قدّموا من سيئات، فلا يؤاخذهم بها فضلاً منه وتكرماً ذلك وعد صدق وعده إياهم وهو تعالى لا يُخلف الميعاد.

* * *

❁ ومن سورة محمد ﷺ

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، تقدم مثلها مرات.

وقال جلّ علاه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

هذه صفة الجنة التي وعدها الله تعالى المتقين فيها أنهار جاريات من ماء عذب غير متغير، وأنهار من لبن حليب لم يتغير مذاقه، وأنهار من عسل لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل، وأنهار جاريات من خمر لذيذة وليست كخمر الدنيا، ولهم في الجنة أنواع متعددة من جميع أصناف الثمار والفواكه، ولهم فوق ذلك النعيم نعيم آخر روحي وهو المغفرة من الله مع الرحمة والرضوان.

❋ ومن سورة الفتح

قال جلّ علاه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

إن المؤمنين بذكورهم وإناثهم سيتفضل الله تعالى عليهم فيُدخلهم جناته التي تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار دائمين فيها، ويتفضل عليهم فيمحو لهم سيئاتهم ولا يؤاخذهم بها، وذلك هو الفوز والسعادة إذ ليس بعد تكفير الذنوب ونعيم الجنة مزيد.

وقال عزّ من قائل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾.

يقول عزّ وجل: إنه وعد المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ الذين سلف وصفهم، بالمغفرة التامة والأجر العظيم والرزق الكريم في جنات النعيم، وحق لهم ذلك فإنهم أفضل الناس وأشرف الخلق وأكرمهم على الله بعد الأنبياء، صلوات الله وسلامهم عليهم وعلى آلهم وأصحابهم وأتباعهم وعلينا معهم، آمين.

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة ق

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

يخبر تعالى بأنه سيُدني الجنة من المؤمنين المتقين مكاناً غير بعيد بحيث تكون بمرأى منهم مبالغة في إكرامهم، وهذا مما لا ندرك حقيقته فحسبنا الإيمان به ونكل أمره إلى الله عزّ وجل ويقال لهم: هذا الذي تشاهدونه من النعيم هو ما وعد الله به كل عبد رجّاع إلى الله تعالى خاف

الرحمٰن فأطاعه دون أن يراه وجاء بقلب تائب خاشع؛ ادخلوا الجنة بسلام لا عذاب تخافون ولا أهوال أو أكدار تخشون، ذلك هو يوم البقاء الذي لا فناء يعقبه، لهم في الجنة ما يريدون ويشتهون، وعند الله عزّ وجل مزيد على ذلك الإنعام والإكرام وهو النظر إلى وجهه المقدّس.

* * *

ومن سورة الذاريات

قال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن الذين اتقوا الشرك والفواحش وقاموا بواجبات الله تعالى هم في بساتين وعيون جارية راضين بما أعطاهم الله تعالى من الكرامة والنعيم، إنهم كانوا في الدنيا محسنين في أعمالهم، كانوا لا ينامون إلا قليلاً ويصلّون أكثر لياليهم، وكانوا في أواخر الليل يستغفرون الله تعالى من ذنوبهم وتقصيرهم، وكانت لهم في أموالهم صدقات يخرجونها للسائل المحتاج وللمتعفف الذي لا يسأل.

* * *

ومن سورة الطور

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

ذكر هنا للمتقين عدة عطايا منحهم إياها جزاء صلاحهم وطاعتهم له ولرسوله ﷺ، فهو تعالى بعد أن يُدخلهم جنته يجعلهم ينعمون ويتلذذون بفواكهها، وقد نجّاهم من عذاب جهنم وصرف عنهم أهوالها، ويقول لهم: تمتعوا أكلاً وشرباً هنيئاً لا تنغيص ولا كدر بسبب ما قدّمتم من صالح الأعمال، ويكونون جالسين على هيئة المضطجع على سرر من ذهب مصطفّة بعضها إلى بعض، ويجعل لهم صواحب وقرينات وزوجات حساناً من الحور العين وهنّ نساء بيض واسعات العيون مع شدة سوادها، وذلك نهاية جمال المرأة، ومن فضل الله تعالى عليهم أنه يلحق بهم ذرياتهم في درجاتهم وإن لم يبلغوا عملهم وذلك لتقر أعينهم ولا ينقص للآباء من ثواب أعمالهم شيئاً فيجمع الله عزّ وجل لأهل الجنة أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم بهم.

ويزيدهم الله عزّ وجل فوق ما لهم من النعيم فواكه ولحوماً من أنواع شتى، ويتعاطون في الجنة كؤوس الخمر يتجاذبونها فيما بينهم تجاذب ملاعبة وتلذذ لا يقع بينهم بشربها هذيان حتى يتكلموا بساقط الكلام ولا يلحقهم إثم في شربها، وسيكون لهم غلمان وخدم كأنهم في الجمال والبياض لؤلؤ مصون يطوفون عليهم بالخدمة، ثم سيقبل أهل الجنة بعضهم على بعض يتذاكرون أمور الدنيا وما كانوا عليه من الإشفاق والخوف فمنّ الله تعالى عليهم وحفظهم من عذاب جهنم وأنهم كانوا يدعونه ويتضرّعون إليه فاستجاب الله تعالى لهم وأعطاهم ما سألوا لأنه المُحسن المتفضل الرحيم بعباده.

* * *

ومن سورة النجم

قال جلّ علاه: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

معناه: إنه تعالى سيجازي المحسنين بالجنة جزاء إحسانهم وهؤلاء هم الذين يبتعدون عن كبائر الذنوب والفواحش العظام، كالقتل مثلاً والزنا واللواط والشرب والسرقة والمراباة، إلا ما قلّ وصغر من الذنوب التي لا يسلم منها أحد غالباً كالنظرة والغمزة والقبلة واللمس والخطرة وسماع الأغاني... فمَن اجتنب الكبائر تفضّل الله عليه فغفر له الصغائر وقد تُغفر بالأعمال الصالحة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ولذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

* * *

ومن سورة القمر

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

يقول عزّ وجل: إن أهل التقوى سيحظون بالجنان وما فيها من الأنهار في مكان مرضي، ومقام حسن عند رب عظيم جليل قادر في مُلكه وسلطانه يفعل ما يشاء.

* * *

ومن سورة الرحمٰن

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

هذه الآيات أطول ما جاء في صفات الجنان ونسائها ونعيمها وتخللت بآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ التي خاطب الله بها الإنس والجن في هذه السورة أكثر من ثلاثين مرة يقول فيها تعالى لهم: فبأي نِعَم الله وآلائه تكذبان أيها الإنس والجن، أوَليست نِعَم الله تعالى عليكم كثيرة؟

ولنتتبع ما ذكره الله عزّ وجل من المتَع والنعيم الذي ادخره الله للمؤمن الذي يخاف قيامه بين يدَي مولاه للحساب، وأن له جنتين آنيتهما وما فيهما من ذهب كما تقدم في الحديث. وقال: «**جنتان**» جنة لسكنه وجنة لأزواجه وخدمه، كما هي حال ملوك الدنيا يكون له قصر ولأزواجه قصر، ومن صفات هاتين الجنتين أنهما ذواتا أغصان متفرعة بثمار متنوعة وأن في كل جنة عينين تجريان، وفيهما من كل أنواع الفواكه والثمار صنفان، وهم متكئون على فُرش وثيرة بطائنها من ديباج وهو الحرير السميك، وثمرها قريب يناله القاعد والقائم والمضطجع، وفي تلك الجنتين نساء حسان جميلات غاية في ذلك قد قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يرين غيرهم كما هو حال المخدرات العفائف لم يمسهن ولم يجامعهن أحد قبل أزواجهن لا من الإنس ولا من الجن بل هن أبكار عذارى كأنهن في صفائهن وحمرتهن الياقوت والمرجان، وما جزاء إحسان الأعمال إلا أن يحسن إلى صاحبها في الآخرة.

وهنا انتهى الكلام على الجنتين الأوليَيْن.

ثم قال تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: من دون تلك الجنتين في الفضيلة والقدر جنتان أخريان.

قال المفسرون: الجنتان الأوليان للسابقين، والأخريان لأصحاب اليمين، ثم وصفهما بأنهما مدهامتان أي: سوداوان من شدة خضرة أشجارهما، وفيهما عينان فوارتان بالماء لا تنقطعان فيهما من كل أنواع الفواكه وأنواع النخل والرمان، وفيهن نساء كريمات الأخلاق حسان الوجوه والذوات وهن الحور العين المخدرات المستورات في خدورهن وقصورهن قد قصرن أعينهن على أزواجهن لم يقربهن قبل أحد لا بالمباشرة ولا بالجماع، وهم متكئون على وسائد خضر من وسائد الجنة، والرفرف: فرش مرتفعة أو ما يُطرح على ظهر الفراش للنوم عليه، وعبقري حسان أي: طنافس ثخينة محلاة بأنواع الصور والزينة. تبارك وتعالى وتقدّس ربنا الكريم صاحب العظمة والكبرياء.

* * *

❁ ومن سورة الواقعة

قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ (٤٠)﴾.

فهذه بضع وثلاثون آية جاءت في صفة المقربين وأصحاب اليمين وهي أيضاً من أجمع الآيات في صفات الجنة وأهلها ونعيمها.

افتتح الله عزّ وجل الآيات بتقسيم الناس يوم القيامة إلى أقسام ثلاثة: قسم من أهل النار، وقسمان من أهل الجنة، وهم المقرّبون وأهل اليمين، فالمقربون هم أهل السبق كالأنبياء ومن على أقدامهم من أكابر صالحي الأمم، وأهل اليمين هم سائر أهل الجنة على اختلاف درجاتهم، وقد فصّل تعالى هنا ما لكل قسم من الجزاء، فأخبر أن السابقين وهم جماعة من الأولين من الأمم القديمة أو من أول هذه الأمة، وقليل من الآخرين يعني من هذه الأمة أو من آخرها والكثير من أولها على خلاف في ذلك فهم في حدائق النعيم جالسين على أسِرَّة منسوجة بقضبان الذهب مرصّعة بالدر والياقوت، وجوه بعضهم إلى بعض يدور عليهم للخدمة غلمان مخلّدون في الجنة بأيديهم أقداح وأباريق وكأس من خمر لذة جارية من العيون لا تتصدع رؤوسهم من شربها ولا يسكرون فتذهب بعقولهم، ولهم فيها فواكه كثيرة يختارون منها ما تشتهيه نفوسهم ولحم طير مما يحبون ويشتهون، ولهم مع ذلك نساء من الحور العين في غاية الجمال والبهاء بيض واسعات العيون شديد سوادها وهي في البياض مثل اللؤلؤ المصون لا يسمعون في الجنة كلاماً فاحشاً ساقطاً ولا يلحقهم إثم وإنما يسمعون سلاماً سلاماً من بعضهم بعضاً أو من الملائكة فهذا جزاء المقربين السابقين.

أما أصحاب اليمين وهم باقي أهل الجنة فهم في تناول ثمار «سدر مخضود»، أي: مقطوع الشوك، قد جعل بدل شوكها ثمار كالقلال. و«طلح» أي: شجر الموز. «منضود» أي: متراكم نضد من أسفله إلى أعلاه، وهم في ظل دائم لا تنسخه شمس وماء جار دائماً لا ينقطع يجري في غير أخاديد، ولهم فواكه كثيرة متنوعة لا تنقطع في فصل دون غيره ولا تمنع من أحد حتى يؤدي ثمنها كما هي في حال الدنيا، ولهم فُرُش عالية وطيئة ناعمة، ولهم مع ذلك التمتع والتلذذ بالنساء الجميلات اللاتي ينشئهن الله إنشاءً وخلقاً جديداً عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً عرباً متحببات لأزواجهن أتراباً على سنٍّ واحدة في سن الثلاث والثلاثين وهو وسط الشباب، أولئك الحور جعلهن الله عزّ وجل لأهل اليمين من المؤمنين وهم جماعة من الأمم الماضية وجماعة من الأمة الأخيرة، وهي

الأمة المحمدية، وقد قدّمنا على أنها أكثر الأمم في الجنة تعادل ثلثَيْ أهل الجنة.

وقال تعالى في آخر السورة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾.

يعني: إذا كان الميت من المقربين السابقين فله عند الله استراحة ورزق حسن وجنة واسعة يتنعّم فيها.

* * *

ومن سورة الحديد

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

يخبر تعالى عن صحابة رسول الله ﷺ السابقين واللاحقين، فأخبر أنهم ليسوا في الفضل سواء فمَن آمن أولاً وقاتل وأنفق في سبيل الله هم أعظم درجة ومكانة عند الله ممن جاء بعد فتح مكة وأنفق كذلك وقاتل بإخلاص وصدق ولكن جميعهم وعدهم الله تعالى الجنة، وهذا نص في أن الصحابة الصادقين ممن آمنوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله كلهم في الجنة سواء كانوا سابقين أم لاحقين، جعلنا الله تعالى معهم وأماتنا على محبتهم.

وقال جلّ علاه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

يقول جلّ علاه: مَن ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله فيكون له كالقرض والسلف للّه عزّ وجل يعطيه الله أجره وجزاءه أضعافاً مضاعفة، وله مع المضاعفة أجر كريم وهو الجنة ونعيمها، ثم ذكر تعالى مشهد المؤمنين عند العبور على الصراط وأنهم ستكون الأنوار بين أيديهم وبأيمانهم، ويقال لهم: أبشروا اليوم بجنات الخلد التي تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها فهذا هو الفوز والسعادة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

يخبر تعالى أيضاً عن فضل الصدقة في سبيل الله، وأن الله عزّ وجل سيجازي فاعل ذلك بأضعافه، ولهم ثواب جزيل حسن، وهو الجنة ولا أجلّ وأفضل منها.

ثم أخبر عزّ وجل بأن من آمن بالله عزّ وجل وبرسله إيماناً صادقاً راسخاً كاملاً هم الذين جمعوا أعلى المراتب فحازوا درجة الصديقية والشهادة في سبيل الله، ولهم ثوابهم الجزيل والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وفي هذه الآية بشرى عظيمة للمؤمنين ويا لها من بشارة.

* * *

ومن سورة المجادلة

قال جلّ علاه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

ذكر سبحانه في هذه الآية الكريمة موضوع البراءة من الكفرة والمنافقين والفجرة، وأنه لا يمكن أن يوجد مؤمن صادق يؤمن بالله وباليوم الآخر ثم يحب ويوالي من عادى الله ورسوله وخالف أمرهما لأن من أحبّ الله عزّ وجل لا بد وأن يعادي أعداءه، وذلك من أصول الإيمان سواء كانوا أقارب أم عشائر أم أصحاباً، فمَن عاداهم وأبغضهم وتبرأ منهم كان قد مكن الله الإيمان في قلبه وأثبته فيه، وكان مؤيداً منه تعالى وسيدخل كل من

فعل ذلك وتحقق به الحدائق والجنان تجري من تحت قصورها الأنهار ماكثين فيها أبداً، قد رضي الله تعالى عنهم وشكر أعمالهم ورضوا عنه بما منحهم من نعيم، أولئك هم أهل الله وأولياؤه المخلصون الصادقون المفلحون.

* * *

✻ ومن سورة الحشر

قال جلّ ثناؤه: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

معناه: لا يتساوى الأشقياء والسعداء، أصحاب الجنة هم الظافرون بالسعادة الأبدية في دار النعيم، وذلك هو الفوز العظيم.

* * *

✻ ومن سورة الصف

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

يبين عزّ وجل لعباده المؤمنين التجارة الرابحة التي تحفظهم من عذاب النار المؤلم، وهي أن يؤمنوا بالله ورسوله إيماناً صادقاً ويقاتلون أعداء الإسلام ويقدمون في سبيل ذلك الأموال والأنفس، فذلك خير، وأي خير لو كانوا يعلمون ما سيحظون به جزاء ذلك، وأنه تعالى سيكفر لهم سيئاتهم ويمتعهم بدخول الجنة الذي هو السعادة والفوز الذي ما بعده فوز.

* * *

✵ ومن سورة التغابن

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

يقول عزّ وجل: إن من صدق به وعمل بمقتضى شرعه حطّ عنه ما سلف من سيئاته وأدخله جنته خالداً فيها، وذلك هو الفوز والسعادة التي لا أعظم منها.

* * *

✵ ومن سورة الطلاق

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

أي: من يؤمن بالله إيماناً صادقاً وضمّ إلى ذلك الإتيان بالأعمال الصالحة المطلوبة منه أدخله الله جنته مع الأولين بلا عذاب ماكثاً فيها أبداً وقد طيّب الله له رزقه فيها ووسعه له.

* * *

✵ ومن سورة التحريم

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

في الآية الكريمة أمر من الله عزّ وجل لعباده بالرجوع إليه والتوبة النصوح الصادقة الخالصة، لعله تعالى يرحمهم، فيمحو عنهم خطاياهم ويُدخلهم جناته النضرة، وذلك يوم لا يفضح الله فيه النبي وأتباعه من

المؤمنين عندما تكون الأنوار تسطع بين أيديهم وبأيمانهم ويدعون فيقولون: يا ربنا أكمِل علينا هذا النور، وامحُ عنا ما فرط من ذنوبنا، فإنك أنت القادر على كل شيء.

قال العلماء: التوبة النصوح هي الجامعة لشروط ثلاثة وهي: أن يُقلع عن الذنب، وأن يندم على ما فعل، وأن ينوي عدم العودة إلى الذنب، فإن كان حق لآدمي زيد شرط رابع، وهو رد المظالم لأصحابها والاستحلال منهم، فإن لم يمكن أكثر من الصدقة والإهداء لهم.

* * *

ومن سورة الحاقة

قال جلّ من قائل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

ذكر تعالى هنا السعداء الأبرار وأنهم سيأخذون كتبهم بأيمانهم، وأن الواحد منهم إذا أخذ كتابه اغتبط وفرح ونادى في الناس: تعالوا فاقرؤوا كتابي فقد تناولته بيميني، وقد كنت في الدنيا متيقناً من لقائي الحساب، ولذلك أعددت العدة لهذا اليوم، فهو في عيشة هنيئة مرضية صحة بلا مرض، ونعيماً بلا بؤس، وحياة بلا موت، وشباباً بلا هرم، ثمارها قريبة، ويقال له ولأمثاله: كلوا واشربوا ما شئتم واشتهيتم بسبب ما قدّمتم في الدنيا من الإيمان والعمل الصالح.

* * *

ومن سورة المعارج

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم

مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ذكر تعالى هنا تسع صفات لأهل الجنة المكرمين فيها بأنواع المتَع والنعيم وهي: مداومتهم على صلواتهم، وأداء ما عليهم من حق للسائل والمحروم، والإيمان بيوم الجزاء، وإشفاقهم من عذاب ربهم غير معتقدين أمنهم من ذلك، وحفظهم لفروجهم من الزنا واللواط والسحاق والتكشُّف، وأنهم حافظون لأماناتهم وعهودهم قائمون بأداء شهاداتهم محافظون على صلواتهم في أوقاتها بشروطها وأركانها، فهؤلاء هم المكرمون في الجنان من قِبَل مولاهم، ويا لها من سعادة.

***

❁ ومن سورة المدثر

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

يخبر تعالى بأن كل نفس ستكون يوم القيامة محبوسة بعملها مرهونة عند الله بما اكتسبت، ولا تفك حتى تؤدي ما عليها من الحقوق والعقوبات، إلا فريق السعداء المؤمنين فإنهم فكوا رقابهم وخلّصوها من السجن والعذاب بالإيمان وطاعة الله ورسله وسيحظون بالجنان والاستقرار فيها، فينادون أهل النار تبكيتاً لهم وزيادة في إيلامهم وإدخال الحزن عليهم: ما الذي أداكم إلى سكنى سقر وعذابها؟ فيجيبونهم: لم نكن نصلي ولا نزكي وكنا نتحدث بالباطل، وكنا نكذب بيوم الجزاء حتى جاءنا الموت.

***

❋ ومن سورة القيامة

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾.

أي: ستكون وجوه أهل الجنة عليها الإشراق والبهجة وجمال البشرة ناظرة إلى الله عزّ وجل، والآية الكريمة نص في رؤية الله في الجنة، وهي أظهر ما استدل به أهل السنة على الرؤية، علماً بأن لذلك أدلة كثيرة استوعبها الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى في «حادي الأرواح إلى دار الأفراح».

❋ ❋ ❋

❋ ومن سورة الإنسان

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢﴾.

في هذه الآيات بيان لبعض صفات أهل الجنة، ككونهم يوفون بما ألزموا به أنفسهم، وأنهم كانوا يطعمون المساكين واليتامى والأسارى لوجه الله لا يريدون من ذلك مجازاة ولا شكراً من أحد، وأنهم يخافون من الله عزّ وجل ذلك اليوم الرهيب العصيب، ولذلك حفظهم الله من أهواله

وشروره وأعطاهم نضرة في الوجوه وسروراً في القلوب، وجازاهم بسبب صبرهم على طاعة ربهم حدائق وملابس من حرير مضطجعين على سرر الحرير المزينة باللؤلؤ والمرجان لا يشاهدون في جنتهم حر شمس ولا برداً، ظلالها قريبة منهم وثمارها مذلّلة لهم يأخذونها كيف شاؤوا قائمين وقاعدين ومضطجعين، ويطاف عليهم بأواني وصحاف تارة من فضة ومرة من ذهب كما تقدم في قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾، وأكواب وأقداح رقيقة شفافة كالزجاج في صفته وهي من فضة قدرها السقاة تقديراً حسب حاجتهم، ويسقى هؤلاء الأبرار كأساً من الخمر ممزوجة بالزنجبيل يشربون ذلك من عين في الجنة تسمى السلسبيل، وأحياناً تعطى لهم ممزوجة بالكافور يتدفق من عين جارية من عيون الجنة يجرُّونها حيث شاؤوا من الدور والقصور ويدور عليهم غلمان ينشئهم الله لخدمة المؤمنين دائمون على ما هم عليه من الشباب والنضارة والحسن، إذا نظرت إليهم منتشرين في الجنة ظننتهم لؤلؤاً منثوراً لبياضهم وصفائهم، وإذا رأيت هنالك في الجنة من مظاهر الأنس والسرور رأيت نعيماً لا يكاد يوصف ومُلكاً واسعاً لا غاية له، تعلوهم الثياب الفاخرة الخضراء المزيّنة بأنواع الزينة من الحرير الرقيق وهو السندس، والغليظ وهو الإستبرق، وأُلبسوا في الجنة أساور فضية وذهبية ولؤلؤية كما في آيات أُخر، وسقاهم الله تعالى فوق ذلك النعيم شراباً طهوراً ويقال لهم بعد ذلك: هذا أعطي لكم مقابل أعمالكم الصالحة وكان عملكم مقبولاً مرضياً.

* * *

ومن سورة المرسلات

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

إن الذين آمنوا وأطاعوا الله ورسوله حتى الموت، لهم يوم القيامة في الجنان ظلال الأشجار الوارفة والعيون الجارية فواكه كثيرة متنوعة مما

يستلذون ويستطيبون، ويقال لهم على سبيل التكريم: كلوا أكلاً لذيذاً واشربوا شرباً هنيئاً بسبب ما قدّمتم من إيمان وعمل صالح، إنا نجزي بهذا من أحسن عمله وأخلص نيته واتقى ربه.

* * *

ومن سورة النبأ

قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِنْ رَبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

يقول تعالى: إن لأهل التقوى موضع ظفر وفوز وهو الجنة، وذلكم هو حدائق وبساتين ناضرة فيها من جميع الأشجار والأزهار وكروم الأعناب الحلوة الطيبة ونساء وفتيات عذارى على سنٍّ واحدة شواب قد برزت أثداؤهن.

فالكواعب: جمع كاعب، وهي الجارية التي خرج ثديها، ولهم فيها كأس من الخمر ممتلئة صافية لا يسمعون في الجنة كلاماً فارغاً لا فائدة فيه ولا كذباً من القول، جازاهم الله تعالى بذلك تفضلاً منه وإحساناً كافياً على حسب أعمالهم.

* * *

ومن سورة النازعات

قال جلّ ثناؤه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

يقول عزّ وجل: وأما من خشي عظمة ربه وجلاله وخاف مقامه بين يدَي ربه يوم الحساب وزجر نفسه عن المعاصي وكبار الفواحش وكفّها عن الشهوات المحرّمة، فإن منزله ومصيره هي الجنة دار النعيم ليس له منزل سواها.

❁ ومن سورة عبس

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾.

بعد أن بيّن سبحانه وتعالى حال القيامة وأهوالها، بيّن بعدها حال الناس وأنهم منقسمون إلى سعداء وأشقياء، فقال في السعداء: إن وجوههم في ذلك ستكون مضيئة مشرقة من البهجة والسرور فرحة ضاحكة مستبشرة بما رأته من النعيم الخالد.

❁ ❁ ❁

❁ ومن سورة الانفطار

قال جلّ ثناؤه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

يقول: إن المؤمنين الذين اتقوا ربهم فآمنوا به وبما جاءت به رسل الله وأطاعوه وكانوا أبراراً، لفي بهجة وسرور لا يوصف، يتنعمون في رياض الجنة بما لا يتصور ولا يتخيل.

❁ ❁ ❁

❁ ومن سورة المطففين

قال جلّ شأنه: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ذكر هنا تعالى الأبرار وما سيحظون به بأسلوب آخر وبأشياء لم تتقدم قبل في سورة، وهو أن الله عزّ وجل جعل لهم كتاباً مسطّراً مكتوبة فيه

أعمالهم في مكان مرتفع في أعلى درجات الجنة، يشهده المقربون من الملائكة وهم في الجنان الوارفة والظلال الممتدة يتنعمون متكئين على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور، ينظرون إلى ما أعدّ الله لهم من الكرامة، إذا رأيتهم تعرف أنهم أهل نعمة لما علا وجوههم من البياض والنضارة والبهجة والرونقة والسرور، ويسقون من خمر في الجنة بيضاء طيبة صافية قد ختم على أوانيها فلا يفكها إلا الأبرار، وآخر الشراب تفوح منه رائحة المسك، وفي هذا النعيم العظيم فليحرص عليه الناس وليستبقوا في طلبه ويكون ذلك الشراب الخالص ممزوجاً ومخلوطاً من عين عالية رفيعة هي أشرف شراب أهل الجنة تسمى التسنيم، يشرب منها المقربون، فهي عين في الجنة يشرب منها المقربون صرفاً وتمزج لسائر أهل الجنة، فيا له من نعيم.

* * *

❀ ومن سورة الانشقاق

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾.

يقول تعالى: إن من أعطي كتاب أعماله بيمينه وهي علامة السعادة فسوف يكون حسابه يسيراً سهلاً يجازى على حسناته ويتجاوز عن سيئاته أو لا يُحاسب بالمرة كما هي صفات السابقين، ويرجع إلى أهله وزوجاته مبتهجاً فرحاً بما أعطاه الله من الفضل والكرامة.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

بعد أن ذكر فريق أهل الشقاء وصفاتهم وأنهم مبشَّرون بالعذاب الأليم، استثنى تعالى المؤمنين الصالحين وأخبر أن لهم أجراً غير مقطوع وهو الجنة ونعيمها.

* * *

✻ ومن سورة البروج

قال جلّ علاه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

بعد أن ذكر تعالى أعداء الله الذين عذّبوا المؤمنين وحرقوهم وفتنوهم وأخبر بمآلهم، وأن لهم عذاب جهنم وحريقها، أخبر بأن المؤمنين الصالحين لهم الحدائق والجنان الوارفة تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها، وذلك هو الظفر الكبير الذي لا فوز بعده.

✻ ✻ ✻

✻ ومن سورة الغاشية

قال جلّ ثناؤه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

يقول تعالى: وجوه المؤمنين يوم القيامة ستكون في الجنة ذات بهجة وحُسن وإشراق ونضارة لعملها الذي عملته، راضية مطمئنة في حدائق وبساتين مرتفعة مكاناً وقدراً لا تسمع في الجنة شتماً أو فحشاً ولا باطلاً، فيها عيون تجري بالماء السلسبيل لا تنقطع أبداً، وفيها لهم سرر وأرائك مرتفعة مكللة بالزبرجد والياقوت، عليها الحور العين الحسان الجميلات الفاتنات، وفيها عندهم أقداح على حافات العيون معدّة لشرابهم، ووسائد قد صُفّ بعضها إلى بعض ليستندوا عليها، وفيها طنافس وفرش فاخرة مبسوطة في أنحاء الجنة.

✻ ✻ ✻

✻ ومن سورة الفجر

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

قال المفسرون: إن المؤمن الصالح إذا حضره الموت أتته ملائكة الرحمة فتقول لنفسه: يا أيتها النفس الطاهرة الزكية المطمئنة بوعد الله تعالى ارجعي إلى ربك ورضوانه وجنته راضية بما أعطاك الله من النِعَم مرضية عنده بما قدمت من الأعمال الصالحة والإيمان الصادق، فادخلي الآن في زمرة عبادي الصالحين، وادخلي جنتي دار الأبرار والمقرّبين الأخيار.

* * *

ومن سورة البلد

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾.

بعد أن ذكّر تعالى الكافر الجحود، ببعض نِعَمِه العظيمة على الإنسان وهي جعله له العينين ليبصر بهما، واللسان والشفتين ليتسنى له الكلام، والأكل والنفخ وما في ذلك من الجمال وحُسن الصورة، ثم بيّن له طريق الخير والشر والهدى والضلال ليسلك طريق السعادة ويتجنب طريق الشقاوة، بعد هذه التذكرة الرابعة ندبه إلى اقتحام العقبة وهي فك الرقاب المملوكة وإطعام اليتامى الأقارب، والمساكين في أيام المجاعة، ثم كان من المؤمنين الذين يتواصون بالصبر والرحمة، فهؤلاء هم أصحاب اليمين الذين سيأخذون كتبهم بإيمانهم ويحظون بدخول دار النعيم.

* * *

ومن سورة التين

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾.

يقول عزّ وجل: لقد خلقنا جنس الإنسان في أحسن شكل وأجمل صورة مع تناسب الأعضاء وانتصاب القامة مزيناً بالعلم والعقل والفهم والتمييز والنطق والأدب واستخدام الكون، ثم أنزلنا درجته إلى أسفل سافلين، أي: دركات النار، لعدم قيامه بموجب ما خلقناه لأجله، إلا المؤمنين المتقين الذين ضموا الأعمال الصالحة إلى إيمانهم، فهؤلاء لهم ثواب وجزاء دائم غير مقطوع وهو الجنة دار الأبرار الأخيار.

* * *

❋ ومن سورة البينة

قال عزّ وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾.

بعد ذكر الكفار من اليهود والنصارى والوثنيين وأخبر عنهم بأنهم شر المخلوقات وأن مآلهم هو جهنم دائمين فيها أبداً. أعقب ذلك بذكر المؤمنين الصالحين الذين آمنوا بالله وآمنوا بجميع رسل الله وما جاؤوا به ولم يفرقوا بين أحد منهم واتبعوا هداهم وساروا على نهجهم، فذكر عنهم أنهم خير البرية وأشرف ما خلق الله وأكرمهم عليه عزّ وجل، وأن جزاءهم عنده تعالى هو جنات إقامة وحدائق دائمة تجري الأنهار سارحة تحت قصورها وأشجارها قد رضي الله تعالى عنهم بما قدّموا في الدنيا من الإيمان وطاعته تعالى ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات، ذلك الجزاء والثواب الحسن لمن خاف الله واتقاه.

* * *

❋ ومن سورة القارعة

قال جلّ علاه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧﴾.

إذا قامت القيامة جاء الهَوْل، وكان الناس من شدة الخوف والفزع

كأنهم فراش متفرق يموج بعضهم في بعض، ففي ذلك اليوم الرهيب سيكون من رجحت حسناته على سيئاته ولو بحسنة واحدة، أو ثقلت موازينه، بحيث لم تكن له سيئات. أقول: مَن كان كذلك فهو في عيش هنيء سعيد في جنان الخلد والفردوس ورضوان من الله.

وبهذا تمّ الكلام على ما في القرآن الكريم من الكلام على الجنة وأهلها.

في هذه الكتب: قيام الساعة، والبعث، والجنة والنار، من الأحاديث الصحيحة الزائدة على الصحيحين نحو من مائة وبضعة وستين حديثاً.

وبه تمّ الكتاب والحمد للّه أولاً وآخراً. الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا ومولانا وشفيعنا محمد، وعلى آله وزوجه وصحبه وأتباعه. كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون. وسبحان الله وبحمده. سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم اغفر لنا ما قدّمنا وما أخّرنا وما أسررنا وما أعلنا وما أنت أعلم به منا، واغفر لوالدينا ولمشايخنا ولأحبتنا ولكل من له حق علينا، واغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم.

واغفر اللهم لمن نظر في هذا الكتاب تصحيحاً وتصويباً، وأصلح زوجه وذريته، واجعل عقباهم رضوانك والجنة. آمين.

وكان الفراغ منه ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من المحرم الحرام عام ١٤٢٨هـ، وكانت البداية فيه عام ١٤١٤هـ، بمنزلي بحي مرشان، طريق القرية، طنجة ـ المغرب.

فالحمد للّه على توفيقه وإنعامه وإحسانه.





فهرس الجزء الثاني عشر

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

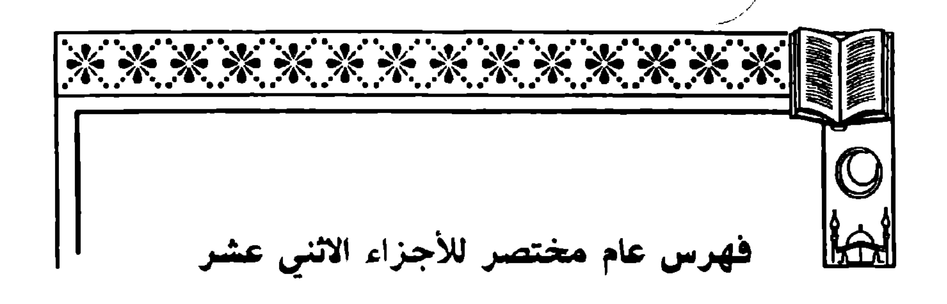
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة





فهرس عام مختصر للأجزاء الاثني عشر

الجزء الأول

الجزء الثاني

الجزء الثالث والرابع

الجزء الخامس

الجزء السادس

الجزء السابع

الجزء الثامن

الجزء التاسع والعاشر

الجزء الحادي عشر

الجزء الثاني عشر

